

تفسير في الآيات

من خلال آيات القرآن الكريم

تأليف

د. حسن بن صالح الحميد

أستاذ مساعد قسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

رسالة دكتوراه بإشراف

فضيلة الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر

دار الفضيحة
السعودية

دار الهدى النبوي
مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث لكلية
التربية بجامعة الملك سعود وحصل على درجة
الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى عام
١٤١٤ بإشراف الدكتور ناصر العمر .

تَسْتَعِينُ بِاللَّهِ فِي الْأَمْرِ الْأَكْبَرِ

مِنْ خَلَالِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب. ٥١١٤٢

تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع

دار الهدى النبوي للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - المنصورة

تليفون: ٢٣٣٣١٧٥ / ٠٥٠ - جوال: ٠١٢ / ٧١٤٥٦٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإنَّ الله - تبارك وتعالى - أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وأرسل رسوله محمداً ﷺ؛ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

فلم يبقَ في دين الله وشرعه بعد بيان الله ورسوله قصور أو خلل فيحتاج إلى إكمال وإصلاح، وإنما يحتاج الخلق إلى فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على أحسن الوجوه، وما جاءت الظنون الفاسدة والآراء والجهالات في دين الله؛ إلا بسبب الجهل أو سوء القصد أو التقصير في البحث عن الحق، أو القصور في الأفهام.

وقد تضمنَ كتاب الله - تعالى - وسُنَّة رسوله ﷺ بيان كل ما يحتاج إليه الإنسان، فرداً أو جماعةً وأمةً، في شؤون دينه ودنياه وأمر معاشه ومعاده.

ودلٌّ - سبحانه - عباده إليه بأنواع الأدلة العقلية والنقلية، وتعرَّف إليهم بآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة.

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالأرض أرضه، والسماء سماؤه، والمُلْكُ ملكه، والخلق خلقه، والأمر أمره، هو الواحد القهار، وما سواه عبيد مقهورون بعزته، خاضعون لسلطانه وقدرته.

وأمرهم بعبادته وطاعته، وحذرهم من معصيته ومخالفة أمره. ولم يَكِلْ ذلك إلى اجتهادهم، بل بيّن لهم شرائع دينه أكمل بيان وأتمّه.

ولهذا جاء في القرآن الكريم من آيات الله الكونية والشرعية، ما يكفي ويشفي.

ومن أعظم ما تعرّف به - سبحانه - إلى عباده، ما جرّت به حكمته من تسيير أمور هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه، على نظام غاية في الإحكام والانتظام، والثبات والاطراد، على أساس من العدل التام والعلم المحيط والقدرة النافذة.

وخصّ جنس الإنسان بنظام يلائم طبيعته ووظيفته، وبيّنه في كتابه أعظم بيان، وفصله أحسن تفصيل، وأمره بالسّير في الأرض والنظر والاعتبار في أحوال السابقين، حتى يعلم علم اليقين أن الأمر جيد لا هزل فيه، وحكمة لا عبث ولا فوضى. فالثواب غير العقاب، والمطيعون غير العصاة، والحقّ غير الباطل، ولكل أسباب موجبة، ومعالم مميزة. ولكل أجزاء وحساب، كل ذلك بثبات لا يتغيّر، واطراد لا يتخلف.

والأمّة - أمة - لا تستقيم حالها، إلا إذا فهمت هذا النظام الإلهي وهذه السنن، وانسجمت حياتها وتكيّفت مع هذا النظام وهذه السنن. ومتى أعرضت عنها وخالفتها، جهلاً أو تهاوناً أو عناداً واستكباراً، فإنها - حتماً - ستواجه مصير أمثالها، وتُلاقى جزاءها في الدنيا، دون تحلّف أو محاباة.

فهل كانت هذه المعاني الضخمة في أهميتها، الظاهرة لشدة عناية القرآن بها. هل

كانت هذه المعاني محلّ عناية المسلمين - عبر القرون - بصورة كافية؟

أمّا في صدر الإسلام وقرونها المفضلة، فلا شك في وضوحها ميدانياً على الأرض، ولهذا لم يكن الداعي إلى درسها والتعمّق في بحثها قائماً ولا ملِحاً.

وأما بعد ذلك، فإن الأمر يحتاج إلى تأمل وبحث، وربما كان السبب في عدم العناية بها مع قيام الداعي إليها؛ ربّما كان السبب في ذلك، أن الإسلام كان ما يزال يمد رواقه

على العالم ، وله من الهَيْبَةِ والسُّلْطَانِ ما يجعل التعمُّق في دراسة تفاصيل الأحكام العملية مقدماً في نظر عامة العلماء على التوفر لدراسة موضوع نظري مثل موضوع السنن . فإنَّ قوَّةَ الدولة واتساع المُلْكِ ، يُعشي العيون - عادة - عن بحث أسباب الضَّعْفِ وعوامل الانحلال .

وسواء كانت تلك هي الأسباب أو غيرها ، فإنَّ دراسة سنن الله في الأمم ؛ منفردة أو حتى في سياقاتها ومواضعها ، لم تُلَقَّ من العناية والدرس ما يتناسب وأهميتها في حياة الأمة ، وإن كان هناك بدايات مشجعة في العقود المتأخرة من القرن العشرين^(١) .

ولهذا ، لم تزل الأمة في تخلفٍ ، حتى وصلت في قرونها الأخيرة إلى حدِّ الانتكاس والغنائية ، وحتى وقَرَ في خلد أكثر المسلمين اليوم أن الإسلام لا يملك مقومات النهوض ، ولا يستطيع بناء دولة معاصرة ، ويفتقر إلى تصور لتفسير التاريخ وأسباب الرُّقيِّ وعوامل الانحطاط . ومنهم من يزيد ، فيزعم أن الإسلام ذاته كان سبب تخلفنا وضعفنا! وحتى ظنَّ كثير من المثقفين - فضلاً عن عامة النَّاسِ - أن علم الاجتماع وتفسير حركة التاريخ من مبتكرات الغربيين والملاحدة ، فهم أسسوه ، وهم طوَّروه^(٢) .

ومنهم من يعد دراسة ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، بداية علم الاجتماع ، ولم يظن لأصل ذلك في كتاب الله تعالى .

إلى غير ذلك من المغالطات والأوهام التي تشكل منها (الوهن الحضاري)^(٣) .

ولقد كان في مقدمة تلك الأسباب - والله أعلم: التُّخْلُفُ في دراسة جانب السنن على ضوء كتاب الله تعالى ، والتقصير في بيان ما في القرآن والسُّنة من ذلك .

وهذا كله أورث تخبطاً في تصوّر وفهم مشكلات الأمة الإسلامية اليوم ، وفي معرفة أسبابها ، وبالتالي في وصف الحلول المناسبة لها ، وكيفية تحقيقها .

وبعد: فإنَّ من أهم الأسباب التي كانت وراء اختياري لهذا الموضوع ، الأسباب التالية:

أولاً: أن القرآن الكريم قد اشتمل على منهج شامل وتصوير كامل لموضوع السنن التي تحكم حياة الأمم وتسير شؤونها ، في الجانبين النظري والتطبيقي .

(١) سيأتي لهذه النقطة مزيد تفصيل في المبحث الرابع من مباحث التمهيد ، إن شاء الله تعالى .

(٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، للأستاذ/ محمد قطب ، ص ٦ وما بعدها .

(٣) انظر: دراسة في لبناء الحضاري ، د. محمود محمد سفر (مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة) ، ص ٨ .

ثانياً: ومع ذلك، نجد ندرة الدراسات السليمة في منطلقاتها، المستوعبة في طرحها لهذا الجانب الحيوي، ذي الأهمية البالغة في حياة الأمة المسلمة خاصة، وفي حياة البشرية عامة.

ثالثاً: ومن الأسباب الهامة - في نظري - أن الحاجة ما تزال قائمة، بل ماسة - في ظل الأوضاع المتردية للأمة الإسلامية، وفي ظل تبشير العودة إلى الله وإلى دينه من جماهير الأمة - أن يكون في متناول يدها دراسات مؤصلة تساعدها في وضع قدمها على الطريق الصحيح؛ لبداية أكثر نضجاً ورشاداً، وأقل سلبية وأخطاء.

إن استيعاب سنن الله في الأمم، واستحضارها في بداية الطريق، يمكن أن يسهم في تقليل الأخطاء في مستقبل المجتمع الفأق لهذه السنن.

ذلك أن وعي هذه السنن في ذاكرة الأمة يعني الاستفادة من تجارب البشرية، في مجالات النجاح، واستخلاصها في دورات الإخفاق، فما إن تظهر مقدمات أمر ما، حتى يعلم من واقع رصيد التجربة أن عواقبه - إن استمر - كذا وكذا، بموجب قانون وسنة لا تتخلف. وقد يما قيل: «العاقل من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه».

رابعاً: أمل أن تكون هذه الدراسة، إسهاماً في طرح فهم شرعي لعلاج كثير من الأخطاء والأوهام التصورية والعملية التي تعاني منها الأمة الإسلامية في ظل الهزيمة النفسية والتكسات المتلاحقة، والقضاء ما أمكن على هاجس اليأس من إمكانية صلاح أحوال الأمة من جهة، أو التفاؤل الذي لا رصيد له من جهة أخرى.

فمن ذلك:

إماطة اللثام عن مبلغ الجفوة والإعراض والصدود الذي يلقاه كتاب الله تعالى منّا نحن المسلمين، وأتينا لم نعد مرتبطين بهذا الكتاب، ولا معولين عليه في حل مشاكلنا؛ جهلاً منا بطبيعة مشاكلنا، وجهلاً منا بما يشتمل عليه هذا القرآن من حلول ناجعة لها.

ومن الأوهام الكبيرة المسيطرة: ما يظنه كثير من المسلمين اليوم، أن ما نحن فيه من شقوة ودلّ وتبعية، أن ذلك ليس بسبب منا، أو أن أسبابه غامضة، أو أنه يمكن الخروج مما نحن فيه بالنوايا الحسنة أو ردود الفعل المؤقتة. ولم يعلموا أنها سنن انعقدت أسبابها فوقعت، وهيهات أن تُرفع إلا بأسبابها.

ومن هذه الأوهام: ما يظنه كثير من المسلمين اليوم، من أن تُعَلَّب الأمم الكافرة وتمكَّنها من أسباب القوة المادية؛ أن ذلك بسبب نبذها للدين، وأن المسلمين لن يكونوا شيئاً مذكوراً إلا إذا تشبَّهوا بهم ووافقوهم فيما هم فيه، ونبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً!

ونسوا أن الكفر لم يكن يوماً من الدهر سبباً من أسباب النصر والتمكين والرفي المدني، أفيكون اليوم؟ كما نسوا أنهم كانوا سادة بالدين قروناً متطاولة، كما كان من قبلهم. أفيغير الله سنته من أجل هؤلاء؟!

إلى آخر ما هنالك من أخطاء في التصورات والمفاهيم، والتي ينتج عنها أخطاء مضاعفة في الميدان التطبيقي، خاصة في مجال الدعوة والإصلاح، فمن يائس قاعد، ومن متعجل متهور. وكلا زين بمعزل عن الصواب.

وأعظم دواء لمثل هذه الأوهام، وعلاج لمثل هذه الأخطاء: ربط الأسباب بمسبباتها، والتدرب على اتهام النفوس، وعدم تبرير الأخطاء، وإطراح العواطف، وإتيان البيوت من أبوابها.

خامساً: كما أن بحث وتتبع سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم ودراستها دراسة موضوعية، إسهامٌ في تجلية آية من آيات إعجاز هذا القرآن وعظمته. وهو - وإن لم يكن بحاجة إلى ذلك؛ لأن دلائل عظمته وبراهين صدقه أكثر من أن تُحصَى - فإننا نحن الذين بحاجة إلى أن نعيد إلى أنفسنا الثقة بعظمته وصلاحية توجيهاته لكل زمن وأمة. ومتى تمَّ لنا ذلك، فإنه سيصبح لآياته وتعاليمه مذاق خاص، وسنكتشف من أسرارها ما لم يكن يخطر لنا على بال.

سادساً: ولا ريب في أن من تعرَّف إلى سنن الله في الكون عموماً، وفي حياة الأمم خصوصاً، فإنه سيظهر له من جدية الحياة وانضباطها، وخلوها من المصادفة والعبث، وما لله في هذه الخليفة من الحكَم الباهرة؛ ما يزيد في إيمانه بالله، وبما له من نعوت الجلال والكمال، كما أنه سيزداد يقيناً بالبعث الآخر وما سيكون فيه من الحساب والثواب والعقاب، ولو لم يكن إلا هذه وحدها، لكفى بها مزعجاً إلى الانقطاع لمثل هذه الدراسة الشريفة، وقطع سحابة العمر في تحصيلها.

أمَّا خطة البحث في هذه الدراسة: فقد جعلتها في تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

تضمن التمهيد أربعة مباحث ، هي أشبه بمقدمات ضرورية ، كالآتي:

المبحث الأول: التعريف بعنوان الدراسة وشرح مدلوله مفرداً ومركباً .

المبحث الثاني: أهم الفروق بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الحياة الإنسانية .

المبحث الثالث: أهم الفروق بين سنن الله في الأمم وسننه في الأفراد .

المبحث الرابع: تبيان أهمية مثل هذه الدراسة ، والجهود التي بذلت في هذا السبيل في

القديم والحديث .

الباب الأول: خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن الكريم في عرضها . ويشتمل

على فصلين:

الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم ، كالثبات ، والإطراد ، والعموم ،

والشمول .

الفصل الثاني: منهج القرآن في عرض السنن . ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: منهج القرآن في عرض السنن في باب الأسلوب والصياغة .

المبحث الثاني: تفرّد القرآن بطريقة خاصة في عرض السنن ، وما يحشد لها من

المؤثرات الحسيّة والمعنوية .

الباب الثاني: مجالات سنن الله في الأمم . ويحتوي على تمهيد وخمسة فصول:

أبينُّ في التمهيد شمول السنن لكل مجالات الحياة ، وأنَّ الله قد أقام الحجّة على

خلقه قبل أن يجعل هذه السنن تعمل فيهم .

الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية . وفيه أتناول بالتفصيل بعض السنن ، مثل:

سنّة المدافعة عموماً ، والمدافعة بين الحق والباطل بوجه خاص ، وسنّة الله في النصر

والهزيمة ، وسنّة الله تعالى في التمكين والاستخلاف في الأرض ، وعوامل البقاء .

الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص . وأذكر فيه صور الابتلاء التي تقع عادة على

الأمم . وأفصّل القول في بعض السنن المتعلقة بهذا المجال ، مثل: ابتلاء الأمم بالسراء

والضراء ، وموقفها من ذلك ، وابتلاء المؤمنين بسبب إيمانهم ، وسنّة الله في إمهال الأمم

والإملاء لهم .

الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد . وأشرح فيه ما هو متقرر من أن من سُنَّه الله في الأمم ، أنه ينوِّع لهم في أساليب التحذير ، ويعظهم بالأمم قبلهم ، ومن حولهم ، ويلوِّح لهم بالعقوبات العاجلة إن هم خالفوا أمره ، ولجؤا في طغيانهم .

الفصل الرابع: مجال الجزاء . أتحدِّثُ فيه عن ضروب الجزاء ، وأنه يجمعها ضربان:

الضرب الأول: جزاء المطيعين المؤمنين ، وهو إثابتهم بأنواع الثواب .

والضرب الثاني: جزاء المخالفين والكافرين ، وذلك بإنزال أنواع العقوبات بهم .

وأنَّ هذا العقاب على نوعين: عقاب بما دون الاستئصال ، وعقاب بالاستئصال والإهلاك .

وبمناسبة الحديث عن الجزاء الإلهي ، فإني سأفصِّلُ القول في: وجه الجمع بين السنن (القانون الإلهي) وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية .

الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة . وهو فصل طريف أتحدِّث فيه عن منهج القرآن في الكشف عن طبائع النفوس ، والإبانة عن المواقف والتصرفات ، وأنها منسجمة وتلك الطبائع .

الباب الثالث: آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها . وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثار رعاية السنن . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الآثار الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة الإسلامية في القرون الأولى .

المبحث الثاني: الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة .

الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السنن . وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الواقع المؤسف للأمة الإسلامية في العصر الحاضر .

المبحث الثاني: الجوانب المظلمة من الحياة الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية) .

الباب الرابع: طريق الخلاص . وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فقه السنن الإلهية ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: فقه الأزمة .

المطلب الثاني: فقه الخروج من الأزمة .

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقاتها .

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار [المحافظة على مكاسب] .

خاتمة الدراسة وملخص النتائج .

وقد اكتفيت في هذا الكتاب بعمل فهرس للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها عند عمل الكتاب . وكذا فهرس لموضوعات ومباحث الدراسة

وبعد: فإن أهم ما يميّز به بحث «سنن الله في الأمم»، السعة، والعمق . وفيه من التداخل في الدلالات ما يحتاج معه إلى أناةٍ وطول تأملٍ .

ولكي أتمكّن من الموازنة بين السعة والعمق اللذين يتسم بهما هذا الموضوع، أذكر القارئ الكريم بالأمور المنهجية التالية:

أولاً: سوف ألتزم بدلالات النصوص القرآنية على السنن، فلا أتكلّم عن سنن لم يرَد لها ذكْرٌ أو إشارة بيّنة فيها .

ثانياً: وسأعنى بإبراز أمهات السنن، وهي التي عني القرآن بإبرازها أكثر من غيرها، ولا أزعم أنني سأتي على ذكر كل السنن التي جاء لها ذكرٌ أو إشارة في القرآن، فإن هذا ما لا يحيط به بحث محدود .

ولم أفرد للسنن باباً أو فصلاً أسردها فيه، وإلّما أعرّضُ للسنة حيث يكون السياق مناسباً لذلك .

ثالثاً: السبيل فيما توافرت الآيات الدالة عليه مما يتعلّق بسنةٍ واحدةٍ أن أنظر في الأدلّة، فما كان منها بمعنى واحد ذكرتُ بعضها، وقد أُحيل على ما لم أذكره منها، وما كان منها يضيف معنىً جديداً ذكرته بحسب الحاجة واقتضاء المقام، ولا ألتزم بذكر كل النصوص الواردة في كل مسألة أعرّض لها^(١) .

رابعاً: تعدد مظاهر الجزاء على السنة الواحدة لا يعني تعدد السنة نفسها، بل إن تنوع مظاهر السنة الواحدة لا يعني تعددها^(٢) .

(١) ومن أمثلة ذلك: مصارع المكذبين، وأخبار الأنبياء مع أممهم، فإن حصر الآيات في ذلك تطويل لا محجج إليه .
(٢) فالتكذيب - مثلاً - سنةٌ في أقوام الأنبياء، وأخذ المكذبين سنةً أخرى، لكن لا يعني اختلاف صور التكذيب في الأولى، واختلاف صور الأخذ في الثانية أيها سننٌ متعددة .

خامساً: قد يتكرر الاستشهاد ببعض الآيات في مواضع متعددة؛ وذلك لتعدد دلالة الآية، وكونها صالحة للاستشهاد في الموضوعين أو الموضوع، وهذا كثير.

سادساً: حرصتُ على الاستنباط والتعامل مع دلالة النصوص، واعتمدت تفسير بعضها لبعض، ولم أستكثر من نقل كلام المفسرين إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك، ولم أذهب - فيما أعلم - مذهباً اعتمدت فيه على قول مفسر، لا يسعفه سياق الآية.

سابعاً: التزمتُ في الأحاديث التي استشهدتُ بها في الدراسة ألا أذكر - ابتداءً - إلا ما كان صالحاً للاحتجاج به.

وما كان منها في الصحيحين أو أحدهما، فأئني أكتفي - غالباً - بعزوه إليهما؛ لأن الأمة تلقت أحاديثهما بالقبول.

وأما الأحاديث التي في غير الصحيحين، فأئني أعزوها إلى مصادرها، ولا ألزم الحصر، وأنقل كلام أهل الاختصاص من المتقدمين أو المتأخرين في الحكم عليها.

أما ما سوى الأحاديث من الأخبار وحوادث السيرة، فقد أذكر منها ما فيه ضعف؛ لصحة معناه، ولأنه لا يُبنى عليه حكم، مع أنني أنبه إلى ضعفه، بنقل كلام أهل الشأن في ذلك.

أما حوادث صدر الإسلام وغيرها من حوادث التاريخ، فأئني أكتفي بعزوها إلى المصادر التي نُقلت منها.

ثامناً: ترجمتُ للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب، ممن وقفتُ له على ترجمة، إلا المشاهير؛ كالخلفاء الراشدين ومشاهير الصحابة، وكالأئمة الأربعة، وشيخ الإسلام ابن تيمية... وأمثالهم، فإن استفاضة أخبارهم، تغني عن الترجمة لهم.

تاسعاً: اقتصرْتُ على ما تدعو الحاجة إليه من الفهارس.

فاكتفيت بفهرس للمصادر والمراجع، التي اعتمدتُ عليها في هذه الدراسة.

وفهرس بموضوعات ومباحث الكتاب. ولم أر حاجةً تدعو لفهرسة الآيات الشعرية، والأماكن، ونحوها؛ خشية الإطالة في الكتاب.

هذه بعض تنبيهات وأمور منهجية، أحببتُ أن يكون قارئ هذا الكتاب على بينة منها. وما لم أذكر ذهولاً أو قصوراً كثير، والخلل من طبيعة عمل البشر، ولكن:

إن تجد عيباً فسد الخلالا جل من لا عيب فيه وعلما

ويطيب لي - وقد أوشكتُ على ختام هذه المقدمة - أن أشكر - بعد شكر الله وحده - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ممثلة بكلية أصول الدين بالرياض ، وعلى رأسها عميد الكلية ووكيلاه ، وأشكر قسم القرآن وعلومه رئيساً ووكيلاً وأعضاء ، على إتاحة هذه الفرصة العلمية لمواصلة البحث والدراسة في مرحلة الدكتوراه ، وعلى تعاونهم الكبير في تذليل صعوبات كان يمكن أن تقف حجر عثرة في وجهي ، فلهم جميعاً مني خالص الشكر وجميل العرفان ، وأسأل الله لهم التوفيق والتسديد .

وأختص شبيخي الأستاذ الدكتور/ ناصر بن سليمان العمر ، بخالص الشكر وبالغ التقدير ، على تفضله بالموافقة على الإشراف على هذه الدراسة ، ولقد كان في تلمظته في توجيهي ، وأدبه الجلم في تنبيهي إلى مواطن القصور وتصويب الأخطاء ، ومنهجيته وإنصافه في مواطن الاختلاف ، ومواضع الاجتهاد . لقد كان في ذلك كله مثلاً يُحْتَدَى ، وأعترف أنه كان لذلك كله أعظم الأثر في نفسي ، وعلى سيرتي في هذه الدراسة . جعل الله ذلك كله في ميزان حسناته ، وأمد في عمره على زيادة في العلم النافع والعمل الصالح .

كما أشكر وأدعو لكل من قدّم لي خدمة وأسدَى إليّ معروفاً ، قل أو كثر ، وهم كثيرون ، أدعو لهم بظهر الغيب ، فجزاهم الله عني خيراً ، وبارك لهم في أعمارهم وأعمالهم .

وختاماً ، أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبِعونه وتوفيقه تقضى الحاجات . وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

حسن بن صالح الحميد

التمهيد

ويشتمل على أربعة مباحث ؛ هي:

المبحث الأول: التعريف بالعنوان وشرح مدلوله .

المبحث الثاني: الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الكون المادي .

المبحث الثالث: الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم .

المبحث الرابع: أهمية معرفة السنن ودراستها .

وهذه المباحث مقدمات توضيحية لا بد منها؛ كي يسهل فهم القضايا التي يتمّ طرحها في أبواب وفصول هذا الكتاب، ويسلس التعامل مع بعض المصطلحات، بما يغني عن إعادتها في كل مناسبة، اللهمّ إلا مجرد التذكير بها .

وأمرٌ مهمٌّ أردت بهذه المقدمات أن تسهم في إيضاحه، وهو: محاولة تقريب القضايا والمسائل التي تدخل في موضوع هذه الدراسة، والتمييز بينها وبين غيرها .

وأرجو أن تكون هذه المباحث - على وِجَازتها - موفية بجمل المقصود، آتية على جملة

الغرض .

المبحث الأول

التعريف بالعنوان وشرح مدلوله

إنَّ عنوان هذه الدراسة: «سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم»، دراسة موضوعية. وهذا العنوان مركَّب إضافي، جزءاً كَلِمَتَا: «سنن»، و«الأمم». وميدانه: كتاب الله تبارك وتعالى «القرآن».

وسأقفُ بك على تعريف موجزٍ بجزئي العنوان، كلا على حدة، ثم أشرحُ مدلوله بعد التركيب.

* التعريف بجزئي العنوان:

أولاً: سنن^(١):

السنن: جمع سُنَّة - بضم السين - والأصل فيها: الطريقة والسيرة، محمودة كانت أو غير ذلك. وتُطْلَقُ السُّنَّةُ في اللُّغَةِ ويُرادُ بها عدة معانٍ: فُتْطَلَقُ مراداً بها مطلقُ الطريق والطريقة، وهذا أشهر معانيها.

وعلى خصوص الطريقة والسيرة المحمودة أو المذمومة على التعيين. جاء في صحيح مسلم: «من سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً... ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً...»^(٢) الحديث. يريدُ: من عملها، فكان فيها إماماً يُقْتَدَى به.

وقالَ لبيد^(٣):

مِنْ مَعْشَرِ سُنَّتِ هُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

(١) حُدِّثَتْ (أل) من (السُّنن) في العنوان، للإضافة، وأصل المعنى هكذا: السنن التي جعلها الله لضبط شئون الأمم وانتظام حياتهم وأحوالهم. أو نحواً من ذلك.

(٢) جزء من حديث جرير بن عبد الله البجلي في خبر القوم الذين جاءوا رسول الله ﷺ من مضر. انظر: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، ح رقم (١٠١٧).

(٣) هو ابن ربيعة، أبو عقيل، العامري، أحد الشعراء المشهورين. أدرك الإسلام، وتعدُّ من الصحابة. توفي سنة (٤١هـ). والبيت من معلقته المشهورة، ومطلعها:

بمى تأبذ غولها فرجامها

عفت الديار محلها فمقامها

انظر: شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ١١٥، والأعلام، للزركلي (٥/٢٤٠).

وقال سليمان ابن قتة^(١):

وإن الألفي بالطف من آل هاشم
تأسوا فستوا للكرام التآسيا
فكل من ابتداً أمراً تبعه فيه غيره ، فقد سنَّ سنَّة .
قال نصيب^(٢):

كأني سننتُ الحب أول عاشقي
من الناس إذ أحببتُ من بينهم وحدي
وسنن الطريق: نهجه .

وئطلقُ على السيرة ، حسنةً كانت أو قبيحة .

قال خالد بن زيد الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي^(٣):

فلا تجزعنَّ من سنَّة أنت سرتها
فأول راض سنَّة من يسيرها
وقد ئطلقُ مراداً بها الأمة ، والسنن: الأمم .
قال القرطبي^(٤) عن المفضل ، وأنشد^(٥):

ما عين الناس من فضل كفضلهم
ولا رأوا مثلهم في سالف السنن

(١) المدوي ، البصري ، المقرئ ، من فحول الشعراء ، عرض ختمة على ابن عباس ، وسمع من معاوية وعمرو بن العاص ، وقرأ عليه عاصم الجحدري . وثقه ابن معين ، وقتة: هي أمه . والطف: موضع قرب الكوفة ، سمي طفاً ، لأنه طرف البر مما يلي الفرات ، وهو إشارة إلى موضع معروف بكريلاء ، هو الذي قتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنهما . انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٦) ، وتفسير ابن جرير (٤/١٠٠) بالحاشية .

(٢) هو: نصيب بن زبيح ، أبو محجن ، مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر فحل ، كان يعد مع جرير وكثير عزة ، وكان عبداً أسود . توفي سنة (١٠٨هـ) أو بعدها . انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٦) ، والأعلام للزركلي (٨/٣١) ، والبيت أنشده صاحب اللسان ، انظر: اللسان ، مادة (سنن) .

(٣) انظر: اللسان ، مادة (سنن) ، وتفسير التحرير والتنوير (٤/٩٦) ، وخالد بن زيد: أحد شعراء هذيل . والبيت المذكور من قصيدة له يهجو بها أبا ذؤيب في مناقضة بينهما ، وبعد هذا البيت قوله:

لأن التي فينا زعمت ومثلها
لفيك ولكي أراك تجورها

وأبو ذؤيب: هو خويلد بن خالد الهذلي ، شاعر فحل نخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، ومات بمصر أو بإفريقية ، مرجعه من الغزو في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأشهر شعره عييته التي رثى بها بنه الخمسة ، وقد ماتوا بالطاعون أو بالسم في عام واحد ، ومطلعها:

أمن المسون وريبه تزوجع
والدهر ليس بمحب من مجزع

انظر: الأعلام (٢/٣٢٥) ، وشعر الهذليين ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، الأنصاري ، القرطبي ، المفسر ، كان عالماً عارفاً وعبداً زاهداً ، شديد المحافظة على أوقاته ، طارحاً للتكلف ، له مصنفات كثيرة ، أشهرها: تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) . وكانت وفاته (٦٧١هـ) . انظر ترجمته في: نفع الطيب (٢/٢١٠) ، وطبقات المفسرين ، للدوادري (٢/٦٩) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢١٦) . والمفضل ، هو: المفضل بن محمد الضبي ، صاحب المفضليات ، راوية علامة بالشعر والأدب ، من أهل الكوفة . توفي سنة (١٦٨هـ) . انظر: تاريخ بغداد (١٣/١٢١) ، والأعلام (٧/٢٨٠) .

وُطِّلَقُ على الوجه؛ لصقالته وملاسته، ووجه مسنون: مخروط أسيل، وحديد مسنون: مصقول.

وعلى الشيء المصبوب، ماءً أو تراباً.

يُقَالُ: سنَّ الماء على وجهه؛ أي صبَّه عليه صبباً سهلاً.

وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه عند مسلم: «فإذا دفنتموني فستوا عليّ التراب ستاً»^(١).

وُطِّلَقُ ويُرادُ بها أيضاً: الطبيعة، وبه فسَّر بعضهم قول الأعشى^(٢):

كريمًا شمائله من بني معاوية الأكرمين السنن

وعلى غيرها من المعاني^(٣).

والسُّنَّة في الاصطلاح: قد تطلق مراداً بها ما يُرادُ بـ «الحديث» بالمعنى الاصطلاحى^(٤)، فتكون مرادفه^(٥)، وقد يراد بالسُّنَّة الأعمال دون الأقوال، «فإذا كان الحديث عاماً يشمل قول النبي ﷺ وفعله، فالسُّنَّة خاصة بأعمال النبي ﷺ.

وفي ضوء هذا التباين بين المفهومين، ندرك قول المحدثين أحياناً: ... إمامٌ في الحديث، وإمامٌ في السُّنَّة، وإمامٌ فيهما معاً^(٦).

وقد تُطْلَقُ بالمعنى الشرعي الأعم، فُيرادُ بها: عموم «التمسك بهدي النبي ﷺ، وأتباع طريقته، وهي بهذا المعنى ضد البدعة»^(٧). و«لذلك قيل: فلان من أهل السُّنَّة، معناه: من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة»^(٨)، وهي طريقته ﷺ وهديه.

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٦/٢).

(٢) اللسان، مادة (سنن). والأعشى، هو: ميمون بن قيس، أبو بصير، لُقِّبَ بالأعشى، لضعف بصره، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وصاحب إحدى المعلقات السبع المشهورة، أدرك الإسلام ولم يسلم، وكانت ولادته بمنفوحة قُرب الرياض، وبها وفاته سنة (٧هـ). انظر: معجم الشعراء، للمرزباني، ص ٤٠١، والأعلام (٣٤١/٧).

والبيت من قصيدة يمدح بها قيس بن معدى كرب الكندي، ومطلعها:

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا غناء معن

انظر: ديوان الأعشى الكبير، ص ٦٩.

(٣) انظر: اللسان، مادة (سنن)، وبصائر ذوي التمييز (٣٦٧/٣).

(٤) وهو ما صحَّ عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

(٥) ...

(٦) انظر: علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح (١٠/٥).

(٧) السنن: الإلهية في الحياة الإنسانية، رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة (٦/١) بتصرف.

(٨) اللسان، مادة (سنن).

أمَّا سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ: طريقة حكمته الجارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها، كما قَدَّرَهَا وَأَجْرَاهَا. وهي عادته - تعالى - بمقتضى حكمته^(١).

ثانياً: الأمم:

الأمم: جمعة أمة، أصلها من الأم، وهو القصد. وأم كل شيء: أصله وعماده. وأصل الأمة: الصنف والجماعة من الناس أو الحيوان.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر أشهر المعاني اللغوية لكلمة «أمة»، وهي خمسة:

أحدها: الجماعة من الناس، وهو الاستعمال الغالب؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

الثاني: الملة والشريعة والطريقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

الثالث: الحين والمدة من الزمان، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْكَ أُمَّةٌ مَّعْدُودَةٌ﴾ [هود: ٨]. وفي يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وليس في القرآن غيرهما.

الرابع: بمعنى الإمام والرباني، والرجل المقتدى به، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الخامس: بمعنى الصنف. قاله ابن قتيبة^(٢)، وجعل منه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي: أصناف^(٣).

(١) انظر: مفردات الراغب، سنن، وجامع الرسائل، لابن تيمية (١/٥٤)، وتفسير ابن كثير (٣/٥٣)، وتفسير السعدي (٢٤٩/٦).

(٢) الدينوري، عبد الله بن مسلم، أبو محمد. من أئمة الأدب، مصنف مكثر، له عناية ببيان معاني القرآن والحديث، سكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فُسِّبَ إليها. توفي ببغداد سنة (٢٧٦هـ). انظر: المعبر (١/٣٩٧)، وبغية الرواة (٢/٦٣).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن.

والمعنى المقصود بكلمة «الأمم» في العنوان: الجماعات والأقوام الذين أرسل الله إليهم رُسُلَهُ، وهم «الأمم السابقة التي ذكرها القرآن وقصَّ من أخبارها»^(١)، والأمم اللاحقة بها ممن جاء ويحيء بعد نزول القرآن الكريم .

وعلى هذا، تكون «أل» في «الأمم»: هي العهدية الذهبية^(٢).

هذا هو معنى جُزئي العنوان مفردين .

وبالنظر إلى معنى العنوان ومدلوله بعد التركيب، أقول: إنَّ المقصود من هذا العنوان، هو محاولة التعرف على الطرائق الإلهية الجارية وفق حكمته وعدله مع الأسباب المقتضية لمسيباتها، التي تحكم تصرفات البشر - من أهل طاعة الله وأهل معصيته - وتقتضي نتائجها، بصورة جماعية، من خلال القرآن الكريم، حسب الإمكان .

وبعبارة أخرى: دراسة القوانين الإلهية التي تحكم تصرفات الأمم ونتائجها، في

القرآن الكريم .

وقد اختلفت عبارات أهل العلم من المفسرين وغيرهم، ممن تصدَّى لتعريف سنن الله في الأمم، قديماً وحديثاً، وأكثر ما يذكر المفسرون ذلك بمناسبة تفسير الآيات التي ذكر الله فيها لفظ «السُّنن»^(٣)، وما ذكرته آنفاً هو حاصل ما جاء في تعريفاتهم . وإليك طائفة منها:

قال ابن جرير^(٤) عند قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]: «السُّنَّةُ مثلات سير بها فيهم وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم واستدراجي إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلته لإدالة

(١) سنَّة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، إعداد الطالب/ عبد السلام نصر الله الشريف، ص ٢١ .

(٢) وهي التي يكون مصحوبها معهوداً للسامع بالذهن، فخرج (أل) التي يكون مصحوبها معهوداً بالذكر، كقوله تعالى في سورة الزمل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُفِئْنَا بِرِسَالَتِهِ وَاللَّهُ يَوْمَ يُنْفِثُ السُّحُبَ لَكُم مِّنْهُ آيَاتٌ وَلَقَدْ جَاءتْكُمْ آيَاتُهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الآية: ١٥]، والتي يكون مصحوبها معهوداً بالحضور، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [الآية: ٣] . انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (٥٠/١) .

(٣) وستعرف في البحث الثاني، أن جميع الآيات المصرح فيها بلفظ (سنه)، هي من السنن المتعلقة بالإنسان لا الكون المادي .

(٤) هو: محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، إمام من أئمة أهل السنة . وشيخ المفسرين والمؤرخين، فقيه مجتهد، قال عنه الذهبي: كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرة تصانيف . قلَّ أن ترى العيون مثله . رحل في طلب العلم، واستوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته - رحمه الله - سنة (٣١٠هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٢١٧/١٤)، وطبقات المفسرين (١١٠/٢) .

أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللتُ بهم عقوبي ونزلت بساحتهم نقمتي فتركتهم لمن بعدهم أمثالاً وعبراً»^(١).

وقال الزمخشري^(٢) عند هذه الآية: «يريد ما سنَّه الله في الأمم المكذبين من وقائعه»^(٣). ونحو قوله قال القرطبي^(٤).

وعرفها الشوكاني^(٥) فقال: «المراد بالسنن: ما سنَّه الله في الأمم من وقائعه»^(٦).

وقال رشيد رضا^(٧) صاحب «المنار»: «جاء القرآن يبيِّن للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قوية... وأن له سنناً عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل، وأن ما وقع مما يقصّ حكمته عليهم هو مطابقٌ لتلك السنن التي لا تتحوّل ولا تبدّل»^(٨).

وبنحو قوله قال الأستاذ سيد قطب^(٩) في تفسيره^(١٠).

هذه بعض التعريفات من متقدمي أهل العلم بالتفسير ومن متأخريهم، وهي تعريفات اصطلاحية، تدور حول بيان المعنى الشرعي لسنن الله الوارد ذكرها في القرآن.

(١) تفسير الطبري (٩٩/٤).

(٢) محمود بن عمر جار الله الزمخشري، من أئمة اللغة والتفسير، سافر إلى مكة وجاور بها زمناً فلقَّب بـ «جار الله»، كان معتزلي المذهب مجاهراً، شديد الإنكار على المتصوفة. توفي بالجزانية من قرى خوارزم سنة (٥٣٨هـ). انظر: بغية الوعاة، للسيوطي (٢٧٩/٢)، وطبقات المفسرين (٣١٤/٢).

(٣) الكشاف، للزمخشري (٤٦٥/١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢١٦/٤).

(٥) محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولي قضاء صنعاء، ومات حاكماً بها سنة (١٢٥٠هـ)، له مصنفات كثيرة بلغت ١١٤ مصنفًا، أشهرها: (فتح القدير)، و(نيل الأوطار). وكان يرى تحريم التقليد. انظر: نيل الأوطار (٧/١)، والأعلام (٢٩٨/٦).

(٦) فتح القدير (٣٨٣/١).

(٧) هو: محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح، عالم بالحديث والتفسير، كاتب مجيد، تلمذ للشيخ محمد عبده. وتوفي فجأة في سيارة كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة سنة (١٣٥٤هـ). انظر: الأعلام (١٢٦/٦).

(٨) تفسير المنار (١٤١/٤)، بتصرف يسير.

(٩) ابن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد في أسبوط، وتخرَّج بكلية دار العلوم بالقاهرة، شارك في الحياة الفكرية والسياسية، وكتب في كبريات الصحف العربية، انتقد البرامج المصرية، وانضم إلى الإخوان المسلمين، وترأس قسم نشر الدعوة، وتولَّى تحرير جريدتهم، وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه سنة (١٣٨٧هـ). انظر: الأعلام (١٤٧/٣).

(١٠) انظر: في ظلال القرآن (٤٧٨/١، ٤٧٩). وانظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٦/١) وما بعدها.

وبينها وبين المعنى اللغوي - على ما عرفت - تشابه في الدلالة ، فإن معنى السُّنة لغةً: الطريقة . واصطلاحاً: طريقته سبحانه في تسيير أمور هذا الكون بمقتضى حكمته وعدله^(١) .

ونستخلص مما سبق أموراً، أهمها أمران:

١ - أن هذه الدراسة تعنى بنوع من السنن الإلهية ، وهي السنن المتعلقة بتصرفات الإنسان في الحياة الدنيا ، فليس من اختصاصها دراسة السنن المتعلقة بالكون المادي^(٢) .

٢ - وأنها تتناول من مظاهر تصرفات الإنسان المظهر الجماعي فقط ، فلا تتناول السنن التي تحكم تصرفات آحاد الأفراد . وما جاء من ذلك فعلى سبيل التبع^(٣) .

(١) سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم ، ص ١٩ .

(٢) وسأبين أهم الفروق بين هذين النوعين من السنن في المبحث الثاني ، بإذن الله .

(٣) وسأبين أهم الفروق بين هذين النوعين من السنن في المبحث الثالث ، بمشيئة الله .

المبحث الثاني

الفرق بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الإنسان

عرفنا في المبحث السابق، معنى السنن الإلهية، وأنها «مجموعة القوانين التي سنّها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»^(١).

وأنها تشمل عند الإطلاق: سنن الله في الكون المادي، وسنن الله في الإنسان، بالنظر إليه فرداً، وبالنظر إليه مجتمعاً وأمة.

وتبيّناً أن المقصود بهذه الدراسة: هو سنن الله في الإنسان بالنظر إليه مجتمعاً وأمة، دون ما سواها.

ولا شك أن بين الكون المادي من جهة، والإنسان من جهة أخرى فروقاً هائلة، في طبيعة كل منهما وفي وظيفته، فلا جرم سيكون بين السنن التي تحكم كلاً منهما فروق كذلك... وهذه الفروق شاهدة ببديع صنع الله وكمال قدرته وعلمه وحكمته، وسائر أسمائه وصفاته، فإنه - جل وعلا - ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، و﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، كما قال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣].

وخصّ جنس الإنسان بمزيد من الإحسان فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

ومن إحسان خلقه والإحسان إليه أن جعله ﴿سَمِيحًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً^(٢). وميّزه بالعقل، وحمله أمانة خلافة الأرض^(٣). وسحّر له

(١) أزمنا الحضارية في ضوء سنّة الله في الخلق، ص ٥٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا فِي الدَّرِّ وَالْبَحْرِ رِجْزَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَمَقَلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] من الحيوان والجماد والنبات ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]... إلى غير ذلك من الأمور التي تميز بها جنس الإنسان عن غيره من الأحياء والجمادات .

وبالتالي ، فإن لكل من هذا الكون وهذا الإنسان سنناً ثلاثمه ، وتظهر حكمة الله من وراء خلقه وإيجاده ، وتقوم برهاناً دالاً على ربوبية الله - وحده - وعبودية كل ما سواه... ومع هذا وذاك ، فإنه عن طريق تلك السنن ، يتم التعامل مع هذا الكون وهذا الإنسان ، وتسخيرهما والإفادة منهما .

وفي هذا المبحث أتناول بشيء من التفصيل أهم الفروق بين: سنن الله في الكون المادي - وأعني بها: ما سوى الإنسان(من عالم الذرة المتناهية في الصغر، إلى عالم المجرة المتناهية في الكبر)^(١) - وبين سننه - جل وعلا - في الإنسان بصفة عامة .

وقبل الدخول في تفصيل أهم تلك الفروق ، يجب أن لا يغيب عنا أن كل السنن الإلهية متفقة في المصدر والخلق والتقدير ، وفي الأهداف العامة . فمصدر السنن والقوانين التي تحكم الأشياء واحد هو الله تبارك وتعالى . ومصدر الأشياء والأحياء التي تطبق عليها تلك السنن واحد أيضاً هو الله جل وعلا . فهو الذي خلق ﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ، و﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] .

وهي جميعاً تمثل مظهراً من مظاهر قدرة الله وحكمته وعلمه ، وسائر أسمائه وصفاته .

ثم إن هذه السنن أوجدت لمصلحة الإنسان وانتظام شؤون الحياة والأحياء ، ولهذا فإن بينها من التناسق والتكامل ما يكون بين أفراد الأسرة الواحدة ذوي الهدف الواحد^(٢) .

أما الفروق والاختلافات فهي كثيرة ، لا يمكن الإحاطة بها إلا بعد دراسة مستوعبة لوظائف وخصائص كل منهما ، وهذا لا يتسع له مبحث في مقدمة . ولكن سأشير إلى أهم الفروق التي يحتاج قارئ هذا الكتاب إلى معرفتها ، وهي راجعة إلى الفرق الأساس

(١) أزمنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق ، ص ٥٣ .

(٢) وسيتضح ذلك جلياً عند دراسة خصائص السنن ، بإذن الله .

بين طبيعة ووظيفة كل من الإنسان والكون المادي . وأهمها - فيما يظهر لي - ثلاثة فروق:

الفرق الأول: أن سنن الله في الكون المادي تجري وتقع بطريق القهر والتنجز (الآنية) . أما سننه في الحياة الإنسانية فهي سنن مرنة (غير قهرية) ، تحمل خاصية الإمهال بعض الوقت لصالح الإنسان (غير آنية) ، وإن كانت تنفذ وتقع ولا بد في نهاية المطاف^(١) .

ويمكن ملاحظة هذا الفرق عندما نقارن نتائج القوانين العلمية ، التي تخضع بطبيعتها للتجربة المخبرية ، عندما نقارنها بالنتائج التي يتم الحصول عليها من رصد الظواهر الاجتماعية .

فالأولى إذا ما توفرت شروطها وانتفت موانعها ، ظهرت نتيحتها بصورة فورية قهرية . وليس الأمر كذلك فيما يتعلّق بالنواحي الاجتماعية والإنسانية عموماً . وبعضهم يسمي الأول: «قانوناً» ، والثاني: «اتجهاً»^(٢) . وإيضاح هذا الفرق ، أسوق لك بعض الأمثلة:

المثال الأول: وهو مثال على القانون العلمي: «لا يمكن للإنسان أن يجعل الماء لا يغلي ، إذا توفرت شروط الغليان ، لا يمكنه أن يتحدّى الغليان ، أن يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين ؛ لأنّ هذا قانون ، والقانون صارم ، والصرامة تأبى التحدي»^(٣) .
والثاني: مثالان على الاتجاه ؛ أي القضية الإنسانية ، والظاهرة الاجتماعية:

المثال الأول: هناك اتجاه في تركيب الإنسان وتكوينه وطبيعته ، وهو الاتجاه إلى الاتصال بين الذكر والأنثى ، وإدامة النوع عن طريق هذا الاتصال ضمن إطار من أطر النكاح الاجتماعي . هذه سنّة ، لكنها سنّة على مستوى الاتجاه ، لا على مستوى القانون ، لماذا؟ لأنّ إمهال من يشذ عن سنن هذه السنّة لحظة أو لحظات ممكن!

(١) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١١٥ ، والمدرسة القرآنية ، لباقر الصدر ، ص ١٠٦ وما بعدها .
(٢) انظر: المدرسة القرآنية ، لباقر الصدر ، ص ١١١ ، والفرق بينهما عنده أنّ القانون لا يقبل التحدي ، وأما الاتجاه فإنه يقبل التحدي لبعض الوقت . ويلحظ على الكاتب استخدام كلمة (التحدي) ، وهي كلمة معبّرة ، ولكن فيها مجانبة للادب اللائق ، ولذا ، فقد حاولت استبدالها بتعابير مقاربة في بعض المواضع - كما سيأتي - وتركها في المواضع التي رأيت أنها تؤدي الغرض ولا ينفر منها الطبع والحسن .
(٣) المدرسة القرآنية ، لباقر الصدر ، ص ١١٢ .

أمكن لقوم لوط أن يشدوا ويخالفوا هذه السنة فترة من الزمن، بينما لم يكن بإمكانهم أن يؤخروا نتيجة سنة الغليان بشكل من الأشكال!

إلا أن مخالفة هذه السنة يؤدي إلى أن يتحطم هذا الإنسان المخالف المجتمع الذي يتحدى هذه السنة يكتب بنفسه فناء نفسه؛ لأنه يتحدى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعي! وتلك الألوان من الشذوذ تؤدي إلى فناء المجتمع وإلى خراب المجتمع^(١).

ومن هنا، كان هذا اتجاهاً موضوعياً مرناً يقبل المخالفة لمقتضاه على شوط قصير، لكنه لا يقبل ذلك على شوط طويل؛ لأنه سوف يحطم المتحدي بنفسه^(٢).

المثال الثاني، ويتخلص في أن: الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل هو سنة وفطرة، هذا الاتجاه اتجاه موضوعي، وليس اتجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي^(٣)، إنه اتجاه ركب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الاتجاه يمكن أن يخالف!

يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولى دور الحضانة والتربية، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والجهد، هذا بالإمكان أن يتحقق عن طريق تشريع معين، وبهذا تحصل مخالفة هذه السنة وهذا الاتجاه.

لكن هذه المشاق والمخالفة لمقتضى السنة الإلهية في توزيع الميادين بين الرجل والمرأة سوف لن تستمر؛ لأن سنن التاريخ سوف تجيب على هذا الإصرار على المخالفة؛ لأننا سوف نخسر ونجهد كل تلك القابليات التي زُوِّدَت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة والأمومة، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زُوِّدَ بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الجَلْد والصَّبْر والثبات وطُول النَّفْس، تماماً كما لو سلمنا نجاريات بناية إلى حداد، وحدادياتها إلى نجار^(٤). إننا يمكن أن نصنع هكذا^(٥)، ويمكن أن تنشأ البناية أيضاً، لكن هذه البناية سوف تنهار. سوف لن يستمر هذا التحدي على شوط طويل، سوف ينقطع في شوط قصير^(٦).

(١) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٢.

(٢) المدرسة القرآنية، لباقر الصدر، ص ١١٣ بتصرف.

(٣) أي أنه توزيع ناشئ في الأصل، من اختلاف في طبيعة وخلق كل من الرجل والمرأة، وبدهي أن تكون الشرائع أقرت ذلك، بل أمرت به، لأنها جاءت بما يكفل مصلحة كل منهما.

(٤) التجاريات ما يلزم للبنائة من أعمال التجارة، والحداديات ما يلزم لها من أعمال الحدادة.

(٥) أي: ليس فيه ما يمنعنا من ذلك بصورة قاهرة.

(٦) وهنا نذكر طرفاً من الحكمة في جعل القوامة للرجل على المرأة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]. فقله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يفيد تفضيلاً عاماً. =

كل اتجاه من هذا القبيل ، هو في الحقيقة سنّة موضوعية من سنن التاريخ ، ومن سنن حركة الإنسان ، ولكنها سنّة مرنة تحمل خاصية المرونة والإمهال على الشوط القصير ، ولكنها تجيب بعد ذلك بما لا يمكن ردّه أو التّفُلت منه^(١) .

وهذا الفرق بين سنن الله في المادة وسننه في الإنسان ، منسجمٌ مع طبيعة كل منهما . فالمادة صمّاء جامدة ، بخلاف الإنسان الذي لا يحكمه عامل واحد .

الفرق الثاني: أنّ السنن الإنسانية تعمل في حياة الأمم خصوصاً والأفراد عموماً ، بصورة متشابكة ، فهي منظومة واحدة ، وليس الأمر كذلك في سنن الكون المادي ؛ أي أن السنن المتعلقة بالإنسان لا تصح تجزئتها ، ولا أن تفسر بالعامل الواحد^(٢) . وما ذاك إلا لأنّ الإنسان - فرداً أو أمةً - كلٌّ لا يتجزأ ، فهو في تأثره وتأثيره بالظروف والأحداث كما أخبر عنه النبي ﷺ بأنّه: «إذا اشتكى منه عضوٌ فداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٣) . أي أنه في تكوينه النفسي والاجتماعي شبيه بتكوينه الجسدي العضلي .

أمّا سنن الله في الكون المادي ، فكل قانون مستقل - عادة - بشروط إذا توفرت ، حصلنا على النتيجة مئة بالمئة . فللغليان قانون خاص مستقل به ، ولتكوّن الماء قانون آخر ، ولتجمّده قانون ثالث ... وهكذا .

أمّا السنن المتعلقة بالإنسان ، فهي - وإن بدت سنناً مختلفة في ظاهرها - فللنصر والهزيمة سنن ، ولحصول البركات والأمن سنن ، وللعقوبات سنن ثلاثة ... وهكذا . إلا أن بينها تكاملاً وتبادلاً في التأثير والتأثير ، بحيث لا تحسم نتيجة سنّة منها دون مراعاة جانب السنن الأخرى .

الفرق الثالث: أنّ السنن الإنسانية مع اتسامها بالمرونة ، فإنّها مطردة لا تتخلّف ، ولا يمكن أن تتخلّف . أمّا سنن الله في الكون المادي ، فقد تنخرق وتتخلّف لتحقيق اطراد السنن الإنسانية . بهذا جرت سنة الله الحكيم .

= ومنه ، بل في مقدمة هذا التفضيل: التفضيل في القوى العقلية والبدنية ... ونحوها من الأمور التي هي مناط القوامة ... وهذه ثابتة لا يمكن التدخل فيها ، وبالتالي لا يمكن نقل مهمة القوامة من جنس الرجل إلى جنس المرأة ، ومن تجراً على ذلك فسوف ينهار ويواجه عقوبة مخالفة أمر الله ، وسننه في خلقه .

(١) المدرسة القرآنية ، لباقر الصدر ، ص ١١٤ ، ١١٥ بتصرف .

(٢) وانظر - إن شئت - تفصيل هذا الجانب في: الفصل الأول من الباب الأول ، عند الحديث عن الخاصية السابعة من خصائص سنن الله في الأمم .

(٣) متفق عليه ، من حديث النعمان بن بشير ؓ . والحديث بتمامه: «فقلّ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

ومما يؤكد هذا الفرق ويوضحه ، أمران :

الأول: أن الآيات التي جاء فيها التصريح بثبات السنن وعدم تبديلها أو تحويلها ، كلها جاءت في سياق تقرير سنن الله المتعلقة بالإنسان ، كنصر أوليائه وخذلان أعدائه . وليس فيها آية واحدة جاءت بمناسبة تقرير سنة من سنن الله في الكون المادي (١) .

الثاني: أنه قد ثبت في مرات عديدة ، أن الله يخرق سننه في الكون المادي وينقضها لتحقيق ما وعد به من اطراد سننه المتعلقة بالإنسان .

وقد أوضح هذين الأمرين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يتحدث عن لفظ «السنن» في القرآن ، فقال - بعد أن ذكر الآيات التي جاء لفظ السنة فيها صريحاً ، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِلَ سُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَحْدِلَ سُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] . وكقوله سبحانه: ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَحْدِلُ سُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧] . . . ونحوها من الآيات - قال: فهذه كلها تتعلق بأوليائه - كمطيعيه وعصاته ، كالمؤمنين والكافرين - فستته في هؤلاء إكرامهم ، وستته في هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم . . . وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعدته ووعيده ، وليست هي السنن المتعلقة بالأمر الطبيعي ، كسننه في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ، فإن هذه السنة يتقضاها إذا شاء بما شاءه من الحكم: كما حبس الشمس على يوشع عليه السلام (٢) ، وكما شق القمر لمحمد عليه السلام ، وكما ملأ السماء بالشهب ، وكما أحيا الموتى غير مرة (٣) ، وكما جعل العصا حية ، وكما أنبع الماء من الصخرة بعضا ، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول عليه السلام .

(١) وستقف على هذه الآيات مع شيء من التفصيل ، في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) عند تقرير خاصتي: الثبات والاطراد ، بإذن الله .

(٢) أحد أنبياء بني إسرائيل . والخبر ثابت عند أحمد ، وأخرجه الشيخان وغيرهما ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وسيأتي تخريجه ، إن شاء الله .

(٣) كما أحيا طائفة من بني إسرائيل بعد موتهم بالصاعقة ، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَهُكَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم بِالصَّيْقَةِ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَاكُمْ بَدِيعًا مِمَّا كَفَرْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥ ، ٥٦] . وكما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنشِرَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] . وقوله سبحانه: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامًا ثُمَّ بَدَّلَهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، وغيرها .

وأيضاً فقد عرف انتقاض عامة العادات . فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين ، وقد خلق المسيح من أم ، وحواء من أب ، وآدم من غير أم ولا أب . وهذا خلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغير لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه ، فإن هذا علم بخبره وحكمته .

أما خبره: فإنه أخبر بذلك ووعد به ، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد^(١) .

وأما حكمته: فإن جميع طوائف أهل الملل يقولون: مقتضى حكمته أن تكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه ، كما بسط ذلك في مواضع . فعلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات^(٢) .

وليس معنى ذلك أن سنن الله في الكون المادي (الطبيعيات) ليست محكمة ولا منضبطة . . . كلا ، ولكن يقال: إن سنن الله الدينية تمتاز على سننه الطبيعية ، فإن الأولى متعلقة بشرعه ودينه ، والأخرى متعلقة بخلقه ، ومقتضى هذا الامتياز والتفضيل أن تنخرق الثانية لتحقق اطراد الأولى وثباتها ، إذا اقتضت الحكمة ذلك ، فتكون الثانية وسيلة من وسائل تحقيق الأولى .

ويمكن إيضاح ذلك بأن يُقال: إن الله أجرى سنته بأنه ينقض سننه الطبيعية لتحقيق ما وعد به من سننه الدينية الشرعية ، فنقضه إياها لوصف اختصت به تلك الحال عن غيرها ، فهذا النقض ليس وصفاً عاماً ، ولكنه من جنس تخصيص العلة لفوات شرط أو وجود مانع^(٣) .

وعلى هذا ، فحتى لو قال قائل: إن قوله سبحانه: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وما مائل ذلك من الآيات ، عام شامل لسننه «في خلقه وأمره ، في الطبيعيات والدينيات»^(٤) ، فإنه يُقال له: «لكن الشأن أن تعرف سنته ، وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة فإنما ينقضها لاختصاص تلك الحال بوصف امتازت به عن غيره ، فلم تكن سنته

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [غافر: ٥١] . وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ

لَأَعْلَمَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ لَأَنْتَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وغير ذلك من الآيات الدالة على نصرة أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائه .

(٢) جامع الرسائل ، لابن تيمية (١/٥٢ - ٥٤) ، باختصار وتصرف .

(٣) انظر: جامع الرسائل ، لابن تيمية (١/٥٤) .

(٤) جامع الرسائل ، لابن تيمية (١/٥٤) .

مع ذلك الاختصاص بسنته مع عدمه ، كما نقول إذا خصت العلة لفوات شرط أو وجود مانع ، وكما نقول في الاستحسان الصحيح ، وهو تخصيص بعض أفراد العام بحكم يختص به لامتيازته عن نظائره بوصف يختص به^(١) .

وخلاصة هذا المبحث: أن نعرف الفرق ما بين سنن الله في الكون المادي ؛ وهي السنن التي يصل الإنسان عن طريقها إلى تسخير ما في هذا الكون والإفادة منه واتقاء ضرره ، وبين سنته - تعالى - في الإنسان ، وهي السنن التي جعلها الله نظاماً لحياته ، وطريقاً إلى سعادته أو شقائه في دنياه وآخرته .

وأن موضوع هذه الدراسة هي الثانية دون الأولى .

وقد ذكرتُ في بداية هذا المبحث: أن سنن الله في الإنسان ، تشمل عند الإطلاق الأفراد والأمم ، وأن موضوع هذه الدراسة الثاني دون الأول .

وعلى هذا ، فلا بد من بيان يكشف ماهية الفرق بينهما ، ويساعد في التعرف على كيفية عمل السنن الإلهية في كل منهما . وهذا هو موضوع المبحث الثالث .

(١) جامع الرسائل ، لابن تيمية (١/٥٤ ، ٥٥) ، وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) ، من الباب الأول ، بإذن الله .

المبحث الثالث

الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم

الفرد جزء الأمة وبعضها، وعندما نقول: الأمة، فإننا نعني: مجموعة الأفراد، وحين نقول: أفراد، فإننا نعني: أجزاء الأمة، الذين يؤلفون كيانها في نهاية المطاف .

فلا خصومة بين الفرد والأمة، ولا تناقض في الرغبات والحاجات، في المجتمع السوي الذي يرمى منطق الفطرة ويلتزم بأدب الشرع .

فَفَيْمَ الاختلاف إذن؟ ولم اختلفت السنن بين الفرد والأمة؟

والجواب أن يُقَالَ: إنَّ الفردَ والأمةَ ليسا اسمين مترادفين للإنسان، وإنما وصفان له في وضعين مختلفين، لكل وصف منهما نوع تميّز في الوظيفة والمسؤولية، واختلاف في كيفية الجزاء ووقته .

فهو إذن - أي الإنسان - في كليهما يؤدي وظيفته، ويتحمّل مسؤوليته، ويتلقى جزاءه، ولكن في صورتين مختلفتين بعض الاختلاف، في بعض الجوانب. ولهذا التلازم بين الإنسان في حاله، فإنّ مظاهر الاتفاق بين الفرد والأمة كثيرة، وهي الأصل. وهذا بدهي؛ لأنّ الظواهر الاجتماعية هي في أصلها أعمال فردية. والاختلاف بينهما راجع إلى ذلك الاختلاف الذي أشرتُ إليه آنفاً .

ولا بأس من الإشارة إلى بعض الصور والأمثال لهذا التوافق بينهما .

فمن ذلك: أنّ الدعاء والتضرع سبب في إنقاذ الأفراد والأمم، وأنه - سبحانه - يجب دعاء المضطرين حتى ولو كانوا كفّاراً، فضلاً عن إجابة دعاء أوليائه من أنبيائه ورسله وأتباعهم من المؤمنين .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] . وقال: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ

الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢] .

يندب - تعالى - عباده ويستحثهم أن يدعوه، و«ينبه أنه هو المدعو عند الشدائد،

المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ﴾

[الإسراء: ٦٧]؛ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضرر المضرورين سواه^(١).

وقال مخبراً عن إجابته دعاء نبيه نوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْتَهِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْأَمَاءُ عَلَىٰ أَمْرِ قُدْرَةٍ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرُ﴾ [القمر: ٩ - ١٣].

وعنده مؤمن آل فرعون: ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَعِيَّاتِ مَآمِرًا مَكْرُومًا﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥]. وتلك سنته - سبحانه - في أولياته^(٢).

وقال مخبراً عن حال المكذبين المجرمين: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]؛ أي: ما دعوا حتى يكشف الله ما بهم، وقد أمروا بذلك، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ أي: هلاً تضرعوا واستكانوا لربهم وخضعوا لطاعته فيصرف ربهم عنهم بأسه^(٣).

وأخبر عن حال المشركين أنهم إذا ﴿رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. في مواضع من كتابه^(٤). ومنها: أن التوبة والإيمان عند معاينة الموت لا تنفع الأفراد، وعند معاينة العذاب - الذي فيه موت الأمة أو القوم - لا تدفع عن الأمم العقوبة النازلة بهم.

قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَإِلَهِ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ نَبِيًّا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَتَيْنَكَ لِمَنْ خَلَقْنَاكَ ءَأَيَّةً﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

(١) تفسير ابن كثير (٧٠/٣).

(٢) أضواء البيان (٣٩٨/٤)، وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في الفصل الأول من الباب الثاني، بإذن الله.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٩٢/٧)، وتفسير ابن كثير (٢٥١/٣).

(٤) اقرأ مثلاً: الآيات [٤٠، ٤١، ٦٣، ٦٤] من سورة الأنعام، والآيات [٢١ - ٢٣] من سورة يونس، والآية [٣٣] من سورة الروم... وغيرها.

وقال مخبراً عن حال المكذبين من الأمم السابقة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ، مُشْرِكِينَ * فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتَ اللَّهُ الْبَاقِيَ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

ومنها: أن الإنسان، سواء كان فرداً أو أمة، إذا استغنى طغى وتجبّر إلا من رحم الله من المؤمنين^(١).

قال جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال عن فرعون أنه قال عن نفسه: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

وحكى قول قارون عن نفسه، أنه لما وعظه قومه وحذّروه عاقبة الفرح والأشر وأمره بالإحسان وأن يقصد وجه الله والدار الآخرة، أنه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

وقال مخبراً عن الأمم أنهم إذا: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعَالَمِ﴾ [غافر: ٨٣].

وفي المقابل قال عن نبيه سليمان ﷺ أنه لما رأى من سعة ملكه وقوته واقتداره وكثرة جنوده: ﴿قَالَ هَذَا مِمَّنْ فَضَّلْتُ رَبِّي لِيَلْبُؤِي، أَشْكُرُكُمْ أَكْثَرَ﴾ [النمل: ٤٠].
ومنها: أن للأمم آجالاً كما أن للأفراد آجالاً.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا وَهَلَّا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ [الحجر: ٤، ٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلَنْ نُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

(١) انظر: أضواء البيان (٤/٢٩٨)، (٩/٣٦٩).

[١١]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنْتَبًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] ... إلى غير ذلك من الآيات .

هذه إشارات لما وراءها من مظاهر الاتفاق والتشابه بين الفرد والأمة، أردتُ بها مجرد التمثيل .

وبالجمله فإن ما كان محموداً من الخصال والأفعال في الفرد فهو محمودٌ في الأمة، والعكس صحيح . إلا أن عمر الفرد المحدود بالنسبة إلى عمر الأمة المتطاوُل عادة، والاختلاف في وظيفته ومسؤوليته . وفي صورة الجزاء على الأعمال، وكيفيته ووقته ... كل هذه لا بد أن تكون أوصافاً مؤثرة، مراعى شأنها في هذا النظام البديع الذي يحكم الحياة، والسنن التي تسير على وفقها .

وحتى تصور ماهية الفروق بين وظيفة ومسؤولية وجزاء الناس أفراداً، ووظيفتهم ومسؤوليتهم وجزائهم أعماً ومجتمعات، أقدمُ بهذه الجمل الموطئة:

قد نحكم على مجتمع ما، بأنه مجتمع آمن، لكننا لا نتصور خلوه من سرقة أو سطو . وقد نقول عن مجتمع آخر إنه مجتمع ماجن مستهتر، متحلل من قيود الفضيلة، قد عُوقِبَ بالإذلال وشيوع الأمراض، مع وجود أناس صالحين متطهرين . وكذلك العكس ... هذه واحدة .

والثانية: كثيراً ما يمرّ بخيالك أشخاص خيرون، وآخرون شريرون . هؤلاء وهؤلاء ذهبوا ويذهبون، وأنت ترى أن من هؤلاء وأولئك من لم يلق جزاءه الذي يستحقه في الدنيا!

لكنك لا تحفظ اسم أمة واحدة ذهبت دون أن تتلقى جزاءها الدنيوي موفوراً^(١) .

والثالثة: أن الأمة والمجتمع (المسؤولية الجماعية) غاية تنتهي في الحياة الدنيا، أمّا الفرد (المسؤولية الفردية) فهي قائمة في الدنيا، وهي وحدها الباقية في الآخرة . وما يكون من ثمرات المسؤولية الجماعية في الدنيا، من خير أو شر، يُصَافُ إلى رصيد الفرد ويُجزى به هناك بصورة فردية، وكل المظاهر الجماعية في الآخرة فهي لوظائف غير تلك التي تكون في الدنيا .

(١) لا بد لإدراك هذه القاعدة، أن يكون الناظر فيها مهتدياً بهدي القرآن . مدركاً لحدود معنى الأمة وحدود عمرها الزمني مقارنة بأعمار الأفراد، والقاعدة مسئولة عن فساد النظر والتصور .

وأحسب أن الطريق تمهّدت أمامك ، ولاحت لك بعض الفروق بين الفرد والأمة . وهي - بلا شك - فروق مؤثرة ، ولهذا اختلفت السنن التي تحكم الأفراد عن السنن التي تحكم الأمم والأقوام ، تبعاً لذلك . وسأعود إلى بيان تلك الفروق المجملّة بصورة أبسط ؛ ليزول ما قد يكون فيها من إبهام أو إجمال ، فأقول مستعيناً بالله :

تتلخّص أهم الفروق بين الفرد والأمة - على ما ظهر لي - في ثلاثة فروق :

الأول: أن النتائج التي تقع على الأمة والمجتمع منظورٌ فيها إلى الأغلبية ، فلا يتعلّق حصولها بمباشرة أسبابها من جميع الأفراد ، ولا ترتفع النتيجة بسبب مخالفة أفراد محدودين . وبالتالي فالأفراد بموجب قانون السنن ، مشمولون بالنتائج الجماعية ، وإن لم يكونوا من صنّاعها المباشرين لها . بخلاف الأمة فلا يغير من حالها مخالفة أفراد محدودين لاتجاهها العام^(١) . وهذا الفرق هو معنى ما ذكرته في الجملة الأولى ، وله شواهد من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ .

منها: قوله سبحانه: ﴿ وَأَقْوَامٌ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ الرِّسَالُ وَالَّذِينَ طَغَوْا فِي الْكُفْرِ وَلَئِن جَاءتْهُمُ بَرَايِنٌ مِّن رَّبِّهِمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا عِندَ اللَّهِ مُسْتَعْجِلِينَ بِدَعْوَانَا لَمَّا كُنَّا فِي الْكُفْرِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] (٢)

يحذّر الله «جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظلمة فقط ، بل تصيب الكل من ظالم وبريء»^(٣) . بشؤم صحبتهم وتعديّ رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١] ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «أمر الله - عز وجل - المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم»^(٤) .

وأصل ذلك: أن مصالح الأمة لا تقوم إلا على أساس قيام أفرادها بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما لم تقم بهذا الواجب ، فإنّ مصالحها جميعاً تتأثر ، ويجرّ بعضها بعضاً إلى أسوأ العواقب^(٥) .

(١) ولا يعني هذا ، انعدام التأثير في واقع الأمة ، بل لا بد من وجوده ، لكنه محدود لا يرقى إلى درجة قلب النتيجة . وهذا هو المقصود .

(٢) المحرر الوجيز ، لابن عطية (٤١/٨) .

(٣) محاسن التأويل ، للقاسمي (٣٦/٨) ، ونسبه للقاشاني .

(٤) تفسير ابن جرير (٢١٨/٩) ، والمحرر الوجيز (٤١/٨) ، وتفسير البغوي (٢٤١/٢) ، ومن تفسيره نقلت .

(٥) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان في الفصل الثالث من الباب الرابع ، بإذن الله .

قال القاسمي^(١): «وقد روى الإمام أحمد عن جرير^(٢) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون، ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب»^(٣).

وقوله - جل وعلا -: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الدِّينِ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. والمعنى: أهلكوا قومهم وأحلوا بهم المثلث والعقوبات الدنيوية من القتل والأسر، بسبب حملهم إياهم على الكفر والشرك ومناوأة الحق وأهله، وكان مصيرهم إلى النار التي هي دار البوار في الآخرة^(٤).

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَدَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. والمترفون هم بعض أفراد الأمة، وليسوا كلهم، كما يفيد ذلك لفظ الآية.

وفي حديث زينب بن جحش زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: أنها لما قالت: «أفهلك وفينا الصالحون؟»، قال النبي ﷺ: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(٥).

فرب الهلاك على كثرة الخبث وغلبته، لا على استحكامه ووقوع الناس كافة فيه. قال في الفتح: «قال ابن العربي^(٦): فيه البيان بأن الخبير يهلك يهلك الشرير إذا لم يغير عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدي ذلك، ويصر الشرير على عمله السيئ، ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد فيهلك حيثئذ القليل والكثير، ثم يحشر كل أحد على نيته»^(٧).

(١) هو: جمال الدين - أو محمد جمال الدين - بن محمد، من سلالة الحسين السبط، إمام الشام في عصره في العلم والأدب، كان سلفي الاعتقاد، نابذاً للتقليد، واتهم بتأسيس مذهب جديد سموه (المذهب الجمالي)، حسداً من شائنيه، فانقطع في منزله للتعليم والتأليف. توفي سنة (١٣٣٢هـ). انظر: الأعلام (١٣٥/٢).

(٢) هو: ابن عبد الله الجبلي، أسلم قبل سنة عشر، على الصحيح. كان جليلاً حتى قال عمر: هو يوسف هذه الأمة. توفي سنة إحدى - أو أربع - وخمسين. انظر: الإصابة (٢٤٢/١).

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم، وهو حديث صحيح، وسيأتي تحريجه. (وروي نحوه عن عدي بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة). [محاسن التأويل (٣٦/٨)].

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥٣٨/٢)، وتفسير السعدي (١٤١/٤).

(٥) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري. انظر: فتح الباري (١٠٦/١٣)، وصحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٨).

(٦) هو: محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي، يكنى: أبا بكر، إمام متبحر في العلوم، درس وصنف وتولى القضاء، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة. توفي - رحمه الله - سنة (٥٤٣هـ). انظر في ترجمته: أحكام القرآن، لابن العربي (١/٤).

وما بعدها، بقلم المحقق.

(٧) فتح الباري (١٠٩/١٣).

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا بيضاء من الأرض خسف بهم»، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»^(١).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «... حتى إذا كانوا بالبيضاء خسف بهم»، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس. قال: «نعم، فيه المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم»^(٢).

إلى غير ذلك من الأدلة.

وبتأمل النصوص السابقة يتبين لنا أن الغلبة المؤثرة تكون: إما بالكثرة العددية، إذا كانت ذات فاعلية وتأثير في مجرى الأحداث، وهذا ظاهر. أو بقوة التأثير وامتلاك القرار في الأمة، ولو من أقلية، إذا كانت الأكثرية فيها سلبية تابعة، كما في آية الإسراء:

﴿وَإِذْ أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا...﴾ الآية، ونحوها.

والفرق الثاني: أن الأمم لا بد أن تنال جزاءها خيراً كان أم شراً، عاجلاً في الدنيا، أما الأفراد فليس ذلك بمطرد فيهم ولا لازم في حقهم، فقد ينالونه في الدنيا، وقد يموتون دون أن يُجزوا بأعمالهم.

وكم شهدنا وشهد الناس قبلنا، من الطغاة والمتجبرين، ممن سام الناس سوء العذاب، ثم هلك دون أن يلاقي عُشر معشار ما يستحقه في نظر الناس وفي تقديرهم. وبالمقابل، فكم من الأنبياء، ومن الدعاة والمصلحين، ممن أنقذ الله بهم خلائق لا يُحصون من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة، يموتون يوم يموتون ما بين مطرود ومسجون ومعذب!

ولو كان هؤلاء وأولئك ينالون ما يستحقونه من ثواب أو عقاب مادي أو أدبي من قبل أمهم في الدنيا، لكانت السجون والمشائق للطغاة والمتجبرين، ولصيغت للأنبياء والمصلحين الأجداد وفُرِشت في طريقهم الورود وذُلَّت لهم الصعاب، ولكن الذي يقع هو بعكس ذلك عادة.

(١) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤/١٨).

(٢) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٦/١٨). قال النووي: «المستبصر هو المستبين لذلك، القاصد له عمداً». السابق (٧/١٨) بتصريف يسير.

وقد يقول قائل: فكيف تجيب عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؟ وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْفَالِغُونَ﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣]... وأمثالها من الآيات، التي ضمنت لهم النصر والغلبة في الدنيا!

والجواب عن مثل هذه الآيات يتلخص في أمرين:

الأول: أنه يجب أن نفهم معنى النصر المقصود بهذه الآيات وأمثالها.

والثاني: يجب أن نفرّق بين نصر الفرد، ونصر الفئة والجماعة والأمة. وأنه لا تعارض بين انتصار الفكرة أو الفئة والأمة، وبين أن لا يلقي الفرد جزاءه الذي يستحقه في الدنيا.

وبإيجاز شديد أقول: أمّا معنى النصر، فإنه أعمّ بكثير مما يتبادر إلى الأذهان، فإن أكثر الناس لا يرى النصر إلا مرادفاً للغلبة الحسيّة، كالنصر في الحروب، أو الغلبة بالحجّة والبرهان في مجال المجادلة. والمعنى أعم من ذلك بكثير.

فهذا وذاك، من صور الغلبة.

وصبر الداعي وثباته في دعوته، أعني استمراره في طريق الدعوة، من صور النصر. وصبره على البلاء والشدائد، من وشاية واشٍ وحسد حاسد وتعذيب جبّار وغربة واغتراب... كل ذلك صورة من صور النصر.

وهلاك عدوّه والانتقام منه، ولو بعد موته، من صور النصر.

وانتشار فكرته ومبادئه بين الناس، ولو بعد موته، من صور النصر... إلى آخر

ما هنالك من صور النصر^(١).

والمقصود بالجزء الذي يلقاه في الدنيا، ليس هو المرادف للنصر بمعناه الأعمّ ضرورة، وإنما المقصود هو الجزء الدنيوي الذي يلقاه الفرد بذاته من عموم الأمة؛ من أجيالها المتعاقبة، لقاء ما قدمه لهم من خير وإصلاح.

(١) انظر مثلاً: الجامع لأحكام القرآن (٣٢٢/١٥)، وفي ظلال القرآن في مواضع، منها (٢٧٥٣/٥)، (٣٠٨٥)، (٣٥١٤/٦). وقد فصل في معنى النصر وحقيقته وعدد مظاهره، الدكتور ناصر العمر، في كتابه (حقيقة الانتصار).

وكذلك يُقال في الجزء الذي يلقاه الطاغية والجرم ، من الأمة التي يعيش بينها ، أو يمر بذاكرتها .

ثم إنه لا بد لنا أن نفرّق بين نصر الفكرة أو الفئة والجماعة المؤمنة إذا تحققت فيها شروط النصر وأسبابه ، وبين نصر الفرد بذاته .

بل إن من نصر الدين والمبدأ الذي تحمله الأمة وتدعو إليه ، أن يكون بعض أفرادها قرايين لهذا النصر . وهؤلاء الأفراد القرايين يحملون الأفكار والمبادئ ذاتها التي تحملها الأمة وتدعو إليها ، فهم يستحقون - على ما معهم من الحق والخير - الإجلال والتوقير ، ولكن الذي جرى ويجري لهم هو بعكس ذلك من أغلب الخلق . أي أن الدين والمبدأ سيتحقق له النصر والغلبة ، بموجب وعد الله ، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ ، ٩] .

والأمة التي تنصر الحق - بمجموعها - سوف تنتصر بموجب وعد الله الذي لا يتخلف ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [غافر: ٥١] ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] . . . وغيرها من الآيات .

وقد اجتمع الأمران ؛ تحقّق النصر على مستوى الأمة ، وتأخير الجزء الديني على مستوى بعض الأفراد . اجتماعاً في قوله سبحانه: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَزَعٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَزَعٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوْهُمَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ، ١٤١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص ، لا ينافي ما يقع خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ، ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم ، فمن عدّ القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس . . .»^(١) .

«ثم إن الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر ، فيكون لطائفته السعادة في الدنيا

والآخرة، ومن قُتِلَ منهم كان شهيداً، ومن عاش منهم، كان منصوراً سعيداً، وهذا غاية ما يكون من النصر؛ إذ كان الموت لا بد منه، فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل، بخلاف من يموت هو وطائفته، فلا يفوز هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة^(١).

أمّا على مستوى الأمم، فلا يمكن أن تغفل أمة من عقابها، أو تحرم من ثوابها. لا تُحْرَم من ثوابها، بالتمكين لها ونصرها وخذلان عدوّها، وإنزال البركات عليها... ونحو ذلك من مظاهر الإثابة الدنيوية.

ولا تغفل من عقاب الله لها، إمّا بالإهلاك الجماعي، أو بالإدالة عليها، أو بغير ذلك من أنواع العقوبات.

قال تعالى مبيناً سُنَّتَهُ في هذا وذاك: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا...﴾ [يونس: ١٣]، وقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ [النور: ٥٥] الآية.

ومن الحكم الظاهرة لنا في كون الأمم لا بد أن تلقى جزاءها عاجلاً في الدنيا، وأن الأفراد ليسوا كذلك، فقد... وقد. أقول: من الحكم في ذلك - علاوة على ما سبق بيانه - ما سيتضح عند تقرير:

الفرق الثالث، وهو: أن العمل الجماعي والمسؤولية الجماعية للأمة، إمّا وجدا لتحقيق أهداف وبلوغ غايات تنتهي بنهاية الدنيا. وفي الآخرة تنحل الأمة (الكيان) إلى أفراد، وتصبح المسؤولية في الآخرة مسؤولية فردية لا غير^(٢).

وإذا كُنَّا مُتَّفِقِينَ على أنه لا بد لكل عامل من جزاء، وهو كذلك. فإن الأمة (الكيان) الجماعي ذا المسؤوليات المحددة) يجب أن تُلقَى جزاءها الجماعي في الدنيا؛ لأنها غاية تنتهي، ولأن قيمتها وثمرتها لا تحصل إلا في إيقاع الجزاء وتلقيه في الدنيا.

(١) مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، بشرح: محمود شكري الأكرسي، ص ٧٩.
(٢) وليس معنى ذلك أن هذه الأعمال الجماعية لا يترتب عليها جزاء أو تبعه في الآخرة. كلا إنما المقصود أن مسؤوليات الأمة الجماعية تنتهي. ويبقى تلقي الجزاء عليها، كما سيتضح لك ذلك.

ثم إن تأخير هذا الجزء الجماعي عن الدنيا، فيه من المفاصد ما لا يحصى: من غلبة الباطل، وسيادة المبطلين، وفساد الأرض، وضعف الحق وقهره وإذلال أهله.

وفي إيقاعه في العاجلة من المنافع والحكم ما لا يعلمه إلا الله، كما قال سبحانه:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]،

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَمَدَّتْ صَوَابِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ

فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أما الجزء الفردي، فيقع منه في الدنيا ما يقع، وهناك في الآخرة يكون الجزء الأوفى، ويكون حتماً لازماً لكل الأفراد، على كل الأعمال.

قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. حتى الأعمال ذات البعد

الجماعي، يستقل كل فرد بنصيبه منها، على أنها من كسبه، ويأتي بصفته الفردية، مجرداً من الحول والقوة والسلطان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا

نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فمن كان إماماً في الهدى، كان ثوابه أعظم وحظه أوفر، كالأنبياء والمصلحين. ومن

كان مقدماً في الضلال والكفر، كان عذابه مضاعفاً ونكاله وبيلاً، كائنة الكفر

والضلال، كفرعون وهامان وأبي جهل، وسائر أئمة الضلال ورؤوس الكفر.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا

يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا

سَبِيلَنَا وَنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *

وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَنْقَالِهِمْ وَلِيَسْتَلْزَمَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿العنكبوت: ١٢، ١٣﴾ .

وقال سبحانه مبيناً فساد ظن العاص بن وائل أنه يكون معه يوم القيامة مالٌ يقضي به ما عليه من حقوق: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠]... إلى غير ذلك من الآيات .

فامتاز أولئك بعضهم الأجر، وبياء هؤلاء بفادح الوزر؛ نتيجة أعمالهم ذات البُعد الجماعي، على مستوى الأمة، فضلاً عن الأعمال الخاصة القاصرة، المتعلقة بذواتهم .
وقد يقول قائل: كيف نجتمع بين ما ذكرت وبين أمثال قوله تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا...﴾ [الأعراف: ٣٨]؟ وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ [البقرة: ١٦٦]؟ وما ورد من الآيات في محاجة أهل النار بعضهم بعضاً، وهي آيات كثيرة، وردت بأساليب متعددة^(١). وكقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وإخباره عن فرعون أنه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ...﴾ [هود: ٩٨]. وما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الرؤية الطويل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...» الحديث^(٢)؟ وغير ذلك من النصوص .

وهي تفيد أن الأسم يوم القيامة تُحْشَرُ بصورة جماعية، وتدخل النار بصورة جماعية، ويجري بينها من التناول بعد دخول النار ما يجري . فكيف نجتمع بين ذلك، وبين ما قررت قبل من أن جزاء الأمة بكيانها الجماعي شيء ينتهي في الدنيا؟! .

(١) وسيأتي ذكر بعضها قريباً .

(٢) انظر: فتح الباري (٢/٢٩٢)، وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/١٧)، واللفظ لمسلم .

وأقول جواباً عن ذلك: إنه لا تعارض - بحمد الله - بين هذه النصوص ، وبين ما قررته من أن الجزء الجماعي للأمة شيء ينتهي في الدنيا .

ولدفع هذا التعارض المتوهم ، يجب أن نعرف الفرق بين الجزء الجماعي الدنيوي للأمة وبين ما يجري لهم ، ويكون منهم وبينهم في الدار الآخرة ، مما جاء ذكره في الآيات .

فأما الذي يقع في الدنيا من الجزء الجماعي للأمم ، فواضح ، وقد بيّنته فيما سبق .

وخلاصته: أنّ هذا الجزء ضروري لكي يندفع الفساد وتبقى الحياة صالحة للعيش فيها ، ولئلا يسرع إليها الدمار ما لم يوجد هذا التوازن بين القوى ، وما لم يستمر هذا التدافع بصورته الإيجابية ؛ أي أنّه جزء لكي تبقى الحياة إلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم .

ولهذا ، فإنّهُ لتحقيق هذه الغاية ، قد تنال العقوبة البريء إذا كان في مجتمع منحرف ، وقد ينعم بالأمن المجرم إذا كان في مجتمع صالح .
وأما الذي يجري في الآخرة فشيء آخر .

وليكن حديثنا عن الجزء الجماعي للكافرين في الآخرة ، فإنّ عامة النصوص وردت فيه . - إنّه - أعني جزء الكافرين - أشبه بتصفيّة الحسابات بين الشركاء في تجارة فاشلة ، ومراجعة النتائج ونقد الأوضاع بعد فوات الأوان وذهاب الفرص ، كلٌّ يريد أن يأخذ لنفسه ويلقي بالتعبئة على غيره ويبرئ ساحتَه . ولهذا ترتفع أصوات الأتباع - على غير عادتهم في الدنيا - وتظهر العداوة بينهم وبين متبوعيهم على أشدها ، ويطالبون بإنزال أشد العقوبات بهم ، ويكون موقف المتبوعين الذين استكبروا موقف المدافع العاجز عن فعل أي شيء . ولا يُخفي الفريقان بالغ الحسرة والتدامة على ما كان منهم في الدنيا^(١) .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِيهِ رَئِيًّا إِلَّا ظُلْمًا وَمَوْظُوفَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَّضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ أَتَّضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِكُمْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْإِنِّ

وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَ أَنْ تُكْفِرَ بِاللَّهِ وَتَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الشَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴿سبا: ٣١ - ٣٣﴾.

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذ يَتَحَابَّرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿غافر: ٤٧، ٤٨﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحِيصٍ ﴿إبراهيم: ٢١﴾.

وقال: ﴿إِذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا نَدْرِكُهُ فَنُكَلِّمُهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِنَّ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسِرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾.

وقال: ﴿أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَحَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَنَّةِ * وَقَفَّوهُمْ لِيَوْمٍ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ * وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا كُفْرًا تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَوْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَايِينَ ﴿الصفوات: ٢٢ - ٣٢﴾.

وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتًا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لِأَخْرَيْنَاهُ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿الأعراف: ٣٨، ٣٩﴾.

وقال: ﴿هَذَا قَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتَ لَأَمْرَجِبًا بِكَ أَنْتَ قَدْ مَشِئْتَهُ لَنَا فَيَسِّرَ الْفَرَارَ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿سورة ص: ٥٩ - ٦١﴾.

فما يجري لهم هناك في الآخرة أشبه بمحاكمة جماعية لجماعة من المجرمين في قضية واحدة، فهم إبان المحاكمة لا يتمتعون بشيء من مواصفات الجماعة إلا مجرد مظهرها وشكلها، فلا يملكون من أمرهم شيئاً، ولا ينصر بعضهم بعضاً، وليس فيهم أمرٌ ولا مأمورٌ على الحقيقة، بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ومما يؤكد هذا المعنى، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

فإن «كل أمة تُعرضُ على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمة بعد أمة»^(١).

ولا أدل على انحلال روابط الأمة ككيان يمارس دوره الجماعي من أنه لا يدخل معهم النار إلا من كان على مثل ما هم عليه، أمّا من هلك معهم في الدنيا ولم يكن على طريقته، فإنه يبعث على نيته، كما سبق ذلك في الحديث، وهذا بخلاف عقوبات الدنيا التي تعم الصالح والطالح، كما سبق أيضاً بيانه في الفرق الأول.

فإذا عرفت ذلك، وتبين لك الفرق بين الأمة ذات الكيان، القادرة على ممارسة خصائص الأمة في الدنيا، وبين الأمة في شكلها وصورتها مسلوقة الخصائص والإمكانات في الآخرة. فاعلم أنني عنيتُ أن الذي ينتهي في الدنيا هو (الأمة) بالمعنى الأول دون الثاني. وأنّ جزء (الأمة) بالمعنى الثاني أدخل في معنى الجزء الفردي على الأعمال منه في معنى الجزء الجماعي، وإن حصل بصورة جماعية.

أو يُقال: إنه جزء جماعي، مختلف تماماً عن الجزء الإلهي الجماعي بصورته التي تكون في الدنيا. ولا مشاحة في التسمية إذا ما لاحظنا تلك الفروق والملابسات، والله أعلم.

واعلم أنه لا يمكن لأحد - كائناً من كان - أن يفلت من ذلك الجزء في الآخرة أو يمتنع منه؛ إذ هو غاية الغايات لكل عمل، وآخر المشوار في رحلة الإنسان.

فثبت أن الجزء على أنواع:

(١) تفسير ابن كثير (٤١٩/٢).

منه ما يقع في الدنيا دون الآخرة ، وهو جزاء الأمم ، على التفصيل السابق .
 ومنه ما قد يقع في الدنيا ، وقد لا يقع ، وهو جزاء الأفراد في الدنيا .
 ومنه ما لا بد أن يقع في الآخرة ، وهو جزاء الأفراد - كل الأفراد - على أعمالهم
 التي عملوها في الدنيا^(١) .

وإذا ثبت أن هذه الفروق الثلاثة بين الفرد والأمة ، فروقاً معتبرة ومؤثرة ، فإن
 اختلاف السنن الإلهية - تبعاً لذلك - من أعظم مظاهر الحكمة الإلهية ، وبراهين العدل
 الرباني ، فسبحان من هذا بعض شأنه في خلقه ، وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(١) وسيأتي لهذه الفروق مزيد بيان في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) عند الحديث عن الخاصيتين الخامسة والسادسة ، إن شاء الله .

المبحث الرابع

أهمية دراسة سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم

السنن الإلهية في الحياة الإنسانية عموماً، وفي حياة الأمم خصوصاً، موضوع ضخم في حجمه، بالغ الأهمية من حيث قيمته وخطره، فالسنن هي: النظام الإلهي لحياة البشر، ومعرفتها تعني: القدرة على تفسير التاريخ تفسيراً صحيحاً.

والأمة التي لا تعرف هذه السنن، أو لا تعرفها معرفة صحيحة، أمة غير مأمونة العثار، تحبب خبط عشواء وتسعى إلى حتفها بظلفها، وغالباً ما تُوعظ بنفسها، وهي - وإن نجحت في بعض شؤونها - فهو نجاح مؤقت، يكتنفه الغرور والحيرة.

ومن هنا كانت محاولات البشر للتعرف على هذا النظام قديمة، وكل أمة تحاول فهم هذا النظام، وتفسير حركة التاريخ من وجهة نظرها، المنبثقة من تراثها الفكري والعقائدي، ومن تصورها للحياة، ولما بعد الحياة، المتمشية مع حاجاتها ومتطلباتها؛ أي من مكوناتها الحضارية وطموحاتها^(١).

وكان كل ما نُقِلَ عن أمم الحضارات الجاهلية القديمة في هذا الجانب (نظرات متفرقة) لا ترقى إلى مستوى (النظرية المتكاملة)^(٢).

«فلما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي (٦١٠م)، وتكامل نزول القرآن بعد ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً من هذا التاريخ، وجد الباحثون النطاسيون^(٣) في القرآن إطاراً متكاملًا لتفسير التاريخ، وهو إطارٌ متكاملٌ في تفسيره للتاريخ؛ يتناول الواقعة التاريخية تناولاً تحليلياً، ويتناول الحضارة تناولاً تركيبياً، ويقدم من خلال منهجي التحليل والتركيب - في أروع تكاملهما - تفسيراً للعملية الحضارية في سائر مراحلها:

فهناك إطارٌ لعوامل نشأة الحضارة. وهناك إطارٌ لعوامل ازدهارها وبقائها. وهناك إطارٌ لعوامل انهيارها.

(١) انظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، د. عبد الحليم عويس، ص ٥١ وما بعدها.

(٢) انظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٣. وانظر: كلمة في تحليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ٥ وما بعدها.

(٣) الحدائق العالمون بالأمر. انظر: اللسان، مادة (نطس).

وهناك مؤشرات ومعالم لعوامل النهوض والاستئناف للمسيرة الحضارية بعد كل عملية انحدار^(١).

كما أنه - أعني القرآن - إضافة إلى اشتماله على الإطار المتكامل لتفسير التاريخ، إضافة إلى ذلك، يتميز بأن غايته من عرض السنن وتعليل الأحداث، تهذيب البشر وتربيتهم وتزكية نفوسهم، وإبراز دور الإنسان وتأثيره الضخم في صناعة الأحداث وسيرها^(٢).

وحتى نتبين أهمية هذه الدراسة لسنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم - بصورتها الموضوعية المتكاملة - فإننا علينا أن نعرف أوجه النقص والقصور في الدراسات الأخرى. وحتى نصل إلى ذلك، سأحاول - بصورة مختصرة - الإجابة على التساؤلات التالية:

* إلى أي حد كانت صلة العلماء من المفسرين والمؤرخين وغيرهم بهذا الإطار القرآني المتكامل لتفسير التاريخ في كتاباتهم، وتفسيرهم للنصوص، ومعالجتهم لأدواء الأمة؟

* ومتى أصبحت دراسة السنن علماً قائماً برأسه، ذا حدود ومعالم، وصنفت فيه المصنفات، وقامت حوله الدراسات؟

* وما مدى صلته في طوره الأخير بهذا الإطار القرآني المتكامل؟

فأقول مستعيناً بالله:

إنه على الرغم من وجود هذه المنظومة المتكاملة للسنن، وهذا الإطار المتكامل لتفسير التاريخ في القرآن الكريم، فقد كانت عناية العلماء بهذا العلم أقل بكثير من عنايتهم بأنواع العلوم الأخرى؛ الشرعية واللغوية، المستمدة من القرآن الكريم^(٣).

ولا أشك أنهم - رحمهم الله - لم يتركوا هذا الجانب الحيوي من كتاب الله تعالى دون بيان شافٍ غفلة منهم أو إغفالاً^(٤) - وما هم بمعصومين - ولكن كيف يدعونه وهم الذين تفتشوا في استنباط العلوم، وأوسعوها دراسةً وبحثاً، أصبح كل من جاء بعدهم عيالاً

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٣.

(٢) انظر: كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ٩.

(٣) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩، وتفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٤.

(٤) قال ابن خلدون في هذا المعنى معتدراً عن الأوائل عموماً: «ولعمري لم أتف على الكلام في منحا لأحد من الخليفة، ما أدري الغفلتهم عن ذلك - وليس الظن بهم - أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه، ولم يصل إلينا». انظر: تاريخ ابن خلدون (٣٢/١٢).

عليهم، إلا في القليل منها، وكيف يغفلونه عمداً وقد فנית أعمارهم فيما دونه من العلوم؟!

والحقّ أنهم لم يغفلوا علم السنن وتفسير التاريخ بإطلاق، كما يظن ذلك من يظنه فيهم، بل بيّنوه بما يتناسب والظروف التاريخية المحيطة بهم والأساليب والمناهج العلمية المتبعة في زمانهم، وكان بيانهم له بطريقتين: علمي، وعملي .
أما العملي:

فقد كان المسلمون إبان ظهور الإسلام، أمة قد خلقت خلقاً جديداً؛ أمة انبثقت من خلال نصوص الكتاب، بقيادة الرسول ﷺ، وكان الدين الذي يحملونه «قوة عقديّة حضارية جاءت تغير العالم وتبنيه من جديد، فلم يكن لدى المسلمين الوقت لكي يفسروا العالم، لقد كانوا مشغولين بأخطر عملية في التاريخ، كانوا يجاهدون في سبيل تغيير العالم، دون أن يتكلموا كثيراً في القضايا النظرية»^(١) . . . يغيرون العالم، منطلقين من أقوى إحساس تاريخي، ومسؤولية حضارية يمكن أن تشبع بها أمة من الأمم . والجندي المسلم يحسّ بأنه رسول حضارة جديدة، ويترجم حقيقة هذه الحضارة في كلمات وجيزة بليغة في موقف تاريخي وليس من فوق برج عاجي

«إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٢) .

وهذا البيان العملي، أكبر دليل على أنهم استوعبوا السنن الإلهية التي تعلموها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وهو بيان لا يصح أن يُستهان به، أو أن يفصل من عملية تفسير التاريخ؛ إذ هو تجربة واقعية ناجحة، وعلى ضوء هذه التجربة يمكن فهم بيانهم العلمي؛ وهو (الطريق الثاني) ووضع موضع الطبعي .

الطريق الثاني: البيان العلمي:

وفيما يتعلّق بالطريق العلمي، فإنّ أهل العلم من المفسرين وغيرهم فيما مضى، قد بيّنوا السنن وتكلّموا فيها بقدر ما كانوا يرون الحاجة ماسة إليه، وبأسلوب الذي كانت تتناول به الدراسات الإنسانية النظرية آنذاك، وكانوا يلفتون الأنظار إلى السنن المبتوثة في القرآن في كثير من المناسبات .

(١) انظر: في الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/٥٩٠، ٥٩١)، من بحث بعنوان: (ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية)، للشيخ عثمان عبد القادر صافي . وانظر: كلمة في تحليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٠ .

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٠٦ بتصرف . وقائل هذه الكلمات: ربعي بن عامر، في مواجهة رستم قائد الفرس .

ومن يطالع كتب التفسير، بدءاً بتفسير ابن جرير^(١) فمن بعده كتفسير ابن عطية^(٢) والبغوي^(٣) وابن كثير^(٤) وغيرهم، يقف من ذلك على الكثير والكثير من الإشارات والتنبيهات^(٥).

صحيح أنهم لم يتوسّعوا في الكلام على السنن، ويعالجوا الواقع من خلالها، كما فعل بعض المتأخرين، وصحيح أنهم لم يفرّدوا بحثها في كتب خاصة، كما فعلوا ذلك في بقية العلوم.

وعذرهم في ذلك: طبيعة العصر، ومدى الحاجة إلى التوفر على مثل هذا اللون من الدراسات^(٦). عذرهم أنهم كانوا يعيشون في ظل أمة غالبية قاهرة قروناً من الزمان، فاشتغلوا بتفاصيل الأحكام ودقائق العلاقات، ولم تنحرف المسيرة التاريخية بهم بصورة واضحة كما هي الحال في القرون المتأخّرة. ومثل تلك الأجواء لا تستثير النفوس والعقول عادة للعكوف على دراسة السنن على النمط الذي نشده اليوم.

ولا أدلّ على ذلك من أنه لما تفاقمت الخطوب، وانتصت أرض الإسلام من أطرافها، وضوّل الإبداع وفشا التعصب والجمود، ظهرت كتابات مختلفة؛ تاريخية وغير تاريخية، ألقت الأضواء على جوانب مأساة الأمة، في المشرق الإسلامي وفي المغرب على حدّ سواء.

وهي تؤلف في مجموعها تياراً غير منظور في هذا الاتجاه، إلا للمتأمل الفطن، فالموسوعات التاريخية فيها إشارات قويّة إلى أهمية التاريخ، وأوجه الاعتبار به. ومن يطالع مقدمات أسفارهم، ويقتنص من بطون كتبهم فرائد إشاراتهم، يجد معالم تفسير التاريخ غير خافية^(٧). ولنأخذ أمثلة على ذلك:

- (١) محمد بن جرير الطبري، إمام المفسرين والمؤرخين. توفي سنة (٢٣١٠هـ).
- (٢) القاضي الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب الغرناطي، فقيه وإمام في اللغة والتفسير، وكتابه (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) من التفسير الجامعة بحق بين المنقول والمعقول، ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. توفي سنة (٥٤٦هـ). انظر: المعجم، لابن الأبار، ص ٢٦٩، بغية الملتبس، ص ٣٨٩.
- (٣) شيخ الإسلام، محيي السنة، أبو محمد، الحسين بن مسعود، صاحب السفر العظيم (شرح السنة)، ومصنف (معالم التنزيل) في تفسير القرآن، توفي بمرور سنة (٥١٦هـ). انظر: البداية والنهاية (١٢/١٩٣)، وله ترجمة مطولة في: شرح السنة (١٩/١) بقلم المحقق.
- (٤) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير، القرشي، الدمشقي، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية المرزبن، فقيه محدث ومفسر مؤرخ، اشتهرت تصانيفه في حياته وبعد مماته، وكتابه في التفسير والتاريخ شاهدان بإمامته وعلو كعبه. كانت وفاته في دمشق سنة (٧٧٤هـ). انظر: طبقات المفسرين، للداودي (١/١١١)، والبدرد الطالع (١/١٥٣).
- (٥) وسيمر بك في ثنايا البحث، نقول ونصوص عن طائفة منهم، في كثير من المواضع.
- (٦) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩.
- (٧) انظر: تاريخ ابن خلدون (١/٣٣).

من المؤرخين - مثلاً - المسعودي^(١) .

«ونستطيع أن ندرك اهتمام المسعودي بتفسير التاريخ، فيما ذكره في مقدمة كتابه «التنبيه والإشراف» تعقياً على كتبه التي لم تصل إلينا، فقد ذكر أنه تناول فيها الأخبار عن بدء العالم والخلق، وتفرقه في الأرض والممالك والبر والبحر، والقرون البائدة والأمم الخالية... والأنبياء وذكر قصصهم، وسير الملوك وسياساتهم، ومساكن الأمم، وتباينها في عاداتها واختلافها في آرائها... وما قاله حكماء الأمم في كيفية شبابها وهرمها، وعلل جميع ذلك... وعلّة طول الأعمار، وآداب الرياسة وضروب أقسام السياسة الدينية، ولأي علّة لا بد للملك من دين، كما لا بد للدين من ملك، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، ولمّ وجب ذلك وما سببه؟ وكيف تدخل الآفات على الملك، وتزول الدول وتبيد الشرائع والمملّ؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين، والآفات الخارجة المعترضة لذلك، وتحصين الدين والملك، وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتلّ من نفسه»^(٢) .

ومنهم: ابن الجوزي^(٣) في كتابه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، يقول في مقدمته مشيراً إلى أهمية علم التاريخ وفائدته: «إنّ للسير والتاريخ فوائد كثيرة، أهمها: فائدتان:

إحدهما: أنه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصف عاقبة حاله، أفادت حُسن التدبير، واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط ووصفت عاقبته، أفادت الخوف من التفريط. فيتأدّب المتسلّط، ويعتبر المتدكّر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول.

والثانية: أن يطلع بذلك على عجائب الأمور، وتقلّبات الزمان، وتصاريف القدر...»^(٤) .

(١) هو: أبو الحسين علي بن الحسين، يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، من أهل بغداد، له مصنفات في التاريخ، من أشهرها: كتابه (مروج الذهب)، وكان معتزلياً. توفي سنة (٣٤٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥٦٩/١٥)، والأعلام (٢٧٧/٤).

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٣، وانظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي، ص ١ - ٣.

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صاحب التفسير والتاريخ، الواعظ المشهور، ولد وتوفي ببغداد سنة (٥٩٧هـ). انظر ترجمته مطولة في: وفيات الأعيان (١٤٠/٣)، والبداية والنهاية (٢٨/١٣)، والأعلام (٣١٦/٣).

(٤) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٨.

ويشير العماد الأصبهاني^(١) في كتابه المعروف «الفتح القسي في الفتح القدسي» إلى فائدة التاريخ، فيقول: «ولولا التاريخ، لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة، وتعدر الاعتبار بمسألة الأيام وعقوبتها، وجُهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء سهولتها من صعوبتها»^(٢).

وفي المغرب طلعت شمس ابن خلدون^(٣) في مقدمته الشهيرة في علم الاجتماع، وأحوال العمران، وتفسير التاريخ، وهو بحق يُعدّ رائد هذا العلم، وإمام أئمتة، وصاحب النظرية الشمولية والرؤية الأكثر تكاملاً في هذا الباب^(٤).

وقد بنى ابن خلدون تعليله للتاريخ، وكيفية تفسيره «على أساسين:

الأول: استقرار القوانين المسيطرة على سير التاريخ، من حوادث التاريخ نفسها.

والثاني: الإمام بأكثر عدد ممكن من العوامل التي يجوز أن تؤثر في تطوّر المجتمع؛ لأنّ أحداث التاريخ ترجع - عادة - إلى أسباب متنوعة متشابكة، يكون لها نتائج كثيرة مختلفة، فدرس التاريخ إذن، محتاج إلى الإمام بتلك العوامل كلها...»^(٥).

تلك مجرد إشارات في الجانب التاريخي، واستطلاع خاطف لآراء بعض المؤرخين.

وفي الصفحات التالية نستكمل المشوار، ونقف مع بعض الدراسات المحدثة في هذا الجانب، وهي أشبه بدراسات متخصصة في باب تفسير التاريخ، ودراسة السنن والقوانين الإلهية التي تحكم البشر، وتنظم شؤونهم في هذه الحياة.

ونحن إذا تجاوزنا مواقف المؤرخين وآراءهم، فإنّ هناك من غير المؤرخين؛ أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي ضمّت فتاواه وكتاباتة نظرات رائعة وتنبهات نفيسة، في

(١) هو: محمد بن محمد صفي الدين، أبو عبد الله، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، فقيه مؤرخ عالم بالأدب، اتصل بالوزير ابن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط، ورحل إلى دمشق فتولى ديوان الإنشاء عند نور الدين، ثم لحق بصلاح الدين من بعده. ثم لزم مدرسته المعروفة بالعمادية بدمشق، وتوفي بها سنة (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٤٥/٢١)، والأعلام (٢٦/٧).

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١١٩. وانظر: الفتح القسي (٤٤/١).

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. اشتهر بكتابه (العبر ودبوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)، ومقدمته التي تعد من أصول علم الاجتماع، توفي بالقاهرة فجأة، سنة (٨٠٨هـ). انظر: الأعلام (٣٣٠/٣).

(٤) انظر: ابن خلدون إسلامياً، د. عماد الدين خليل، وكلمة في تحليل التاريخ لعمر فروخ، ص ١١. وتفسير التاريخ علم إسلامي، لعبد الحليم عويس، ص ١٤٠. وقد عرض هذا الأخير لطائفة من المؤرخين، ولخص آراءهم في تفسير التاريخ وثمرة دراسته.

(٥) كلمة في تحليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٢.

مجال السنن الإلهية، وتفسير التاريخ^(١).

ويُعدُّ في طليعة من أبرز السنن الإلهية من خلال النصوص، ووظفها لمداواة أدواء الأمة.

بل نستطيع أن نلمح جانب العبرة من التاريخ والإفادة من المواقف والأحداث حتى في بعض التجارب الشخصية لمن عاصر تحول الأحوال، أو أصابته النوائب في شخصه أو أهله أو موطنه وبنو دينه وقومه.. فانبعثت همته على تسطير ما حدث، وربطه بما سبقه وما حوله، وتوجيه الأنظار للاعتبار به.. وهذا وإن كان عاماً في المسلمين وغيرهم، إلا أن المسلمين ينفردون - في الجملة - عن غيرهم برؤية خاصة، وتعليل للأحداث متميز.

ومن أمثلة ذلك: ما سطره الشاعر الأمير أسامة بن منقذ بعد إصابة أسرته وآله بالزلزال في قلعة (شيزر) في كتاب (الاعتبار، المنازل والديار)، وما حبره الشاعر أبو البقاء الرندي في نونيته التي رثى بها الأندلس وأهلها وما حلَّ بها.

كما نجد مادة وفيرة في هذا الجانب في الموسوعات الجامعة للحكم والأمثال ونوادر الأشعار في مختلف شئون الحياة، ومنها مثلاً: كتاب (الأدب الصغير) لابن المقفع، و(الأخلاق والسير في مداواة النفوس) لابن حزم، و(أدب الدنيا والدين) للماوردي، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(بهجة المجالس، وأنس المجالس) لابن عبد البر القرطبي، و(لباب الآداب) لابن منقذ... وغيرها. فإنَّ فيها من النصوص والحكم والدلائل ما لو جمع وهذب ورتب لكان شيئاً عظيماً، خاصة فيما يتعلَّق بما نحن بصدده وهو موضوع سنن الله في الأمم.

ثم تتابعت بعد ذلك الدراسات في هذا الميدان، عند المسلمين وغير المسلمين، ولكن بأزمة متفاوتة.

فقد «تبقَّظ الأوربيون منذ بداية عصر النهضة»^(٢)، وبدأوا بالنظر إلى التاريخ نظرة

(١) وقد مرَّ بك رأيه في مسألة: اطراد السنن الإلهية المتعلقة بدينه وشرعه، وستقف على شيء من آرائه في ثنايا البحث، بإذن الله تعالى.

(٢) المقصود بها: النهضة الأوروبية، التي توجت بالثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر، وهو توقيت صحيح بالنسبة للأوربيين. وبالنسبة أقول: لقد درج على السنة الكُتاب والمتحدثين في العالم الإسلامي، إطلاق عصر النهضة على يقظة العالم الإسلامي، ويؤرخون لبدايته بحكم محمد علي لمصر وبالحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وربط نهضة العالم الإسلامي بهذين الحداثين فيه نظر من الناحية التاريخية والدلالية - وليس هذا مجال تحقيق ذلك - ويكفي أن تعلم أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته الجهادية كانت سابقة لذلك كله، ومع ذلك قلُّ من يؤرخ للنهضة بها أو يذكرها كسبب رئيس من أسبابها. نعم، إن كانوا يقصدون بالنهضة، تلك التي يمت وجهها =



أقرب إلى الشمولية والتكاملية»^(١).

وتأخر بحث تفسير التاريخ ودراسة السنن الإلهية في حياة الأمم على مستوى العالم الإسلامي - بعد ابن خلدون - إلى وقت قريب، بعد أن صبغه الغربيون بلوثاتهم الجاهلية، فحسب أكثر الناس - لجهلهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبتراث سلفهم - أن تفسير التاريخ علم غربي المولد والنشأة.

لقد تأخر ككل شيء في العالم الإسلامي المعاصر، ولكنه بدأ، وشاعت كلمة السنن. وكثر الحديث عن هذا الجانب، وعن ضرورة إحيائه، ومعالجة واقع الأمة المرير على ضوءه. وتكلم فيه مفكرون ومفسرون.

وكان الحديث في أول الأمر أشبه بمحدث المناسبات، وكانت الكتابة فيه عبارة عن مقالات في الصحف والمجلات.

وتعدّ «مجلة المنار» التي أصدرها الشيخ رشيد رضا، خير ما يمثل هذا الاتجاه. ثم تحوّل إلى فكرة مسيطرة، ونذر رجال أنفسهم لشرحها، فكانت جلّ كتاباتهم وأحاديثهم تدور حول محورها.

ومن تميز بذلك: الكاتب والمفكر الإسلامي «مالك بن نبي»^(٢)، الذي يعدّ مدرسة في هذا الاتجاه^(٣).

ثم خطّت الدراسات نحو الأمام أكثر فأكثر، فأصبحت ترى كتباً ودراسات تخصصية في (تفسير التاريخ) وفي (دراسة السنن) من منظور إسلامي^(٤).

منها على سبيل المثال: «تفسير التاريخ» لعبد الحميد صديقي، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» للدكتور عماد الدين خليل، و«تفسير التاريخ علم إسلامي»، و«الصفحات

= جهة الغرب، أو كما قال أحدهم: النهضة التي أشرقت غرباً. فيكفي برهاناً على فساد هذه النهضة، أن يكون محمد علي والحملة الفرنسية رؤاها وقادتها.

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٣٩. وقوله: «أقرب إلى الشمولية والتكاملية»، أي في مقابل النظرات الجزئية، بغض النظر عن الصواب والخطأ في النتائج. وانظر تفصيل مناهجهم باختصار في تحليل التاريخ في: كلمة في تحليل التاريخ، ص ٢١ وما بعدها، ويتوسع في: فكرة التاريخ، ر. ج. كولنجود، ترجمة: محمد بكر خليل.

(٢) من مواليد قسنطينة في الجزائر، تخرّج مهندساً كهربائياً من باريس، واتجه نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي عموماً والمغرب العربي خصوصاً، كان يرى أن مشكلة العالم المتخلف مشكلة حضارية أولاً وقبل كل شيء. ولهذا وضع كتبه كلها تحت عنوان (مشكلات الحضارة)، كان كاتباً متميزاً، يكتب باللغتين العربية والفرنسية. توفي سنة (١٣٩٣هـ). انظر في ترجمته: الأعلام (٥/٢٦٦)، وله ترجمة موجزة على غلاف العديد من كتبه المطبوعة.

(٣) وتستطيع أن تلحظ هذا الاتجاه فور قراءة أي من كتبه، بل إن عناوين كتبه شاهدة بذلك.

(٤) على ما بينها من تفاوت، وما قد يكون في بعضها من ملحوظات. وليس المقام هنا مقام دراسة وتقويم لها.

الأخيرة من حضارتنا»، كلاهما للدكتور عبد الحليم عويس، و«النظام الإلهي للرقمي، والانحطاط» لمحمد تقي أميني، و«أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين» لعبد الله التليدي، وغيرها.

وأصبحت ترى من بين هذه الكتب دراسات في تفسير التاريخ واستقراء السنن الربانية، تستند في رؤيتها واستنباطها على نصوص القرآن بصورة شبه كلية.

وهذه مرحلة متقدمة في التعامل مع كتاب الله فيما يتعلق بتفسير التاريخ واستقراء السنن الإلهية من خلاله. وإلى جانب هذه الدراسات التاريخية المستقلة، كانت هناك كتب التفسير التي برزت فيها العناية بقضايا الأمة المعاصرة، وكان تخلف الأمة الحضاري، ومحاولة بعثها من جديد هما ملازما وقضية حيّة في أذهان هؤلاء المفسرين، وهم يكتبون تفاسيرهم.

ولا شك أن قدرًا من هذا الهمّ يكاد يكون عاماً في تفاسير المعاصرين، إلا أن تمييز بعضهم بوضوح الفكرة في ذهنه، وشدة الاهتمام بهذا الجانب، أمرٌ ظاهرٌ بيّن، وشيءٌ مشهورٌ مشهودٌ.

وعلى رأس هذه التفاسير، وفي مقدمتها: «تفسير المنار» لرشيد رضا، و«في ظلال القرآن» لسيد قطب، و«تفسير التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور^(١).

وبهذا الاستعراض الخاطف، والعرض التاريخي المقارب للجهود المبذولة، والظروف والملابسات التي اكتنفت دراسة السنن، يتبيّن لنا بجلاء: أن مصطلح «تفسير التاريخ»، أو «فلسفة التاريخ»، و«دراسة السنن» التي هي النظام الإلهي لحياة الأمم، بالنظر إليه علماً قائماً برأسه، ومصطلحاً له حدوده وأبعاده، أن هذا شيء «حديث النشأة»، شأنه شأن كثير من المصطلحات التي تكون مضامينها موجودة ومبعثرة في الفكر الإنساني، ومختلطة بغيرها من المفاهيم، دون أن تحمل اسماً خاصاً مستقلاً.

ولا يعني عدم استقلال أي مصطلح أو مفهوم من هذه المصطلحات أو المفاهيم، أنّها لم تكن موجودة في الوعي الإنساني. فكل ما هنالك أنّها لم تكن قادرة على الوقوف مستقلة؛ لأنّ أركانها - كعلم - لم تكن قد اكتملت بعد^(٢).

(١) أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، وهي رسالة دكتوراة للباحث مشرف بن أحمد بن جمعان، في جامعة أم القرى.

(٢) تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٤٧ بتصرف يسير.

وها هنا أعيدُ إلى الأذهان سؤالاً سابقاً، وهو: ما مدى الارتباط بين تلك الجهود المبذولة من المتقدمين والمتأخرين في مجالي تفسير التاريخ، ودراسة السنن التي يقوم عليها نظام الحياة؟ ما مدى الارتباط بينها وبين كتاب الله تعالى؟ وإلى أي حد يمكن القول: إن هذه النظرات والنظريات والفهوم مبنية على أساس من نصوص الوحي؟

وباختصار أقول: إن تلك الجهود المبذولة على مستوى العالم الإسلامي، يجمعها أنها كتبت - في مجملتها - بروح إسلامية، ومن منظور إسلامي.

يشهد لذلك ويؤكد، تفسيرهم لأهم الظواهر التاريخية، كأسباب هلاك الأمم، والتأكيد على حُسن عاقبة الرُسل وأتباعهم، وابتلاء المؤمنين، والإمهال للكافرين، ونحوها من الأحداث التي تشكل أهم مظاهر حركة التاريخ.. إنهم يستندون إلى نصوص الوحي صراحة، أو تضمنين وتبني رؤيته وتفسيره لها. وتلك حقيقة يشهد بها كل منصف طالب للحق.

لكنها عند التأمل لا تخرج عن إحدى صور ثلاث:

* فهي إما نظرات وإشارات في كتب التاريخ، فهي متفرقة بحسب الحوادث لا يجمعها نظام ولا تشكل منظومة واحدة، كما أنها ليست منبثقة من النصوص مباشرة.

* وإما إشارات وتنبهات في كتب التفسير، وتلك - وإن انبثقت من النصوص مباشرة - ففيها ما في سابقتها من إشكالية التفرق؛ لارتباطها بمناسبة تفسير الآيات أكثر من ارتباطها بدراسة السنن دراسة موضوعية.

* وقد تكون دراسات وبحوثاً مستقلة في دراسة السنن وتفسير التاريخ، وهذه - على جودة الكثير منها - لم يبلغ اعتمادها على النصوص واستمدادها منها الحد المأمول، وإنما كانت النصوص تشكل مرجعية ورافداً لها.

فأنت ترى أن في كل منها جانباً يكمل نقص صاحبيه، والمطلوب جمع حسنات هذه الصور الثلاث.

وقد تنبّه بعض الباحثين إلى ضرورة هذا التكامل في دراسة السنن، بحيث تكون منبثقة من النصوص، معتمدة عليها، جاعلة من مادة التاريخ وأحداثه ميداناً لتطبيقها، وأن تُصاغ صياغةً موضوعيةً مستقلة، آخذاً بعضها برقاب بعض.

ويعد الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «التفسير الإسلامي للتاريخ» - من وجهة نظري^(١) - من رواد هذا المنهج التكاملي في دراسة السنن، من الناحيتين: النظرية، والتطبيقية على حوادث التاريخ؛ وذلك لأمر، منها:

- تأكيده الشديد على أن القرآن مشتمل على أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي حكمت الظواهر الاجتماعية - على امتداد التاريخ - وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و(نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال^(٢).

ويقول: «إن الرؤية التاريخية ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً... أي سورة قرأت... أي صفحة شاهدت، طالعتك هذه العروض والإشارات المسهبة أو الموجزة، إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل مجموعها نسقاً رائعاً ومتكاملاً للتفسير الإسلامي للتاريخ»^(٣).

وانتقد من أغفل هذا المنهج الواضح في القرآن من الباحثين، ونبه إلى «أن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج»، وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل»^(٤).

كما انتقد ابن خلدون نفسه حيث «وقع في الخطأ ذاته عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال. وكان أحرق به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق»^(٥)، وقال: إن «ابن خلدون غير ملم تماماً بالمنهج القرآني في تفسير الواقعة التاريخية، وأن رؤيته الدينية لا تمثل انعكاساً كاملاً وأميناً للمعطيات القرآنية؛ لأنه لم تكن قد تواجدت بعد تفاسير شمولية للقرآن الكريم تتيح للباحثين الاستمداد

(١) وانظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٥.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨، ٩.

(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٧.

(٤) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩. وقد أشار ابن خلدون في تاريخه (٣١/١، ٣٢) إلى أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعل مقصوده: أن التنظير لهذا العلم والتصنيف فيه من جهة العلماء شيء حادث.

(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩.

الأكثر موضوعية وامتداداً من كتاب الله . . . وإن كان - من جهة أخرى - على إمام تام بمعطيات كتاب الله تعالى في حقل التاريخ والاجتماع . . .»^(١).

- محاولته تطبيق هذا المنهج عملياً من خلال النصوص مباشرة .

يقول: «لقد أدركتُ من خلال تدريسي مادة «مناهج البحث وفلسفة التاريخ» مدى ضرورة عرض التفسير الإسلامي للتاريخ في بحث موسع شامل، يستمد رؤيته من كتاب الله مباشرة، ويتجاوز - كليةً - معطيات الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين الذين تأرجح كثير منهم بين تهاويل الخيال القصصي الإسرائيلي، وبين أطروحات الفلسفة اليونانية ذات التصور الوثني، وبين النزعات العقلية والطبيعية التي سادت القرنين الأخيرين، ولقد قادهم هذا التأرجح والجنوح إلى مواقع ما تلبث أن تتفكك ويبدو زيفها واصطناعها الكيفي بمجرد عرضها على المعطيات القرآنية مباشرة .

وما دام الأمر يستهدف عرض وتحليل الموقف الإسلامي من حركة التاريخ، فإننا، إذا ما توخَّينا الدقة والموضوعية، ألا نرجع إلا إلى مصدره الأول والأخير: القرآن . وهكذا وجدتي ملزماً أن أقف، بالصرامة التي يتطلبها منهج البحث العلمي، عند معطيات هذا المصدر اليقيني الثابت منذ أول خطوة في البحث، وحتى آخر كلمة فيه . . .»^(٢).

ثم ابتداءً ذلك عملياً باستعراض منهج القرآن في عرض الواقعة التاريخية، وثنى بالحديث عن نشوء وتطور الأمم، ويسميتها: المسألة الحضارية .

وأخيراً بموقف القرآن ونظرته إلى مسألة سقوط الدول والحضارات، كل ذلك من خلال النصوص القرآنية مباشرة، فهو يجعل النصوص أصلاً وأساساً، ويحاكم إليها كل الظواهر التاريخية^(٣).

- كما يُعدُّ الأستاذ محمد قطب في كتابه «حول التفسير الإسلامي للتاريخ» من أولئك القلة الذين تنبهوا لهذا الأمر - نظيراً وتطبيقاً - وإن كان أولى الناحية النظرية التصورية عناية خاصة . فقد عرض بوضوح لأهم القضايا التي يركز عليها التفسير الإسلامي للتاريخ، وشفح ذلك بأمثال تطبيقية، ومن ذلك:

(١) ابن خلدون إسلامياً، ص ٨ - ١٢ بتصرف .

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٧ .

(٣) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٥ إلى نهاية الكتاب ص ٣٢٥ .

- تأكيده الشديد على ضرورة الإيمان بوجود فرق هائل بين التفسير الإسلامي للتاريخ، وبين التفاسير الجاهلية له.. فرق في كل شيء؛ في النظر إلى ماهية الإنسان وحقيقته، وفي علاقته بقدر الله وموقفه منه، وفي نظرتة إلى السنن، وتقويمه لطبيعة الصراع الدائر بين البشر، وفي معيار الإنجاز البشري... فرق في كل شيء، تماماً كالفرق بين الجاهلية والإسلام.

وحيثما دعا إلى ضرورة هذا الإيمان بوجود ذلك الفرق بين التفسيرين، التفسير الإسلامي، والتفاسير الجاهلية، لم يدع دعوة مجردة لا يملك الدليل عليها... كلا، بل بيّن وفصّل، ووضع النقاط على الحروف، كلما دعت إلى ذلك البيان حاجة^(١). وهنا تكمن قيمة هذا الكتاب.

- التأكيد على وجود منهج متكامل للسنن الربانية في كتاب الله تعالى، وعلى أهمية هذا المنهج وعرض نماذج من هذه السنن من خلال النصوص على طريقة القرآن.

ونحن أحوج ما نكون إلى إبراز هذه الحقيقة، والعمل على خلق قناعة عامة بها، خلق قناعة بأن القرآن لا يحوي مجرد إشارات، بل يشتمل على أصول المنهج وعلى تطبيقاته، ومن ثم طرح نماذج عملية تُحتذى.

يقول ميبناً ذلك: «لا بد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولا بد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، وإن المتدبر لكتاب الله ولسنّة رسوله ﷺ، ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله، والسنن الواردة في كتاب الله وفي السنّة المطهّرة كثيرة متعددة، وإثماً حسبنا هنا أن نشير إلى أهمية دراسة السنن وإبرازها في التفسير الإسلامي للتاريخ، مع إشارة سريعة إلى نماذج منها»^(٢).

وقبل أن يعرض لشيء من تلك السنن الربانية، قدم لها بمقدمة هامة، قال فيها: «إن من أول ما يلحظه الدارس لموضوع السنن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن هناك سنناً عامة - وهي الأكثر عدداً والأوسع مساحة في التاريخ البشري - تشمل (الإنسان) مؤمنه وكافره.. وسنناً خاصة - وهي الأقل - تقع للمؤمنين وحدهم، أو للكافرين وحدهم،

(١) انظر على سبيل المثال: ص ١١ وما بعدها، ص ٢٧ وما بعدها، ص ٧١ وما بعدها، ص ١٢٥ وما بعدها، ص ١٦٤ وما بعدها، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

ولكنها رغم خصوصيتها سنن جارية؛ أي أنها تتكرر للمؤمنين ولا تقع للكفار، أو تتكرر للكفار ولا تقع للمؤمنين^(١).

ثم ذكر أمثلة لذلك كله، وكان مما ذكر من هذه السنن: «إن الله أعطى عطاءه لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، ليلوهم أيهم أحسن عملاً»^(٢).

ومنها: «بيان حال المؤمنين وحال الكفار في الحياة الدنيا، وبيان مصيرهم في الآخرة، فهؤلاء وهؤلاء يمتنون، ولكن يختلف نوع الحياة بين هؤلاء وهؤلاء اختلافاً كبيراً رغم اشتراكهما الظاهري في التمكين؛ لأن كلا منهما مُمكنٌ لأسباب مختلفة عن الآخر».

المؤمنون ممكنون تمكين الرضا، والكافرون ممكنون تمكين الاستدراج.

ويخص المؤمنون - في تمكينهم - بصفتين لا تنالان الكفار أبداً:

البركة والطمأنينة^(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ومنها: «تحقق التمكين للكفار وهم عصاة، وعدم تحققه للمؤمنين إلا وهم مستقيمون على الطريق»^(٤).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]... إلى آخر ما ذكر هنالك من السنن.

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٧.

(٣) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٥.

(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٥.

ومن تلك الدراسات القيّمة في هذا المجال: كتاب «الصفحات الأخيرة من حضارتنا»، للدكتور عبد الحليم عويس .

والكتاب كله دراسة نقدية تقييمية لجوانب من التاريخ الإسلامي بمنهجية المسلم المستوعب للسنن الإلهية التي تحكم تصرفات البشر، وتخضع لها الأمم والدول، والمسلمون أولى من تنطبق عليهم تلك السنن وهذه القوانين .

ويبدأ الكاتب بحثه بالإشارة إلى أن «المكتبة الإسلامية والتاريخية حافلة بالدراسات والقصص حول الصفحات الوضيئة من تاريخنا. ولكم كَتَبَ الكاتِبون حول صنّاع الحضارة الإسلامية، ولكم أظنوا في الحديث عن أبطالنا وعن فضلنا على أوروبا .

ولقد ظهر تاريخنا من خلال هذا التركيز وكأه تاريخ أسطوري، وكأن الذين عاشوا وأسهموا في صنعه ملائكة وليسوا بشراً»^(١) .

ثم يستعرض النتائج الخطيرة التي تمخضت عن هذا (المنهج):

وأولها: ترك مهمة التحليل العلمي لتاريخنا لأعداء هذا التاريخ، الذين راحوا يركزون على الجوانب السلبية منه .

وثانيها: ضياع الحقائق الموضوعية المتصلة بهذا التاريخ، وانقسام الناس بصدده إلى قسمين: قسم يرفضه بالجملة، وآخر يراه كل شيء .

وثالثها: أنّ التركيز المتزايد على (المديح) صرفنا عن الاستفادة الحقيقية من تاريخنا، ودفع البعض إلى الاعتقاد بأن ما نعانیه في هذا القرن من مشاكل وتحديات نموذج لم يتكرر في تاريخنا، فقادهم إلى طريق اليأس المسدود .

ويبني الباحث منهجه - استناداً إلى الرغبة الجادة في تجاوز هذا الموقف - على تناول الصفحات الأخيرة في حضارتنا من خلال التركيز «على سقوط دول إسلامية، بعضها كان درساً أبدياً، حين كانت الأمراض خبيثة وفثاكة، وحينما ذهبنا نطلب الدواء من عدوّنا، فكانت فرصته لإعطائنا السموم القاتلة...»^(٢) .

ويشير الباحث في نهاية مقدمته إلى أنّ «هذا البحث دعوة لتشريح تاريخنا من جديد... وبجراحة، فلأن نشرحه نحن - بإنصاف - أولى من أن نتركه لأدعياء المنهج العلمي

(١) الصفحات الأخيرة من حضارتنا، ص ٤ .

(٢) الصفحات الأخيرة من حضارتنا، ص ٥ .

يشرحونه بمجدد وعنف وإجحاف»^(١).

وقد تنقل الباحث في المساحة الإسلامية الواسعة الأرجاء، الممتدة في الزمان، فعرض لخطوات السقوط الأخيرة عبر ساحات ثلاث: الساحة الأندلسية، فالمشرقية، ثم المغربية.

يقف في كل ساحة منها عند تجاربها المؤلمة وأخطائها المدمرة وممارساتها الخاطئة التي قادت تجاربها السياسية إلى التدهور والسقوط^(٢).

وهذه الدراسات المتميزة وأمثالها هي خطوات على الطريق الصحيح نحو الغاية المنشودة، ألا وهي العودة بالأمة الإسلامية إلى جادة الصواب على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقيادة البشرية بهذا المنهج، وإظهار حجة الله على من أبى منهم.

* ومن المسلمات عندنا - نحن المسلمين - أو هكذا يجب أن تكون أن معرفة هذا النظام (السنن الإلهية) بصورة صحيحة هو الطريق الوحيد المأمون إلى:

- تفسير حركة الإنسان في التاريخ تفسيراً شمولياً صحيحاً.
- وتحديد موقع الإنسان في هذا الوجود، وقيمه بين مكوناته.
- ورد كل حادثة وكل ظاهرة إلى سببها الطبيعي الشرعي.
- وإبراز حكمة الله من وراء خلق هذا الوجود، وجدية الحياة، وخلوها من العبث^(٣).

- كما أن من المسلمات عندنا - أيضاً: أنه لا سبيل إلى معرفة تلك السنن معرفة صحيحة إلا من خلال القرآن، الذي أنزله خالق الإنسان إلى هذا الإنسان لينظّم به ومن خلاله حياته الدنيا، ويسعد به في الدنيا والآخرة.

وأنه لا حجة لأحد في العدول عن القرآن إلى غيره، وقد وفى القرآن هذا الجانب وكفى، وأبلغ في البيان فشى^(٤).

أوليس هو الذي أعلن عن وجود السنن التي تضبط الحياة والأحياء!؟

(١) الصفحات الأخيرة من حضارتنا، ص ٨.

(٢) وقد عرض لهذا الكتاب وحلّل فصوله ولخص فوائده، الدكتور/ عماد الدين خليل في: مجلة المسلم المعاصر، عدد ٦ لسنة ١٣٩٦هـ. في ثلاث عشرة صفحة (١٢٣ - ١٣٦). وهي أساس في هذه الإشارات.

(٣) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠ وما بعدها، ص ٥٥، ١١٦. وتفسير التاريخ، لصديقي، ص ١٣١.

(٤) انظر: مجلة (المسلم المعاصر)، عدد (٧)، لسنة (١٣٩٦هـ)، صفحة ١٦٥، ١٨٥.

﴿... الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ...﴾ [السجدة: ٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧].

وإن كنتم في شك من جدية الحياة وانضباطها بالسنن.. فسيروا وتأملوا، لتعلموا وتتعلّموا..

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

والله - سبحانه - يطلعكم على ما تعجزون عن بلوغه، ويزيدكم علم ما لم تعلموه، ويقصّ عليكم الحق لثلاثاً تختلفوا فيه، ولكي تعتبروا به.

﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ مِنَ الْفَقَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...﴾ [آل عمران: ٦٢]... إلى آخر ما هنالك من الآيات، وهي كثيرة جداً.

ثم إنه - بعد أن أخبر بوجود هذه السنن - عني ببيانها وإبرازها. فقصّ من أحوال الأمم؛ ما كان منها، وما وقع لها أو عليها، وبيّن أسباب ذلك وموانعه، وقال: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] (١).

ونذب العباد إلى معرفتها وفقهها، والعمل بمقتضاها.

ونعى على أهل الغفلة والإعراض ما هم فيه، فقال جل وعلا: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِئُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْصِينٍ﴾ [إنّ في ذلك

(١) وقد مرّ - وسيمرّ بك - من السنن الإلهية المستفادة من كتاب الله أشياء، فلا أطيل هاهنا بإعادتها.

لَذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ [ق: ٣٦، ٣٧]. وقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

والآيات في هذا كثيرة معلومة^(١).

وقد شغل ذلك كله مساحة واسعة من آيات القرآن وسوره، فأعطى بذلك كله أصدق تفسير إسلامي للتاريخ البشري وأشمله، ماضيه وحاضره ومستقبله، وعرَى في طريقه كل التفسيرات المادية الجاهلية للتاريخ البشري، وكشف زيفها، وطوّح بها في مهبّ الريح.

لهذا كله، فإنّ دراسة سنن الله في الأمم دراسةً مستقلةً، من خلال نصوص القرآن الكريم، ضرورة ملحّة، وواجب ضخّم على عاتق القادرين من أهل العلم والفكر، الغيورين على دين الأمة ومستقبل البشرية، فعليهم أن يحملوا هذا الواجب بقوة وأمانة. وإنّ ما وُجِدَ من دراسات ومحاولات، يُعدُّ بدايةً مشجّعة، ويعطي مزيداً من الأمل في الماضي قدماً لتحقيق نتائج أفضل، وهو - بإذن الله تعالى - إرهابص بانطلاقة كبرى نحو وعي شمولي، وعودة إلى التّبع الصّافي على مستوى الأمة كلها.

(١) وسيأتي هذه الجوانب مزيد بيان في الفصل الثاني من الباب الأول، بإذن الله تعالى.

الباب الأول

خصائص سنن الله في الأمم
ومنهج القرآن في عرضها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم.

الفصل الثاني: منهج القرآن في عرضها.

الفصل الأول

خصائص سنن الله في الأهم

تمهيد:

بعد معرفتنا لمعنى السنن عامة، ووقفنا على أهم الفروق بين السنن المتعلقة بالإنسان - وهي موضوع الدراسة - وبين السنن التي تحكم الكون، والتي عن طريقها يتمكن الإنسان من تسخيرها والانتفاع منه. وبعد جولة مختصرة، تبيّننا من خلالها أهمية دراسة تلك السنن وضرورة إشاعة العلم بها والسير وفق ضوابطها.

بعد تلك الجولات: فإنّ أول خطوة في هذه الدراسة، هي معرفة ما لهذه السنن من خصائص، وما تمتاز به من سمات.

ومعلوم أنّ معرفة خصائص الأشياء، هي مفتاح فهمها، والإفادة منها، وسبيل التوقي من مخالفتها.

والمقصود بـ «خصائص السنن»: تلك المميزات الثابتة المطردة التي تشكل المظهر الموحد للسنن، بحيث لا يشاركها في هذه المميزات والخصائص مجتمعة شيء آخر.

وهذه الخصائص والمميزات لسنن الله في الأمم ظاهرة لكل من أعمل عقله وتأمل في سير الأحداث بسرعة وإبطاء، اجتماعاً وافتراقاً، أفرحاً وأترحاً، في قديم الدهر وحديثه. فكيف بمن تأمل هذا ثم نظر في كتاب الله تعالى وفي سُنّة رسوله ﷺ ليجد دون عناء هذه الخصائص منصوصاً عليها، مبيّنة أتم بيان وأوضحه؟! إنّه سيجد من يرد اليقين وقوة التصديق والثقة بالمنهج، شيئاً لا مزيد عليه.

أمّا القرآن الكريم، فقد عني بإبراز هذه الخصائص أيما عناية، وهذا أمر بدهي. وكيف لا تكون خصائص السنن محل عناية كتاب الله المنزل لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، على هدى وبصيرة، لا بالطلاسم والألغاز التي لا قبيل لعقول البشر وقدراتهم بها، ولكن بالعمل الهادف وبذل الجهد وتحمل النتائج.

وبقدر ما تدرك الأمة من هذه الخصائص وتتعامل معها بصورة صحيحة، بقدر ما يحصل لها من السعادة والقوّة والرخاء، والعكس بالعكس.

وقبل أن أتجاوز هذا التمهيد، لا بد من التنبيه إلى أن الآيات القرآنية كثيراً ما تتجلى فيها جملة خصائص، بحيث يتعين إيرادها في أكثر من موضع إذا لزم الأمر.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمۥٓ وَإِنَّ عُذۡمَٔكُمْ لَعُنَاقُ﴾ [الإسراء: ٨]، فيها دلالة ظاهرة على خاصية: الاطراد، وعلى خاصية: ارتباط السُنن بالكسب البشري... وهكذا. وستمرُّ بك أشياء من ذلك، فتنبّه لها وأنزلها منازلها.

ومن هذا التمهيد، ندلف إلى تفصيل القول في هذه الخصائص، مبتدئين بخاصية الثبات والاطراد.

الخاصية الأولى والثانية: الثبات والاطراد

الثبات: ضد الزوال ، ونقيض التبدل والتحول^(١) ، فهو بمعنى الدوام والاستقرار ، وليس بمعنى السكون الذي هو ضد الحركة^(٢) .

والتبدل: من الإبدال والتبديل ، وهو جعل شيء مكان آخر ، وربما أطلق على التغيير ولو بغير عوض^(٣) .

وسنن الله لا تتبدل بغيرها فتسسخها «لابتنائها على أساس من الحكمة .. ولا تغير لخصائص سنة من السنن ، بل كل سنة ثابتة لا تتغير»^(٤) .

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]؛ أي: لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه^(٥) .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ أي: «ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنّها في خلقه تغييراً ، فأيقن أنه غير مغير في هؤلاء المنافقين سنّته»^(٦) .

والتحول: من الحول ، وأصله «تغيير الشيء وانفصاله عن غيره . وحول الشيء جانبه الذي يمكنه أن يحول إليه»^(٧) .

«والتحويل: أن تحول من محل إلى محل»^(٨) ، ومن حال إلى أخرى ، وكل هذا لا يكون شيء منه في سنن الله في الأمم .

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] ، بأن يُحوّل ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم . ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما^(٩) .

(١) انظر: مفردات الراغب ، واللسان ، مادة (ثبت) .

(٢) كما سيوضح لك ذلك عند الحديث عن خاصية (الاطراد) وهي الخاصية الثانية ، إن شاء الله .

(٣) مفردات الراغب ، مادة (بدل) .

(٤) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢٦/١) .

(٥) فتح القدير (٣٥٦/٤) .

(٦) تفسير ابن جرير (٤٩/٢٢) .

(٧) مفردات الراغب ، مادة (حول) .

(٨) جامع الرسائل ، لابن تيمية (٥٥/١) .

(٩) فتح القدير (٣٥٦/٤) .

﴿وَلَا تَجِدُ لُسُنَيْنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]؛ أي: لا خلف في وعدها ولا تغيير^(١).
والاطراد: من التتابع «واطراد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى»^(٢)، واطراد السنن: تتابع حدوثها وتكرره على نظام واحد كلما توافرت شروطها وانتفت موانعها.
والاطراد دليلٌ على ثبات السنن وعدم تغييرها، فإن تكرر الحدوث بصورة متماثلة كلما وجدت أسباب معينة دليل على الثبات.
كما أن الثبات بمعنى الدوام لا بمعنى السكون يستلزم الاطراد وتجدد الحدوث، وإلا صار بمعنى السكون لا محالة!؟

ولهذا التلازم من جهة، وتمشياً مع أسلوب القرآن في عرض هاتين الخاصيتين بصورة متداخلة في كثير من الآيات من جهة أخرى، آثرت الحديث عنهما تحت عنوان واحد.

و«الثبات» و«الاطراد» بهذا المعنى، خاصيتان من خصائص سنن الله في الأمم بدلالة النصوص القواطع - كما سبقت الإشارة إلى طرف من ذلك - وبشهادة العقل والواقع، وهذا ظاهر عند أدنى تأمل.

وبما أن حديثنا عن خصائص سنن الله في الأمم من خلال الآيات القرآنية، فإني أقول:

إنه بتأمل نصوص القرآن الكريم، فإننا نجد أن خاصيتي الثبات والاطراد في السنن واضحتان بلا غموض، ودلائلها كثيرة ومتنوعة، وهذه الدلائل تدور حول جانبين:
الأول: ما يتصل بتقريرهما، وتحديد معنهما.

والثاني: أمثلة وتطبيقات لبيان مصداقية هذه الخاصية أو تلك.
وإن كان القرآن لا يفصل - غالباً - بين تقرير الخاصية وبين تطبيقاتها^(٣). وسأحاول ذكر جملة من الآيات مما يتعلّق بكل منهما على الترتيب المذكور، مع بيان يكشف عن المبهم ولا يورث الملالة والسأم بالتطويل، وسأحرص على ذكر الآيات في سياقاتها غير مقتصر على محل الشاهد منها؛ فإن ذلك أعون على فهم المقصود.
إذا تبين لك ذلك، فاعلم أنه قد جاءت آيات كثيرة في مواضع من كتاب الله تعالى توضح هاتين الخاصيتين، منها:

(١) أنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٠٢/١٠)، وتفسير أبي السعود (١٨٩/٥).

(٢) اللسان، مادة (طرذ).

(٣) وتلك سمة من سمات منهج القرآن في عرض السنن: كما سيوضح لك ذلك في الفصل التالي.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن نَحْدِلْ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٢ ، ٤٣].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ * وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَتَمَرِّكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ * وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُحْذَرُوا وَقَاتِلُوا نَفْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

وقوله: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِطْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦ ، ٧٧].

وقوله: ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٩].

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يُجَادُونَ * وَإِنَّا لَنَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢ ، ٢٣].

ومنها، قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥].

وقوله: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

والمتمم لهذه الآيات، يلحظ أموراً هامة، منها:

- أنها كلها جاءت في سياق تقرير سنن الله في الحياة الإنسانية مما يتعلق بأمر الله الديني الشرعي أمراً ونهياً، دون الأمور الكونية المتعلقة بالمادة والأمر الطبيعية، مما يدل على أكديّة خاصية الثبات في الأولى دون الثانية، وأنها لا تنتقض ولا تتخلف بحال من الأحوال؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - الذي سنّها هو الذي حكم بثباتها واطرادها، ونفى أن تبدل أو تتحول، و﴿ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١]، ولا خلف لوعده سبحانه وتعالى.

وهذا بخلاف سننه المتعلقة بالمادة، فلم يحكم لها بهذا الحكم، ولا بهذه الخصوصية، وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - هذا الفرق بقوله: «وهذه السنن - أي الواردة في الآيات السابقة - كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسننه في الشمس والقمر والكواكب... وغير ذلك من العادات.

فإن هذه السنّة ينقضها إذا شاء بما شاء من الحكم: كما حبس الشمس على يوشع عليه السلام، وكما شق القمر لمحمد عليه السلام، وكما ملأ السماء بالشهب، وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصا حيّة، وكما أنبع الماء من الصخرة بعضاً، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول عليه السلام»^(١).

والأمر الثاني الذي يلحظه الناظر المتأمل في الآيات السابقة: أنها جاءت في سياق مخاطبة الجماعات والأمم لا الأفراد. يؤكد هذا ورودها جميعاً بصيغ الجمع، سواء في ذلك من سيقّت السنّة لأجلهم، تعدهم أو تتوعدهم من هذه الأمة، ومن جاءت السنّة مؤكدة وقوع ما تضمنته من الثواب أو العقاب بهم من الأمم السابقة.

- وأنها قررت هاتين الخاصيتين بصورة واضحة حاسمة؛ وذلك بتأكيد خاصية «الثبات» و«الاطراد» عن طريق نفي ما يصاد آياً منهما بأحد حرفي النفي «لا» أو «لن» نفيّاً مفصلاً لا لبس فيه.

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/٥٢)، وقد سبق لهذه المسألة مزيد بيان في مبحث: (الفرق بين سنن الله في الكون وسننه في الأمم).

وربما وقع النفي لا على لفظ «السنة» ذاتها، وإنما على جدوى السلوك الصادر من القوم تجاهها؛ ظناً منهم أن ذلك السلوك قد يغيرها أو يبدها، أو يحول دون اطرادها فيهم، فكان ذلك إيذاناً بثباتها واطرادها أيضاً.

وشاهد ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وتأمل آية الأحزاب: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، تجد أنه - جلّ وعلا - لم يقل: ولن تجد لسنننا تبديلاً؛ لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ^(١). وإنما قال هاهنا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من رسله، فإن سننهم فيهم أنه لا حرج عليهم فيما فرض الله لهم، ولم يكن محمد ﷺ بدعاً منهم^(٢). ثم إن القضايا التي جاء الحديث عن ثبات السنن واطرادها في سياقاتها هي من القضايا الكبرى، ذات الشأن والخطر في حياة الأمم ومصائر الأقوام. ويمكن القول - من جهة أخرى - أن القرآن قد قرّر في هذه الآيات أمهات السنن، ونبّه إلى أصولها، وهي راجعة في عمومها إلى تقرير سنن في أوليائه، كنصرتهم وتأييدهم، وتوليهم، وحياطتهم بأنواع لطفه ورعايته، وسنن في أعدائه؛ كإذلالهم والتنكيل بهم وتسليط المؤمنين عليهم وفضحهم، سواء كانوا من الكفار أو المنافقين؛ «فسننته في هؤلاء: إكرامهم، وسنن في هؤلاء: إهانتهم وعقوبتهم»^(٣).

وأحسب أن السنن المذكورة في هذه الآيات ظاهرة عند أدنى تأمل، ولتفصيلها مع نظائرها موضع آخر بإذن الله تعالى^(٤).

وإذا تجاوزنا الآيات التي صرحت بثبات السنن واطرادها - وهي التي سبقت الإشارة إليها - فإن هناك دلائل كثيرة ومتنوعة تؤكد ثبات السنن واطرادها في كتاب الله تعالى، وإنك لن تجد عناء في اكتشاف خاصية الثبات والاطراد عندما تقرأ - مثلاً - هذه الآيات: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٥٠/١).

(٢) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٥٠/١).

(٣) جامع الرسائل، لابن تيمية (٥٠/١).

(٤) يُنظر في تفصيلها: الباب الثاني من أبواب هذه الدراسة.

ضَنَكًا ﴿ طه: ١٢٤ ﴾، ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ عَسَىٰ رُبُّكُمْ أَنْ يُزَحِّمَهُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨]، ونظائرهما من كتاب الله تعالى .

ولزيد من الإيضاح هاك بعض السنن الإلهية بصورة أكثر تفصيلاً لتقرأ بوضوح هاتين الخاصيتين من خلالها. فمثلاً: نصر الله المؤمنين الصادقين سنة ثابتة ومطردة في حقهم، متى نصروا الله بنصرة دينه، والجهاد في سبيله. قال تعالى مبيناً ثباتها: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمَانُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصفوات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿ وَلَنَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

وإهلاك الكافرين والتدمير عليهم وإبطال مساعيهم، سنة إلهية ثابتة ومطردة في أمثالهم .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْآذِلِينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ فِي الْأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القم: ٥١]، وقال: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ

اللَّهُ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الْأَطْلَامِينَ * وَلَتَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضُ مِّنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ ﴿١٣﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

ومن السنن: أن الحقَّ والباطلَ مختلفان لا يستويان، وضدان لا يجتمعان ولا يصطلحان، وأن المدافعة بينهما دائمة لا يمكن أن تتوقف ما وجد حقٌّ وباطلٌ.

قال تعالى مبيناً اختلاف ما بينهما: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴿١٠٠﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال: ﴿أَفَجَعَلْنَا الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ص﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ [غافر: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿النساء: ١٠١﴾، وقال تعالى مبيناً استمرار الخصومة والصراع بسبب هذا التباين والاختلاف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴿البقرة: ٢١٧﴾، وقال: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ [المنحنة: ٢]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿البقرة: ١٠٩﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَنَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿البقرة: ١٢٠﴾.

وأخبر أن هذين الحزبين لا يكون بينهما ولاية؛ بسبب هذا الاختلاف والتباين، بل كل حزب يكون أفرادُه بعضهم لبعض أولياء من دون الحزب الآخر.

قال سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ ﴿٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧١﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿يَتَّيَّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَّا تَنَجِدُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ ﴿المائدة: ٥١﴾، وقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ لَّيْتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣].

كل ذلك جار وفق سنن إلهية ثابتة لا يتورها تبدل ولا تحول، مطردة لا يطرأ عليها تخلف. وتاريخ البشرية على هذه الأرض يشهد لهذه السنن بالثبات والاطراد، على أنها حقائق لا تقبل النقص، ولهذا فكل محاولة لخرق مصداقية هذه السنن أو التنصل من آثارها - عمداً أو جهلاً - فهي محاولة خاطئة خاسرة؛ لأنها - ببساطة - مصادمة للمسلمات ومجابهة لطبيعة الأشياء.

وعما يؤكد هذا الاستنتاج ويزيده وضوحاً، أنك لا تجد أمة من الأمم حاولت أن تقتحم هذه المسلمات بنوع معارضة أو إهمال، إلا وُجد في حياتها وحصل لها مصداق ما أخبر الله أن مثله يكون في أمثالها.

فالحقّ والباطل لا هدنة بينهما، بل مدافعة وخصومة أبد الأبدين. وكل أمة أو جماعة تدّعي خلاف ذلك، فتؤسس حياتها على أساس هدنة أو وفاق بينهما، وتسقط من حسابها حتمية الصراع، وضرورة التمايز، وما يستلزمه من الولاية والنصرة لأهل المبدأ الواحد دون غيرهم... حينما تفعل أمة ما ذلك، فإنها لا تستطيع أن تنجو من نتائج التي منها:

وقوع الفتنة في الأرض والفساد الكبير.

إمّا بسبب ترك ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً، على حين أن مثل هذه الولاية قائمة بين الكافرين. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وإمّا بسبب ترك مدافعتهم. ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فكيف بتوليهم من دون المؤمنين، وترك ولاية المؤمنين؟! ومنها: دخول الأمة في سمت أعدائها وكونهم منهم، وعدم امتيازهم واختصاصهم

بما جعله الله من خصائصهم. ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذْ مِنْكُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد استقرَّ في الحسن والشرع أنه: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». ومنها: فشل الأمة وذهاب ريجها؛ نتيجة تفرُّقها فيما بينها، ومناصرتها عدوها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَشْفِقُواكُمْ يُكَفِّرُوا لَكُمْ أَعْدَاءَهُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوَى وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ١]، [٢]. وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَّوْا أَنْفُسَكُمْ فَتَلَّوْا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والخلاصة: أنَّ الثبات والاطراد، من الخصائص المميزة لسنن الله في الأمم، وهما مما قرَّره القرآن وبيَّنه أوضح بيان.

وأختم هذا المبحث بسؤالين، اختصر الإجابة عنهما:

الأول: هل يمكن ثبوت سنن الله في الأمم مجردة من خاصيتي الثبات والاطراد؟

والثاني: ما هي ثمرة العلم بهاتين الخاصيتين للأمم والجماعات البشرية؟

وجواباً عنهما أقول^(١):

أمَّا عن السؤال الأول: فإنه لا يمكن تصور سنن الله في الأمم مجردة من خاصيتي الثبات والاطراد، ولا يجوز أن يخطر ببال مؤمن تصور إمكان ذلك.

إنَّ سنن الله في الأمم، هي القوانين التي أجرى الله عليها نظام الخليقة، وقوانين الله لا يمكن تغييرها، فهي ليست وليدة ظروف أو ملابسات في الدولة التي تعيش فيها الأمة، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الإنتاج... ولا يمكن تغييرها؛ لأنَّ طبيعة الإنسان لا تتغيَّر. فالخوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية... وإنَّ بقاء طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغيَّر، هو الذي حدا بالمؤرخ الشهير ابن خلدون إلى أن يقول: «إنَّ الماء الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في المستقبل...»^(٢).

ولا يمكن تصوّر سنن الله في الأمم مجردة من خاصيتي: الثبات، والاطراد؛ لأنَّ

(١) هذه الأسئلة والأجوبة، يمكن استصحابها وتطبيقها على الخصائص الأخرى الآتي ذكرها بصورة مطابقة أو مقاربة، مع ملاحظة الفروق بين وظائف هذه الخصائص.

(٢) تفسير التاريخ، لعبد الحميد صديقي، ترجمة: د/ كاظم الجوادى، ص ١٤٤، ١٤٥.

الثبات والاطراد من أعظم مظاهر الحكمة الإلهية والعدل الربّاني، بل وسائر الصفات الإلهية العلية؛ كالعلم والقدرة وغيرها، وإن «أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائياً، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل... ومن أجل أن نظمئن، يبيّن لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها، وعدم تبدلها أو تحوّلها...»^(١).

وأما عن السؤال الثاني: فإن من أبرز ثمرات العلم بكون الثبات والاطراد خاصيتين من خصائص سنن الله في الأمم:

- أن الثبات؛ أي عدم الاختلاف «من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، والاطراد؛ أي عدم التخلف - يجعل كل أمة توجه حياتها وفقاً لهذه القوانين تحصل من الفائدة على ما تحصل عليه أية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها»^(٢).

والعكس صحيح، فكل أمة تتكبّب الجادة وتصادم السنن والقوانين، يحلّ بها ما يحلّ بأية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها.

«وإن من يُدقق النظر في أحكام الشرع المختلفة، يجد أنّها تعبّر عن نوع من السنن المطردة، التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شيء مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة، في الدنيا قبل الآخرة. وإنّ الإتيان بشيء قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة في الدنيا قبل الآخرة»^(٣).

قال ابن القيم: «ولهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة، والمعاني المعبرة في الأحكام القدريّة والجزائية ليدلّك بذلك على تعلّق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا للمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها»^(٤).

ومن ثمرات معرفة خاصيتي الثبات والاطراد في سنن الله في الأمم:

الاعتبار بحوادث الماضي وتجارب الأمم، وتصحيح المسار وتجنّب الأخطاء بصورة علمية دقيقة، مع توفير الجهد والوقت؛ لأنّه لا بد لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، د/ عماد الدين خليل، ص ١٠٩.

(٢) تفسير التاريخ، لصديقي، ص ١٤٤ بتصرف وزيادة اقتضاها المقام.

(٣) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان، ص ٧٨ بتصرف.

(٤) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان، ص ٧٨ عن كتاب: إعلام الموقعين، لابن القيم (٩٦/١) بتصرف.

ذاته من التعقيدات التي واجهها أسلافهم ، فمواضع الخطر في طريق الأمة تكاد تكون نفسها في الماضي والحاضر .

إنَّ التاريخ - كما ينبئه إلى ذلك القرآن الكريم - ليس مجرد قصص يُروى عن الأيام الغابرة ، وإنما هو تحذير من المهاري الواقعة في طريقنا .

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١] .

«إنَّ سجل التاريخ ، ما هو إلا الدليل والمعلم الذي يبنى الملاحين الجدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التي قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الإنساني الذي لا يُدرَكُ غوره .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩] .

... وما في العالم من أمة لم تمسك بعصا السلطة ، فالذين لا تطفئهم الأفراح ، والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب ، هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء . أمَّا الذين لا يستطيعون التماسك أمام الشهوات وفي وجه المتغيرات ، فأولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود الفعَّال^(١) .

وأكتفي بهذه الإشارات خشية الإطالة ، وانتقلُ إلى الخاصية الثالثة ، وهي : خاصية العموم والشمول .

(١) تفسير التاريخ ، لصديقي ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ بزيادة وتصرف .

الخاصية الثالثة

خاصية العموم والشمول

ومن خصائص سنن الله في الأمم ، أنها عامّة وشاملة للأمم والأقوام والأجناس ، في كل زمان ومكان ، فلا استثناء لأمة ، ولا محاباة لجنس أو لون أو ديانة .. في حسنة أو سيئة . فالكل أمام القانون الإلهي سواء ؛ المتقدم والمتأخر ، القوي والضعيف .. الكل تحت طائلة السنن .

ذلك باختصار هو معنى العموم والشمول الذي يميز هذه السنن ، وهو مقتضى العدل الرباني ، ومظهر من مظاهر الحكمة الإلهية ، كما أنه يمثل جزءاً هاماً من التصور الصحيح لحقيقة الألوهية وخصائصها ، وحقيقة العبودية ووظائفها ، وحقيقة الجزاء على الأعمال . وأي انحراف عن جادة الصواب في تصور هذه الخاصية ينتج عنها نتائج مدمرة ، تفسد الحياة والأحياء . ومن هنا فقد كشف القرآن عن هذه الخاصية بوضوح ، في مواضع كثيرة . وأكدها بصورة حاسمة جازمة تليق بمجدية الحياة ، فلا فوضى ولا محاباة ولا سلبية .

قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَأْفُوفًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ عَرَّفْنَا لِكُلِّ رِبِّهِمْ مِخْرُوتًا ﴾ [الأنعام: ٣٨] . وقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، وقال: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْقِذُوكَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] ، وقال سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجَاءٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤٠] .

فالأمر جدُّ كما ترى ، والناس أمام السنن سواء ، الرسل فمن دونهم . قال تعالى مبيناً قيل الرسل لأقوامهم: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

وأمر ﷺ أن يقول لقومه: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُنَّ أَنْبِئُكُمْ إِلَّا مَا وَحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩].

وبلغ القرآن من تجريد الأشخاص من أي خصوصية بلا استحقاق، أن قال الله لرسوله ﷺ في شأن الوحي: ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْبَانَ * فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

ومع هذا الوضوح البين في شأن هذه الخاصة، خاصة العموم والشمول في سنن الله في الأمم - فإن الأمم والأقوام الجاهلية عبر تاريخ البشرية الطويل - على حال مناقضة للحق في هذه الخاصة؛ بسبب الجهل والظلم والاستكبار عن اتباع هدى الله الذي جاءت به الأنبياء. سواء في ذلك الأمم الوثنية المشركة، ومن يدعون أتباع الأنبياء والانتساب إليهم كذباً وادعاءً. ولكل من هؤلاء وهؤلاء وجهة هو مولياها، وشبهة هو متمسك بها.

ولكن القرآن وهو يربي هذه الأمة على الحق وعلى الجِدِّ في أخذه، قد حسم الأمر، ولم يدع مجالاً لاستقرار هذه التصورات الخاطئة في النفوس. ففي كل موطن يسوق فيه شبهة أو يحكي ادعاء أمة ما أو قوم خصوصية لسبب من الأسباب، يكرّ على هذه الشبهة والدعوى بالإبطال، وعلى رأي أهلها بالتسفيه، مبيناً وجه الصواب الذي يجب اتباعه.

وسوف أسوق لك - فيما يلي - أمثلة من تلك الدعاوى مقرونة بتعقيب القرآن عليها، وكيف أبرز خاصية العموم والشمول في السنن في كل موطن.

فالمشركون أهل الأوثان يدعون الخصوصية، وأنهم مستثنون من عموم السنة، بما لهم من الأموال والأولاد والجاه والسلطان، ويرون أن هذه الإمكانيات هي مناط الفضل، ودليل التفضيل. وطردهوا هذه القاعدة، فزعموا أن العذاب لا يقع عليهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وأولاداً وما نحن بمعديين ﴿ [سبا: ٣٤، ٣٥].

فماذا كان جواب القرآن على زعم المترفين هذا؟

لقد قال - سبحانه - بعد حكاية زعمهم السابق ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الصَّٰغِفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ [سبا: ٣٦ - ٣٩].

وزعموا لأنفسهم الصلاح، وأنه لا يسبقهم إلى الخير سابق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۗ﴾ [الأحقاف: ١١].

فأكذبهم الله وكشف دخيلة نفوسهم بقوله: ﴿... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبِقُونَهُ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. فجعلوا عدم اهتدائهم ذريعة للظعن في الحق وردّه؛ ليسلموا من الإلزام العقلي لهم بالمخالفة لمجرد أنه جاء على يد غيرهم، وخالف أهواءهم.

وجرياً على قاعدتهم تلك في ادّعاء الخصوصية، تُعَجِّبُوا مستنكرين أن يكون المؤمنون المستضعفون الفقراء محل مئة الله وتفضيله.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَن آتَىٰهُم مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنَاتٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ أي: ونحن لا نرى مبرراً لتفضيلهم من وجهة نظرنا. فقال الله موجهاً إليهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ بلى سبحانه.

وحتى منصب النبوة، الذي لا علم لهم به. ينطلقون فيه من ذلك الأساس الجاهلي الجائر!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فما كان شيء أبلغ من ردّ القرآن في هذا المقام.. ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

أما الذين يزعمون أنهم أهل ملّة، ويدّعون اتباع الأنبياء، فقد عرض القرآن لنماذج منهم، خصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وهؤلاء شرّ من أولئك في ادّعاء الخصوصية لأنفسهم، واعتقاد أن عموم السنن لا يشملهم، لانتسابهم إلى هذا النبي أو ذاك، وكونهم أهل هذه الديانة أو تلك الملة .
ولنأخذ مثلاً لذلك: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لمّا قام في نفوسهم وهم الاختصاص بغير عمل ولا استحقاق، بل بمجرد الظنون والأمانى، والانتساب الكاذب . ولتقف مع مظاهر الوهم الكبير وإفرازاته .

فقد ادّعوا أنهم وحدهم المهتدون، المستحقون لدخول الجنة دون من سواهم:
﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٣٥] ، ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا
مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] .

ومن دخل منهم النار فأيام معدودة ثم يخرج منها، ولو كانت جريمتهم الكذب على الله، أو رفض التحاكم إلى كتابه: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]

وما كانت دعواهم تلك لثِقَر، وكيف يقرّ الله أمراً يظعن في حكمته ويناقض عدله؟! هذا لا يكون أبداً .

ولذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم عن ربه الحق والعدل، لا ما يزعمون:
﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا
ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَتُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ . . . ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٧] ، ﴿ وَقَالُوا لَن
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ ءَامَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢] .

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ ؕ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١] .

وكشف في الآية الأخرى أي نفسية مغرورة بالأماني والكذب، كانت تقف وراء إعراضهم عن كتاب الله، وتبرز رفضهم التحاكم إليه أو قبول أحكامه.

إِنَّهُمُ الْمَغْرُورُونَ ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]!

﴿الَّذِينَ الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيُحَرِّمُونَ فَرِيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْسُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

فهم أرادوا نجاة وفوزاً بمجرد الانتماء بلا عمل، وهيهات^(١)!

وزعموا أن لهم من الخطوة والزلفى عند الله ما ليس لغيرهم، فهم ليسوا كسائر البشر، ولا يلزمهم نحو غيرهم ما يلزم غيرهم نحوهم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨]. تعالى الله وتقدس عن قولهم علواً كبيراً.

ولم يكن الله ليدعهم يستمتعون بهذه الأماني الباطلة دون أن يدمغهم بالحق الذي يزهق باطلهم.

فقال سبحانه معقباً على قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ﴾: عَقِبَ عَلَيْهِ بَفَضْحِهِم بِالْكَذِبِ وَتَكْذِيبِهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

ودحض ادعاءهم أنهم أبناء الله وأحباؤه بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه الخصوصية التي اعتقدها لأنفسهم قادتهم إلى منكرات عظيمة وجرائر وبيلة، لا في حق أنفسهم فحسب، وإنما في حق البشرية من ورائهم كذلك، وما ذاك إلا لأنهم المعاقبة وغرورهم في أنفسهم. ومن أمن العقوبة أساء الأدب.

(١) انظر: تفسير المنار (١/١١٢).

ومثل آخر فيما نحن بصدد الحديث عنه . . .

فقد تفاخر النصارى - وفي رواية: أهل الكتاب - وأهل الإسلام ، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم ، وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم ، فنزل قوله تعالى^(١): ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال ابن كثير: «والمعنى في هذه الآية: أن الذين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما قرر في القلوب وصدقته الأعمال ، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان ، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام^(٢).

وقال صاحب المنار في هذا المعنى: «إنَّ الجزاء على الإيمان والعمل معاً؛ لأنَّ الدِّينَ إيمانٌ وعمل . ومن الغرور أن يظن المنتمي إلى دين نبي من الأنبياء أنه ينجو من الخلود في النَّار بمجرد الانتماء»^(٣) والتمني .

بل تعال بنا إلى المؤمنين أنفسهم ، فقد خطر ببالهم مرة - وهم بشر غير معصومين - أنهم أهل للنصر لأنهم مؤمنون يجاهدون مع رسول الله ﷺ أعداء الله ، فغفلوا عن أنفسهم بعض الغفلة ، فلما انهزموا عجبوا مما حصل لهم وكيف هُزِمُوا!

﴿أولمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا؟﴾ [آل عمران: ١٦٥].

«أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا»^(٤)؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ، «حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، فعودوا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المردية»^(٥).

(١) وهو مروى عن ابن عباس والضحاك ومسروق وقتادة والسدي . . . وآخرين . وروي أنها في المشركين وأهل الكتاب خاصة ، وهو مروى عن مجاهد وابن زيد .

(٢) تفسير ابن كثير (١/٥٥٧) .

(٣) تفسير المنار (١/١١٢) .

(٤) تفسير السعدي (١/٤٥١) .

(٥) تفسير السعدي (١/٤٥١) .

وأحسب أن ما مضى من الأمثلة كافٍ في إبراز خاصفة العموم والشمول في سنن الله في الأمم وأنه لا استثناء فيها ولا محابة .

وبرغم هذا الوضوح البفن؁ فإن «المسلم؁ خصوصاً في هذه الأزمنة - بشعور منه أو لا شعور - فرفد أن ففظر إلى الأمور بشيءٍ من الففصوصفة . . . فهو فرفى أنه ففبغف أن فكون مشكلة المسلمين ففر خاضعة لما ففخضع له سائر البشر في مشكلاتهم؁ وففعل المسلم هذا ففن ففعل بروح من التسامف والتفدفس؁ ذلك أنه فظن أن رفف شأن المسلمين إنما فكون بعمء خضوعهم للسفن التي ففخضع لها سائر البشر . ففى وإن كان ففطبق ففله ما ففطبق على البشر من ففلة وففهل؁ وففجففة وففرور؁ وطفبة ووداعة؁ وسذاجة وففافة .

ولفس معنف هذا أن مشكلة المسلمين لا ففمفز بففصوصفة من ففث العوارض والملافسات الففاصة؁ التي ففبغف أن فرفاعفها المسلم ففن فافذ في معالفة المشكلة؁ إلا أن الففصد هنا أن لا ففخلط على المسلم:

الفقاعة العامة التي ففخضع لها كل الأقوام؁ مع الأمر الففاص الذي ففخص المسلمين.

فمفثلاً: قد فكون الففخداع بالوهم؁ والففعلق به مما ففحول بففهم وبفن رؤفة فرفق الصواب؁ وهذا سنة عامة في البشر . ولكن لا ففشرط أن فكون الوهم الذي ففعلق به كل قوم نوعاً واحداً من الأوهام؁ بل فمكن أن فكون أوهاماً ففعددة؁ ولكن سنة الففعلق بالوهم واحدة؁ وإن كان نوع الوهم ففختلفاً؁ ففعلفنا أن فراعف هذا في ففث مشكلة المسلمين . . .

إن المسلم ففن فرفى المشكلة خاضعة لسفن عامة ففطبق على سائر البشر؁ ففرك أنه فمكن أن فسفففد من الوقائع الففارفففة البشرية التي ففثت للأقوام قفدياً وففدثاً؁ والففى لا فزال ففثت الآن . . . وهي ففارب كففرة ففظهر ففها سنن فففر الأقوام؁ التي ففخضع لها المسلمون أيضاً .

ومفث هذا الففظر إلى الموضوع - وهو الذي ففاء القرآن لفعلمنا ففاه - هو الذي فففقده الآن؁ وفعلفنا أن ففكسبه لأمور؁ منها:

أنّ هذا النظر هو الذي يجعل «المسلم قادراً على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن». كما أنّه هو الذي «يجرد الإنسان من ملابساته، ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن».

ويخرج «المشكلة من مجال الغموض والتكهنات إلى مجال الرؤية الواضحة»^(١).

* * *

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص ٣١، ٣٥ باختصار وتصرف.

الخاصية الرابعة

انطباقها على الأمم والأقوام دون الأفراد

أي أنها: سنن مخصصة بالأمم والأقوام والجماعات، بحيث إن سلطانها، وآثارها ونتائجها، كل ذلك يطرد وينعكس فيهم، وليس كذلك آحاد الأفراد.

أي أن الوعد والوعيد في الدنيا «إضافي مطرد في الأمم، وإضافي مقيد غير مطرد في الأفراد»^(١).

ولا ينقض ذلك وجود تشابه أحياناً؛ لأن المتفني وجود التماثل التام، كما سبق تقرير ذلك^(٢).

وعلى هذا الأساس، ومن هذا المنطلق أصبحت (الجماعية) خاصة من خصائص سنن الله في الأمم.

ولكي تتضح هذه الخاصية، لا بد من استحضار وملاحظة الأمور التالية:
هناك فرق كبير بين أعمار الأمم وأعمار الأفراد، ولهذا الفرق الهائل أثر في اختلاف السنن التي تحكم كلا منهما.

لا فرق في حكم الله وتقديره «في المعايير التي تُوزن بها الأعمال، ولا خلاف في مبدأ ترتب النتائج على الأعمال، ولا خلاف في مبدأ مسؤولية كل إنسان عن عمله»^(٣). لا فرق في ذلك كله بين الأمم والأقوام وبين آحاد الأفراد، كما أن «معيار الدنيا، هو ذاته معيار الآخرة، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ما دام الحساب والجزاء في الآخرة هو على أعمال الإنسان في الحياة الدنيا»^(٤).

لا فرق في «المعايير التي تُوزن بها الأعمال» بين الأمم والأفراد، أو بين الدنيا والآخرة. إنما الفرق بينها راجع إلى «توقيت الجزاء، وكيفية إيقاعه، وإلى نوعه»^(٥).

وتلك مسألة تحتاج إلى شيء من الإيضاح، فأقول:

(١) انظر: تفسير المنار (١/١١١).

(٢) انظر المبحث الثالث من مباحث التمهيد.

(٣) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١.

(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٠٨.

(٥) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١، ٢٠٨، ٢٠٩.

* بالنسبة للأفراد:

«قد يملئ الله للظالمين حياتهم كلها فيموتون على ضلالهم وظلمهم وطغيانهم ، لا ينتقم الله منهم في الحياة الدنيا ، ويؤجل لهم جزاءهم كله في الآخرة . . . وقد يقضي المؤمن حياته كلها مبتلى ، لا ينتقم الله له في الحياة الدنيا ، ويؤجل له جزاءه كله في نعيم الآخرة . . .»^(١) .

لكن هؤلاء وأولئك ، سوف يلقى كل منهم جزاءه في الدار الآخرة موفوراً كاملاً ، فور الانتهاء من الحساب بلا تأجيل ، فلا الظالم بناج من الانتقام والعقوبة ، ولا المؤمن بمبخوس أجره وثوابه .

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] .

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] .

هذه حال الأفراد في الدنيا والآخرة .

* أما الأمم والمجتمعات:

«فلا بد أن تنالها سنة الله في الحياة الدنيا»^(٢) ، لا بد أن تلقى جزاءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، في فترة ما من فترات حياتها .

نعم ، قد تطول هذه الفترة لسبب أو لآخر حتى ليخيل لأحد الأفراد أن هذه الأمة لن تلقى جزاءً ، وقد تقصر لأسباب كذلك ، حتى لربما شهد آحاد الأفراد جزاءها في حياتهم القصيرة ، المحدودة بالنسبة لأعمار الأمم عادة .

لا بد أن تلقى جزاءها في الدنيا ؛ لأنه لا جزاء لها بالنظر إليها أمة ومجتمعاً في الآخرة^(٣) ، وإن تشابه أفرادها في الجزاء هناك لتشابه أعمالهم .

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٢٠٨ . وانظر: المبحث الثالث من مباحث المقدمة .

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٣) وقد أوضحت الفرق بين كيان الأمة ووظيفتها في الدنيا ، وبين الأمة في موقف الحساب والعرض على الله ، في المبحث الثالث من مباحث المقدمة .

والخلاصة: إنَّ هناك مسؤولية فردية ، يلتزم فيها كل فرد بأن يُحسِنَ عمله ، ويتحمَّل فيها - وحده - نتيجة سوء عمله .

وهناك مسؤولية جماعية ، يحمل كل فرد نصيبه منها ، ويتحمَّل نتيجة عدم قيام الجماعة (الأمة) بواجبها ، ولو لم يكن مسيئاً بشخصه^(١) .

وفي الصورة الأخيرة لا بد من جزاء في الدنيا يقع على الجماعة ، أمَّا في الصورة الأولى فقد يقع الجزاء في الدنيا وقد يؤجل في الآخرة .

وفي كلتا صورتين لا بد من جزاء على الإحسان وعلى الإساءة هناك في الآخرة ، ولكن بصورة فردية .

وأكتفي بهذه الإشارات في بيان أن الفرق بين الأمم والأقوام من جهة ، وبين آحاد الأفراد من جهة أخرى ليس في المعايير ، فهي لا تختلف ، وإنما في توقيت الجزاء ونوعه ، وكيفية إيقاعه .

وبقي أن نلم بالضابط الذي نعرف من خلاله: متى تكون الأمة محلاً لوقوع هذه السُنَّة الإلهية أو تلك ؛ أي: المعيار الذي تُوزَن به الأمة ، فيحكم عليها من خلاله بالصلاح أو ضده .

ولمعرفة هذا المعيار أو الضابط، تأمل معي هذه النصوص:

قال تعالى: ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَأَنصِيْبِنَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيْدٌ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] . وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] .

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه^(٢) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُوَدِّ أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا»

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠١ بتصرف .

(٢) ابن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، الأمير العالم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، ولد عام الهجرة، وكان من أمراء معاوية، قُتِلَ بقرية بربين، قتله خالد بن خلي بعد وقعة مرج راهط سنة (٦٤هـ)، وقيل: غير ذلك . انظر: سير أعلام النبلاء (٤١١/٣) .

ونجوا جميعاً»^(١).

وفي الحديث الآخر: قالت زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟»، قال ﷺ: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(٢).

وعن عدي بن عميرة^(٣) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»^(٤).

إلى غير ذلك من النصوص^(٥).

وما تضمنته هذه النصوص والآثار من معانٍ هي «عامّة إلى يوم القيامة؛ لأنها بيان لسنة من سنن الله في الأمم والملل»^(٦).

ومن مجموعها - وما جاء في معناها - نستخلص المعيار والضابط للأمة أو القوم محل انطباق السنن، أي الذين تشملهم نتائج السنن على مستوى الأمة.

والمعيار الذي يؤثر في النتائج عادة أحد أمرين، أو كلاهما:

الأول: الكثرة، وتدخل فيها القوة، وتقابلها القلة، وفي معناها الضعف.

فالكثرة أو القوة، أو هما معاً، هي التي تتحكم - غالباً - في مجريات الأحداث، وتكون النتائج لصالحها عادة، وفق المعايير المادية.

والثاني: الفاعلية، وأعني بها: التأثير. وتقابلها السلبية، وتعني: انعدام التأثير. فإن القلة الفاعلة المؤثرة تتحكم عادة بمصائر الكثرة السلبية التابعة.

وبالنظر إلى هذين الوصفين - الكثرة والفاعلية - في أحوالهما المختلفة، اجتماعاً

(١) مسند الإمام أحمد (٤/٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٤)، وصحيح البخاري، واللفظ له. انظر: فتح الباري، كتاب الشركة (١٣٢/٥).

(٢) مسند أحمد (٦/٤٢٨، ٤٢٩). والبخاري في الفتن، انظر: فتح الباري (١٣/١١)، ومسلم في الفتن، انظر: النووي على صحيح مسلم (١٧/٢، ٣). وغيرهم.

(٣) ابن فروة بن زرارة الكندي، صحابي معروف، يُكنى أبا زرارة، له أحاديث في مسلم وغيره، روى عنه أخوه العرس بن عميرة، قيل: مات بالجزيرة أو بالكوفة سنة أربعين. انظر: الإصابة، لابن حجر (٤/٢٣١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٩٢)، وحسن إسناده رشيد رضا في تفسير المنار (٩/٦٣٨)، وأخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (١٣٥٢)، والبيهقي في شرح السنة (١٤/٣٤٦)، عن عدي بن عدي الكندي أنه حدّثه مولى لهم، وهو غير عدي بن عميرة، وهم من سوى بينهما. انظر: الإصابة (٤/٢٣١).

(٥) وسيأتي هذه المسألة مزيد بحث في الفصل الثالث من الباب الرابع، بإذن الله تعالى.

(٦) تفسير المنار (٩/٦٣٨).

وافتراقاً، قوة وضعفاً، وإلى ما يمثله من الخير والشر، يمكن تحديد ماهية الجزاء الذي تستحقه الأمة إلى حد كبير .

وأعود الآن إلى تقرير ما نحن بصده من خاصية انطباق هذه السنن على الأمم والأقوام بالنظر إليهم أمماً وجماعات، لا باعتبارهم أفراداً، بعد أن تبين لنا: الفرق بين الأمم والأفراد، في أحوالهما، وجزائهما .

وعرفنا المعيار الذي نرشح من خلاله الأمة لهذا الجزاء أو ذاك على وجه التقريب، نتيجة معرفتنا قريبا أو بعدها من أسبابه، بالنظر إلى القلة والكثرة، وبالنظر إلى وجود أو انعدام المقاوم المكافئ .

أعود إلى الحديث عن خاصية الجماعية في سنن الله في الأمم بشيء من التفصيل مذكراً ببعض الشواهد والأمثلة من كتاب الله تعالى، فأقول:

إن ظهور آثار السنن في الأمم والجماعات بوصفهم أمة أو جماعة أو قوماً، لا يلزم منه وجود السبب الموجب للجزاء في جميعهم، وإن كان اجتماعهم على السبب الموجب ممكناً، وهو حيثنئذٍ أسرع في إيقاع الجزاء واستحقاقه . بل يكفي في استحقاق الأمة الجزاء - ثواباً أو عقاباً - أن يغلب السبب الموجب ويفشو، بحيث يكون ديناً وعادة، ومألوفاً فلا يغيرونه ولا ينكرونه، بل ربما أنكروا ما خالفه، وقاوموا من خالفه، فهو لهذا يزيد فيهم ولا ينقص، ويفشو ولا يقل، فهم في هذه الحال - وإن لم يكونوا جميعاً ممن يفعله ويواقعه - فهم جميعاً - بقصد أو بغير قصد - ممن يجرسه ويسهم في بقائه، أو لئلك بفعلهم، وهؤلاء بسكوتهم، حتى وإن كان الفاعلون أقل من الساكتين .

قال تعالى: ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

قال ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقرروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب»^(١) .

وعن أبي بكر الصديق ؓ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ أَوْ شَكَ أَنْ يَعْتَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابٍ»^(٢) .

(١) تفسير ابن جرير (٢١٨/٩) .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه، كلهم من حديث أبي بكر الصديق ؓ .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية ما معناه: أنه لما حرض سبحانه المؤمنين جميعاً على الاستجابة لله وللرسول في الآية السابقة^(١)، حذر في هذه الآية المستجيبين منهم من إعراض المعرضين ليعلموا أنه قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أن امتثالهم كافٍ إذا عصى دهماؤهم... فعلى عقلاء الأقسام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا ديبب الفساد، أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلّ بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوا من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك لم يلبث الفساد في النفوس، بل ينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى ينتهي إلى صلحائهم فينكد عيشهم، على الرغم من صلاحهم واستقامتهم.

فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة، بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل؛ لأنّ أضرار حلولها تصيب جميعهم^(٢).

ومثل هذا المعنى في الآية، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نَعِمْتَ اللَّهُ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. على أنهم قادة المشركين تسببوا في إهلاك قومهم الذين اتبعوهم في بدر، وأحلّوهم دار البوار وهي جهنم في الآخرة^(٣).

ويؤكد معنى العموم في تينك الآيتين، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فإنّ هذه «الآية تقرر سنّة إلهية، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة؛ لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثرت فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنّة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسؤولة عما يجلب بها؛ لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد، فيقودها إلى الهلاك...

(١) وهي قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].
 (٢) تفسير التحرير والتنوير (٣١٦/٩، ٣١٧) بتصرف يسير. وانظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٣٦٨، ٣٧). وتفسير المنار (٦٣٧/٩).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٣١٩/١٣). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٩٥/٩).

وهنا تبرز تبعة الجماعة (الأمّة) في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفرّ منها^(١) والتي تتحمل نتائجها الأمّة كلها في نهاية المطاف .

ويزيد القرآن هذا الأمر وضوحاً عندما يحدثنا أن فرداً واحداً عبث بمصير قوم ومستقبل أمة فأهلكوا بسبب هذا العبث ، وهي واقعة تكشف غاية السلبية وعدم الفاعلية على مستوى الأمّة .

قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِيكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٦] . إنه شخص واحد تفرعن ، والناس من حوله صُموت لا يجرمون ما يفعل . حتى على المستوى الشخصي ، لم يمتنعوا من الموافقة له واتباعه ، وهو يبتزهم ويستخف بهم! فكان ما قصه الله عنهم ، فذهبوا أجمعين غير مأسوف عليهم .

ويشهد لهذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] .

فإن «أل» في «الفساد» و«الناس» للجنس^(٢) ، «يعم كل فساد . . . سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات ، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم ، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار»^(٣) . وظهور الفساد في الأرض ليس موقوفاً على حصول هذه المفاسد من كل الناس ، بل يكفي أن تقع من عمومهم الصادق على بعضهم ، بينما الأذى الدنيوي المترتب عليها قد لا يسلم منه أحد منهم ، وعلى الأقل فإن الذين يلحقهم الأذى بسبب الفساد هم أضعاف من يباشرون إيقاع الفساد بأنفسهم .

ونحن لو عدنا إلى النصوص والأمثلة السابقة وتأملناها ، لم نجد في أي منها تنصيهاً

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٢١٧، ٢٢١٨) .

(٢) وهو أولى ما تحمل عليه في مثل هذا السياق . انظر: فتح القدير (٤/٢٢٨) ، والتحرير والتنوير (٢١/١١٠، ١١٢) .

(٣) فتح القدير (٤/٢٢٨) .

على الكثرة العددية^(١)، وأنها كانت السبب في حلول السنة الإلهية، بل إن في الآيات إيماءً إلى أن العكس ربما يكون هو الواقع، خصوصاً في آية الإسراء وآيات الزخرف.

لا نجد تنصيماً على العدد بقدر ما نجد التأكيد على أهمية الفاعلية، والتذكير بضرورة تحمّل الأمة للمسؤولية، وبيان وخيم العواقب للأمة عندما تغطي عليها السلبية، وتتخلى عن تحمّل المسؤولية.

تلك صورة. وثمة صورة أخرى أشار إليها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا

مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ففي الآيتين تنبيه إلى أن التغيير المؤثر هو التغيير الجمعي، تغيير ما «بأنفس القوم» فلا يغير من حال الأمة أن يغير فرد أو أفراد قلائل ما بأنفسهم، كما لا يؤثر في النتيجة سلباً أن يتخلف فرد أو أفراد قلائل فلا يغيروا ما بأنفسهم.

المهم في الأمر - أمر التغيير - أن تريد الأمة بمجموعها ذلك الشيء إرادة جازمة، ثم تترجم هذه الإرادة إلى عمل وإلى واقع مشاهد. وفي هذه العملية قد يتخلف أفراد فلا توجد لديهم هذه الإرادة، وبالتالي لا يوجد منهم عمل.

كما أن «القوم» بينهم من التفاوت في الإرادة وفي العمل؛ نتيجة تفاوت أقدارهم ومواهبهم وإيمانهم بالفكرة... قدر كبير.

هذا وذاك، لا يؤثران، فلا تقف عجلة التغيير، ما لم يخرج التخلف عن إرادة التغيير عن حد «الأفراد القلائل»، وما دام «القوم» الذين وقعت منهم إرادة التغيير الجازمة يبذلون جهودهم في تحقيق هذه الإرادة.

هذا وذاك لا يؤثران؛ لأن وجودهما في الأمة - آية أمة - أمر طبيعي، وظاهرة لا يمكن أن تزول. نعم يمكن أن تقلص إلى حد كبير، لأسباب معينة، فيكون التغيير أسرع وأعمق وأقوى، لكنها لا تزول.

والقرآن بواقعيته يقرر هذه السنة بهذه الاعتبارات.

(١) أعني: التنصيص على كونها المباشرة للأسباب.

فما الجديد في هذه الصورة؟

في هذه الآيات نلاحظ أهمية الكثرة الفاعلة الإيجابية وقيمتها في تحقق النتائج الجماعية على مستوى الأمة. فحتى وإن تخلف أفراد عن مواكبة المسيرة، وحتى وإن تفاوتت الفاعلية في الاتجاه الجماعي الواحد، فإن عملية التغيير تتم وتحقق، وينعم بخيراتها، أو يصطلي بناها هؤلاء وهؤلاء.

إذا تقرّر هذا المعنى، أمكننا أن نفهم جيداً مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن عاشور منبهاً على هذا المعنى عند هذه الآية: «الموصول^(١) عام لا يختص بمعين، وعمومه عُرفي؛ أي غالب فلا يناكده ما يكون في الأمة من مقصرين في عمل الصالحات، فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة»^(٢). هذا فيما يتعلق بالأشخاص.

أما ما يتعلق بالأعمال فقد نبّه إليه بقوله عند تفسير قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: «والتعريف في الصالحات للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهو استغراق عُرفي، أي عملوا معظم الصالحات ومهماتها ومراجعتها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة فإنها معفو عنها، إذا لم يسترسل عليها، وإذا ما وقع السعي في تداركها»^(٣).

ولعلني أكتفي بهذا البيان وتلك الإشارات في تقرير خاصية: ارتباط هذه السنن بالأمم والأقوام والجماعات، وظهور آثارها فيهم دون الأفراد. وأحسب أن السبيل تمهّدت للحديث عن الخاصية الخامسة، وهي: أن نتائج هذه السنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة.

(١) عني به ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور: ٥٥].

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٨/٢٨٣).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٨/٢٨٣).

الخاصية الخامسة

نتائج هذه السنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة^(١)

أي أن الأمم تلقى جزاءها على أعمالها الجماعية، خيراً كان هذا الجزاء أم شراً في هذه الحياة الدنيا. وبعبارة أدق: في حياة الأمة نفسها.

وقد أوضحت معنى هذه الخاصية بشيء من الإجمال في الخاصية السابقة، وأزيد هاهنا إيضاحاً وتفصيلاً، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: الجزاء على الأعمال منه ما يقع في الدنيا، ومنه ما يكون في الآخرة، ومنه ما يكون فيهما معاً.

فالذي لا بد أن يكون في الدنيا هو الجزاء الجماعي على أعمال الأمم، بالنظر إلى هذه الأعمال من جهة كونها مظهراً جماعياً، لا أعمالاً فردية. هذا اللون من الجزاء لا بد أن تُجزأه الأمم - كل الأمم - في الدنيا لا محالة.

والذي لا بد أن يكون في الآخرة - وقد يقع في الدنيا، وقد لا يقع - هو الجزاء الفردي على الأعمال من جهة كونها مسؤولية فردية. فهذا الجزاء لا بد أن يلقاه كل فرد بمفرده، وكل إنسان مهما كان صفته.

قال الشيخ رضا في تقرير هذين المعنيين: «إنَّ اتِّبَاعَ هدى الله المنزَّل على رسله - وهو الدِّين - موجب للسعادة، بأن أصحابه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لإطلاقه، ولكنه في الدنيا إضافي مطرد في الأمم، وإضافي مقيد غير مطرد في الأفراد، وفي الآخرة حقيقي مطرد للجميع»^(٢).

وقد يجتمع الجزاءان، الدنيوي والأخروي، ولهذا إحدى صورتين:

الأولى: أن يلقى الفرد جزاءه فيهما بصورة فردية، كقارون مثلاً، فإنَّ الله خسف به وبداره الأرض. وهو في الآخرة من المخلدين في النار.

(١) وقد ألمتُ بشيء مما يتعلق بهذه الخاصية في البحث الثالث من مباحث المقدمة (الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الأفراد).

(٢) تفسير المنار (١١/١).

الثانية: أن يلقي الفرد جزاءه في الدنيا بصورة جماعية ، كفرعون مثلاً ، فإن الله أغرقه في اليم مع قومه أجمعين .

والحديث هنا عن الجزاء الجماعي ، وهو ما لا يكون إلا في الدنيا ، وهذه الخاصية التي بين يدينا تقرر بصورة حاسمة: أن هذا الجزاء الذي لا يكون إلا في الدنيا ، لا بد أن يقع . يوضح ذلك النقطة الثانية:

وهي: أن مقتضى العدل والحكمة الإلهية ، إيقاع هذا اللون من الجزاء في الدنيا ، وعدم تأخيره إلى الدار الآخرة ، وأن يكون ذلك سُنَّة مطردة تعلمها الأمم ويعلمها الأ أقوام .

ذلك أن الله - تبارك وتعالى - أوجد هذا الكون بما فيه ومن فيه ، وجعل الإنسان فيه خليفة ، واستأمنه على عمارته ، وهذا الخليفة لا يعمر هذا الكون بصفة فردية ، بل بصورة جماعية ، ولهذا لا تظهر آثار أفعاله عادة إلا من خلال الجماعة والأمة .

وجعل لهذا الكون غاية لا بد أن يبلغها وأجلاً لا بد أن يستوفيه ، قبل أن يصيبه العطب ويحل به الفساد ، الذي لا يرجى بعده صلاح .

فلكي يبلغ هذا الكون مداه وغايته على الوجه الذي أَرادَه الله ، كان لا بد من الثواب والعقاب العاجل ؛ إذ لا يكفي لبلوغ هذا الكون غايته على مستوى الأمم مجرد التلويع بالجزاء الأخروي - وإن كان له أثر بالغ الأهمية - بل لا بد أن تنال الأمة أو القوم سُنَّة الله في الحياة الدنيا ؛ لأنَّ لها - بكيانها الجماعي - مسؤولية محددة ، هذه المسؤولية تنتهي في هذه الحياة الدنيا ، ويكون الجزاء في الدار الآخرة بصورة مختلفة ، وليس من العدل ولا من الحكمة أن تترك بلا حساب ، وإلا لم تكن أمة مسؤولة ، ولم يُعد لاجتماعها ثمرة وهدف .

وإذن ، فلا بد من الجزاء ، ولا بد أن يكون الجزاء في هذه الدنيا .

وقد جاءت هذه المعاني واضحة في كتاب الله تعالى:

قال جل وعلا: ﴿وَلِن مِن قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلْيَكْمَةِ أَوْ مَعَذْبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨] .

وقال سبحانه مبيناً جزاء قوم هود في الدنيا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسُوتٍ

لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٦﴾ [فصلت: ١١٦].
وقال سبحانه مسلماً رسوله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، ومبيناً أن العقوبة لا
محالة نازلة بهم: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ
مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

وقال: ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:
١٠٢]. وقال تبارك وتعالى في قصة سبا: ﴿فَاعْرَضُوا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبْلَتَيْنِ
جَدَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ حَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَىٰ وَمِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا
بَعُدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبا: ١٦-١٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رَّسَلْنَاهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا
وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدْلٍ لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فهذا كله في الدنيا، وعلى مستوى الأمم والأقوام، كما هو ظاهر النصوص.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾
[الأنفال: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ومما يؤكد الحكمة من كون جزاء هذه السنن في الدنيا، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ
النَّاسَ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾
[البقرة: ٢٥١].

وقوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُجُومِهِمْ وَمَسَاجِدُهُمْ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

ففي هاتين الآيتين يقرر سبحانه أن دفع الفساد عن الأرض وحماية ما عليها، وحماية الحق الذي أنزله وأمر باتباعه هو الغاية من إقرار سنّة التدافع. ومعلوم أنه يحصل بسبب هذا التدافع نصر وهزيمة، وظهور وانكسار... وكل ذلك من الآثار التي تجنيها الأمم في عاجل أمرها.

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة.

كل هذا فيما يتعلق بالأمم والأقوام، أما الأفراد فقد لا يحصل كل منهم على جزاء عمله ناجزاً في الدنيا، وإن حصل عليه فقد لا يحصل عليه كله.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ، فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

أما في الآخرة، فقد قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَّا لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَإِنَّا مُخْرِجُوهُ، وَمَنْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَلِيَمْلِكِ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً [الإسراء: ١٣، ١٤].

والمقصود: أن من خصائص سنن الله في الأمم، انطباقها وظهور آثارها على الأمم والأقوام في الدنيا قبل الآخرة، وأن ذلك راجع إلى اختلاف الأمم عن الأفراد، واختلاف وظيفة هذه السنن عن غيرها من النواميس التي تحكم الكون، وعالم الآخرة.

وبعد، فإن أعظم ثمرة تجنيها الأمة من معرفة: أن آثار أعمالها ومواقفها، سلبية كانت أم إيجابية، سوف تلقاها وجهاً لوجه، فلا تملك التهرب منها، إن كانت أعمالاً تشينها، وسوف تنعم بها إن كانت أعمالاً صالحة تزينها.

إن أعظم ثمرة تجنيها الأمة من معرفة ذلك:

أن تخطط بدقة وعمق وإخلاص في الحال واللحظة، وأن لا تتهاون أو تغض الطرف عن أي خطأ أو تقصير، سواء كان واقعاً أو مما قد يقع في المستقبل؛ ذلك أنها تعلم أنها

في يومها ترسم مستقبلها في غدها ، ليس رجماً بالغيب ولكنه اليقين الذي لا يخالطه شك ، كما تعلم أن هذا الغد سوف تواجهه هي بكل ما فيه لا محالة . وحينئذٍ ستختار لنفسها فتحسن الاختيار .

ومما يؤسف له أن المسلمين اليوم أبعد ما يكونون عن فقه هذه المعاني والعمل بموجبها ، مع أنهم أهل القرآن ، وهُم أولى الناس باتباعه .

الخاصية السادسة

أنها سنن مرتبطة بالكسب البشري

وهذا يعني ببساطة: أن نوع الكسب البشري وكيفيته وكميته، هي التي تحدد نوع السنة المستحقة، وتتحكم في سرعة وقوعها، وقوة تأثيرها.

وبمعنى آخر: البشر هم الذي يصنعون أسبابها باختيارهم وكسبهم، ويتحملون نتائج ذلك، لهم أو عليهم. ذلك أن الله الذي خلق الخلق وأفعالهم، وخلق الأسباب وقدراها، هو الذي جعل بينها هذا النوع من العلاقة والارتباط، وربب عليها ما رُبب من النتائج.

ونحن البشر ما علينا إلا أن نجتهد في إدراك:

- طبيعة العلاقة بين كسبنا وعملنا، وبين السنن التي تضبط هذا الكسب وذلك العمل.

- وأن نلتمس الحكمة من وراء جعل العلاقة بينهما بهذه الكيفية دون ما سواها. بعد أن يكون قد تقرر عندنا أن ذلك كله من صنع الله العليم الحكيم.

إن إدراك طبيعة العلاقة بين كسبنا وبين السنن الإلهية هو جوهر هذه الخاصية.

كما أن معرفة الحكمة من ذلك هي ثمرة دراسة هذه الخاصية.

وقد أولى القرآن الكريم ذلك كله عناية بالغة؛ لما لمعرفته من عظيم النفع للفرد والأمة.

فمن ذا الذي لا يستطيع أن يكشف بنفسه طبيعة العلاقة بين كسب البشر وبين الجزاء الذي يحصلون عليه وفق السنن التي تضبط حياتهم، ويعقل الحكمة من وراء ذلك، فور قراءته لمثل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْرِفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال سبحانه: ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ

مَثَلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿﴾ [آل عمران: ١٦٥].
 وقال: ﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴿﴾
 [آل عمران: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
 بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال: ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
 بِأَنْفُسِهِمْ ﴿﴾ [الرعد: ١١]. وقال: ﴿﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفور قراءته مثل قوله تعالى: ﴿﴾ فَإِذَا لَقِيتُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَضَىٰ الرِّقَابِ حَقًّا إِذَا انْخَضْتُمْوهُمُ فَشَدُّوا
 أَلْوَابًا فِيمَا مَتَّ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَصَّعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ
 بِبَعْضٍ ﴿﴾ [محمد: ٤]. وقوله: ﴿﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿﴾ [محمد:
 ٧].

وقوله سبحانه: ﴿﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
 النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ
 إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله تعالى على لسان نبيه نوح ﷺ: ﴿﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿﴾ يُرْسِلِ
 السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقوله على لسان هود ﷺ: ﴿﴾ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿﴾ [هود: ٣]... إلى
 غير ذلك من الآيات، وما أكثرها. وكلها تؤكد رسوخ هذه الخاصية في سنن الله في الأمم، خاصة ارتباط هذه السنن بكسب البشر وأعمالهم. يضع الله الأمة أو القوم
 حيث يضعون هم أنفسهم، ويمنحهم بقدر ما يتأهلون له من العزة والذلة، والغنى
 والفقر، والأمن والخوف، ومن الصلاح والفساد... و... فلا محاباة ولا
 خصوصية، ولا مجال للخوارق والمعجزات التي لا تسندها الأسباب الشرعية، بل الأمر
 كما قال سبحانه: ﴿﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴿﴾ [الإسراء: ٧]. وقال:
 ﴿﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ [النساء: ١٢٣] .

وهذه الخاصية ، مع شدة وضوحها ، وجريان شؤون الخلق على ما يصدقها ، سواء في ذلك شؤون دينهم وشؤون دنياهم فإن أكثرهم في غفلة عنها ، وخصوصاً ما يتصل بإقامة دين الله وشرعه من نصره والعمل بهدأيته .

وقد جلى الأستاذ سيد قطب هذه الخاصية ، وقررها أحسن تقرير في كتابه النفيس «هذا الدين» وبهذه المناسبة أنقل مقتطفات من كلامه ، تضع النقاط على الحروف وتلخص معاني ما سبق .

يقول - رحمه الله - تحت عنوان: منهج للبشر: «هنالك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر ، حقيقة أولية بسيطة^(١) . ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى ، أو لا تُذكر ابتداءً ، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين ، حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك .

إن البعض ينتظر من هذا الدين - ما دام منزلاً من عند الله - أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أي مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معه ، فيتأثران به - في فترات - تأثراً واضحاً ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه . حين يرون هذا ، فإنهم يصابون بخيبة أمل .

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية ، يتم تحقيقه في حياة البشر بمجهود البشر أنفسهم ، والله قادر - طبعاً - على تبديل فطرة الإنسان ، ولكنه - سبحانه - شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها ، و شاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

و شاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً ولا تمحى ولا تعطل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] .

(١) هذه الحقيقة ، هي هذه الخاصية ، وهي ليست خاصة بطبيعة هذا الدين ، بل هي عامة في كل عمل وكسب يقوم به البشر ، كما أوضحت ذلك فيما سبق ، ولكن المؤلف ذكرها مناسبة الحديث عن طبيعة هذا الدين .

وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].
﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد وما ينفق من الطاقة . . . وليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان؟ لماذا شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري ، ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة ، وبأسباب مبهمه غامضة؟!

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها، ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية، ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوءها. فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية، ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويواجهه من ناحية أخرى، ويعيش مع حكمة الله وقدره، فينطبع بهما الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة.

على أنه من الملاحظ الواضح، أن ترك المنهج الإلهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية، يُصَلِّحُ النفوس البشرية، ويُصَلِّحُ الحياة البشرية.

نقول هذا، لا لنعلل به مشيئة الله - سبحانه - في جعل الأمر على ما جعله، ولكن لنسجل فقط ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة في حياة العباد.

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته، حتى نضيف إلى تلك الحقيقة تكملة ضرورية لها لا بد من بيانها كذلك.

إن كون هذا المنهج الإلهي متروكاً لتحقيقه للجهد البشري، لا يعني استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر وانقطاعه عن قدر الله وتديبره، فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها، ويجاهد في الله ليلبغ رضاه.

وإذن فهو في النهاية تدبير الله ومشيتته وقدره؛ لئتم ما يريد من وراء الأسباب والأحداث^(١).

بقي علينا أن ندرك معنى مهماً ألحمت إليه في ثنايا الحديث، ولا بد من التذكير به وإيضاحه.

(١) هذا الدين، ص ٣ - ١٤ باختصار وتصرف يسير.

فقد قلتُ في تقرير معنى هذه الخاصية: البشر هم الذين يصنعون أسبابها باختيارهم وكسبهم ، ويتحمّلون نتائج ذلك لهم أو عليهم .

وأقول هنا: إنَّ تحمل البشر، أمةً أو قوماً لهذه النتائج ، أمر لا مفر منه ولا خيار لهم فيه ؛ لأنَّ نتائج كسبهم ضرب من ضروب الجزاء على هذا الكسب ، وهو جزاء لا بد أن ينالوه في الدنيا قبل الآخرة ، لأنَّه جزاء جماعي لا فردي ، كما تقرر ذلك في غير هذا الموضوع .

ومن هنا يبدو الفرق واضحاً بين السبب والنتيجة ، بين فعل الأمة وكسبها ، وبين نتيجة ذلك . الأول اختياري راجع إلى إرادة الأمة ، والثاني لازم لا فكاك للأمة عنه .

قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] ، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَكْبُرُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رِيكٌ وَإِنَّهُمْ لَآتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥] ، [٧٦] .

وهذا هو معنى كون ارتباط السنن بالكسب البشري خاصة من خصائص السنن الإلهية .

الخاصية السابعة

السنن منظومة واحدة

أي أن بعضها يُكَمَّل بعضاً، ويؤثر فيه إيجاباً وسلباً. فهي - وإن كانت سنناً متعددة - تحكم أوضاعاً مختلفة، إلا أن بينها من التناسق والتكامل ما يجعل تفسير أي حدث تاريخي من خلال عامل (سُنَّة) واحدة يُعدّ خطأ منهجياً، يفضي لا محالة إلى نتائج مدمرة. ومعنى هذا، أن للسُنَّة الواحدة تأثيراً باعتبارين:

الأول: باعتبارها السُنَّة المباشرة للحال؛ أي الجزء المطابق للكسب.

والثاني: باعتبارها لازماً، أو سبباً لتلك الحال، أو ما شابه ذلك، فهي بالتالي ذات علاقة بنوعية الجزء بصورة ما من الصور.

وهي في الحالين تشكل حلقة في سلسلة، وخرزة في نظام غير منفصلة عنه، ولا يتصور أن تكون غير مؤثرة فيه^(١).

«إنَّ السببَ المباشر ليس في الحقيقة سبباً، إنه مجرد نقطة في سلسلة من الحوادث والاتجاهات والتأثيرات والقوى التي تبدأ فيها النتيجة بالظهور أمام العيان. إنَّ السببَ المباشر هو الحادث المعجل لحدوث الأمر، كما يعمل سقوط عود من الثقب على كومة قابلة للاشتعال في إشعالها. ومن هنا لا يكون الطريق الأفضل في تقصي الأسباب لأمر ما أن نسأل: ما الذي يمكن أن يحدث لو أن هذه الحادثة لم تقع؟ بل الأفضل أن يكون السؤال: كيف أدت الظروف إلى مثل النتيجة في وقت لاحق؟ لأنَّ الاتجاهات والتأثيرات والعوامل المقررة لتلك النتيجة كانت وما تزال تؤدي عملها؟!»^(٢).

ولإيضاح المقصود بهذا الكلام، أضربُ المثلَ التالي:

نقول مثلاً: جرت العادة أن النصر سبب للظهور والتمكين، والهزيمة سبب للذل والهوان فالزوال.

ونقول أيضاً: الصبر سبب من أسباب النصر، والخوف والخور من أسباب الهزيمة.

(١) انظر: كلمة في تحليل التاريخ، لعمر فروخ، ص ١٢ وما بعدها، وكتاب: كيف نفهم التاريخ، للويس جوتشلك، ص

٢٤١.

(٢) كيف نفهم التاريخ، ص ٢٤٢، ٢٤٣، تحت عنوان: (مشكلة السبب والدافع والتأثير) بتصرف.

ثم نقول ثالثاً: إن من السنن الإلهية أن الإيمان مصدر القوة والأمن، وأن المعصية والكفر والشرك من عوامل القلق والخوف .

فأنت ترى أن النصر - مثلاً - لا يمكن أن يتحقق بعامل واحد كالصبر مثلاً، بل ولا حتى الإيمان بالله وحده دون مراعاة بقية الأسباب واللوازم والمقدمات .

فإذا كان الإيمان بالله يورث الصبر، فقد يوجد الصبر عند غير المؤمن فينتصر، إذا استجمع الأسباب الأخر، وفرط فيها المؤمن .

وهذا لا يعني أن المؤمن لم يصبر، وإنما معناه: أنه مع صبره، قد لا ينتصر! لتخلف أسباب أحر؛ كالتخطيط أو إعداد القوة... أو غيرها، وبالتالي لا يستحق الظهور والتمكين .

لكن إذا حصل النصر - وهو يتم عادة بأسباب في مقدمتها الإيمان والصبر - كان ذلك علامة على الظهور، ودليلاً على أهلية التمكين .

والكفر والشرك يورثان الخور والخوف، وهما من أسباب الهزيمة عادة، لكن قد ينتصر الكافر والمشرك، لا لأن الكفر أو الخوف من أسباب النصر! ولكن لأن معه من الأسباب الأخر، المؤهلة للنصر أكثر مما مع عدوه .

أما إذا حلت الهزيمة، من جراء تضافر أسباب عدّة، فهي دليل التقهقر، وعنوان الهوان، ويكون الخور والخوف حينئذ في مقدمة الأسباب التي قادت إلى تلك الهزيمة .

وواضح - كما ترى - أنه لا يصح القول بانفراد سبب واحد بتحقيق النصر أو إحداث الهزيمة، وإن كنا نقول تجوّزاً: إن صبر الجنود في ساحات القتال واستبسالهم كان سبب النصر، وإن فرارهم وتركهم الميدان كان سبب هزيمتهم؛ لأن للصبر أسباباً وللفرار أسباباً... وهكذا .

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهْشَوْا فِي أَيْمَانِ الْفَوْرِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾^١
وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^٢ ﴿ [النساء: ١٠٤] ؛ أي: فأنتم أحق بالصبر منهم .

وإذن، فكل سنة من تلك السنن هي جزء لكسب، وهي أيضاً لازم أو سبب لسنة أو سنن أحر .

ولهذا التلازم، بل التكامل بين منظومة السنن نجد تفاوتاً في صور النصر وصور الهزيمة: فهذا نصر حاسم وذاك نصر قريب من الهزيمة... وكذا الهزيمة. وما ذاك إلا لتفاوت مقدار الأسباب المأخوذ بها، وتفاوت كيفية الأخذ بها كذلك.

ونجد مثل هذا التفاوت في صور الاستخلاف والتمكين في الأرض، طولاً وقصراً، استقراراً واضطراباً؛ لاختلاف أسبابه.

فتمكين الأمة المسلمة في الصدر الأول، تمكين واستخلاف اجتمعت فيه الأسباب المادية والمعنوية، بصورة جمعت بين التكامل والعمق. وتمكين الأمم الكافرة اليوم، تمكين واستخلاف اجتمعت فيه أسباب القوة المادية. ولأن لكل منهما أسبابه ودوافعه، اختلفت آثارهما اختلافاً كبيراً، وإن اشتركا في الظاهر وفي المسمى اللغوي.

ثم إن هذا التفاوت في مقدار وكيفية الأخذ بالأسباب، وما يترتب عليه من اختلاف الآثار... يؤكد أن تمكين الأمة المسلمة في الصدر الأول لا دليل فيه على ثانوية الأخذ بالأسباب المادية، وأنه حصل بالإيمان وحده، بلا قوة مادية ودون أخذ بالأسباب.

كما أن تمكين الأمم الكافرة، الأخذ بأسباب القوة المادية اليوم ليس دليلاً على ثانوية أسباب القوة المعنوية كالإيمان بالله، والالتزام الأخلاقي.

بدليل أن تمكين الأولين كان أتم وأكمل، وكان أسعد للإنسان، وأطول عمراً في الزمان؛ لأنهم كانوا أجمع لشروط التمكين والاستخلاف. ومع ذلك فقد مكّن للأمم الكافرة اليوم بما معها من أسباب القوة المادية تمكيناً يوازي أهمية تلك الأسباب.

ليس هذا فقط، بل إن ما مع الأمة من الأسباب، تتحدد قيمته بالنظر إلى ما مع خصومها من تلك الأسباب أو غيرها؛ لأن ذلك أثراً في فاعلية ما معها هي من الأسباب.

فالأمم الكافرة اليوم، لم تتمكن بفضل ما معها من أسباب القوة المادية فقط، ولكن بسببها، وبسبب فقد المسلمين لهذه الأسباب المادية، ولغيرها من الأسباب المعنوية، من الإيمان الصادق والعمل الصالح، فاجتمع للأمم الكافرة قوتهم، وضعف خصومهم.

وكل هذا يؤكد لنا معنى هذه الخاصية في سنن الله في الأمم، ألا وهي التكامل، والاشترار في التأثير، وكونها تشكل منظومة واحدة، غير قابلة للتجزئة.

فما سبب كونها كذلك؟ لِمَ لا تعمل كل سُنَّة منها بصورة منفردة وعلى حدة، وتستقل بأسبابها وآثارها؟

سبب ذلك راجعٌ إلى طبيعة الإنسان، الذي جاءت هذه السنن لتنظم حياته وتضبطها، وإلى هذه الحياة نفسها، والوظيفة التي أوجد هذا الإنسان أساساً ليقوم بها ويؤديها فيها.

فلا الإنسان تصلح دوافعه ونوازهه المختلفة لأنْ تُكَلَّبى من خلال تلبية جانب أو جوانب منها، دون سائرهما. ولا الحياة التي أبدعها الله متلائمة وطبيعة هذا الإنسان، والوظيفة التي كلفه القيام بها، يمكن أن تصلح جوانبها المختلفة باستصلاح جانب أو جوانب منها دون سائرهما. وبالتالي لا جرم أنه لا تصلح هذه السنن لأنْ تعمل متفرقة، ولا آثارها؛ لأنْ تفسَّر بالعامل الواحد!

يقول الدكتور عويس في فصل «نشوء الحضارات في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ»: «إنَّ الطبيعة متعددة، لكنها - أيضاً - متناسقة ذات علاقة مشتركة، والإنسان متعدد، ولكنه أيضاً متشابهك منسجم ذو علاقة مشتركة، وبالتالي فالتفسير الذي يجب أن يعتمد لنشوء الحضارات يجب أن يكون تفسيراً متعدداً، لكنه في الوقت نفسه منسجمٌ ذو علاقة مشتركة. وعلى أساس هذا المقياس الواضح... يجب أن تُعْرَض كل التفسيرات»^(١).

ومن هنا ف «إنَّ القرآن يرفض في نظره للمسألة الحضارية أشد ما يرفض موقف التجزئة والفصل، وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة. وأن تجزئتها وعزل بعض جوانبها خلال العمل عن بعضها، ليس خطأ فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا ما أردنا مسبقاً أن نصل إلى نتائج صحيحة»^(٢).

«ومن هنا يقرر التفسير الإسلامي، أن تاريخ الإنسان هو تسجيل لمحاولة الإنسان أن يحقق كيانه كله، بكل مقوماته وكل مكوناته، سواء منها توجهه إلى خالقه بالعبادة (أي قضية الدين)، أو توجهه إلى إقامة مجتمع فاضل (أي قضية الأخلاق والقيم)، أو توجهه للتعرف على الكون المادي (أي قضية العلم)، أو توجهه لاستثمار معرفته في تحسين

(١) تفسير التاريخ علم إسلامي، د/ عبد الحليم عويس، ص ٢٠٨.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، د/ عماد الدين خليل، ص ١٩٨.

أحواله المعيشية وترقيتها (أي قضية الحضارة المادية وعمارة الأرض)، أو توجهه نحو الكون والحياة بالحسّ الجمالي (أي قضية الفن)، أو توجهه بفكره لمعرفة السنن التي تسير الحياة البشرية ومحاولة استخراج دلالتها (أي قضية الفكر). كلها توجهات أصيلة، صادرة صدوراً مباشراً عن الكيان الإنساني الشامل المترابط، وليس أحدها انعكاساً لغيره من توجهات ذلك الكيان، وإن كانت كلها تتأثر ببعضها البعض، ويؤثر بعضها في بعض بدرجات مختلفة، تعتمد على مساحة الدافع في النفس، ونوعية الفرد أو الجماعة أو الجليل موضع الدراسة، والظروف المادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي تواجهه، مما يُوجد الاختلاف بين فرد وفرد وجماعة وجماعة وجيل وجيل.

والحقيقة التي يراها التفسير الإسلامي للتاريخ، أن هناك وحدة تشمل هذا كله، في المنبع والمصبّ. في المنبع عند صدورهما من النفس البشرية المتشابكة المترابطة بطبيعة تكوينها، وفي المصب عند تأثيرها في المجتمع البشري تأثيراً مجتمعاً متشابكاً، وإن جاءت التأثيرات فرادى في ظاهر الأمر.

فالموقف الفني لفرد أو أمة، لا يمكن فصله مثلاً عن الموقف الاعتقادي ولا الموقف الأخلاقي، فضلاً عن التأثيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمادية التي تؤثر بوعي أو بغير وعي في الفرد، أو الأمة صاحبة الإنتاج الفني^(١).

ويمكننا الآن - بعد تقرير هذه الخاصية من الناحية النظرية - أن نقف وقفة أخرى مع بعض الشواهد والأمثلة من كتاب الله تعالى، وهي كثيرة جداً.

فمثلاً: نجد في آيات كثيرة، الارتباط ما بين الإيمان بالله تعالى وبين عدد من مظاهر الحياة المادية، كرخد العيش وكثرة البركات، وكالتمكين والاستخلاف في الأرض. ومظاهر الحياة المعنوية، كالأمن والطمأنينة. وما هو مؤلف منهما معاً؛ كالحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَتَقَرَّبُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَسْتَفْغِرُ وَأَرْبَابَكُمْ تَسْتَعِينُ إِلَىٰ رَبِّكَ يَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتْلُوا تَجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، للاستاذ/ محمد قطب، ص ٤٨، ٥١ باختصار.

قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُصِيبُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ ، ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ءَالَمٌ مُّوْتَمِرٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ السَّعِيدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقال: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]... إلى آيات أخر في هذا المعنى .

وهكذا يبرهن القرآن على عمق هذه الخاصية بوضوح ، زاده التكرار وضوحاً ، ويؤكد لنا الطبيعة التكاملية بين مجموعة السنن التي تضبط حياة الأمم والمجتمعات ، حينما يمزج ما بين المعنوي والحسي ، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ؛ ليخلق منها إنساناً سوياً ، وأمة خلاقة رائدة .

ومثل آخر تشبين من خلاله خاصية التناسق والتأثير المتبادل بين مجموعة السنن المتعلقة بالإنسان:

النصر!

فإن حصوله متعلق بعدة أسباب ، منها ما هو معنوي ، ومنها ما هو مادي .
ثم إنه لا غنى عن شيء منها ، فكلها ذات تأثير .

ويمكن أن يقف على هذه الحقيقة وتلك ، من يقرأ هذه الآيات من سورة الأنفال .

قال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزَعُوا فَنفَشِلُوا مِن دَهَابِ رِيحِكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرَا وِرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

ويُقاسُ على الإيمان بالله... والنصر، سائر شؤون الحياة.

ومن تأمل مجريات الأحداث، كيف تتكون، ثم كيف تتحول، آمن بمصادقية هذه الخاصة، وأنها ضرورة لا تصلح الحياة، ولا يصلح الإنسان إلا بها^(١). ولوضوح هذه الخاصة واستقرارها في حسّ الأفراد والأمم، ثمرات وفوائد عظيمة، في مقدمتها: أن تؤمن بضرورة الإصلاح الشامل لكل نواحي الحياة، المادية منها والمعنوية، الدينية والدينية؛ لعلمها بأن السنن لا تتعامل مع جانب منها وتهمل الجوانب الأخرى، وأن أي تقصير هنا يظهر أثره هنا وهناك حتماً. وبالتالي فلا مجال للاستهانة بهذا الجانب أو ذلك.

وأن تتعامل الأمة مع الأحداث ومع الواقع بصورة صحيحة، فلا تفسر الأشياء تفسيراً جزئياً، فتحمل جانباً أكثر مما يحتمل، أو تلغي تأثير جانب ما من حياتها؛ وذلك لعلمها أنه لا يستقل - عادة - سبب واحد في إحداث نتيجة ما على مستوى الأمة، حتى الكفر - على قبحه - لا تؤخذ الأمم به عادة إلا بعد أن يُجامع غيره من الأسباب كالبغي والظلم، وشيوع الفواحش، وكتكذيب الرُّسل وإهانتهم... ونحو ذلك^(٢).

تلك هي - فيما ظهر لي - أهم وأبرز خصائص سنن الله في الأمم.

وقد تتساءل بعد ذلك: وهل للقرآن طريقة خاصة ومنهج متميز، نستطيع أن نقف على هذه السنن وتلك الخصائص مظانها من خلاله؟

وأقول: نعم. وإِنَّه لمنهج متفرد. فهلم إلى الحديث عنه في الفصل الثاني، حيث «منهج القرآن في عرض السنن».

(١) ولئن شاء المزيد، مراجعة كتاب: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٦، ١٤٣، ١٩٦، ٢١٦، ٢٨١، ٢٨٦، وكتاب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٢، ٤٤، ٥٠، وكتاب: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ٢٠٧... وغيرها.
(٢) انظر: أقسام القرآن، لابن القيم (٨١/١) وما بعدها، ونسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصل الثاني

منهج القرآن في عرض سنن الله في الأمم

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة.

المبحث الثاني: في طريقة العرض.

سهب القرآن في عرض سنن الله في الأمم

تمهيد:

قد تقرّر فيما سلف، أنّ القرآن قد عُنيَ ببيان سنن الله في الأمم عناية فائقة، وأنه بالاستقراء، تبينَ لنا أن السننَ بمجموعها تحتل مساحة واسعة في كتاب الله تعالى، كيف لا وقد «بلغت آيات القصص، وهي تمثل جانباً من الجوانب التي يعرض القرآن من خلالها السنن، ما يقارب ألفاً وخمسمائة آية، وهو ما يوازي ربع آي القرآن الكريم على وجه التقريب، ويوازي ثلاثة أضعاف آيات الأحكام، والتي بلغت خمسمائة آية تقريباً»^(١).

وهذه الكثرة، وتلك العناية، تدلُّ - بلا شك - على أهمية معرفة تلك السنن، بل ضرورة تلك المعرفة وما لها من الثمرات والمنافع، كما تدلُّ على تعددها وكثرتها من جهة ثانية.

يقول الشيخ رشيد رضا - رحمه الله - : إنَّ «ثلاثة أرباع القرآن تقريباً، قصص وتوجيه للنظر إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلمهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم، كان لهذا النظر أثرٌ في نفوسنا، يحملنا على حُسن الأسوة والاعتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكين في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار»^(٢).

ومن هنا نجزم ابتداءً بأن القرآن - وهو الكتاب الذي أنزل ليكون دستور حياة ودليل أمة، بل أمم وشعوب - لا يمكن أن يعرض لهذه السنن كيفما اتفق دون قصد أو حكمة. وكيف يمكن أن يكون هذا، وهذه السنن هي مظهر من مظاهر حكمته ورحمته، والقرآن الكريم هو كلامه. وفعله تعالى وخلقه، وكلامه وأمره هو عين الحكمة والصواب.

نجزم أنّه - سبحانه - كما خلق هذه السنن وقدّرها بعلم والحكمة، فإنّه سبحانه سيُعلمها لعبادة ويدلّهم عليها بعلم وحكمة كذلك، وعلى البشر أنفسهم أن يتعرّفوا على هذه السنن، بتدبر كلامه، وتأمل آيات كتابه ليعرفوا ويعلموا:

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢٢/١) بتصرف.

(٢) تفسير المنار (٦٧/١).

- في أي مناسبة يعرض كتاب الله تعالى لهذه السنن؟

- وكيف يعرض لها؟ وبأي أسلوب وصيغة؟

ويقارنوا، ويوازنوا... وإذا فعلوا ذلك، فسيلوح لهم الفرقان، وتصبح الآيات والأحداث المتفرقة في النظرة الأولية الساذجة، تؤلف منهجاً محكماً وبنياً مرصوفاً.

أجل! كيف تكون السنن بهذه الضخامة وتلك الأهمية؟! وكيف يطلب من البشر أن يتعلموها ويعملوا بمقتضاها؟! ثم لا يكون للقرآن الكريم منهج واضح محدد في عرضها وتبيانها؟!!

بلى، إن للقرآن نهجاً متميزاً في أسلوبه، متميزاً في طريقة عرضه، تمتزج فيه روعة الأسلوب بجمال العرض ودقته وجاذبيته؛ لإحداث الأثر المطلوب في الحسّ والوجدان.

ولعل من المناسب أن أعرض لمنهج القرآن في عرض السنن الإلهية في مبحثين، كلا على حدة ما أمكن؛ وذلك لمجرد الإيضاح، مع ملاحظة أنهما في حقيقة الأمر يمثلان شيئاً واحداً^(١). وذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة.

المبحث الثاني: في طريقة العرض.

(١) ولذا، فقد تتكرر الأمثلة، لهذا السبب.

المبحث الأول

في الأساليب والصيغ

وأعني بالأساليب والصيغ: فنون القول وطرائق البلاغة، كالتصريح، والإيماء، وكالخبر وأنواع الإنشاء، وكالتشبيهات وضرب الأمثال، وأساليب الشرط... ونحو ذلك من الأساليب التي لا تخطئ العين رؤيتها، والحس إدراكها، كلما قرأ قارئ أو استمع مستمع إلى آيات السنن الكثيرة المبثوثة في ثنايا القرآن الكريم. وقد استودع الله في كتابه متخيرها، وما يكفل إحداث أبلغ الآثار في نفوس وعقول المخاطبين.

وإليك جملة هذه الأساليب والصيغ التي عرضت من خلالها السنن، مشفوعة بنماذج، أذكرها على سبيل التمثيل لا الحصر، ومنها:

أولاً: الصيغ الصريحة^(١):

أي الصيغ التي ورد فيها ذكر السنة أو السنن بلفظها الصريح. وذلك في مواضع عدّة بلغت أحد عشر موضعاً، كلها مما يتعلّق بسنن الله في الأمم، «وقد أبرزت هذه الآيات في سياقها السنن الرئيسة من سنن الله عز وجل في الحياة الإنسانية»^(٢).

وقد توخّى القرآن من التصريح بلفظ السنة أو السنن التأكيد على صدقها وثباتها واستمرارها، وذلك مُستفاداً من:

دلالة اللفظ: فإنّ السنة هي الطريقة والعادة المتبعة في الشيء.

كما أنه مستفاد من الأسلوب الجامع بين الإثبات والنفي، كما هو ظاهر عامة الآيات الواردة بهذا الصدد.

ومن الآيات التي جاء لفظ السنة أو السنن صريحاً فيها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٧]. وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا

فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١١/١).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١١/١). وانظر تفصيل ذلك: في الخاصيتين الأولى والثانية من خصائص سنن الله في الأمم.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥].

وقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ تَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢١، ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ولو تأملنا هذه الآيات، لوجدنا أن كثيراً منها عرضت للسنن بصيغة الخبر ابتداءً، ثم أكدت هذا الخبر بالأسلوب الإنشائي^(١)، كما أنها لا تكاد تخلو من أسلوب أو أكثر من أساليب التأكيد^(٢).

(١) فمثلاً قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ بصيغة خبرية، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أسلوب إنشائي... وهكذا.

(٢) كإثبات الشيء ونفي ما يضاده.

ثانياً: الألفاظ التي تدل على معان كونية^(١):

ومن منهج القرآن في عرض السنن، أنه كما يعرضها بألفاظها الصريحة، فإنه يعرضها بألفاظ وصيغ كونية عامة، تتعلق بربوبية الله وخلقها، وهو قضاؤه وقدره الكونيان، وهي غير الدينية المتعلقة بإلهيته وشرعه، فتلك عامة وهذه خاصة، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري. وأما حكمه الديني الشرعي، فيعصيه الفجار والفساق^(٢).

والألفاظ والصيغ المقصودة في سنن الله في الأمم، هي الكونية العامة، فهي التي تناسب عموم السنن واطرادها.

* ومن تلك الألفاظ: الحكم الكوني، كقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرُ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. ومعناه: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، وافعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك^(٣).

وكذلك قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ مَّامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. وحكمه تعالى بينهم: أن ينصر الحق ويوقع العقوبة على المبتطل^(٤) على ما جرت به سنته ومضت عادته.

* ومنها: الإرادة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

«ومعنى إرادة الله إهلاك قرية: التعلق بالتنجيزي لإرادته، وتلك الإرادة تتوجه إلى المراد عند حصول أسبابه، وهي المشار إليها بقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ إلى آخره^(٥).

وفسوق المترفين عند أمرهم بالطاعة واستحقاق القرى الإهلاك بسبب ذلك، أمر واقع، وإذن فقوله: ﴿أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ هي الإرادة الكونية، وهي متحققة لا محالة؛

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١٦/١).

(٢) انظر: شفاء العليل، ص ٥٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير (٢٠٣/٣)، وشفاء العليل، ص ٥٥٠.

(٤) تفسير السعدي (٦١/٣).

(٥) التحرير والتنوير (٥٣/١٥).

لأن فسق المترفين عن الطاعة وعصيانهم الأمر، هو مما قضاه الله وقدره كوناً، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

فالأمر في قوله: ﴿ آمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾، وإن كان هو الأمر الشرعي الذي هو ضد النهي - وهو قول جماعة من السلف^(١) - أي أمرناهم بالطاعة، فإن فسق المترفين وعدم طاعتهم كلما أمرُوا بالطاعة، هو قضاء وقدر كوني. هذا قولٌ في معنى الآية.

وقال ابن القيم - رحمه الله -: إن الأمر في الآية أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، ورجح ذلك من وجوه، أنقل منها قوله في الوجه السابع: «إن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية، إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم. فإذا أرسل الرسل فكذبوهم، أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسق»^(٢).

وعلى هذا، فالإرادة والأمر في الآية كونيان^(٣).

وتلك سنته تعالى في القرى التي يفسق أهلها تبعاً لفسوق مترفيها.

* ومن الإرادة الكونية: قوله تعالى: ﴿ وَرُبُّدَانٍ تَمَنَّى عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلُهُمْ آيَةً وَيَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

وقد فعل - جل وعلا - ذلك بهم كما قال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

«ولن ينفذ حذر من قدر؛ لأن ﴿ أَجَلُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح: ٤]. و﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [الرعد: ٣٨].

(١) كابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير في تفسيره: (٥٧/١٥)، والشوكاني في التفسير (٢/٢١٤)، والشنيطي في أضواء البيان (٣/٤٨٤)، وغيرهم.

(٢) شفاء العليل، ص ٥٥٢، ٥٥٣.

(٣) وهو قول طائفة من السلف وأهل التفسير. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٢).

أراد فرعون مجوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ولا يغلب ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه»^(١) .

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] . ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] . كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَأَنْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ ، وهو هنا الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] .

فذكر - سبحانه - في هذه الآيات لفظ الإرادة ولفظ الجعل الكونيين في سياق تقرير سنته في الهداية والإضلال «وهو العادل في كل ذلك ؛ في هداية من هدى وإضلال من ضل»^(٢) .

* ومنها: لفظ الكتابة ، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَخْلَبِ بِنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ؛ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول ، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين ، وهذا قدر محكم وأمر مبرم .

وقد أكد - سبحانه - مضمون هذه السنة بما حكم به على أعدائهم من الذل والهوان حكماً مؤكداً في الآية قبلها وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]^(٣) . فبيّن - سبحانه - سنته في دينه وأوليائه أن لهم الغلبة والنصر ، بعد ما قرر بصيغة جازمة أن الذل والهوان مكتوب على من حاد الله ورسوله ، هذا حكمه وهذه سنته فيهم ﴿وَاللَّكْفَرِينَ أَمْتًا﴾ [محمد: ١٠] .

وكقوله - سبحانه - : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٠) .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٣٢) .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (١٧/٣٠٦) ، وتفسير ابن كثير (٤/٣٢٩) ، وفتح القدير (٥/١٩٣) .

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة... وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، وهو كائن لا محالة.

والمعنى: أنه - سبحانه - قد كتب في الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ بعد أن كتب ذلك في أم الكتاب^(١).

* ومن الألفاظ الكونية التي عرض القرآن للسنن من خلالها، كلمات الله، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]؛ أي: وجب عليهم قضاؤه وحكمه في السابق من علمه أنهم لا يصدقون بوحداية الله ولا بنبوة نبيه ﷺ، بما عرضوا عن الحق بعد معرفته، وانصرفوا عنه إلى الضلال وجاروا عن قصد السبيل^(٢)... يفسر هذا: الآيات المذكورة قبل هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٣].

وهذه الآيات مما كشف الله بها سنته في إضلال من استحق الضلال، وقد مر بنا هذا قريباً.

ومن كلماته: قوله سبحانه: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي: مضت واستمرت على التمام. وكلمته الحسنى: قوله جل ثناؤه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَخُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]^(٣).

(١) هذا أحد معنيين فسرت بهما الآية، أن الأرض أرض العدو، والمعنى الآخر: أن الأرض أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٤٩/١١)، وتفسير ابن كثير (٣٠١/٣)، وتفسير السعدي (٢٦٦/٥)، وأضواء البيان (٤/٦٩٣).

(٢) تفسير ابن جرير (١١٤/١١).

(٣) تفسير ابن جرير (٤٤/٩).

وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر، والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم^(١)، أنجزه الله لهم وفق سنته القاضية بنصر أوليائه متى ما صدقوا الله وصبروا على طاعته وأمره.

* ومنها: لفظ الإيتاء، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ففيهما إشارة إلى سُنَّة مداولة الأيام بين الناس، وفق أسباب معلومة، ف«الله سبحانه وتعالى هو صاحب السلطان الأعلى والتصرف المطلق... يؤتي الملك في بعض البلاد من يشاء من عباده، ويتزعه ممن يشاء من الأفراد ومن الأسر والعشائر والفصائل والشعوب، بتكبيهم سنته الحافظة للملك»^(٢).

ثالثاً: الأساليب الشرطية^(٣):

وهي على ضربين:

الأول: الأساليب الشرطية الصريحة.

والثاني: الأساليب الشبيهة بها، وهي المتضمنة لمعنى الشرطية، لكن بغير أدوات الشرط.

وفي القرآن الكريم من كلا الضربين أمثلة وفيرة، خصوصاً ما يتصل بسنن الله في الأمم، مما يُظهر بجلاء قيمة خاصة لمثل هذه الأساليب، وبالتالي كونها ركيزة وأساساً في منهج القرآن في عرض السُنن.

ولبيان أهميتها في هذا الباب، أقول: إن سنن الله في الأمم، هي مجموعة الحوافز والكوابح؛ أي مجموعة الضوابط التي تضبط حركة الجماعات البشرية عن طريق إبراز الجزء المناسب للحدث، ثواباً أو عقاباً... وأساليب الشرط الصريحة، أو ما فيها معنى الشرط... في مقدمة الأساليب التي تبرز ترتب الجزء (السُننة) على مقدمتها وسببها (الحدث) بصورة مباشرة. وربط ما بين الفعل والجزاء بهذا الأسلوب ذو أثر بليغ،

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٤٤/٩)، وتفسير ابن كثير (٢٤٢/٢)، وفتح القدير، للشوكاني (٢/٢٤٠).

(٢) تفسير المنار (٣/٢٧٠، ٢٧١).

(٣) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/٢٠) وما بعدها.

يُحدثه تقارب ما بين المقدمة والنتيجة في ذهن السامع ، ويغذيه شعوره الأكيد بأن هذا الجزء مسبب عن هذا الحدث ، بصورة لا تقبل التأويل .

وإليكمها بشيء من التفصيل :

الضرب الأول: أساليب الشرط الصريحة.

ولنأخذ بعض الأمثلة على هذا الضرب في سياق آيات تبرز جوانب من سنن الله في الأمم ؛ لإيضاح قيمة هذا الأسلوب :

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

وقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] ^(١) .

وقال جل من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصِرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلٰوةَ ءَأَاتَوْا الزَّكٰوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؕ وَاللَّهُ عَنقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] .

وقال: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] .

وقال عن بني إسرائيل محذراً لهم من الإفساد الذي وقع منهم غير مرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ؕ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨] .

وقال سبحانه كاشفاً دخيلة جنس المنافقين ، وما طبعوا عليه من مكر وشغف بممارسة الفساد: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ؕ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ؕ وَاللَّهُ لَا

(١) وقد اجتمع في هذه الآية شرط وقسم .

يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿﴾
[البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وقال تعالى مبيناً سنته في إيتاء حرث الآخرة ونصيبها، وحرث الدنيا، لمن أراد أياً منهما واجتهد في طلبها وتحصيلها: ﴿﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال أيضاً: ﴿﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿﴾
[الإسراء: ١٨ - ٢٠].

وقال في آية أخرى: ﴿﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿﴾ [النساء: ١٣٤].

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تخفى على اللبيب الفطن.
الضرب الثاني: ما تضمن معنى الشرط.

وذلك كأسلوب القَسَمِ، والاسم الموصول، وصيغة الأمر وجوابها، وما جاء بصيغة الجزم، كالوعد والوعيد الإلهيين. ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد اجتمع في هذه الآية أسلوب القسم والشرط، وتقدم القسم فوق جواب له، وأغنى عن جواب الشرط^(١).

وقوله تعالى: ﴿﴾ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَنُرِيَنَّكُمْ أَشْيَاءَ مِنْكُمْ وَلَنُرِيَنَّكُمْ أَشْيَاءَ مِنْكُمْ وَلَنُرِيَنَّكُمْ أَشْيَاءَ مِنْكُمْ وَلَنُرِيَنَّكُمْ أَشْيَاءَ مِنْكُمْ ﴿﴾ [الحج: ٤٠].
وقوله سبحانه: ﴿﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَن يَتُرَكَّوْا أَن يَقُولُوا أَمَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

(١) على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

جواب ما أخبرت فهو ملقزم

واحد في لدى اجماع شرط وقسم

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله: ﴿يَنبِئُ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا بِنِعْمِي الَّتِي آتَيْتُ عَلَيْهِمْ وَأُوفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [البقرة: ٤٠].

وعهد الله الذي أمرهم الله بالوفاء به «يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم، ومنه عهده إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه. وأما عهدهم فهو التمكين في الأرض المقدسة والنصر على الأمم الكافرة، والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها»^(١).

وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وقبل أن أحتمم هذا المبحث، أذكرك بأنَّ الكلام إما خبر أو إنشاء^(٢). وأن أساليب لغة العرب التي نزل القرآن بها لا تخرج عن أحد هذين الأسلوبين، وقد مرَّ بك طائفة من كل منهما.

وحيثما مرَّ بك أمرٌ أو نهيٌ أو فروعهما، فتلك من أساليب الإنشاء. وما عدا ذلك من الأساليب فهي أساليب خبرية.

والأخبار الخالصة الصادرة عن الله - جل وعلا - لا يدخلها النسخ^(٣)، ولا تحتل غير الصدق، بالنظر إلى المخبر بها وهو الله تبارك وتعالى.

ومن جملة الأخبار: العقائد، والقصص، وأخبار الأمم، ما خبر منها وما يستقبل، وكأحوال القيامة والجنة والنار، فهذه كلها أخبار لا نقض لها، بخلاف الأمر والنهي،

(١) تفسير المنار (١/٢٩٠) بتصرف.

(٢) الخبر: هو ما يحتل الصدق والكذب لذاته، كقولك: طلعت الشمس. والإنشاء: هو ما لا يحتل الصدق والكذب لذاته، كقولك: أكرم زيداً. انظر: الأساليب الإنشائية، لعبد السلام هارون، ص ١٣.

(٣) انظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي، ص ٩٣. أمّا ما كان لفظه لفظ الخبر، ومعناه معنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الرازمة: ٧٩]. فهذا لاحق بمخاطب التكليف في جواز النسخ عليه. انظر: تفسير المنار (١/٩٤).

والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة^(١). فتلك أساليب إنشائية - كما عرفت - يدخلها النسخ، ويكون فيها المنسوخ.

وسنن الله في الأمم - مع كونها قد جاءت بكلا الأسلوبين، الخبري والإنشائي - فإن ما كان منها بصيغة الخبر فهي صادقة؛ لأنها أخبار إلهية ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؟

وما كان منها بصيغة الإنشاء، فهو محكم غير منسوخ؛ لأن مضمون تلك السنن أحكام كونية عامة، والنسخ يقع في الأحكام التكليفية التشريعية.

(١) تفسير المنار (١/٩٣)، وانظر: تفسير ابن جرير (١/٤٧٥).

المبحث الثاني

طريقة العرض

تحدثت في المبحث الأول عن الجانب الأول من جانبي منهج القرآن في عرض السنن ، وهو: جانب الأسلوب والصيغة ، وعנית به: ما يتصل بالأساليب اللفظية ، والصيغ التي أدت بها المعاني ، وعرضت في قلبها السنن .

وفي هذا المبحث سوف أتناول الجانب الثاني من ذينك الجانبين ، ألا وهو: كيف عرض القرآن لسنن الله في الأمم؟ ما طريقته في عرضها؟

وبعبارة أخرى: إذا كنا عرفنا في المبحث السابق بعض الملامح الأسلوبية والصيغ اللفظية التي توخى القرآن عرض السنن من خلالها ، فهذا لفظ صريح ، وذاك لفظ كوني عام ، وذلك أسلوب شرط . . . وهكذا . فهل نستطيع التعرف على الكيفية والطريقة التي يوظف القرآن فيها هذه الأساليب والصيغ ، لتجلية السنن وإحداث الأثر المطلوب؟ .

ما هي السياقات والمشاهد والأحداث التي هي مظان السنن عادة؟

وما هي الأجواء والمؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه السنة أو تلك؟

أهو الترغيب أم التهيب أم العرض المجرد أم ماذا؟

أهي المؤثرات الحسية أم المعنوية؟

ولم عني القرآن - مثلاً - بإبراز سنن معينة أكثر من غيرها ، ويتقنن في عرضها؟

ما المعايير والاعتبارات التي تحكم ذلك كله؟

وهي تساؤلات كلها ذات صلة وثيقة بمنهج القرآن ، وطريقته في عرض سنن الله في

الأمم .

وفي الصفحات التالية سأحاول تبيان ذلك على التفصيل ، في مطلبين:

المطلب الأول: في ذكر المناسبات والأحداث والسياقات التي يعرض القرآن السنن

من خلالها .

المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه السنن .

أضمن كل مطلب منهما الإجابة على جانب من تلك التساؤلات على الترتيب المذكور ، وأختم هذا المبحث بالإشارة إلى أهم الأسباب التي ظهر لي أنها وراء عناية القرآن ببعض السنن عرضاً وتفصيلاً . ومن الله أستمد العون .

المطلب الأول: في ذكر الأحداث والمناسبات والسياقات التي يعرض القرآن السنن من خلالها.

وهي كثيرة ومتنوعة ، ماثورة في آي القرآن المكي والمدني ، وفي أول القرآن وأوسطه وآخره ، ومن هنا كانت السنن بهذا التنوع والانتشار .

وسرّ ذلك والحكمة منه - والله تعالى أعلم - أن القرآن كتاب تشريع وتربية في آن واحد ، تنزل ليقود خطى الأمة نحو الأمام بما تسمح به إمكاناتها ، وبمقدار ما يكون منها من تفاعل وانقياد .

ويفصل في قضاياها في المناسبات ، ويصحح أخطاءها ؛ ما كان منها موروثاً ، وما يستجد منها ويحدث . . . ويسوق من الأحداث والقصص للدرس والعبرة ، ويقرر من الأحكام والتشريعات ما يناسب الحال .

وهو في ذلك كله ، لا يطرح حلاً جزئياً فحسب ، ولا يعالج قضية محدودة فقط ، وإن كان لا يغفل ذلك ، وإثما يقرر من القواعد والضوابط ، ويذكر من الأسس والثوابت ما يعالج به قضية الأمة الكبرى من وراء الحدث المحدود ، ويحل مشاكل المستقبل المتطاوّل من خلال الحدث الحاضر المؤقت ، ويضيف إلى رصيد الأمة المعرفي والتجريبي المحدود تجارب الأمم ورصيد القرون .

وبالاستقراء حاولت أن أرصد أبرز الأحداث والمناسبات ، والسياقات التي يذكر القرآن السنن فيها ومن خلالها ، فظهر لي أنه يذكرها غالباً في سياق:

- أحداث وأخبار الأمم السابقة ، والمعاصرة للتنزيل . وهذا المجال هو أوسع مجال عرضت فيه سنن الله في الأمم ، كما سيأتي . وكذا أحداث المستقبل ، وأحداث اليوم الآخر .

- وفي سياق الحوادث الفردية .

- ومن خلال ضرب الأمثال والتشبيهات^(١) .

- وأخيراً ، بمناسبة تقرير الأحكام والتشريعات .

فهلّم إلى تفصيل هذه الفقرات ، وتفسير تلك الإشارات .

(١) وبين هذه الفقرة وما قبلها تداخل من بعض الوجوه لا يخفى ، كما سيتضح ذلك فيما يأتي .

أولاً: السنن في سياق أحداث وقصص الأمم السابقة، والمعاصرة للتزويل:

تجارب بشرية متكررة، تلك التي يدونها التاريخ في ذاكرته عن هذه الأمة وتلك الجماعة وهؤلاء القوم، وكلما تطاول العهد كلما تكررت التجارب وتنوعت مظاهرها.. ووجدت الأمة اللاحقة نفسها؛ أمام أمثلة تتكرر، إن سلباً وإن إيجاباً، وما عليها إلا أن تأخذ بأحسن ما ترى، وتحذر كل مسلك شائن، وكل تجربة فاشلة إن كانت أمة مدركة واعية.

إن عليها أن تفعل ذلك، ولو لم يكن بين يديها إلا تاريخ يكتبه الإنسان عن الإنسان، مع ما يعتوره من قصور وجهل وهوى!

فكيف إذا كان الذي يعرض سجل البشرية هو خالق البشرية العليم بما يصلحها، وخالق الحياة والأحداث والأشياء من حولها، فلا يخفي عليه ماضٍ لبعده، ولا مستقبل لم يكن بعد، فالزمن عنده كله سواء: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. يعرض على البشرية تاريخها مبرئاً من الهوى والجهل، ومن العصبية والأنانية، في كتاب تكفل بحفظه، وضمن له البقاء.

وأخيراً - وهذا لبّ المسألة - كيف يقص الله في كتابه على البشرية تاريخها، ويعرض عليها تجاربها؟

أهو الجمع والسردي؟ أم غايته مراعاة تسلسل الأحداث وحسن الإخراج والعرض؟ كلا، كلا. إن القرآن - باختصار شديد - يقص من تاريخ البشرية نماذج معبرة، شاملة لجوانب التجربة الإنسانية، وافية بمحاجاتها. هذه النماذج ذات أعراض محددة، يعرضها بأسلوب قصصي رائع، تربوي واعظ.

وهذه الطريقة في العرض هي التي يحتاج إليها الإنسان، وهي التي ينتفع منها أيضاً. «إن القرآن لا يقدم (قصصه) و(صوره) و(مشاهداته) مجرد ترف ذهني، أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولا لتزعة أكاديمية فيه تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً بأكبر قدر من الأمانة، ودون اكترات للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإشارات الأخلاقية.

إنَّ القرآنَ يجيء بمعطياته التاريخية تلك ، من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ، ويبعده - في الوقت ذاته - فرداً أو جماعة ، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات ، بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب .

كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية (بعموم معنى الإسلام) ، كأنه يريد أن يقول للإنسان الواعي: إنَّ أمامك صيغتين للعمل في العالم ، لا ثالثة لهما ، وإن عليك أن تختار: إما هذه أو تلك .

إنَّ القرآنَ الكريم يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية^(١) .

ومن هنا ، فإنَّ «القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقته عرضه وإدارة حوادثه . إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه»^(٢) التي جَمَعُها إصلاح الحياة والأحياء في العاجل والآجل .

ومن أهمها: تقرير السنن التي أجرى عليها نظام الأمم والأقوام ، ومحاكمة تجاربهم ومواقفهم إزاءها ، وتسجيل النتائج وإبرازها .

هذه هي أبرز الأهداف ، وتلك هي أهم العبر من سياق أحداث الأمم وقصص الأولين .

وقد نبه القرآن إليها في آيات عدّة ، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] .

وقال: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] .

وقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] .

إلى آيات آخر ، ليس هذا محل بسطها^(٣) .

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٨ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب ، ص ١١٧ . ولبن أرواد المزيدي ، مراجعة مباحث: (أغراض القصة) ، و(آثار خضوع القصة للغرض الديني) ، من الكتاب نفسه .

(٣) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الأول من الباب الرابع ، بإذن الله وعونه .

ومن هنا ندرك سرّ كثرة السنن وتنوعها في سياق القصص وأحداث التاريخ .
فَقُلْ لي بريك أي سجل للبشرية أصدق وأدق من هذا السجل ، يمكن للبشرية أن
تراجعه وتتعلم منه؟!!

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجُدُوا فِيهِ أَخْتِلَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] .

وبعد ، فما هي السنن التي توخى القرآن إبرازها أو تأكيدها في ثنايا قصص وأحداث
الأمم السابقة أو المعاصرة للتنزيل؟

أسلفت القول بأن قصص وأحداث الأمم السابقة والمعاصرة للتنزيل هي تجارب
تمثل حياة أمم وأجيال ، ففيها الخير والأخيار ، وفيها الشر والأشرار ، وفيها - تبعاً لذلك
- ما يكون من كل منهما ، وما يكون بينهما ، وما يؤول إليه أمرهما عادة . وهي قضايا
متشابكة تتناول جوانب الحياة العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية والسياسية
والاقتصادية ، وغيرها . وإن كانت هناك سنن تبدو لنا أكثر من غيرها ، كلما أمعنا النظر
في هذا الضرب من كلام الله تبارك وتعالى .

* وفيما يلي أذكر منها نماذج على سبيل التمثيل؛ فمن ذلك:

* سُنَّة المَدَافَعَة (الصراع) بين الحق والباطل:

وقد أشار القرآن إلى أن هذه السُنَّة مما جبل الإنسان عليها ، وأنها لذلك ضرورة لا
غنى له عنها لإصلاحه واستمراره .

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَيَّجَتِ السُّيُوفُ وَبُيِعَتِ الصَّلَواتُ وَمَسَّجِدُ

يَذَكَّرُ فِيهَا اِسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] .

وأخبر - جل وعلا - عن ساكني هذه الأرض أنهم حزبان: حزب الله وحزب
الشیطان . وفريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير ، وأنهم يمثلون منهجين مختلفين تمام
الاختلاف ، وأن بعضهم لبعض عدو .

ثم لما بين ذلك قصصاً من أخبارهم ، وذكر من الحوادث التي جرت بينهم ما يصدق
سنته تعالى فيهم أعظم تصديق . وتكاد قصص القرآن وأخبار الغابرين أن تكون كلها

فصولاً في تاريخ هذه المدافعة، وحلقات في سلسلة هذا الصراع، وغماذج تكشف عن مختلف جوانبه^(١).

وحسبنا أن نقرأ ما قصه الله في كتابه من خبر آدم ﷺ وإبليس، وما حصل بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم من جهة، وبين مخالفيهم من الأمم والأقوام من جهة أخرى من صور التدافع والخصومة لإحقاق الحق وإبطال الباطل من جانب الأولين، وعكس ذلك من جانب الثانيين.

وهذه المدافعة أو الصراع، كلفت الفريقين الكثير، كما كشفت دخائلهم وأظهرت الفروق فيما بينهم، على مدار التاريخ البشري.

نعم، كلفت الرسل وأتباعهم أنفسهم وأموالهم، وجلبت لهم من العداوة والشنتان، ومن الأذى والتشريد، ومن حرمان الحقوق وتشويه السمعة... وغير ذلك الكثير الكثير. وكشفت عن عظيم صبرهم، وحسن بلائهم، وقوة حججهم، وصدق لهجتهم، وأن العاقبة في الدنيا قبل الآخرة لهم. وكلفت مخالفيهم العقوبات المتتابعة، ثم التدمير عليهم وتقويت ما جمعوا وخسران ما أملوا. وفي الآخرة لهم عذاب النار وبئس القرار. وكشفت عن فساد تصوراتهم وقبح فعائلهم، وتضعض حججهم، وتناقضهم فيما بينهم، وسوء منقلبهم ومثواهم.

وما كان لهذه المعاني وأمثالها أن تكون دروساً للأمم اللاحقة، أو أن تعيها بصورة مؤثرة لو لم يعمد القرآن إلى أسلوب رواية القصة ونقل الحادثة، ثم التعليق عليها والوعظ من خلالها.

* ومنها: تقرير سُنَّة الله في أوليائه أنه ينصرهم ويؤيدهم، وفي أعدائه أنه ينتقم منهم ويهلكهم ويدمر عليهم.

وأولياء الله: هم رسله وأنبيأؤه وأتباعهم من المؤمنين، وهم حزبه المفلحون وجنده الغالبون.

وأعداؤه: هم سائر من خالفهم من الكفار والمشركين والمنافقين.
وسبقت الإشارة إلى أن الله - تعالى - قضى في سابق علمه، وحكم حكماً جازماً أنه ينصر أوليائه، ويهلك أعداءه ويخذلهم، و﴿لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿وَلَا

(١) وقد أفردتُ لسنة المدافعة مبحثاً خاصاً في الفصل الثاني من الباب الثاني، وستمّر بك قريباً أمثلة لذلك عند تقرير سُنَّة الله في نصر أوليائه وخذلان أعدائه.

مُبْدَلٍ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴿﴾ [الأنعام: ٣٤]؛ حيث قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ ﴿﴾
[غافر: ٥١، ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ ٱنْيَابِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنظُرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * ثُمَّ نَحْنِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾
[يونس: ١٠٢ - ١٠٣].

وأخبر أن نصره أوليائه مشروط بنصرهم له، وأن استحقاق أعدائه الإهلاك
والتدمير إنما كان بسبب مخالفة أمره ومحاداة أوليائه وترك نصرته، فقال سبحانه:
﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا
ٱلصَّلَاةَ وَءَاتَوْا ٱلزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عِزُّ ٱلْأُمُورِ ﴿﴾ [الحج:
٤٠، ٤١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُنِثِ ٱقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلْتُمْ وَأَصَلَّ
أَعْنَاقَهُمْ ﴿﴾ [محمد: ٧، ٨].

ولم يزل الرسل والأنبياء والصادقون من أتباعهم من المؤمنين جيلاً بعد جيل وأمة
بعد أمة، قائمين بأمر الله ناصرين له، أمرين بالمعروف الذي أمر الله به، ناهين عن المنكر
الذي نهى الله عنه. فكانوا لذلك أهلاً لنصرة الله وتأييده كما وعدهم.

وكان أعداؤهم على ما وصفهم الله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿﴾ [يونس: ٩٧]. فأوقع بهم ما أوعدهم من العقوبات وأحلّ بهم ما أنذرهم
من المثلات.

وأظهر سنته في هؤلاء وهؤلاء، فهذه أخبارهم شائعة ذائعة في كتاب الله، معلنة سنة
الله أنه ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وأنه ﴿لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿﴾ [يونس:
٨١].

وإليك هذه الأمثلة والشواهد فتأملها، وتطلب نظائرها في القرآن الكريم^(١).

(١) وستجدها أكثر تفصيلاً في الباب الثاني، في فصل: (مجال الجزاء)، إن شاء الله.

قال تعالى مبيناً أن هذا النصر الذي وعد به أوليائه ، وتلك العقوبات التي توعدها أعداءه ، قد وقع كل منها بالفعل في الوقت المناسب: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأَمْرَسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَخَبَّيْ مِنْ نَشَاءِ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَاءِ عَنِ الْقَوْرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].
وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدِي﴾ [إبراهيم: ١٣ ، ١٤].
ثم قص أنباءهم مفصلة^(١) . . . فنصر نوحاً ﷺ ومن آمن معه .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّطَهَّرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِيرٍ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ * فَجَرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٥].
وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ ، ١٥].

وانجى هوداً ﷺ ومن آمن معه وأهلك عاداً المكذبين الجاحدين فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ ءَادُ جَحْدُوا بِبَايَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأَتُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠].

ونجى صالحاً ﷺ والمؤمنين معه ، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ، وأخذ أعداءهم بالعذاب

(١) ولن أذكر ما قصه الله إلا نماذج فحسب ، وسيأتي لذلك مزيد بسط في الفصل الثاني من الباب الثاني .

فقال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَشِينِينَ * كَانَتْ لَمْ يَسْتَوْفِيهَا إِلَّا إِنْ نَعُدُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الشُّعُودِ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

وكذلك فعل مع خليله إبراهيم ﷺ: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَقْتُلُونَهُ أَوْ حَرِّقُونَهُ فَأَجَابَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقال: ﴿قَالُوا حَرِّقُونَهُ وَأَنْصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

أما لوط ﷺ، فقد قال الله له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَاكَ مِنْكَ أَحَدٌ وَآمِنُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ * وَفَضَّلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ آلِ الْعَالَمِينَ * وَأَنصُرُوا آلَ لُوطَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٦٥ - ٦٦].

وقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذًا أَزَلَنَّا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنَّا عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥].

وهذا موسى ﷺ، ينجيه الله ومن معه من بني إسرائيل ويفرق الجبابرة من الفراعنة ومن شايعهم.

قال سبحانه: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ آخَرْنَا الْآخَرِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٥ - ٦٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٦].

ونصر نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين به في مواطن كثيرة:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [الآية، إلى أن قال سبحانه: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وتفصيل هذا يطول ، والغرض التنبيه إلى أن من منهج القرآن أنه يعرض أمثال تلك السنن في سياق قصص الأمم ، وفي ثنايا الأحداث التاريخية .

* ومن السنن التي لا تخطى العين ملاحظتها في مثل هذه السياقات على سبيل الإجمال:
قله المؤمنين وأنصار الحق في مقابل كثرة المبطلين . وهذا هو الواقع على مدار التاريخ ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، وقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبا: ١٣] ، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] . . . وغيرها من الآيات .

وقد جاءت تفاصيل أخبار الأمم تترأ ، مطابقة لهذه الأخبار العامة ، مصدقة لها . فأتت تجد في تفاصيل هذه الأخبار: أن المؤمنين يتعرضون - دائماً - للأذى والطرده ، وحتى القتل . ثم لا تكون لهم يد في دفع ذلك عن أنفسهم .
وفي مواضع كثيرة نستوحي من السياق أنهم قلة ، وأن عدوهم كثير ، وربما جاء ذلك صريحاً:

فنوح ﷺ: ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] . والملا من قومه: ﴿ قَالُوا أَنزَلْنَاكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] .

وقال فرعون عن موسى ﷺ ومن معه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَرٌّ مِّنْ قَبْلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤] .

وقال الطاغية عن نفسه: ﴿ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ [الزخرف: ٥١ ، ٥٢] !؟

والذين آمنوا بنبي الله صالح ﷺ ، مستضعفون من قومهم: ﴿ قَالَ أَلَمْ آتِ الْبَنِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَوْمِهِ لِيُضْعِفُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٥] . فهم - كما

ترى - بعض المستضعفين .

فكذبوا صالحاً ﷺ وكفروا بما آمن به غيرهم من المستضعفين!

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّمَا تَعَدُّنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

وتأمروا على قتله خفية بالليل (١) .

وكان هذا دأب المبطلين مع كل نبي وكل داعية من المؤمنين ، وما أخبارهم مع أنبياء الله ، إبراهيم ولوط وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بخافية (٢) .

* ومن السنن أيضاً: سنة الله - تعالى - في تغيير أحوال الأمم والأقوام . وقد جمع سبحانه ما تفرق من لوازم هذه السنة بأوجز عبارة وأوفاهها ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

ثم عرض أحوال الأمم وأخبار الأقوام ، وذكرهم بهذه السنة وأنها هي بوابة التغيير ، فالإيمان بالله ، والتوبة والإنابة إليه ، وترك الظلم وإيفاء الكيل والوزن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . ونحو ذلك من صور ومظاهر التغيير ، هي التي تستنزل تغيير ما بهم مما يكرهون . والعكس كذلك .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١] .
 ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ * وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] . . . إلى غير ذلك من الآيات ، وهي كثيرة معلومة .

وأكتفي بما ذكرت من الأمثلة ؛ لأن الغرض هو التنبيه إلى أهمية هذا الجانب - أعني أخبار الأمم والأحداث التاريخية الجماعية - لمن يتصدى لدراسة السنن ، ويروم معرفتها .

وأنقل إلى نوع آخر من الأحداث والقصص ، درج القرآن على تقرير السنن ، أو التأكيد عليها من خلالها ، وهو :

(١) كما في [النمل: ٤٩] .

(٢) وسيأتي الحديث عن (الملا) مفصلاً ، بإذن الله ، في الفصل الخامس ، من الباب الثاني .

* تقرير السنن في سياق القصص والأحداث الفردية:

ولتقرير السنن الإلهية على مستوى الأمم بمناسبة ذكر القصص والأحداث الفردية فائدة تتصل بموضوعنا، وهي: التنبيه إلى جنس الجزاء المترتب على جنس هذا العمل أو ذاك، إذا ما تجاوز (العمل الفردي المحدود) إلى إطار (العمل الجماعي).

وقد مرّ بنا أن الأول ينتهي - عادة - إلى الثاني، إذا كتب له الانتشار عن طريق الممارسة الفعلية من الآخرين، أو لقي القبول بواسطة رضا الآخرين به . ولناخذ على هذا بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِيَةِ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمُهُهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَلَّمْنَا كَثِيرًا أَلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتُرَّكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

«شبه سبحانه وتعالى من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، بالكلب الذي هو من أحسن الحيوانات وأوضعها قدراً وأخسها نفساً، وهمة لا تتعدى بطنه...»^(١).

فهذه الآية تقرر سنة الله فيمن ترك أتباع الحق والاهتداء به أن الله يعاقبه بأن يجعل همته دنيئة، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

ويخذه فلا يرتفع إلى المقام اللائق بالإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ويسدّ طريق معرفة الحق في وجهه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

وقال: ﴿ وَقَلْبٌ أَقْبَدَهُمْ وَابْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرُّوا وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

«وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته وبيئتها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك: أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه آياته فانسلك منها»^(١).

وسواء كان هذا أو ذاك، فإن العبرة من سوق النبأ ظاهرة، وهي شاملة للفرد وللأمة. ولهذا قال معقبا على المثل: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والقوم: هم المشركون ومن على شاكلتهم، والقصص: شامل لهذه القصة وغيرها من القصص التي في القرآن^(٢).

فإن كان المعنى على الاحتمال الأول، فقد وظف القرآن الحادثة الفردية لتقرير سنة جماعية. وإن كان على الاحتمال الثاني، فإرادة العموم والشمول ظاهرة، وحيثئذ يكون الفرد وتكون الأمة مقصودين داخلين في العموم الذي يفيد اسم الجنس عادة.

وبالجمل، فإن «شأن القصص المفتحة بقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقريته قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ إلخ، ويحصل من ذلك أيضاً تعليم، مثل قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]. ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]. ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]. ونظائر ذلك.

فضمير(عليهم) راجع إلى المشركين الذين وجهت إليهم العبر والمواعظ من أول هذه السورة، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم^(٣).

ومثال آخر نجده في سياق قصة قارون، وفي التعقيب القرآني عليها.
فمما جاء في سياقها: دعوى قارون أن ما عنده من المال والكنوز كان عن استحقاق وعلم عنده: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْتَلْعَمُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

(١) تفسير السعدي (١١٧/٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧٩/٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٧٣/٩).

والمراد بالقرون الخالية: الكثيرة، بحيث صار إهلاكهم سنة له مطردة في أمثالهم^(١)، وقد وصفهم الله في آيات من كتابه بالقوة والكثرة وأنها لم تغن عنهم شيئاً.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) [غافر: ٨٢].

ثم عقب - جل وعلا - على مشهد إهلاك قارون بالخسف بقوله: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَعْبَسُوا﴾ [القصص: ٨٣].

فجمع لقارون بين الخسارتين: خسارة الآخرة، وقد نبه إليها في هذه الآية. وخسارة الدنيا وهي الخسف، وقد أشار إليها بقوله قبل ذلك: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. ثم أخبر أن ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]؛ أي: الخير والفلاح لهم في الدنيا والآخرة، كما قال موسى لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فقرر - تبارك اسمه - بمناسبة هذه القصة، سنته في أعدائه في هذه الدنيا، وهي إهلاكهم جزاء علوهم وفسادهم، وسنته في أوليائه الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، أن العاقبة الحميدة لهم في الدارين.

ومثل ثالث: قصة مؤمن آل فرعون.

والقصة بطولها تحكي صورة من صور المواجهة بين الحق والباطل، وتكشف جوانب من سنن الله في هذا الجانب.

تكشف عن ديمومة الصراع بين الحق والباطل. وعن النهاية التي ينتهي إليها كل منهما.

وبين هذا وذاك، تكشف عن الحق بوضوحه وواقعيته وقوة حجته، وعن انتصاره وغلبته في نهاية المطاف، متمثلة في شخص مؤمن آل فرعون، وفي الحق الذي معه.

(١) انظر: فتح القدير (٣/١٨٧)، وتفسير القاسمي (١٣/١٢٦)، وتفسير السعدي (٦/٥٨).

(٢) وانظر: الآية ٩ من سورة الروم، والآية ٤٤ من سورة فاطر، والآية ٢١ من سورة فاطر... وغيرها.

وتكشف الباطل بغروره وعنجهيته، وتهافت حجته، وبزواله وسحقه وسدنته في آخر المشوار، متمثلة في فرعون وقومه .

إنها قصة ذات شأن «تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه، وتنتهي هنالك في الآخرة، وهم يتحاجون في النار...»^(١) تبدأ فصولها بين موسى الكليم ﷺ وفرعون الطاغية وملئه .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانٍ فَكَّرُوا سَجِرًا كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

وتمضي عامة فصولها بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون وقومه .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] في صراع محتدم حذر فيه هذا الداعية وأندر، ورجب ورهب . ثم لم يسفر عمله هذا عن شيء إلا عن إقامة الحجّة والإعذار إلى الله .

﴿فَسَدَّ كُرُوبَهُمَا وَقَوْلَ لَكُم مَّا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَعِيبَاتٍ مَّامَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٤٤، ٤٥].

وهي قصة طويلة، استغرق عرضها قرابة خمس وعشرين آية، ولكنها حية متحركة ومثيرة، وقراءتها في سياقها القرآني المجرد أبلغ في أثرًا من أي عرض آخر .

وهناك أمثلة كثيرة قصّها الله في كتابه عن أفراد، وقرّر في ثناياها بعض السنن المتعلقة بالجماعات والأمم، وسيأتي بيان بعضها عند الحديث عن الجانب الثالث من الجوانب التي عرض القرآن للسنن في سياقها ومن خلالها . وهو أنه يعرضها في سياق الأمثال والتشبيهات .

* عرض السنن عن طريق ضرب الأمثال والتشبيهات:

المثل: بفتحيتين، وبكسر - فسكون هو النظر والمشابهة^(٢) . ويُقال أيضاً: هو قول شبه مضربه بمورده^(٣) .

(١) في ظلال القرآن (٣٠٧٧/٥) .

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٣٠٢/١) .

(٣) ومعناه: «أن تحصل حالة لها شبه بالحالة التي صدر فيها ذلك القول، فيستحضر المتكلم تلك الحالة التي صدر فيها القول، ويشبه بها الحالة التي عرضت، وينطق بالقول الذي كان صدر في أثناء الحالة المشبهة بها، ليذكر السامع بتلك الحالة، وبأن حالة اليوم شبيهة بها» . [التحرير والتنوير (٣٠٥/١)] .

وضرب الأمثال في المعاني نوعان:

أحدها: الأمثال المعينة التي يُقاسُ فيها الفرع بأصل معين، موجود أو مقدر، وهي في القرآن بضعة وأربعون مثلاً، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ... إلى آخره. وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

النوع الثاني: الأمثال الكلية، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً... حتى اعترض بعضهم قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] فقال: أين المثل المضروب؟

«وكذلك إذا سمعوا قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧] ييقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعة وأربعين مثلاً»^(١).

وأصل ذلك: أن «القضية المعينة إما أن تكون شبيهاً معيناً، أو عاماً كلياً، فإن القضايا الكلية التي تعلم وتُقَال هي مطابقة لكل ما يندرج فيها، وهذا يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح المنطقيين، وتمثيل الشيء المعين بشيء معين هو أيضاً يسمى قياساً في لغة السلف واصطلاح الفقهاء، وهو الذي يسمى قياس التمثيل... فكلاهما قياس وتمثيل واعتبار»^(٢).

ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي، في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك التخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد... ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ومن سور الإنجيل: سورة الأمثال^(٣).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٦/١٤ - ٥٨).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٤/١٤، ٥٥) بتصرف يسير.

(٣) الكشف، للزخشري (١٩٥/١).

وفي كتاب الله تعالى من الأمثال المضروبة ، المعينة والكلية ، في مختلف شؤون البشر أفراداً وجماعات جم غفير ، «منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ، ومنها ما لا يسمى بذلك»^(١) . يعظ الله بها عباده ويعلمهم ، ويحذرهم من خلالها وينذرهم ، ويقوم اعوجاجهم ويذكرهم بأمثالهم ونظرائهم إلى آخر ما تنطوي عليه هذه الأمثال من المنافع ، لعلهم يتذكرون ويعتبرون .

قال سبحانه منبهاً إلى ذلك: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

قال بعض السلف: كنتُ إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه ، بكيت على نفسي ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]^(٢) .

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] .

وقال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨] .

وقال في الثالثة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] . وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

والآن بعد هذه المقدمة الوجيزة التي وقفنا من خلالها على معنى الأمثال ، وأنواعها ، وقيمتها في إبراز المعاني ، وتأثيرها في النفوس ، وعرفنا أن الله قد ذكر في القرآن من كل الأمثال النافعة التي يحتاج إليها البشر . بعد تلك المقدمة تمهدت السبيل للوقوف بصورة خاصة على السنن التي عُني القرآن بإبرازها في سياق «الأمثال والتشبيهات» .

وبادي بدء أقول: إنَّ السنن في سياق الأمثال - بنوعها المعينة والكلية - كثيرة ، ومتصلة بعدة جوانب من حياة الأمم ، ذلك أن القرآن يعرض (الأمثال) حيث يسوق الأحداث التاريخية وقصص الأمم ، بل حتى هذه الأخيرة يمكن أن تعد من بعض الوجوه من الأمثال ، فإنَّ المثل هو الشبيه والنظير ، كما سبق بيان ذلك . ومن سلف من القرون ،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٥/١٤) ، وقد ساق شيخ الإسلام أمثلة لكلا النوعين ، وسيأتي من ذلك أشياء .
(٢) تفسير ابن كثير (٥٠٨/٢) .

ومن خلف منهم ، بعضهم لبعض شبيه ومماثل في أحوالهم ، وفي عاقبة أمرهم ، وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ [عمد: ٣] .

وقال: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]... الآيات .

وقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوَارِ الْفٰلِجِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَسَبِ الْإِيسَاءُ﴾ [التحریم: ١٠-١٢]... وغير ذلك من الأمثال ، على مستوى الأمم وعلى مستوى الأفراد .

وهناك من الأمثال ما ليس من هذا الباب صراحة ، وهو كثير ، ومنه الأمثال المضروبة لتقرير حقيقة الألوهية ووحداية الله ، وبيان فساد الشرك وقبحه ، كقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في ثنانيا حديثه عن الأمثال المعينة ، وأن القصص منها: «... ونظير ذلك ذكر القصص ، فإنها كلها أمثال ، هي أصول قياس واعتبار ، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها ؛ لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب . فيقال فيها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ، ويُقال عقب حكايتها: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] . ويُقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] .

والاعتبار هو القياس بعينه ، كما قال ابن عباس لما سُئِلَ عن دية الأصابع ، فقال: هي سواء واعتبروا ذلك بالأسنان ؛ أي قيسوها بها^(١) .

وهذا التداخل بين الأمثال والقصص ، هو التداخل الذي أشعرتك به في صدر هذا المبحث^(١) .

وفيما يلي أسوق لك عدداً من الآيات المشتملة على بعض (السنن) الواردة في سياق (الأمثال) .

وأبدؤها بهذا المثل الكاشف لطبيعة الحق والباطل:

قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] .

فقد ضرب الله في هذه الآية مثل الحق في ثباته ودوامه ونفعه ، والباطل في زواله وخبثه ، وأظهر حظ قلوب البشر ونفوسهم من هذا وذاك ، وكشف عن عدم إمكان اجتماع الحق والباطل مكاناً واحداً ، لا في النفوس ولا في واقع الحياة ، إلا ليصطربا ، فيذهب الباطل جفاءً ، ويبقى الحق الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض ، كما قال سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ ... الآية . قال: «أي إذا اجتمعا ، لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ ؛ أي: لا يتنفع به . بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويلتصق بالشجر وتنسفه الرياح ... وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه يتنفع به ، ولهذا قال: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] »^(٢) .

المثل الثاني: قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا

(١) وهذا وذاك قانون إلهي وستة مستقرة .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٠٨) .

رِزْقَهَا رَعْدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

«اختلف المفسرون: هل المراد بالقرية المذكورة في الآية قرية معينة، أو أن المراد الجنس وأنها غير معينة، فهي مثل لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثرون إلى الأول^(١)، وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مصر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٢)، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام.

وجوز آخرون إرادة المعنى الثاني، واستظهره بعضهم^(٣)؛ لأنَّ تكبير ﴿قَرِيَّةً﴾ يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً. وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، وغير مكة مثلها. وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها^(٤) وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله»^(٥).

وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم الله بالكفر والطغيان؛ لئلا يحل به ما حلَّ بهذه القرية المذكورة، ولكن الأمثال لا يعقلها عن الله إلا من أعطاه الله علماً؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

المثل الثالث: قال تعالى: ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وفي الآية الأخرى: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

(١) رواه: (العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري - رحمهم الله). انظر: تفسير ابن جرير (١٨٥/١٤)، وتفسير ابن كثير (٥٨٩/٢)، وتفسير السعدي (٢٤٨/٤)، وأضواء البيان (٣٧٢/٣)، وغيرها.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ؓ. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٧/٥)، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.
(٣) انظر: فتح القدير، للشوكاني (١٩٩/٣).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩٤/١٠)، وتفسير القاسمي (١٦٨/١٠)، وأضواء البيان (٣٧٧/٣)، وغيرها.
(٥) التحرير والتنوير (٣٠٣/١٤).

وفي الثالثة: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبًا ظَالِمٍ﴾ [الأنفال: ٥٤].

الكاف في قوله: ﴿كَذَابٍ﴾ في موضع رفع، خبر لمبتدأ محذوف يدل عليه المشبه به، والتقدير: دأبهم في ذلك كذاب آل فرعون، هذا أرجح الأقوال في إعرابها^(١).
و«الدأب»: أصله الكدح في العمل وتكريره. ثم أطلق على العادة؛ لأنها تأتي من كثرة العمل، فصار حقيقة شائعة، قال النابغة^(٢).

كذابك في قوم أراك اصطنعتهم

أي: عادتك، ثم استعمل بمعنى الشأن، كقول امرئ القيس^(٣):

كذابك من أم لحويرث قبلها

وهو المراد هنا في قوله: ﴿كَذَابٍ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]، والمعنى: شأنهم في ذلك كشأن آل فرعون؛ إذ ليس في ذلك عادة متكررة^(٤).

«والمعنى في الآية: أن الكافرين لن تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاءوا به من آيات الله وحججه»^(٥).

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/٢٨، ٢٩).

(٢) هو: النابغة الذبياني، زياد بن معاوية الغطفاني المضري، أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. كانت وفاته قبل الهجرة بنحو ثمانية عشر عاماً. انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٦١، والأعلام (٣/٥٤).
والبيت من قصيدة له يمدح النعمان ويعتذر إليه... وهو بتمامه:

كذابك في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

انظر: ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٣، وفي الديوان (كفعلك) وعليه فلا شاهد في البيت

(٣) هو: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب، يماني الأصل، مولده بنجد أو باليمن، صاحب أولى المعلقات الجاهلية المشهورة، ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، لم يزل حتى ثار لأبيه، وقال في ذلك شعراً كثيراً. انظر: الشعر والشعراء، ص ٣٦، والأعلام (١١/٢).

وما قال في ذلك:

كفاني ولم أطلب قليل من المال
وقد يدرك المسجد المؤنث أمطالي

ولو أن ما أسعى لأدق معيشة

ولكنني أسعى لمجد مؤنث

والبيت في الديوان، ص ٩، وروايته هكذا:

وجارتها أم الرباب بمأسل

كديتك من أم الحويرث قبلها

(٤) التحرير والتنوير (٣/٤٥)

(٥) تفسير ابن كثير (١/٣٤٩).

وقد ضرب الله لهم هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنهم إذا استقرأوا حالة الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب.

وقال ابن عطية: «المعنى في الآية: تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفر ودوامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيد بأن يصيب هؤلاء مثل ما أصاب أولئك من العقاب»^(١).

«والأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ هو أخذ الانتقام في الدنيا»^(٢).

المثل الرابع: قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَمِنْ فِئَةٍ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ الآية تحمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم.

فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها؛ لأنه لما قال للكفار ما أمر به أمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضعفة المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب، وكما قال عدي بن حاتم^(٣) حين أخبره النبي ﷺ بالأمانة التي تأتي: فقلت في نفسي: وأين دُعَارُ طيء الذين سعروا البلاد؟ الحديث بكماله^(٤)، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين، ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

(١) المحرر الوجيز (١/٣٨٤).

(٢) فتح الباري (٨/١٠٢). وقوله عدي بن حاتم هذه، وردت في رواية الحافظ، وأراد (دعاري طيء): قطع الطريق. [اللسان، مادة (دعر)].

(٣) أبو طريف، ابن حاتم الطائي، الجواد المشهور، أسلم سنة تسع، وقيل: سنة عشر، وكان نصرانياً قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر، وشهد فتوح العراق، ثم سكن الكوفة، ومات بعد الستين، وأناف عمره على مائة وعشرين. انظر: الإصابة (٤/٢٢٨)، وسير أعلام النبلاء (٣/١٦٢).

(٤) انظر الخبر مطولاً برواياته وتخارجه في: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/٢٩٨ - ٣٠١)، والبداية والنهاية (٥/٦٣ - ٦٨)، وفتح الباري (٨/١٠٢). وقوله عدي بن حاتم هذه، وردت في رواية الحافظ، أبي بكر البيهقي، انظر: البداية والنهاية (٥/٦٦). وأراد (دعاري طيء): قطع الطريق. [اللسان، مادة (دعر)].

ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار، ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخله فيما أمر محمد ﷺ أن يقوله لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيغلبون^(١). فكان الآية تقول لهم: «لا تغرنكم كثرة العدد، ولا بما يأتي به المال من العدد، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب الذي يفضي إلى النصر والغلب، فإن الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان، فذكر الفتنتين أي الطائفتين اللتين التقتا في القتال هو من قبيل المثال»^(٢).

وأخيراً: يقول الله تبارك وتعالى في أول سورة محمد ﷺ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ [محمد: ١ - ٣].

«هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك دعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك. ف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾؛ أي: أبطلها، وأشقامهم بسببها.

وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، وأن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْمَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]. وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم؛ والسبب في ذلك أنهم ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾؛ أي: اختاروه وعملوا به، والباطل: كل غاية لا يُرادُ بها وجه الله، والأعمال لما كانت في نصر الباطل أصبحت باطلة»^(٣).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾

(١) المحرر الوجيز (٣/٢٨، ٢٩).

(٢) تفسير المنار (٣/٢٣٤).

(٣) تفسير السعدي (٧/٦٢، ٦٣) بتصرف، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/١٧٢)، والتحرير والتنوير (٢٦/٧٧).

وَأَصْلَحَ بِهَلْمٍ ﴿٣٠﴾ . والبال: يطلق على القلب، أي العقل وما يخطر للمراء من التفكير، وهو أكثر إطلاقه، ولعله حقيقة فيهن. قال امرؤ القيس:

فعاى عداى بين ثور ونعجة وكان عداى الوحش منى على بال^(١)

وقال:

عليه القتام سى الظن والبال^(٢)

ومنه: قولهم: ما بالك؟ أي ماذا ظننت حين فعلت كذا؟ وقولهم: لا يبالي، كأنه مشتق منه؛ أي: لا يخطر بباله، ومنه بيت العقيلي في الحماسة^(٣):

ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كأننا لا نبالي

أي: لا نفكر^(٤). والمعنى: أصلح دينهم وديانهم، وقلوبهم وأعمالهم^(٥)، فإن «إصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها المشركون. والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً»^(٦).

«وَلَمْ كَانَ هَذَا وَذَلِكَ؟ إِنَّهَا لَيْسَتْ الْحَابَةِ وَلَيْسَتْ الْمَصَادِفَةُ، وَلَيْسَ الْجَزَافُ، إِنْما هُوَ أَمْرٌ لَهُ أَصْلُهُ الثَّابِتُ الْمُرْتَبِطُ بِالنَّامُوسِ الْأَصِيلِ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ الْوُجُودُ، يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَجَعَلَ الْحَقَّ هُوَ الْأَسَاسُ»^(٧). إن سبب هذا الفرقان بين الفريقين، هو ما قرره سبحانه بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

(١) انظر: ديوان امرئ القيس، ص ٢٢.

(٢) الديوان، ص ٣٢. والبيت بتمامه:

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلمها عليه القتام سى الظن والبال

(٣) انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمام (٦٢/١)، ونسبه إلى رجل من بني عقيل.

(٤) التحرير والتنوير (٧٥/٢٦).

(٥) تفسير السعدي (٦٣/٧).

(٦) التحرير والتنوير (٧٦، ٧٥/٢٦).

(٧) في ظلال القرآن (٣٢٨١/٦).

وبعد تبين حال الفريقين، وذكر السبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين، وإصلاح بال المؤمنين، أخبر سبحانه - بمناسبة ذلك - أنه كهذا التبيين يمثل الله للناس أحوالهم^(١). ويضع لهم القواعد التي يقيسون عليها أنفسهم وأعمالهم^(٢).

وأكتفي بهذه الأمثلة والشواهد الكاشفة عن أن من منهج القرآن في عرض السنن، أنه يعرضها عن طريق ضرب الأمثال وفي سياقاتها، وأنتقل إلى الجانب الرابع والأخير، وهو: عرض السنن في سياق الأحكام.

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٦/٧٦، ٧٧).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٢٨١).

عرض السنن في سياق الأحكام

وأعني بها الأحكام التكليفية من الأمر والنهي ، والتحرير والإباحة ، ونحوها .
والأحكام التكليفية إما شرعت لإسعاد المكلفين الممثلين لها في معاشهم ومعادهم ،
وتنظيم شؤون معاشهم فيما بينهم ، فهي قانونهم ودستورهم ، ومن خالفها أو نبذها
عُوقِبَ بما يستحقه بأنواع العقوبات الشرعية والكونية . ﴿لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] .

وأصل ذلك: أن الله - تبارك وتعالى - إنما خلق جنس الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ، وسنَّ له الاجتماع ، وجبله على حبه . وهو - سبحانه - إنما فعل به ذلك ؛
ليبتليه بالأوامر والنواهي ، وهي الأحكام التكليفية .

وهذه الأحكام تتعلق بكل شيء يتصل بالإنسان ، وتتدخل في تحديد صلته وكيفية
علاقته بهذا الشيء ، سواء في ذلك أحكام العبادات ، والمعاملات ، والأحوال الشخصية
الفردية والجماعية .

ومن هنا ، فإنَّ القرآن - وفق منهجه الشمولي - يعرض للآثار الحسنة المترتبة على
التزام تلك الأحكام والامثال لها ، كما يعرض للآثار السيئة الناتجة عن مخالفتها أو
نبذها ، بحيث لا يكاد يذكر شيئاً من هذه الأحكام إلا مصحوباً بالآثر (الجزاء) المترتب
عليه ، فعلاً أو تركاً . وهذا معلوم لكل متدبر لكلام الله تبارك وتعالى .

وذلك الأثر أو (الجزاء) الحسن أو السيئ يحصل ويتحقق كلما وجد سببه ، وهو
الفعل أو الترك ، ويظهر بصورة واضحة مطردة على مستوى الأمة ، ويأخذ
صفة (السنَّة) .

وبعد هذا التقرير لمكانة الأحكام التكليفية من حياة الأفراد والأمم ، أقول: إنَّ صحة
الأمة وعافيتها وانتظام أحوالها وحُسن سير الأمور فيها ، مبناه على تحقيق أمور ، في
مقدمتها: تحقيق التوحيد بأقسامه الثلاثة ، وإقامة العدل ، وأداء الأمانات ، وتولية
الأكفاء ، وتولي المؤمنين ، والبراءة من الكفار ، وقوامة الرجال على النساء ، وقيام سوق

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك التعامل بالربا، وتطهير الأمة من الفواحش؛ كالزنا وشرب الخمر... وأمثال ذلك.

وأن تحيظ ذلك كله بسياج من تقوى الله ومراقبته، بالقيام بشعائر العبادة وتعظيم حرمان الله عامة، وبهذه وتلك تحقق الأمة معنى (التقوى)، وهي: أن تجعل بينها وبين عذاب الله وعقوباته الدنيوية وقاية.

ونحن إذا تأملنا ما ذكر آنفاً من الأمور التي بها وبأماها تستحق الأمة لقب التقوى من العقاب الدنيوي. إذا تأملنا فيها، وجدناها من جملة الأحكام التكليفية، فلا جرم سيعرض القرآن للسنن في سياقاتها وبمناسبة الحديث عنها.

ولناخذ أمثلة وشواهد على ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٥، ٣٦].

يجبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾. ومضمون كلامهم: أنه لو كان - تعالى - كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنتنا منه. قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة، أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ

مِنْ شَيْءٍ ﴿١٠﴾؟ فمشيئته تعالى الشرعية منتفية عنهم؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكروا عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف دمر الله عليهم ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ آمَنَّا﴾^(١) [محمد: ١٠].

إذن، فتحقيق التوحيد الذي ركناه: عبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت والكفر به، حكم تكليفي، ترتب على مخالفته أشد العقوبات في الدنيا، ليس لأمة دون أمة، بل للأمم جميعاً، وقد قرّر الله هذه السنة بهذه المناسبة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال: ﴿يٰۤاٰدُوۤدُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيۤفَةً فِى الْاَرْضِ فَاَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيۤلِ اللّٰهِ اِنَّ الَّذِيۤنَ يَضِلُوۡنَ عَنْ سَبِيۤلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيۡدٌ يٰۤاِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًاۙ ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيۤنَ كَفَرُوۡا قَوْلٌ لِّلَّذِيۤنَ كَفَرُوۡا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٦، ٢٧].

هذه الآيات وغيرها مما جاء في معناها، صريحة في الأمر بأداء الأمانات، والعدل في الحكومة بين الناس، «والخطاب فيها لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق»^(٢).

«والأمانات من صيغ العموم، والأداء حقيقة في تسليم ذات لمن يستحقها، ويطلق الأداء مجازاً على الاعتراف والوفاء بشيء... فتكون الآية أمرة بجميع أنواع الإيصال والوفاءات»^(٣).

كما أنها صريحة في إيجاب ذلك، كما قال - سبحانه - لرسوله ﷺ، أمراً بإياه بامثاله وأن يبلغه للناس: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاۡهُمْ وَقُلْ ءَاَمَنْتُ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتٰبٍ وَاُمِرْتُ لِاعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾^(٤) [الشورى: ١٥].

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٥/٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٥/٩١، ٩٢، ٩٣) بتصرف.

(٤) انظر: تفسير المنار (٥/١٧٩).

وقال رسول الله ﷺ: «أدُّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خالك»^(١).

وأخبر - جلا وعلا - أن من أعظم غايات إرسال الرسل وإنزال الكتب ، أن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل ، بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] .

وواضح أن الأمر بأداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل ، والنهي عن ضد ذلك من الخيانة والجور ، أن ذلك من جملة الأحكام التكليفية ؛ لأن إمكان ألا تؤدي الأمانات ، وألا يحكم بالعدل في مقدور البشر ، وهو واقع منهم مشاهد بينهم ، لكن الله أمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بالعدل ، وأخبر أنه يعظهم بذلك ، وأثنى على هذه الموعظة ، وحذرهم من مخالفتها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُم بِذِهِ وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] .

والعدل الذي يحتاج إلى شيء من البيان بهذه المناسبة هو العدل على مستوى الأمم ، وقد أجاد العلامة ابن عاشور - رحمه الله - في إيضاح هذا النوع من العدل ؛ إذ قال: «والعدل مساواة بين الناس أو بين أفراد أمة: في تعيين الأشياء لمستحقها ، وفي تمكين كل ذي حق من حقه ، بدون تأخير ، فهو مساواة في استحقاق الأشياء ، وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها ، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق ، والثاني هو العدل في التنفيذ ، وليس العدل في توزيع الأشياء بين الناس سواء بدون استحقاق .

فالعدل وسط بين طرفين ، هما: الإفراط في تخويل ذي الحق حقه ؛ أي: بإعطائه أكثر من حقه . والتفريط في ذلك ؛ أي: بالإجحاف له من حقه .

وكلا الطرفين يسمى جوراً ، وكذلك الإفراط والتفريط في تنفيذ الإعطاء ، بتقدمه على وقته ، كإعطاء المال بيد السفهية ، أو تأخيره كإبقاء المال بيد الوصي بعد الرشد . . . وهو - أي العدل - حسن في الفطرة ؛ لأنه كما يصد المعتدي عن اعتدائه ، كذلك يصد غيره عن الاعتداء عليه»^(٢) .

(١) حديث حسن . أخرجه الترمذي في البيوع ح (١٢٦٤) ، وقال: «حديث حسن غريب» . وأبو داود في البيوع ، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٨٠٥/٣) ح (٣٥٣٥) . والدارمي في سننه (٢/٢٦٤) ، وقال في «الجامع الصغير» للسيوطي (٥١/١) ، ح (٣٠٨) : «وأخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ، والدارقطني في «السنن» عن أنس وأبي ابن كعب ، والضياء عن أنس ، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة» . قال عبد القادر الأرناؤوط في تخرجه الحديث في جامع الأصول (١/٣٢٣) : «سناده حسن . وتضعيف ابن حزم له في المحلى ضعيف لا يلتفت إليه» .

(٢) التحرير والتوير (٥/٩٤ ، ٩٥) .

ومن تمام إقامة العدل وأداء الأمانة، تولية الأصلح والأكفأ «فيجب على كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه. وقد لا يكون في موجوده من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله»^(١). وإذا لم يفعل ذلك كان الجور لاحالة، وكانت الأثرة، وفشت في الناس الرشوة وهضم الحقوق، فاستحقت الأمة بعمومها من العقوبات الدنيوية ما يكدر صفو عيشها، ومنها ما نشاهد ونعايش في أيامنا، التي تعتبر مثالا لما جرى به الحديث.

وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» ما تصلح به أحوال الأمة، وجعل مدار ذلك على إقامة العدل فيهم، ورعاية الأمانات، فليراجعه الراغب في المزيد فإنه نفيس.

ومن المفاصد التي نهى الله عباده أن يتلبسوا بها أما وأفراداً: أكل الربا، والتعامل به. قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِنَّ رُءُوسَ آمْوَالِكُمْ لَآتِظْلَمُونَ وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

فأخبر - سبحانه - في هذه الآيات عن سوء حال المرابين، ومحق الربا وإذهاب بركته، في الدنيا والآخرة.

فأما ما يقع ويحصل لهم في الدنيا من محق البركات وإهلاك الأموال التي يخالطها الربا «فقد اشتهر هذا حتى عرفه العامة، فهم يذكرون دائماً ما يحفظون من أخبار أكلي الربا، الذين ذهب أموالهم وخربت بيوتهم. فإن الربا - وإن كثر - فعاقبته-تصير إلى قل»^(٢) بما

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٨، ١٣ بتصرف.

(٢) تفسير المنار (٩٩/٣) بتصرف يسير.

يصيبه من أنواع الجوائح ، مع ما ينشأ في نفوسهم من شدة التعلق بالأموال وجمعها واكتنازها ، فيشغلهم ذلك عن شأن نفوسهم وأهليهم ، ويحملهم على ركوب المخاطر ، مما هو مخالف للمقصود من جمع المال بغية الاستغناء به ، وأن يكون سبيلاً إلى الأُنس والمُتعة . وما يجلبون إلى أنفسهم من كراهية الناس لهم وعداوتهم إياهم ؛ لأنَّ الناس يشعرون بأنَّ هؤلاء المرابين هم أعداء الفقراء ، ومصاصو الدماء ، بل هم أسباب حلول البلياء ، فهؤلاء المرابون ينظرون إلى عامة الناس كما ينظر إليهم حفار القبور .

ومن أعظم مظاهر محق البركة أنك لا تجد بلداً ربوياً إلا وتجد فيه الطبقة في أجلى صورها ، يكون المال فيه دولة بين جماعة من المرابين ، وعامة الناس دون مستوى الفقر . وفوق ذلك وأعظم منه أنها لا تربيو عند الله ، بل هي سبب للعقوبة ودخول النار ، وأن المجتمع القائم على أساس الربا مجتمع محارب لله ورسوله .

ومن ذا الذي يطيق هذه الحرب أو يصبر لها؟ بل من ذا الذي يرضى بأن يكون حرباً لله ورسوله؟ وكفى . . . فإن من لم ير في تلك العقوبات واعظاً وزجراً ، فقد مات حسه وتودع منه .

ومثل آخر:

قد ثبت تحريم الفواحش ، كالزنا واللواط وشرب الخمر ونحوها في سائر الملل والأديان السماوية . قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] . وقال: ﴿ قُلْ تَكَاوَلُوا أَنفُسَكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾ . . . الآية إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] . وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠ ، ٩١] .

وقد حكى الله شأن أمة من الأمم أصروا على واقعة جريمة اللواط ، وقص ما آل إليه أمرهم وكيف كانت عاقبتهم ، في مواضع من كتابه ، منها قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ ﴾ * أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ * فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لَّوْطُ مِنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَنْظُرُونَ * فَأَجْنِبْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنْ الْغَيْرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا
فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿ [النمل: ٥٤ - ٥٨].

وروى لنا التاريخ كيف انهارت دولة الرومان لما عملت فيها معاول الفساد والانهلال^(١).

وهذه الأمم الكافرة المعاصرة وما شاع فيها من الأمراض الفتاكة، كالإيدز وغيره، بسبب إباحة الفواحش، خير شاهد على ذلك^(٢).

والخلاصة: أن القرآن الكريم قد عنى بإبراز سنن الله في الأمم في سياق تقرير الأحكام التكليفية من الأوامر والنواهي، لكن ذلك قد يخفى على بعض الناس لأسباب منها: ما يتعلق بطريقة عرض السنن في سياق هذه الأحكام.

ومنها: ما يتصل بفهم الناس لوظائف الأحكام وآثارها في دنياهم.

فأما الأول: فإن القرآن لا يذكر السنن في سياق الأحكام بصورة صريحة، لكن تنبيهاً وإيماءً، بخلاف الأحداث التاريخية والأمثال المضروبة، فتحتاج معرفة السنن في سياق الأحكام إلى نوع تتبع واستقراء، فأنت - مثلاً - عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَيْبٌ عَلَيْهِمْ كَمَا كَيْبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قد لا ينقدح في ذهنك أنك أمام رافد من روافد التقوى وسبب من أسبابها التي أمضى الله سنته في خلقه أنها لا تحصل ولا تتحقق إلا من هذا الطريق وأمثاله.

وقد تغفل عن أن القرآن حين يختتم الأحكام المتعلقة بالصيام بالتعليل ذاته، بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].
فإنما يريد التأكيد على معنى: أن تقوى الله بالصيام، سبب من أسباب وقاية عذاب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وعندما يتحدث القرآن عن أحكام الطلاق، وعن ضرورة إقامتها على وفق شرع

الله، يفصل بينها بجملة معترضة تنبه إلى أن: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) انظر: ماذا خسر العالم بالمحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص ٧١ وما بعدها. والإسلام ومشكلات الحضارة، لسيد قطب، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان وتفصيل في الفصل الثاني من الباب الثالث، إن شاء الله تعالى.

وحدود الله: هي أوامره ونواهيه الشرعية، وإقامتها: إظهارها والعمل بها، وذلك يورث التقوى وصلاح الحال، وتعديها ظلم أي ظلم يستوجب العقوبة والنكال.

ومعلوم أن المذكور في الآيات ليس هو كل حدود الله، ولكن الله يقرر السنة العامة:

﴿وَمَنْ يَعْذُ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، بمناسبة تقرير حكم من الأحكام الخاصة؛ لأن الكل من واد واحد.

وعندما تقرأ قوله سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى

بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، يتبادر إلى ذهنك مجموعة الخصائص التي أهلت الرجال للقيام بمسئولية القوامة، والتي أشارت الآية إليها إجمالاً، ولكن هل تذهب إلى أبعد من ذلك لتتصور الآثار المدمرة التي لا شك في وقوعها على مستوى الأمة حينما يترك الرجل القوامة، أو حينما تكون القوامة من حقوق المرأة!

إن القرآن في هذه الآية لا يقترح اقتراحاً أن تكون القوامة للرجال على النساء، ولكنه يجبر عن وظيفة محددة لكل منهما، ويطلب بالالتزام بها، ولا يرضى بسوى ذلك، فالآية لفظها لفظ الخبر ومعناها الأمر.

ويوم يرضى الناس لأنفسهم غير ما ارتضاه الله لهم، فإن عليهم أن يستعدوا لتحمل نتائج مخالفتهم.

وأما الثاني: وهو ما يتصل بفهم الناس لوظائف الأحكام وآثارها في دنياهم، فإنه قد وضع فصام نكد في أذهان كثيرين من الناس، مؤداه أنهم يجعلون الأحكام التكليفية على نوعين:

نوع يرون خطورة التهاون به. فتجدهم يطالبون - مثلاً - بإقامة العدل في توزيع الأموال، وفي إيقاع العقوبات، ويحاربون المخدرات، ويجابهون العنف ويتزعجون من ظاهرة السرقة... وما إلى ذلك من المخالفات التي يواجهون آثارها السلبية بصورة مادية مباشرة.

وكل هذه القضايا مما يجب على الأمة أن تعنى بها وتكون في دائرة اهتمامها، ولا شك في خطورة التهاون بها.

لكن يجنب بهم القطار حين لا يقيمون وزناً لجوانب أخر من الأحكام التكليفية، وهي ما أعنيه بالنوع الثاني.

وهذا النوع لا يتنبهون لأهميته وخطورة آثاره على مستوى الأمة ؛ وذلك كالشعائر التعبدية وأعمال القلوب ، وما لها من آثار على الأخلاق والسلوك ، وأنها هي الشرطي الداخلي الذي إذا غاب لا يغني عنه جحفل من الحراس والرقباء .

لا يتنبهون لمنزلتها تلك فيستبعدونها من أي عملية تقويمية لأسباب النجاح أو الفشل على مستوى الأمة . وهذا ذهول قد يوقع الأمة في شرك العلمنة من حيث لا تشعر .

والحق الذي لا تكون النجاة إلا به ، ينحصر في أخذ الإسلام جملة وتطبيق تعاليمه كلها على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة ، فإنه كله مما أمر الله به ، وهو من عبادة الله تعالى . . ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

كما أنه ، وبالمشاهدة والتتبع ، قد ثبت أن الأمة التي تستهتر بالجوانب التعبدية ولا تجعل من نفسها حارساً لأخلاقها وسلوكها ، أنها أمة مرشحة لأنواع الانحرافات الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية التي تقوض أمنها واستقرارها ، وتجعل منها بيئة صالحة لاستنبات الأمراض والعنف والقلق ، وغيرها . مصداق ذلك ، ما ذكر الله في كتابه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤] .

وأكتفي بهذا القدر ، وهذا أو ان الشروع في المطلب الثاني ، في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض سنن الله في الأمم

المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض سنن الله في الأمم. وهي مؤثرات كثيرة ومتنوعة حسب تنوع أغراض السنن، واختلاف المخاطبين بها. وإدراكها والتنبه لها عند محاولة استخلاص السنن واستنباطها، أمر ذو أهمية بالغة. كما أن دراستها وتسجيلها يعد جزءاً لا يتجزأ من دراسة منهج القرآن في عرض السنن. وقد عرفنا فيما مضى أن القرآن بأسلوبه المعجز ونظمه المحكم، قد وظف أروع ما في لغة العرب من الصيغ والأساليب، واستخدم كل وسيلة في التعبير؛ كي يبلغ التأثير أقصى مداه في النفوس، وتبلغ حجته الغاية في الإحكام والظهور.

وتوج ذلك كله بحشد من المؤثرات تغمر القلوب والمشاعر، بحيث لا تعرض (السنن) إلا وقد تهيأت النفوس لتلقيها في جو يناسبها، ولا تغادر الحس إلا بعد أن تكون قد تركت أثرها في أغوار النفس... وهذا كله - بطبيعة الحال - إنما يفقهه ويتفهم به من ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. أما أعمى القلب مطموس البصيرة، فإنها لا ﴿تَعْنِي آيَاتُكَ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، و﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومما يجب أن تعلمه أن القرآن يذكر عند كل سنة ما يناسبها، ويلائم الجو المراد إحدائه، ولهذا فقد تعرض السنة نفسها في أكثر من موضع في جو مختلف، وهذا الاختلاف ذاته يترك أثراً جديداً، وكلاهما مقصود، كما سيتضح لك ذلك بإذن الله.

ويمكن تلخيص أبرز هذه المؤثرات - فيما ظهر لي - في النقاط التالية:

- أن القرآن يجمع بين الإنذار والذكرى، والبشارة والندارة، في المقام والسياق

الواحد

- وأنه يتوخى الأشباه والنظائر والموالاتة بينها؛ ليتوالى التأثير على الحس.

- وأنه يعرض الحدث (موضع العبرة) في مواضع متفرقة ليذكر به، وبصور مختلفة ليعالج صور الانحراف كافة، ويخاطب مختلف المدارك.

- وأنه يحشد المؤثرات الحسية المادية، ويجسد المواقف والأحداث، لحمل الآخرين على التعاطف معها أو إثارة الحنق عليها، ولهذا الجانب من التأثير ما ليس لغيره.

وسوف أبسط في الصفحات التالية أمثلة وشواهد لكل نقطة، وأسأل الله الإعانة

والتسديد .

أولاً: الجمع بين الإنذار والذكرى، والبشارة والندارة.

الإنذار والندارة في لغة العرب: الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً^(١).

والذكرى: كثرة الذكر، وهي أبلغ من الذكر، وهي بمعنى التذكرة والموعظة أيضاً.

والبشارة: الإخبار بما يسر، وتطلق على ضده من باب التهكم^(٢).

وقد أخبر الله - عز وجل - عن كتابه أنه أنزله لذلك كله^(٣).

قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأعراف: ٢] ، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا

لُدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]... إلى غير ذلك من الآيات .

والجمع بين الإنذار والذكرى أو بين البشارة والندارة، شائع في القرآن، وهو من

المقابلة بين الضدين، وله أثر عظيم في إحداث التوازن في تصور الأشياء وتربية النفوس،

وسد باب اليأس القاتل أو فتح باب الرجاء المفسد .

فالوعد يقابله الوعيد، والجنة ونعيمها يذكر بإزائها النار وعذابها، والخوف يسكنه

الرجاء... وهكذا .

وسنن الله في الأمم غير مستثناة من هذه الميزة، وكيف تستثنى ومسألة إحداث

التوازن في الأمة والمجتمع هي إحدى أهم الغايات التي تُعنى السنن بإيجادها والحفاظ عليها

في حياة الأمم!

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو

فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ

وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتْرَكُونَ * وَزُخْرُفًا ﴾ [الزخرف: ٣٣ -

[٣٥

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٨٨).

(٢) مفردات الراغب، مادة (ذكر)، و(بشر).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٨٦) وما بعدها.

والجمع بين البشارة والندارة، وبين الإنذار والذكرى فيما يتعلّق بالسُنن على نوعين، عام وخاص.

النوع الأول: العام، وهو أن يقال: قد اشتمل القرآن الكريم على سنن هي نذر للكافرين والمنافقين، كإهلاك أشياعهم وأسلافهم، وكهزيمتهم وظهور المؤمنين عليهم، وكإحباط كيدهم وجعله وبالاً عليهم، ونحو ذلك.

كما اشتمل على سنن آخر هي بشائر للمؤمنين، كإنجاء أسلافهم ونصرهم على أعدائهم، مع قلتهم، وكون العاقبة لهم... ونحو ذلك.

وأمثلة هذه وتلك، ظاهرة بيّنة، بل إن مدار السُنن كلها عليها، صراحةً أو تضمناً.

وبهذا النظر يُقال: إن من منهج القرآن أنه يعرض السُنن المبشرة كما يعرض السُنن المنذرة المتوعدة. وهذا النوع - وإن كان مهماً - فلن أتوقف عنده؛ لظهوره، وتكفي فيه إشارة كالتي أسلفت.

النوع الثاني: خاص، وأعني به: الجمع بين البشارة والندارة، وبين الإنذار والذكرى في سياق واحد ومناسبة تقرير سنة واحدة.

ومجيء السُنن بهذه الصفة كثير أيضاً، ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمَدِّهُتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَائِكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظَرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيًّا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

في هذه الآيات بيّن الله لعباده سنته في مدده وعطائه الدنيوي والأخروي، فمن أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، تعجيلاً غير مشكور، ومتاعاً غير حسن، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. والسعي للآخرة لا

يُجرم المرء من لذائد الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية»^(١).

وتأمل قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ فإن فيه إيماء و«دلالة على أن الوصف تحقق فيه من قبل، أي من الدنيا؛ لأن الطاعة تقتضي ترتب الشكر عاجلاً والثواب آجلاً. وقد جمع كونه مشكوراً خيرات كثيرة يطول تفصيلها لو أُريد تفصيله»^(٢).

وتأمل قوله: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَآءًا وَهَوَآءًا مِّنْ عَطَايَ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء هؤلاء إنما ينالون من عطاء الله «حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بقلائه، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة»^(٣).

وفي قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، تنظير، من مقاصده: التنبيه إلى أن «التفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم»^(٤)، وأنه «غير منوط بصلاح الأعمال، ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضاً، وبعض الكفرة بعضاً. وكفاك بذلك هادياً إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح، ولا مما يساق إلى النفوس الخيرة»^(٥).

والمقصود من إيراد هذا المثل: بيان أن الله بشر المؤمنين بأنهم إن سعوا واجتهدوا، فإن لهم خيري الدنيا والآخرة، كما أعلمهم بأن عطاء الدنيا ممنوح لهم ولغيرهم ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾، فلا غرابة إن جد غيرهم واجتهد أن ينال من هذا العطاء أكثر مما نالوا! فضلاً عما فيه من مُطَامَنَة لكبرياء الكافرين ونعي عليهم، فهم مع أنهم لا حظ لهم في الآخرة، فليس كل ما أرادوا وطلبوا في هذه الدنيا يحصل لهم. وهذا وذاك سنة وقانون، وقد حصل من كل منهما لِمَا لا يحصى من البشر.

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/٦١).

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٢١٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/٦٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ * ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٦].

«لما بين - جل وعلا - في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بين في هذه الآية أنهم لو أطاعوا، لفتح الله عليهم أبواب الخيرات. ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا ﴾ يعني: الرسل، ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالجدوبة والقحط، ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعصية»^(١).

وقال الشوكاني: «اللام في ﴿ الْقُرَىٰ ﴾ للعهد؛ أي ﴿ وَتَوَّأْنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا ﴿ ءَامَنُوا ﴾ بالرسل المرسلين إليهم، ﴿ وَأَتَّقَوْا ﴾ ما صمموا عليه من الكفر ولم يصرُّوا على ما فعلوا من القبائح ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾؛ أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها. ويجوز أن تكون اللام في ﴿ الْقُرَىٰ ﴾ للجنس، والمراد: لو أن أهل القرى أين كانوا في أي بلاد سكنوا ﴿ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا ﴾ إلى آخر الآية، ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ ب ﴾ سبب ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم»^(٢).

ففي هذه الآيات تجلت سنة من سنن الله في الأمم، وهي: أن سعادة الأمم وشقاءها منوطٌ بكسبها وعملها، وسنة أخرى، وهي: أن البركات والنماء يمنح للأمة المؤمنة المتقية، وأن البركات تنزع منها، وتحل بها المساخط متى عصت وكذبت.

واجتماع البشارة والندارة في هذه الآيات بين ظاهر.

ومن الآيات الناطقة باجتماع البشارة مع الإنذار والذكرى، قوله جل وعلا في شأن بني إسرائيل، ما حصل لهم من العقوبة بسبب الإفساد في الأرض، ثم التمكين لهم بعد

(١) التفسير الكبير، للرازي (١٤/١٨٥).

(٢) فتح القدير (٢/٢٢٧، ٢٢٨).

توبتهم ورجوعهم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عُلُوًّا تَبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

ففي هذه الآيات أخبر سبحانه أنه قضى وحكم وأبلغ بني إسرائيل أنهم يفسدون في الأرض مرتين مشهودتين، وأن الله سيوقع بهم مع كل إفساد عقوبة، فيسلط عليهم عباداً وجنداً يذلونهم ويستبيحون ديارهم، وأخبر أنه في كل مرة لا يرفع ذلك عنهم إلا إذا أحدثوا توبة ورجوعاً إليه^(١).

ولنتأمل قوله تعالى بعد ما ذكر إفسادهم الأول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

والمعنى: «أنا نرد لكم الكرة لأجل التوبة وتجدد الجيل، وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسناً، وإن أسأتم لأسأتم لأنفسكم، فكما أهلكتنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم، فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم»^(٢).

ولما ذكر ما عاقبهم به جزاء إفسادهم للمرة الثانية، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. والمعنى: «بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلجأون إليها، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم؛ أي عدنا لمثل ما تقدم من عقاب الدنيا»^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥).

(٢) التحرير والتبوير (١٥/ ٣٣).

(٣) التحرير والتبوير (١٥/ ٣٨).

ومن أمثله أيضاً: قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٦ ، ٧] .

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ الآية . قيل: هذا من جملة ما قال موسى ﷺ لقومه ، فيكون معطوفاً على ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ، أي اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم .

وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ ، أي اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين ، فإن هذا التأذن أيضاً نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة^(١) .

والمعنى: وإذ آذن ربكم وأعلم إعلاماً بليغاً ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما حولتكم من نعمة الإنجاء وإهلاك العدو ، وغير ذلك من النعم والآلاء الفاتنة للحصر ، وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة ، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمصتموه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم^(٢) ، فقد وعدهم الزيادة على الشكر ، وأوعدهم العذاب على الكفر^(٣) .

وأكتفي بهذه النماذج في الإبانة عما قصدت إليه من أن من منهج القرآن أنه يجمع في عرضه للسُّنن - بصفة عامة - بين البشارة والندارة ، وبين التخويف والإطعام ، لإحداث التوازن البتأ ، وحسم مادة اليأس والخوف المفضي إلى القنوط ، وقطع دابر الرجاء والأمانى المولدة للخمول والتفريط ، والدعاوى العريضة بلا عمل وجِدْ . وإليك النقطة الثانية ، ألا وهي:

توحيُّ الأشباه والنظائر في عرض السُّنن:

الشبه والنظير: هو المماثل والمشاكل .

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣٤/٥) .

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣٥/٥) ، وتفسير القاسمي (١٠/١٠) .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (٣٤٣/٩) ، والتفسير الكبير (٧٨/١٩) .

وأوجه الشبه بين الأشياء لا تنحصر ، فقد يشبه هذا هذا من بعض الوجوه ، ويشبه كل منهما شيئاً آخر من وجوه آخر ... وهكذا .

وانجذاب الأشباه إلى ما يشابهها والنظائر إلى ما يشاكلها ، أمرٌ مركوز في الفِطْر مجبولة عليه النفوس ، والتأليف بينها في الكلام من محاسن البلاغة ، وهو أسلوب بديع ، ينطوي على فوائد .

منها: أنه يكسب الكلام قوّة ، والحجّة ثباتاً ، ويحمل على الإذعان والتسليم ، ويترك في النفوس أثراً مضاعفاً ، ويعين على فهم المراد ... وغير ذلك .

ولا يعني هذا أنه لا وجه يعرض في الكلام يحسن معه التفريق بين الأشباه ، والتأليف بين الأضداد! كلا . بل لهذا مواطن ، ولذلك مواضع:

والشبه منجذب إلى شبهه والضد يظهر حسنه الضد

وبضدها تتميز الأشياء . ويمكن أن ننظر إلى ما سبق الكلام فيه في الفقرة الأولى من الجمع بين البشارة والندارة ، على أنه من الضد الذي يظهر حسنه الضد ، وهو كذلك .

وجمع الأشباه والنظائر والتأليف بينها فيما يتعلّق بالسنتن (موضوع الدراسة) شيء لا ينقضني من حسنه العجب ، ومن استبطن هذا المعنى واصطحبه في تعامله مع نصوص القرآن ، عرف من أسرار التكرار ، وحكم التقديم والتأخير والاختصار في الأخبار أشياء قد لا يظفر بمثلها في كثير من الأسفار .

فدونك هذه الأمثلة ، فخذها وقس عليها غيرها .

فمثلاً: حينما يكون الغرض: بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة واحدة . وأنّ العاقبة لهم . وأنّ استقبال قومهم لهم متشابه . وأنّ عاقبة قومهم التدمير والهلاك .

حينما يكون الغرض هو ذلك ... دون أن يكون مقصوداً تفصيل الفروق فيما بينهم ، لا في كيفية الإنجاء ، ولا في كيفية الهلاك «ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة ... مكررة فيها طريقة الدعوة»^(١) ، وأساليب استقبال الأquam للدعوة ولشخص الداعي ، ومشاهد الإنجاء والإهلاك .

ولإبراز هذه السنتن يحشد القرآن أكبر قدر ممكن من القصص والأحداث التاريخية ويوالي بين سياقاتها؛ لأنّ الغرض متعلّق بجمعهم ، فلا حاجة إلى التخصيص والاختيار . ولهذا نلاحظ أنه يراعى في عرضها التسلسل التاريخي غالباً .

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ١٢٢ .

وإذا أردنا التمثيل لذلك ، فهناك سور ثلاث عرض القرآن فيها هذه السنن بهذه الكيفية تقريباً ، وكل منها تصلح لأن تكون مثلاً لهذه الظاهرة على ما بينها من فروق^(١) وهي: الأعراف^(٢) ، وهود^(٣) ، والشعراء^(٤) .

وسأضرب لما نحن بصدهه مثلاً من سورة هود .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ * فَقَالَ الْمَلَآءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدْيٍ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧] . . . الآيات . إلى أن جاء مشهد إهلاك الكافرين وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين ، وذلك قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْخَمِي أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٠ - ٤٤] .

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَفْضُونَ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْنَا بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ ﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِبَعْضِ الْعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠] .

وقال في شأن صالح ﷺ وقومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ قالوا

(١) فمن الفروق: الاختلاف في طريقة العرض تبعاً لأهداف ومقاصد كل منها . ومنها: الاختلاف في ترتيب الأحداث ، وفي اختزال بعضها ، ففي سورة الشعراء - مثلاً - نجد أن قصة موسى ﷺ أول ما عُرِضَ من القصص ، في الوقت الذي لا نجد لخبر إبراهيم ﷺ ذكراً في سورة الأعراف . . . إلى غير ذلك من الفروق .

(٢) الآيات: ٥٩ - ١٣٧ .

(٣) الآيات: ٢٥ - ١٠٠ .

(٤) الآيات: ١٠ - ١٩١ .

يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿...﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينًا * كَانَتْ لَمْ يَغْتَوِافُهَا إِلَّا إِنْ نَعُدُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمَعُودٍ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأُنزِلْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِرَيْبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ ... الآيات، إلى قوله: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ... الآيات، إلى قوله: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ... الآيات، إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينًا * كَانَتْ لَمْ يَغْتَوِافُهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ نَعُودٌ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسَ الْوَرْدُ الْمَرُودُ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

ومثل آخر في باب تكذيب الرسل وإنكار البعث بعد الموت:

قال تعالى في أول سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ مُّجِيبٌ * أَوَ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْرُونَ لُوطُ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَعِّعُ كُلَّ كَذِّبٍ الرَّسُلَ هُنَّ وَعِيدٌ * أَفَعَيَّبْنَا بِالْحَلَقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: ١٢ - ١٥].

وهذه الأمثلة تقودنا إلى تصور أمثلة أخرى!

فمما لا شك فيه، أن هؤلاء الأقوام الذين أشارت إليهم سورة هود وأختاتها بأسلوب معين لبلوغ غاية أو غايات محددة... هؤلاء الأقوام بين بعضهم من صور التشابه في غير تلك الأمور التي أسلفت بيانها في الأمثلة السابقة أشياء كثيرة، في إمكانات القوم، وفي أسلوب المواجهة، وفي كيفية الإهلاك، وفي كيفية الإنجاء... وفي أشياء أخرى تظهر عند التأمل.

والقرآن كما أنه يرسم لجميعهم صوراً كلية، فهو أيضاً يقصد إلى مواطن التشابه بينهم وهي أوجه شبه ليست كلية، فقد تكون ثنائية أو أكثر فيبرزها عن طريق الجمع بينها، وعلى هذا شواهد، منها:

ما جاء في سورة البروج من ذكر لفرعون وثمود. قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ﴾ [البروج: ١٧، ١٨].

جاء ذكرهما بعد عرض قصة أصحاب الأخدود في سياق حي مؤثر.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ * قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ * أَلْتَارِذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ١ - ٧]... الآيات، إلى آخر القصة.

وجاء «اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود، لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى وادعى الربوبية، كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه: ألك رب غيري؟ ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء. ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية؛ إذ موسى ﷺ قدم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى،

والغلام قدّم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجّاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوي عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه، كما أعمى فرعون.

وكذلك آمن السحرة لما رأوا موسى وخرّوا لله سجداً، وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون؛ إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فانقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذين جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان في الكل عظة وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه، والله تعالى أعلم^(١).

ولما كان المقصود من ذكر قصة أصحاب الأخدود وحديث الجنود تسليية المؤمنين وتثبيتهم، وزجر المشركين وردعهم، ذكّرت ثمود مع فرعون في هذا السياق؛ لما بين قصتهم وبين القصتين الأخرين، والمخاطبين بها من الشبه والمناسبة، فإن «ثمود كان منهم من مظاهر القوة والطغيان»^(٢)، وحصل منهم التأمر على القتل، و«كانوا في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة»^(٣)، كما أن قصة فرعون مشهورة كذلك، «فذكر تعالى من المتأخرين فرعون، ومن المتقدمين ثمود»^(٤).

وشيء آخر وهو أن «ثمود» تحقق تناسباً في رؤوس الآي^(٥)، وهذا وإن كان شيئاً تابعاً إلا أنه مما ينبغي ملاحظته.

ومثل آخر للجمع بين الأشباه والنظائر في بعض الجوانب المناسبة معينة. حين يكون الغرض والغاية إظهار قوة الله وشدة بطشه بالمكذبين، فإن الذي يناسب ذلك عادة، أن تذكر الأمم والأقوام ذوو البأس والشدة، الذين اعتدوا بأنفسهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ فإن التنكيل بذى القوة أدلّ على قوة المنكل وشدة بطشه.

(١) أضواء البيان (١٤٩/٩، ١٥٠) باختصار.

(٢) أضواء البيان (١٥٠/٩).

(٣) التفسير الكبير (١٢٤/٣١).

(٤) التفسير الكبير (١٢٤/٣١).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥١/٣٠).

وكذلك فعل القرآن الكريم .

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَل رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ * آلِي لَمٍ يَخْتَقُ مِثْلَهَا فِي آلِ لَيْلِدٍ * وَنَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤] .

وقد ذكر القرآن هذه الأمم الثلاث في سورة الحاقة في قوله جل وعلا: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمِيزَةَ آيَامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةَ بِالْخَاطِئَةِ * فَمَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴾ [الحاقة: ٤ - ١٠] .

والتأمل لسياق الآيات في الموضعين، يجد أن القرآن عني في سورة الفجر بإظهار قوتهم وجبروتهم وفصل ذلك، وفي سورة الحاقة عني ببيان كيفية أخذهم، وأظهر شدة النكال الواقع عليهم .

وهكذا يتوخى القرآن الأشباه والنظائر، فيجمع بينها؛ لإحداث الأثر في النفوس ويقطع شبهة التردد بيقين الحجّة، التي لم تكتسب قوتها من كونها حقا في ذاتها فحسب، وإنما بتوالي الأمثال والأشباه كذلك، فيخرج المثال من شبح التفرد إلى دائرة الكثرة، المفيدة للقوة، فتتضاف قوة إلى قوة .

ثالثاً: عرض الحدث (الشاهد) والجزاء (السنة) في مواضع مختلفة، وبصور متنوعة.

وهذا العرض في مواضع مختلفة، ليس مجرد تكرار لا جديد فيه ولا مناسبة

تستدعيه، كلا . فهو تكرار مقصود بجد ذاته؛ لأن التكرار من أقوى أسباب رسوخ

المعاني والأفكار . وهو تكرار لا ينفك عن إضافة جديدة في كل مرة، وهذه الإضافة عند التأمل ملحوظة، وهي إضافة مقصودة لذاتها .

وهذا التنويع في الصيغ ليس لمجرد التفتن في العرض بلا إضافة وبلا فائدة، وإن كان التفتن في العرض مطلوباً ومقصوداً .

إن لتكرار العرض وتنويع الصيغ فوائد .

فمن فوائد التكرار: أنه دليل على أهمية الشيء، ووسيلة إلى استذكاره، ومعين

على رسوخه، وحافز إلى الاعتبار به .

ومن فوائد التنوع في الصيغ: مخاطبة مختلف العقول والمدارك. وإزالة سبب الاستئثار الناشئ من توهم مجرد التكرار، وكشف خفايا النفوس، ومعالجة مختلف الصور والانحرافات.

إذن، فالتكرار الملحوظ فيه جانبا للإضافة والتنوع ينطوي على مزايا أسلوبية رائعة، ويحتوي على معانٍ جديدة هادفة. وهذه وتلك وراء ما له من تأثير ملموس. وهي جزء من منهج القرآن في تقرير العقائد والأحكام والآداب والوعد والوعيد، وغيرها مما اشتمل عليه القرآن. ومن ذلك السنن التي تضبط حياة الأمم وتؤلف نظامها.

قال تبارك اسمه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومعنى ﴿مَثَانِيَ﴾: أن الله - تعالى - يردد في كتابه القول لعباده ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى. وقيل: ﴿مَثَانِيَ﴾: مردد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في أمكنة كثيرة^(١). وإليك بعض الأمثلة والشواهد على ذلك:

فمن ذلك: أن الله - جل وعلا - أخبر في كتابه عن قوم لوط عليهم السلام أنه معذبهم بقوله:

﴿يَا زُرَّهِيمُ ائْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْمُورٍ﴾ [هود: ٧٦].

وهذا العذاب الذي صرَّح هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة، وأنه لا مرد له، بينه في مواضع متعددة^(٢)، وفي كل موضع نجد لهذا البيان وظيفة جديدة، ويترك القرآن في كل منها معنى خاصاً.

ففي موضع منها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن

سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ * مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وفي آخر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِّأُمَّتٍ سَمِينٍ * وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٦].

(١) تفسير ابن جرير (٢٣/٢١٠)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٠). والقول الأول مروى عن الضحَّاك، والثاني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أضواء البيان (٣/٣٢).

وفي موضع ثالث: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢ - ١٧٣].

وفي موضع رابع: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

وفي خامس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْفَرِيدَةِ الَّتِي آمَطَرْتَ مَطَرِ السَّوَادِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].
إلى آيات أخر غير هذه الآيات .

ونحن لو تأملنا هذا العرض المتكرر ذا الصيغ المختلفة لهذا المشهد الواحد، مشهد إهلاك وعقوبة قوم لوط، فإننا واجدون أن الله تعالى قد أندر به ووعظ، ووصف وقرع!

فقوله سبحانه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، تهديد وإنذار مجلول مثل هذه العقوبة بالظالمين الفاعلين مثل فعلهم .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] موعظة وذكرى؛ إذ المعنى: إن في ذلك العذاب آيات «للمتأملين».. تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك... وأصل التوسم: تفعل من الوسم، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها، يُقال: توسمت في الخير إذا رأيت ميسمه فيه، أي علامته... وللعلماء فيه أقوال متقاربة^(١).

فقيل: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: المعتبرين، وقيل: المتفرسين والناظرين، وقيل: المتأملين والمتفكرين والمستبصرين... ومرجعها إلى شيء واحد^(٢).

وفي قوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾: وصف لعذابهم ببالغ السوء، وهو ما يسوء أصحابه، ويدخل عليه الغم^(٣).

وفي قوله: ﴿مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]: تسجيل لوصف جديد يُضاف

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٠).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٥٧) بتصرف يسير.

(٣) انظر: مفردات الراغب، (سوء).

إلى ما وصفوا به من الإجرام في الآية قبلها ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١، ٣٢].

فكأن نكتة إيراد هذا الوصف هنا هو تسجيل إفراطهم في الإجرام^(١).

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوهَا بَلَّ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠] تقريع وتوبيخ^(٢) للمشركين الذين يمرون على هذه القرية المعذبة بمطر السوء ثم لا يعتبرون بها.

فكأن الغرض من ذكر قرية لوط في هذه الآية، ليس الحديث عنها كما في السياقات السابقة، وإنما لتبكيك وتوبيخ غيرهم، ولزهم بشدة الغفلة، وهكذا، ففي كل سياق غرض أساس يعنى القرآن بإبرازه من خلال هذا السياق أو ذاك، وهناك أغراض ومعانٍ أخر ينبئ إليها ويتضمنها.

وعلى غرار هذا المثال الذي فصلت لك، يمكن أن تستظهر عشرات الأمثلة.

تكرار وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة، وما فيها من التنوع.

وتكرار مواقف الأمم من الرسل وأتباعهم، وما فيها من الإضافة واختلاف الوسائل والأساليب... وغيرها، وغيرها. وفي كل منها أبيض دليل على ما أنباتك به.

وقد يكون في التكرار وتنوع العرض تفصيل لإجمال، وتفسير له، بذكر أشياء تدرج تحت هذا النص؛ لتلا يظن ظان أنها ليست منه، فيقصر مدلوله ويخرج منه ما هو داخل فيه.

ولإيضاح هذا المعنى أبسط لك المثال التالي: قال تعالى في مطلع سورة هود ﴿ هود: ١ - ٣ ﴾

﴿ الرَّكْنَ أَبْحَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ * أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤْوُوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ١ - ٣].

قال العلامة الشنقيطي^(٣) عند هذه الآية: «هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار

(١) انظر: التحرير والتنوير (٧/٢٧).

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٧٧/٤).

(٣) هو: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، الإمام الفقيه الأصولي المفسر اللغوي، من علماء شنقيط، حجج عام ١٣٦٧هـ، واستوطن المدينة المنورة، ثم ارتحل إلى الرياض، ثم عاد إلى المدينة في الجامعة الإسلامية، صاحب (أضواء البيان)، (دفع إبهام الاضطراب عن آي الكتاب)، وغيرهما. كانت وفاته ضحوة الخميس ١٧/٣/١٣٩٣هـ بمكة المكرمة، =

والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب ، سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ؛ لأنه رُتبَ ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه .

والظاهر: أن المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق ، ورغد العيش ، والعافية في الدنيا ، وأن المراد بالأجل المسمى: الموت .

ويدلُّ لذلك: قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - : ﴿ وَنَقُورٍ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢] . وقوله عن نوح: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيبْكُمْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] . وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] . وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] . وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن قَوْفِهِمْ وَمِن نَّحْتِ آرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦] . وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣] . . . إلى غير ذلك من الآيات ^(١) .

فقد ذكر الله - تبارك وتعالى - في هذه الآيات ، الاستغفار والتوبة بالفاظها أو بلوازمها ومسبباتها ، وهي عمل الصالحات والإيمان والتقوى ، وإقامة الكتب ، وهو العمل بما فيها ، وما أنزل من عند الله . ورُتبَ عليها من مفردات المتاع الحسن أنواعاً ، أشار إليها الشنقيطي في أول كلامه آنف الذكر .

وأكتفي بهذه الإشارات ، التي أرجو أن تكون موفية بالغرض الذي سبقت له . وانتقلُ أخيراً إلى الحديث عن النقطة الرابعة ، وهي: حشد المؤثرات الحسية المادية وتجسيد المواقف والأحداث .

حشد المؤثرات الحسية المادية ، وتجسيد المواقف والأحداث: وهذا من منهج القرآن في عامة ما يذكر من المعاني ويقرر من المبادئ ويحكى من الأحداث ، وفي مقدمة ذلك: السنن الإلهية .

= مرجعه من الحجج . انظر ترجمته في: الأعلام (٤٥/٦) ، وفي المجلد التاسع من (أضواء البيان) ، بقلم تلميذه الشيخ/ عطية محمد سالم .

(١) أضواء البيان (٩/٣) . وفي هذا السفر النفيس عشرات الأمثلة والشواهد .

ذلك أن «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة ومشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة . فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نضارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى ، ومثل يُضربُ . . . والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثة واقعة أو قصة ماضية»^(١) .

وقد أورد الأستاذ سيد قطب أمثلة كثيرة على كل ذلك ، أذكر منها (نماذج) للإيضاح .

قال - رحمه الله - : «ونبدأ بالمعاني الذهنية تخرج في صورة حسية :

يريد الله أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً ، وأن الدخول أو القبول أمر مستحيل . هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة . ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء ، والتي يتبعها المن والأذى ، لا تثمر شيئاً ولا تبقى . فينقل إليهم هذا المعنى المجرد في صورة حسية متخيلة على النحو التالي : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لِأُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء، ومعنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتُمْ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] (١).

هذه نماذج... وهاك نماذج أخر من الأمثال القصصية التي تُضرب في القرآن: ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لا جنة الآخرة - وها هم أولاء يبيئون في شأنها أمراً. فلننظر كيف يصنعون: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ [القلم: ١٧، ١٨].

فلندعهم على قرارهم، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل، حيث يخفون هم، فماذا يرى النظارة؟ هناك مفاجأة تتم خلسة، وحرمة خفية كحركة الأشباح في الظلام! ﴿فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] وهم لا يشعرون. والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين! وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام: ﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اعْبُدُوا عَلٰى حُرُوكُمْ إِن كُنتُمْ صَرِيمِينَ * فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ * أَن لَّا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْهِمُ مَسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢١ - ٢٤].

ليمسك النظارة الستتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم، وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين... ﴿وَعَدَّوْا عَلٰى حُرُوقِدَيْنِ﴾ [القلم: ٢٥].

وها هم أولاء يفاجأون، فليضحك النظارة كما يشاءون: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ [القلم: ٢٦] ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار، فقد ضللنا إليها الطريق! فلتأكدوا يا جماعة! ﴿بَلْ لَّمْ يَخْنُصْ حُرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]. وهذا هو الخبر اليقين (٢)... إلى آخر القصة والمشهد.

وبعد: فإن في خاصية التصوير بمعناه الأعم - كما عرفت آنفاً - من قوة التأثير، وشدة الجاذبية، ما يأسر النفوس الشاردة، على الرغم منها، وينفذ إلى أعماق القلوب

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤، ٣٥ بتصرف يسير.

(٢) التصوير الفني في القرآن، ص ٤٥. ومن أراد التوسع في معرفة هذا الجانب، فليقرأ الكتاب كله، ليعلم جيداً ما كتبت في هذا الباب.

الغافلة، بلا استئذان، فضلاً عما تجد فيه المشاعر المرهفة والنفوس المتقادة من متعة وحيوية .

ولننظر الآن إلى قيمة «خاصية التصوير والتجسيد» التأثيرية، من خلال استعراض شيء من النصوص المشتملة على بعض «سنن الله في الأمم» .

فمن ذلك: صورتان رائعتان من بين صور ومشاهد كثيرة، تجلّت فيهما روعة الإنجاء للمؤمنين، والإهلاك للمكذبين المتجبرين .

أولاهما: مشهد إنجاء نوح عليه السلام ومن آمن معه، وإهلاك الكافرين المكذبين .

والثانية: قصة نجاة موسى عليه السلام وبني إسرائيل وإغراق فرعون ومن معه .

وقد عرض القرآن القصتين كليهما في مواضع متعددة، على تفاوت بينها في الطول والقصر . لكن لعرض قصة نوح في سورة هود وقع خاص، كما أن لعرض مشهد نجاة موسى وغرق فرعون في سورة الشعراء إيقاعاً مختلفاً أيضاً .

فتعال إلى المشهد الأول، كما يعرضه النص القرآني .

قال تعالى: ﴿ وَأَرْحَمَ إِلَىٰ نُوْحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِطِ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ نَعْلَمُ مِن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثْقِلٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَّا مَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ يُحْمَلُ بِهَا وَمُرْسَهَاتُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَّصْعَقُنِي مِن الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَهُ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّخِمَا أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُصِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٣٦ - ٤٤] .

وهلم إلى المشهد الثاني .

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَذَا لَشَرٌّ مِّنْ قَبْلِهِمْ * وَإِنَّمَا لَنَا لَعَابُطُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتِ

وَعِيُونِهِمْ * وَكُنُوزٍ وَمَقَارِبٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَكَمُ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَجْنَيْنَا مُوسَى وَمَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨٦﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٨٦].

وأرى أن إعادة قراءة هذين النصين مرتين أو ثلاثاً بتأملٍ ، أحسن من قراءة أي تعليق عليهما!

* ومثل آخر لحشد المؤثرات الحسية وتجسيد المواقف:

ماذا تحسّ وأنت تقرأ - مثلاً - هذه الآيات من سورة النمل؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْسَيْئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطِغْرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَبِّرْ كُفْرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شِعْرَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٤٥ - ٥٢].

وكيف تجد نفسك غب تلاوة أو سماع هذه الآيات من سورة الأنبياء؟

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ * قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعْلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٨].

وأخيراً ، هذا هو القرآن يرسم صورتين وقعتا للأمة المسلمة في حياة الرسول ﷺ ،

وهما صورتان متكررتان ، لا حادثتان عابرتان .

إحدهما: حال معسكر المسلمين المخترق من داخله بطابور المنافقين وضعاف الإيمان ، يوم غزوة الأحزاب .

قال - جل وعلا - : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٣] .

«فأية حركة نفسية أو حسيّة من حركات الهزيمة ، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساق في حركته لحركة الموقف كله؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان ، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائعة . وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالاً شديداً . وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل ، يقولون: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ويقولون لأهل المدينة: لا بقاء لكم هنا . ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر . وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إن بيوتنا مكشوفة ، وليست في حقيقتها مكشوفة: ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . وقريب من هذه الصورة ، صورة أخرى للهزيمة أيضاً ، وهي كذلك صورة باقية ، لا حادثة مفردة^(١) .

تلك هي صورة الصف الإسلامي يوم غزوة أحد ، يوم انشمر عبد الله ابن أبي بجماسته من المنافقين ، وهم يومئذٍ ثلث الجيش .

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ

الذُّنُوبِ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْكُمْ غَنَائِكُمْ وَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ
 فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَيْنَاكُمُ عَمَّا يَخْفَى لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ
 وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ بَدْرِ الْقَمَرِ أَمْنَةً نَّعَاسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ
 قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ
 الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ
 لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
 وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤ - ١٥٢﴾ [آل عمران: ١٥٢ - ١٥٤].

يقول سيد قطب معلقاً على هذه الصورة: «ليخيل إليّ أني أشهد المنظر اللحظي بكل
 من فيه وكل ما فيه»^(١).

وبعد: فقد تبين لنا من خلال استعراض هذه النماذج أن القرآن ما احتفل بشيء من
 المؤثرات احتفاله بجانب التصوير والتجسيد والتخييل، للمعاني والأوصاف والأحداث،
 وقد تبينت شيئاً من قيمتها وطرفاً من تأثيرها.

ولعل هذا كان من أسرار عناية القرآن بهذه النقطة، بل كونها قاعدة أصيلة في
 منهجه في البيان والإقناع.

وأختم هذا المطلب - وهو خاتمة هذا الفصل - بخاتمة تتضمن أهم الأسباب التي ظهر
 لي أنها وراء إبراز القرآن لبعض السنن وعنايته بها أكثر من غيرها.

ولعل هذه الأسباب لم تعد خافية؛ إذ قد تضمنها الكلام السابق من بداية هذا
 الفصل، وهي مبثوثة عرضاً في ثنايا هذه الدراسة بصفة عامة.

ولكن في جمعها في مكان واحد، ثمرة قد لا تحصل حال تفرّقها. وسأذكر هاهنا ما
 يتيسر منها؛ رجاء حصول تلك الثمرة، فأقول:

* إن القرآن الكريم بواقعيته يذكر السنن بالقدر الذي تحتاجه الأمة ويكفل إصلاح
 شؤونها في الأولى والآخرة، وفق أهداف محددة وغايات مرسومة، فلا صدفة ولا
 فوضى. وكذلك يفعل في قضايا الاعتقاد ومسائل الأحكام والسلوك وغيرها.

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٤٥.

وهو بمنهجيته التربوية الفذة المتميزة لا يحشر السنن في مساحة، أو يجعل لها سورة أو سوراً بعينها، لا يذكرها إلا فيها. لا، بل جعل القرآن كله مساحة لها وميداناً لعرضها. كما أوضحت ذلك في أكثر من مناسبة.

وإذن، فثمة حكم وأسباب تقف وراء ذكر الأشياء - ومنها السنن - ابتداءً، ووراء عرضها بهذه الكمية وبتلك الكيفية.

فالكم يتعلق بالأشياء قلة وكثرة. والكيف يتعلق بما سوى ذلك، من تفصيل وإجمال، وأسلوب ومناسبة... ونحو ذلك.

وعما تجدر ملاحظته أنه قد تجتمع عدّة أسباب في السنة الواحدة، كل منها يصلح أن يكون سبباً. ومثل هذه السنن تستأثر بمساحة أكبر، وتعرض بكيفيات أكثر تنوعاً، وذلك منسجماً مع ما لها من أهمية.

وسأحاول الاقتصار على ذكر الأسباب دون الدخول في التفاصيل؛ تلافياً للتكرار. فمن هذه الحكم والأسباب:

أولاً: تعلق السنة بأمر كليّ: وهذه السنن يمكن الاصطلاح على تسميتها بـ «أمهات السنن».

وبديهي أن يُقال: إن من السنن ما يتعلق بأمر كليّ، ومنها ما يتعلق بأمر دون ذلك وهذا لا يعني - بحال - إغفال الأخيرة أو التهوين من شأنها، أو الشك في كونها سنّة تحمل كل خصائص سنن الله في الأمم، وإلّا هو التوازن في النظر إلى الأشياء، وفي التعامل معها.

ومن ذا الذي يسوي - مثلاً - بين قضية التوحيد الكبرى: الإيمان بالله وإفراده بالعبادة والكفر بالطاغوت، وبين مسألة من مسائل الأحكام التفصيلية؟

لا يستويان! لا في ميزان الله، ولا في واقع الحياة! وإن كانتا جميعاً مطلوبتين مأموراً بهما.

فالسنن التي ربّها الخالق العليم على تحقيق الإيمان به والإقرار له بالحاكمية وعدم منازعته خصائص الألوهية، أبدى القرآن وأعاد، وفصل ونوع في بيانها وإقرارها. ومثلها السنن المترتبة على جحد الإيمان وعدم الإقرار لله بالحاكمية، ومنازعته خصائص الألوهية.

ولهذا وذاك ، نجد أن السنن التي عرضت لجهود الرسل في الدعوة والبلاغ ، والسنن التي حرصت عاقبة ومصير الأمم الكافرة المشركة ، في مقدمة السنن كثيرة وتنوعاً .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .
 ﴿ ثُمَّ نُنزِلُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣] . ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَمَّا مَنذُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] .

وما أشبه هذه السنن مما تعلقه بأمر كليّ . وتحت هذه السنن الجوامع سنن تفصيلية كثيرة ، مرّ بك طائفة منها ، وسيمرّ بك طائفة أخرى بإذن الله .

ثانياً: الجهل بالسنن والغفلة عنها: وهذان سببان كبيران ، فإنّ الجهل بالسنن أو الغفلة عنها داء كثير من الأمم ، بل أكثرها ، والجهل من أعظم أسباب الغفلة .

تغفل الأمم عن كيفية عمل السنن في حياتها ، وعن مدى جديتها وعدم محاباتها . يغفلون عنها بسبب الجهل ، وبسبب الغرور ، وبسبب تقادم العهد واستقرار الأحوال . وبأسباب أخر .

ولهذا ، فالقرآن يداوي داء الغفلة بوسائل:

منها: الإعادة والتكرار مع التنوع ، والتعقيب بالعتب على الغافلين ونعيمهم إلى أنفسهم .

ومنها: التصريح بجديّة السنن وإطرادها وعدم تبدها ، مرة إثر مرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالنَّاسِءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ ، ٩٥] .

﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتِكُمْ مَّصِيْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

ثالثاً : ومن الأسباب التي تقف وراء كثرة عرض وتكرار بعض السنن: إنكارها والسخرية منها .

وهذا سبب قائم برأسه ، يختلف عن سابقه وهو الغفلة ، فإنّ الغفلة ذهول ، ودواؤه

التذكير والعتاب . والإنكار والسخرية جحد وإلغاء واعتراض ، ودواؤه إقامة الحجّة وإزالة الشبهة بتوالي البراهين وتنويع الحجج . ثم توعظ الأمة بنفسها - إن لم يغن شيء من ذلك - فتكون موعظة لغيرها وعبرة لمن بعدها .

نعم ، قد تنتهي الغفلة بأصحابها مع مرور الزمن إلى ضرب من ضروب الإنكار ، لكنها في الأصل شيء مختلف عنه .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبا: ٣٥] .

فسف الله حجتهم ودحض شبهتهم ، بقوله: ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبا: ٣٦ ، ٣٧] ... الآيات .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا مِنْ آيَةٍ لَنَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢] .

فأعذر الله إليهم بقوله: ﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] .

فلما لم يغن عنهم شيء من ذلك ، أخذهم الله بذنوبهم وكنل بهم: ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي آيَةٍ بِأَنْهَمُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] .
رابعاً: تنوع مظاهر السُّنة واختلاف الموجب لذكرها .

فمثلاً: سُنّة المدافعة ، لها مظاهر معينة حين تكون المدافعة مجرد صراع على أشياء الأرض ومتاعها بين الأمم الجاهلية ، فتتخلف أسباب النصر المعنوية ؛ من معية الله ونصره وتأييد القلّة على الكثرة ، وتسخير جنود السماوات والأرض ... ونحو ذلك . ولها مظاهر متميزة حين يكون الصراع مدافعة بين الحق والباطل ... هذا ما أعني بتنوع المظاهر .

وأعني باختلاف الموجب لذكرها: أن القرآن اشتمل على كثير من الأحداث والقصص ، وبُسط فيه كثير من الأحكام والآداب ، وغيرها ... والقرآن يذكرها ويبسطها لأغراض شتى ، ومن بين تلك الأغراض تقرير السنن ، فهذا هو اختلاف الموجب لذكرها .

هذه هي أهم الأسباب التي لاح لي أنها في مقدمة الأسباب التي تقف وراء تنوع عرض بعض السنن وتكرارها . وهناك أسباب أُخر ، وهي إما داخلة فيما ذكر ، أو مما عزب عن الذهن ، والله المستعان .


وبعد هذه الجولة التي تعرّفنا فيها على :

خصائص سنن الله في الأمام .

وتبيئًا أشياء في منهج القرآن في عرضها ، فإنّ علينا أن ندرس المجالات التي تعمل السنن الإلهية في الأمام من خلالها .

وهذا هو موضوع الباب الثاني من هذه الدراسة ، وهو : (مجالات سنن الله في

الأمام) .



الباب الثاني

مجالات سنن الله في الأمم

وفيه تمهيد ومقدمة وخمسة فصول:

الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية.

الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص.

الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد.

الفصل الرابع: مجال الجزاء.

الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة.

تمهيد ومقدمة

لا بد قبل الدخول في تفصيل مجالات سنن الله في الأمم، من تمهيد نتعرف من خلاله على المقصود بهذه المجالات. ومقدمة تتضمن الأسس التي لا بد من توافرها في أي تجمع بشري ليستحق هذا الوصف الاصطلاحي للأمة، وليكون مؤهلاً لتحمل المسؤولية وتلقي الجزاء.

أمّا ما يتعلّق بالمقصود بـ «مجالات سنن الله في الأمم» في هذا الكتاب، فإنني أقول:

المجالات: جمع مجال، وهو مكان الجولان وظرفه وزمانه. يُقال: جال الفرس في الميدان جولاناً^(١)، فالفرس جائل، والميدان مجال لجولانه^(٢). وأجالوا الرأي فيما بينهم^(٣): أداروه وصرّفوه بغية الوصول إلى أرشده. ولم يبق له مجال في هذا الأمر^(٤)، أي: لم يبق له مكان مناسب يتحرّك فيه، ولم يبقَ لرأيه موضع مناسب.

وعلى هذا، فقولنا: مجالات سنن الله في الأمم، معناه: المساحة التي تتحرك وتتحرّم فيها السنن الإلهية في حياة الأمم. وهذه المساحة تشمل المكان والزمان^(٥)، وتشمل عموم الأحوال^(٦).

وإذا كان شمول السنن الإلهية للزمان والمكان لا يحتاج معرفته إلى كبير عناء، فإن شمولها لأحوال الأمم منذ بدء قيامها ونهوضها، وإلى لحظة سقوطها وانهارها، وما بين ذلك. إن شمولها ذلك كله، يحتاج إلى بسط وبيان، وإلى رصد وتأمل واستدلال، ولا تكفي فيه الإشارة المجرّمة.

ومن هنا كان هذا الباب؛ تلبية لهذه الحاجة، وشرحاً لتلك الإشارات المجرّمة التي مرّت بنا في فصل «خصائص سنن الله في الأمم».

وقد جعلتُ هذا الباب خمسة فصول، وهي تمثل - فيما ظهر لي - المجالات التي تتحرّك وتتحرّم فيها السنن الإلهية في حياة الأمم من جهة.

(١) أساس البلاغة، للزمخشري، واللسان مادة (جول).

(٢) وأصل (مجال) مجول، نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفاً.

(٣) أساس البلاغة، مادة (جول).

(٤) أساس البلاغة، مادة (جول).

(٥) وقد أوضحتُ معنى شمول السنن للزمان والمكان فيما مضى. انظر: (فصل خصائص سنن الله في الأمم) - خاصة العموم والشمول.

(٦) وهذا الجانب هو موضوع هذا الباب.

كما أنها تمثل أحوال الأمم في تقلباتها وتحولاتها صعوداً وهبوطاً قياماً وسقوطاً ، من جهة أخرى .

وهي على الترتيب التالي:

- الأول: مجال الوقاية والحماية .
- الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص .
- الثالث: مجال التحذير والتهديد .
- الرابع: مجال الجزاء .
- الخامس: مجال الكشف والإبانة .

وسوف أعرض لكل مجال من هذه المجالات بشيء من البسط ، ثم أتبع ذلك ببعض السنن ، التي أراها أشبه بهذا المجال أو ذاك ، بصورة أكثر تفصيلاً .

ولعل هذه الإشارة كافية في تبيان المقصود بعنوان الباب .

أمّا المقدمة ، فقد أفردتها لبيان أسس بناء الأمة وتكونها ، وتشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: في الأسس التي لا بد منها لتكون الأمة وتأهلها لممارسة الحياة بوصفها أمة .

والمبحث الثاني: في الوسائل والأسباب التي أقام الله بها حجته على هذه الأمم . وهي كالمقدمة لفصول هذا الباب . وإنيكها في الصفحات التالية:

المبحث الأول

وفيه أذكر أهم الأسس التي إذا ما توافرت في أمة ما من الناس، أصبحت مؤهلة لانطباق وصف الأمة الاصطلاحي عليها، وبالتالي صارت محلاً لانطباق سنن الله في الأمم عليها في كل مجالات حياتها.

فمن هذه الأسس: وجود الكيان الجماعي:

وجود الكيان الجماعي شيء جعله الله في طبائع البشر وغرائزهم، لا يكاد يرفضه أو يستحسن الوحدة عليه إنسان سوي، ولهذا يُقال: الإنسان مدني بالطبع. وقد اقتضت سنة الله في الأمم أن هذا الكيان الجماعي يتكوّن في دوائر، كل واحدة منها تمثل لبنة في بنية هذا الكيان. أولها: دائرة التزاوج بين الجنسين.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والثانية والثالثة: دائرة التجمع على أساس القبائل والأنساب، وعلى أساس المصالح المشتركة.

قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّاَنَا خَلْقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات ١٣] (١).

ومن هذه الأسس: الاستخلاف الطبيعي لهذا الكيان الجماعي: وأعني به: الاستخلاف في الأرض، وهو استخلاف لا بد منه، لتأخذ الأمة دورتها في مضمار الحياة الجماعية، وتمارس وظائف الأمة وواجباتها. وبدون هذا الاستخلاف للكيان الجماعي، لا تدخل الجماعة من بوابة التاريخ كامة، وإنما تدخل كأفراد.

وهذا النوع من الاستخلاف هو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]. وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فإن دلالة هذه الآيات على معنى الخليفة من قوم لآخرين سابقين لهم ، هو الظاهر المتبادر . وليس فيها بالضرورة دلالة على معنى الاستخلاف عن استحقاق وجهه وعمل سابق . فإن هذا الأخير - الاستخلاف عن استحقاق - وهو التمكين ، هو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥] . وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] . . . ونحو ذلك من الآيات .

وبهذين الأمرين ؛ وجود الكيان الجماعي ، ومنحه الفرصة واستخلافه في الأرض ، يمكن أن تتكون الأمة واقعاً ؛ أي: تكون كياناً قائماً متجسداً ، ويبقى بعد ذلك الأساس الثالث والأهم من أجل أن تُحقق الأمة تكونها المعنوي ، بعد أن تحقق تكونها المادي .

وهذا الأساس هو: إقامة الحجة الإلهية على الأمة بالبيان الشافي والإنذار .

وعند هذه المرحلة ، تواجه الأمة أو الجماعة ، التحدي الأكبر والأخطر في حياتها . وقيام الحجة الإلهية على الأمة - أية أمة - يحصل إما على يدي رسو لها المبعوث إليها مباشرة ، أو على يدي أتباعه المؤمنين به من بعده .

ويعد هذا الأساس فيصلاً بين مرحلتين في حياة الأمم ، فإنها قبل ذلك لا يعاقبها الله عقوبة من جاءت الرسالة فكذب بها ، أو جحدها وأعرض عنها .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] . وقال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] . وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرَبَةٍ إِلَّا لَمَّا سَنَدُورٌ * ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ ، ٢٠٩] . وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَارَ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ [القصص: ٥٩] . وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [يونس: ١٣] .

وأخيراً: انقسام محتوم على أساس الهدى والضلال:

وهو انقسام لا بد منه بعد وجود الداعي ، وقيام الحجة الإلهية على يديه . لا بد أن تنقسم الأمة وينقسم القوم - هذه المرة - على أساس الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، إلى مصدقين بالحق متبعين له ، ومكذبين به معارضين له . ثم تتوالى سنن الله بعد ذلك تعمل عملها في الفريقين .

ولهذا ، أخبر - تعالى - بوجود الانقسام في الآية التي ذكر فيها بعثة الرسل إلى الأمم ، وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۗ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۗ ﴾ [النحل: ٣٦] . وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۗ ﴾ [سبأ: ٣٤] . وقال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهَا مَن آمَنَ وَمِنْهُمْ مَن كَفَرَ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] . وقال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ... والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وبهذا الانقسام تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع الحضاري على مستوى الأمة ، بعد اكتمال مقوماتها .

وفي الصفحات التالية ، أذكرُ بالتفصيل ، كيف أن الله - تعالى - قد أقام الحجَّة على الخلق والأمم ، وأهلهم لممارسة الخلافة في هذا الدنيا .

المبحث الثاني

في أن الله تعالى قد أقام الحجّة على خلقه

قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] . وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] .
تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بتكوينه ووظيفته، وبالتالي بمكانته في نظام هذا الكون، ودوره الذي كلف القيام به .

وإذا كان هذا الكون كله بما فيه ومن فيه، مخلوقاً بالحق وللحق، عابداً لله مسبحاً بحمده، فإنّ ماعدا الثقلين يؤدي هذا الواجب بصورة قهرية: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] .

أمّا الإنسان، فإنّه يؤدي هذا الواجب بصورة مختلفة تماماً، بصورة تتفق وتكونه المتميز ووظيفته في هذا الكون، ومكانته بين سائر المخلوقات .
إنّه مخلوق ليكون خليفة في الأرض .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] .
متحملاً لأمانة التكليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

مستولاً عن كل حركة وكل خطوة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] . ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ * وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا * وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] .

وسخر له كل ما يحتاج إليه في أداء وظيفته: ﴿وَسَخَّرْنَاكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَتَنَةً﴾ [الجاثية: ١٣] . ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [لقمان: ٢٠] .

وهو - أي الإنسان - إلى جانب ذلك كله ، عاقل حر مختار ، ذو نوازع وعواطف ورغبات وشهوات ، يستطيع بما أوتي من أمانة أن يرتفع إلى القمة السامقة ، وأن يتخلى عنها فينحدر إلى المستقع الآسن .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦] .

وقد ابتلاه الله بهذا كله وبما هو أعظم منه ، بعدوه إبليس الذي حمل على عاتقه مهمة إغوائه والقعود له بكل سبيل وعلى كل صراط .

﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] .

وقال تعالى عن إبليس أنه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢ ، ٨٣] . وأنه ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ، ١٧] .

ولما ابتلاه - سبحانه - لم يتركه ، وقد اختار له هذا السبيل . لم يتركه وحده يجتهد في أداء وظيفته ، ولو تركه - وحاشاه أن يكون فعل ذلك - لعاد الإنسان إليه معتذراً بجهله ، محتجاً بضعفه وقوة عدوه متذرعاً بشتى الذرائع عن كل خطأ يرتكبه ، سواء كان هذا الاعتذار في هذه الدنيا ، أم هناك في الدار الآخرة .

لم يتركه - سبحانه - بل بيّن له أعظم بيان ، كيف يعمر أرضه؟ كيف يعبد ربه ويجاهد عدواً يكيد له ، وهداه إلى غايته من خلقه وإيجاده ، بياناً وهداية جلت عن الوصف ، أعذر بها إليه ، وقطع حجته لديه .

وبسط ذلك يطول ، ولكني أذكر جملاً من ذلك مما جاء في القرآن الكريم ، وذلك من خلال تأمل ثلاثة جوانب:

الأول: التجربة الأولى للبشرية: وهي تجربة أبي البشر آدم - عليه الصلاة والسلام - مع عدوه إبليس في الجنة .

الثاني: الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

الثالث: بعثة الرسل وإنزال الكتب . وهي أهم هذه الجوانب ، وعليها مدار الجزاء .

الجانب الأول: التجربة الأولى لآدم عليه السلام مع عدوه إبليس - لعنه الله.

وفي هذه التجربة تكشفت للإنسان أشياء كثيرة تتعلق بشخصه، وطبيعة عدوه، ومصدر التلقي الحقيقي والزائف، ونهاية الإنسان، ومصيره الذي ينتهي إليه بناءً على اختياره... و...

ويكفي في تصور أبعاد هذا التجربة ومعرفة أحداثها، أن نقف عليها من خلال النصوص القرآنية، فهي أصدق خبراً وأدق تفصيلاً وأروع بياناً.

ومما قصَّ القرآن من خبر هذه التجربة الفريدة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّسَ عَلَيْهِ إِبْنَهُ هُوَ التَّوْبَةُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٩].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يَخْرِيَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقٍ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا

عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنْ كُنَا لِنَنْتَصِحَ بِكُمْ * فَذَلَّلْنَاهُمَا
 يُرَوِّدُهُمَا فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ
 أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
 وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
 حِينٍ ﴿ [الأعراف: ١٩ - ٢٤] .

وهي تجربة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان كلها «في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء»^(١).

إن استقبال الإنسان حياته الجديدة على هذه الأرض مزوداً بتجربة حيّة معاشة، لا من قبل أحد، بل من قبله هو نفسه. إن ذلك ينقذه من كثير من الأخطاء، ويمنحه قدرة فائقة في فهم طبيعة الحياة الجديدة بكل ما فيها من خير وشر، وهذه مجد ذاتها حجة كبرى لله على هذا الإنسان.

يقول الدكتور محمد تقي أميني: «أسكنه - أي آدم - الجنة مدة للتدريب، حتى يفهم جيداً نظامها، ويلم ببعض مشاريع العمران والرفعي، ويتأهل لأداء مسئوليات الخلافة»^(٢).

ومن دلائل إقامة الله الحجة على خلقه:

الجانب الثاني: وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والصواب أنها فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها يوم أخذ عليهم الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والاستعداد لقبول العقائد الصحيحة^(٣).

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، على الصحيح من أقوال السلف وأئمة التفسير^(٤)، فإنه - تعالى - امتدح الفطرة

(١) في ظلال القرآن (٦٠/١).

(٢) النظام الإلهي للرفعي والآنحطاط، ص ١٤.

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤٥/٤).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٤٠/٢١)، وابن كثير (٤٣٢/٣).

ها هنا بإضافتها إليه ، وأمر رسوله ﷺ بملازمتها ، ولو لم تكن تعنى «معرفة وتوحيده وأنه لا إله غيره» (١) ، وإنما كان غايتها الخلو من المعرفة والإنكار ، من غير أن تكون مقتضية واحداً منهما (٢) . . . لو لم تكن إلا كذلك ، ما استحقت مدحاً ، فإن كل ما كان قابلاً للمدح والذم على السواء ، لا يستحق مدحاً ولا ذماً ، والله يقول: ﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] .

ويشهد لهذا ، ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ كُلِّهِمْ فَاجْتَانَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا» (٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُوَلَّدُ عَلَيَّ الْفِطْرَةَ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تَنْتَجِ الْبَهِيمَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا» ، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿ فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] (٤) . وفي لفظ آخر: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَيَّ هَذِهِ الْمَلَّةُ» (٥) .

فدلَّت الآيات والأحاديث على أن الخلق مفلطرون في أصل خلقهم على توحيد الله ومعرفة (٦) ، وأنهم يولدون على أكمل حال من جهة فطرتهم كما تنتج البهيمة جمعاء مجتمعة الخلق ، وهو كمال محمود ، وضد ذلك فساد فطرتهم بسبب الأبوين أو غيرهما ، وهذا نقص مذموم يشبه أيضاً ما يطرأ على البهيمة من جدع الأنف ، فكيف تكون قبل النقص مثلها بعده (٧) ؟

ومن هنا ، فالفطرة دليل على خالقها وباريها ، وحجة الله على خلقه ؛ لأن معناها قبول الحق ، والميل إليه واستحسانه ، ورد ما يخالفه والتجانف عنه وكرهيته إذا خلي بينها

(١) تفسير ابن كثير (٤٣٢/١) .

(٢) انظر: الفتاوى (٢٤٣/٤) .

(٣) صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، ح (٢٨٦٥) .

(٤) فتح الباري (٢٤٥/٣) ، كتاب الجنائز ، باب: ما قيل في أولاد المشركين . وصحيح مسلم بشرح النووي (٢٠٩/١٦) في القدر ، باب: معنى كل مولود يُوَلَّدُ على الفطرة ، ح (٢٦٥٨) .

(٥) وهو عند مسلم . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٠/١٦) . ورواه البغوي بهذا اللفظ ، انظر: شرح السنة (١٥٩/١) .

(٦) انظر: درة تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية (٤٨٨/٨) وما بعدها .

(٧) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٣/٤ ، ٢٤٤) .

وبين ذلك . وهذا هو الذي جاءت به الشرائع وبعثت به الرسل وأنزلت من أجله الكتب .

الجانب الثالث: بعثة الرسل وإنزال الكتب.

اقتضت حكمة الله - جل وعلا - ورحمته بعباده ، أن لا يكلفهم إلى ما أودع في فطرتهم من معرفته والتوجه إليه ومحبته ، بل أرسل إليهم من يدهم إليه ، ويبصرهم بهداه الذي يأتي من عنده ، ويحفظ عليهم فطرتهم التي فطرتهم عليها ، وأعلمهم أن من اتبع هذا الهدى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ، ٣٩] .

ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب في كل أمة بالهدى والنور ، وجعل لهم من السلطان المادي والمعنوي ما يبلغون بواسطته ما أنزل إليهم ، وجعل الثواب في الدارين مبنياً على متابعتهم والإيمان بهم وبما جاءوا به ، وأرصد العقوبة لمن خالفهم وكفر بما جاءوا به ، ولم يجعل عقوبة على ما سوى ذلك من آياته وبراهينه الدالة على وحدانيته سبحانه . وهذا غاية العدل ومنتهى الحكمة والرحمة .

ولهذا فإنه - تعالى - أخبر أنه إنما يحاسبهم ويمحاسبهم على ما يأتيهم من عنده بقوله: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَمَا يَا تَيْتِكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ، ٣٩] . وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ * وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣ ، ١٢٤] .

ثم لم يترك أمة أو قرية بلا رسول يتلو عليهم آياته ، وهي الهدى الذي وعد أنه يأتي من عنده ، فليس أمر عبادته وطاعته متروكاً لاجتهادهم ، بل تكفل - سبحانه - ببيان كيفية ذلك .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] . وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] . وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] . وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وأخبر - سبحانه - أنه لا يعذب أمة غافلة، ولا يؤاخذهم حتى يبعث إليهم رسولا فيكذبوه ويعاندوه، وهذا عام يشمل عذاب الدنيا والآخرة، على القول الراجح^(١). وهو اللائق بحكمته وعدله - جل وعلا^(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

«غيا سبحانه انتفاء التعذيب ببعثة الرسول ﷺ، والمعنى: حتى يبعث رسولا فيكذب ولا يؤمن بما جاء به من عند الله.

وانتفاء التعذيب أعم من أن يكون في الدنيا بالهلاك وغيره من العذاب، أو في الآخرة بالنار، فهو يشملهما. ويدل على الشمول، قوله في الهلاك في الدنيا بعد هذه الآية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَرَّفْنَا فِيهَا مَرْفَقَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدِمْنَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وأي كثيرة نص فيها على الهلاك في الدنيا بأنواع من العذاب حين كذبت الرسل. وذهب الجمهور إلى أن هذا في حكم الدنيا؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة إليهم والإنذار^(٣).

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ [الأنعام:

١٣١].

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]؛ أي: أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فليس الإنذار خاصا بعذاب الآخرة^(٤).

وقال لنبية ﷺ: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْذَرْنَا أباؤَهُمْ فَهُمْ غَفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا

مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ أي أنه - سبحانه - لا يهلك القرى والمدائن الكافر أهلها، حتى يبعث إليهم رسولا يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، ولا يهلكهم بعد ذلك إلا بسبب ظلمهم^(٥).

(١) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/ ٤٩٢) وما بعدها.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (١٦/ ٦) بتصرف يسير.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٩٨).

(٥) انظر: تفسير البغوي (٣/ ٤٥١).

يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزِفَ﴾ [طه: ١٣٤].

وقوله في سورة القصص: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

بل إنه - سبحانه - لا يحكم بالضلالة على من فعل شيئاً مما يكرهه - سبحانه - غير عالم بكراهة ذلك، حتى يبين له ما يجب عليه أن يتقيه مما يكرهه الله، ثم يكون منه التعدي بترك المأمور أو فعل المنهي، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بُيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^(١) إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: ١١٥].^(١)

وأما في الآخرة، فلا نه - سبحانه - ذكر في آيات كثيرة «أنه لم يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار والإنذار على السنة الرسل، فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿كَلَّمَآ أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلرِّيَابُ كَرُنَدِيرٌ﴾ قالوا بل قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ [الملك: ٨، ٩].

ومعلوم أن قوله جل وعلا: ﴿كَلَّمَآ أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ﴾ يعم جميع الأفواج الملقين في النار. قال أبو حيان^(٢) في البحر: ﴿كَلَّمَآ﴾ تدلُّ على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين^(٣).

ومن ذلك: قوله جل وعلا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَنُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].^(٤)

فقوله في هذه الآية: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام لجميع الكفار. ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾... الآيات إلى قوله

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٥٣/١١). وتفسير ابن كثير (٣٩٥/٢).

(٢) محمد بن يوسف، أبو حيان، الأندلسي، الغرناطي، إمام في اللغة والنحو، أقرأ في حياة شيوخه، وسمع الحديث بالمغرب والشرق. قال الصفيدي: لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل، أو يكتب أو ينظر في كتاب. وقال الأديبي: مال إلى مذهب أهل الظاهر. وتفسيره البحر المحيط، تفسير عظيم القدر، جمع فيه من المسائل والقراءات ما لا يكاد يوجد في غيره. توفي بالقاهرة بعد أن كُفَّ بصره، سنة (٧٤٥هـ). انظر: طبقات المفسرين، للداودي (٢٨٧/٢). والأعلام (١٥٢/٧).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٦/٦).

(٤) في معنى هذه الآية، الآية: ١٣٠ من سورة الأنعام.

تعالى: ﴿أُولَئِكَ نَعَمَّرَكُم مَّا تَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وهذا أيضاً عام في جميع الكفار؛ لأن لفظ ﴿الَّذِينَ﴾ من صيغ العموم^(١).
 أمّا الذين لم تبلغهم دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم أهل الفترات ، فإنّ القول الذي تطمئن إليه النفس وتجتمع عنده الأدلة: أنّهم معذورون في الدنيا، وأمّا في الآخرة فإنّ الله يمتحنهم إما بنار يأمرهم باقتحامها ، فمن اقتحمها دخل الجنة ، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا . ومن امتنع ، دخل النار وعُدّب فيها ، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا ؛ لأنّ الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل^(٢) . أو يرسل إليهم رسولاً . «وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا ، فإنّه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة»^(٣) . أو بغير ذلك ، فإنّه لا حجر على مشيئة الله وقدرته ، كما أنه لا شك في عدل الله ورحمته وحكمته - سبحانه وتعالى .

وقد عرض ابن القيم - رحمه الله - لهذه المسألة في كتابه «طريق المهجرتين» ، وبينها بياناً شافياً ، وبنائها على أربعة أصول ، هذا ملخصها :

قال: «أحدها: أنّ الله - سبحانه وتعالى - لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ،

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] .

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين: أحدهما: الإعراض عن الحجة ، وعدم إرادتها والعمل بموجبها . الثاني: العناد لها بعد قيامها ، وترك إرادة موجبها . فالأول: كفر إعراض ، والثاني: كفر عناد . وأمّا كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها ، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل .

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص .

الأصل الرابع: أن أفعال الله - سبحانه وتعالى - تابعة لحكمته التي لا يخجل بها ، وأنّها مقصودة لغايتها الحمودة ، وعواقبها الحميدة . وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه

(١) أضواء البيان (٤٧٢/٣) بتصرف يسير واختصار .

(٢) انظر: أضواء البيان (٣٨١/٣) ، وتفسير ابن جرير (٥٤/١٥) ، وتفسير ابن كثير (٢٨/٣) . والأدلة لهذا القول مبسطة في أضواء البيان (الموضع السابق) ، فليراجعها من شاء .

(٣) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية (٣٠٨/١٧) . وانظر: تفسير ابن كثير (٢٨/٣) وما بعدها .

الطبقات»^(١).

ولما كانت بعثة الرسل وإنزال الكتب، من أعظم حجج الله على خلقه، وأجل منته عليهم، جعل - سبحانه - الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة مشروطاً بها، مداره عليها، واقتضت حكمته - سبحانه - في هؤلاء الرسل أموراً تجعلهم أقرب إلى قلوب خلقه، وأدعى إلى قبول أقوامهم لهم، وجعل لهم من السلطان والبرهان المادي والمعنوي ما يبهر العقول، ويخصم الخصوم، زيادة في الحجة وإعذاراً إلى الخلق والأمم.

* فمن ذلك: أن الله جعلهم بشراً من جنس أقوامهم، بل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

قال الحافظ ابن كثير عند هذه الآية: «هذا من لطفه - تعالى - بخلق أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم...»^(٢).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال مثل ذلك في صالح، ولوط، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وعلى إخوانهم من النبيين. وأدلة ذلك في القرآن كثيرة معلومة^(٣).

وهذه المئة التي امتن الله بها على خلقه من جعل رسلاً منهم ليفهموا عنهم، جعلها الكافرون المعاندون مدعاة للطعن في صدق المرسلين، وسلماً إلى تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

وقال عن قوم نوح مبيناً حجتهم في تكذيب نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]. وقال عن أصحاب اليكة قوم شعيب عليه السلام:

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين، ص ٧١٥ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢٢/٢).

(٣) ومن يقرأ قصص الأنبياء مع أقوامهم في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، وغيرها، يجد ذلك.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الشعراء: ١٨٥ ،
[١٨٦] ... إلى غير ذلك من الآيات .

* ومنها: أن الله تخير هؤلاء الرسل من بين أقوامهم فجعلهم خيارهم نسباً وخلقاً .
﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] . وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
[آل عمران: ٣٣ ، ٣٤] . وقال: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥] .

وقد كان معلوماً فضل هؤلاء الرسول عند أقوامهم قبل أن يدعوهم إلى الله ،
وينهونهم عما كانوا عليه من الكفر والشرك به ، كما قال تعالى عن ثمود وما أجابوا به
نبيهم صالحاً ﷺ: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] .

قال السعدي^(١) - رحمه الله - عند هذه الآية: «أي قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل
والنفع ، وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن
الشيم ، وأنه من خيار قومه ، ولكنه لما جاء بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة ،
قالوا هذه المقالة التي مضمونها: أنك كنت كاملاً ، والآن أخلفت ظننا فيك وصرت بحالة
لا يرجى منك خير ، وذنبه ما قالوه عنه: ﴿ أَتَنْهَيْتَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود: ٦٢]»^(٢) .

وأثنى على خليله إبراهيم وبنيه من الأنبياء فقال: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾
[سورة ص: ٤٥ - ٤٧] . وقال: ﴿ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [سورة
ص: ٤٨] ... إلى غير ذلك من الآيات .

ولهذا ردَّ الله على المشركين زعمهم أنهم أهل لمقام النبوة وشرفها ، أو أن من
يرشحونه وفق أهوائهم ومقاييسهم الرديئة الفاسدة أهل كذلك ، بقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، التيمي ، الفقيه ، الأصولي المفسر ، صاحب التصانيف البديعة ، له نحو ثلاثين كتاباً في
التفسير والعقيدة والحديث والفقه والمعارف العامة ، من أهالي عنيزة ، مولده فيها ، وبها توفي سنة (١٣٧٦هـ) . انظر:
الأعلام (٣/ ٣٤٠) .

(٢) تفسير السعدي (٣/ ٢٠٦) .

آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ * أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

* ومن الأمور التي جعلها الله لرسوله:

أنه جعل شرائعهم موافقة للحال التي عليها أمهم، محققة لمصالحهم، فيها من البشارة ما يطعمهم ويرغبهم، ومن النذارة ما يزرهم ويخوفهم، فمن لم تحمله الرغبة على الطاعة والاستجابة، أزعجته النذر والزواجر إليها.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال عيسى ابن مريم ﷺ لبني إسرائيل: ﴿وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَلْحَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهؤلاء الأنبياء مع أن شرائعهم شتى، تبعاً لأحوال أمهم، فإن دينهم واحد هو الإسلام، وهم متفقون في أصول الشرائع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

* ومنها: أنه سبحانه أعطاهم من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات ما يشهد لهم

بالصدق.

وهذه البيّنات والآيات ، قد يعطيهم الله إياها ابتداءً ، أو بعد تعنت الأقوام وطلبهم أن يأتيهم هؤلاء الأنبياء بها ، أو يجمع لهم بين هذا وهذا .

قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

فالكتاب المنزّل بالحق هو جنس يشمل الكتب المنزلة جميعاً ، وهو آيات بينات ، يعني: واضحات في الفاظها وفي دلالتها ومقاصدها^(١) .

وقال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنذِرُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩] .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢) .

وقد ذكر الله في كتابه تعنت الأمم وإبائها أن تؤمن برسالتها ، حتى يأتي هؤلاء الرسل بآيات موافقة لما طلبوا ، وأن الله قد أيد رسله ، وخرق لهم العوائد بغية تأييدهم وتصديقهم ، حتى يقيم الحجّة على المكذبين .

قال تعالى في ثمود وما طلبوه من نبي الله صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٥] .

وقال في قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧] .

(١) انظر: تفسير البغوي (١/١٨٦) ، وتفسير ابن كثير (١/٢٥٠) .

(٢) انظر: فتح الباري (٣/٩) ، حديث رقم (٤٩٨١) . وصحيح مسلم بشرح النووي (١٨٦/٢) .

وقال في فرعون موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَيْنِ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ * قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِئْسَ وِثْقًا يُثْقَلُونَ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَرَزَقَ يَدَيْهِ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩ - ٣٣] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وأخبر - جل وعلا - أنه ما من نبي يأتي بآية إلا بإذن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨] .

وأخبر أن جميع الأقوام كذبوا بالآيات ، وأنه يرسل بها للتخويف ، يخوف بها عباده: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَايَاتُنَا مُّودَّةً مُّبِينَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] .

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها - في حديث كسوف الشمس - عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، لَكِنَّهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ»^(١) .

وما أقام الله به الحجّة على عباده: أنه جعل الهدى والحق الذي جاءت به الرسل هو سبب النجاة في الدنيا والآخرة .

فجعل إصلاح الدارين والفوز فيهما منوطاً باتباعه والإيمان به ، وجعله شاملاً لكل خير فيهما ، فما من خير في الدنيا إلا كان فيما جاءت به الرسل دلالة عليه وأمرٌ به ، وما من شرٍ إلا وفيما جاءت به الرسل تحذير منه .

أي أنه - سبحانه - جعل ما ينجيهم في هذه الدنيا هو عين ما ينجيهم في الدار الآخرة ، إذا كان مؤسساً على تقوى من الله ورضوان ، وأخلصوا القصد واتبعوا سنن المرسلين فيه^(٢) .

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ، ٣٩] .

وقال: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنَّا

(١) انظر: فتح الباري (٢/٥٣٦)، حديث رقم (١٠٤٨) . وصحيح مسلم بشرح النووي (٦/٢٠٤) .

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٣٩٤) .

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتَسِينُنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي * [طه: ١٢٣ - ١٢٦] . . . والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وثمره ذلك ، أن الله لم يجعل للعالم عملاً يصلحها ثم لا يكون نافعاً في الدار الآخرة ، إذا حسن قصد صاحبه وكان مؤمناً ، كما لم يجعل للآخرة عملاً ينجي فيها ثم هو لا يصلح شأن الإنسان في هذه الدنيا ، بل الأعمال النافعة إذا أريد بها وجه الله فهي قرينة إليه ، سواء كانت عملاً دنيوياً أم عملاً آخروياً ، وتلك هي العبودية الحقة ، وهي أكمل أنواع العبودية^(١) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ * إِنْ اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] .

وإذا علمنا أن الله قد أعذر إلى خلقه بما ذكر ، وبغيره ، مثل أنه - سبحانه - لا يكلف نفساً إلا وسعها^(٢) ، وأنه ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء: ١٥]^(٣) ، وأن لكل نفس ﴿ مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]^(٤) . . . إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون فيه عذر لمعتذر أو حجة لمحتج ، لو أن الله - تعالى - لم يفعله كما فعله .

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخالق - تعالى - أرسل الرسل ، وأنزل الكتاب ، وأنذر العباد ، وأزاح عنهم ، وفعل بهم من الأسباب التي بها يتمكنون من الطاعة أعظم مما يفعله كل أمر آخر غيره بالمأمورين ، فليس أحد أزاح علل المأمورين أعظم من الله ، فلا تقوم حجة أمر على مأمور إلا وحجة الله على عباده أقوم ، ولا يستحق مأمور من أمره ذمًا ولا عقاباً لمعصيته إلا واستحقاق عصاة الله لأمره أعظم

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٣٩٥) وما بعدها .

(٢) والآية بنصها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

(٣) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء ، والآية ١٨ من سورة فاطر .

(٤) والآية بنصها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ قَسِينَا أَوْ أَغْلَبْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحِثْ عَلَيْنَا مَا أَثَارَتَنَا بِرَبِّنَا وَأَعِظْ بِنُورِ قُدُّوسٍ قَلِيلٍ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

استحقاقاً وذكماً. ولا ييسر أمر على مأموريه ويرفع عنهم ما لا يطيقونه إلا والله تعالى أعظم تيسيراً على مأموريه، وأعظم رفعاً لما لا يطيقونه عنهم. وكل من تدبّر الشرائع، لاسيما شريعة محمد ﷺ، وجد هذا فيها أظهر من الشمس»^(١).

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغبر من الله عز وجل، من أجل ذلك حرّم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فترلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه، ومنا من يتتصل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إله لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...» الحديث^(٣).

والله - سبحانه وتعالى - يريد من هذا الإنسان، فرداً أو جماعة أو أمة، أن يتجه بكليّته إليه رغبة ورهبة، في المشاعر والسلوك، وفي العبادة والمعاملة، فهذا وحده هو الحجّة المقبولة عنده؛ لأنّه - سبحانه - هو الذي جعل ذلك حجّة وعذراً، وأخبر أن ما سواه لا يجدي على أهله شيئاً.

فله - سبحانه - سابغ الحمد وعظيم الثناء على هذه الرحمة الواسعة والحجّة البالغة.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/٤٧٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/٣٠١)، حديث رقم (٤٦٣٧). وصحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٧٧).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٢٣٢)، قوله: «ومنا من يتتصل» هو من المناضلة وهي: المراماة بالنشاب. قوله: «ومنا من هو في جشره»؛ أي: مع دوابه، وأصل الجشرة: الدواب التي ترعى وتبيت في مكانها حيث ترعى. انظر: النووي على مسلم، الموضوع السابق. وانظر: تعليق الألباني على مختصر صحيح مسلم، للمنذري، ص ٣٢٧.

الفصل الأول

مجال الحماية والوقاية

مرّبنا في المقدمة السابقة أن الأمة بعد تكونها المادي والمعنوي ، وإقامة الحجّة عليها ، تكون مؤهلة لتحمل مسؤوليات الأمة ذات الكيان الجماعي ، وبالتالي مهياة لأنّ تعمل فيها السنن الإلهية التي تخضع لها الأمم .

وتبيننا أنه لا بد أن تنقسم الأمم في نهاية المطاف إلى فريقين ، على أساس الهدى والضلال ، الإيمان والكفر ، وأن تبدأ المدافعة والصراع على كل المحاور .

وهي لهذا وذاك ، بحاجة إلى أن تعمل على حماية كيانها الوليد ومكتسباتها الجديدة ، المادية والمعنوية ، ووقاية نفسها من أسباب العقوبة وعوامل السقوط والانهايار .

وهي حاجة تبدأ يوم ميلاد الأمة ، ثم تستمر ضرورة قائمة ، لا تنسخ حتى تكون الأمة هي التي تنسخها ، وتسقطها من حسابها ، فلا تلبث حينئذٍ أن ينسخ الله من الوجود وجودها ، وأن تسقط على أم رأسها بعد علوها وصعودها .

وهي مع شدة حاجتها إلى هذه الحماية وتلك الوقاية ، يواجهها منذ اللحظة الأولى اختلاف بين أفرادها في الكيفية التي تتم بها حماية مكتسبات الأمة ، والوسائل التي يمكن اتخاذها لتتوقى كارثة السقوط ، وتبعد ساعة الانهايار . وهو اختلاف يبدأ ساذجا ، ثم لا يلبث أن يتعمق ليحدث شرخا ، فصدعا . . فانقساما ! .

وهذا الخلاف الذي لا بد أن يكون بين أفراد الأمة مربوط بجبل سريّ بذلك الانقسام المحتوم إلى فريقين مختلفين على أساس الهدى والضلال .

والأمة عندما تكون فتية ناشئة ، عادة ماتستهين ببوادر الاختلاف ، كما أنه يختلط في حس معظم أفرادها: أيّ الفريقين أحرص على الأمة وأولى بالاتباع^(١) ! .

فكيف نظر القرآن الكريم إلى هذا المجال الخطر ، المؤثر على حاضر الأمة ومستقبلها؟ لقد أخذ القرآن بيد الأمة منذ البداية ، وأقامها على جادة الصواب ، ولم يكل إليها حق الاجتهاد في هذا الجانب ، كغيره من الجوانب .

(١) وذلك لأسباب سنائي مفصلة في مبحث: (لا يستوي الخبيث والطيب) ، وفي مبحث: (الملا في الأمم) في الفصل الخامس من هذا الباب .

بل وضع لها من الأسس والقواعد ما تركز عليها، وذكر لها من التفاصيل ما تستأنس وتستشير بها. وجعل مسئوليتها في سلامة الفهم، وحسن التطبيق. وضمن لها إن هي قامت بذلك ما تحب، وأمّنها مما تخاف.

وكان القرآن واضحاً حاسماً في هذا المجال؛ مجال حماية الأمة ووقايتها. واضحاً في اختيار الطريق الموصل إلى هذه الغاية، واختيار المنهج المعين على سلوك هذا الطريق بكل تفصيلاته.

كما كان حاسماً في أن هذا الطريق والمنهج هو وحده الطريق والمنهج الصحيح لحماية الأمة ووقايتها.

ومن يستقرئ نصوص القرآن في هذا المجال، فسيظهر له أن الضوابط والأسس التي قررها القرآن وجعلها طريقاً ومنهجاً لحماية الأمم ووقايتها، تدور كلها حول قاعدة: جلب المصالح والمنافع ودرء المفساد والمضار. وأن الحياة حبل ممدود؛ طرفه في الدنيا وطرفه الآخر في الآخرة.

وبناء على ذلك فإن جميع التفصيلات التي سأذكر نماذج منها فيما بعد، مشمولة في ركني هذا القاعدة، داخلية فيهما.

ولإيضاح هذه القاعدة على مستوى الأمة، يمكن أن يُعبّر عن شرط القاعدة الأول «جلب المصالح» بـ: أن تكون الأمة صالحة مصلحة في شؤون دينها ودنياها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤَسِّدُونَ بِالْكَذِبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ويستلزم ذلك الركن الثاني «درء المفساد»، ويمكن أن يُعبّر عنه بـ: أن تقاوم الأمة الفساد والمفسدين.

تقاوم الفساد بكل صوره ومظاهره، وتقاوم المفسدين، كل المفسدين على اختلاف مسمياتهم وألقابهم، في شؤون الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا تَجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وعلى هذين الأسس، ومن هاتين القاعدتين تقوم وتنطلق كل صور وأشكال الحماية والوقاية للأمة، وفق النظرة القرآنية لمعنى «الصلاح والإصلاح»، و«الفساد والإفساد» لا بما تمليه الأهواء والشهوات، وتوسوس به شياطين الإنس والجن^(١).

وفيما يلي أسوق لك طائفة من الآيات المتضمنة لبعض الأسباب الحافظة للأمة من الفساد، الواقعة لها من الانهيار، فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّةَ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى

(١) وسأفصلُ هاتين القاعدتين تفصيلاً كافياً شافياً، بإذن الله تعالى، بعد الفراغ من استعراض هذا المجال.

أَبْنِ مَرْبِدٍّ ذَلِكَ يَمَا عَصَا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ [المائدة: ٧٨ ، ٧٩] .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿ [البقرة: ٢٥١] . وقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَمَا كُنَّا لَنَظْمُوهُ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ [الحج: ٤٠] . وقال: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿ [آل عمران: ١٠٣] . وقال:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة: ٧١] . وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا
لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ تَكُنْ

فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿ [الأنفال: ٧٢ ، ٧٣] . وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أَسْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ يَمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمِ الْمَوْلَى وَيَغْمِ النَّصِيرُ ﴿ [الأنفال: ٣٩ ، ٤٠] . وقال:

﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاتَيْنِ أُولَآءِ
مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَائِلٌ

مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ
يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَقْفُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ يَمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿ [آل
عمران: ١١٨ - ١٢٠] . وقال: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿ [الأنفال: ٦٠] . وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ

بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرِعُونَ ﴿ [المؤمنون: ٧٦] . وقال: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: ٤٣] . وقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿ [النحل: ١١٢] . وقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿ [إبراهيم: ٧] .

وقال: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسًا تَتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩] . وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴿ [الأنعام: ١٥١] . وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَجِيسَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [الإسراء: ٣٢] ، وقال: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَأَن تَوْدُوا الْأَمْنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿ [النساء: ٥٨] . وقال: ﴿ بَدَاؤُذُنَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿ [سورة ص: ٢٦] . وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِمَهْدِ اللَّهِ آوْتُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿ [الأنعام: ١٥٢] . وقال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ [المائدة: ٨] .

وقال سبحانه: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿ [الشورى: ٢٠] . وقال: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ [النساء: ١٣٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ أَرْسُولًا فَنُحِذُّوهُ وَمَا نَنْهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ وَإِنَّمَا اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤] . . . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، المشتملة على ما يكون سبباً في حماية الأمة ووقايتها، لو أخذت به .

ونحن لو تأملنا في الآيات السابقة، وغيرها مما جاء في معناها، لوقفنا دون عناء على مجموعة الضوابط التي ينبغي على الأمة مراعاتها، وهي تسعى لحماية نفسها ووقايتها من عوامل الفساد والانهييار، سواء كانت من الداخل أو من الخارج .
وأهم هذه الضوابط:

* الانطلاق من مبدأ وعقيدة صحيحة، شاملة لجوانب الحياة المختلفة، قادرة على تفسير ظواهر الوجود الممتد تفسيراً صحيحاً. وهذا كان واضحاً في حضور ألفاظ [الإيمان باعتبارها قاعدة قبول وانطلاق .. والتوحد على أساس منه .. واتباع الرسول .. وربط الدنيا بالآخرة .. والتحذير من مخالفة أمر الله في أي شأن].

* أن تبني الأمة نفسها بناءً أخلاقياً متيناً، في سلوك أفرادها الشخصي، وفي معاملاتها. فهو اعتدال المزاج بلا غلو أو تفريط .. ومجانبة الفواحش وردائل الأخلاق .. وإشاعة الفضائل وعمل الصالحات .. وهو العدل في الحكم والقول على كل حال .. وحفظ الحقوق وأداء الأمانات .. وسلامة الاقتصاد من آفات الربا المدمرة ..

* أن تعمل على تأسيس مدنية قوية، على أساس عقائدي وأخلاقي، وأن تحذر من بناء مدنيتهما، وتشيد قوتها على أساس مادي مجت، أو على أساس من العداء للدين . ولهذا نجد التأكيد في كل مناسبة على الوازع الديني وإعلاء قيمة التقوى والمراقبة .. والتوازن بين الدنيا والآخرة في الطلب، وتوحيد مرجعيتهما في الحس؛ فكلاهما من الله. فلا معنى ولا وجهة لخلق خصومة أو عداء بين شطري الحياة، وقد ألف الله بينهما .

* وأن تحافظ على أسباب وحدة كيانها الجماعي، بوصفها أمة واحدة ذات خصائص مميزة. فهي الأخوة بين المؤمنين وتقديم ذواتهم وكياناتهم على من سواهم . والتناصر والتراحم بينهم، واجتناب أسباب العداوة والبغضاء، والفرقة والاختلاف .

* وأن تقاوم الفساد الناشئ من التقصير في التزام الجوانب السابقة ، أو من الخطأ في فهمها أو في تطبيقها ، أو بسبب وجود أفراد أو فئات غير مؤمنة بها أو ببعضها أصلاً .

وصمام الأمان والسبيل إلى تحقيق ذلك كله ، شيثان:
القيام بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والجهاد في سبيل الله .

وهذه الضوابط والركائز وما يندرج تحتها من تفصيلات ، كلها مستفادة من نصوص الكتاب العزيز ، وقد ذكرتُ آنفاً طائفة منها ، لأنه إلى سائرها .

ولإيضاح ما سبق سوف أتحدث بشيء من التفصيل عن القضايا الآتية:

* سنة المدافعة (الصراع) في الأرض . والتدافع بين الحق والباطل .

* سنة الله في النصر والهزيمة .

* شروط التمكين والاستخلاف في الأرض . وأهم عوامل بقاء الأمم واستمرارها .

* المصلحون بحق؛ من هم ؟ وكيف كانوا هم سرّ بقاء الأمم !؟

ثم أختم ببيان معنى «الصلاح والفساد» ، و«المصلح والمفسد» على ضوء نصوص الكتاب العزيز . وهذه كلها تندرج تحت سقف حماية الأمة ، والحفاظ على كيانها ومكتسباتها .

سنة التدافع (الصراع) في الحياة

والمداخلة بين الحق والباطل^(١)

لا تخلو حياة فرد أو فئة من الناس أو أمة من الأمم من لون أو أكثر من ألوان المدافعة والصراع، ولا يصلح بحال أن تخلو الحياة منها جميعاً، وليس من مصلحة الإنسان أن تخلو الحياة من التدافع؛ لأنه هو الطريق إلى دفع الفساد عن الأرض وإقرار الحق والعدل، وتحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع؛ للكشف عن مواقف الجماعة البشرية، والتعرف على أصالة المؤمنين، وبالتالي تتحول التجربة إلى منخال كبير، يُسقط وهو يتحرك يميناً وشمالاً كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددین في مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم^(٢).

وبدون ذلك، تأسن الحياة وتسيطر عليها روح السلبية، وتصبح جحيماً لا يُطاق. ولمصلحة هذا الإنسان وغيره من الأحياء التي تسكن هذا الكوكب الأرضي، ولدفع عوامل الفساد والإفساد التي تضر بهم، اقتضت حكمة الله أن يقر هذه السنة، وأن يجعل في جبلة هذه الأحياء وفي تضاعيف الكون والحياة، ما يكفل وجودها واستمرارها. وهذه «المدافعة تتجلى في صور شتى، تبعاً لاختلاف الدوافع والأسباب»^(٣)، وعند التأمل يمكن سلك هذه الصور على مستوى الأمم والجماعات البشرية عبر التاريخ في جانبين كبيرين:

الأول: المدافعة أو (الصراع) على أشياء الحياة الدنيا ومتعتها ومغانمها وشهواتها (خلا صراع الحق والباطل).

وأهداف هذا الصراع مادية، ومنه ما هو مباح أو مشروع، ومنه ما هو ظلم وبغي وفساد.

(١) اشتهر إطلاق لفظ (الصراع) على (سنة التدافع) عند المتحدثين، وفي كتابات كثير من الكتاب، وفي القرآن جاء لفظ (الدفع) و(الدفاع) و(يدفع) في الآيات التي تحدثت عن هذه السنة، كما سيأتي.

(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) ويدهي أن تختلف تبعاً لذلك، الآثار والنتائج.

قال تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُغَبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسِيحُ فترده مُمْصِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي هاتين الآيتين أجمل - سبحانه - دوافع هذا الصراع، والأسباب المهيجة إلى التدافع دونه، وذكر غاية ذلك وعاقبته في الدنيا والآخرة.

وإذا كان قدر من الصراع في هذا الجانب موجوداً في كل أمة؛ مؤمنة وكافرة، فإن مما ينبغي أن يعلم أن المجتمعات الجاهلية كل صراعاتها من هذا الجانب، ولهذه الدوافع، حتى وإن كانت الأديان جزءاً من محرك هذا الاضطراب، لأنها أديان فاسدة؛ كونها أرضية، أو منسوخة محرفة.

وأصل هذا الصراع ومنشؤه «أن الإرادة الحرة والاختيار المفتوح اللذين منحنا للإنسان فرداً أو جماعة... يقودان بالضرورة إلى عدم توحيد البشرية وتحولها إلى معسكر متشابه واحد، أو أرقام في جداول رياضية صماء... إن قيمة الحياة وصورتهما الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة المتضادة الموزعة... وأن حكمة الله اقتضت، حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد، أن تشهد انقساماً وتغيراً وتنوعاً وصراعاً... هذه هي طبيعة العلاقات البشرية ما دامت تمارس حريتها بالأخذ والعطاء، وتلك هي إرادة الله المسبقة في أن تكون حياة الناس مغايرة نوعياً لحياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سُلماً»^(١).

و«المدافعة من هذا الجانب - بحد ذاته - سنة إلهية كما هو ظاهر. ولا أدل على ذلك من أن جوانب كثيرة في الحياة لا يمكن أن توجد، بله أن تتقدم وتنمو لولا هذه السنة»^(٢).

ومع ذلك، فإن كل أشكال الصراع والمدافعة من هذا الجانب، لا تمثل سوى جزء محدود من الهدف الأكبر لسنة (المدافعة)، ولا يندفع بها إلا جزء محدود جداً من الفساد

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٣٩، ٢٤٠. انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٢) وذلك كأنواع الصناعات، وتحصين الممالك وإعداد القوة، وكدفع أنواع الظلم والبغي من أمة على أخرى... ونحو ذلك.

في الأرض، ويتولد بسببها لو انفردت - وقد علمت أن منها ما هو ظلم وبغي - يتولد بسببها من الشرّ والفساد أضعاف أضعاف ما يندفع بها، حتى لكأنه لم يندفع بها فساد البتة!

وبمعنى آخر يُقال: إن جانب المدافعة (المادي) جزء مهم من هذه السنّة لا بد منه، وما لم يشفع بالجانب الأهم، وهو جانب: المدافعة بين الحق والباطل، فإن البشرية تشقى به أكثر مما تسعد.

ولهذا - والله أعلم - كانت عناية القرآن بالجانب الأخير من سنّة (المدافعة) وإبرازه، بل جعله هو الوسيلة والطريق إلى دفع الفساد في الأرض أضعاف ما أولاه القرآن للجانب الأول. كما أنه انفرد بأمر الشارع به، ومدح أهله، وترتيب المنافع العظيمة على القيام به، وترتيب أوخم العواقب على تركه. كما سيوضح لك ذلك.

الجانب الثاني: المدافعة أو (الصراع) بين الحق والباطل. بين الخير والشر. بين الكفر والإيمان... وهو صراع «شامل واسع معقّد متشابك»، إنه تقابل بين الخير والشرّ على أوسع الجبهات، تقابل لا بد منه إذا ما أُريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة، إيه ابتلاء فعّال، لن يأخذ تاريخ البشرية بدونه شكله الإيجابي، ولا يمضي إلى غايته المرسومة منذ هبوط آدم... إلى يوم الحساب^(١).

وفي القرآن الكريم بيان شافٍ وتفصيل عجيب لكل ما يتصل بهذه السنّة، أسبابها ودوافعها، وجبهاتها، وجنودها وعساكرها، وأسلحتها، ونتائجها، والحكمة منها...

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰلِيسَ اَبٰى * فَقُلْنَا يَنْقَادُمْ اِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ﴾ [طه: ١١٦، ١١٧]. وقال: ﴿ قَالَ اَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣].

وقال: ﴿ اَفَنْسَخِدُوْنَهُ وَاذْرِيْنَهُ اَوْ لِيَاۤءٍ مِّنْ دُوْنِيْ وَهُمْ لَكُمۡ عَدُوٌّ يَّتَسَّ لِلظّٰلِمِيْنَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿ اِنَّ الشَّيْطٰنَ لَكُرٌّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوْهُ عَدُوًّا اِنَّمَا يَدْعُوۡا حِزْبَهُ لِيَكُوْنُوۡا مِنْ اَصْحٰبِ السَّعِيْرِ ﴾ [فاطر: ٦]. وقال عن إبليس أنه قال: ﴿ لِيَنْ اٰخِرَتِيۡنِ اِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَآحْتَنِكَنَّ

ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقال عن أتباعه: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿﴾ [النساء: ١٠١]. وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴿﴾ [النساء: ٨٩]. وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴿﴾ [النساء: ٧٦]. وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴿﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقال عن المنافقين: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ ﴿﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال - جل وعلا - منها إلى بعض غايات المدافعة وثمراتها:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وقال: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مِّنْ عَآمِنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاوْا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لَّيْسَلُوا بِعِضِّكُمْ بَعْضٌ ﴿﴾ [عمد: ٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال: ﴿أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّمْ دَمَّتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١]. وقال: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَآئِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣]. وقال: ﴿فَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿﴾ [النساء: ٧٠].

١٨٤]. وقال: ﴿وَقَنِيْلُوْهُم حَتَّى لَا تَكُوْنُ فِتْنَةً وَيَكُوْنُ الدِّيْنُ كُلُّهُ لِلّٰهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]... إلى غير ذلك من الآيات .

وأعود الآن بعد هذا الإجمال، إلى شيء من التفصيل لهذه السنة العظيمة «سنة المدافعة» بجانبيها، وأخص جانب «المدافعة بين الحق والباطل» بمزيد بيان؛ لأهميته، ولأنه من أعظم مظاهر حكمة الله في إيجاد هذا الإنسان، وجعل الخير والشر معاً في هذا الوجود، أعود فأقول:

إن المدافعة سنة عالمية غير مختصة بجنس أو لون أو طائفة أو نحلة .

﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللّٰهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالله - تعالى - يدفع الناس «الذين يباشرون أسباب الشرّ والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه»^(١).

وهذا الفساد الذي يندفع بسبب إقرار سنة المدافعة، هو الفساد بمعناه الأعم، فساد الأرض بالشرك والكفر والظلم الموجب لهلاك الحرث والنسل، فما دونه من أنواع الفساد التي لا يمكن حصرها .

ولهذا كان الفضل بإقرار هذه السنة فضلاً على العالمين كلهم: ﴿وَلَكِنَّ اللّٰهَ ذُو

فَضْلٍ عَلَى الْعٰلَمِيْنَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال ابن عاشور: «وعلقت الفضل بالعالمين كلهم؛ لأن هذه المنة لا تختص»^(٢).

ولإفادة العموم، ذكر الله تعالى في هذه الآية المدفوع والمدفوع به... فأما المدفوع عنه، فغير مذكور في الآية. فيحتمل أن المدفوع عنه الشرور في الدين، ويحتمل أن يكون المدفوع عنه الشرور في الدنيا، ويحتمل أن يكون مجموعهما^(٣). وهو الأولى؛ لأن بينها «قدراً مشتركاً وهو دفع المفسدة»^(٤)، ولأن الدين لا يتم تمامه ولا يتصور قيامه إلا باندفاع الشرور في الدنيا، وكذلك الدنيا لا يطيب عيشها، ويأمن أهلها إلا باندفاع الشرور عن الدين وتحقيقه في حياتهم .

وقوله تعالى: ﴿لَقَسَدَتْ الْأَرْضُ﴾؛ أي: حلّ الفساد محلّ الصلاح، والشرك والكفر محلّ التوحيد والإيمان، والظلم والبغي محلّ العدل والإنصاف. وحلت سائر

(١) فتح القدير (١/٢٦٦).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢/٥٠٣).

(٣) التفسير الكبير، للرازي (٦/١٩٢). والمعنى: يدفع بعضهم بعضاً عن الوقوع في الشرور، وعن إيقاعها في الأرض.

(٤) التفسير الكبير، للرازي (٦/١٩٣).

الأحوال الذميمة محلّ الأحوال الحسنة المستقيمة .

والسؤال الآن: مَنْ الذي يدفع الناس عن الشرك والكفر؟ ومن الذي يمنعهم من الظلم والبغي حقيقة، ويجلب لهم أسباب الأمن وطيب العيش؟
وقبل الإجابة عن السؤال، لا بد من الإشارة إلى حقيقة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، وأخص هنا الأمم الجاهلية، هذه الحقيقة هي:

أنّ الناس في ظل غير المنهج الإلهي، يدافعون عن مصالحهم الشخصية، ومصالح الذين في الدفاع عن مصالحهم مصلحة راجعة إليهم، وهذه المصالح لا تتجاوز - في الغالب - تأمين شهوات البطون والفروج، وتحقيق نوازغ النفس من حب التملك والرؤس والتسلط، وتوفير الأمن والرفاهية، وما ينجر تبعاً لذلك .

وهذه الأشياء لا تحصل - عادة - إلا مع شيء قلّ أو كثر من الظلم والعدوان، والمنافسة المُفضّية إلى المدافعة والصراع، الذي لم يكن له من سبب أصلاً إلا إقرار الظلم، وحماية هياكل الفساد وسدنته .

وهي صراعات كثيرة، وأكثرها - كما ترى - غير مشروع؛ لأنها لإقرار الفساد لا لدفعه، أو هي في أحسن أحوالها دفع لأنواع من الفساد، كالظلم والتسلط، دون سائر ألوان الفساد، التي يشترك فيها المظلوم والظالم .

ف «ليس كل صراع إذن مشروعاً ولا مطلوباً في حياة البشر، بل إنّ معظم الصراع الذي يقع في الأرض هو من الفساد الذي ينهى الله عنه، ويأمر بالجهاد لإزالته»^(١) .

هذا هو أصل الصراع في كل الجاهليات، وهو ظلم وتسلط واعتداء في معظمه، والله تعالى لا يتركه ولا يقرّ أهله، حتى وإن كان واقعاً على الكافرين والمشركين، إنّه فساد في حقيقته، ولو ترك لأسرع الفساد إلى الأرض أكثر فأكثر .

فما الذي يحدث على مستوى الأمم الجاهلية؟

تُحَدِّث المدافعة ويوجد الصراع لمقاومة الظلم ورد العدوان والفساد ولا بد . هذه المدافعة وهذا الصراع، يندفع بهما - ولا شك - شيء من الفساد، ويرتفع شيء من الظلم، ويتحقق بسببهما شيء من الأمن وطيب العيش قلّ أو كثر؛ لأنّ «دفاع الناس بعضهم بعضاً يصدّ المفسد عن محاولة الفساد، ونفس شعور المفسد بتأهب غيره لدفاعه يصدّه عن اقتحام مفاسد جمة»^(٢) . وهو من معنى فضل الله على العالمين، كما ترى .

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص ١٦٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢/٥٠٣) .

وهذا جزء من هذه السُّنة الإلهية ؛ لأنه من دفع الله الناس بعضهم ببعض .

هذا وذاك العدوان والظلم ، ودفعهما ، كلاهما يقع في الجاهلية ، والثاني منهما أنبل قصداً وأسمى هدفاً ، وهو مأذون فيه ، وقد يكون مشروعاً ، إذا لم يتجاوز حدود المعاقبة بالمثل ، وهو قليل إذا ما قورن بالأول^(١) ، «ويعد صحوة نادرة من صحوات الضمير في الجاهليات ، حيث الأصل الدائم هو العدوان»^(٢) ، وأثرها محدود ، والفساد المنذف بسببها ضئيل بالنسبة للفساد الواقع في الأرض .

وهذه المدافعة - على محدودية مجالها فيما مضى - قد اكتشفت شعوب كثيرة منافعها المدنية - خاصة أمم أوروبا وأمريكا الشمالية - فأستت نظم حكمها وشرعت لهذه المدافعة من القوانين ما يكفل نفاذها ، وها نحن نرى آثارها الإيجابية على هذه المجتمعات والدول فقد اندفع بسبب ترسيخ قيم المدافعة من المفاسد السياسية وغيرها شيء كثير . وتحقق للشعوب من الحريات والحقوق المدنية ما صار مضرب المثل للعالم . فتفرغت تلك الشعوب للإبداع والإنجاز ، وقويت شوكتها ، حتى فتن العالم بكل ذلك . وهذا من أعظم مظاهر الفضل عليهم . لو قابلوه بالشكر ، وبنوه على قاعدة الإيمان والتسليم . .

ولأن ذلك لم يكن فإنه يبقى أن الذين أوقعوا الفساد ، والذين يدفعونهم عنه في تلك المجتمعات ، هؤلاء وهؤلاء واقعون في الفساد الأكبر ، فساد الشرك والكفر بالله ، وتعبيد الناس لغير شريعته ، بل ورفض شريعته وهدية ، ومحاربة رسله وأوليائه ، وهم لذلك غير منفكين عن الظلم والأذى لغيرهم ، وإن كانوا لا يقرونه فيما بينهم .

تلك أبهى صور الجاهلية! والجاهلية التي لا تمارس غير هذه المفاسد هي جاهلية مثالية ! .

وإذن ، هؤلاء وهؤلاء لا بد من دفعهم . وهنا نعود إلى السؤال السابق:

مَنْ يدفعهم عما هم فيه من الفساد الأكبر؟ مَنْ الذي يحظى بشرف إنقاذ الأرض وما عليها ، ويهدي إلى الإنسان الأمن والسلام؟ ويؤخر بمقتضى السُّنة الإلهية فناء هذا الكوكب بما فيه ومَنْ فيه؟! .

(١) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ١٦٣ ، ومن أمثلة ذلك - وقد أشار إليه المؤلف: (حلف الفضول) الذي كان في دار عبد الله بن جدعان ، وفيه اجتمعت بعض القبائل على رد الفضول على أهلها ، وعلى نُصرة المظلوم ، ورد الحق إلى صاحب الحق ، وكان قبل مبعثه ﷺ بعشرين سنة .

روى الحُمَيْدِيُّ عن سفيان بن عُيَيْنَةَ عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر ، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيَتْ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ ، تَحَالَفُوا أَنْ تُرَدَّ الْفُضُولُ إِلَى أَهْلِهَا ، وَأَنْ يَعُرَّ ظَالِمٌ مَظْلُومًا» . انظر: الرُّوضُ الْأَنْفُ ، للسُّهَيْلِيِّ (٧٠/٢) وما بعدها ، والبداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢٩١)

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص (١٦٣) .

إن دفاعه هو الدفاع الأسمى والأشرف والأكمل ، وإن صراعه هو الصراع الأكبر ، وإنه هو الحقيق بأن يحتفى بجهدته وجهاده^(١)!

وللإجابة عن هذا السؤال ، نعود إلى النصوص القرآنية التي قررت هذه السنة (سنة المدافعة) في سياقاتها ، وما قرره أهل العلم في تفسيرها .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ يَدْرَبِ اللَّهِ وَقَتَل دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١] .

وقال: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٍ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا بِرَبِّهِمْ قَالُوا بَرَأْنَا اللَّهَ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا مِنْ أَسْمَاءَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيَنْصُرَكُمْ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١] .

قال الإمام ابن جرير في تفسير آية البقرة: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به ، بعضاً وهم أهل المعصية لله والشرك به ، ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم ففسدت الأرض ، ولكن الله ذو من على خلقه وتطول عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر ، وبالمطيع عن العاصي منهم ، وبالمؤمن عن الكافر»^(٢) .

وقال ابن عطية: «أخبر الله - تعالى - في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مرّ الدهر لفسدت الأرض ؛ لأنّ الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها ، ولكنه - تعالى - لا يخلي الزمان من قائم بحق ، وداعٍ إلى الله ، ومقاتل عليه ، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة ، فله الحمد كثيراً . . .

(١) وهذا - بطبيعة الحال - لا يجعلنا نُسْقِطُ من حسابنا قيمة (المدافعة) التي يمارسها الإنسان في ظل الجاهليات المختلفة وأثرها في دفع الفساد ، وهو واضح فيما قررته سلفاً .

(٢) تفسير ابن جرير (٢/٦٢٣) .

قال مكّي: وأكثر المفسرين على أن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلي عنن لا يصلي، وبمن يتقي عنن لا يتقي؛ لأهلك الناس بذنوبهم...»^(١) ورد هذا المعنى ابن عطية. وهو معنى متجه مرضي، غاية ما فيه أنه ليس المعنى الوحيد لهذه الآية، إذ هي أعم منه.

وقال القرطبي: «وقيل: هذا الدفع بما شرع على السنة الرسل من الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك»^(٢).

ومما قال الرازي^(٣) في معنى الآية: «يحتمل أن يكون المراد: ولولا دفع الله بعض الناس عن المعاصي والمنكرات بسبب البعض. وعلى هذا التقدير، فالمدافعون هم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويدخل في هذا الباب الأئمة المنصوبون من قبل الله تعالى لأجل إقامة الحدود وإظهار شعائر الإسلام»^(٤).

هذه خلاصة أقوال أهل العلم بالتفسير في معنى هذه الآيات، وليس بينها تعارض، بحمد الله، واختلافهم فيها اختلاف تنوع، والآيات تحتل ما ذكره، ذلك أن المدافعة بين الحق والباطل ذات دوائر، بعضها محيط ببعض، فمدافعة العصاة من أهل الملة دائرة، ودفع المنافقين وفضحهم دائرة من ورائها، ومدافعة الكفار ومجاهدتهم من بعد ذلك. وإن كان بعضها أسعد بلفظ الآية وسياقها من بعض، خصوصاً ما ذهب إليه ابن عطية ومن وافقه... يبين ذلك:

أن الآيات في الموضوعين، سيقّت ضمن آيات تتحدث عن جهاد الكفار، وبيان حكمته وثمرته، وما يترتب على تركه وإبطاله من البغي والفساد في الأرض. ففي آية البقرة جاء تقرير هذه السنة بعد انتصار بني إسرائيل بقيادة طالوت وما حصل من قتل داود جالوت، واجتماع بني إسرائيل واتساع ملكهم.

(١) المحرر الوجيز.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٦١).

(٣) محمد بن عمر بن حسين، الرازي، التميمي، البكري، أبو عبد الله، الإمام، المفسر، مقدّم زمانه في المعقول عن أصل المذهب الأشاعرة، وُلِد في الرّي، وإليها نسبته، ورحل إلى هراة، وفيها توفي سنة (٦٠٦هـ)، له تفسير (مفاتيح الغيب) المشهور بـ (التفسير الكبير). انظر: وفيات الأعيان (٤/٢٤٨)، وطبقات المفسرين، للدودني (٢/٢١٥).

(٤) التفسير الكبير (٦/١٩١)، وقد فصل في معنى الآية واستوعب. وانظر: الكشف، للزنجشيري (١/٣٨٢)، وتفسير المنار (٢/٤٩١، ٤٩٦).

وفي آية الحج ، جعل سنّة (المدافعة) وسيلة لرفع الظلم وحفظ الدين وإحقاق الحق ، ولورودها في سياق الإذن بالجهاد .

فآية البقرة قرّرت السنّة بعد حصول الثمرة وإحقاق الحق واندفاع الفساد ، وآية الحج قررت السنّة لبيان أنها الطريق إلى رفع الظلم وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وهذا من بديع إعجاز القرآن .

ونكتة تقرير سنّة (المدافعة) في سياق آيات الجهاد والإذن به ، أن المدافعة بالمقاتلة والمحاربة أبين صور المدافعة وأكثرها مشقة ، وهي غايتها وأعلهاها ، وإقرار المدافعة بالأعلى - وفيه ما فيه من الأضرار والمخاطر - تنبيه إلى علو شأنه ، وأنه لا غنى عنه في دفع الفساد ، ولهذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام . وتسبق هذه الصورة العليا - ولا بد - صور من المدافعة لا تحصى بالأقوال والأفعال ... إلى آخر ما هنالك .

يدل لذلك أيضاً: قوله في آية سورة البقرة ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ، والفساد لفظ عام ، ومنه صور كثيرة يمكن دفعها دون اللجوء إلى القتال .
وبهذا التقرير تجتمع أقوال المفسرين ، ويظهر انسجامها .

ولنعد الآن إلى الآية التي في الحج ، وهي أخص من الآية التي في البقرة ، وأدلّ على مسألة الصراع بين الحق والباطل .

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .

«أي: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ... والجهاد ، لتغلب على الحق في كل أمة ... ولما بقي الدين الذي يذب عنه ... ولهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد ﷺ المساجد»^(١) .

وهدم المساجد إيماء إلى إطفاء نور الدين والمبالغة في حربته ، والحيلولة بين الناس وبين ممارسة شعائره ، فإن تهديم دور العبادة ، وأماكنها هو آخر سهم في كنانة الكفرة والطغاة من أعداء الأديان ، وهذا هو الفساد الأكبر والظلم الأعظم الذي أمر الله أوليائه بدفعه ومنازلته ، في كل زمان ومكان ، بكل وسيلة مأذون فيها ، وبذل المهج فداءً له .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧٠/١٢) ، وقال: «قال ابن عطية: وهذا أصوب ما قيل في تأويل الآية» .

إنّ المدافعة بين الحق والباطل «صراع دائم بين معسكرين كبيرين ، كل منهما ينتمي إلى فكرة ويلتزم موقفاً ويعمل في سبيل... ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَعْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]»^(١).

«إنّ قوى الشرّ والضلال تعمل في هذه الأرض... والشر جامع والباطل مسلح . وهو يبطش غير متحرّج ، ويضرب غير متورع ، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهدوا إليه ، وعن الحق إن فتحت قلوبهم له... إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصل بها ويجول»^(٢). وأن يُتخذ لذلك «كل أشكال (الصراع) الخارجي على الإطلاق: مذهبياً ، سياسياً ، عسكرياً ، أخلاقياً ، اقتصادياً ، وحضارياً... أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وقاتلاً بالكلمة وكفاحاً مسلحاً»^(٣).

لا بد من هذا كله ، «ولا يكفي الحقّ أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة ، تحميه وتدفع عنه ، وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان»^(٤). والذي يظن أو يتوهم أن المدافعة بجانبها: المادي الجاهلي ، ومدافعة الحق للباطل ، يمكن أن تتوقف عند حد أو تنتهي لصالح أمة أو طائفة ، فظنه خاطئ ووهمه سابح في الخيال ، وهو إنّما أتى من قبل جهله أو غروره ، أو هما معاً ، وإلا فمتى حصل هذا في تاريخ البشرية الطويل حتى يستأنس به؟

والعجيب في الأمر: أنّ هذا الجهل والوهم ، يُقال في زمن العلم!

تقول «بعض مذاهب التفسير الوضعية: إنّه سيجيء اليوم الذي يكف فيه الصراع على مستوى العالم»^(٥) ، وذلك في مرحلة الشيوعية المطلقة^(٦).

وتقول أمريكا بعد عقود من الصراع المرير من أجل التفوق: إنّ العالم بزعامتها سوف يعيش في ظل النظام العالمي الجديد الأمن والسلام ، حيث تتلاشى وتنحسر الحروب والصراعات ؛ لأنّ إرادة العالم الجديدة تقضي بذلك!

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. فلا الشيوعية وفّت للبشرية بما وعدت ، بل انهارت هي ذاتها بعد عقود من الصراع وحروب الإبادة . ولا الرأسمالية الغربية بكل إمكاناتها وزخرفها وشهواتها صدقت ببعض ما وعدت ؛

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٢٤٧ .

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٤٢٤ ، ٢٤٢٥) .

(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٩ .

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٤٢٥) .

(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص ٢٤٧ . وهذه مقولة الشيوعيين أصحاب التفسير المادي الجدلي للتاريخ .

(٦) انظر: كلمة في تحليل التاريخ ، لعمر فروخ ، ص ٢٦ .

فهاهي تقود ألوية الحروب وتفتعل الأزمات ، وكلما تمكنت في الأرض زاد العالم خوفاً . وهي ماضية نحو مزيد من الإفساد في الأرض .

وإذا كانت المدافعة بين الحق والباطل بكل صورها ، سُنَّة ثابتة مطردة ، لا صلاح للعالم إلا بقيامها واستمرارها ، فإن من البدهي تبعاً لذلك ، أنه لا يمكن أن تحسم نتيجة المدافعة والصراع لصالح أمة أو فئة - كما أسلفت - حتى ولا للفئة المسلمة المؤمنة! وكيف تُحسَم والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

لا تحسم لصالح الفئة المؤمنة ، وإن كنا نحب ذلك ونتمناه ، ولكنها سُنَّة الله ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] .

ولو قرأت تاريخ العالم من أوله إلى آخره ، لم تجده إلا كذلك . وقد تعجب من هذا أو تنكره ، ولا عجب! بل ذلك عين العدل والحكمة الإلهية . ومما يكشف لك طرفاً من حكمة الله في ذلك: أن تعلم علم اليقين أمرين أنت بأمرس الحاجة إلى معرفتهما:

الأول: أن الباطل لا يكف عن مجابهة الحق ، والسعي الحثيث للاستيلاء على مواقع جديدة ، وكسب أنصار وأولياء كل يوم ، بل كل لحظة ، ولا يرضى عن الحق أو يهادنه حتى يستأصل شأفته من الوجود إن استطاع^(١) .

الثاني: أن الحق الذي تحب أن يستولي على كل شبر في الأرض ، ويكتم أنفاس الباطل ويريح الناس من شره . أن هذا الحق: لا يثبت أهله عليه ، وإن كانوا لا يتركونه بالكليّة . ولا يأخذونه بجد وشمول ، وإن كانوا ينتسبون إليه ويخلطون فيه . وإن أخذوه بجد وشمول ، وثبتوا عليه فترة ، وآتى ثماره التي لا بد أن يؤتيها ، لم يصبروا عليه ، وأدركهم من الضعف والغرور والتقصير ما يُدِيل دولتهم ويعلي دولة الباطل عليهم . فهم هم الذين تخلّوا عن مواقعهم ، ووضعوا السلاح عن أكتافهم ، وقد علموا أن الحرب مشبوبة والعدو حاضر مترصد . فهل ظلمهم الله!؟

لقد نصرهم ومكّن لهم ، بل كتب على نفسه أنه يتولاهم ويدافع عنهم وينصرهم ، وأعلمهم بذلك وأذنهم بأنه سُنَّة مطردة ، ولكنهم هم لم ينصروه كما أمرهم .

(١) وقد ذكرتُ الدّالة على ذلك ضمن الآيات المبيّنة لسُنَّة التدافع بين الحق والباطل ، كما سيأتي القول عن طبيعة الباطل مفصلاً في مبحث: (الملاظمة تتكرر في كل أمة) ، وفي مبحث: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ .

وسبب ذلك: ما استقر في خلد طائفة من المسلمين من حُسن الظن بأنفسهم، واعتقاد أنهم قائمون بما يجب عليهم، فهم لذلك أهل للنصر ولا بد. وأن خصومهم بخلاف ذلك.

وما انتهى إلى عقول وضماير آخرين من أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره، بل ينصر الكافر عليه، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا.

وكلا هذين من أعظم الأسباب التي قعدت وتعدت بالمسلمين عن مدافعة الباطل والاستظهار بالله عليه.

وسبب ذلك ومرجعه: ما فيهم من الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده، وستته وقانونه في خلقه^(١).

ولإزالة هذا الوهن والوهم فإننا في الصفحات التالية سنتف عن سنة المدافعة عن الذين آمنوا، وهي جوهر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل. فما أحوجنا - نحن المسلمين - إلى شدة اليقين بها، وأن نكون على مستوى الوعد الإلهي بالنصر والمدافعة والولاية.

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/٣٢٤، ٣٢٧) وما بعدها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

لقد تكاثرت النصوص القرآنية في تقرير هذه السنة وبيانها ، وبيان من يستحقها ومن هو محروم منها ، وأسباب هذا وذاك ، كل ذلك بالفاظ كلية جامعة تؤكد اطراد هذه السنة وثباتها .

كما تواترت الحوادث الدالة بمجموعها على ما يجبر العقول بالتسليم بأن أولياء الله المؤمنين بصدق ، ينصرهم الله ويدفع عنهم ، ولا يتركهم لعدو يستأصلهم .
والقرآن لا يقرر هذه السنة - كغيرها من السنن - بصورة نظرية مجردة ، بل لا يكاد يذكرها إلا مقرونة بما يشهد بصحتها ، قبلها أو بعدها أو أثناءها ، على مستوى التاريخ والأمم .

فمن ذلك مثلاً: إخبار الله - تبارك وتعالى - عن نفسه ، في آيات من كتابه أنه يدافع عن المؤمنين ، وأنه لا يجب الكافرين ، يخبر الفريقين بذلك قبل أن يأمر أوليائه بمداخلة عدوهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] .

وبعد أن قويت النفوس واطمأنت إلى جناب الله يخبرهم أنه قادر على نصرهم في دفاعهم العادل عن حقوقهم ومعتقداتهم .

﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يَفْتَلَتُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] .

ثم يعقب على أمرهم بالمداخلة بأنه - سبحانه - عند وعده لهم بالنصر ما نصره ، لا في هذه الجولة فحسب ، بل أبد الأباد .

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَاللَّهُ عَنِيبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠] - [٤١] .

وفي آيات أخر أخبر - تعالى - أنه يتولى المؤمنين وينصرهم ، وأنه وليهم ومولاهم ، وأن الكافرين بضد ذلك .

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصِرُوا اللَّهُ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَلَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَا تَرَىٰ بِسُرُورٍ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٧ - ١١]. وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وفي الحديث الصحيح: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمُحَارَبَةِ...» الحديث^(١). والأدلة على هذا المعنى كثيرة.

ولهذا، فإن أولياء الله - على الحقيقة - يستمدون قوتهم من قوة الله، وبها يجابهون أعداءهم ويواجهونهم. وأكرم أولياء الله محمد ﷺ، يأمره مولاه أن يتحدى المشركين وشركاءهم أن ينالوه بأذى والله وليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ بِتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥، ١٩٦].

ودفاع الله عن الذين آمنوا في الحياة الدنيا، ونصره إياهم، يتحقق بصور كثيرة، وولايته لهم تتجلى في مظاهر شتى لا يعلمها إلا هو سبحانه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

وذلك بحسب حال المؤمنين: قوة وضعفاً، قلة وكثرة، تمسكاً بالحق وحيدة عنه، وبحسب حال أعدائهم: قوة وضعفاً، قلة وكثرة، أخذاً بأسباب البقاء وإعراضاً عنها.

وفي القرآن الكريم من ذلك أمثلة، لو تأملها المؤمن بتجرد، لم يتعلق قلبه بعدها بغير الله، ولم يخف من أحد سواه، ولأصبح بموعود الله أشد ثقة منه بما في يديه.

(١) رواه البخاري، من حديث أبي هريرة ؓ. انظر: الفتح (١١/٣٤٠) في كتاب الرقاق، باب: التواضع، ح (٦٥٠٢).

إنّ دفاع الله عن المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا سنّة ثابتة، مطردة، كلما تدافع الحق والباطل، لا استثناء فيها. اللهم إلا أن يكون أهل الحق دون مستوى النصر، لأي سبب من الأسباب، وحينئذٍ تبقى للسنّة صفة الثبات والاطراد، ويكون تخلف النصر لأسباب موضوعية مؤكداً لهذه السنّة لا ناقصاً لها.

ولنأخذ بعض الأمثلة والنماذج في فترات تاريخية مختلفة، مع ملاحظة تشابه الظروف، وندرسها على هذا الأساس.

فهناك أحوال يكون دفاع الله عن المؤمنين وانتصاره لهم ظاهراً مكشوفاً، لا يماري أحد في أن ما جرى ليس أمراً عادياً.

وهذا يحدث - عادة - إذا كان المؤمنون في قلة قليلة من العدد وضعف في الإمكانيات، وعدوهم أكثر عدداً وعدة، أي أن المؤمنين لا يملكون من مقومات النصر المادية ما يغني في مقاومة الباطل وأهله، بل تكون نتيجة المواجهة - لو تمت بين الفريقين - قضاءً مبرماً على الحق.

في مثل تلك الأحوال، فإنّ دفاع الله عنهم ونصره إياهم يكون بصورة ظاهرة مكشوفة، يحوطهم بعنايته ويتولاهاهم برعايته حتى يؤدوا رسالته ويعذروا إلى الأمة التي يكونون فيها. ومع تكرار البلاغ والندارة منهم، تتصاعد موجة الإصرار والعناد من أقوامهم، ويهمون بهم ليأخذوهم وينكلوا بهم. حينئذٍ يستنصر المؤمنون ربهم، ويعلنون براءتهم من كل حول وقوة إلا من حوله تعالى وقوته. فيتنزل النصر الإلهي بصورة حاسمة ومظهر كوني رهيب، لا قبل لأعدائهم به.

وهذا النموذج من النصر والمدافعة عن المؤمنين يكاد يصدق على كل الفئات المؤمنة من لدن نوح عليه السلام، حتى زمن موسى عليه السلام، بصورة مطردة. ومن استقرأ القرآن، تبين له ذلك.

وللإيضاح، أذكرُ بعض الأمثلة على سبيل الإجمال، لوضوحها في كتاب الله تعالى، متوخياً إبراز مواطن العبرة مما يتعلق بهذه السنّة، مبتدئاً بنبي الله نوح عليه السلام، وكيف أن الله انتصر له ولمن معه من المؤمنين.

لقد كان نوح عليه السلام والذين آمنوا معه هم الفئة المؤمنة؛ كل أنصار الحق في ذلك

الزمان. وكانوا قلة: ﴿وَمَا أَمْنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، مستضعفين من قومهم:

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

والحق الذي جاء به نوح عليه السلام من ربه في نظر قومه، محض كذب وضلال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وكان أهل الباطل كثرة كاثرة: أهل الأرض كلهم، ما عدا القلة المؤمنة. وقد بلغ بهم الكفر والفجور مبلغاً عظيماً عبّر عنه نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا، فقد ضاقوا ذرعاً بهذه الدعوة وبشخص الداعي: ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَكَتَمْتِ جِدْلَنَا فَأَيْنَمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

ولجأوا إلى أسلوب التهديد بالرجم: ﴿قَالُوا لَيْن لَرْتَنَّهُ يَنْتُوخُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. ولا قيل لنوح عليه السلام والذين آمنوا معه بهذا التهديد، بالمقاييس المادية، فإين نصر الله منهم؟ ﴿الْأَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فما هو إلا أن دعا نوح عليه السلام ربه واستنصره عليهم بكلمات غيرت ميزان القوى عندما وقعت موقعها، وكانت القلة أهلاً للتصيرة والمدافعة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَأَفْجَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبِحُجِّي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨]. وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وسرعان ما تنزل النصر الإلهي الذي لم يخطر مثله للمؤمنين، فضلاً عن القوم المجرمين على بال... طوفان عام لا تعصم منه قمم الجبال الشاهقة، تجري في لججه سفينة تقل الفئة المؤمنة، تجري بهم باسم الله، أمانة في وسط الأهوال!

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وقد صور القرآن سرعة هذه الاستجابة تصويراً معبراً في هذه الآيات: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

مُنْهَرِمْ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿ [القمر: ٩ - ١٥] .

وبعد تطهير الأرض من الفساد والمفسدين ، وإنجاء نوح ومن معه من المؤمنين ، ينزل الأمر الإلهي لإعادة الحياة إلى طبيعتها كي يستمتع بها المؤمنون: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] .

أما المؤمنون ، فقد نجوا كلهم: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] .
الله أكبر! إن إلهاً ، السماوات والأرض من جنده ، لحقيق أن لا يُخَافَ إلا منه ، ولا يُرْجَى إلا هو سبحانه .

إن نوحاً ﷺ والذين آمنوا معه ، كانوا هم السبب في دفع هذا الفساد عن الأرض ، لا بقوتهم ، ولكن بقوة الله . . . لقد كانوا أداة أنفذ الله بهم مشيئته ، وأظهر بهم سنته .
وصدق الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨] .
وتأتي أمة أخرى ، عاد قوم هود .

وهنا نلتقي بهذه السنة الثانية ، فكيف أنجى الله هوداً ﷺ والذين آمنوا معه من بين قوم كانوا يقولون فيما يقولون عن أنفسهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مَنَاقِفَةً ﴾ [فصلت: ١٥]؟

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨] .

﴿ بِرَحْمَتِنَا مِنَّا ﴾ ، ولولا رحمتنا إياهم ما نجوا ، ولولا أنهم أهل لرحمتنا وعنايتنا ما منحناهم إياها .

ثم قال سبحانه في إنجاء نبيه صالح ﷺ والذين آمنوا معه من قومه المستهترين الذين تجاوزوا ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَا إِيمًا تَقْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

قال جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦]. على حين ﴿ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [هود: ٦٧].

إنه ليس عبثاً ولا مصادفة أبداً، وحاشا لله أن يكون شيء من كلامه كذلك، أن يذكر سبحانه في كثير من المواضع إنجاء المؤمنين قبل إهلاك الكافرين.

إن من دواعي تقديم الشيء بالذكر، كونه محل عناية المتكلم، وليبين - سبحانه - أن إنجاءهم مقصود لذاته، وهذا أعظم من مجرد إشعارهم بهلاك عدوهم.

وقصة إنجاء الله لخليله إبراهيم ﷺ من النار، أعظم برهان على ما نحن بصدد تقريره من دفاع الله عن المؤمنين الصادقين، وأن هذا الدفاع كما يكون عن جماعتهم يكون كذلك عن أفراد منهم بأعيانهم، وأن المدافعة عنهم تكون أيضاً في حياة أقوامهم قبل أن ينزل الله بهؤلاء الأقوام عقوبة عامة.

فكما أن إهلاك القوم بعذاب من عند الله في حياة نبيهم إذا كذبوه وعصوا أمره مما تقر به عينه^(١)... فكذلك إنجاء المؤمنين من كيد عدوهم وهو ينظر مما يسوء عدوهم ويخزيه. فما هي قصة نجات الخليل إبراهيم ﷺ؟

ها هو القرآن يختصر مشاهدتها في ثلاث آيات قصار:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ * ﴿ فَلَمَّا نَادَوْا كُنِيَ بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ * ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وإذا ما جاء الحديث عن إنجاء نبي الله لوط ﷺ وأهله، نجد من عناية الله وقدرته عجباً.

إن أهل القرية كلهم ظالمون، وقد تهددوا لوطاً ﷺ وآله بالإخراج، وهم كل من آمن به، ولا بد أن ينتصر الله لوليه والمؤمنين به ولو كانوا قلة، ولو كانوا أهل بيته... بل ولو كانوا بعض أهل بيته! ينتصر للمؤمنين منهم فقط... ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾

(١) كما في الصحيح، من حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً، وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عدتها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فاقتر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره». انظر: صحيح مسلم، في الفضائل، باب: إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، ح (٣٢٨٨).

* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرًا تَهُدُّنَا إِنَّا لَجِنَ الْغَايِبِينَ ﴿ [الحجر: ٥٧ - ٦٠] .

حتى وإن خرجت مع الناجين!

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] ؟
إن نجاة لوط وآله لم يكن صدفة... إله إنجاء مقصود ونعمة من الله عليهم ، جزاء لهم ولأمثالهم ممن يشكر ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ إِذًا أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نَّعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥] .

وبعد هذه الأمثال يجدر أن نسجل أمرين ، لهما دلالة بالغة .

الأول: أن الكون كله عابد لله جندي في خدمة الحق ، يتكيف بأمر الله لتحقيق سنة

الله .

الثاني: أن انخراق العوائد الكونية ، كما يكون لتأييد الرسل وإظهار حاجتهم على أقوامهم ، فكذلك يكون لنصرتهم ومن معهم في ذواتهم ، حتى يعلم عدوهم أنهم في كنف الله ، وأن الله معهم لا يتخلى عنهم . فهي حجة بعد حجة لمن كان له مسكة عقل ؛ إذ لو كانوا مبطلين في دعوتهم لم يكونوا في معية الله حتى آخر لحظة !

وشعيب ﷺ لما تناول عليه قومه واستضعفوه ، ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَا فِي سَا بَعِيفًا لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١] . انتصر الله له من فوق سماواته ، وانتقم له وللمؤمنين معه من الظالمين: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [هود: ٩٤] .

وأختم أمثلة هذا النموذج بمدافعة الله عن نبيه وكليمه موسى ﷺ ومن معه من بني

إسرائيل .

موسى ﷺ ومن معه من بني إسرائيل قلة مستضعفون من فرعون وقومه . ﴿ فَمَا

ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣] . إنهم

في نظر فرعون الطاغية ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ، لا يؤبه بهم ، وقد أعد العدة لسحقهم وإبادتهم . فماذا كان من شأن الفريقين ؟!

لقد أصبح فرعون وملؤه يشكّلون عقبة تحوّل بين الناس وبين الحق ، بما أوتوا من الملك والزينة والمال ، مع ما هم فيه من الكفر والطغيان ، ولا يقبل موسى ومن معه من المؤمنين بهم . لقد بذلوا وسعهم ، ولكن الأمر أكبر من طاقتهم . وقد بلغ الصراع مداه ولا بد أن يُخسَم ، ولا بد أن يُخسَم لصالح المؤمنين أيضاً!

فماذا قال موسى لربه؟ وماذا سأل؟

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨ ، ٨٩] .

لقد وقعت الدعوة موقعها ، وكانت القلة المؤمنة يومها أهلاً لنصر الله ، فنصرهم الله نصراً مؤزراً ، وطهر بسببهم الأرض من الفساد .

كيف؟ وبماذا؟

يقول تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَائِكِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَارِكٍ كَثِيرَةٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ * وَأَجْنَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٦٨] .

وتأمل لفظة ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَأَجْنَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ؛ لتعلم أن إنجاء المؤمنين مقصود لذاته .

ولعل مما يفيد في هذا المقام أن تتلمس شيئاً من الحكمة في كون عقوبة فرعون ومن معه خارج ديارهم ؛ ربما يكون السبب في ذلك - والله أعلم - أنه كان «في قوم فرعون مؤمنون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، فأراد - سبحانه - أن ينتزع فرعون ومن معه من

الظالمين من بينهم ، ولذلك لم ينزل العذاب على أهل مصر ، وإنما أغرق من خرجوا معه لإعادة بني إسرائيل إلى الاستعباد والظلم»^(١) .

إن القلة المؤمنة التي تحمل الحق وتدافع عنه في كل الأمثلة السابقة ، لم تتجاوز في إمكانياتها ووسائلها المادية مرحلة البلاغ لإقامة الحجّة والجهاد بالكلمة ؛ لأنّ أياً من تلك الأمم الغابرة^(٢) - والله في ذلك حكمة بالغة - لم تكن مؤهلة لشرف حمل رسالة الحق والدعوة إليه والجهاد من أجله .

ولأن تلك الأمم لم تكن مؤهلة لذلك ، كان وجود الفئة المؤمنة بينها يتحقق به ، إضافة إلى مهمة البلاغ لإقامة الحجّة ، وهي أول مهمّة وأساس لما بعدها ، يتحقق به قدر الله في دفع الفساد عن الأرض ، بعد اصطفاء واستخلاص العناصر الصالحة .

هذه حال من الأحوال التي يتجلّى فيها دفاع الله عن المؤمنين .

وحال أخرى يكون دفاع الله فيها عن المؤمنين وانتصاره لهم من خلال جهودهم ومباشرتهم للأسباب بدءً وانتهاءً ، مع ما يجريه - سبحانه - من أمور كونية ، هي في مصلحتهم وضد عدوهم .

ذلك أن المؤمنين في هذه الحال ذوو عدد وعدّة ، وإن كانوا أقل من عدوهم .

والفرق المعوّل عليه بين الحالين: أنّ المؤمنين في الحال الأولى ، لا يباشرون هزيمة عدوهم ومدافعتهم بصورة حسية ، وإن كانوا يباشرون أسباب ذلك .

أمّا في الحال الثانية: فهم بذواتهم يباشرون مغالبة عدوهم ودفعه بالقوة المحسوسة .

ولم أفق على أمثلة لهذه الحال ، إلا لبني إسرائيل ، وهي قليلة ، وهذه الأمة الخاتمة وتكاد تستقل بهذا الفضل ؛ لكثرة ما جرى ويجري على أيدي المؤمنين منها من مغالبة الباطل ودفعه ، وكثرة المشاهد التي تجلّى فيها دفاع الله عنهم ونصره إيّاهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في تقرير هذه المعاني: « ومن هذا ، أنّ الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك ، حتى إنه قيل: لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمْ

(١) انظر: تفسير المنار (١٢/١٠٩) .

(٢) أعني: أقوام الأنبياء .

يَتَذَكَّرُونَ ﴿ [القصص: ٤٣] . فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم ، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين .

ولما كان موسى أفضل من هؤلاء ، وكذلك محمد ، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين ، أمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين ، وشريعة محمد ﷺ أكمل ، فهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم^(١) .

أما بنو إسرائيل ، فقد قصَّ الله من خبرهم مع عدوهم ، وكيف كان نصره إياهم ، في آيات ، منها: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا سَبْعَ نَجَاتٍ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ آلَ مُوسَىٰ وَأَنَّا كَانُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَسَقِطَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ ﴿١٠١﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَرَمُوهُمْ يَٰذَنبَ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴿٢٤٦-٢٥١﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١] .

وهؤلاء الذين هزموا جالوت وجنوده ، هم صفوة من خرج مع طالوت للجهاد ، وكانوا أهلاً لنصر الله ؛ لشدة إيمانهم بالله وثقتهم بموعوده .

يدلُّ لذلك ، ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَٰذَنبَ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩] . ومعنى ﴿ يَظُنُّونَ ﴾ : يوقنون بقاء الله ؛ أي بالرجوع إليه بعد البعث ، أو يظنون أنهم يُقْتَلُونَ في هذه الواقعة فيلقون الله شهداء ، وذلك لعزمهم على صدق القتال^(٢) .

ولهذا لما سأله الشيبث واستنصروه ، نصرهم . فجعل هزيمة أعدائهم بإذنه ، فهم بأشروا هزيمتهم ، والله هو الذي قدر لهم ذلك وهياً أسبابه .

ومن أمثلة ذلك: ما حصل من حبس الشمس ليوثع بن نون ﷺ وجنده ، حتى فتح الله عليهم .

(١) جامع الرسائل ، لابن تيمية (٢/٣٣٦ ، ٣٣٧) .

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/٢٦٤) .

وخبرهم في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«غزا نبي من الأنبياء^(١) فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يني بها ولما بين بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولما يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم...» الحديث^(٢).

وفي هذا أعظم دليل على نصر الله عباده المؤمنين، بل وخرق سنن الطبيعة وهي من جند الله لنصرتهم، إذا توافرت فيهم أسباب النصر وكانوا أهلاً لذلك.

أمّا هذه الأمة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، آخر الأمم وأشرفها، أمة الجهاد والملاحم، فإنّ مظاهر دفاع الله عن المؤمنين الصادقين فيها، ونصره إياهم، لا تكاد تنحصر؛ وذلك لكثرة ما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولبقاء الحق والخير والصلاح فيها ظاهراً مستمراً، طبق ما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام من أنه: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٣).

وأنه «لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصاة من المسلمين حتى تقوم الساعة»^(٤).

فإذا مرج أمر الناس ويثس من صلاحهم، ف «إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة - وفي رواية: مثقال ذرة - من إيمان إلا قبضته»^(٥). فلا يبقى إلا شرار الناس، وحينئذ يأذن الله - جل وعلا - بخراب هذا العالم،

(١) هو: يوشع بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار... وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجهما أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَحْسَنْ لِبَشَرٍ إِلَّا يُوشَعُ بْنُ نُونٍ لِيَالِي سَارٍ إِلَى بَيْتِ الْقُدْسِ...». فتح الباري (٦/٢٢١).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/٢٢٠)، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَحَلَّتْ لَكُمْ الْغَنَامَ، وَاللَّفْظَ لَهُ». وصحيح مسلم بشرح النووي (٥١/١٢).

(٣) رواه البخاري، عن المغيرة بن شعبه. فتح الباري (١٣/٢٩٣)، ح (٧٣١١). وصحيح مسلم بشرح النووي (٦٥/١٣).

(٤) رواه مسلم، عن جابر بن سمرة. صحيح مسلم بشرح النووي (٦٦/١٣).

(٥) رواه مسلم عن أنس. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٢/٢).

فإنه «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله الله»^(١).

وأمثلة هذه المدافعة والنصرة كثيرة مشتهرة . وأذكر منها هاهنا ما يتضح به المقصود .

فمن ذلك: الإمداد بالملائكة والريح:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيئُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: ٩]. هذا في غزوة بدر . وفي أحد ، لو أنهم صبروا واتقوا: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]^(٢).

ومنها: الريح والجنود غير المرئية [الملائكة أو غيرهم] في غزوة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَىٰ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَصْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].
وهذه كلها - كما ترى - من صور المدافعة والنصرة المحسوسة .

وأما المعنوية، فمنها: كون الواحد من المؤمنين يغلب عشرة في بدء الإسلام، ثم تخفيف ذلك إلى كونه يغلب اثنين، مع أن الصبر شرط في كليهما .

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

ومن الحكمة في ذلك - والله أعلم - أنهم كانوا في صدر الإسلام قلة، فعوضهم الله قدرة فائقة على الصبر والتحمل، فلما كثروا، خفف ذلك عنهم وأبقى فيهم ما يضمن لهم النصر والغلبة .

(١) رواه مسلم عن أنس . صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٨/٢).

(٢) وهل قاتلت الملائكة يوم بدر وأحد؟ أو أنها قاتلت يوم بدر فقط . أمّا يوم أحد فقد علّق الإمداد بالملائكة بشرطي الصبر والتقوى، فلما لم يحصل الصبر لم يحصل المدد . . . كل ذلك عل اختلاف بين أهل العلم، والأظهر: أن الملائكة قاتلت يوم بدر، ولم تقاتل يوم أحد . ومن أراد تفصيل ذلك، فليراجع أمهات كتب التفسير عند الآيات السابقة، وكذا: زاد المعاد (١٧٦/٣) وما بعدها .

قال ابن عباس: «إلما أمر الرجل أن يصبر نفسه لعشرة، والعشرة لمئة إذ المسلمون قليل، فلما كثر المسلمون خفف الله عنهم»^(١).
 وهم وإن كانوا مأمورين بهذا الصبر^(٢) إلا أن منحهم القدرة عليه هو عين النصر والمدد من الله تعالى، فالمئة في الحالين ظاهرة.

ومنها: تقليل المؤمنين في أعين الكافرين وتقليل الكافرين في أعين المؤمنين قبيل بدء المعركة، ثم تكثير عدد المؤمنين في أعين أعدائهم بعد بدئها، ليدخل في قلوبهم الرعب، وفي أنفسهم الهزيمة.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَن رَّبُّكُمْ عَلِمَ فِيهِ ضَالَّةً فَلَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَضَلُّوا وَلَٰكِن لِّيُحْذِرُوا اللَّهَ فِي الْعَمَلِ وَيُرِيبُوا قُلُوبَهُمْ وَلِيُخْبِتُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَيُرِيَهُمُ اللَّهُ فِي عَمَلِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣]، [٤٤].

وقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرِجُوا كَافِرًا﴾
 يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

إلى صور كثيرة يأتي ذكرها في ثنايا البحث في مواضع متفرقة^(٣).

ونحن إذا تأملنا ما سبق ذكره من صور الانتصار ومظاهر المدافعة عن المؤمنين، وجدناها جميعاً تمثل مرحلة الحسم بينهم وبين أعدائهم، وهذا يكاد يستغرق حال المؤمنين مع أعدائهم في الأمم السابقة حتى زمن موسى ﷺ، أو مرحلة الحسم المرحلي كحال بني إسرائيل من بعد موسى. أمّا هذه الأمة، فقد كانت وما تزال المواجهات مداولة بين المؤمنين وأعدائهم. وفي كل مرة يصدق المؤمنون ربهم يظهر لهم - سبحانه - من صور الانتصار لهم ما يثبت به أفئدتهم ويقوي عزائمهم.

ويبقى أن نقف على بعض صور ومظاهر مدافعة الله عن المؤمنين قبل مرحلة الحسم. وهي مرحلة متداولة، والمؤمنون في قلة وضعف، سواء كانوا جزءاً من المجتمع

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٤٠/١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٤١/١٠).

(٣) انظر مثلاً: سنة الله في النصر والهزيمة، بعد هذا البحث.

الجاهلي، وهنا يشتد عليهم أذى الكافرين والمشركين، أم كانوا متميزين عنه في مجتمع مستقل، وفي هذه الحال يضاف إليهم أذى المنافقين والفاستقين الذي يعملون لحساب الكافرين.

فمن مظاهر مدافعة الله عنهم وتوليهم: أن يدفع الله عنهم الأذى بسبب عصبية قومهم وعشيرتهم، كما جرى لشعيب رضي الله عنه ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

وفي الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١).

وقد يكون التقليل من شأن المؤمنين عدداً ومكانة، سبباً في اندفاع الأذى عنهم؛ لأنهم في نظر الباطل لا يشكلون خطراً، على الأقل في الوقت القريب.

ولهذا قال قوم نوح في معرض تهوينهم من شأن نوح صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه، والتقليل من خطرهم: ﴿ وَمَا نَرِيكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧]؛ أي: ضعاف العقول ومن لا روية ولا بصر بالأمور عندهم.

ومن ذلك: ما قال فرعون الطاغية عن بني إسرائيل: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥]. والشردمة: الجمع القليل المحتقر. وغائظون: أي مغيطون لنا بخروجهم من غير إذننا، ومخالفتهم ديننا^(٢).

ولعل الأقليات الإسلامية اليوم في بلاد الكفر، في نظر أعدائهم تصلح مثلاً على ذلك. فإنهم عندما كثر عددهم وصار لها نوع تأثير في تلك المجتمعات وأصبحوا مظنة خطر على تلك الدول ولو بعد حين، بدأ مسلسل التضييق عليهم، ووضعت العراقيل في وجه المهاجرين الجدد، وكفروا بما كانوا يؤمنون به من قبل من دعاوى الحرية في الأديان وحماية حقوق الإنسان، وخصوصاً الأقليات!

(١) فتح الباري (١١/٤١٧)، ح (٦٥٦٤). وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/٨٤).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٠١).

كما أن الإسلام ذاته في معاقله في العالم الإسلامي، لما كان إسلاماً مهادناً، لا يعارض السياسة المنحرفة، بل ربما دعمها وباركها كان إسلاماً مقبولاً متعايشاً. وعندما نهض المسلمون لإصلاح أوضاعهم وتحكيم الإسلام في كافة شئونهم، عندها تغير مزاج الأنظمة الحاكمة ومن ورائها الاستعمار المدافع عنها، فاخترعوا للإسلام اسماً خاصاً، وعتوه بالإسلام السياسي، والإسلام الحركي، والإقصائي وحاربه بكل أنواع الحرب!

وقد يكون غرور الباطل وثقته بنفسه، لتمكنه من أسباب القوة المادية، وراء التهوين من شأن الحق وأهله؛ لاعتقاده أن بإمكانه أن يسحقهم في أي ظرف من الظروف ويحسم الموقف لصالحه، وهذا مما يندفع عنهم البلاء بسببه.

وهذا - والله أعلم - هو أيضاً من أسباب استهانة المبطلين بالعقوبات الإلهية، بل واستعجالها، عبر التاريخ^(١).

وقد يكون اختلاف أهل الباطل فيما بينهم وانشغالهم بأنفسهم سبباً في انشغالهم عن المؤمنين وكف الأذى عنهم. بل ربما وجدوا ملاذاً بين ذلك، كما حصل للمسلمين عند النجاشي، وكما هو حاصل نسبياً إبان الحرب الباردة في العقود المنصرمة.

وقد تكون قوة الحق في نفسه، سبباً في إحجام الباطل عن منازلته بصورة مكشوفة، وإن كان لا يكف عن الكيد له. كما هو ظاهر أيام ظهور دولة الإسلام خلال قرون من صدر الإسلام.

إلى أسباب أخر كثيرة تتنوع في مظاهرها وأسبابها، وتجتمع وتتوحد في نتيجتها لتحقق هذه السنة الإلهية، ألا وهي «دفاع الله عن المؤمنين».

* وخلاصة القول في هذه السنة — سنة المدافعة عن الدين آمنوا في الحياة الدنيا:

أن الصراع بين الحق والباطل قديم، ومستمر، ولا ينتهي إلا بانتهاء هذا العالم. ولا يمكن عقد هدنة بينهما، ولا اتفاق على اقتسام مواقع النفوذ.

وأن أهل الحق لا يثبتون في أي فترة من الفترات على الحق الذي يؤمنون به ثباتاً يؤهلهم للنصر إلى ما لا نهاية. بل يقع فيهم ومنهم من أسباب الضعف والانحراف ما يديل عدوهم عليهم.

(١) وسيأتي لهذا المعنى مزيد بسط في مبحث: (الملاظاهرة تكرر)، في الفصل الخامس من هذا الباب، بإذن الله.

وهم كلما ثبتوا عليه والتزموا به واستفرغوا وسعهم في نصرته ، فإن الله ينصرهم ويدفع عنهم بحسب حالهم المادية ، بما يعلمون وما لا يعلمون ﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤ ، ٧] . وأن الله - جل وعلا - يُجري بقدرته من الأسباب المختلفة ما يدفع به عنهم الأذى في كل مرحلة يمرون بها ، سواء كانوا بين ظهرائي الجاهلية ، أو في مجتمع متميز منحاز .

ومن هنا فإن كل ما يظن أن ظاهره يخالف هذه السُّنة - سنة المدافعة عن المؤمنين - أو ينقضها عبر التاريخ ، فهو ؛ إما من قبيل الحالات الفردية^(١) ، بمعنى: أنه لا يشمل الأمة بعمومها ، إن كان في مرحلة الحسم . أو يكون من باب الابتلاء والتمحيص ، إن كان قبل مرحلة الحسم . وإما لتخلف شرط أو أكثر ، أو وجود مانع أو أكثر مما سيأتي تفصيله في مبحث «سنة الله في النصر والهزيمة» .

وأخيراً ، فإن الغرض من أفراد هذه السُّنة - سنة المدافعة - بمبحث مستقل ، هو التأكيد على أهميتها ، وضرورة المراجعة الجادة لها ، وإنزالها منزلتها اللائقة بها بين أسباب النصر والهزيمة ، في الوقت الذي لا تزال الأمة الإسلامية تعاني من أزمت خانقة ، وتجهل أو تتجاهل سرّ هزائمها المتتالية .

وأفراد هذه السُّنة بالحديث ، لا يعني بحال ، التهوين من شأن الأسباب الأخر للنصر والهزيمة . كما لا يعني بحال ، أن الأمة المسلمة تمنح النصر وتكفي الأذى ، لأنها الأمة المسلمة وكفى! كلا ، لا هذا ولا ذاك .

إن الإيمان والتزام الحق ، سبب . ولكنه من أقوى الأسباب وأكثرها فاعلية على الإطلاق . وإذا اجتمع الإيمان والتزم الحق ، مع الأخذ بالأسباب الأخر - وهي من مستلزماته - في أمة ما ، فإنها تضمن النصر والتفوق بموجب الوعد الإلهي ؛ لأنه اجتمع لها من أسبابه ما لم يجتمع لغيرها . والله تعالى أعلم .

(١) وقد علمت أن من خصائص السُّنة: أنها جماعية لا فردية .

سنة الله في النصر والهزيمة

النصر والهزيمة هما نتيجة (المدافعة) بمعناها الأعم، بين قوى الأرض المختلفة بصفة عامة، وبين الحق والباطل بصفة خاصة.

وإذا كنا قد تبيننا في المبحث السابق معنى المدافعة، وأنها ضرورة لا بد منها، ووقفنا على أسبابها ومظاهرها، وعرفنا أن المدافعة التي تبني ولا تهدم، وتشكل حجر الزاوية في تقدم الإنسانية وبقائها، أنها مدافعة الباطل بالحق.

إذا كنا قد تبيننا ذلك، فإن خلاصة ما انتهينا إليه هو معرفة أسباب ذلك الصراع وميادينه، والعوامل التي تحكمه. وبقي أن نعلم الأسباب والعوامل التي تحكم نتائجه ونهاياته. وهذه النتائج والنهايات لا تعدو أن تكون نصراً أو هزيمة، وهي ما تضمنه هذا المبحث: «سنة الله في النصر والهزيمة».

وقبل الدخول في تفاصيل هذه السنة، لا بد أن نعرف معنى النصر والهزيمة في اللغة، ودلالاتها في القرآن الكريم.

ولبيان ذلك أقول:

النصر والهزيمة كلمتان متقابلتان في دلالتهما من الناحية الاصطلاحية، فالنصر ضد الهزيمة ومقابلها. وأصل النصر: العون والمنع، وأصل الهزيمة: من الهزم، وهو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم، فهي بمعنى الحطم والكسر^(١).

وللنصر عدة معانٍ ذكر أشهرها في كتاب الله تعالى:

«أحدها: المنع. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿فَلَا يَحْصِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

[البقرة: ٨٦].

وفي الشعراء: ﴿هَلْ يَنْصَرُونَكُمْ أَوْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]؛ أي: يمنعوكم من عذاب الله.

وفي المؤمن: ﴿فَمَنْ يَنْصَرُنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]. وفي الصافات: ﴿مَا

لَكُنَّا لِنَنْصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

(١) مفردات الراغب، مادة (نصر)، (هزم).

والثاني: العون. ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]. وفي الحشر: ﴿وَإِنْ قُوَّتُمْ لِتَنْصُرُنَا كَثْرًا﴾ [الحشر: ١١]. وفي سورة محمد ﷺ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والثالث: الظفر. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. ومثله في آل عمران [آية: ١٤٧].

والرابع: الانتقام. ومنه قوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ [الشورى: ٤١]. وفي سورة محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَ نَهْمَهُمْ﴾ [محمد: ٤]. وفي القمر: ﴿أَفِي مَقْلُوبٍ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠] (١).

ومن هذه المعاني اللغوية يتضح معنى النصر، وأنه ليس له صورة خاصة ومعنى واحد (٢).

بل أي صورة وأي معنى تحقق في عالم الواقع، سواء كان تحققه حسيماً أو معنوياً، فإنه يُعدُّ نصراً، وصاحبه منصوراً، خصوصاً في جانب المؤمنين، وإن بدا لأكثر الناس بخلاف ذلك (٣).

وإذا كان النصر أو الهزيمة يقعان للأمة أو الجماعة نتيجة «المدافعة والصراع»، فإنهما لا يقعان إلا بأسباب معقولة معلومة لنا نحن البشر، ثابتة مطردة، يمكن اعتبارها والقياس عليها، وإن اختلفت الأمم والجماعات البشرية في إدراكها والعمل بما تقتضيه.

ومجموع هذه الأسباب والعوامل، يساوي: السنة الإلهية في النصر أو الهزيمة. وقد جاءت هذه السنة مفصلة مبينة في كتاب الله تعالى أحسن تفصيل وبيان.

وقبل البدء في تفصيل الأسباب واستعراضها، أتبه إلى أمرين تجدر ملاحظتهما:

الأول: أن سبب النصر، تركه يكون سبباً في الهزيمة، والعكس.

(١) انظر: نزعة العين الناظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، ص ٥٨٦، ٥٨٧، ومنه نقلتُ بتصرف يسير. وانظر:

الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - دراسة وموازنة، للدكتور/ سليمان بن صالح القرعاري، ص ٦١٨. ومن معاني النصر، غير ما ذكر: أنه قد يطلق على الغيث، يُقال: نصر الغيث الأرض؛ أي: غاتها، وعلى العطاء. انظر: اللسان، مادة (نصر)، وبصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (٦٩/٥).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٥٩٥/٢).

(٣) ولعله قد اتضح لك شيء من ذلك عند الحديث عن (سنة الله في المدافعة عن الدين آمنوا)، ويمكنك مراجعة كتاب: حقيقة الانتصار، للدكتور/ ناصر العمر.

والقرآن فذكر هذا تارة وهذا تارة، وربما فذكر السبب وما فقابله، وإن كان ذكره للأسباب الجالبة للنصر بالنص عليها أكثر من ذكر الأسباب التي تنتج الهزيمة .

الثاني: أن القرآن قد عنى بذكر الأسباب الجامعة وإبرازها، وهذا هو الأصل . وربما ذكر بعض التفاصيل الهامة عند بعض الأسباب .

إذا علم هذا، ففنبغف أن فُرد إلى كل سبب ما فندرج تحته أو فترف عنه من الأمثلة والأسباب والوسائل التي فختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال .

أمّا الأسباب والعوامل التي فحكم نتيجة المدافعة والصراع بين الأمم والجماعات البشرية في مفادين الحياة المختلفة، فهي على التفصفل كثيرة، وهي إما أسباب معنوية معقولة، أو محسوسة مشاهدة .

وبفن هذه الأسباب المادية والمعنوية فآثر وفآثير متبادل، وبفنهما فكامل وفآزر، فبفث لا فبغفف شفء عن شفء .

وسأفصل في الصفحات التالية كلا النوعفن، وأبدأ ببيان العوامل المعنوية للنصر والهزيمة .

العوامل المعنوية للنصر والهزيمة

وابتدأت بها؛ لأهميتها، ولأنها تسبق العوامل المادية والمحسوسة في الوجود عادة، ولأن الأسباب المادية لا تؤدي وظيفتها في أمة أو جماعة فقدت قوتها المعنوية. والله در القائل:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وتشكل هذه العوامل المعنوية حجر الزاوية في كسب المعارك وتحقيق الانتصارات في الميادين العسكرية والفكرية.

ومن مظاهرها الدالة على وجودها، والتي لا تكاد تتخلف، وإن تفاوتت قوة وضعفاً بحسب حال الأمة:

* الطمأنينة في القلوب والسكينة التي تغمر النفوس في الشدائد والأزمات، وأخصها أيام الحروب وفي ساحات القتال.

* الشجاعة النادرة والإقدام في غير تهييب ولا تردد.

* الصبر والمصابرة والثبات وعدم اليأس.

وللقوة المعنوية أسباب وعوامل، توجد بوجودها، وتختل باختلالها، وتذهب بذهابها.

وأهم هذه الأسباب والعوامل ما يلي:

الإيمان بمبدأ وعقيدة، والشعور بقدسية الدفاع عن ذلك.

وهذا من أقوى الأسباب وأهم العناصر في رفع معنويات الأمة والجند؛ ذلك لأن للعقائد سلطاناً أيماً سلطان على القلوب والمشاعر، ويقدر إيمان الأفراد وقناعتهم بها، تكون قوتهم المستمدة منها، ويكون بذلم وتفانيهم في سبيلها.

والعقائد والمبادئ على ضربين:

الضرب الأول: العقائد والمبادئ السماوية، وهي إما صحيحة معتبرة، أو محرفة مبدلة، ولكن بقيت منها رسومها، وبقيت في الأمة عاطفة وانجذاب نحوها، وحمية دونها.

والضرب الثاني: مبادئ وعقائد أرضية، وهي إما ملفقة من أديان سماوية بعد أن شوّهت وحرّفت، وإما أفكار فلسفية قامت على أساس إنساني أو نفعي، محاولة تفسير ظواهر الوجود.

أمّا العقائد والمبادئ السماوية الصحيحة، فلها في باب النصر والهزيمة شأن خاص، وهي تستقل بخصائص ومميزات، ولا تدانيها أية عقيدة أو مبدأ، فهي في ذاتها حق؛ لأنها من عند الله، وهي التي تنصر الحق المطلق، وتستقل بتمثيله في الوجود؛ لأنها منزلة من عند الله، ومعتنقوها يأترون بأمر الله، على خطى رسله وأتباعهم من المؤمنين على طريقتهم.

ومن خصائصها التي لا يشاركها فيها أي مبدأ أو عقيدة أخرى، حتى السماوية المحرّفة:

- أنّ النواميس الكونية والسُنن التي تحكم الطبيعة المادية تنخرق لتحقيق النصر لأهلها.

- أنّ القِلّة والكثرة العددية معها، ذات قيمة محدودة، وليس الأمر كذلك مع غيرها.

ولأهمية الإيمان بالله والالتزام بشريعته، وأثرها البالغ في منح القوة المعنوية وتحقيق النصر، أفردتها بمبحث خاص^(١)؛ لأنها بذاتها تمثل سُنّة مستقلة.

وإذا ما تجاوزنا الإيمان الصحيح بالله والالتزام بشريعته، باعتباره شيئاً فريداً في صناعة النصر، وطاقة فذة تمنح الفرد والأمة قوة باهرة ومعنوية عالية. إذا ما تجاوزنا ذلك، فإننا نجد الأمة ذات العقيدة والمبدأ - الباطل على أية حال - تتميز بقوة ومقاومة أكثر، وتمتّع بمعنوية أعلى، ويمكن استئثارها إذا جد الجدل باسم عقيدتها التي تدين بها، ومبدئها الذي تجتمع عليه، فتبذل وتضحى وتصابر، بخلاف الأمة التي تعيش بلا مبدأ وتحيا بلا انتماء عقدي، فبأي شيء تستثار؟ ولأجل ماذا تبذل وتضحى وتصابر؟

ولهذا تحرص الأمم عبر التاريخ، على ربط أفرادها بمبادئ وعقائد تخدم مصالح الفئات التي تنزع أمرها، ولا تكاد تستثار هِممها بشيء كما تستثار إذا خوطبت باسم العقيدة والمبدأ!

(١) هو مبحث: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْزِعُ عَنِ الَّذِينَ مَا آمَنُوا﴾.

وإذا خرجت الأمة دفاعاً عن عقيدتها ومبادئها، فإنها تخرج بروح متوثبة وإصرار عجيب، بل وحق على العدو لا يكاد يُوصَف؛ لأن كل فرد فيها - فضلاً عن مجموعها - يرى أنه يخوض حرباً مقدسة، ويصارع من منطلق حضاري، وربما اعتقد - وهذا غير قليل وتذكيه الدعاية الماكرة - بأن الله في صفه يبارك صنيعه، إلى غير ذلك من العوامل التي تلهب عاطفة الجندي فيندفع اندفاعاً ذاتياً. هذا الاندفاع الذاتي، هو حجر الزاوية في القوة المعنوية.

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثيرة مشهورة، وخير من الإطالة في سردها أنبيك عن قاعدة تهتدي من خلالها إلى مظانها، وأسوق مثلاً أو مثالين بالمناسبة.

أمّا قاعدة ذلك: فانظر في أحوال الأمم السابقة ممن فصل خبرهم في القرآن، تجد الملائم المتفذين فيهم كلما دهمهم أمر لا يد لهم في مغالبتة، أو احتاجوا الأمة في مواجهة جماعية، تنادوا باسم الدين والآلهة للدفاع عنها وحمائتها، فيتم لهم ما يريدون!

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا لَمْ نَدْعُهُ أَبَدًا وَنَدَعِيهِمْ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّزَّ بِيَدِهِ مَالَهُ. وَوَلَدَهُمُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكْرُومًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا نَذَرْنَا إِلَهُهُمُ إِلَّا نَذَرْنَا. وَذَا وَلَا سَوْعَاءَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤].

وبين في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، أن الملائم دحض إبراهيم حججهم: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهُهُمُ إِنَّ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ففعلوا ﴿ فَأَجْنَبَهُ اللَّهُ مِن النَّارِ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وفي واقع هذه الأمة من ذلك، أمثلة كثيرة.

هذه الحروب الصليبية الحاقدة مثلاً، ما كان لها أن تتم أو تصمد الكرة بعد الكرة لولا إذكاء العاطفة الدينية في نفوس النصارى، واستعدادهم على المسلمين على أيدي قسهم وبابواتهم.

وفي شبه القارة الهندية، يدير الهندوس زحى حرب لا تحبوا نارها، ضد المسلمين هناك بقصد إفنائهم، وإلا فهم لا يتمتعون إلا بأقل القليل من حقوقهم، كل ذلك لحماية ديانتهم، ودفع البديل الحضاري الذي يمكن أن ينافسهم^(١).

(١) وما مذبحة آسام الهندية عام ١٤٠٣هـ، وهدم المسجد البابري في مدينة أيوديا سنة ١٤١٣هـ، وما صاحب ذلك وتلاه من مجازر إلا مجرد شواهد لما عايشناه نحن... وما أحداث كشمير المتطاولة عنا ببعيد.

وبالجمله فإنّ العقائد والمبادئ تمنح الأفراد والأمم قوة، وترفع معنوياتها؛ لأنّها تضعها أمام مسؤولية محدّدة، يشترك في حملها والذود عنها الفرد والجماعة، ويقدر إيمانها وقناعتها بها، تكون قوة الأمة المعنوية .

ومما يزيد في إيمان الأمة بمبادئها، وتعلّقها بها:

- وضوح هذه المبادئ في أذهان الأفراد، وبساطتها وانسجامها .

- والعزيمة والحزم في تربية الأمة عليها، وتسخير الوسائل كافة لخدمتها، وغرسها في نفوس الناشئة، وربط تحركات الأمة بها .

- والحيلولة بين الأمة وبين المؤثرات الأجنبية أن تزاحمها، لا في القلوب والمشاعر فحسب، بل في كل ميدان من ميادين الحياة .

* ومن عوامل قوة الأمة المعنوية: سمو الهدف وعدالة القضية التي تحملها وتدافع عنها .

فالأمة المتسلطة الظالمة، التي يحدوها الغرور وحبّ التسلّط، ويخرجها البطر والرياء، والصدّ عن سبيل الله، واستعباد الآخرين ونهب ثرواتهم والاستيلاء على ديارهم... الأمة التي هذه - أو بعضها - من دوافعها في حروبها وصراعها، يخالط جنودها - غالباً - من الزهو والاستهتار والاغترار بالقوة، واعتقاد أن النصر لا يمكن أن يخرج عنهم ما يخالطهم . وهذه تعمل عملها في نفوسهم، وتصبح معنوياتهم مرهونة بنجاح آلتهم العسكرية .

يقاتل الواحد منهم وكل همّه أن يجيا ليعود إلى ما كان فيه من متعة وهو . وهذا بخلاف الأمة أو الجماعة التي تخرج مدافعة عن حق مشروع لها، أو لرفع ظلم واقع عليها أو نحو ذلك . فإنّها تخرج مستشعرة حاجتها إلى توحيد كلمتها، مدركة حجم قوة عدوها، تخرج وهي صاحبة حق، وطالبة ثأر . تشعر بأنها مظلومة لا ظالمة، غير معتدية بل معتدى عليها، يقاتل الجندي فيها ليدافع عن وجوده... وشتان بين الحالين!

هذا من ناحية التحليل النفسي البحت . وأمّا من الناحية الشرعية، فإنّ من حكمة الله وعدله، أنه ينصر المظلوم على من ظلمه، ويخذل المتكبّر الباغي، أيا كان هؤلاء وأولئك^(١) .

(١) هذا إذا لم توجد أسباب وموانع أخر تغير من نتيجة المواجهة والمدافعة .

وقد بين الله ذلك بقوله محذراً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأخبر أنه لا يجب المعتدين، ناهياً عباده أن يكونوا كذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُفْسِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْسِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

جاء في السيرة في خبر وفد بني الحارث بن كعب على رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال لهم فيما قال: «بِمَ كُنتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟»، قالوا: لم نكن نغلب أحداً. قال: «بلى». قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبداً أحداً بظلم. قال: «صدقتُم»^(١).

أقول: وإذا كان هؤلاء يغلبون من قاتلهم؛ لأنهم لا يبدأون أحداً بظلم، فلأن يتتصر ويغلب من غايته وكل همه أن يرفع الظلم الأكبر من الأرض، ويمنع الفتنة الكبرى، ويدل الخليفة إلى ربه... لأن يتتصر من هذه حاله أولى، وليس ذلك لأحد إلا للمسلمين الصادقين.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أُنْتَهُوَ قَاتِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ نِعَمٌ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ومن أسباب القوة المعنوية للأمة: عدم الاعتزاز بالقوة والكثرة أو الإعجاب بها. وإن شئت فقل: إن من عوامل انهيار معنويات الأمة: إعجابها بكبرتها واعتزازها بقوتها. حتى وإن كانت خرجت لتقييم الحق والعدل، فضلاً عن كونها معتدية معادية للحق.

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣١٩/٤)، وقال محققا السيرة: إن الخبر ضعيف؛ لأن طريق ابن إسحاق لم يصرح فيه بالسماع، والطريق الأخرى عند ابن سعد في طبقاته (٢٣٩/١، ٢٤٠) فيها الواقدي، وهو ضعيف. وانظر: زاد المعاد (٦٢٢/٣). ولكن معنى الخبر صحيح، والأسباب التي ذكرها الوفد أسباب تشهد لها النصوص الأخرى من الكتاب والسنة، وهي مقتضى العقل.

وسرّ ذلك - والله أعلم - : أن نظر الجندي إلى ما يسند من قوة ، يصيبه بالاسترخاء ، فيستهن بقوة الخصم ، ولا يرى نفسه في حاجة إلى أخذ الحيلة والحذر اللازمين . . . هذه النظرة تبدأ من الجندي الفرد ، وتنتهي بالأمّة كلها من ورائه .

قال تعالى واصفاً حال المؤمنين يوم حنين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ قَلَمَ تُغْنِنَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] .

ومما يورث الأمّة قوة معنوية: التلاحم الصادق بين القيادة والشعب بين القيادة والقاعدة . وفي أيام الحرب بين القائد والجنّد بصفة خاصة . وهذا سبب عظيم من أسباب قوة الأمّة ، وانتصار جنودها على أعدائهم . فما برهان وجود هذا التلاحم؟ وما الطريق إلى إيجاده إن لم يكن موجوداً؟

أمّا برهان وجوده في الأمّة والجنّد: فحصول الطاعة الاختيارية والانقياد ، وآيته عدم التنازع والاختلاف ؛ أي اجتماع الكلمة ووحدة التوجّه .

ولهذا أمر الله بالطاعة ، وعطف عليه النهي عن التنازع بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

إنّ سيادة روح الطاعة ، والانقياد وترك التنازع والاختلاف ، ضرورة لتحقيق النصر ودرء خطر الهزيمة ، ليس فقط بين أفراد الجنّد (الجبهة الخارجية المباشرة للعدو) بل بين أفراد الأمّة عموماً (الجبهة الداخلية) .

وإذا فشلت الأمّة في إشاعة هذه الروح ، ذهبت ريحها ، ووجد أعداؤها ثغرة ينفذون منها لتفريق كلمتها وضرب بعضها ببعض .

إنّها وحدة الكلمة والصف التي كانت وراء انتصارات وفد بني الحارث بن كعب . كما في الخبر السابق ، حيث قالوا: «كنا نجتمع ولا نفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم» . قال ﷺ: «صدقتم»^(١) .

وأما الطريق إلى إيجاد هذا التلاحم، فأمر، أهمها:

(١) سبق تخرجه في الصفحة السابقة .

* قيام أمر الأمة على مبدأ الشورى في كل شئونها ، في الحرب والسلام ؛ إذ من المعلوم أن الأمة إذا اختارت شيئاً وارتأته ، اندفعت بطبيعتها لتحقيقه والدفاع عنه ، لأنها حينئذٍ تحقق ذاتها ، وتدافع عن اختيارها ورأيها ، بخلاف ما إذا كانت لا رأي لها ولا اختيار ، بل فكيف إذا كان رأيها بخلافه ، وإرادتها على الضد منه؟!

وقد جاء الأمر بالشورى والمشاركة في القرآن الكريم في سياق السلم والحرب .

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] .

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، فقد جاءت في سياق الحديث عن غزوة أحد .

ومن أسباب التلاحم:

* أهلية القيادة وكفاءتها ، في السلم والحرب ؛ لأن الجندية طاعة^(١) ، والطاعة مبنائها على القناعة ، والقناعة تخلقها الأهلية والكفاءة في القائد .

وكفاءته تكون: باستعداده الفطري بأن يكون مجبولاً على الشجاعة وكريم الخلال ، وسعة علمه وخبرته بشئون ما رأسه ، وهذا الذي يكون به حُسن التدبير . ويسطة الجسم المستلزم لكمال قواه العقلية وسلامة تفكيره^(٢) .

قال تعالى في قصة الملائكة من بني إسرائيل: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] .

ولله درّ الشاعر العربي حيث قال في صفات الجدير بالاختيار لزعامه الأمة وقيادتها:

رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فقلدوا أمركم لله دركموا

ولا إذا عض مكروهه به خشعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده

(١) وأعني بها: الطاعة البصرة ، الطاعة الذاتية الاختيارية . أمّا الطاعة العمياء ، فلا تحتاج إلى أكثر من سياط تلهب الظهر ، وعقوبات متنوعة ليس الموت بأشدها أذى لكل من لا ينفذ قبل أن يسأل أو يناقش ، وهذه الطاعة لا ترفع المعنويات ، بل تقتلها ولا تخلق تلاحماً ، بل تزرع ضغينة وحقدًا!

(٢) انظر: تفسير المنار (٢/٤٧٧) .

وليس يشغله مال يثمه — عنكم ولا ولد يبغى به الرفعا^(١)
والجندي يشعر بالغبطة وهو يطيع قائده الكفاء ، ويتفانى لأنه يرى قدوته أكثر تفانياً
منه .

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «كنا في المعارك إذا حمى الوطيس واحمرت الحدق واشتدَّ القتال، كنا نتقي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن أحد أقرب إلى العدو منه» .

وقال بعض الصحابة: «كان أشجعنا يكون خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢) .

ومن أسباب القوة المعنوية الجالبة للنصر: الصبر والمصابرة.

وهو تاج الأسباب وركن ركين في النصر، وهو قبل الأسباب ومعها؛ إذ كل سبب لا بد في تحقيقه من التحلي بالصبر، ولا بد مع اجتماعها من الصبر على لأواء الحرب، وشدتها، ومصابرة العدو حتى ينفد صبره وتحور عزمته، وإلا ذهب كل شيء وبطل كل جهد .

والصبر ملكة الثبات والاحتمال، التي تهون على صاحبها كل ما يلاقه^(٣) في سبيل تحقيق مراده . وهو يُذكر في القرآن تارة بلفظه، وتارة بلازمه أو نتيجته، أمراً به أو نهياً عن ضده .

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَزَعُوا فَنفَشَلُوا وَيَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٥، ٤٦] .

فأمرهم - جل وعلا - بالثبات، وهو لا يكون إلا بصبر، أو هو الصبر في موقف خاص .

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

(١) الآيات من قصيدة للحكيم الجاهلي: لقيط بن يثمر الإيادي، الشاعر . بعث بها إلى قومه وهو في بلاط كسرى ينذرهم إغارة فارس عليهم . ومطلها:

يا دار عمرة من محلها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

وهي قصيدة طويلة، تُمدُّ من عيون الشعر العربي . انظر: ديوان لقيط بن يثمر، ص ٢٧ وما بعدها . والأعلام (٢٤٤/٥) .

(٢) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٥٩/٦) . وعوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبو خليل، ص ٢٢ .

(٣) تفسير المنار (٣٥/٢) .

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا رَحْمَةً فَلَآ تُؤَلُّوهُمُ الَأَذْبَارَ * وَمَن يُؤَلِّهِمُ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَكَءٍ يَبْغَضِبُ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَدُهُ جَهَنَّمُ وَيَتَسُكَّرُ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

والصبر، وإن كان لكل من اتصف به نصيب منه، إلا أن المؤمنين أتم من غيرهم فيه، وللصابرين منهم مزية على من عداهم، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤].

قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]. حتى مع صبرهم .
وامتداحُ الصبر، وتمدحُ العرب به، وكونه من سيما الشجعان ومفخرة الأبطال شيء معروف، والعرب كثيراً ما تقرن بين الصبر والشجاعة وبين العفة، كما في قول عنتره^(١):

يخبرك من شهد الوقعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وقوله أيضاً:

إنا إذا احمرَّ الوغى نروي القنا
ونعف عند مقاسم الأنفال^(٢)

ومن الأسباب المعنوية الجالبة للنصر: الوفاء بالعهود والمواثيق وعدم الغدر والخيانة^(٣).

وهذا عام في زمن السلم والحرب، وفي حال قوة الأمة وضعفها .
ومعلوم أن الوفاء بالعهود والمواثيق، واجب وأمانة مرعية، وأن الغدر والخيانة ظلم يجلب الدمار على الأفراد والأمم .

(١) هو: عنتره بن عمرو بن شداد العبسي، كان لأمّة سوداء، استعبده أبوه على طريقة الجاهليين، ثم ادّعاء لما ظهرت مخالب شجاعته في بعض المواقع التي أغار فيها بعض أحياء العرب على قومه العبيسيين، ومن قوله يفخر بنفسه:
إني لتعرف في الحروب موطني
في آل عيس مشهدي وفعالي
منهم أبي حقا فهم لي والدي
والأم من حام فهم أحوالي
والبيت في معلقته المشهورة . انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ١١٠ . وشرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ١٤٧ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٣٦٢/٧).

(٣) انظر: تفسير المنار (١٤٠/١٠).

ورعاية العهود والمواثيق، وعدم الغدر والخيانة عند غير المسلمين الصادقين، مرهونة بمصالحهم لا بجرمة العهود والمواثيق في ذاتها، إلا ما ندر.

ومما يدل على وجوب الوفاء بالعهود وحرمة الغدر والخيانة، أيا كان العدو المعادي لنا: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبِحْ لَنَا أَنْ نَنْصُرَ إِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ غَيْرَ الْخَاضِعِينَ لِحُكْمِنَا عَلَى الْمَعَاهِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]»^(١).

بل حتى القوم الذين لا يؤمن جانبهم، ويخاف منهم نكث العهد وخيانة الميثاق، لا ينبغي أن نعاملهم بخيانة من جانبنا، وإنما نبذ إليهم عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ بلا خداعة.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِضِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومما يدل لذلك أيضاً: أمر الله بإتمام عهد المعاهدين إلى مدتهم، ما لم يبدأوا هم بنقضه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].
تلك هي أهم الأسباب المعنوية الجالبة للنصر بصفة عامة.

وهي أسباب يمكن أن توجد عند أية أمة أو جماعة، وإن كان المسلمون الصادقون أسعد بهذه الأسباب من غيرهم، وأكمل حالاً فيها، بل هم أحق بها وأهلها. إن كانوا صادقين.

وبقي من أسباب القوة المعنوية، أسباب خاصة بالمؤمنين لا يشركهم فيها غيرهم، زيادة في تثبتهم، وتميزاً لهم عن غيرهم بما تميزوا به من نُصرة الحق. وهذه الأسباب - في حقيقة الأمر - هي من لوازم الإيمان ومقتضياته.

وهي أسباب عظيمة القدر ذات تأثير بالغ في باب النصر والهزيمة، ومنها:

* ذكر الله ودعاؤه في كل حال وعند لقاء العدو بصفة خاصة:

(١) تفسير المنار (١٠/١٤٠، ١٤١).

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] .

اذكروه بالاستكم بأنواع الذكر والثناء، واسألوه الثبوت وأن يمنحكم اكتاف عدوكم . واذكروه بقلوبكم بتذكر قوته التي لا تغلب، ووعده الذي لا يخلف بنصركم والكون معكم على عدوكم .
وأكمل صور الذكر: أن يتواطأ القلب واللسان، وتظهر على الذاكر علائم الذل والافتقار^(١) .

وذكر الله عند لقاء العدو، دليل على أهمية الذكر وعظيم أثره في تثبيت القلوب التي تثبت ببناتها الأقدام، فإن الذكر يفيض على القلوب طمانينة وقوة لولاه ما حصلت .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

وإذا اطمأنت القلوب، ثبتت الأقدام، واشتدَّت السواعد، ولم تنزع الأبصار؛ لأنها إنما تزيغ بسبب الخوف والكره^(٢) .

والذين يتذكرون الله عند لقاء العدو ويذكرونه كما أمرهم، أولئك خواص عباد الله الربانيون؛ لأنهم ذكروا الله في موطن تذهب فيه الألباب وتذهل فيه العقول، فهو - سبحانه - عندهم أقرب مذكور وأعظم مأمول، وهم الذين يوهب لهم النصر .

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا ءَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ءَسَآكَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨] .

وقال عن خواص قوم طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ نَاجِيْنَ وَإِن يَأْتِنَا مِنْهَا آيَةٌ فَاغْرِبْنَا عَلَيْهَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١] .

(١) انظر: تفسير المنار (٩/٥٥٧) .

(٢) وسياقي لهذا المعنى مزيد بيان في بحث: (الإيمان مصدر القوة والطمأنينة)، في الفصل الخامس، بإذن الله تعالى .

ثم إن الجهر بذكر الله من جميع المقاتلين يفت في أعضاء العدو، وهو حسن في مثل هذه الحال^(١).

* ومن أسباب النصر التي اختص الله بها المؤمنين: طاعة الله ورسوله في كل الأحوال^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَهْبَطَ بِهَا مِنْ أَفْئِدَتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والأمر بطاعة الله ورسوله، وإن كان مذكوراً في هذه الآية في سياق الأسباب الجالبة للنصر، إلا أن معناه أعم وأشمل.

ولا شك أن طاعة الله ورسوله في شئون الحرب وطاعة الإمام الذي يقاتل المسلم تحت لوائه، وطاعة قواده^(٣) في طاعة الله... أن طاعتهم داخلية في عموم الأمر في هذه الآية بلا شك.

بل أقول: إن الطاعة في الحرب تختلف عن السلم، فلا بد فيها من الطاعة التامة الفورية، بصورة جماعية. وإن لم يفعلوا ذلك خسروا الحرب، وربما خسروا أنفسهم، وخسرت أمتهم من ورائهم.

والجندي المسلم حينما يقدم هذه الطاعة، لا يقدمها على أنها طاعة تقتضيها المصلحة فحسب، كما هي حال الجندي من غير المسلمين، إنما يفعل ذلك على أنه طاعة لله ورسوله ﷺ. فهو يطيع الأمر ديانة وتقرباً إلى الله، والمصلحة العامة داخلية في ذلك، بل ذلك عين المصلحة. وبهذا تميّزت الطاعة لله ورسوله ﷺ، فالطاعة بحمد ذاتها سبب للنصر، وكونها طاعة لله ورسوله ﷺ سبب آخر من أسباب النصر.

لكنني أقول أيضاً: إن طاعة المسلمين في الحرب لقائدهم، لا تغني عن طاعتهم لله ورسوله في زمن السلم، فضلاً عن زمن الحرب؛ لأن الجندي جزء من الأمة، وهم إنما يدافعون عنها. وصلاح الأمة واستقامتها على أمر الله سبب في نصر جندها، وإن كان فيهم نوع تقصير. فحال الأمة شديد الارتباط بنتيجة الحرب، في كل أمة، وعندنا نحن المسلمين بصفة خاصة.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٤/٨).

(٢) وهي أعم وأشمل من تلك الطاعة التي هي ثمرة للتلاحم بين الرعية والوالي، أو بين الجند والقائد.

(٣) تفسير المنار (١٠/١٤٢).

قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهَمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فجعل النصر مشروطاً بالقيام بأمر الله بعد حصوله . وقد جرت العادة أن الأمة إن لم تكن مستقيمة على أمر الله قبل النصر ، فهي إلى ترك أمره بعد النصر وزوال الخطر أقرب وأشبه .

* ومن أسباب النصر الخاصة بالمؤمنين: صدق التوكل على الله.

وحقيقته ومعناه: تفويض الأمور إلى الله ، والبراءة من كل حول وقوة إلا من حوله تعالى وقوته ، مع فعل كل الأسباب الممكنة ، والاجتهاد في تحصيلها . وأن تتعلّق القلوب بالله لا بالأسباب ، فهو موجدتها ، مع كمال الثقة به لا بالوسائل ، فهو القادر على إبطال قدرتها وفعاليتها .

ولا يكون التوكل على الله حقيقة إلا من المؤمنين الصادقين في إيمانهم كالأنبياء وخواص أتباعهم ، فهو من أخص خصائصهم .

قال تعالى حاكياً قيل أنبيائه: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَى مَا آذَيْتُنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] (١) .
وصدق التوكل على الله يمنح المتوكلين قوة وثباتاً يعوض قلنتهم ، فلا يكثرثون بكثرة عدد ولا عدة .

قال تعالى في خبر موسى ﷺ مع بني إسرائيل ، مبيناً حال أهل التوكل منهم في الشدائد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوُكُمْ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَلْقَوُكُمْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَبِّجَلَانٍ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ

(١) وقد ذكر الله في كتابه في مواضع كثيرة ، عن كثير منهم ، أنهم قالوا ذلك وأعلنوا به ، كلما تعالى عليهم الباطل وانتفش . انظر مثلاً: الأعراف ٨٩ ، ويونس ٧١ ، وهود ٥٤ ، ٥٦ .

اللَّهُ عَلَيْهِمَا آدَخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[المائدة: ٢٠ - ٢٣].

وحكى - سبحانه - عن فئة أخرى منهم وهم خلاصة من خرج مع طالوت: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِن فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿[البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠].

وقال أصحاب رسول الله ﷺ عندما خوفهم الناس قريشاً وجمعها: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبننا الله ونعم الوكيل * فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وأتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴿[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

ثم بين - سبحانه - أن المؤمنين لا يليق بهم أن يخافوا أحداً إلا الله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٧٥].

بل هو شارة المؤمنين، ومحك اختبار صادق للمتوسمين، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى على لسان موسى ﷺ امتحاناً لصدق إيمان من آمن معه من بني إسرائيل: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿[يونس: ٨٣، ٨٤].

ومما ينبغي التنبيه له: أن كفاية الله للمتوكلين ونصرتهم، وخذلان عدوهم، لا تكون لمن أتى بصورة التوكل، أو تظاهر به ليستر عجزه وتقصيره. بل من كانت هذه حاله، فإن الله يعامله بما هو أهله.

* وما اختص الله به هذه الأمة من أسباب النصر: النصر بالرعب.

يقذفه الله في قلوب أعداء المؤمنين، فيسبق إليها الوهن والهزيمة قبل أن تطأ جيوش المؤمنين أرضهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...»^(١).

وبالمقابل، فإن الله تعالى ينزل السكينة في قلوب المؤمنين زيادة في تثبيتهم^(٢)، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

هذه بإيجاز أهم الأسباب والعوامل المعنوية التي من أخذ بها، وعمل على إيجادها من أمة أو قوم، كان خليقاً أن يتنصر إذا قاتل، ويستعيد مكانته، ويفرض على الآخرين احترامه وهيبته، بل ويحول الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والشتات والفرقة إلى اجتماع ووحدة.

وهذه الأسباب مجتمعة تستلزم الأخذ بأسباب النصر المادية؛ لأن بينهما من التلازم ما لا يخفى على المتأمل.

واليك في الصفحات التالية أهم الأسباب المادية الجالبة للنصر.

(١) متفق عليه، من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما. انظر: الفتح (٤٣٥/١)، كتاب التيمم، ح (٣٣٥).
ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح (٥٢١).
(٢) لم أتعرض لمظاهر النصر التي يمنحها الله للمؤمنين إذا أتوا بأسباب النصر؛ لأنها لا تنحصر، وقد ذكرت نماذج منها في مبحث: (مدافعة الله عن المؤمنين).

الأسباب المادية للنصر

إذا كانت أسباب النصر المعنوية من الأهمية بمكان كما بينت من قبل ، فإن الأسباب المادية لا تقل أهمية عنها ، بل هي من لوازمها ، فقوة الأمة المعنوية تستند في جانب كبير منها إلى قوتها المادية .

إن البشرية في أجيالها المتعاقبة في ظل الجاهليات - أيا كانت - تتحرك بدافع المصالح الذاتية ، لا بدافع المبادئ والأخلاق ، وإن زعمت خلاف ذلك ، بل وإن كانت تنتسب إلى أديان وتفاخر بقيم ، لكن لا أثر لها في سلوكها المدني ، فضلاً عن علاقاتها بالآخرين . إنها تحترم القوة ولا تفهم إلا لغتها ، وإن خيل إلى البسطاء أن الأمم في ظل الحضارات المتعاقبة تهذبت أخلاقها فصارت تحترم القوانين ، وتقيم وزناً للعهود والمواثيق !

والله الذي خلق الإنسان ، يعلم أن العدوان وحب التسلط ، شيء مركز في طبيعته ، لا يتركه إلا إذا عجز عنه ، ما لم تهذبه الشرائع ، وتؤدبه الرسالات السماوية .

والظلم من شيم النفوس فإن تجرد
ذا عفة فلعيلة لا يظلم

وقد جعل الله الظلم وصفاً لجنس الإنسان الذي من شأنه أن يحمل أمانة التكليف

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

وقد قضى - سبحانه - أن الحق لا يستقر في الأرض ، ويمد رواقه ويسيطر على الناس سلطانه إلا بقوة تحميه وتدافع عنه .

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ

النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نِصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] .

فما هي الأسباب المادية التي اقتضت السنن الإلهية في الأمم أن من أخذ بها تحقق له من الغلبة والنصر بقدر ما معه منها ، ويقدر ما يسندها من أسباب القوة المعنوية بطبيعة الحال .

وإجابة عن هذا السؤال أقول:

هذه الأسباب هي الأخرى المذكورة في كتاب الله تعالى ، والقرآن يذكرها بصيغ جامعة لا يشذ منها شيء ، ويندرج تحتها كل ما جدَّ ويجدَّ من الوسائل .

فمن الأسباب المادية الجالبة للنصر: إعداد ما يُستطاع من القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والأمر بإعداد القوة في هذه الآية عام، فيدخل فيه كل وسيلة أو سبب حسي أو معنوي يُحقق للأمة شيئاً من القوة، ولا وجه لتخصيص نوع من أنواع القوة بالأمر دون سائرها^(١).

قال أبو حيان عند هذه الآية: (والظاهر العموم في كل ما يتقوى به على حرب العدو مما أورده المفسرون على سبيل الخصوص، والمراد به التمثيل؛ كالرمي وركوب الخيل، وقوة القلوب واتفاق الكلمة، والحصون المشيدة وآلات الحرب وُعُدِّهَا والأزواد والملابس الباهية، حتى إن مجاهدًا^(٢) رُوِيَ يَتَجَهَّزُ لِلجِهَادِ وَعِنْدَهُ جُورال^(٣) فقال: هذا من القوة)^(٤).

(ويدخل في ذلك عدد المقاتلة)^(٥) وإعدادهم روحياً وفكرياً وأخلاقياً، وتربيتهم على الشجاعة والصبر، وبث روح الجهاد فيهم... إلى آخر ما يتصل بذلك ويتفرع عنه.

(ويدخل فيه السلاح، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال... ويدخل فيه الزاد ونظام سوق الجيش... وغير ذلك من العلوم والفنون الكثيرة)^(٦).

وإعداد القوة يكون قبل الحرب - وهو المهم - وأثناءها، وبعدها؛ لأن الحروب لا تكاد تنقطع عن الأمة إلا بأن تكون مرهوبة الجانب، وهي لا تكون كذلك إلا باستمرار قوتها المادية بالإعداد المتواصل. وعلى هذا المعنى تدل آية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ التي نحن بصدد الحديث عنها، فإنها نزلت بعد غزوة بدر الكبرى، وتحقق النصر للمؤمنين، وإليه

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٣٢/١٠).

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، مولى بني غزوم، تابعي إمام في التفسير، أخذه عن ابن عباس، يقرأ عليه القرآن ثلاث مرات، يقفه عند كل آية يسأله عنها. توفي سنة (١٠٤هـ). وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤)، والأعلام (٢٧٨/٥).

(٣) نوع من الكساء.

(٤) البحر المحیط (٥١١/٤)، وانظر: تفسير ابن جرير (٣١/١٠).

(٥) تفسير النار (١٣٩/١٠).

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

أشارت الآية نفسها ، وذلك بقوله تعالى: ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ولإعداد القوة اللازمة ، لا بد من الإنفاق وبذل الأموال ، وهذا هو: السبب الثاني من الأسباب المادية الجالبة للنصر: الإنفاق وبذل الأموال. فالمال عصب الحياة ووقود الحروب ، وهو الطريق إلى امتلاك القوة المادية ، ولهذا ختم الله به الآية التي فيها الأمر بإعداد القوة ؛ لأنه الوسيلة إلى تحصيلها .

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الآية ، ثم قال: ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ويكفي دليلاً على أهمية الإنفاق على الجهاد والمجاهدين أن جعل الله له مورداً ثابتاً وحقاً مشروعاً لا فضل لأحد فيه ؛ إذ جعله أحد مصارف الزكاة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] . فإن قول سبيل الله وأبن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم

وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده بقتال أعدائه ، وذلك هو غزو الكفار^(١) . وهذا غير الترغيب في الإنفاق في سبيل الله بصفة عامة ، وغير كونه داخلاً دخولاً أولياً في أموال الفيء والحُمس إذا كان ثمة حاجة إليها^(٢) .

ويدخل في الإنفاق في سبيل الله: بناء المعاهد والمدارس العسكرية والتدريب وإعداد البحوث والخطط . . . وكل ما من شأنه تقوية الجانب العسكري ، فإنه من لازمه وطريق إليه .

وكما رغب القرآن في الإنفاق في سبيل الله كما في الآية السابقة وغيرها ، فقد حذر من البخل أو التقصير فيه ، ففي سورة البقرة ، قال سبحانه بعد آيات في أحكام القتال: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْتَلَاكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]^(٣) .

(١) تفسير ابن جرير (١٠/١٦٥) .

(٢) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/٧٢٧) .

(٣) تفسير المنار (١٠/١٤٠) .

وذم المنفقين في غير سبيله ، بل للصدِّ عن سبيله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] .

ومن الأسباب الجالبة للنصر: أخذ الحيلة والحذر.

وهذا أيضاً سبب عام ، تدخل تحته أسباب مادية ومعنوية كثيرة .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١] .

فالاستعداد قبل المعركة بالجنود والسلاح ، من أخذ الحذر والحيلة^(١) .
واليقظة التامة أثناء المعركة ، من أخذ الحيلة والحذر .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن رَّرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢] .

فأمرهم الله بأخذ الحذر في كل الأحوال ، في حال أداء العبادات ، وفي حال تغير الظروف التي تعوق سير المعركة ، وتكون سبباً في إلقاء السلاح .

ومعرفة قدرة العدو وإمكاناته^(٢) لتحديد الخطوات اللازم اتخاذها ، من أخذ الحيلة والحذر ، وأمة تقاوم عدوها دون معرفة قدراته واستعداداته ، أمة أقرب إلى الهزيمة منها إلى النصر^(٣) .

ومن أخذ الحيلة والحذر: سرية التحركات والاستعدادات^(٤) ؛ بحيث لا يستطيع العدو التنبؤ بما ستكون عليه الحرب ، ولا يجمم القوة المُرصَّدة له ، وبهذا تحصل

(١) وقد سبقت الإشارة إلى هذا السبب .

(٢) عوامل النصر والهزيمة ، ص ١٦ .

(٣) عوامل النصر والهزيمة ، ص ١٧ .

(٤) عوامل النصر والهزيمة ، ص ١٩ .

مباغتته . وأسلوب الكرّ والفرّ من ذلك^(١) .

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «الحرب خدعة»^(٢) .

ومن أخذ الحيلة والحذر: التصنيع المحلي والاكتفاء الذاتي^(٣) ، فيما يتعلق بالسلاح ، أو المؤن والذخائر خصوصاً ، وما يتعلق بغيرها عموماً . بحيث لا تفرض على الأمة حرب ، ويمنع منها السلاح الذي تقاوم به^(٤) .

وأمة لا تملك من العتاد الحربي إلا ما تبتاع من أعدائها ، ولا تحسن استخدامه إلا بمعونتهم ، أمة عن النصر وأسبابه بمعزل!

ومن أخذ الحيلة والحذر: مهاجمة العدو قبل هجومه ، بحيث يكون العدو في مركز المدافع ؛ لأنّ الهجوم دفاع وزيادة ، وليس كذلك العكس ، كما أنّه يرفع من روح المقاتلين المعنوية في الوقت الذي يضعف فيه روح الطرف الآخر^(٥) .

وهناك أسباب أخر تجدها مفصلة في الكتب المتخصصة في الأمور العسكرية^(٦) .

وقد كان الرسول ﷺ وهو القائد والمعلم . . . كانت سيرته في السلم والحرب مضرب المثل في العناية بالأخذ بالأسباب المعنوية والمادية ، ولهذا توالى انتصارات المسلمين بقيادته ﷺ ، وورث المسلمون مبدأ الأخذ بالأسباب تأسيساً بالنبي ﷺ ففتحوا الدنيا وأخضعوا العالم لحكم الإسلام^(٧) .

ولما تراجعت الأمة عن هذه المبادئ والمطالب ، التي يقتضيها العقل والشرع لأسباب كثيرة^(٨) ، توالى هزائم المسلمين ، وانتقصت أرض الإسلام من أطرافها ، وانتهبت ثرواتها ، واستذل أهلها ، وصدق فينا - أمة الإسلام - قول الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرُون وهم شهود

(١) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٧٧٦/٢) وما بعدها .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب: الحرب خدعة . انظر: فتح الباري (١٥٨/٦) .

(٣) انظر: عوامل النصر والهزيمة ، ص ٢٠ .

(٤) وما جرى ويجري للمسلمين في مواجهة أعدائهم مراراً من حصار على الأسلحة أن تصل إليهم ، على حين أنها في متناول يد عدوهم . . . مثالاً على ذلك .

(٥) انظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٧٨٠/٢) .

(٦) انظر مثلاً كتاب: المدرسة العسكرية ، وكتاب: نظم الحرب ، والعبقرية العسكرية ، والرسول القائد ، وغيرها .

(٧) سأتناول هذا الجانب بمزيد بيان في الباب الثالث ، فصل: (آثار رعاية السنن) ، المبحث الأول ، بإذن الله تعالى . ولهذا آثرت عدم الإطالة هاهنا بذكر الأمثلة .

(٨) مكان تفصيلها الباب الثالث ، فصل: (عواقب الإعراض عن السنن) ، في المبحث الأول ، إن شاء الله ، وقد عقدتُ لبيان هذا المعنى مبحثاً في فصل: (خصائص سنن الله في الأمم) ، الخاصة السابعة .

وقبل أن أختتم هذا البحث ، أذكرُ بأمر هام ، ينبغي استحضاره لإدراك كيفية أداء السنن الإلهية لوظيفتها في حياة الأمم ، ألا وهو: التداخل الشديد والتلازم الوثيق بين مجموع الأسباب المعنوية والمادية التي تتألف منها سُنَّة الله في النصر والهزيمة ، وأي محاولة للفصل أو التجزئة بينها ، أو تفسير السُنَّة ببعضها ، سوف تنتهي بأصحابها ، نتيجة الخطأ في الفهم ، والتطبيق تبعاً لذلك إلى نتائج خاطئة مدمرة .

ولا بد لكي ننتهي إلى نتائج صحيحة:

* أن نؤكد على أهمية الأسباب كلها من حيث الجملة .

* وأن نوليها من الاهتمام بصورة تفصيلية بقدر قيمتها التأثيرية .

سنة الله في التمكين

والاستخلاف في الأرض وعوامل بقاء الأمم

من تأمل في كتاب الله تعالى تبين له بوضوح، أن النصوص كلها تُقرّر بصورة حاسمة: أن تمكين الأمم واستخلافها في الأرض ليس غاية في ذاته، بل لعبادة الله وعمارة الأرض وفق منهجه، وهي جزء من العبادة، ولدفع ما يضاد ذلك أو يحول دون تحقيقه.

فلهذه الغاية خلقهم واستخلفهم، ولبلوغها والصبر عليها ابتلاهم وامتحانهم. فمن وفى منهم بهذه الأمور، تحقق له الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، كما وعده الله. ومن فرط في ذلك، أو في شيء منه، أو قصر فيه، أو عجز عن تحقيقه، حُرِمَ من الاستخلاف والتمكين بقدر ما فرط فيه أو قصر، ويستخلف الله أمة أخرى ويُمكن لها في الأرض ويتليهم بمثل ما ابتلى به الأولين.

ومتى ثابت أمة إلى رُشدها، وتداركت أمرها، وما فرطت فيه من أسباب الاستخلاف والتمكين، مكن الله لها في الأرض واستخلفها مرة أخرى... وهكذا.

فليس لأحد حق خاص في البقاء في الأرض إلى ما لا نهاية، بل ﴿الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والترفيط والعجز يكون تارة بعدم تحقيق العبودية لله، وتارة بترك عمارة الأرض وتسخيرها، وتارة باجتماع الأمرين.

تلك هي سنته - تعالى - في التمكين والاستخلاف لكل الأمم، مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

هو هذا الإنسان.. يعمرها ويسخر ما فيها، وتكون عمارته لها وفق مرضاتي وعلى هدى مني. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبهذا التمكين والتكليف ابتليهم...

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [إنا هدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ وَرَعَّ بِعَضُكُمُ فَوْقَ بَعْضِكُمْ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وهذه الأمور الثلاثة: خلافة الأرض، وعبادة الله، والابتلاء، ليست متعارضة فيقع بينها التناقض، إنما هي تفسير لغاية الوجود الإنساني من جوانب مختلفة، كل جانب منها يفسر الآخر ويحدد صورته^(١). فخلافة الأرض هي الظرف والفرصة والمجال، وعبادة الله هي التكليف الرباني المتضمن برنامج العمل المطلوب، والابتلاء هو مدى القدرة على توظيف النظام الإلهي في الظرف والفرصة والمجال الاختياري.

ولا يستحق الاستخلاف والتمكين بإطلاق، بموجب الوعد الإلهي إلا المؤمنون بالله المهتدون بهديه من الرسل وأتباعهم على طريقتهم، فهم أهل الحق المستجمعون لشروط الاستخلاف والتمكين المنصوص عليها في الآيات الآتي ذكرها.

وكل استخلاف أو تمكين لغيرهم، فهو إملاء واستدراج لهم، كما أنه ابتلاء لأهل الحق، بسبب غيابهم عن الساحة، وغياب المنهج الرباني عن التطبيق^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ «أي: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب»^(٣).
والصلاح يستلزم الإصلاح، وهو أن يكون الصالحون في أنفسهم مصلحين لأحوالهم وأحوال غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاقَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه. ﴿وَخَافَ﴾

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٥٨ بتصرف يسير.

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٥٨.

(٣) أضواء البيان (٤/٦٩٣).

وَعِيدٌ ﴿١﴾ ؛ أي: ما توعدت به من عصاني ، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله ، والمبادرة إلى ما يحبه الله (١) .

وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥] .

قال ابن جرير - رحمه الله - : «يقول تعالى ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم ، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقول: كما فعل من قبلهم ذلك بيني إسرائيل؛ أهلك الجبابرة بالشام ، وجعلهم ملوكها وسكانها» (٢) .

وإذن فالإيمان هو التصديق المستلزم للطاعة والالتقياد المثمر للاهتمام ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] .

وإذا حلَّ الاهتداء في النفوس ، نشأت الصالحات ، فأقبلت مسيئاتها تنهال على الأمة ، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات .

والتعريف في ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ للاستغراق؛ أي عملوا جميع الصالحات ، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح ، وتركوا الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد؛ لأنَّ إبطال الفساد صلاح . واستغراق ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ استغراق عرفي؛ أي عمل معظم الصالحات ومهامتها ومراجعتها ، مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة ، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة (٣) .

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] ؛ أي: «وليعيننَّ الله من يقاتل في سبيله لتكون كلمته العليا على عدوه ،

(١) تفسير السعدي (٤/١٣٢) .

(٢) تفسير ابن جرير (١٨/١٥٨) .

(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٨/٢٨٢ ، ٢٨٣) .

فَنَصَرَ اللَّهُ عَبْدَهُ: معوثته إياه، ونصرُ العبد ربّه: جهاده في سبيله لتكون كلمته العليا^(١).
ونصره دينه ونبيه مخلصاً في ذلك^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].
والمعنى: نفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه؛ إذ كان وَعْدُ اللَّهِ - تعالى - إياهم بما وعدهم مقروناً بأمرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له، كما أمرهم نبيهم ﷺ تبليغاً عنه تعالى.

قال موسى لقومه: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإذا كان قد تمّ وعد الله بذلك، ثم سلبهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس، فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى؛ لأنه قد تمّ ونفذ صدقاً وعدلاً^(٣).

و ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ قيل: أرض الشام، وقيل: أرض الشام ومصر، وقيل: عموم الأرض.

و ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ في هذه الآية على ما قال أهل العلم بالتفسير، هي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦٠، ٤].

تلك هي جملة شروط التمكين والاستخلاف، وأسباب البقاء في الأرض لكافة الأمم، ألخصها لك في نقاط أربع:

(١) تفسير ابن جرير (١٧٨/١٧).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧٢/١٢)، وتفسير السعدي (٣٠٢/٥).
(٣) تفسير المنار (١٠١/٩)، وانظر: فتح القدير (٢٤٠/٢).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٤٤/٩)، وزاد المسير (٢٥٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٢٤٢/٢)، وفتح القدير (٢٤٠/٢)، وتفسير السعدي (٥/٦)، وغيرها.

* أن تكون الأمة صالحة مصلحة في أفرادها، مصلحة لشؤونها في المعاش والمعاد. ومن لازم ذلك أن تكون مقاومة للفساد والمفسدين كافة. ولا تكون كذلك بالمعنى الصحيح إلا إذا تحققت بالشرط الثاني، وهو:

* أن تكون الأمة أمة مؤمنة بالله، عاملة للصالحات؛ أي محققة بمجموعها لمعنى العبودية لله بمعناها الشامل. ولا تكون كذلك إلا إذا كانت على مستوى الشرط الثالث، ألا وهو:

* أن تكون الأمة شديدة المراقبة لله، شديدة الحذر والتوقّي من مخالفة أمره على كافة المستويات. وكل هذه الشروط لا بد لها من الشرط الرابع، وهو:

* الصبر والاستعانة بالله، الصبر على الإيمان، وعلى القيام بالتكاليف، وعلى عمارة الأرض، وعلى مجاهدة أعدائها. وبالجملة الصبر على ما تلقاه الأمة في سبيل ذلك كله، والاستعانة بالله في ذلك كله.

وبقدر ما تلتزم الأمة به من هذه الشروط وتحققه في واقعها، بقدر ما يكون لها من التمكين والاستخلاف والبقاء، وبقدر ما تفرط أو تتولى وتعرض يدركها من سنة الله ما يدرك أمثالها. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [عمد: ٣٨].

ومما ينبغي أن يعلم: أن الأمة قد تمكّن في الأرض وهي كافرة بالله؛ لأنها أخذت ببعض أسباب البقاء والتمكين... فقد تكون مصلحة لشؤون دنياها ومعاشها، وقد تكون صابرة مثابرة، وهذا أمرٌ مشاهد. ولكن هذا التمكين محض إمهال وإملاء^(١)، ولا تنفك الأمة وهذه حالها من الضنك وأسباب الفناء^(٢).

ولقائل أن يقول: هب أن أمة ما أخذت بهذه الأسباب أو ببعضها، فمكّن الله لها واستخلفها في الأرض... أهو القرار والاستقرار، أم أنها بداية لمرحلة جديدة؟

وهذا سؤال ينقلنا إلى الحديث عن لحظة الاستخلاف والتمكين، وما بعد ذلك.. وهو حديث طويل.. هلم إلى تفصيله.

ماذا بعد التمكين والاستخلاف؟

(١) وسيأتي بيان هذا المعنى في الفصل الثالث من هذا الباب، إن شاء الله.

(٢) وسيأتي ذلك مفصلاً في الفصل الثاني من الباب الثالث، إن شاء الله.

إن الأمة - أفة أمة - ما إن تستمكن من أسباب القوة وتستخلف فف الأرض ، سواء كان ذلك عن استحقاق ورضا من الله ، أو كان لمحض الابلء والاستدراج ، ما إن تستمكن وتستخلف ، حتى تبدأ مرحلة جديدة من المواجهة والتحدى الحضارى ، هف أعنف من كل التحدىاء اللف واجهتها قبل بلوغ هذه القمة ؛ وذلك لأسباب ، منها :

* أن الأمة قبل مرحلة التمكفن والاستخلاف تشعر بالتحدى ؛ لأنها ما زالت تواجه قوى معادية ومنافسفن أقوىاء ، وبعد مرحلة التمكفن ، غالباً ما يموت أو يضعف هذا الشعور فف نفوس الأفراد ، ولفل محلل شعور بالقوة والهفمنة ، ما فلبث أن ففصأ طبلأً أجوف ففقرع عند كل مناسبة ، وربما نظرت إلى القوى الأخرى على أنها مجرد أحجار على رقعة شطرنج ، هف اللاعب الرئفس ففه ، وربما نظرت إلى قوتها ففخفل إليها أن عجلة الزمن ستوقف عندها إلى ما لا نهاية^(١) .

* وفصاحب هذا الشعور ، رغبة عارمة ومفل شفدفل إلى الدعة والثرف للاستمتاع بأشفاء الحضارة بعد طول الجهد والعناء .

* وففرز هذا المفل إلى الدعة والثرف ألواناً من الظلم والطبقفة ، وصوراً من الفساد والانحلل . تبدأ تدريجياً ، بفل لا ففس بخطرها إلا قلة لا فؤبه لها غالباً ، والأمة فف عنفوان قوتها فلا تحسّ بالضعف التدريجف .

* وفف هذه الظروف - عادة - تولد وتوجد قوى نامفة ، تجرف فف عروقها دماء الشباب ، وتشعر بضخامة التحدىاء ، وتنظر إلى هذه القوى الممكئة على أنها عقبات حقففة لا بد من اجتيازها .

* ومحصلة ما سبق: أن الأمة ففن تبلغ قمة الحضارة ، فدركها على ، ما جرت به العادة أمران :

- تحدىاء ضخمة لا عهد لها بها ، خصوصاً من داخلها .

- وعجز مركب عن المقاومة اللف تكافى هذه التحدىاء .

ولهذا كله أقول: إن لحظة التفوق وقمة الفاعلفة الحضارفة للأمة ، هف لحظة التحدى الأكبر والأخطر لها ، وهف قمة الابلء .

ولهذا ففب مقابلتها بالشكر على الظفر ، والصبر على أسبابه ، والمحافظة عليها .

(١) ولهذا نجد أن الأمم المتبقظة لا كدع فرصة للاسترخاء ، فنصنع لنفسها أعداء وتمارس عملفة مواجهة مستمرة ، لبقى أمة منتجة صاعدة . وهذا ما نلاحظه الفوم فف أمم كالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد ضرب نبي الله سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - أروع الأمثلة على ذلك ، وها هو القرآن يقصّ علينا مشهد الشكر لحظة الانتصار .

لما بلغ مَلِكَةَ سبأ كتاب نبي الله سليمان ، ومضمونه ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١] ، استشارت الملأ المقربين منها ، وقرّرت أخيراً أن ترسل إلى سليمان بهدية تحسّب بها نبضه ، وتتعرف على توجهه . ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥] . فماذا كان جواب سليمان ﷺ ؟

فلما جاء سليمان الكتاب قال: ﴿ أُمِدُّوْنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ * أرجع إليهم فلنأينهم يحنودر لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صغرون * قال يتأيها الملوأ ألكم يأتيني بعريها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفرت من الحين أنا أئيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أئيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكرهم أكفرهم ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم * [النمل: ٣٦ - ٤٠] . في حين كان منطلق مستشاري ملكة سبأ السياسيين والعسكريين هو التلويح بالقوة وشدة البأس ، اتكالا على ما بين أيديهم من ملك وعتاد ، حجب عنهم رؤية قوة الغير ومنطقه . وكان رأي ملكة سبأ - في ظل هذا التفكير المتشنج - أكثر صوابا وواقعية ، فأبعدت شبح الحرب ، وتعرفت على قوة خصمها . وهذا العقل كان - بعد توفيق الله - من أسباب إسلامها مع سليمان لله رب العالمين .

ولا يفهم مما تقدّم أنني أرمي إلى أن الأمة في هذا الظرف لا تملك وسائل المقاومة والاستمرار ، أو أنها - بصورة جبرية - لا يمكن أن تقاوم التحديات ؛ أي أن انهيارها حتمي . كلا ، لا هذا ولا ذاك .

و فرق كبير بين أن يُقال: إنَّ التحديات ضخمة والمقاومة ضعيفة ، وأن يُقال: إن التحديات ضخمة والمقاومة معدومة أو غير ممكنة .

نعم ، قد تغفل الأمة عن التحديات التي تواجهها فلا تقاومها ، وقد تجهل الوسائل الصحيحة للمقاومة . . . فتفشل في مقاومتها ، وقد . . . وقد . . . فتنهيار وتسقط ، وهذا شيء ، و حتمية الانهيار واستحالة المقاومة شيء آخر .

وقد يقول قائل: فما بال الأمم كلها لم تنج من حتمية الانهيار؟ هل صحيح أنها جميعاً أصيبت بداء الغفلة عن التحديات، ووقعت ضحية الجهل بالوسائل الصحيحة لمقاومة عوامل الانهيار؟

وإذا كان الأمر على ما تقول، فما عوامل البقاء، التي هي الوسائل الصحيحة لمقاومة الانهيار؟!

وهذا سؤال كبير، ولا بد له من جواب مفصّل تزول به الشبهة، وتنشع الغمّة، ويبين الصبح لذي عينين، ولكن لا بأس من التقدم بين يدي الجواب المفصّل بإشارة تمهد له، فأقول:

كل أمة - أياً كانت - كان بإمكانها أن تقاوم التحديات، وكان بين يديها من الوسائل والأسباب ما يؤهلها لو أخذت بها لأن تبقى وتستمر .
ولا أدل على إمكانية ذلك من:

- تفاوت الأمم في فترة التمكين والاستخلاف طويلاً وقصراً، فإن ذلك يؤكد وجود عوامل الاستمرار .

- واختلاف أسباب الانهيار يؤكد وجود عوامل البقاء أيضاً .

- ووجود أمة استعادت مكانتها الحضارية بعد أن افتقدتها يؤكد ذلك .

- بل إن تحوّل النصر إلى هزيمة والهزيمة إلى نصر، ليؤكد إمكانية ذلك .

- وشيء آخر جدير بالتأمل، خصوصاً منّا نحن المسلمين، وهو: أنه باستقراء التاريخ، فإنّ كل مراحل الانهيار بعد التمكين والاستخلاف، تقع بأسباب معقولة، وأن مدار هذه الأسباب هو مخالفة الحق كلياً أو جزئياً .

ثم أقول: إنّ من تأمل كتاب الله - تعالى - ونظر فيه بتجرّد وإنصاف، فسيعلم أنه ما من سبب كان الأخذ به مما يعين في تمكين الأمة واستخلافها، ويكفل لها الاستمرار والبقاء إلى ما شاء الله إلا وفي القرآن له ذكر؛ إما حث على الأخذ به، وإما تحذير من تركه، أو هما معاً، تنصيماً عليه، أو إشارة إليه وإيماء، بذكر عاقبة الأمم وجزاء المخالفين لتلك الأسباب .

وباستقراء القرآن، وجدنا أنه يقرر بصورة حاسمة، أن عوامل بقاء الأمم واستمرارها بصورة قويّة ممكنة - على اختلافها - تصب في بحر واحد، وتجتمع لتحقيق هدف كلي، ألا وهو «الإصلاح في الأرض ودفع الفساد عنها» .

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

وهذا الهدف الكلي؛ الإصلاح ومدافعة الفساد وفق المنهج الإلهي هو الهدف والغاية المراد تحقيقها من وراء تمكين الأمم واستخلافها.

وكيف لا يكون كذلك والأمم إنما مكنت في الأرض ابتداءً لهذا الاعتبار!

والقرآن حينما جعل ممارسة الإصلاح، والعمل على دفع ما يضاده، قاعدة كلية ومرجعاً للعوامل والأسباب الأخر التي تتألف من مجموعها السُّنة الإلهية... حينما جعل القرآن ذلك كذلك، فقد نظر إلى هذا المعنى بواقعية وشمولية، فلم يغفل شيئاً من صور الإصلاح، أيا كانت، وفي أي أمة وجدت، وجعل لكل مستوى من الإصلاح آثاره المترتبة عليه في الواقع كذلك.

وانطلاقاً من هذه الواقعية والشمولية، سيتضح لنا:

- أن كل صور الإصلاح التي يمكن أن تخطر في حسّ البشر، إن في شؤون دينهم وإن في شؤون دنياهم، أنها كلها محسوب حسابها ومقدّر أثرها في واقع الأمم. وبقاء هذه الأمم واستمرارها، أو زوالها واضمحلالها مرتبط بذلك متسبب عنه.

- وأن إصلاح النفوس والأوضاع بالشرائع الإلهية أصل الأصول وغايتها، وأهم مظاهر الإصلاح المؤهل للحياة الكريمة.

وفي الصفحات التالية، سوف أتناول هذا الجانب بشيء من التفصيل؛ لِمَا له من أهمية، ولاستحكام الغفلة عنه، بل ولتعهد إسقاطه من الحساب عندنا نحن المسلمين^(١).

(١) أمّا عوامل البقاء الأخر، خصوصاً ما يتعلّق بالجانب المدني والمادي، فسأعرض لها - بإذن الله تعالى - في الباب الثالث: (آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها)؛ لِمَا بينها من تناسب، وتلافياً للتكرار.

إصلاح النفوس والأوضاع البشرية

بالأديان والشرائع الإلهية

وهذا من أجلّ وأعظم عوامل بقاء الأمم واستمرارها على ما هي فيه من قوة وتمكين في الأرض، وأهم أسباب تمكينها واستخلافها فيها، إن لم تكن كذلك.

بل هو أهمها على الإطلاق، وهو يشمل:

* إصلاح النفوس والأوضاع ابتداءً؛ وذلك بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة والطاعة، وبإخضاع أوضاع الأمة كافة لسلطان الشريعة، واستمراراً؛ وذلك بتجديد ما اندرس من الدين والملة، والرجوع إلى الله بالتوبة والتضرع.

* وهذا لا يتم ولا يوجد - عادة - إلا بوجود مصلحين وأدلاء من هذه الأمم، يهدونها إلى ربها ابتداءً، ويُذكرونها بهذه الهداية، ويجاهدون للحفاظ عليها استمراراً.

فهذان أسان يقوم عليهما هذا العامل، لا يقوم قياماً صحيحاً إلا بهما، ولكي يتضح لك هذا التلازم أقول:

إن من المعلوم من طبائع البشر والأمم - بحكم ما جبلوا عليه من الظلم والجهل - أنهم لا يستقيمون على الحق والمعروف، ويتركون الباطل والمنكر في شؤون دينهم ودنياهم من تلقاء أنفسهم، بل الأثرة وظلم الغير، وارتكاب الفواحش والمنكرات، واتباع الشهوات هو دينهم، أفراداً وجماعات وأماً... ولو تُركوا دون أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لانتهى أمرهم إلى الفساد والتناحر؛ لتعارض مصالحهم، أو أن يجتمعوا على ما يضرهم من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وبالجملة فإن الأمم لا بد لها لكي تبقى أمة ذات قوة وسلطان، وتستمر مُمكنة في الأرض من أن تكون (صالحة مُصلحة) وهي لا تكون كذلك ابتداءً، ولا تصبر عليه استمراراً من تلقاء نفسها، فثبت أن من لازم كون الأمة (صالحة مُصلحة) أن يكون فيها ﴿أُولُوا بِقِيَّتِهِ يَتَّبِعُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا بد أن يكون أمرهم مطاعاً ورأيهم نافذاً فيها - وهو ما يمكن نعتة بـ: (استعداد الأمة للصلاح والإصلاح)، لا بد من هذا وذاك للبقاء والاستمرار... وإليكمها بشيء من التفصيل:

أولاً: إصلاح النفوس والأوضاع البشرية بالأديان والشرائع السماوية، ومقام المصلحين في ذلك.

من المعلوم بالضرورة من استقراء التاريخ أن أمماً كثيرة مَكَّنَ الله لها واستخلفها في الأرض، وهي - في حكم الله - أمم جاهلية كافرة مشركة .
وقد عرض القرآن الكريم أخبار كثير من هذه الأمم، ويَبين أنها ذات قوة وسلطان وتمكين في الأرض؛ أي أنها مستجمعة لأسباب الاستخلاف والتمكين المادية، ومع ذلك دَمَّرَ الله عليها!

فما الذي كان ينقصها من مؤهلات البقاء والاستمرار؟!
وبعبارة أخرى: ماذا عليها أن تواجه من التحديات (الابتلاءات) من أجل البقاء والاستمرار؟!
والاستمرار؟!
والاستمرار؟!
والاستمرار؟!

إن القرآن يقرر - بواقعية وشمولية - أن هذه المؤهلات المادية هي (إصلاح) محسوب حسابه، وله قيمته بين عوامل البقاء والتمكين، ولكن ليس هو الإصلاح الأهم والأجدر بالتقديم. إنه من باب إصلاح الوسيلة، وبقي (الإصلاح) الأول والأهم، بقي إصلاح الغاية!! الغاية من الوجود ومن الاستخلاف والتمكين في الأرض، ومن كل هذه الإصلاحات المادية .

ولهذا أمرهم القرآن بإصلاح هذه الغاية، وإحلالها مكانها اللائق بها بين عوامل الاستخلاف والبقاء .

وبواقعية وشمولية لا مزيد عليها، يذكر القرآن الإصلاحات المادية الموجودة عند الأمم، ثم يذكر ما هي بحاجة إلى إيجاده، ويبين مكانه الصحيح بالنسبة لما هو موجود بين يديها^(١) .

فكيف عرض القرآن لهذا العامل، بل هذا السبب الأساس؟

لقد عرضه من خلال نماذج تكاد تستوعب التاريخ كله، ومزجَ شروط وأسباب الاستخلاف والتمكين في الأرض بعوامل البقاء والاستمرار، الذي هو ثمرة التمكين والاستخلاف، وشفع ذلك بنماذج عملية وشواهد من الواقع عبر التاريخ بواقعية وشمولية متميزة - وذلك أقوى في الحجة، وأدعى للتأسي . وهي سمة من سمات منهج القرآن في عرض السنن^(٢) .

(١) ولهذا أمثلة سياي ذكر طاقة منها عما قليل إن شاء الله .

(٢) وقد نهبت إلى هذه السمة في فصل: منهج القرآن في عرض السنن، عند ذكر المؤثرات التي يحشد بها القرآن وهو يعرض السنن .

هاهم أولاء الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن نهج نهجهم يدعون أمهم للأخذ بأسباب البقاء والاستمرار في الأرض، بعد أن استخلفهم الله ومكن لهم فيها، وأن يحققوها في واقعهم؛ ليتحقق لهم وعد الله بذلك.

وهم - عليهم الصلاة والسلام - يدعون أمما مستخلفة مُمَكَّنًا لها في الأرض، بل أمما ذات صولة وسلطان. فكيف ذلك؟! أمم مستخلفة مُمَكَّنَةٌ تدعى إلى الأخذ بأسباب الاستخلاف والبقاء!؟

نعم، إن الأنبياء والمصلحين من أتباعهم، بما أوثوا من العلم والإيمان لا يشكّون لحظة أن أمهم - وهي تحيا بغير المنهج الرباني - إنما تحيا وضعا غير صحيح بمقياس الشرع، وبالتالي فهو غير مأمون.

إن شرطاً من أهم شروط البقاء والاستمرار، بل غاية الغايات من الاستخلاف والتمكين - وهو الإيمان بالله وتحكيم شريعته - قد تخلف، وإذا تخلفت الغاية من التمكين والاستخلاف في الأرض، فإن بقاء الأمة مؤقت، وزوالها محقق، وهي إنما تعيش بلا غاية محمودة، وتحيا مرحلة الاستدراج والإمهال في صورة تمكين واستخلاف. تحيا فترة الإملاء لها، لتستنفد أسباب بقائها، ويحين حينها فتتزل بها عقوبة ماحقة، أو ترثها أمة أجدر منها وأحق بالاستخلاف والتمكين.

من هذا المنطلق ولهذا السبب، كانت الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يتخوفون على أمهم - المستخلفة المُمَكَّنَةُ - العقوبات والمثلثات، في الوقت الذي ترفض فيه هذه الأمم - المُمَكَّنَةُ المستخلفة - أن تُدرج مسألة الإيمان بالله وتحكيم شريعته والاهتداء بهديه ضمن الشروط اللازمة للبقاء في الأرض، جهلاً واستكباراً... فما الذي حدث!؟

لقد مضت السنة الإلهية، وحطمت ما في طريقها، حتى وإن أمة بأسرها، أو أكثرية معجبة بكثرتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى * إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ - ٤].

فتأمل قوله تعالى: ﴿وَيُوحِزْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإن معناه: يمتنعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي: مقدار البقاء في هذه الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود وليس المتاع أبداً^(١).

فلما ضلُّوا سعيه، وأبوا إلا خلافه، عاقبهم الله بالإغراق، ونجَّى نوحاً والذين آمنوا معه وجعلهم الوارثين بمقتضى سنته في الاستخلاف والتمكين لعباده المؤمنين.

وقد اشتملت هذه الآيات من سورة الأعراف على مجمل خبرهم، مع إبراز مواطن العبرة لمن اعتبر. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَنْفِقُونَ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَائِكِ * أُنزِلَ عَلَيْكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنصَحَ لَكُمْ وَأَعَلَّمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوْعِبْهُمْ أَنَّ جَاءَ كُرٌّ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٤].

وتأمل قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ فإنها علة لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾؛ أي أغرقنا المكذبين لكونهم عمي القلوب لا تنجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير. وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، قال: كفاراً^(٢). وعن مجاهد: عمي عن الحق^(٣).

وهود عليه السلام، وقد كان قومه تالين لقوم نوح عليه السلام، مستخلفين من بعدهم. لقد ابتدأهم بالأمر بعبادة الله وحذرهم الشرك وأنذرهم شؤم مخالفة أمره، وهذا هو أول ما تدعو إليه الرسل، ثم ثنى بتذكيرهم نعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وهو تذكير أراد به فيما أراد تحذيرهم أن يسيروا سيرتهم فيحل بهم ما حلَّ بهم.

﴿أَوْعِبْهُمْ أَنَّ جَاءَ كُرٌّ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَأَذَكُرُوا آءَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

(١) تفسير السعدي (٧/ ٤٨٠).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢١٧).

(٣) تفسير ابن جرير (٨/ ٢١٥)، وروي مثله عن ابن زيد.

وفي موضع آخر قال لهم: ﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَفْزَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِيدُكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جَحْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ثم وضعهم أمام مصيرهم إن تولوا وجهاً لوجه، قال لهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]. فماذا كان جواب قومه؟

لقد أنكروا أن يكون الإيمان بالله وإخلاص العبودية له سبحانه غاية استخلافهم، وسرّ بقائهم... أنكروا ذلك، و﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وبهذه المكابرة حكموا على أنفسهم بالإفلاس، وعدم الاستعداد للقيام بوظيفة الخلافة وتحقيق شروط البقاء في واقع حياتهم، فجزم هود ﷺ أنهم مأخوذون لا محالة، سنة الله في أمثالهم، وقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَ فِيهِ أَسْمَآءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فَأَجْحِنْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧١، ٧٢].

وتأمل قولة هود: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ فإن معناه: قد وجب عليكم العذاب بمقاتلكم هذه. وعبر بالماضي عما سيقع تنزيلاً للمتوقع منزلة الواقع لتحقيق وقوعه بانعقاد أسبابه، وعدم وجود أسباب دفعه^(١).

وتأمل ثانية قوله تعالى في بيان عاقبة المؤمنين: ﴿فَأَجْحِنْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾؛ أي استخلفناهم ومكثنا لهم، فهو كقوله تعالى في نوح والذين آمنوا معه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ [يونس: ٧٣].

وأخيراً، ما نكتة الجمع بين وصفي التكذيب بالآيات، وعدم الإيمان... في بيان حيثيات الحكم على المهلكين في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟

(١) انظر: المحرر الوجيز (٩٦/٧)، وتفسير ابن كثير (٢٢٥/٢)، وتفسير القاسمي (١٦٩/٧)، وتفسير المنار (٤٩٩/٨).

قال في الكشاف: «فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم . ومن نجا مع هود عليه السلام كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، وليؤذن أن الهلاك خصّ المكذبين ، ونجّى الله المؤمنين»^(١).

أي أنه إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده^(٢).

ومثال ثالث يشهد لما نحن فيه من تقرير سنة الله في الاستخلاف والتمكين ، وأسباب البقاء والاستمرار ، وأن من لم يأت بأسباب ذلك وشروطه من الأقوام والأمم انتزعوا عما هم فيه بالإهلاك ، أو بذهاب ريجهم وإذلال غيرهم لهم .

وهو مثال لأمة تلي تينك الأمتين السابقتين . إنهم ثمود قوم صالح - عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِسُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ ، ٧٤] .

وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي لَقَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] .
إنه الإيمان بالله والإصلاح في الأرض ، أو الإهلاك والتدمير .

أما الملأ ومن اغتر بهم من قوم صالح: ﴿فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] .
﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَبِّئُنَا إِيمَانًا بَعْدَ إِيمَانِنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] .

فحقت عليهم السنة الإلهية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] .

(١) الكشاف (٢/ ٨٨) .

(٢) تفسير القاسمي (٧/ ١٧١) ، ونسبه إلى الطيبي .

وعلة ذلك: ﴿الْآنَ نَحْمُدُكَ وَأَكْفُرُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ الْأَبَدَ الْأَشَدَّ﴾ [هود: ٦٨].

ونحى الله صالحاً والذين آمنوا معه وجعلهم هم الوارثين^(١).

وأنقل بعد ذلك إلى استخلاف بني إسرائيل والتمكين لهم بعد بعثة موسى ﷺ، وذلك بسبب إيمانهم بالله واستعانتهم به، وبصبرهم.

فقد كان بنو إسرائيل مستعبدين للقبط، تسوهم الفراعنة سوء العذاب، كما حكى الله ذلك عن فرعون: ﴿قَالَ سَنَنْقِلُ أِبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَعْمِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وكان فرعون يُسخرهم لمصالحه، فأرسل الله موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - لتحرير بني إسرائيل من قهر الفراعنة، وتعبيدهم لله وحده، ولدعوة فرعون وقومه إلى الحق وهدايتهم إلى ربهم.

قال تعالى لموسى وهارون فيما قال: ﴿فَأَنبِأَهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِيبِهِمْ﴾ [طه: ٤٧]. وفي أخرى: ﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فُقُولًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

وبدل أن يستجيب فرعون لدعوة الحق أخذ يُعَدِّد على موسى إنعامه عليه - في زعمه - فأنكر عليه موسى ﷺ ذلك، وبيّن السبب فيما حصل له، بكلام بليغ القم فرعون حجراً، وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. والمعنى: «أتمن عليّ بأن ربيتي وليداً، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم وهم قومي، فأنت لو كنت لا تقتل أبناء بني إسرائيل، لكانت أُمي مستغنية عن قذفي في اليم، فكأنك تمن عليّ ما كان بلاؤك سبباً له»^(٢).

ولتطاول هذا الذلّ والاستعباد على بني إسرائيل، وما أورثه في نفوسهم من اليأس، واليأسُ مفسد للنفوس، ولما في طبائعهم من الانحراف، نظرُوا إلى دعوة موسى ﷺ لتخليصهم مما هم في نظرة شك وارتياب في جدواها، خصوصاً بعد تهديد فرعون لهم ووعيده إياهم، فلما قال موسى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١) انظر: هود: ٦٦، والنمل: ٥٣، وفصلت: ١٨.

(٢) فتح القدير (٩٦/٤).

وقولته هذه، وصية جامعة مشتملة على أمرين عظيمين:

الأول: أن هذا هو أول طريق الاستخلاف والتمكين للأمة المستضعفة، ونبه إليه

بقوله: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ .

الثاني: استحضار السنة الإلهية والتذكير بها حتى في فترة ضعف الأمة ومحتتها،

لتجاهد منذ البداية بالاتجاه الصحيح، ونبه إليه بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

ف «ماذا كان من تأثير وصية موسى ﷺ لقومه؟ وهل فهموها وقدروها قدرها؟
وإم أجابوه؟» (١) .

ما زادوا أن احتجوا بالواقع المشاهد: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا

جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] . يعنون: أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون
شيئاً (٢) .

فلم يوهن جواثبهم من عزيمة موسى شيئاً، بل فتح لهم باب الأمل، وأطمعهم بما لم

يكن يخطر لهم على بال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

إنهم لا يملكون فيما هم فيه بالخلاص من الذل والاستعباد، فضلاً عن أن يكون

لهم الأمر والنهي في الأرض، ولذلك «عبرَ بـ ﴿عَسَىٰ﴾ ولم يقطع بالوعد؛ لثلاث يتكلموا

ويتركوا ما يجب من العمل، أو لثلاث يكذبوه، لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل

والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم للملكه وقوته» (٣) .

وفي هذا الآية، تنيية إلى أمر عظيم، ألا وهو: أن استخلافكم في الأرض بعد إهلاك

عدوكم، لغاية هي: أن تصلحوا فيها وفق شرع الله وأمره، هذا هو مبرر استخلافكم

وسرّ بقائكم، فإن لم تفعلوا جرى عليكم وحاق بكم ما تؤملون من الله أن يفعله

بعدوكم!

أما آل فرعون فقد كان في علم الله أنهم لا يرجعون عن غيهم وطغيانهم، فأعذر

الله إليهم بأن تابع عليهم الآيات، وقلّب بهم الأحوال لعلمهم يدكرونها .

(١) تفسير المنار (٨١/٩) .

(٢) تفسير المنار (٨١/٩) .

(٣) تفسير المنار (٨٢/٩) .

وتلك عادته - سبحانه - في الأقوام والأمم أنه لا يتواصل شأفتهم حتى يفعل بهم ذلك^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عَنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى آدُعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِمْ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ * فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

وهكذا ظهر علم الله فيهم علانية أنهم لا يصلحون للبقاء والاستمرار وهم فيما هم فيه من الكفر والطغيان، وإن كان حصل لهم من خلافة الأرض والتمكين فيها ما حصل، فإنما استدرجوا في ذلك وأُملي لهم حتى انتهى أمرهم إلى ما وصف الله، فظهر الأرض منهم، كما نصت عليه الآية الأخيرة في سياق الآيات السابقة.

ولنعد الآن إلى بني إسرائيل الذين لم يزل نبي الله موسى ﷺ يرئبهم ويستصلح نفوسهم ويصبرهم، حتى استقاموا على الجادة وكانوا أفضل أهل زمانهم، كما قال عنهم سبحانه: ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢]^(٢). وفي الآية الأخرى لما ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿قَالَ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَيْدِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]... إلى غير ذلك من الآيات.

فلما أصبحوا كذلك، تأهلوا لوراثة الأرض، وكانوا هم القوم الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربها الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا

(١) انظر: تفسير السعدي (٨٠/٣). وراجع تفصيل هذه المسألة - إن شئت - في مبحث: (سنة الله في إمهال الأمم)، (ومسنة

أخذ الأمم بالباساء والضراء).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٦٩/١).

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

إن فرعون وقومه كانوا طغاة مسرفين قبل إهلاكهم بزمن طويل . وإن بني إسرائيل كانوا مستضعفين لهم قبل تمكينهم بزمن طويل أيضاً .

والسؤال هنا: لِمَ تأخر إهلاك فرعون وقومه ، واستنقاذ بني إسرائيل والتمكين لهم إلى هذا الوقت؟!

قد يقول قائل: هذا قضاء الله وقدره ، وهكذا اقتضت حكمته .

وهذا تحصيل حاصل ، فإن كل شيء لا يكون ولا يحدث إلا بقضاء الله وقدره ، ولكن كيف ندرك أن ما جرى - هو أو مثله - كان لا بد أن يحدث ؛ لأنَّ حكمة الله تقتضي ذلك؟

والجواب أن يقال: نحن نعلم أن قضاء الله وقدره جار وفق حكمته ، وحكمته عين الحق والعدل والصواب . وقد اقتضت حكمته أن من لم يأت بأسباب الاستخلاف والتمكين التي يقدر عليها ، ويبتعد في تحصيلها بحسب إمكانه ، أنه لا يُمكن له حتى ولو كان مسلماً ، فضلاً عن غيره .

كما أنه - سبحانه - لا يزيل الطغيان الضارب في الأرض ، إلا أخذ بأسباب البقاء المادية ، لا يزيله ليستخلف ويمكّن لطيغان آخر مجرد من تلك الأسباب .

هذا ليس من العدل ولا من الحكمة .

إن بني إسرائيل لم تكن لهم قوة مادية يغلبون بها قوة فرعون وقومه فاستذلهم بالقهر ، شأن الغالب مع المغلوب ، ولم يكن فيهم من الإيمان والصلاح والاستقامة ما يؤهلهم لنصر الله وتأييده الذي ينتزل عادة على أوليائه ، فاستذلهم فرعون وقومه بسبب ذنوبهم وفسقهم عن أمر ربهم ، وتلك هي سنته - سبحانه - فيهم وفي أمثالهم .

وهي - كما ترى - عين الحكمة والعدل والصواب .

يشهد لهذا أنهم لما تربوا على يدي موسى - عليه الصلاة والسلام - وتأهلوا مكّن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها ، وأهلك عدوهم ، لا بجولهم وقوتهم ولكن بجوله تعالى وقوته .

وقد قصر الله نبا الفريقين ؛ ليعتبر به المؤمنون من هذه الأمة .

قال تعالى: ﴿ طَسَّرَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّونَ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلْبِغُ أَبْنَاءَهُمْ نِسَاءً لَهُمْ إِنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١-٦] .

وقال سبحانه مبيناً أنه أنفذ إرادته فيهم لما تاهلوا وكانوا عند مستوى الوعد الإلهي بالاستخلاف والتمكين: ﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ مَشْرُوقِ الْأَرْضِ وَمَعْرِبِهَا أَلْتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

ويشهد له أيضاً: أنهم لما تنكبوا الجادة وفسقوا عن أمر ربهم ، أدال الله عليهم الدولة وسلب الملك من أيديهم مرتين ، في زمانين مختلفين . ثم آذنههم باطراد سنته ؛ ليكونوا منها على حذر .

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَلُوا نَتَبَرَّوْا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُثِمْتُمْ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ - ٨] ^(١) .

وإما أطلت في هذا المثال ؛ لما بينه وبين حالنا - نحن المسلمين - اليوم من التشابه ، والله المستعان .

(١) ولقد عادوا فاعاد الله - سبحانه - عليهم النعمة بأن سلط عليهم الأكاصرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحو ذلك ، وعن ابن عباس: فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين ، وعن قتادة والحسن: عادوا فبعث الله محمداً ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدهم صاغرون . [تفسير ابن جرير (٤٤/١٥) ، وتفسير أبي السعود (١٥٨/٥) .

وأختم هذه الأمثلة والنماذج الناطقة باطراد تحقق سنة الله: أن بقاء الأمم واستمرارها بعد التمكين والاستخلاف لها في الأرض، حاصل لكل من وفى بأسبابها وانطبقت عليه شروطها. أختمها باستخلاف هذه الأمة والتمكين لها في الأرض، كما لم يمكن لأمة قبلها من الأمم، في فترة خاطفة، إذا ما قيست بأعمار الأمم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير عند هذه الآية: «هذا وعد من الله - تعالى - لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاية عليهم... وقد فعله - تبارك وتعالى - وله الحمد والمئة. فإنه ﷺ لم يمِت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة - رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهداها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صُحبة خالد بن الوليد ﷺ ففتحوا أطرافاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صُحبة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صُحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخالفهما من بلاد حوران وما والاها. وتوفاه الله - عز وجل - واختار له ما عنده من الكرامة.

ومن على أهل الإسلام بأن اللهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق - رضي الله عنهما - فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكماله وعدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهان غاية الهوان وتقهر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله - عليه من ربه أم سلام وأزكى صلاة - ثم لما كانت الدولة

العثمانية^(١) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة؛ ما يلي البحر المحيط من ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من بلاد الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمي ما زوى لي منها»^(٢).

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله. فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا^(٣).

فهذا وعد الله للمؤمنين بالتمكين، وقد فعله - سبحانه - كما تبين من النقل آنفاً، وكما هو مشهورٌ مستفيض.

وكما أخبر - سبحانه - في صدر الآية السابقة عن وعده بالتمكين للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنه قرر في آخرها مصير من لم يصبر على الإيمان وعمل الصالحات من هذه الأمة، أن مصيره بعكس الأولين، وذلك قوله في آخرها: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]؛ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه، وفاته وعده بالتمكين. وكفى بذلك ذنباً عظيماً.

«فالصحابة - رضي الله عنهم - لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله - عز وجل - وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم»^(٤).

أما اليوم، وقد نُحِيَ شرعُ الله عن واقع حياة الأمة المسلمة، فقد صاروا إلى شر مما

(١) يعني: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم، عن ثوبان رضي الله عنه. انظر: صحيح مسلم، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ح (٢٨٨٩)، وانظر: شرح السنة للبغوي (٢١٥/١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٠٠/٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣٠٢/٣). وسيأتي لهذا المعنى مزيد بحث في الفصل الأول من الباب الثالث، بإذن الله تعالى، فاكثري هنا بهذه الإشارة.

صار إليه بنو إسرائيل على يد الفراعنة!

والأدهى من ذلك ، أن بني إسرائيل اليوم صاروا من جملة الفراعنة الذين يمارسون عملية الإذلال والاستعباد للأمة المسلمة . وشرّ البلية ما يُضجِك .

وهنا يقال في الجواب عن حال الأمة الإسلامية الذليلة المقهورة ، وأعدائها المنتفذين الغالبين ، وهم كفار مفسدون في الأرض ، ما قيل في الجواب عن حال بني إسرائيل مع الفراعنة ، ﴿لِلَّهِ الْأَسْرِمِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] .

ولا تحسبنّ هذه الأمم التي ذكرتها أمثالا ، أو غيرها ، أهلکوا يوم أهلکوا لأنهم كانوا عاجزين عن عمارة الأرض وتصريف شؤون الحياة المعيشية . كلا ، إنما أهلکوا لأنهم كانوا معرضين عن عمارتها وفق منهج الله ، ولأنهم كانوا رافضين قيادة البشر بشريعة الله إلى الله .

أهلکوا يوم أهلکوا وهم في أوج مدنيّتهم ، وميزان القوة المادية لصالحهم ، فلم يؤتوا قط من هذه الجهة .. والقرآن يسجل لهم ذلك ، ويسجل عليهم جوانب الإخفاق .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] . وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩] . وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَاعِنْدَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غانر: ٨٢ ، ٨٣] . . . إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بقوة أولئك الأقوام وكثرتهم ، وأنهم أهل حرث وزراعة ، وأهل عمارة وتشيد ، وقوة وتمكين .

ولهذا قال - سبحانه - مخبراً عن آثار الديار بعد إهلاك أهلها بظلمهم: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبِئْسَ مَظَلَّتُوهَا وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥] .

وأبناء قوتهم وإثارتهم الأرض وعمرانهم إياها على التفصيل ، مذكورة في مواضع من كتاب الله تعالى ، معلومة لكل مسلم قارئ للقرآن ، أذكر منها على سبيل التمثيل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتُمْ نَوَاصِرٌ عَلَيْكُمْ كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ الْفِتْرَةَ وَتَجِدُونَ لَهَا عَاقِبَةً لَوْ كَفَرْتُمْ * فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٣١] .

وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْفُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتُمْ كُرُوا فِي مَا هُمْنَا عَامِينَ * فِي جَنَّتِ وَعَيْوُونَ * وَزُرُوعٌ وَنَخْلٌ طَلَعُوا هُضِيمٌ * وَتَنْجَثُونَ مِنْ الْجِبَالِ يَوْمَ تَقْرَهُنَّ * فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٥٠] .

وقال سبحانه: ﴿ وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

وقال عنهم في آية أخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوُونَ * وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩] .

وإذن فالتمكين والاستخلاف في الأرض إذا لم يحقق غايته ، وهي إقامة شرع الله ، وسياسة الدنيا وعمارتها وفق منهج الله ، فهو تمكين ابتلاء واستدراج ، صائر إلى زوال وخراب . والمدنية مهما بلغت ، والقوة مهما عظمت ، فهي ليست غاية في ذاتها ، بل هي من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، فهي كالسيف بيد حامله . وهي لا تحمد لذاتها ، كما لا تطلب لذاتها . ولم ترد النصوص البتة بطلبها وتحصيلها باعتبارها شيئاً يحبه الله ، ويمكن لأهله تمكين رضى وقبول . لكنها تحمد فقط إن كانت لنصرة دين الله والتمكين لشرعه ، ومقاومة الباطل والظلم ، وكبح جماحه وقهره . بل هي مذمومة فيما عدا ذلك .

وما ينبغي فهمه وعضّ النواجد عليه ، وقد نهبت إليه ، وأعيد التنبيه إليه ثانية: أن ندرك أن ما تقدّم ذكره من شروط التمكين والاستخلاف وأسباب البقاء والاستمرار ،

ينبغي أن تفهم بمعناها الأعم الأشمل، في الأحوال والأزمان والأقوام، فهي شروط عامة جامعة، وتحت كل شرط منها تفصيلات، ولها تطبيقات يصعب حصرها.

فمثلاً عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَالْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ينبغي أن نفهم من هذه الآية أن «العاقبة الحسنة التي ينتهي إليها التنارع بين الأمم في الدنيا للمتقين؛ أي: الذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب إرث الأرض؛ كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة العدل، والصبر على المكاره، والاستعانة بالله، لاسيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى إليه وحبه وأيدته التجارب»^(١).

فيكون قوله في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: ٥٥] وغيرها مما كان في معناها، كلها تجتمع لتؤكد معنى كلياً عاماً هو «الصلاح والإصلاح»، وهكذا في كل شرط من الشروط.

ولا ينبغي ولا يصح عقلاً ولا شرعاً، أن نفهم التقوى ببعض معناها، وهو القيام بالشعائر التعبدية فقط، ثم ترك شؤون الدنيا لغير المسلمين، ويفشو الظلم والجور والتقاطع بين المسلمين، ويطوى بساط العدل وينحسر التعاون على البر والتقوى بين شعوب الأمة المسلمة، ويجري التعامل بالربا وأكل الأموال بالباطل، وتشيع سائر الانحرافات السلوكية في طول بلاد المسلمين وعرضها. بل وربما حكموا بغير شريعة الله وتحاكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. . ثم نقول بعد ذلك: إننا نتظر من الله أن يجزينا جزاء المتقين، فيجعل العاقبة لنا في الدنيا!

ولكي يتضح هذا المنهج في الفهم، أنقل هنا مقتطفات من كلام نفيس للعلامة ابن عاشور في هذا المعنى.

يقول - رحمه الله: وقد بين الله - تعالى - أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقوله في سياق الهم: ﴿وَإِذَا قُوتِلَ فِي الْأَرْضِ

لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - تصرفات ولاية الأمور في شئون الرعية، ومع أهل الذمة، ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين الناس. فمتى اهتم ولاية الأمور وعموم الأمة، بأبواب ما وضح لهم الشرع، تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل.

وهذه التكاليف التي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة، ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن، صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها، وكانت الموعدة كالسبب عليها، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع^(١)، وجعل الإيمان عمودها وشرطاً للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقاً لحصول آثارها، بأن جعله جالب رضاه وعنايته، فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها، بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها وعند تخليطهم الصلاح بالفساد ففرق بهم ولم يعجل لهم الشر وتلوم لهم في إنزال العقوبة. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في [سورة الحج: ٣٨].

فلو أن قوماً غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشئون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات، بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله، لاجتنبوا من سيرتهم صوراً تشبه الحقائق التي يجتنبها المسلمون؛ لأن تلك الأعمال صارت أسباباً وسناً ترتب عليها آثارها التي جعلها الله سنناً وقوانين عمرانية. سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم، بجحودهم، أو بالإشراك به، أو بعدم تصديق رسوله، يكونون بمنأى عن كفالاته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم حسب المعتاد...^(٢).

(١) وهو ما يقتضي جعل شيء سبباً لشيء، أو شرطاً، أو مانعاً، وسُمِّي خطاب وضع؛ لأن الشرع وضع الخطاب بالأسباب والشروط والموانع. وذلك مثل أن يقول: إذا زالت الشمس فقد وضعت وجوب الصلاة، وإذا تم النصاب والحول فقد وضعت وجوب الزكاة، وإذا حصل الحيض فقد وضعت سقوط الصلاة والصوم، وقس على هذا. انظر: علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف، ص ١٧، ومذكرة أصول الفقه، لمحمد الأمين الشنقيطي، ص ٤٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٨/٢٨٣ - ٢٨٥). وضرب المؤلف مثلاً بالأوربيين، كيف عظمت ممالكهم واستقامت أمورهم باقتباسهم هذه التعاليم والإفادة منها.

وأكتفي بما سبق من الأمثلة، وكلها ناطقة بضرورة إصلاح النفوس والأوضاع بتعييدها لخالقها وانقيادها لأمره وشرعه، كما أنها شاهدة بوضوح على أن تحقيق هذه الغاية والقيام بهذه المهمة لا يكون إلا على أيدي المصلحين، الذين هم الأنبياء وأتباعهم الصادقون دون من عداهم من سائر المصلحين.

وهذا هو الأساس الثاني. فإلى تفصيله.

المصلحون الربانيون شرط في إصلاح الأمم

قد سبق في ثنايا الحديث عن الأساس الأول، التأكيد مراراً على أن الأنبياء وأتباعهم هم رؤاد الإصلاح المنشود، وقد تبين لنا كيف أن نجاة الأمم أو هلاكها كان مرتبطاً بصورة رئيسية بطاعتهم أو مخالفة أمرهم، وأن ذلك سنة إلهية أكدها القرآن وقررها في عدة مواضع، وعرض لها بأكثر من أسلوب، وصدقها الواقع الحاضر، وشهد بها التاريخ الغابر.

لكن لا بأس من وقفة نتبين فيها: معنى الإصلاح وحدوده في القرآن؛ كي نعرف بالتالي: من هم المصلحون، بشهادة القرآن.

وبين يدي ذلك أذكر بما قلت سلفاً من أنه: قد علم من استقراء أحوال البشر وطبائع الأمم، بحكم ما جبلوا عليه من الظلم والجهل، أنهم لا يستقيمون على الحق والمعروف، ويتركون الباطل والمنكر في شئون دينهم وديناهم من تلقاء أنفسهم، بل الأثرة وظلم الغير وارتكاب الفواحش والمنكرات، واتباع الشهوات هو ديدنهم، أفراداً وجماعات وأماً، ولو تركوا دون أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لانتهى أمرهم إلى الفساد والتناحر؛ لتعارض مصالحهم، أو أن يجتمعوا على ما يضرهم من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وبالجملة فإن الأمم لا بد لها لكي تبقى وتستحق الاستخلاف والتمكين في الأرض، من أن تكون «صالحة مصلحة».

وهي لا تكون كذلك ابتداءً، ولا تصبر عليه استمراراً من تلقاء نفسها، فثبت أن من لازم كون الأمة «صالحة مصلحة»، أن يكون فيها ﴿أُولَٰئِكَ يَتَهَوَّنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]. ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا بد أن يكون أمرهم مطاعاً، ورأيهم نافذاً فيها، لا بد من هذا وهذا للنجاة، ولتمكين والاستخلاف في الأرض.

وقد اتضح هذا وتأييد بما مضى من الأمثلة والشواهد. ولكن بقي لنا أن نفصل بعض الشيء في ماهية الإصلاح الذي تُدعى إليه الأمم في القرآن؛ لتبين حدوده، وفي ماهية الفساد الذي تنهى عنه وعن مقارفته.

* معنى الإصلاح وحدوده في القرآن:

الصالح ضد الفساد^(١)، وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه. والاستصلاح: نقيض الاستفساد^(٢).

فالصالح والإصلاح، يعني: استقامة الأشياء وإقامتها وفق المصلحة.

ومن لازم ذلك: مضادة الفساد والإفساد ومقاومته، لأن مقاومة الفساد إصلاح. وقبول الصالح في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿حَاطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٥٦]^(٣).

فدخل في ذلك: إصلاح الأديان والأبدان والأقوال والأفعال وسائر الأحوال، فإن ذلك كله مما أصلحه الله، ودخل في النهي عن الإفساد في الأرض النهي عن الإفساد في ذلك كله.

قال الإمام ابن عطية - رحمه الله - عند هذه الآية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٥٦]: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قل أو كثر بعد كل إصلاح قل أو كثر. والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكم، إلا أن يُقال على وجه المثال.. وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملّة محمد ﷺ. وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصّه بالذكر»^(٤).

وقال أبو حيان: «هذا نهى عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه... من إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان. ومعنى ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين. وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح، ينبغي أن يحمل

(١) مفردات الراغب. ولسان العرب، مادة (صلح).

(٢) لسان العرب، مادة (صلح).

(٣) مفردات الراغب، مادة (صلح).

(٤) المحرر الوجيز (٧٩/٧).

ذلك على التمثيل؛ إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه، كالظلم بعد العدل، أو الكفر بعد الإيمان، أو المعصية بعد الطاعة^(١).

هذا معنى ما قاله المفسرون عند آية الأعراف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. وخلاصته: «أن لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها، بأن خلقها على أحسن نظام وبعث الرسل وبين الطريق وأبطل الكفر»^(٢).

وعلى ضوء هذا الفهم لمعنى الإصلاح في القرآن، نستطيع أن نقرر مطمئنين: أن الإصلاح الذي أمر به القرآن صراحة أو إيماءً، أو مدح أهله المتصفين به، أو ذم المعرضين عنه أو الفاعلين لضده... أنه يتسع ليشمل كل صور الإصلاح التي يجيها الله ويرضاها، مما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته، مما عرفها أو يمكن أن يعرفها الإنسان، منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة.

وإذا كان الصلاح معنى كلياً يقابل الفساد بمعناه الكلي، فإن المصلحين بهذا المعنى يكونون في مقابلة المفسدين، وهم ضروب شتى، يُعرفون بسماهم، وتشهد عليهم آثارهم.

فللأ المسرفون، ديدنهم الإفساد والدعوة إلى الفساد.

قال تعالى عن صالح عليه السلام ﴿أَتُرَكُونَ فِي مَا هُنَّآءَ آمِنِينَ * فِي جَنَّتِ وَعَيْبُونَ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَيْبًا * وَتَنَحُّوتَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا فَرِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتْسِرِّينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

والمناقفون عملهم إفساد، ويسعون للإفساد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

وسياسة الناس بشريعة الله إصلاح، وترك ذلك إلى غيره فساد وإفساد.

(١) البحر المحيط (٤/٣١١، ٣١٢).

(٢) تفسير القاسمي (٧/١٥١)، ونسبه إلى أبي مسلم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

والذين يتآمرون على الحق وأهله ودُعائه مفسدون ، وسعيهم محض فساد وإفساد .

قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهَطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل: ٤٨ ، ٤٩].

والتجبر في الأرض والتسلط على الناس بالإيذاء والقتل ، من أخص صفات المفسدين . ولهذا لا تتصور النفوس بفطرتها أن يكون ذلك من صفات المصلحين .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالِ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبُنِيَ لَكَ مَقَلَّتْ نَفْسًا يَا لَأَمْسٍ إِنَّ تَرْيِدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرْيِدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

وحماية حقوق الضعفاء والأيتام وإصلاح ، وضد ذلك إفساد .

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ آلِ مُوسَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وهكذا يميز الله في كتابه للناس بين الصلاح والفساد ، والإصلاح والإفساد ، والمصلحين والمفسدين ، ويذكر لكل منهما أوصافاً عامة ثابتة مطردة ، ويضرب لكل منهما بعض الأمثلة التفصيلية ؛ ليقبس الناس على ما ذكر ما لم يذكر .

وإذا انتكست الفِطْرَة ، وانقلبت الموازين والتصورات ، جاء الإنسان بما يضحك منه ، وناقض طبيعة الأشياء . فتراه تارة يسمى الكيد للحق وارتداء عباءة النفاق ، إصلاحاً!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١ ، ١٢].

وثلغ فيه أخرى يسمى قمة الطغيان والتأله على الخلق ، إصلاحاً . ويرمي أئمة الإصلاح ، بالعمل على إشاعة الفساد وإظهاره!

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦].

... إلى أمثلة أخرى كثيرة، وهي - وإن كانت أمثلة مسطورة في كتاب الله تعالى -
فإنها مكرورة في دنيا الناس على مدار التاريخ .

تلك إشارات أرجو أن تكون - أخي الكريم - تصورت من خلالها:

* معنى الإصلاح ، وحدوده في القرآن .

* ومن هم المصلحون الحقيقيون بشهادة القرآن .

* وأن يكون ظهر لك بجلاء:

- أنه لا يمكن لأمة أن تستغني عنهم ، إذا ما أرادت لنفسها النجاة والفلاح في الدنيا
قبل الآخرة .

- وأن الأمم هي المسئولة أولاً وأخيراً عن الحيلولة بين المصلحين وبين أن يبلغوا
بإصلاحهم مداه .

ويبلغ هذه الغاية ، أكون قد بلغت بك منتهى ما أردت شرحه مما يتعلق بالفصل
الأول: مجال الحماية والوقاية . وانتقلُ بك إلى الفصل الثاني: (مجال الابتلاء والتمحيص) .

الفصل الثاني

مجال الابتلاء والتمحيص

الابتلاء: هو الاختبار لمعرفة حقيقة الشيء، جودة ورياءة.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد: ٣١].
والتمحيص: من المحص، وهو تخليص الشيء مما فيه من عيب، فهو كالتركية والتطهير.

قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]^(١).
والابتلاء والتمحيص يكون بالخير والشر، بالحسنات والسيئات، ويقع على الأفراد والجماعات والأمم، المؤمنة والكافرة، في أحوالها كافة، قوة وضعفاً، بداية ووسطاً ونهاية. سنة ماضية ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].
ويقع الابتلاء والتمحيص على الأفراد والأمم؛ ليحكم وفوائدها عظيمة. وفوائده راجعة إلى ذات المكلفين، بل هو رحمة ولطف من الله بهم، وإن بدا لأكثر الخلق بخلاف ذلك.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد عرض القرآن الكريم لهذا الجانب في حياة الأفراد والأمم بصورة مفصلة، وبين في مواضع أن ذلك سنة يأخذ الله بها عباده، فلا استثناء ولا محاباة.
وفي الصفحات التالية - بإذن الله تعالى - سأعرض بالتفصيل لـ:
* ابتلاء الأمم عامة بالسراء والضراء، وأبين موقفها من ذلك.
* وأنتي بيان سنة الله في إمهال الأمم والإملاء لها؛ لأن ذلك محل ابتلائها.
* ثم أخص ابتلاء الله عباده المؤمنين بسبب إيمانهم بمبحث مستقل.
وأسأل الله الإعانة والتسديد.

(١) انظر: مفردات الراغب، مادة (بلى)، و(محص).

ابتلاء الأمم

بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك

أخذ الأمم بالبأساء والضراء، وابتلاء الأفراد والجماعات في هذه الحياة الدنيا، من السنن الإلهية العظيمة، وقد استودع الله - جل وعلا - فيها من الحكم والمنافع لهذا العالم ما لا يعلمه إلا هو سبحانه .

وقبل الشروع في الحديث عن هذه السنن على مستوى الأمم، فإن من المفيد أن أقدم بين يدي ذلك بإشارة إلى الابتلاء في حياة الإنسان بصفة عامة، فأقول:

ليست الحياة الدنيا سوى رحلة قصيرة يقطعها الإنسان على هذا الكوكب، تبدأ لحظة يولد، وتنتهي بمفارقة روحه جسده لحظة الوفاة .

وهي رحلة قصيرة مهما تطاولت في حس الإنسان، لا ينفك يبتلى فيها بألوان الابتلاء . فهي - أعني الحياة - في ذاتها ابتلاء . ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] .

والإنسان خلق وأوجد فيها للابتلاء . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] .

وكل شيء على ظهر هذه الأرض جعل زينة للابتلاء . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] ، ﴿ زِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤] ، ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] ، ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١] .

وهكذا، فلا راحة ولا فعود: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤] . ولا فوضى ولا إهمال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] .

المؤمن مبتلى بإيمانه: ﴿الذَّارِبُ * أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢]. والكافر مبتلى بسبب كفره وعصيانه: ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

والمؤمنون والكافرون بعضهم لبعض فتنة: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿ [الفرقان: ٢٠]، ﴿كَذَلِكَ وَوَشَاةَ اللَّهِ لَأَنْصَرِمَهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]؛ أي: ليلو الرسل وأتباعهم بالشياطين وأتباعهم. ويبتلي أتباع الشياطين بالرسل وأتباعهم، لما بين هؤلاء وهؤلاء من العداوة الراسخة منذ القدم، كما قال سبحانه مخاطباً آدم وزوجه وإبليس: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ﴿قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

وأرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع، يبتلي بذلك عباده، من يطيعه منهم، ومن يعصيه. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصِيرَةٍ. وَرُسُلَهُ بِالْقَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَوَشَاةَ اللَّهِ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

وبالجمله فإن كل مخلوق؛ حاله دائرة بين أمرين: خير أو شر، حسن أو سيء، وكلاهما فتنة وابتلاء. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وهذه ألفاظ عامة، فيدخل فيها كل أحوال الإنسان، في نفسه وبدنه وماله وولده، وكل ما يتصل به.

وغاية هذه الابتلاءات تبيين ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]؛ ليكون أحسن جزاء، وأيكم كان دون ذلك، فيكون جزاؤه بحسبه.

إذا تقرَّرَ هذا، وهو أن الابتلاء يكون في كل شيء، ويقع على كل مخلوق، فلنخط الخطوة الثانية، إلى مجموعة الأفراد... إلى الأمم.
لماذا تُبتلى؟ وبماذا تُبتلى؟ كيف يأخذها الله بالحسنات والسيئات؟ ما سُنَّته تعالى في ذلك؟

ومن المهم أن نستحضر ونحن ندرس أحوال الأمم أن أحوالها تُعرف بمعرفة أحوال أغلب أفرادها. وأن أعمارها تمتد لتزيد أضعافاً مضاعفة عن عمر الأفراد فيها^(١). لأن استحضار ذلك، يساعد في فهم ما نحن بصدد دراسته.
ولهذا، فقد يجني جيلٌ ما، ثمرة مُرة، لم تكن له يد في غرس أصولها، وإن كانت له يد في استمرارها وبقائها. وقد يتفياً جيل ظللاً وارقة، لم يجاهد في تحصيلها، وإن كان يمكنه أن يجاهد من أجل أن تبقى وتستمر.

ولنعد إلى السُنَّة التي نحن بصدد دراستها: سُنَّة الله في ابتلاء الأمم.
لماذا تُبتلى؟ وبماذا تُبتلى؟ كيف عرض القرآن لهذه السُنَّة؟
فماذا نحن وأجدون؟

سنجد بوضوح أن الله - سبحانه وتعالى - يبتلي الأمم - كل الأمم - بالخير والشر، بالحسنات والسيئات، لتراجع مسيرتها، وتستقيل من عثراتها، وتصحح أخطاءها؛ أي لترجع إلى ربها.

تُبتلى بالخير: وهو كل ما يرغب فيه، محسوساً كان أم معقولاً، وضده الشر، وهو كل ما لا يرغب فيه، محسوساً كان أم معقولاً.

وتُبتلى بالحسنات: وهي جمع حسنة، والمراد بها: الحالة الحسنة التي تحسن عند صاحبها، وضدها السيئة، وهي التي تسوء صاحبها.

ولفظ «الخير» و«الحسنة» لفظان عامان جامعان، فيدخل في معنى الخير والحسنة: كل مرغوب محبب إلى النفوس، ميسور من الأمور، كالصحة في الأبدان والأمن في الأوطان والسعة في الأرزاق، والتمتع بأنواع المُتَمِّع والمشتهيات، واستقامة الأحوال، وكالتمكن في الأرض والنصر على العدو، وما أشبه ذلك.

ويدخل في معنى «الشر» و«السيئة» أضداد ذلك، كالأمراض وأنواع المخاوف والشدائد والفقر وفساد الأحوال، وكالتشريد والهزائم وأنواع الفتن وعموم المفاسد في شئون الدين والدنيا، وما أشبه ذلك.

(١) وقد سبق تقرير هذين المعنيين في المقدمة الثالثة من مقدمات التمهيد.

يبتلي الله - جل وعلا - الأمم بذلك كله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، عن غيهم، و﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ويستكينون إلى ربهم، و﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أن ما حل بهم بسبب ذنوبهم وإعراضهم، فيتوبون إلى الله، ويصلحون ما فسد من أحوالهم.

وهذا من رحمة الله بهم وتعطفه عليهم أن صرف لهم الآيات وقلب بهم الأحوال، ونوع عليهم الحوادث، بما يحبون وبما يكرهون، ولو تركهم على حال واحدة لتمادوا في الغفلة، وأسرع إليهم الفساد، ولكنه - سبحانه - أمهلهم وآتاهم من الآيات ما فيه مزدجر؛ ليوقظهم بها فيرجعوا زمن الإمهال.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقال عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال عنهم أيضاً: ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]. وقال: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ هُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

ومن هذه الآيات ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وقال عن كفار قريش ومن على شاكلتهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]. وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

ومن تصريف الله الآيات وتنويع الأحوال للأمم لترجع عما هي فيه: أن الله - سبحانه وتعالى - يهلك جيرانها وما حولها من القرى والممالك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:

وهو - سبحانه - يرببها بذلك ؛ يصرف لها الآيات وينقلها من حال إلى حال ؛ إبقاء عليها ، وإعداداً إليها .

والأمم كالأفراد ، كثيراً ما تنحرف عن الجادة وتستحکم فيها الغفلة فتمضي هائمة على وجهها مترددة في غيها ، فرحة بما هي فيه إن كان نعمة ، يائسة مبلسة إن كان ضراً وشدة . ولو تركت وحالها ، لبغت في الأرض ، وتجاوزت الحد في الطغيان عند النعمة ، ولقنطت وتبددت ، وتملكها اليأس عند الضرر والشدة .

قال تعالى مبيناً حال هذه الأمم في النعماء: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ تَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣] . وقال: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُورِ فِي طَعِينِهِمْ يَعْصَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] . وقال في بيان حالها في البأساء: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ * حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦ ، ٧٧] . وقال تعالى ذاكراً شأنها في الحالين: ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتُمُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] . وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتُمُ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْتَضُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] . وقال في سورة هود: ﴿ وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ * وَلَئِن أَذَقْتَهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود: ٩ - ١١] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

فليس ثمت إلا الفرح والفخر والبطر عند النعم والخير والحسنات ، أو اليأس والقنوط والإبلاس عند أضرار ذلك . ولا واسطة بينهما ؛ لأنهم بسبب إمعانهم في الضلال لا يفكرون في غير اللذات الدنيوية ، فتجرى انفعالاتهم على حسب ذلك ، ولا يتفكرون في أسباب النعيم والبؤس ، وتصرفات خالق الناس ومقدر أحوالهم ، ولا يتعظون بتقلبات أحوال الأمم^(١) ، فلذلك يكون فرحهم بالنعم فرح بطرٍ وأشرٍ وإعجاب بالنفس وتكبرٍ على الخلق ، إذا فرحوا . . . هذه حقيقة الفرح عندهم ، وتلك هي آثاره عليهم .

وهم - مع ذلك - يجمعون إلى تلك السيئة سيئة أخرى أشنع منها، إذ ينسبون إلى أنفسهم الفضل فيما هم فيه من النعم والحسنات، ويزعمون «أنهم أحرىء بالنعم، أي فلا يرون تلك الحسنة فضلاً من الله ونعمة»^(١).

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

وقال عن آل فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. هكذا ﴿لَنَا﴾ بـ «لام الاستحقاق، أي: هذه الحسنة حق لنا»^(٢).

ويكون بأسهم وقنوطهم مصحوباً بالتسخط على ما انتابهم، وبجحود وإنكار أن يكون الله - تعالى - قد أنعم عليهم نعمة قبل ذلك. ويقوم في أنفسهم من سوء الظن بربهم ما لا يرجون معه فرجاً، فيرتكسون في الكفر حتى يأخذهم العذاب وهم في شرّ حال. نعوذ بالله من ذلك.

وقد يقول قائل: إنه قد جاء في القرآن - في آيات منه - أن هذه الأمم أو بعضها، إذا مسهم الضر، أو وقع عليهم الرجز ورأوا البأس، وظنوا أنهم أحيط بهم، وما أشبه ذلك، أنهم يؤمنون بالله ويخلصون له الدعاء، ويكفرون بما كانوا به مشركين. وهذا الفعل توبة منهم ورجوع إلى الله، والله إنما يتليهم ليرجعوا إليه. فما وجه ذلك؟ والجواب: أنه لا تعارض - بحمد الله - بين هذا القول وبين ما تقرر من قبل، من أن الأمم في جملتها لا يصبرون عند الضراء، ولا يشكرون عند السراء.

وتظهر عدم معارضته من وجوه، أظهرها - فيما تبين لي - وجهان:

الأول: أن هذه الأمم غير صادقة فيما تنفوه به أو تدّعيه من الإيمان والتوبة. ولو كانت صادقة، لما نكثت وارتدت إذا أنجاها الله مما هي فيه من الكرب والضرّ والخوف. وما إخلاصهم إلا رغبة في النجاة، لا حباً في الإخلاص أو صدقاً فيه، فهم يحتالون به لينجوا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، والله يستجيب لهم فينجيهم ابتلاءً لهم وامتحاناً. وآيات القرآن صريحة في هذا.

(١) التحرير والتنوير (٦٥/٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦٥/٩).

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنحِيكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الَّتِي وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنحِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] ، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَجَبْتُهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] .

وقال عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥] ، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِيتِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] . . . إلى غير ذلك من الآيات .
ولهذا لما صدق قوم يونس عليه السلام في إيمانهم ، كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا وامتعمهم إلى حين .

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] .

ثانياً: أن إيمانهم اضطراري ، أُلجأتهم إليه الضرورة ، ولو كانوا مختارين لما آمنوا ولا تابوا . وهذا النوع من الإيمان لا ينفع أصحابه .
ولو تأملت النصوص السابقة وما كان في معناها ، وجدت أن الإيمان فيها كلها لم يصدر إلا عن ضرورة ملجئة من خوف أو أذى ، أو نحوهما .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] . وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظٰلِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَوْا بِبَأْسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] .

﴿ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْكَاظِيْمِينَ ﴾ فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلِيدِينَ ﴿ [الأنبياء: ١١-١٥].

وفرعون الطاغية ، لما أدركه الغرق: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] ، فردَّ الله عليه توبته بقوله: ﴿ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١] .

وقد أوضح هذين الوجهين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ولخص معنى ما سبق في تعليقه على آية يونس: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا ﴾ [يونس: ٩٨] . يقول - رحمه الله -: «لولا: هلا ، هذا قول أئمة العربية ، وعن ابن عباس: لم يكن ، فذكر أنه لم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، وهذا حق . وقادة ظن أن المعنى: أنه نفعهم دون غيرهم ، وليس كذلك ، بل غيرهم لم يؤمن إيماناً ينفع ، وهؤلاء آمنوا إيماناً ينفع . والاستثناء حجة لنا ؛ لأنه منقطع ، ولو اتصل لرفع ، وهو كالاستثناء في قوله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ [هود: ١١٦] .

ومما بيّن ذلك: أنها تخصيص وضم لمن لم يفعل ، وهو يقتضي أن القرى لو آمنوا نفعهم ، ولكن لم يؤمنوا ، وهذا هو الصواب ؛ لأنه - تعالى - قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ. وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤] الآيات ... فأخبر أن هذه سنته ، وسنته لا تبديل لها .

وأيضاً ، فإنه سبحانه عدل لا يفرق بين تماثلات ، وكشف العذاب عنهم حق ، رآه أم لا ، فإنه نوعان: نوع يتيقن معه الموت ، ونوع لا يتيقن ، ومن تاب كشف عنه هذا العذاب ، والمريض تقبل توبته ما لم يغرغر ، وإن كان مرضاً مخوفاً .

وقوله: ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ بيّن أن المكشوف عذاب في الدنيا ، ولو لم يفسر فهو مجمل ، والقرآن فرق بين النوعين ، فقوم يونس آمنوا إيماناً نفعهم ، وآمنوا قبل حضور الموت ، وغيرهم إما أن يكون كاذباً في إيمانه كقوم فرعون^(١) ،

(١) وقد مرّ بك قوله تعالى عنهم: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الزَّجْرَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٥] . يعني: ينقضون العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالإيمان ومتابعة موسى ﷺ وإطلاق سراح بني إسرائيل من أسر الاستبداد والاستعباد .

وإما بعد حصول الموت ، كالذين قال فيهم: ﴿ فَالَّذِينَ يَنْفَعُهُمْ يُعْمَلُ لَهُمْ مَكْرَهُمُ فَأُولَٰئِكَ يَرْجُونَ أَلْفَاظًا ﴾ [غافر: ٨٥] (١).

وهذا يكشف لنا من جانب آخر ، حقيقة ضخمة سجلها القرآن على الأمم فيما يتعلق بجالها في السراء والضراء . هي أن الأمم ، كثيراً ما تنسى حالها السابقة ، وما كانت عليه من قبل ، فلا تذكرها ذكر اعتبار ، ولا تريد أن تذكرها بهذا المعنى .

كما أنها تهمل النظر - من باب أولى - في أحوال الأمم قبلها ، كيف كانوا ، وإلى أي شيء صاروا؟ وتستغرقها اللحظة الحاضرة والحال الراهنة ، فلا تطبق رؤية شيء آخر من ماضٍ أو مستقبل ، وكأن لسان حالها - وربما أيضاً لسان مقالها - يقول: إن دورة التاريخ توقفت ، أو يجب أن تتوقف عند هذه المرحلة .

وهي بهذا المنطق لا تتفجع بالذكرى ، ولا تنفع فيها الذكرى - غالباً - ولا يكون في أحداث التاريخ لها زاجر وواعظ ، ما دامت على تلك الحال ؛ لأنها أهملت الأسباب الشرعية والعقلية .

وهذا ليس في أمة دون أمة ، بل الأمم كلها كذلك إلا من رحم الله .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ ﴿ [الأعراف: ٩٤ ، ٩٥] .

قال ابن جرير عند هذه الآية: «هذا خبر من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم الله الحسنة السيئة التي كانوا فيها استدراجاً وابتلاءً ، أنهم قالوا ، إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آباءنا ، ونالت أسلافنا ، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعاش والرخاء فيها . وجهل المساكين شكر نعمة الله ، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإنابة إلى طاعته ، والمساورة إلى الإفلاق عما يكرهه بالتوبة ، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون . بل هم بأنه آتاهم مكذبون ، حتى يعاينوه ويرؤوه» (٢).

(١) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى الإمام ابن تيمية ، للإمام محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٧ ، ٦٨ . وقد أتممت بعض الآيات في النص ؛ إيضاحاً للمقصود .

(٢) تفسير ابن جرير (٩/٨ ، ٩) .

وتلك عاد، لما ذكرهم هود ﷺ ما هم فيه من النعيم، مع ما هم مقيمون عليه من العيب والجبروت، وأظهر خوفه عليهم أن يحلّ بهم بسبب ذلك عذاب عظيم. «ما كان جوابهم إلا أن قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨]، يعنون: ما هذا الذي جئنا به إلا أخلاق الأولين، أو دينهم وما هم عليه من الأمر، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد»^(١).

وقال السعدي عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، قال: «يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير»^(٢).

ومن مظاهر نسيان الحال السابقة: اليأس من عود الحال الحسنة، وهذا عند الضراء وهو نقيض الحال السابقة: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافُورٌ﴾ [هود: ٩]، يستسلم لليأس وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخاطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيراً منها عليه^(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وهم من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميمة إلى ضده. فصبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبطنوا^(٤). وأولئك مستثنون من عموم جنس الإنسان.

ولم يزل الأنبياء وأتباعهم يذكرون أمهم ما أغفلته أو نسيته من حالها التي كانت عليها من قبل، ومن أحوال الأمم قبلها. ولم تزل الأمم تخالف إلى ما نهيت عنه، متجاهلة كل النذر والتحذيرات.

فهذا هود ﷺ يقول لقومه مذكراً لهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. فما كان جواب قومه إلا أن ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٤٢).

(٢) تفسير السعدي (٣/١٩١).

(٣) تفسير السعدي (٣/١٩١). وانظر: جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/٣٥٨).

(٤) تفسير السعدي (٣/١٩١) بتصرف.

وصالح ﷺ يقول لقومه أيضاً: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]. فأعلنوا كفرهم ، واعتدوا على الآية التي جاءهم بها صالح ﷺ بعد طلبهم إياها ، والتي كان مرجواً أن تكون سبباً في إيمانهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَلِّحْ اتَّقِنَا يَمَّا وَعَدْنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

ونبي الله شعيب ﷺ يذكر قومه ما كانوا عليه من القلّة ، وما صاروا إليه من الكثرة بقوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]. ويثنى بذكر مآل المفسدين من قبلهم: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]. فما كان جزاؤه إذ نصح لهم إلا أن قالوا له على لسان الملا منهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينًا أَوْ لَنُعُودَنَّ فِي مَلْتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

ورسول هذه الأمة ، محمد ﷺ يذكر المؤمنين ما كانوا عليه إلى عهد قريب من القلّة والاستضعاف والخوف ، وما آل أمرهم إليه من القوة والأمن وسعة الرزق. ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَانِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِبَصَرِهِمْ وَرِزْقَكُمْ مِنَ الْأَطْيَبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] ؛ أي: لتشكروه فتعبده وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً. فانتفع بهذه الذكرى المؤمنون ، واعترفوا بمنة الله عليهم في ذلك كله . أمّا المشركون ، فكما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخَطِفُ مِنَ الْأَرْضِ أُولَمَّ نَمَكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ نَمَرَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] ، وقوله: ﴿أُولَمَّ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَابَ الْبَطِيلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ؟

وبهذا نعلم أنّ هذه الأمم لم تتذكر شيئاً من ذلك تذكر اعتباراً ، على حين أنها اطمأنت إلى ما هي فيه . فلا هي أخذت العبرة من ماضيها ومن القرون قبلها ، ولا هي أحسنت التصرف في حاضرها واتعظت بمن حولها .

و خلاصة القول:

* أن من سنن الله في الأمم ، أنه يبتليها ، مؤمنها وكافرها ، بالحسنات والسيئات ، ويصرف لهم الآيات ، ولم يعرف التاريخ أمة واحدة كانت على حال واحدة في الخير أو الشر .

* وأن الحكمة من هذا الابتلاء بنوعيه ، إيقاظهم وتحذيرهم ؛ رجاء أن يرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه ، لطفاً منه - سبحانه - بهم ، فإن هم رجعوا وأنابوا ، كان خيراً لهم في الحالين .

* وأن الأمم في جملتها ، لم يزدتهم ابتلاؤهم بالنعماء إلا غروراً بأنفسهم وفرحاً وبطراً ، وتكبراً على الحق وعلى الخلق . ولم يحملهم ابتلاؤهم بالبأساء والضراء إلا على الكفر والجحود ، واليأس وسوء الظن بالله وبمواعوده ، فكانت كل من الحالين شراً لهم^(١) ، إلا من رحم الله منهم ، وهم قليل .

* وأن الذي صبرهم إلى تلك الحال ، هو تعطيلهم الأسباب الشرعية والعقلية ، فصاروا ، يسعون أبدأ ضد مصالحهم الدينية والدنيوية ، وهم يزعمون أنهم يحسنون صنعا .

الفصل الثالث

مجال التحذير والتهديد

مرُّ بنا في الفصل الثاني، أن الله - تبارك وتعالى - يتبلي الأمم بأنواع الابتلاءات، وينوع عليهم الآيات لعلهم يتقون ويرجعون إليه، ويكفون عما هم فيه من أنواع المعاصي والمخالفات. ومع كل ذلك، فقلماً ترعوي وتوب هذه الأمم، وتُصَحَّح من أوضاعها^(١).

ونحن إذا تأملنا في مظاهر الابتلاء بالخير والشر، وجدنا أنها تقع - غالباً - في محيط الأمة نفسها؛ وذلك كالجوع والخوف والمرض، وكالصحة والقوة وسعة الرزق، ونحو ذلك مما جرى تفصيله.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَ أَيْدِي مَفْصَلَتِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقال: ﴿وَلَنَبِّئَنكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]... وغير ذلك من الآيات. وكلها تذكر أنواعاً من الابتلاءات الواقعة في محيط الأمة، من داخلها، وليس بسبب التسلط الخارجي والاعتداء من الغير.

وهذه الابتلاءات المتنوعة، هي في حقيقتها تحذيرات موجهة إلى الأمم؛ لأن في تقلب الأحوال نذيراً وعبرة ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ الْبَيْتَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

كما أن في استقرارها واستتباب أحوالها مع الكفر أو الفسوق نذيراً وتهديداً للأمة أعظم من سابقه. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤].

(١) وقد سبق بيان ذلك وتفصيله.

وليس الحديث في هذا الفصل عن هذين الضربين ، وإن كان التحذير ظاهراً في كل منهما ، ولعل فيما تقدّم غنية وكفاية . وإنما سأتحذّث عن التحذير والتهديد الذي يوجه إلى الأمم في مجال آخر غير الذي يكون ويقع في محيطها .

سأتحذّث عن التحذير والتهديد الذي يوجهه القرآن إلى الأمم ليلقي في روعها دروساً بليغة من خارج محيطها ، ممن سبقها ، ومن حولها من الأمم والشعوب .

وهذا الجانب يعد جزءاً من منهج القرآن في تربية الأمم ، وتقويمها حتى تستقيم على الجادة ، أو تدركها سنّة الإهلاك ، بعد أن تكون استنفدت أغراضها ولم ينجع فيها دواء ولا طيب .

والغاية من هذا ، كالغاية من الابتلاء ، أو هو مكمل له ، بحيث يجمع الله للأمة بين الموعدة والذكرى في نفسها ، وفي غيرها رحمة بها ، وإعذاراً إليها .

وقد عُني القرآن بهذا الجانب ، ونوع فيه من الأساليب ، لتحقيق أبلغ الأثر ، وتمشياً مع اختلاف أحوال الأمم ، وتنوع المخالفات فيها .

وفي الصفحات التالية أذكر أبرز الأساليب التي اتبعتها القرآن في تحذير الأمم من المخالفات ، وتهديدها إن هي فعلت ذلك بأنواع العقوبات .

فمن ذلك : استحضار أحوال المكذبين في الأمم السابقة ، وما كان من سنّة الله فيهم ، وما أحلّ لهم من الأمثالات .

وهذا باب واسع ، ولجّ منه القرآن الكريم لتحذير الأمم من أكثر - إن لم يكن من كل - أخطائها ؛ العقائدية والسلوكية والتصورية وغيرها .

وثمرّة ذلك وفائدته : أن الأمم - في الغالب - قد لا يجدي فيها أن تنهى بصورة نظرية فقط عما يضرُّ بها ، ويكون سبباً في هلاكها ، كالشرك والكفر ، أو إشاعة الفاحشة ومقارفة الجرائم الخلقية ، أو الظلم وهضم الحقوق والاعتداء على الآخرين ومحاربة الحق وأهله ، وكالترف والبَطْر والغرور بالقوة وسعة الملك وكثرة العدد . . . ونحو ذلك .

إنه لا يغني فيها ولا يجدي أن تُنهى عن ذلك فقط ، بل لا بد أن تُشعَّر بأن الأمر جدُّ ، وأنها سنة ماضية ، وذلك باستحضار أحوال الأمم السابقة وما جرى عليها .

ولا يكاد القرآن يذكر حال أمة أو أمم وما جرى لهم ، إلا ويعقب على ذلك التحذير من عاقبتهم ، والأمر بمجانبة سييلهم ، واتباع الحق الذي جاء من عنده سبحانه .

كذلك كان يفعل القرآن الكريم ، وإليك الأمثلة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

«فهذه أخبار فعاثلنا بسواالفكم من الظالمين والمجرمين ، وما أنتم إلا أمة من بعدهم ، وليس بيننا وبينكم من سبب تنجون به من مصارعهم ، إلا ما كنتم تعملون ، فتخبروا لأنفسكم»^(١).

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن الله تعالى إنما جعلنا خُلَفَاءَ لِنَنْظُرَ كَيْفَ عَمَلْنَا، فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية». وكان يقول: «قد استخلفت يابن الخطاب، فانظر كيف تعمل»^(٢).

وقال سبحانه: ﴿ فَكَايِنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

فهذه القرى المَهْلَكَةُ المُدْمَرَةُ على من فيها، فأين أنتم منها؟! ما أهلكتناهم إلا بسبب الظلم والبغي ومخالفة الحق .

وَمِنْ ظَلَمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ: استهزاؤهم بالرُّسل وبما معهم من الحق والهدى .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

[الأنبياء: ٤١].

وَمِنْ ظَلَمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ: بَطْر المعيشة وكُفْر النعمة وجعلها في غير طاعة الله، بل استخدامها في معصية الله، وكونها سبباً في الجرأة على الله وعلى حرَماته، والغفلة ونسيان الدار الآخرة .

(١) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١٩/٩).

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١٩/٩).

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بِطُغْرَتٍ مَعِيْشَتَهَا فَنِيْلِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِيْثِيْنَ﴾ [القصص: ٥٨]. وقال: ﴿كَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِيْ خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

ويجمع الظلم والانحراف العتو عن أمر الله ورسله، وعدم الرضوخ لأوامره ونواهيه والامثال لأحكامه، ولهذا يذكر الله عقوبته للمخالفين تعقيبا على تفصيل بعض الأحكام.

فها هو القرآن بعد أن فصل أحكام الطلاق، وهي مسألة اجتماعية، ذكر عقبه مصير العتاة المخالفين أمره وأمر رسله.

قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حُضْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيْنَةً لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ [الطلاق: ٨ - ١١].

قال القرطبي عند هذه الآيات: «لما ذكر الأحكام، ذكر وحذر مخالفة الأمر، وذكر عتو قوم وحلول العذاب بهم ﴿فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا ثكرا﴾؛ أي: جازيناها بالعذاب بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسح وسائر المصائب في الدنيا. ﴿وكان عقبه أمرها حضرا﴾؛ أي: هلاكاً في الدنيا بما ذكر، وفي الآخرة جهنم»^(١).

﴿فاتقوا الله يا أولي الأبواب الذين آمنوا﴾؛ «أي: احذروا يا أولي الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٧٣) باختصار وتصرف.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٨٤).

وكما يذكر الله الأمم والقرى المكثبة بعامه ، فإنه أيضاً يسمي أما بأعيانها وقد يجمع بين التخصيص والتعميم ، كقوله سبحانه: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا * وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لَلْأَمْثَلِ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥ - ٣٩] .

وفي قوله: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لَلْأَمْثَلِ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴾ اعظم وعيد وابلغ تهديد ؛ أي: فهذه الأمثال ، وهي الأشباه المشابهة لحالكم بين أيديكم ، فقد قامت عليكم الحجة كما قامت على من قبلكم ، وقد أهلكناهم وكسرناهم ودمرنا عليهم ، فهل تنتظرون إن عرضتم إلا مصيراً كمصيرهم ومهلكاً كمهلكهم^(١) ؟

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لَبِنِ شَكْرَتِكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَبِنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٧ - ٩] .

وقوله سبحانه مهديداً كفار قريش: ﴿ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعِبَادِ * مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٧ - ٣٩] .

ولما قص - جل وعلا - في سورة القمر نبأ المكذبين وما أحل بهم من العقوبات ، التفت بالخطاب إلى هذه الأمة مهديداً المكذبين منهم: ﴿ أَكْفَارًا كَرِهْتُمْ مِنْ أَوْلِيَاءُ أَمْ لَمْ تُبْرَأُوا فِي الرُّبُوبِ * أَمْ يَقُولُونَ كُلٌّ مِّنْ جَمِيعٍ مُّنتَصَرٍ * سَيَهَرُّمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٥] . . . إلى غير ذلك من الآيات^(٢) .

(١) انظر: تفسير البهوي (٣/٣٦٩) . وزاد المسير ، لابن الجوزي (٦/٩١) .

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨٨) ، (٣/٤٨٩) ، (٧/١٤) .

«وقد بين - تعالى - أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل، تحذير كفار مكة وأشباهم، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا في الكفر بالله وتكذيبه ﷺ. وقد ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ تهديد عظيم بذلك. وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَائِقَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُورٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، فقوله: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة^(١).

ويُقاسُ على ذلك، سائر ما حكاه القرآن من قبائح أعمال الأمم السابقة، أن المقصود والغاية منه، تحذير مَنْ بعدهم أن يفعلوا فعلهم فيحل بهم ما حل بهم. * ومن أساليب التحذير التي يذكرها القرآن في هذا المجال: النهي عن مشابهة المهلكين في أحوالهم التي أوجبت لهم الهلاك.

وهذا أسلوب، التحذير فيه آبين، على حين أن التهديد والوعيد في الأسلوب السابق آبين، وإن كان كل منهما متضمناً معنى الآخر، خصوصاً إذا علمنا أن النهي عن مشابهة أحوال المهلكين ليس نهياً مجرداً، وإنما هو نهى مصحوب - غالباً - ببيان عاقبة أمرهم، وما حل بهم بسبب فعل ما نهوا عنه، أو ترك ما أمرُوا به، أو باجتماع الأمرين.

ومعلوم أن النهي عن مشابهتهم في أحوالهم وأفعالهم، يستلزم النهي عن الرضا عنهم أو الكون معهم، فضلاً عن استعمالهم أو توليهم؛ لأن بين هذه الأمور قاسماً مشتركاً، ألا وهو: القبول والسماح من حيث المبدأ بملازمة أسباب الهلاك والعقوبة، والتعايش مع فلول المهلكين في خندق واحد وعمل مشترك، وهم ما زالوا مقيمين على موجبات الهلاك والعقوبة، وهذا عينه هو سرّ النهي.

وتمت ملحظ آخر يمكن أن يكون فارقاً بين هذا الأسلوب والذي قبله، هو: أن الأسلوب الأول يُتَّجِه التهديد فيه - غالباً - إلى المكذبين والمعاندين، أمّا النهي والتحذير في هذا الأسلوب، فالخطاب فيه - غالباً - مع المؤمنين.

(١) أضواء البيان (١٥/٧). وانظر: (٣٨٨/٢)، (٤٨٩/٣).

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١].

أمرهم بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم أن يكونوا بعد أن سمعوا الحق:

كالذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وهم الكافرون المشركون^(١) الذين إذا تليت عليهم آيات الله ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. وأهل الكتاب الذين ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]. والمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦].

فكان عاقبة هؤلاء جميعاً ، أن باءوا بغضب الله وسخطه وعقوبته في الدنيا والآخرة .

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُوا اللَّهُ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَسْكَنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٥].

اشتملت هذه الآيات على جِماع ما يجب الله أن يكون عباده المؤمنون عليه من التقوى واجتماع الكلمة على الحق ، ومن الدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وتلك معاهد الخير لكل أمة وطائفة . ونهاهم عن أضداد ذلك مما يكرهه لهم ومنهم من التفرق في الدين واختلاف الكلمة . . . وأخبر أن هذا الذي يكرهه - سبحانه - قد وقع ممن كان قبلكم من الأمم ، فكان سبب عقوبة الله إياهم ، فاحذروا ذلك ولا تكونوا مثلهم^(٢) .

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٧/٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٨٧، ٣٩٠).

ومثل هذه الآية: قوله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

وقد بين - تعالى - في بعض المواضع، أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، لأن قوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تهديد عظيم لهم .

وقوله تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَلِئَلَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرَهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤]. فقوله: ﴿وَلِئَلَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ؛ أي: شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم دين واحد، وربكم واحد، فلا تفرقوا في الدين. وقوله جل وعلا: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك. وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ فيه تهديد لهم ووعد عظيم في ذلك .

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجِيمٌ﴾ [الأنبياء: ٩٢، ٩٣]. فقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجِيمٌ﴾ فيه أيضاً تهديد لهم ووعد على ذلك^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ * وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَتَدَبَّرْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمٌ إِزْرِهِمْ وَقَوْمٌ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤٤].

لَمَّا بَيَّنَّ الْأَسْبَابَ الْجَالِبَةَ لِلنَّصْرِ الْمَوْهَلَةَ لِلتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ ، مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَذَّرَ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْ ذَلِكَ وَالتَّكْذِيبِ بِهِ ، وَجَعَلَ التَّحْذِيرَ حِكَايَةً عَاقِبَةَ الْمَكْذِبِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ .

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] .

وقد بيّن - سبحانه - أسباب النهي عن اتخاذهم أولياء ، وأن منها:

* ما جاء في هذه الآية من أن بعضهم أولياء بعض ، وأنهم ظالمون بكفرهم وشركهم وبغيهم ، وأن من يتولاهاهم فإنه منهم ، وأنه ظالم . وقد علمت ما أعد الله للظالمين .

* ومنها: كراهيتهم الشديدة للمؤمنين ، وأنهم يردون ﴿لَوْ تَكَفَّرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] في الكفر ، وأنهم ﴿لَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] .

* ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًا مَا عَنِتُّمْ قَدَ بَدَتِ الْبَعْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] .

وكلها أسباب توجب الحذر من توليهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين .

وقال - سبحانه - محذراً من الطغيان وكفر النعم: ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْبَنَكُمْ مِن عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠ ، ٨١] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

ومن أساليب القرآن في مجال تحذير وتهديد الأمم: توجيه الأنظار إلى مصارع الأقوام وآثار القرى المهلكة .

وأعني بتوجيه الأنظار إلى مصارع الأقيام: كشف الحجاب عن فظاعة أخذهم وإهلاكهم ، وأي مصرع أليم صرعوا .

وأعني بآثار القرى المهلكة: ما أبقى الله من آثار ديارهم ومسكنهم من بعدهم ، بعد أن نزل بهم العذاب .

وفي حكاية مصارع الأقيام ، ورؤية آثارهم من بعدهم ، أعظم نذير وأبلغ تهديد ، خصوصاً إذا ما كانت الأمة اللاحقة تشترك مع هذه الأمم بوحدة أو أكثر من تلك الأسباب الموجبة لهذا المصراع الرهيب .

ولهذا يخبر الله - جل وعلا - أن مما يوبّخ به الظالمين يوم القيامة ، أنهم لم يتفعلوا بمشاهدة تلك الآثار ، وتبين ما جرى لأهلها .

قال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّجِبِّ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعِ الرُّسُلُ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤ ، ٤٥] .

قال ابن كثير عند هذه الآية: «أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيه معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر»^(١) .
واليك بعض الأمثلة والشواهد على هذا الأسلوب:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ أَنَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَآ عَنْ آلِهَتِنَا فَأُنَبِّئْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰ بُرْهَانَ قَوْمًا الْجَاهِلِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ نَّابِلٌ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِغٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٢) .

أَفُودْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَاحَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١-٢٧﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٧].

ففي هذه الآيات قصص الله نبي إهلاك عاد، الأمة القويّة الممكّنة، وكانت مساكنهم قريباً من قريش، ثم عقب على ذلك وختمه بالإخبار عن إهلاك القرى المجاورة، يحذرهم مثل عاقبتهم.

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَاحَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بمضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غرة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً»^(١).
وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهَلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَوْ تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال تعالى مبيناً شدة أخذه المكذبين من قوم صالح عليه السلام: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ * أَنَادِمْنَا مَرَاتِمَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

وقال عن قوم لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال عن قراهم ومدائنهم: ﴿وَلِئِنَّا لَلسَّبِيلِ مُقْبِرٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

وقال يخاطب قريشاً ومن على شاكلتها في شأن هؤلاء المهلكين: ﴿وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ * وَبِالْأَيْدِي أَلْفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وأخبر - جل وعلا - عن عظيم ما أحلّ بفرعون وقومه من النكال، وما تركوا وراءهم من النعيم بسبب جبروتهم وطفغيانهم: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٦٢).

رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدْرَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّايَ لَكُم رَسُوْلٌ أَمِيْنٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّايَ ءَاتِيكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِيْنٌ * وَإِيَّيْ عُدْتُمْ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُوْنَ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوْا لِي فَاعْتٰزِلُوْا * فِدَعَارِيْهُ أَنْ هَتُوْا لَكُمْ قَوْمٌ مَّجْرُمُوْنَ * فَآسِرْ بِعِبَادِي لِيْلَا إِيْنَكُمْ مُّشْبِعُوْنَ * وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَفُوْنَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّٰتٍ وَعُيُوْنٍ * وَرُؤُوسٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيْمٍ * وَنَعَمَ كَانُوا فِيْهَا فَكِيْمِيْنَ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءٰخِرِيْنَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِيْنَ ﴿ [الدخان: ١٧ - ٢٩] .

وقال مؤمن آل فرعون يتخوف على قومه مصرعاً كمصارع المكذبين من الأمم الخالية ، الذين تحزبوا على أنبيائهم وتظاهروا عليهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُوْدَ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠ ، ٣١] . . . إلى غير ذلك من الأمثلة والشواهد .

ومما ينبغي أن يُعلم أنه كما يقع الابتلاء لكل الأمم والجماعات في كل مراحل حياتها، فإن التحذير والإنذار كذلك ؛ لأنها لا تنفك عن مخالفة أو تقصير، وبالتالي لا تنفك عن الحاجة إلى ضرب من ضروب التحذير والتهديد .
وقد جاء التهديد والتحذير من مخالفة الحق مصاحباً لنزول آدم ﷺ من الجنة وإهباطه إلى الأرض .

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيْعًا فَمَا يَأْتِيْنَكُمْ مِّنِي هُدًى فَمَنْ يَّبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ * وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا أُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّآرِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴾ [البقرة: ٣٨ ، ٣٩] . وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٣ ، ١٢٤] .

وما من نبي بعثه الله في أمة إلا دلهم على خير ما يعلمه لهم وحذرهم شر ما يعلمه لهم . مصداق ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُوْلًا أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتِ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وهل أعظم من شؤم الشرك بالله وسوء عاقبته!؟

وقال هود عليه السلام بعد أن دعا قومه عاداً إلى عبادة الله: ﴿ أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنْ أَنْعَأْ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٥].

وقال مثل ذلك صالح عليه السلام لقومه: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ عَنْهَا آمِنِينَ * فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَيْسَةً * وَتَنْجَاتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٥٢].

وقال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]. أخبرهم بما لهم إن هم آمنوا وعملوا الصالحات من العز والتمكين في الأرض، ومن الأمن وراحة البال، وتوعدهم جزاء الفاسقين إن هم كفروا... وقد علموا جزاء الفاسقين.

والخلاصة: أن مجال التحذير والتهديد للأمم، يتسع ليشمل كل مراحل الأمة، وتتوعد أساليبه لتستوعب كل أنواع المخالفات. وأن سنة الله قد جرت في الأمم أنهم كلما ينتفعون بهذه النذر والتحذيرات؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿ وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]. إلا من رحم الله منهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سبأ: ١٣].

تلك خطوط عامة في مجال من مجالات سنن الله في الأمم، وهو مجال التحذير والتهديد، وهو مجال عظيم الأهمية، ودراسته واستيعابه بصورة صحيحة من قبل أفراد الأمة الإسلامية وجماعتها، سوف يعين في وضع حد للجرأة على حدود الله وحرماته من أولئك الذين لا يزالون ينظرون إلى عقوبات الله وإلى أسبابها الحقيقية، نظرة شك أو تكذيب.

هذا الحدّ يضعه أولئك المستهترون لأنفسهم ، إن كانوا ممن أراد الله بهم خيراً . أو تضعه الأمة الراشدة ؛ لتقي نفسها عقوبة الله التي لا تحابي أحداً . وإلا ، فإن في انتظارها الجزاء الموبق في الدنيا قبل الآخرة .

وبعد ، فقد آن أوان الشروع في الفصل التالي ، وهو الفصل ما قبل الأخير: مجال الجزاء .

الفصل الرابع

مجال الجزاء

الجزاء لفظ عام يشمل الثواب والعقاب . ومعناه: العناء والكفاية . وهو هنا: مقابلة الشيء بما يكافئه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(١) . ومجاله واسع جدا ، ويمكن النظر إليه من جانبين:

الأول: ما جاء في القرآن الكريم ثواباً وجزاءً على فعل الأوامر ، واجتناب المناهي ، واقتفاء آثار الرسل ، في الجوانب العلمية والعملية . وهذا الجانب ينتظم الثواب على كل العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، وما يتسبب عنها من الأحوال الحسنة كالأمن وسعة الرزق والصحة . . . ونحوها ، على مستوى الأمم .

وقد مضى على ذلك أمثلة كثيرة^(٢) ، وأذكر هنا من ذلك نماذج للتذكير فحسب .

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] . وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]؛ حيث جعل الحياة الطيبة ، والمحبة في قلوب الخلق ثواباً على الإيمان والعمل الصالح .

وقوله جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . حيث رُتّب الهداية إلى طرق الخير على المجاهدة وبذل الوسع في سبيل الله .

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] . وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

فأخبر - سبحانه - أنه ينصر رسله وأتباعهم الصادقين ، ويورثهم الأرض جزاء إيمانهم وصلاتهم وإصلاحهم .

(١) انظر: مفردات الراغب ، (جزاء) .

(٢) انظر على سبيل المثال: البحث الأول من فصل (منهج القرآن في عرض السنن) ، وفصل (مجال الحماية والوقاية) من هذا الباب .

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. إخبار أن القرى المصلحة بمنجى من الهلاك بسبب إصلاح أهلها... إلى عشرات من الأمثلة والشواهد.

الجنب الثاني: ما جاء في القرآن الكريم عقاباً وانتقاماً ممن خالف أمره، واقترب ما نهى عنه، وشاق رُسُلَهُ وأوليائه، وناصب شريعته العدا، وكفر نعمه.

وهذا الجنب يتنظم الجزاء على العلوم الضارة والأعمال الفاسدة، وما ينتج عنها من الأحوال السيئة في الدنيا، والمآل المخزي في الآخرة.

ومن ذلك على جهة التمثيل: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]. وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥]. فجعل - سبحانه - العنت في الحياة والإمعان في الضلالة والرذيلة والارتكاس فيها جزاءً على الإعراض عن الهدى ودين الحق.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وقوله: ﴿ فَيُظْمَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُوالِ النَّاسِ بِالْبِطْلِ * وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]. فجازاهم على بغْيهم وظلمهم بأن حرّم عليهم ما كان مباحاً لهم ولغيرهم، وضيق عليهم ما كان واسعاً عليهم وعلى غيرهم.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعْمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]. وقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. إشارة إلى أن من جزاء الظالم الفاسق عن أمر ربه، أن يتولاه ظالم مثله، بما أعرض عن هدى الله وظلم نفسه وغيره.

وقوله جل وعلا: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. فعاقبهم على المعاصي والاعتداء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن طردهم من رحمة، وأذلهم وأدال عليهم... إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

ونحن إذا تأملنا تلك العقوبات الإلهية التي يوقعها الله بمن عصاه وخالف أمره من الأمم، وجدناها على نوعين:

الأول: عقوبات بما دون الاستتصال والإهلاك الشامل. كأنواع الأمراض والأسقام، والجوع والخوف، والهزائم والنكسات، والاستذلال، والقلق النفسي... إلى آخر ما هنالك من الصور التي لا يمكن حصرها، وذلك^(١) كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]... إلى غير ذلك من الآيات.

النوع الثاني من العقوبات: العقوبة بالاستتصال والإهلاك والتدمير، كما حصل لقوم نوح وهود وصالح، وقوم لوط، وكما حصل لفرعون وقومه، حيث أخذوا فأبيدوا عن آخريهم. وأبناء مصارعهم معروفة، وقد ذكرتها في أكثر من مناسبة^(٢).

وكما أن العقوبات الإلهية من النوع الأول؛ أي العقوبة بما دون الاستتصال غير منحصرة، فإنها في هذا النوع غير منحصرة أيضاً.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِّن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

(١) وقد مضت الإشارة إلى شيء من ذلك في مبحث: (أخذ الأمم بالأساء والضراء) في الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) انظر مثلاً: مبحث (سنة المدافعة بين الحق والباطل) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ عَنِ الَّذِينَ عَمِلُوا﴾، ومبحث (سنة الله في الاستخلاف والتمكين)، في الفصل الأول من هذا الباب.

وقد تهدد الله الأمم المكذبة بكلا النوعين، ولم يستثن منهم أحداً، إلا ما أكرم الله به هذه الأمة بأنه - سبحانه - لا يهلكها بسنة بعامة؛ وذلك ببركة نبيها محمد ﷺ^(١).

وقد تقرر في أكثر من موضع: أن السنن الإلهية في الحياة الإنسانية قائمة على مبدأ السببية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وأنها مرتبطة بالكسب البشري. قال - سبحانه - ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ [النساء: ١٢٣].
وأن الجزء فيها قائم على أساس العدل والحكمة الإلهيين^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومعنى ذلك باختصار: أن كل عمل لا بُدَّ له من جزاء. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وأن الجزء لا يمكن أن يقع بلا مقابل من عمل. ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْ نَأْمَنُكَ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ﴿فِيُظَاهِرُ مِنِّي الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَبَقَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

(١) وهل رُفِعَ عذاب الاستتصال أم أنه باق إذا توافرت أسبابه وانتفت موانعه؟! وإذا كان قد رُفِعَ، فهل كان رفعه زمن بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، أو كان بعد بعثة النبي ﷺ، فيكون خاصاً بهذه الأمة؟ الذين قالوا: إنه قد رُفِعَ، يستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصُكَّا لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]؛ حيث أخبر - سبحانه - أنه أنزل الكتاب الذي هو التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾، الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، ﴿بِصُكَّا لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، وفي هذا دليل على أنه قد انقطع بعد نزول التوراة الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف. [تفسير ابن كثير (٣/٣٩٠)، وانظر: تفسير السعدي (٢٧/٦)]. ويستدلون على رفعه بالواقع: فإنه بعد نزول التوراة وهلاك فرعون، لم تعذب أمة بعذاب الاستتصال. [انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٩٠)]. والذين يقولون بعدم رفعه، يجيبون عن أدلة الأولين بما معناه: أن كون التوراة بصائر للناس وهدى ورحمة، وكون بعثة محمد ﷺ رحمة للعالمين، أن ذلك بصيرة ورحمة لمن انتفع بها فأمن وصدق، ولا تلازم بين كونها كذلك وبين عذاب الاستتصال، وليس في الآية دلالة على ذلك. وكون عذاب الاستتصال لم يقع بعد ذلك، فليس لأنه قد ارتفع، ولكن لأن أسبابه لم تنعقد. والله أعلم.

(٢) انظر مثلاً: فصل (خصائص سنن الله في الأمم)، مبحث (ارتباطها بالكسب البشري)، وسيأتي تفصيل هذا المعنى في مبحث (السنن وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية)، في هذا الفصل، بإذن الله تعالى.

وأن الجزاء على الأعمال لا يكون إلا بالعدل والحق . ﴿ أَنْجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥ ، ٣٦] . ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] .

كما قد تقرر أيضاً أن الأمم لا بد أن تلقى جزاءها ، عاجلاً في الدنيا قبل الآخرة ، بخلاف الأفراد ، فليس ذلك بلازم في حقهم^(١) .

وأيضاً فقد ظهر لنا من خلال استعراض المجالات السابقة - مجال الوقاية والحماية ، ومجال الابتلاء ، ومجال التحذير والتهديد - ظهر لنا بجلاء: أنها كلها قائمة على أساس المجازاة والمكافأة .

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] .

وقال سبحانه في شأن الذين اعتدوا في السبت من بني إسرائيل: ﴿ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] . وقال: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّا يَزِيدُوا بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر: ٢٥ ، ٢٦] . وقال: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور: ٦٣] .

أقول: قد تقررَت هذه الأمور - بحمد الله - وتكلمت عنها بما يغني عن الكلام فيها مرة أخرى . ولكن ثمة أمران لا بد من الحديث عنهما في «فصل الجزاء»: الأول: تنبيه وإشكال .

الثاني: السنن وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية .
والثالث: إشكالهما بشيء من التفصيل في الصفحات التالية .

(١) انظر في ذلك: المبحث الثالث من مباحث المقدمة (الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم) ، وفصل (خصائص سنن الله في الأمم) ، مبحث (سنن جماعية لا فردية) ، ومبحث (نتائجها في الدنيا قبل الآخرة) .

أولاً: تنبيه وإشكال.

وهما مسألتان ، رأيت من المفيد القول فيهما في هذا الفصل تمييزاً للفائدة .
أما التنبيه: فهو أنه قد يخفى سببُ الجزاء على بعض الخلق ، فينشأ في النفوس بسبب ذلك الخفاء ، حرج أو شك ، أو غرور وجحود .

وأما الإشكال: فإنه يرد هاهنا سؤال مفاده: هل يُعَدُّ كل ابتلاء ومصيبة جزاء على تقصير؟ وبالتالي فهل كل بلاء ومصيبة عقوبة؟
ولإيضاح المسألة الأولى ، أقول:

نعم ، قد يخفى سبب الجزاء - الثواب أو العقاب - فينشأ بسبب هذا الخفاء حرج أو شك في صدور المؤمنين ، أو غرور وجحود في نفوس الكافرين والمنافقين .

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

ففي هذه الآية عَجِبَ المسلمون من وقوع المصيبة وحلول الهزيمة ، وهم يقاتلون تحت لواء محمد ﷺ ، يقاتلون مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ!
وكان سبب عجبهم ، خفاء الوجه الذي أثروا من قبله ، والباب الذي دخلت عليهم منه الهزيمة . فبين الله لهم أن سبب ذلك جاء من قبل أنفسهم .

وقد أوضح الله - جل وعلا - هذا المعنى غاية الإيضاح في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَيْنَكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ؛ «أي: صدقكم الله وعده بالنصر على الأعداء والظفر بهم حتى جبتهم وضعفتهم ، واختلفتم ، وذلك أن الرماة قال بعضهم: نلحق بالغنائم ، وقال آخرون: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه ، وكان في قول الأولين معصية لأمر رسول الله ﷺ وإرادة للدنيا»^(١) .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٥ - ٢٣٧) .

وهذا الفشل والتنازع والمعصية ، الذي كان سبب الهزيمة والمصيبة ، كان كله من قبل أنفسكم أيها المؤمنون .

هذا مثال لخفاء سبب الجزاء وما يورثه من حرج وتساؤل في جانب المؤمنين .

وقال - سبحانه - عن المترفين من الكافرين أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُوا لَنَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبا: ٣٥] .

فَحَفِي عَلَيْهِمْ سَبَبُ الْعَذَابِ ، وهو الكفر والشرك بالله ، فتمادوا في كفرهم وعنادهم ، ثم لفقوا لهم سبباً يُبْعِدُهُمْ أَكْثَرَ فَكْثَرٍ مِنْ تَصَوُّرِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ لِلْعُقُوبَةِ ، باتخاذهم الأموال والأولاد ، التي هي مظنة الغفلة والغرور .

ولهذا أنكروا متعجبين في آية أخرى أن يكون مَنْ دُونَهُمْ فِي الْوَجَاهَةِ وَالْمَالِ مَفْضِلِينَ عَلَيْهِمْ ، سخريه بهم . ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَبِينُوا لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ بلى .

فلما خفي عليهم سبب التفضيل الحقيقي ، وهو الاستعداد لقبول الحق واتباع الهدى ... لما خفي عليهم ذلك ، نصبوا لأنفسهم سبباً عمادته كثرة الأموال والأولاد والجاه والسلطان ، ثم احتكموا إليه فأبعدوا النجعة ، وهلكوا في أودية الضلال . وهكذا ... فكلما خفي سبب الجزاء ، ثواباً أو عقاباً ، على أمة أو على فرد ، كلما كثر احتمال الوقوع في الخطأ ؛ إما بانتحال سبب أجني منه ، أو باختلاق سبب لا يصلح أن يكون سبباً أصلاً . وكلاهما لا يغني من الحق شيئاً .

المسألة الثانية: هل يُعَدُّ كل ابتلاء ومصيبة جزاء على تقصير؟ وبالتالي فهل كل بلاء ومصيبة عقوبة؟

وتلك مسألة قد تشكل على بعض الناس . ومنشأ الإشكال - فيما أرى - هو الاختلاف في فهم النصوص المتعلقة بهذه المسألة ، وكيف يكون الجزاء على الأعمال .

فعلى حين يرد التصريح في بعضها بأن كل مصيبة تقع فهي بسبب ما كسبه العبد كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] . نجد نصوصاً أُخَرَ تصرح بأن «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل» . كما جاء ذلك في الحديث الصحيح^(١) .

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد ، باب: ما جاء في الصبر على البلاء ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح» . انظر: عارضة الأحوذى (٢٤٣/٩) . وانظر: جامع الأصول ، لابن الأثير (٥٨٥/٩) ، وقال محقق الكتاب عبد القادر الأرنؤوط معلقاً على قول الترمذي: «وهو كما قال» ، وصححه الألباني في السلسلة (١٤٣/١) .

وأن البلاء يقع - فيما يقع له - على المؤمنين ليكشف عن معدنهم ويختبر صدقهم .
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] .

فلو كان كل بلاء يقع يكون جزاء على تقصير ، لكان القياس أن يكون أشد الناس بلاء الكفرة والمشركين والمنافقين ، بدليل الآية السابقة ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ !

والذي يزول به هذا الإشكال - بإذن الله تعالى - هو أن ننظر إلى هذه المسألة من ثلاث جهات:

الأولى: أن نُفرِّق بين حال المؤمنين وحال الكفار في هذه الدنيا .
فالمؤمنون لا بد لهم من الابتلاء والفتنة في هذه الدنيا ؛ لأنهم مؤمنون ، قبل أن يكونوا شيئاً آخر ، فهذا خاص بهم ، وليس الكفار كذلك . ﴿إِنَّ اللَّهَ * أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ ، ٢] ؟!

الجهة الثانية: أنه لا انفصال بين الجزاء في الدنيا والجزاء في الآخرة .
فما يقع على المؤمنين من البلاء والمصائب في الدنيا ، فهو بما كسبت أيديهم من جهة ، وبحسب منازلهم عند الله في الدار الآخرة من جهة ثانية .

فمنهم من يُجزى بكل ما اكتسب من الذنوب في هذه الدنيا ، حتى يلتقى الله يوم القيامة وليس عليه خطيئة . وهذا أرفع منزلة ممن يلتقى الله بذنوبه وخطاياها ، ولهذا اشتد البلاء على الأنبياء فالصالحين فالأمثل فالأمثل ؛ لأنهم أكرم على الله من غيرهم .

ومن كان دون ذلك ، فجزاؤه بما كسبت يده في هذه الدنيا بحسب حاله . وليس الكفار كذلك ، فإنهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود: ١٦] ، فليس هناك أجور تُضاعف ولا درجات تُرفع ، ولا سيئات تُكفر . ومقتضى الحكمة ألا يدخر الله لهم في الآخرة عملاً صالحاً ، بل ما كان لهم من عمل خير ، وما قدموا من نفع للخلق يُجزون ويكافئون به في الدنيا . بأن يخفف عنهم من لأوائها وأمراضها ، ويكون لهم من رغد العيش والذكر والسمعة بين الناس ، كما حصل لعنرة وحاتم الطائي وغيرهما . . ونحو ذلك . وبالتالي لا يمن الله عليهم فيبتليهم بهذا النوع من المصائب والابتلاءات . ليرفع مقامهم عنده في الآخرة .

فما يصيب المؤمنين ليس قَدراً زائداً على ما كسبته أيديهم، بل هو ما كسبوه أو بعضه، عجل لهم؛ لما لهم من القَدْرِ والمنزلة عند الله، بحيث تسلم لهم أجور أعمالهم فلا تزاحمها الذنوب والهفوات التي تقتص منها.

وهذه يوضحها النظر في الجهة الثالثة، وهي: أن نعلم علم اليقين، أن أي عمل نافع تقوم به الجماعة أو الأمة المسلمة، فإنها لا بد أن تلقى جزاءه في الدنيا، كما يلقي ذلك غيرها، بل أفضل مما يلقاه غيرها. وهذا شيء اقتضته حكمة الله، وجرت به سنته، كما سبق بيانه في أكثر من موضع. ولهذا صحَّ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً، يَعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيَجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»^(١).

والخلاصة: أنه لا يكون بلاء أو مصيبة إلا بسبب ذنب.

وأن المؤمنين يُجْزَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُزَادُ فِي بَلَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ؛ لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ خَطَايَاهُمْ الَّتِي يَجْتَرِحُونَهَا، فَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا هُنَا، وَحَتَّى تَسْلَمَ لَهُمْ حَسَنَاتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيُجْزَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ مَا يَسْتَمْتَعُونَ بِهِ فِي دُنْيَاهُمْ مِمَّا يُرَى أَنَّهُ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَا أُعْطِيَ الْمُؤْمِنُونَ، يَكُونُ هَذَا فِي مَقَابِلَةِ مَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ حَسَنَاتٍ. وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) رواه مسلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١٤٩).

السنن وحرية الإنسان في ظل المشيئة الإلهية

عني القرآن الكريم بإبراز جدية الحياة وقيامها على الحق والعدل، وانضباطها بالسنن والنواميس، وجريان ذلك وفق حكمة الله البالغة وقدرته النافذة ومشيتته الغالبة، وأنها لم تُخلق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً. وأن الحياة بهذه الجدية وهذا الانضباط، وبهذه الدينونة لله، هي الحياة كلها «كل صغير وكل كبير، كل ناطق وكل صامت، كل متحرك وكل ساكن، كل ماض وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول. كل شيء... مخلوق بقدر الله مصرف بقصد مدبر بحكمة. لا شيء عبث، لا شيء مصادفة، لا شيء ارتجال...»^(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩]، [٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ نَفْيِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣]. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

فهذه الآيات ونظائرها، تدلُّ دلالة قاطعة على أن كل شيء مما خلق الله، قد قدره وعلمه قبل كونه وإيجاده، ثم هداه إلى ما قدره له. وإنما كانت دلالتها قاطعة على أن كل شيء مخلوق لله؛ لأن الآيات من سورة القمر، وسورة الفرقان، وسورة طه، قد جاء فيها لفظ ﴿كُلُّ﴾ المفيد للشمول، مضافاً إلى ﴿شَيْءٍ﴾ بصيغة النكرة فأفاد العموم، فصار قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ عاماً في الأشياء المخلوقة كلها. وكانت دلالتها قاطعة أيضاً على أن كل شيء قد قدره الله وعلمه ويسره لما خلقه له؛ لأن الآيات من سورة طه، ومن سورة الأعلى دالة على هذا المعنى مفيدة له.

قال ابن القيم - رحمه الله: «قال مجاهد - رحمه الله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان. وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية^(٢).....

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٤٣٦).

(٢) هو: عطية بن سعد العوفي، أحد رجال الحديث، ممن اشتهر برواية التفسير. توفي بالطوفة سنة (١١١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٥)، والأعلام (٤/٢٣٧).

ومقاتل^(١): أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن^(٢) وقتادة: المعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه. هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] «^(٣)» .

وقال القرطبي: «الذي عليه أهل السنة، أن الله - سبحانه - قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه...»^(٤) .

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] . وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] . وقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَّرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ [القمر: ١١، ١٢]... إلى غير ذلك من النصوص . وهذا ظاهر - بحمد الله - لمن تأمله .

وإذا كانت القدرة، وهي مأخوذة من الاقتدار على الشيء، ومن التقدير له، ومن الإقدار عليه أيضاً، ثابتة لله تعالى من كل وجه وعلى أحسن وجه وأتمه، فإن كل ما يصدر عنه - سبحانه - حق، وكله عدل، وكله لمصلحة خلقه، فلا هو ولا عبث ولا ظلم . علم ذلك من علمه ففاز وأفلح، وجهله من جهل فخاب وخسر؛ إذ ظن بربه ظن السوء .

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧] . وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] . وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ

(١) هو: مقاتل بن سليمان، الأزدي بالولاء، البلخي، من رواة التفسير، كان متروك الحديث . توفي بالبصرة سنة (١٥٠هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠١/٧)، والأعلام (٢٨١/٧) .

(٢) هو: الحسن بن يسار، البصري، تابعي جليل، كان إمام أهل البصرة، وأحد العلماء والفقهاء والزهاد والفصحاء المشاهير . قال الغزالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة» . توفي سنة (١١٠هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤)، والأعلام (٢٢٦/٢) .

(٣) شفاء العليل، ص ١٦٤ . وانظر: تفسير ابن كثير (١٥٥/٣)، (٢٦٧/٤)، (٥٠٠) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/٤٤٨) .

اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ [الجاثية: ٢٢] .
 وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥] . وقال تعالى:
 ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْلُقَ لَهَوًا لَنَخْلُقَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا
 فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وقال تعالى في خصوص خلق الإنسان وإيجاده ، وأن ذلك لحكم بالغة ويقدر سابق:
 ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
 وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] .
 وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

ثم نزه نفسه عن ذلك الحسبان الخاطيء بقوله: ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦] . وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾
 [القيامة: ٣٦] .

«أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب؟! هذا حسيبان باطل وظنٌ بالله
 غير ما يليق بحكمته»^(١) . بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
 لِعِبَادُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ
 لَكَرُّ عَدُوٍّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] .

فإن خلق هذا الكون بهذه الدقة وهذا الإتقان ، يدلُّ على أن الله - سبحانه وتعالى -
 لم يخلق هذا الإنسان عبثاً وسُدًى ، كما أن خلق الإنسان وما أودعه فيه من عجائب قدرته
 يدلُّ هو الآخر على أن الله لم يخلق هذا الكون لعباً ولا باطلاً وإنما خلق هذا لهذا ، كما
 قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] .

وخلاصة ما سبق: أن الله - تعالى - خلق مخلوقاته بسبب الحق ، ولأجل الحق ،
 وخلقها متلبس بالحق ، فمصدره حق وغايته حق ، وهو متضمن للحق .

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال
 تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١١١] .

(١) تيسير الكريم الرحمن ، للسعدي (١٩٧/٨) .

يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَلِيماً وَقَعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

«وإذا كان قد ظهر لنا مما سبق، أن كل شيء فهو مخلوق لله مقدر بعلمه واقع بإرادته ومشيئته جار وفق حكمته، لا يشذ من ذلك شيء... إذا كان قد ظهر لنا ذلك، أمكننا بصورة صحيحة أن ندرك أن كل ما يقع في هذا الكون، سواء كان وقوعه متكرراً أم غير متكرر، أنه كله بقدر ولحكمة، وأن الله هو الذي أجراه وفق سنة وناموس، وهذه السنة وهذا الناموس جزء من قدر الله، وليست شيئاً آخر مغايراً له، فهي بعض ما قدره الله عز وجل؛ لأنَّ القدر - بالإضافة إلى ما سبق بيانه - يشمل وقوع الحوادث والأشياء وفق تلك السنن.

فَمِنْ قَدَرِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ مِثْلاً: سنته ونظامه في تعاقب الليل والنهار، ومن قدره أيضاً: حدوث كل منهما في الواقع وفق تلك السنة.

ومن قدر الله - عز وجل - في الحياة الإنسانية: سنته في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، ومن قدره أيضاً: ما وقع من انتصار للمسلمين في غزوة بدر وهزيمة المشركين فيها، وفق تلك السنة»^(١).

وإذن، فالكون محكوم بسنن، فلا يمكن تسخيره والإفادة منه إلا وفق هذه السنن، والإنسان في سائر تصرفاته لا يخرج من سلطانها، شعر أم لم يشعر، فلا ينال مرغوبه أو يسلم من مرهوبه، إلا وفق هذه السنن وعلى هدي منها.

«فمن سار وفق سنن الله في الحياة الإنسانية واستفاد من سنن الله الكونية وسخرها لمصلحه، تحقق له الرخاء المادي والسعادة الدنيوية والأخروية، ومن تنكب سنن الله في الحياة الإنسانية واستفاد من سنن الله الكونية، فإنَّ الله - عز وجل - يعطيه من الدنيا ما قدر له، ولكنه يجرمه السعادة الحقَّة، ويجرمه بركات الأرض... ومن عاش وفق سنن الله الإنسانية ولم يستفد من السنن المسخرة للكون، فإنَّ الله لا يعطيه من الدنيا إلا بقدر استفادته من سنن الله في الكون. ويكون هو تحت رحمة من يستفيد من هذه السنن»^(٢).

﴿جَرَءٌ وَفَاقًا﴾ [النبا: ٦]، ﴿وَلَا يَظِلُّرَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٣٨/١)، رسالة دكتوراه، أعدها/ شريف الخطيب، جامعة أم القرى.

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٥٤/١) وما بعدها.

وهذه السنن التي تحكم هذا العالم، علويّة وسُفليّة، بما فيه ومن فيه، جارية مع أسبابها موصلة إلى نتائجها، إذا توافرت شروطها وانتفت موانعها^(١)، والله - سبحانه وتعالى - هو خالق هذه الأسباب ومجريها، ومقدّر نتائجها وموليها، والأسباب لا تقوم وحدها ولا تستقل بنتائجها «وليس في المخلوقات شيء هو وحده علّة تامّة وسبب تامّ للحوادث، بمعنى: أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث. بل ليس هذا إلا مشيئة الله - تعالى - خاصة؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»^(٢).

فهاهنا شيان:

الأول: الأسباب والمسببات، وما جعل الله لها من نظام يُجريها وفقه، وهي السنن والنواميس التي أجرى الله بموجبها نظام هذا العالم.

والثاني: مشيئة الله الطليقة التي اقتضت وجود هذه الأسباب والمسببات، وكونها جارية وفق هذا النظام أو ذاك، «فهو الذي خلق الخلق، وهو الذي ربّب الأسباب، وهو الذي يدبّر الخلق ويجري الأسباب، وحين نجد أنفسنا عاجزين عن الوقوف على حقيقة الأسباب، رغم إيماننا بآثارها الظاهرة، فإننا لا نجد مسوغاً عقلياً تقوم به الأسباب إلا الله وحده، خالق هذه الأسباب وصاحب سرّها ومدبر أمرها، فالإيمان بالله الخالق القادر المدبر العليم الحكيم... هو الركيزة الوحيدة لنظام هذه الأسباب، وبدون ذلك يكون الوجود كله ضرباً من العبث الذي لا معنى له، ويستحيل تفسير الحركة في هذا العالم، ويستحيل تفسير الحركة في التاريخ. وقد أكّد لنا القرآن على هذه الحقيقة الأساسية حين ربط لنا هذه الأسباب ربطاً مباشراً بالله ليقول لنا: إنّ الأسباب هي منه وبه، ولا تعمل إلا بأمره، أي أن نظام الأسباب لا يعمل في الأشياء والتاريخ من تلقاء نفسه، ولا يعمل بصورة آلية يستغني بها العالم عن فاعل مدبّر، وإنما يعمل بالله، لذلك عبّر القرآن عن هذه العلاقة بالفاظ مثل ﴿جَعَلَ﴾ و﴿سَخَّرَ﴾ للتأكيد على هذه الحقيقة»^(٣).

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقال تعالى:

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٣/٨). وانظر: شفاء العليل، ص ٩٣.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٣/٨).

(٣) المنهج الإسلامي للدراسة التاريخ وتفسيره، د. محمد رشاد خليل، ص ١٠٠.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَيَجْعَلُ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]. وقال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]. وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

والقرآن يقول لنا بهذا الأسلوب: إن نظام الأسباب والمسببات المعجولة من الله والمسخرة بأمره، ليس بديلاً من إرادة الله، وإنما هو أسلوبها في العمل^(١).

السنن وحرية الإنسان:

كما سبق يتضح جلياً، أن قدر الله وإرادته شاملة لكل مخلوق إيجاداً وتدبيراً، وأن حكمته اقتضت أن يجعل لهذا الكون نظاماً يجري وفق سنن ونواميس ثابتة، وأجرى الأسباب والمسببات كي يتمكن الإنسان من التعامل مع هذه السنن ويأخذ بتلك الأسباب لتسخير هذا الكون وأداء وظيفة الخلافة في الأرض.

ولا يكون الإنسان قادراً على التعامل مع هذه السنن والأخذ بتلك الأسباب ما لم يكن عاقلاً مريداً حراً في إرادته واختياره، وإلا كان أمره ونهيه ضرباً من العبث وتكليفاً بالحال، والله منزّه عن ذلك كله، وهو الذي أفعاله كلها عين الحكمة والحق والعدل، فلهذا اقتضت حكمته وجرى قدره أن يخلق الإنسان في أحسن تقويم، وأن يجعله سمياً بصيراً، وأن يهديه النجدين، وأن يمنحه قدراً من الحرية، ويجعل له إرادة ومشية تناسب وظيفته وتفي بمجاراته، كما وهبه عقلاً وتمييزاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وجعله - بناء على ذلك - مسئولاً عما يختار، محاسباً على ما يأتي ويذر من الأعمال «ووفق هذا الاختيار والأعمال يكون الجزاء الإلهي»^(٢)، فالإنسان «يتحرك بحريته وإرادته، والله - تعالى - يرتب على هذا السلوك أموراً مناسبة لذلك الفعل»^(٣).

(١) المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، ص ١٠١.

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/٤٤).

(٣) في التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٨٧، د. نعمان السامرائي.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْنَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] . وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] . وقال تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمْهُم يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] . وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] . . . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على قدرة وإرادة وحرية واختيار قد زود الله بها جنس الإنسان ، وأن ذلك كله داخلٌ تحت قدرة الله وإرادته ومشئته ، فلا يقع إلا ما يريد الله ، ولا يكون إلا ما يشاؤه ، سبحانه وبحمده .

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ١٦] . وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ [المدثر: ٥٦] . وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمَلُكَ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] . . . إلى نصوص أخر متوافرة ، تدلُّ دلالة قاطعة على أن للإنسان مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله واختياره .

وقد جلى الأستاذ سيد قطب طبيعة العلاقة بين حرية الإنسان ومشئته الله بأسلوب بديع ؛ إذ يقول: «والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة، ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها ولا معها، في الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية، ويجعل للإنسان دوراً في الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم يعطي الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية وتفرداها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداءً، وإرادته وعمله وحركته ونشاطه داخل نطاق المشيئة التطبيقية، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه .

إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق، وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيفها، شأنه في ذلك هو شأن هذا الوجود كله، كل شيء مخلوق فيه بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، ولكن قدر الله - تعالى - في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدوثون فيها من تغيرات .

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ويقول

سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

ويقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكويز: ٢٩].

وهو الذي يقول أيضاً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فلا بُدَّ إذن - وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه وشمول مشيئته وقدره - من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله... من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة المحيطة بالناس والأشياء والأحداث^(١).

بل حتى المتأملون لمنهج القرآن المتفرد في هذه المسألة من غير المسلمين، لم يعجزهم تبين ذلك وإدراكه.

يقول ألبان في كتابه «التاريخ وكيف يفسرونه»: «... ولكن ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن القرآن كتاب دين، وليس كتاباً يجمع مباحث نظرية فلسفية خاصة... فهو يحتوي على الاعتراف بكل من سيطرة الله وحرية الاختيار عند البشر، ولكنه لا يبحث بطريقة تأملية: كيف يمكن الجمع فكرياً بين هذين الأمرين، وهو يؤكد أن الله يسيطر على كل شيء، وقد نفخ في الروح سجيتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. ولكن القرآن من أوله لآخره يؤكد استخدام (الاختيار) تأكيداً كبيراً، وليس الله بظلام للمذنبين ﴿وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، ﴿وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]. ويشير القرآن في مواضع كثيرة، إلى القرى التي ازدهرت أو أهلكت بما قدمت يداها من طاعة أو عصيان للسنن الخلقية التي يعبر عنها القرآن^(٢). وهي «شهادة من رجل غير مسلم، لم يعجز أن يدرك حرية الإنسان في الإسلام على حين يذهب كثير من العرب أو من مسوخيهم إلى نقيض ذلك»^(٣).

(١) خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ/سيد قطب، ص ١٤٣.

(٢) في التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٩٤ عن كتاب: التاريخ وكيف يفسرونه، ص ٩٣.

(٣) في التفسير الإسلامي للتاريخ، د. نعمان السامرائي، ص ٩٥.

والخلاصة: أنه يزول من الأذهان هاجس التناقض وهم السلبية وعقيدة الجبرية الإلهية، إذا ما أدرك المرء إدراكاً صحيحاً: طبيعة حرية الإنسان واختياره، وحدود وظيفة هذه الحرية وهذا الاختيار، وذلك بإدراكه:

أنها قدر من قدر الله، فهي لا تقوم وحدها بهذا الاعتبار.

وأنها حقيقة واقعة تمارس وظيفتها في الحياة، فلها استقلالية وتأثير بهذا الاعتبار.

وأن قدر الله ومشيئته هي الموجدة ابتداءً لهذه الحرية وهذا الاختيار، كما أنها هي الموجهة لهما كي يمارسا وظيفتهما في حدود ما أذن الله به وأراده.

وأنه لو لم يكن الإنسان حراً مختاراً، لما كان ثمة تكليف. ولو كان الإنسان الحرّ المختار، طليقاً من كل قيد ومن كل حدّ، حتى من حدود المشيئة الإلهية... لو كان كذلك، لكان إلهاً من دون الله.

وأن الأسباب لا تستقل بنتائجها، بل هي قدر من قدر الله، والله خالق الأسباب والمسببات ابتداءً، وهو مجريها وجاعل نتائجها متحصلة عنها بموجب نظام وسنن ونواميس خلقها بإرادته وأحكمها بحكمته وعلمه، ولولا ذلك لما أمكن التعرف عليها وتسخيرها والانتفاع بها.

وإذن، فلا بُدّ من إرادة واختيار، ولا بُدّ من الأخذ بالأسباب، ولا بد أن يكون هذا وهذا مراداً لله «ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليّة قدح في الشرع»^(١).

هذا هو مقتضى التقدير والإتقان والإحسان والهداية لهذا الخلق، ولازم حكمة الله وعلمه وعدله وسائر صفاته، تبارك وتعالى وتقدّس.

هذا هو الحق إن شاء الله تعالى في هذه المسائل، وهو دين الله الذي تعبّد به الأولين والآخرين، ولا يؤمن به إلا المؤمنون بالله وبما جاء عنه على السنة أنبيائه ورسوله، وهو الموافق للعقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولا يزيغ عنه إلا أهل البصائر المطموسة والفطر المنكوسة، ولهذا ينكرون ويمجادلون بالباطل، وهم «الكفار بالرسول من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى، ومشركو العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشديانيين، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين... يتبعون

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٠/٨).

ظنونهم وأهواءهم ، ويعرضون عن ذكر الله الذي أتاهم من عنده ، كما قال لهم لما أهبط آدم من الجنة: ﴿فَأَمَّا يَا أَيَّتُكُم مِّنِي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩] ، وهم - مع ذلك - يزعمون أنَّ لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثلة المضروبة ، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ، ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ، ويصفون أتباع المرسلين بأنهم سفهاء وأراذل وضلَّال ، ويسخرون منهم^(١) ، ويرون الحياة لهواً ولعباً وباطلاً وعبثاً ، ديدن الجاهلية في كل أحقاب التاريخ .

فهم ما بين محتج بالمشيئة على مخالفة الأمر ، ومتعلِّق بالأسباب المادية غافل عن الحكمة الإلهية .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يتحدث عن الأسباب وكسب الإنسان ومشيئة الله تعالى: «وفي هذا الموضع ضلَّ طائفتان من الناس ، فريق آمنوا بالقدر وظنوا أن ذلك كافٍ في حصول المقصود ، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة . وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله ودينه . وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ، متكلين على حَوْلهم وقوتهم وعملهم . وهؤلاء جهالٌ ضلَّالٌ»^(٢) .

وفي الواقع المعاصر ، أعرض أكثر الخلق عن الأسباب الشرعية وأهملوها ، ومنهم من نفى تأثيرها وأنكرها ، على حين انكفأ أكثرهم على الأسباب المادية وبالغوا في تأثيرها ، بل اعتمدوا عليها اعتماداً كلياً ، خيل إليهم معه أنهم وحدهم المتصرفون في هذا الكون . والمسلمون منهم قصَّروا في الأمرين . . . وسيلقى هؤلاء ما يستحقُّون . وقد فعل ذلك بهم سبحانه ، كما يعلم ذلك من ينظر إلى أحوال العالم بعين البصيرة ، ويزن الأمور بميزان الشريعة .

والحق وسطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه . نسأل الله الهداية والتوفيق .

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/١٠) .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/٧١) .

الفصل الخامس

مجال الكشف والإبانة

إذا كنا قد وقفنا في الفصول السابقة على مجالات سنن الله في الأمم فيما يتعلّق بحماية الأمم ووقايتها، وفي ابتلائها وتمحيصها، وفي مجال تحذيرها، وفي مجال الجزاء بشقيه الثواب والعقاب... فإنّ هناك مجالاً ذا أهمية خاصة، هو بحاجة إلى وقفة وتبيين، وهو مُستفادٌ من مجموع المجالات السابقة، ذاك هو «مجال الكشف والإبانة».

الكشف عن الأشخاص والأحوال والمواقف، والإبانة عن الطباع والأخلاق والمنطلقات، بصورتها البشرية المتشابكة، كما هي عليه في الواقع.

وفي هذا الفصل يتبدّى لنا كتاب الله تعالى مدرسة نفسية واجتماعية نتعلم من خلالها - أفراداً وجماعات - أموراً هامة لا غنى لنا عن معرفتها، ونحن نعيش الحياة بكل ملبساتها.

ومن هذه الزاوية يمكننا أن نتناول، ومن خلال الآيات القرآنية، كثيراً من جوانب الحياة بالدراسة، وأن نشخصها بأسلوب علمي دقيق، وأن نخلص إلى نتائج علمية وعملية قيّمة.

وسوف أعرض فيما يلي لنماذج من هذا الأسلوب تتناول جوانب مختلفة، وذلك في أربعة مباحث:

المبحث الأول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ ، وهو أضواء كاشفة لطبيعة الحق والباطل.

المبحث الثاني: ﴿تَشَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

المبحث الثالث: طبيعة الإيمان.

المبحث الرابع: الملأ في الأمم. وهذا المبحث يُعنى بدراسة طبيعة العلاقات بين القلّة والكثرة (المتبوعين والأتباع).

المبحث الأول

﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾

أضواء كاشفة لطبيعة الحق والباطل

﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

اشتملت هذه الآية من سورة المائدة، على سُنَّتَيْنِ من سننه تعالى التي أجزاها في خلقه وفق حكمته وإرادته:

الأولى: أن الخبيث والطيب لا يستويان، بل هما ضدان مختلفان وحقيقتان متغايرتان.

الثانية: أن الخبيث في جملته أكثر من الطيب كثرةً، وإن كان أخف ميزاناً وأقل شأنًا. وقبل المضي في الحديث عن هاتين السُنَّتَيْنِ، لا بد من معرفة مدلول كلمتي «الخبيث»، و«الطيب» في اللغة، والوقوف على شيء من استعمالاتهما في التنزيل، بإيجاز.

قال الراغب^(١) في مفرداته: «المُخْبِثُ والخبيث: ما يكره رداءةً وخساسةً، محسوساً كان أو معقولاً، وأصله الرديء الدخلة الجاري مجرى خبث الحديد، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبیح في الفعال، قال عز وجل: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: ما لا يوافق النفس من المحظورات. وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْبَةِ أَلَيْسَ لِكُلِّ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، كناية عن إتيان الرجال. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَاتِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ أي: الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة، والنفوس الخبيثة والنفوس الزكية. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَاتِ بِالطَّيِّبَاتِ﴾ [النساء: ٢]؛ أي: الحرام بالحلal. وقال

(١) هو: أبو القاسم حسين بن محمد، المعروف بـ (الراغب الأصفهاني). عالم أديب، سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، له مصنفات؛ أشهرها: «المفردات في غريب القرآن»، وله: «محاضرات الأدباء»، و«جامع التفسير»، وقد طبعته مقدمته، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠)، والأعلام (٢/٢٥٥).

تعالى: ﴿أَلْفَيْتَنُتْ لِخَيْثِينَ وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثِنُتْ﴾ [النور: ٢٦]؛ أي: الأفعال الرديئة والاختيارات المبهرجة لأمثالها، وكذلك ﴿وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثِنُتْ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ أي: الكافر والمؤمن، والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة. وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْثَرٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]؛ إشارة إلى كلمة قبيحة من كفر وكذب وغميمة، وغير ذلك^(١).

وقال في معنى الطيب: «يقال طاب الشيء يطيب طيباً فهو طيبٌ، قال: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، ﴿فَإِن طَبَنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٤]، وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وأجلاً، لا يستوخم، وإلا فإنه وإن كان طيباً عاجلاً لم يطب أجلاً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، و﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٥]. قيل: عنى بها الذبائح، وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]؛ إشارة إلى الغنيمة. والطيب من الإنسان: من تعرئ من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلَّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ أَمَلَّتِيكَةً طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿طَيِّبَةً فَأَدْخُلُوهَا خَلْدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لِيُعِزَّ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]؛ تنبيه أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين^(٢).

وبهذا القدر الذي نقلته من مفردات «الراغب» كفاية في الدلالة على أشهر معاني كل منهما، وأنه عام في المحسوسات والمعقولات، شاملٌ للظواهر والبواطن، يندرج تحته عالم الأحياء وعالم الجماد.

(١) مفردات الراغب، مادة (خيث).

(٢) مفردات الراغب، مادة (طيب).

ويمكننا بعد ذلك الشروع في تفصيل كلتا السُّنَّتين اللتين أوَمَّأت إليهما آية المائدة:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

السُّنَّة الأولى: أن الخبيث والطيب لا يستويان، بل هما ضدان مختلفان وحقيقتان متغايرتان وأنه يترتب على كل منهما ما يليق بها.

لا يستوي الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأقوال: كالضار والنافع والفاسق والصالح والحرام والحلال، ولا من الناس: كالظالم والعاقل والجاهل والعالم، والمفسد والمصلح والبرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

«فلكل من الخبيث والطيب في القسم الأول حكم يليق به عند الله تعالى، ولكل منهما في القسم الآخر - أي من الناس - جزاء ومكان يستحقه بحسب صفته ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وهو الحكيم العليم الذي يضع كل شيء في موضعه»^(١).

ولقد جاءت هذه الآية وما في معناها، ميزاناً «يقيمه الله للقيم ليزن به المسلم ويحكم»^(٢)، وقاعدة وهي: أن العبرة بصفة الشيء^(٣)... وبقيمته، لا بشيء آخر... هذا هو الميزان، وهذه هي القاعدة.

سُنَّة الله في خلقه وأمره، أنه ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

ومن يسوي بينهما في حسه وظنه، أو في سلوكه وواقعه فهو مخالف لأمر الله، مصادم للفطر السوية، نائل من العقوبات العاجلة والأجلة ما يستحقه المخالفون لأوامر الله وسننه.

وإذا كانت هذه الآية قد اشتملت على تقرير هذه السُنَّة العظيمة، التي تشهد العقول السليمة والفطر المستقيمة على صحتها، بل وعلى ضرورة وجودها والحكم بموجبها، وهي أنه - سبحانه - قضى ألا يسوي بين المختلفين ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾، فإن من لازم ذلك، أن نعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا يفرق بين المتماثلين، فإن الحكمة في هذه كتلك، وهذا ما أجرى الله عليه سنته، وهو مقتضى حكمته وعدله، كما تشهد

(١) تفسير المنار (١٢٢/٧).

(٢) في ظلال القرآن (٩٨٣/٢).

(٣) تفسير المنار (١٢٣/٧).

بذلك النصوص . ولهذا أنكر - سبحانه - على من ظن أن شيئاً من ذلك يمكن أن يقع منه ^(١) ، وأخبر أن حكمته وعدله تأبى ذلك ^(٢) .

فمن الأول - وهو إنكاره سبحانه أنه يسوي بين المختلفات - من ذلك: قوله تعالى: ﴿أَنْجَعِلُ الْمُتْلِبِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] ، وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨] ، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] .

فأخبر - سبحانه - أن هذا كله حكم باطل جائر ، يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه ، فضلاً عن أن يُنسب إليه ... بل أبلغ من هذا ، أنه أنكر على من حسب أنه يمكن أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يظهر به صبره وشكره ، وأن حكمته تأبى ذلك ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] . وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرُبُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] ، فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان ؛ لمخالفته لحكمته .

ومن الثاني: وهو أن مقتضى حكمته وعدله - سبحانه - أنه لا يفرق بين المتماثلين ، منه: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] . وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [التوبة: ٧١] . وقوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] . وقوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣] . وقوله: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧] .

(١) أي أنكر على من ظن أن التفريق بين المتماثلات ، أو التسوية بين المختلفات يمكن أن يقع في شرع الله وأمره ، كما سيتضح لك .

(٢) شفاء العليل ، لابن القيم ، ص ٤٩ بتصرف .

والقرآن مملوءٌ من هذا، يخبر - تعالى - أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثلة، وضدُّ مضاده ومخالفه^(١).

وكثرة ورود ذلك في القرآن، له دلالات وإيحاءات، آيينها - فيما أرى - أمران:

الأول: أن إقرار هذه الحكمة، وإظهار هذه السُّنة - أنه لا يستوي الخبيث والطيب، وأن الخبيث جنس واحد تحته أنواع، والطيب كذلك - ذو أهمية بالغة في حياة الأفراد والأمم، من وجوه:

- أن هذا هو الموافق لحكمة الله ومُرادِه، والله إنما تعبدهم بذلك، ولا خير فيما

سواه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

- ومنها: أن هذا هو الموافق لطبيعة الأشياء، المنسجم مع المصالح لعموم الخلق، وهو مقتضى ما تشهد به العقول والفطر السليمة.

- ومنها: أن أي اضطراب في هذا الميزان في يد الخلق أفراداً وأماً. وأي غياب لهذه

القاعدة؛ لأي سبب كان، من جهل أو هوى أو غيرهما، يؤدي - لا محالة - إلى فساد عريض.

ولك أن تتصور أمة يستوي في حسن أهلها وواقعهم: الخبيث والطيب!

ولك أن تتصور - أيضاً - أمة يعمد أهلها إلى الطيب فيجعلونه خبيثاً، أو الخبيث

فيجعلونه طيباً... يجعلون ما لهذا لهذا!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

الثاني: أن أكثر الأمم من المتقدمين والمتأخرين، لما اضطرب هذا الميزان في أيديهم وغابت عنهم هذه السُّنة الإلهية في التمييز بين الخبيث والطيب، وردَّ كل شكل إلى شكله، مع شدَّة وضوحها وموافقتها للطباع والفطر والعقول، وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر بالله والشرك واتباع الأهواء والآراء الفاسدة، ورد ما جاءت به الرسل والأنبياء، وحصل فيهم ومنهم من الظلم والفجور وأنواع المصائب ما لا يخفى.

ولهذا عُني القرآن بالتأكيد على هذه السُّنة الإلهية وإبرازها، وفق منهج القرآن وعلى

طريقته في تقديم الأولويات في تربية الأمة وتصحيح مسارها وتقويمها على الجادة؛ لتقييم «الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله حتى تكون ربانية حقاً...»

(١) شفاء العليل، ص ٤٠١، ٤٠٣، بتصرف واختصار.

وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم . . . وعندئذ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب»^(١).

ومع كل هذا ، فقد ذهلت أكثر الأمم عن هذه السنة ، وأسقطت من حسابها أن تزن الأحداث والأشياء بهذا الميزان ، إلا من رحم الله - وقليل ما هم - فآل أمر البشرية إلى ما نرى من الكفر والظلم والفسوق .

إن الخبيث والطيب لا يستويان . وكيف يستويان وهما عند الله لا يستويان!؟

وكيف يستويان وهما في طبيعتهما وحالهما ومآلهما لا يستويان!؟

وكيف يستويان ، والله يقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول مخاطباً كل فرد من أفراد أمة الدعوة: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠] ^(٢).

لا يستويان ، وإن حاول أكثر الناس أن يسوا بينهما بطريق التلفيق أو التمويه والخذاع ، أو التعالم والغرور . فالخبيث يبقى خبيثاً ، والطيب يفسح عن نفسه ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] .

سكنناه ونحسبه لجيناً فابدى الكبر عن خبث الحديد

ولهذا أخذت الأمم في أحقاب التاريخ بموجب هذه السنة الإلهية وما تزال تؤخذ^(٣) بها ، ولم ينج منهم إلا من اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وسبيل الله هاهنا: أن يميزوا بين الخبيث والطيب ، ويزنوهما بميزان الله الذي جاءت به الأنبياء .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْقَهُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦ ، ٣٧] .

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٤) .

(٢) تفسير المنار (٧/ ١٢٢) .

(٣) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، محمد قطب ، ص ١٧٨ .

وها هنا قد يسأل سائل ، فيقول: إذا كان الخبيث والطيب متمايزين بالصورة التي ذكرت ، وقد ركز في عقول الخلق وفطرتهم قبح الخبيث والنفرة منه ، وحسن الطيب والانجذاب إليه ، وجاءت الشرائع بتأكيد ذلك وبيان عاقبة ومآل كل من النوعين . . . إذا كان ذلك كذلك ، فلمَ سوى أكثر الخلق بينهما؟ بل ولمَ استحسنوا الخبيث واستقبحوا الطيب؟!

وجواباً على هذا السؤال أقول: قد جاءت الإشارة إلى علة ذلك في الآية موضوع الحديث ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ ، وتلك هي السنة الثانية التي نبّهت إليها هذه الآية ، ألا وهي الإعجاب بالخبيث.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ﴾ إشارة إلى أن الخبيث لكثرتة ؛ يعجب لأول وهلة وإن كان خبيثاً ، وهو الرديء الخسيس من كل شيء!

يُعجب ، وإن كان حقيقة لا يستحق الإعجاب به ؛ لأنه خبيث ، وقد تقرر أنه ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيِّبُ﴾ . وإذن ، فسنة الله وحكمته جرت بـ: أن الخبيث في جملة أكثر من الطيب كثرة ، ولهذا يعجب ، وإن كان أخف ميزاناً وأقل شأناً .

وقد مضى بيان معنى «الخبيث» ، و«الطيب» وأنهما يشملان الأشياء والأشخاص والعقائد والخواطر والمواقف . . . و . . .

ولتجلية هذه السنة الإلهية التي هي مظهر من مظاهر حكمته تعالى في خلقه ، لا بد من تأمل ودراسة النصوص على نحو يتضح به المعنى الذي تومئ إليه الآية .

وخلاصته:

* أنه يقع في أعمال المكلفين - عادة - من موجبات الكفر والفسوق ، وسائر أنواع الخباثت ، أكثر من أصداد ذلك من الطيبات كالإيمان والصلاح والعدل ونحوها .

* كما يخالط نفوسهم من الجهل والهوى - وهما وصفان خبيثان - ما يجعلهم قابلين للخبيث ، معجبين به .

* وأنه يحتف بالخبيث من القرائن والأمور ما يجعله معجباً لأكثر الخلق ، وإن لم يكن كذلك في حقيقة الأمر .

* ومع ذلك ، فإن الدلائل والشواهد متضافرة على أن الخيـث - مع كثرته - لا يقوم للطيب مع قـلته .

ولهذه الأمور ، فإن الخبائث في الأسم من الإنس والجن ، أكثر من الطيبات . وهذا يشمل العقائد ، وأعمال السلوك ، والأقوال ، والأفعال . . . وكله بسبب ما كسبته أيديهم ، وانطوت عليه نفوسهم .

وأصل ذلك: أتباع الشيطان الذي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ [عمد: ٢٥] ، فإنه أصل الشرّ ومعدن كل خبيث قولي أو فعلي ، ويسبب خبثه عصى ربه إذ أمره بالسجود لآدم ﷺ كثيراً وحسداً ، وأخرج من الجنة مذموماً مدحوراً ، لا يعود إليها أبد الأبدین ودهر الدهارين ، وجعلت له نار جهنم داراً ونزلاً ، هو وأتباعه من الخبيثين والخبثيات ، فألا على نفسه وأقسم بعزة ربه ليغوين ذرية آدم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الصافات: ٤٠] ، فأولئك الطيبون لهم دار السلام ، الجنة دار الطيبين ، فانقسم الخلق فريقين وانضوا تحت لواءين: لواء حملته الرسل والأنبياء وأتباعهم من المؤمنين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] . وأولئك هم الطيبون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم ، وكل طيب فهم أولى به .

ولواء حملته الشياطين وأتباعهم من الغاوين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩] الخبيثون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم ، وكل خبيث فهم أولى به .

قال تعالى مبيناً موقف إبليس من آدم وذريته: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَامْضُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٧١ - ٨٥] .

وقال في آية أخرى: ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَتَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْسِنَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]... إلى غير ذلك من الآيات، وفيها - كما ترى - عهد من إبليس - لعنه الله - على نفسه ليجتهدن في إغواء ذرية آدم عليه السلام، وليسلكن في سبيل تحقيق ذلك كل وسيلة ممكنة، وأنه لن ينجو منهم إلا قليل. وكان ذلك ظناً منه «لا يقيناً؛ لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين إلا من استثنى...»^(١). فأنزل الله قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠].

«قرئ (صَدَقَ) بالتخفيف، فيكون (ظنه) منصوباً على المصدر أو على الظرف، المعنى: صدق عليهم ظناً ظنه إذ صدق في ظنه، أو: صدق عليهم في ظنه. قاله الزَّجَّاجُ^(٢)، وقال أبو علي^(٣): «(ظنه) نصب؛ لأنه مفعول به، أي: صدق الظن الذي ظنه... ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به».

وقرئ (صَدَقَ) بالتشديد، فيكون (ظنه) مفعولاً بوقوع الفعل عليه، قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه، وقال زيد بن أسلم^(٤): «إن إبليس قال: يا رب، أرايت هؤلاء الذين كرمتهم وشرفتهم وفضلتهم عليّ، لا تجد أكثرهم شاكرين، ظناً منه فصدق عليهم إبليس ظنه. وقال الكلبي^(٥): «إنه ظن أنه إن اغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه»^(٦).

(١) تفسير السعدي (١٣٤/٦)، ومعناه مروى عن الحسن. انظر: تفسير ابن كثير (٥٣٥/٣).

(٢) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، إمام من أئمة العربية، بغدادى المولد والوفاة، له: «معاني القرآن وإعرابه»، وغيره. توفي سنة (٣١١هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١١. الأعلام (٤٠/١).

(٣) هو: أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد، أحد الأئمة المشهورين في علم العربية، له: كتاب «الإيضاح والتكملة»، وله في كل بلد دخله مصنف باسمه، ككتاب: «المسائل الحلييات»، و«المسائل البغداديات»... وله في القراءات كتاب: «الحجة». توفي سنة (٣٧٧هـ). انظر: بغيّة الوعاة (٤٩٦/١)، والأعلام (١٧٩/٢).

(٤) زيد بن أسلم العدوي، العمري، فقيه مفسر من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، وكان ثقة كثير الحديث، وله كتاب في التفسير رواه عنه ولده عبد الرحمن. توفي سنة (١٣٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٦/٥)، والأعلام (٥٦/٣).

(٥) هو: محمد بن السائب الكلبي، الكوفي، أبو النضر، نسابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، ضعيف في الحديث، قال عنه النسائي: «حدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فقيه مناكير». توفي سنة (١٤٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٩) والأعلام (١٣٣/٦).

(٦) تفسير القرطبي (٢٩٣/١٤).

وآية (سبا) هذه بضميمة الآيات السابقة نص في أن أكثر الخلق ضالون متبعون للشيطان ، واقعون في حبائله ، وأن القلة هم المؤمنون الناجون من غوائله . وهذا ليس في أمة دون أمة ، بل الأمم كلها كذلك ، على اختلاف بينها في كثرة القلة المؤمنة ، وقلة الكثرة الكافرة .

فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، دعوة الدعوب الصابر ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَهُوا بِأَيْبِهِمْ وَاصْرُورًا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [الآيات (نوح: ٥ - ٩) .

وبعد كل هذا الجهد والوقت ، تكون الحصيلة من قومه: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] .

ويأتي بعد نوح ، هود وصالح - عليهما الصلاة والسلام - ، ولا يذكر القرآن الكريم قلة المؤمنين بهما صراحة ، لكنه أفهم ذلك في سياق الآيات التي تحدثت عن خبرهما مع أقوامهما ، كقوله تعالى في خبر هود مع قومه عاد: ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] . فافتخروا بقوتهم ، ومن القوة: الكثرة العددية إلى جانب القوة الجسدية . وكقول قومه مخاطبته عليه السلام بعدما دعاهم وأنذرهم: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَنَا أَمْ لَمْ تُنْكُرْنَا مِنَ الْوَعظِيبِ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨] ، وما في معناها مما يدل على أنهم يخاطبون هوداً عليه السلام بمنطق القوة والاستعلاء ، ولا يكون ذلك إلا حيث تكون القوة والكثرة والسلطان .

وأما صالح عليه السلام ، فيكفي دليلاً على قلة من اتبعه من قومه أن نعلم أنهم طائفة من المستضعفين ، لا كلهم . قال تعالى: ﴿ قَالَ أَمْلَأْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥] .

فالملا من قومه كافرون ، ويتبعهم خلق من المستضعفين على مثل ما هم عليه من الكفر .

وكذلك إبراهيم عليه السلام فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّهُمْ فِي قَلَّةٍ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وكثرة مخالفيهم من طوائف الكافرين مثل بقية إخوانهم من النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال تعالى بعد ما ذكر دعوة إبراهيم قومه ، وتكذيبهم إياه ، وما كان منهم من محاولة إحراقه بالنار ، ثم إنجاء الله إياه منها ، قال : ﴿ فَأَمِنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَّابَ ﴾ [العنكبوت: ٢٦ ، ٢٧] .

وجاء ذِكْرُ مَنْ آمَنَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [المتحنة: ٤] . . . والذين معه كانوا قلة ، بل كانوا أفراداً^(١) ، وتظهر قلتهم من الأسلوب الذي اتبعوه في إنكار المنكر على قومهم ، فإنهم أنكروا عليهم باللسان والقلب «وهو أقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر . . . إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد ؛ لقلتهم وضعفهم بين قومهم»^(٢) . ولم يذكر القرآن له أتباعاً غير لوط عليه السلام ، ومن ذكر من ذريته .

ولوط عليه السلام يكفر به أهل قريته إلا أهله ، حتى امراته كانت على مثل ما كان عليه قومه . قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ ، ٣٦] . وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِّنَهُمُوهَآءَ اللَّهِ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١ ، ٣٢] .
والذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا قلة كذلك .

(١) التحرير والتنوير (١٤٣/٢٨) ، وهم يومها ثلاثة: إبراهيم ، وزوجه سارة ، وابن أخيه لوط ، ولم يكن لإبراهيم أبناء . السابق ، الجزء والصفحة .

(٢) التحرير والتنوير (١٤٤/٢٨ ، ١٤٥) .

قال تعالى عن أتباع موسى عليه السلام: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ ؛ أي قوم فرعون ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

وقال فرعون حاكياً قَلْتُمْ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]. هذا، مع أن موسى عليه السلام كان أكثر الأنبياء تابعاً بعد نبينا محمد عليه السلام، كما ثبت ذلك في حديث أنس عند مسلم^(١).

وقال تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّن بَنَاتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وهؤلاء الحواريون قلّة بالنسبة إلى من خالفهم من اليهود واليونانيين الذين كفروا، ومن النصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام، فانتهى بهم ذلك إلى الكفر أيضاً، وإثما تأيدوا ببعثة النبي محمد عليه السلام^(٢)؛ لأنّ المؤمنين بعيسى حقيقة يؤمنون بالنبي محمد عليه السلام كذلك. وأمّا أمة محمد عليه السلام فهم خير أمة أخرجت للناس، والنبي محمد عليه السلام أكثر الأنبياء تابعاً، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت»^(٣)، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أهمّ أمّتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرتُ إذا سواد عظيم، ثم قيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرتُ فإذا سواد عظيم» الحديث^(٤).

بل هم شطر أهل الجنة، وفي حديث آخر: «نصف أهل الجنة»^(٥)... ومع هذه الكثرة بالنسبة للأمم السابقة، فإنّ نسبة المؤمنين إلى مَنْ سَوَاهُمْ من الكفرة والمنافقين

(١) ولفظه: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد». انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٧٣/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٤).

(٣) سبق تخريجه قريباً.

(٤) متفق عليه. انظر: فتح الباري (١٠٠/١٥٥)، ح رقم (٥٧٠٥). وصحيح مسلم بشرح النووي (٩٣/٣).

(٥) ورد لفظ «شطر أهل الجنة» في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظ «نصف أهل الجنة» في حديث ابن مسعود رضي الله عنه. والحديثان متفق عليهما. انظر: فتح الباري (٦/٣٨٢)، ح رقم (٣٣٤٨)، (١١/٣٧٨)، ح رقم (٦٥٢٨). وصحيح مسلم بشرح النووي (٣/٩٥، ٩٧). والشطر: هو النصف، كما يدلّ على ذلك لفظ الحديث.

قليلة جداً ، كما يدلّ لذلك حديث الفِرَق المشهور .

وإذن فأقوام الأنبياء كلهم كما أخبر عنهم القرآن: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] ، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

ولهذا يأتي التعبير عن المؤمنين بالفاظ تدلّ على قلتهم تصریحاً أو إيماءً ، أو بلازم ذلك غالباً ، كالضعف والاستضعاف ، والإخراج من الديار ، والسخرية والإيذاء وما أشبه ذلك ^(١) .

ولا يُشكل على ذلك ما جاء في بعض الآيات مما يحتمل ظاهره أن يكون المؤمنون أكثر من غيرهم ، أو مساوين لهم أو أنهم كثير ، ونحو ذلك ، كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ، وكقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] ، وكقوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] . . . ونحوها . فإنّ لفظ (الكثير) لا يلزم منه المساواة بينه وبين غيره ، إذا كان هذا الغير موصوفاً بالصفة نفسها ، فضلاً عن أنه لا يلزم منه الزيادة عليه ، وهذا بخلاف لفظ (الأكثر) فإنه يفهم الزيادة ؛ إذ هو أفعال تفضيل في الغالب ، وغاية ما يفيد لفظ (الكثير) أن يكون موصوفه خارجاً عن حد القلة ، وإن لم يكن مساوياً لغيره .

ثم إنّ هذا الاحتمال في مثل تلك الآيات يمتنع حملة على مساواة المؤمنين لغيرهم أو زيادتهم عليهم ، بدلالة النصوص الكثيرة الدالة على أن غير المؤمنين أكثرية ، وبدلالة النصوص الأخر الدالة على أن المؤمنين قلة ، والمسألة ظاهرة بحمد الله .

ثم إنّ الجن في ذلك كالإنس ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ

(١) وقد سبق ذكر بعض الآيات الدالة على هذا المعنى ، وسيأتي لها مزيد بيان في مبحث (الملا في الأمم) .

الْإِنْسِ ﴿ [الأنعام: ١٢٨] ؛ أي: «من إغوائهم وإضلالهم»^(١).

والمقصود: أن المكلفين من الثقلين أكثرهم ضالون مرتكبون لأنواع من الخبائث، الكفر بالله فما دون ذلك، وهذا في سائر الأسم، كما سبق.

أما غير المكلفين من سائر المخلوقات والموجودات، فليس ثمة تلازم بين الخبيث والكثرة، ولا بين الطيب والقلّة، بل العكس هو الصواب بحمد الله.

ولهذا، فإنّ دائرة المباح أوسع الدوائر، والمحرمات محصورة معدودة، والمباحات

مطلقة^(٢) كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]^(٣). وقال سبحانه: ﴿ قُلْ

أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ

تَفَتَرُونَ ﴿ [يونس: ٥٩].

«غير أن بني آدم، وأكثرهم على ما علمت من الكفر والفسوق، هم الذين يتناولون الأشياء بطرق محرّمة، فيدعون كثيراً من الطيبات، من العقائد والمطاعم والمشارب والمناكح والعوائد والمعاملات... وغيرها من سائر الأقوال والأفعال إلى المحرم منها، فيفشو الخبيث ويكثر بسببهم ويقل الطيب، وإن كان كثيراً لولا تصرفهم فيه أو عدوهم عنه إلى غيره. وهذا في الجملة صحيح لا شك فيه، وأما على التفصيل، فالأمر يختلف من حين لآخر ومن شيء إلى غيره، وليس قوله: ﴿ وَتَوَاعَبَكُمْ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠] بمقتضى أن كل خبيث يكون كثيراً، ولا أن يكون أكثر من الطيب من جنسه...»^(٤).

إذا تقرر هذا، وهو: أن الخبيث أكثر من الطيب فيما يتعلّق بالمكلفين من الثقلين، وما يصدر عنهم وبسببهم، فليعلم أنّ كثرة الخبيث - على ما علمت من قبحه - إنما هو بسبب ما يحتف به من القرائن التي تجعله معجياً لأكثر الخلق من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ كثرة الخبيث تكون بسبب الجهل والهوى الذي يجعل النفوس قابلة له، أمّا (الطيب) فمجرد من كل طلاء وبهرج ومن كل تزيين، إلا من زينته الحقيقية وإلا من ثقله في ميزان

(١) تفسير ابن كثير (١٧٦/٢).

(٢) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ/ عبد الرحمن السعدي، قسم الفقه، المجلد الأول، ص ٣٧، ١٤١ وما بعدها.

(٣) انظر: تفسير القاسمي (٦٧/٨).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦٣/٧).

الله وثباته، وإلا من جماله الذاتي وسلطانه^(١) ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، وما به سبحانه أن يظلمهم، لقد بين لهم ما يتقون وهو سبحانه طيب، لا يقبل إلا طيباً من كل شيء. ولما كان أكثر الخلق قد استحوذ عليهم الشيطان ببهرجه وتزيينه، ففسدت فطرهم وخبثت نفوسهم وانكست موازينهم... لما كانوا كذلك، نصب الشيطان لهم موازين من عنده، وأحل لهم ما حرم الله عليهم من الكفر والشرك والفسوق وسائر الخباثت فطاعوه. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧]. وقال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]... إلى غير ذلك من الآيات.

وتزيين الخبيث وكونه معجباً تنجذب إليه النفوس الخسيسة الرديئة يكون بأمور، منها:

* كثرة الخبيث: والكثرة تستهوي النفوس، وربما أوحى بأحقيقته وأن القلة هي الشذوذ. والكثرة أيا كانت تأخذ العين وتهول الحس، وهي ذات لآلاء يسطع فلا تتمكن عين الكثيرين من رؤية الخبيث على حقيقته وسط زحام الكثرة وما تتمتع به من جاذبية أسرة.

ولهذا كان المشركون يفخرون على المؤمنين في صدر الإسلام بكثرتهم^(٢) ويعتزون بها: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ [سبا: ٣٥]، ولما كان للكثرة هذا التأثير في النفوس أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لكل مكلف بلغته دعوته: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]^(٣).

فالآية تؤذن بأن قد وجدت كثرة من أشياء فاسدة خيف أن تستهوي من كانوا بقلة من الأشياء الصالحة^(٤).

* ومنها: قوته - أي الخبيث - في الظاهر، وتمكنه وتسلطه في الغالب، وكون عليه القوم والملا في الأمم وهم المتنفذون أصحاب الجاه والمال والسلطان، كون هؤلاء في

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٨٤).

(٢) تفسير المنار (٧/ ١٢٣).

(٣) انظر: تفسير المنار (٧/ ١٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٦٢).

طلیعة جنوده، ومقدمة صفوفه... كل ذلك يدعو إلى الالتفاف حوله، ويعمل على تغطية وجه الخبيث القبيح بألوان من الدعاية، وإضفاء الشرعية على ما لم يمكن تغطيته منه؛ بالقوة تارة، وبالمال تارة، وبالاستغفال تارات. ولهذا نجد الملائة في كل أمة، هم أول من يقف في مواجهة الرسول المرسل إليهم، ويحول بينه وبين الجماهير. ويوزع التهم، يشيعها قبل أن تشيع الكلمة الطيبة. ويفعل القوة والجاه، وحصار الكلمة الطيبة تلتف الجماهير المغفلة حول الخبيث ملوحة في وجه الطيب الأعزل.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٤].

وتلك سنة الله في الأمم عامة «أن يكون الملائة في طلیعة من يتصدى لأنبياء الله؛ لأن نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أشربت كره كل من يدعو إلى الله»^(١).

* ومن الأمور التي تجعل الخبيث معجباً: ميلُ النفوس إليه والحصول بسببه على الامتيازات، والتمتع بالشهوات دونما ضابط أو رقيب... كالتسلط والظلم واغتصاب الحقوق والأموال، وكأكل الربا والرشوة والخيانة... ومقارفة الجرائم والفواحش، وترك الأوامر وإطراح التكاليف... وما أشبه ذلك مما يستهوي النفوس الهابطة ويلبي الرغبات الجانحة.

وكثيراً ما كشف القرآن الكريم عن علة إغراض الأمم عن فعل ما أمرُوا به، أو تقحم ما نهوا عنه، وأنها راجعة لسبب أو أكثر مما ذكر. ومن أمثلة ذلك: ما قصه القرآن عن مدين قوم شعيب عليه السلام، وكيف أجابوا شعبياً لما أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم أن ينقصوا المكيال والميزان. ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

يقولون له ذلك على سبيل التهكم - قبحهم الله^(٢) - ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي وتتعبد له، فإن كنت كذلك أفوجب ذلك لنا أن نترك ما يعبد

(١) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد بن سرور زين العابدين، ص ٥٩ بتصرف يسير.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤٥٦/٢).

أباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من إيفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ أي: إنك لأنت الذي الحلم والوقار لك خلقت، والرشد لك سجيّة، فلا يصدر عنك إلا رشد ولا تأمر إلا برشد ولا تنهى إلا عن غي، أي ليس الأمر كذلك^(١).

* ومن الأمثلة على فساد الأذواق ومسخ الفطر والأنس بالخبائث: ما كان من قوم لوط عليه السلام، لما نهاهم لوط عن فعلتهم الشنعاء، التي لا شك في شناعتها، لمخالفتها الطباع... لما نهاهم وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ * أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٦].

* ومن ذلك: ما يفعله المشركون، الذين يجعلون ما ليس بحجة أصلاً، يجعلونه برهاناً على صحة ما هم عليه، وأنهم يصدرون فيه عن أمر الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - قال تعالى حاكياً قائلهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، فكذبهم الله تعالى ووبخهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ويقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِسْحَاقَهُمْ أَوْ مُنْجَلِينَ قَالُوا بَلْ نَحْنُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَا تَرْحَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والأمور التي تجعل الخبيث معجباً لأكثر الخلق، عند التفصيل كثيرة. لكنها في الجملة راجعة إلى ما ذكر من تزيينه، وكثرته، وقوته في الظاهر، وكون السلطان والجاه والمال في أشياعه، ولأن الناس في ظله يتبعون أهواءهم وأطماعهم، فلا تكاليف ولا أوامر ولا حدود. وتلك لعمر الحق خلائق المخدولين وحياة الغافلين، لا يعدون قدرهم، وقد «حجبت»، وفي رواية: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(٢).

(١) تفسير السعدي (٣/٢١١).

(٢) حديث صحيح، رواه الشيخان عن أنس بن مالك. ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً - رضي الله عنهم - وهو عند البخاري بلفظ: «حُجِّبَتْ»، وعند مسلم بلفظ: «حُفَّتْ». انظر: الفتح (١١/٣٢٠)، باب: حُجِّبَتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، ح (٦٤٨٧). ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، في فاتحته، ح (٢٨٢٢).

وهذه الأمور عند التأمل، ليس من بينها أمر يرجع إلى ذات الخبيث، وهي تؤكد أنه ليس في الخبيث قوة جذب ذاتية، بل ما يجعله معجبا: إما فساد النفوس وخبثها، بحيث لا يوافقها إلا الخبيث، وإما ما يحتف به من بهرج وتزيين. أما الخبيث ذاته، فلا سلطان له على النفوس والعقول، وقد حكى الله ذلك عن إبليس - لعنه الله - صراحة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ أي: ليس لي من حجة تصدق قولي، وتحملكم على متابعتي^(١).

وأخبر في آية أخرى: أن الخبيث أشبه شيء بالزبد ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ [الرعد: ١٧]؛ أي: هباء ذاهبا. وتشبيهه بالزبد يدل على أنه لا حقيقة له نافعة، ولا بقاء له على الأيام. فكيف يستوي هو والحق الطيب، الذي ينفع الناس، ويمكث في الأرض؟

إذا تقرّر هذا، فإنّ ما ينبغي أن يُعلم: أنّ الدلائل والشواهد متضافرة على أن (الخبيث) مع كثرته لا يثبت أمام الطيب^(٢) مع قلته، ولا يقوم له، برغم كثرة الخبيث، لكثرة أتباعه ومريديه، وما يصحب الكثرة من إعجاب، لكن لأنه (خبيث) فإنه ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾، وشتان ما بين القوة التي تنبع من الذات، والجمال الذي لا ينفك عنها لأنه جزء منها، وبين القوة التي سندها من خارج الذات، والجمال المصطنع الذي عماده التزيين والتزويق... وكما قيل: ليس التكحل في العينين كالكحل.

لا يثبت الخبيث أمام الطيب في المواجهة. ﴿ كُمْ مِنْ فَتْرَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً يَا ذَنْبَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَعَ الصَّكْبِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاحِبُونَ يَقْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥]. ﴿ بَلْ نَقِذُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/٢٠٠).

(٢) الطيب - هنا: ما كان ضد الخبيث ونقيضه من كل وجه.

فَأَنكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿المائدة: ٢٣﴾ . ﴿أمر يقولون نحن جميع مُنصرٌ * سِجْرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤ ، ٤٥] .

سواء كانت المواجهة في ميدان القتال أم في ميادين المبادئ والأفكار . ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .
﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلِحْ أَوْ بَحِّنْ * أَوَاصَوَّا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ، ٥٣] .

وكما لا يقوم الخبيث للطيب ، فإنه لا يغني غناه ، ولا توجد فيه بركته في الأموال والأعمال وغيرها .

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] . وقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] . وقال: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ؛ أي: مصالح دينه ودنياه . ﴿فُرُطًا﴾ ؛ أي: ضائعة معطلة^(١) .
وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

أما هنالك في الآخرة ، فإن الخبيث - أيا كان - يكون هباءً منثوراً ، قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] .

ومن تأمل أحوال الأنبياء وأتباعهم الصادقين ، وكانوا قلة في كل أحقاب التاريخ ، لَمَّا كانوا قائمين بالحق ، قد طابت عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم ... كيف كان النصر والتمكين لهم ، وللمبادئ التي جاءوا بها ، وكيف أن أعداءهم كانوا هم المخذولين المغلوبين ... من تأمل ذلك كفاه وأغناه عن كل دليل سواه .

ولكن أين المتأملون؟ إنهم قلة قليلون ... إنهم أولو الألباب من بين الكثرة الكثيرة من الغافلين عن آيات الله في الأنفس والآفاق ... ولهذا ذيل الحق - سبحانه وتعالى - آية

المائدة ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: «أي فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة، ولا تغتروا بكثرة المال الخبيث ولا بكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فإن تقوى الله هي التي تنظمكم في سلك الطيبين فيرجى لكم أن تكونوا من المفلحين، أي: الفائزين بخير الدنيا والآخرة.

وإنما خص أولي الأبواب بالذكر في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلف في صدرها؛ لأن أهل البصيرة والرؤية من العقلاء يعتبرون بعواقب الأمور التي تدلّ عليها أوائلها ومقدماتها بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، فلا يصرون على الغرور بكثرة الخبيث بعد التنبيه والتذكير، وأمّا الأغرار الغافلون، الذين لم يمرنوا عقولهم على الاستقلال في النظر والاعتبار بالتجارب والحكم، فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكر، بل لا يعتبرون بما يرون بأعينهم ويسمعون بأذانهم من حوادث الأغنياء الذين ذهب أموالهم الكثيرة المجموعة من الحرام، والأمم والدول التي اضمحلت كثرتها العاطلة من فضيلتي العلم والنظام، وكيف ورث هؤلاء وأولئك من كانوا أقل مالا ورجالا، إذ كانوا أفضل أخلاقاً وأعمالاً ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣] ^(١).

وبعد، فلعل من المناسب، وقد لاح الفرقان بين الخبيث والطيب، أن أردف ذلك بمبحثين موجزين... أبين في الأول أهم أوجه الشبه التي تجمع بين أهل الباطل والضلال على اختلافهم في الزمان والمكان.

وأعرض في الثاني لأهم المعاني التي يمنحها الإيمان معتقيه، على اختلافهم في الزمان والمكان أيضاً.

المبحث الثاني

﴿تَشَبَّهت قُلُوبُهُمْ﴾

تبيُّنا فيما سبق أن أكثر الخلق منحرفون عن جادة الحق متبعون لأهوائهم، ناكبون عن الصراط المستقيم .

ونحن إذا تأملنا أحوال الضالين المنحرفين ومنطلقاتهم ومواقفهم، بل ومنطقهم عبر التاريخ... وجدنا تشابهاً في كل ذلك!

تشابهاً في الأحوال الاجتماعية، وما يتبع ذلك من امتيازات... فهؤلاء (المال) قلة قليلة تملك المال والسلطان والجاه، وتملك تبعاً لذلك حق الأمر والنهي .

وهؤلاء (بقية الناس) (المستضعفون) من الأتباع... هؤلاء فرضهم الخدمة والسمع والطاعة!

وجدنا تشابهاً في المنطلقات، فمنطلقات الجميع مادية، واهتماماتهم أرضية سفلية، لا يتجاوزون المحسوس، ولا يرتفعون عن مستوى المتعة والشهوة .

كما وجدنا تشابهاً في مواقفهم، من بعضهم، ومن رسل الله وأتباعهم . بل وفي مواجهة الأشياء عموماً... تشابهاً يجعلهم في بعض الأحيان يتجاوزون حدود المشابهة إلى التطابق والتوافق في ذات الألفاظ، فضلاً عن التوافق في ذات الأساليب، وبالتالي الانتهاء إلى النتائج ذاتها!

لا فرق في ذلك كله بين الأمم البدائية في عصور ما قبل التاريخ، وبين الأمم الراقية، بل أرقى الأمم مدنية وأكثرها تطوراً .

فهل حدث هذا التشابه صدفة؟ كلا ليس بصدفة، ولا يمكن أن يكون صدفة .

إن روحاً واحدة تسري في الجميع، ورؤية واحدة للكون والإنسان تقود خطى الجميع، وعلى ضوئها وبوحي منها يتصرف الجميع . وإن شئت فقل:

إن حضارة واحدة تظلل الجميع هي الحضارة المادية الجاهلية، تحت قيادة موحدة هي قيادة شياطين الإنس والجن، ينتج عنها ولا بد تشابه في الأحوال والمنطلقات والمواقف... وفي المنطق والأساليب .

ولا يُلْهينك ما تراه من الفروق الكثيرة الموجودة بين هذه الأمم في مجالات التطبيق، فإنها ترجع إلى اختلاف أحوال الإنسان، وما في حوزته من إمكانات مادية... المهم أن الجوهر واحد، والمنطلقات والدوافع متماثلة.

ولو كان الحديث عن التشابه الواقع بين موكب المؤمنين، عبر تاريخ البشرية الطويل، لكان الأمر ظاهراً، على الأقل عندنا نحن المسلمين؛ لأن دين الأنبياء واحد في أصوله وغاياته، والمؤمنون متعبدون باتباعهم وطاعتهم.

أما والحديث عن الجاهليات المتعاقبة في الأمم على امتداد التاريخ، على ما بينها من تباعد في الزمان والمكان والأهواء، فإن الأمر يختلف، وبخاصة عند غير المسلمين، الذين يفسرون الأشياء تفسيراً مادياً، ولا يرون الجاهلية قاسماً مشتركاً، وأخية تدور حولها الأمم المادية، وإن اختلفت في مظاهرها.

أما عندنا - نحن المسلمين - فإن الأمر - بحمد الله - ظاهر، وسبب التشابه أو أسبابه، معروفة... ومظاهره في واقع الأمم مسجلة مرصودة... وهي مظاهر تتكرر، كما لو كان الفاعل واحداً، تتطور بيده الأدوات أو تتخلف، فينتج عن ذلك اختلاف في المظاهر والأشكال لا غير.

إن الحقيقة الكبرى الحاسمة هي: «أن لكل حضارة روحاً خاصة بها، تظهر في وجوه المدنية العديدة. وهذه الروح يمكن أن تضعف، ولكنها لا يمكن أن تموت. إن قانون تناسخ الأرواح يفعل فعله في الحضارات، فالمدنيات تولد ثم لا تلبث بعد حين أن تندثر، ولكن روح الحضارة تتخذ ثوب أية مدنية أخرى.

هذه هي روح الحضارة التي تشربت بها مدنيات مختلفة، وأنتجت شهباً بينها من حيث التكوين. فقوما (عاد وثمرود) وشعوب الرومان واليونان والأورييون والأمريكيون في أيامنا هذه، قد اتفقوا في الأمور الجوهرية من الحضارة، إن لم نُقل في تفاصيلها. فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة بعينها، هي زاوية المصلحة المادية... والعقلية التي تسيطر في الإنسان الحديث هي نفسها لم تتغير، وإذا كان من فرق فهو فرق في السرعة والتكوين»^(١).

فماذا عن التشابه في أحوال الأمم ومواقفهم في كل جاهليات التاريخ؟ ما أساس ذلك وقاعدته؟

(١) تفسير التاريخ، لعبد الحميد صديقي، ص ٢٩، ٣٩.

أساس ذلك وقاعدته ينتظم في :

أولاً: تشابه قلوبهم وعقولهم في الكفر والجهل والإغراض.

وهذا جرّاهم على كل قببح ، وأطلق الستهم بكل زور وباطل .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ

شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ ﴾ [البقرة: ١١٣] .

هذا التقاويل بين الفريقين معطوف على قوله: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ

هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ ﴾ [البقرة: ١١١]؛ لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم ، وأن رمي المخالف لهم

بأنه ضال شينشة قديمة فيهم ، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة ... فلا

تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة .

وفي ذلك إغناء على أهل الكتاب ، وتطمين لخواطر المسلمين ، ودفع الشبهة عن

المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوآته

وثباتاً على شركهم .

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ ﴾ ؛ أي: يشبه هذا القول قول فريق

آخر غير الفريقين ... وأريد بهم مشركو العرب ... أي قالوا للمسلمين مثل مقالة

أهل الكتابين بعضهم لبعض ، واجتماع حرف التشبيه ولفظ (مثل) يفيد أن المشابهة بين

قول الذين لا يعلمون ، وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة^(١) .

ولما عرض - سبحانه - مقالة أهل الكتابين وما تضمنته من الأباطيل ، وأخبر أن

الكفرة والمشركين من هذه الأمة قد قالوا مثل إفكهم وباطلهم ... لما بيّن ذلك في هذه

الآية ، قلب الصورة في الآية الأخرى فحكى مقالة الكفرة والمشركين من هذه الأمة ، ثم

بيّن أن مَنْ قبلهم قد قالوا مثل قولهم . هذا أسلوب بديع في كشف مدى التوحد في

المنطلقات والتصورات بين هؤلاء الأقوام ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا

يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنزِيلًا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ

بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] .

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٦٧٥ ، ٦٧٧) ، بصرف سير . ودفع الشبهة معناه: رفع الغطاء الذي يتلذعون به للطنن على المسلمين ، وتبرير بقائهم على الكفر .

وهذه الآية عطف على قوله: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وِلْدَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]، المعطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى﴾ ؛ لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الضالة ... إلا أنه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبساً من الآخر، بل جميعه ناشئ من الغلو ... ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة ... وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ ؛ أي: كمثل مقاتلهم هذه قال الذين من قبلهم من الأمم ... فقد قال اليهود لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وسأل النصارى عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] ... ولهذا تكون جملة ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تقريراً؛ أي: تشابهت عقولهم في الأفن وسوء النظر^(١).

ثانياً: تشابههم في الطغيان والتكبر على الحق وأهله:

هذا من أوجه التشابه التي رصدها القرآن الكريم كأساس لتفسير ظاهرة التوحيد في مواقفهم وأقوالهم .

قال جل وعلا كاشفاً دختلهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] .

وردت هذه الآية تعقيماً على قصص الرسل المذكورة في سورة الذاريات، فهي متصلة بأخبار الأمم التي تقدم ذكرها، من قوم لوط ومن عطف عليهم^(٢)، من فرعون وقومه، وثمود وعاد وقوم نوح .

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: الأمم المذكورة في الآيات السابقة وغيرهم، وضمير

﴿قَبْلِهِمْ﴾ عائد إلى مشركي العرب الحاضرين .

وزيادة ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر أو مجنون!

والاستثناء في ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ استثناء من أحوال محذوفة ... والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي؛ لأنّ للأمم أقوالاً غير ذلك وأحوالاً أخرى، وإنما قصرنا على

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/٦٨٨ - ٦٨٩) بتصرف يسير .

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢٧/٢٠)، والظلال (٦/٣٣٨٦) .

هذا اهتماماً بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون، وأقومهم بالسحر.

وإسناد القول إلى ضمير ﴿الَّذِينَ﴾ من قبل مشركي العرب الحاضرين، إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم، فإن الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب.

﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ الاستفهام مستعمل في التعجيب من تواطئهم على هذا القول... لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه... ولأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن منشأ هذا التشابه.

و﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ إضراب عن مفاد الاستفهام... ببيان سبب التواطؤ على هذا القول، فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب. أي ماهو بتواص، ولكنه تماثل في منشأ ذلك القول، أي سبب تماثل المقالة تماثل التفكير والدواعي للمقالة^(١) (فهي جيلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين، وهو استقبال واحد للحق وللرسل، يستقبلهم به المنحرفون ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ أتوصوا به بل هم قوم طاغوت ﴿الذاريات: ٥٢، ٥٣﴾. كما يقول هؤلاء المشركون! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون! وما تواصوا بشيء، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد، تجمع بين الغابرين واللاحقين!)^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٢، ٢١).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٣٨٦).

المبحث الثالث

الإيمان مصدر القوة والطمأنينة

من السنن الربانية والحكم الإلهية ، التي هي مقتضى عدله وعنوان رحمته ولطفه ، أنه كما ميز بين الحق والباطل في ذاتهما ، فقد ميز بينهما في أثرهما في هذه الدنيا . فالحق والباطل لا يستويان ، والمؤمنون والكفار لا يستون . وكيف يستون وقد علم بالاضطرار ، وثبت بالاشتهار ما تميز به المؤمنون بالله من طمأنينة القلوب وقوتها ، ومن الأمن النفسي ، والرضا بما يقع من الأقدار ، وما يستتبع ذلك من الأخلاق والأوصاف . وما يكون في غيرهم من الكافرين والمنافقين عادة من أضداد ذلك من القلق والخوف والتسخط ، وما يستتبع ذلك من الأخلاق والأوصاف . وفي هذا المبحث أتناول أهم هذه الآثار التي عني القرآن بإبرازها ، على مستوى الأمم لا الأفراد . فالإيمان أولا :

يورث الطمأنينة في القلوب والأمن والرضا في النفوس

وطمأنينة القلوب وأمن النفوس أعظم ما يتطلع إليه البشر في هذه الدنيا ، وهو خاص بالمؤمنين ، محروم منه غيرهم ؛ لأنه شيء يكون مع الإيمان ، يوجد بوجوده ويفتقد بفقده ، ويتفاوت بتفاوته .

قال تعالى في خبر محاجة إبراهيم قومه: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ، عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١ ، ٨٢] .

والظلم هو الشرك ، ف (إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة مطلقاً ، وهو مهتد إلى الحق هداية مطلقة أيضاً ، أي أن عاقبته إلى الجنة ، وإن حصل له خوف ونقص في الاهتداء إلى الحق ، وحصل له عقوبة بسبب ذلك في الدنيا والآخرة .

وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد نفسه ، كبخله - لِحُبِّ المَالِ - ببعض الواجب هو شرك أصغر ، وحب ما يبغضه الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ، ونحو ذلك ، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار^(١) .

وقال: ﴿يَتَأْتِنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِيئِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً * فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي * وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] .

والنفس المطمئنة هي الساكنة الموقنة بموعد الله ، الراضية بقضاء الله وقدره المسلمة لأمره ... ،^(٢) وبضد ذلك النفس المشركة الضالة ، كما قال سبحانه: ﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١] .

وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ... إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه الطمأنينة وذاك الرضا وذلك الأمن النفسي الذي يتميز به المؤمنون من عاجل بشراهم ، وبشراهم في عاجلتهم .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا أَجَبَ﴾ [الرعد: ٢٨ ، ٢٩] .

كما أن فقدتها والحرمان منها هو عقوبة عاجلة يُجزى بها الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فِي هَذِهِ مَعًا فَمَنْ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] .

وتظهر آثار طمأنينة القلوب وأمن النفوس ورضاها ، تظهر عند مواجهة أحداث الحياة حلوها ومرها ، وإن كانت القلوب والنفوس مع شدائد الحياة ولأوائها أكثر انكشافاً؛ ذلك أن المصائب والحزن تقع على القلوب والنفوس ، فلا يتماسك أمامها

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف . وهو ملخص كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ، كما نُبّه إلى ذلك المصنف .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٢٠) .

ويثبت إلا القلوب المطمئنة، وتذهب أفئدة غير المؤمنين هواء... ولا يتلقاها بالرضا والتسليم، ويتحمل وقعها، ويجعلها في مصلحته، فرداً أو أمة إلا النفوس الراضية. وما سواها من النفوس فجزعة خائرة معذبة.

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

وقال سبحانه مبيناً موقف الرسل الكرام من أقوامهم المكذبين لهم، الساحرين منهم: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرِرَكَ عَلَى مَاءٍ أَذْيَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال: ﴿ وَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأَمْثَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»^(١).

هذه حال المؤمنين - في جملتهم - أفرادا وجماعات.

ويظهر لك الفرق بين المؤمنين الصادقين وبين غيرهم، ممن ضعف يقينه، أو من طوائف الكافرين والمشركين ممن حُرْم الأمن والطمأنينة؛ يظهر لك الفرق إذا تأملت النصوص التي عرضت لأحوال الفريقين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦]. وقوله: ﴿ وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ * وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩، ١٠].

وهذه حال الكافرين والمنافقين^(٢)، ثم استثنى الله المؤمنين بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة^(٣).

(١) رواه مسلم، من حديث صهيب ؓ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب: أمر المؤمن كله خير، ح (٢٩٩٩).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٦/١٢).

(٣) وقد مضى بيان ذلك في مبحث (أخذ الأمم بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك) في الفصل الثاني من هذا الباب.

وفي الحديث الصحيح عن كعب بن مالك^(١)، أحد الثلاثة الذين خُلِفُوا في غزوة تبوك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الأرزة الخامة من الزرع، تفيئها الريح؛ تصرعها مرة وتعدها أخرى، حتى قهيج. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها، لا يفيئها شيء حتى يكن انجعافها مرة واحدة - وفي رواية: وتعدها مرة حتى يأتيه أجله - ومثل المنافق مثل الأرزة المجذية التي لا يصيبها شيء»^(٢).

وإنما كان المؤمنون - دون من عداهم - راضية نفوسهم، آمنة مطمئنة قلوبهم؛ لأنهم وحدهم من بين الخلائق يمتلكون أسباب هذه الطمأنينة وهذا الأمن؛ لأنهم استجابوا لنداء الفطرة، واهتدوا إلى سرّ وجودهم في هذه الحياة، واتضح عندهم الغاية من الخلق، وعرفوا طبيعة الطريق، فرضوا عن أنفسهم وعن ربهم، ورضوا بقضائه وقدره، ولهذا فهم آمنون على آجالهم، ناجون من عذاب الحيرة والشك^(٣).

والمؤمن إذا كان مطمئن القلب آمن النفس، كان ولا بد قوياً في مواقفه، ماضياً في إرادته. وهذا هو الأثر الثاني من آثار الإيمان في أشخاص المؤمنين.

(١) أبو عبد الله السلمي، الأنصاري، الشاعر المشهور، شهد العقبة، وتخلّف عن بدر، وشهد أحداً وما بعدها، وتخلّف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيبّ عليهم، وذهب بصره في آخر حياته. قال البغوي: «بلغني أنه مات بالشام في خلافة معاوية». انظر: الإصابة (٦/٣٠٨).

(٢) رواه الشيخان، من حديث أبي هريرة وكعب بن مالك - رضي الله عنهما. انظر: الفتح (١٠/١٠٣) ح (٥٦٤٣).
ومسلم بشرح النووي (١٧/١٥١).

(٣) انظر في تفصيلها كتاب: الإيمان والحياة، للدكتور/يوسف القرضاوي.

الإيمان مصدر القوة والثبات في القلوب والأبدان

فإن أساس القوة قوة القلب، وحقيقة الثبات ثبات الجنان^(١). والقلب لا يكون قوياً ولا ثابتاً بصورة كافية إذا لم يكن مؤمناً بقوة كبرى أكبر من قوى الأرض كلها، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله وحده.

وقوة القلب تورث البدن قوة، فيتحمل هذا البدن من الأذى والبأساء والضراء أضعاف ما يتحملة غيره.

وقوة القلب تورث قوة في الحجّة، فلا يثبت أمام حجة المؤمن حجة، ولا يقاوم الحق أو يقف في وجهه شيء إلا زهق.

ومن قوة القلب والبدن واللسان، تتحقق - في عالم الواقع - الانتصارات في ميادين الحرب والسلام.

وكون الإيمان بالله هو مصدر القوة والثبات الحقيقيين ثابت باستقراء تاريخ الرسل وأتباعهم، وقد سجل القرآن من ذلك أنصع الصفحات.

سجل القرآن مواقف الأنبياء في مواجهة أقوامهم، وهم عزل من كل سند ومن كل قوة أرضية، إلا قوة الإيمان بالله، والثبات على الحق الذي آمنوا به.

قال الله تعالى: ﴿وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِتَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وقال هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنظِرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وأخبر عن قيل موسى عليه السلام، رداً على فرعون الطاغية، حين أنكر رسالته وما جاء به من الآيات: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/١٥٨).

يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿ [الإسراء: ١٠٢] ... إلى غير ذلك من المواقف التي تحاكي الرواسي قوة وثباتاً، وتشهد بأن الإيمان إذا خالط القلوب أكسبها من نوره نوراً، ومن قوته قوة، وإذا استولى على النفوس هان في سبيله كل شيء .

هذه نماذج لمواقف الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام .

وقد يقول قائل: هؤلاء أنبياء، وشأنهم غير شأن بقية المؤمنين، فهات لنا من واقع حياة أتباعهم .

وأقول: الأنبياء هم صفوة الخليقة، والواسطة بين الله وبين عباده، ولكن الإيمان الذي جعل منهم بشراً ممتازين، هو الإيمان الذي أمروا بتبليغه، وهو الإيمان الذي تلقاه عنهم أتباعهم، فلا جرم سيكون له من التأثير في هؤلاء الأتباع بقدر ما تخالط بشاشته قلوبهم، وإن كانوا سيكونون حتماً في مرتبة دون مرتبة الأنبياء .

وكما سجّل القرآن مواقف القوة والثبات للأنبياء، فكذلك سجّل لأتباعهم مواقف خالدة، متجددة ما تجدد الإيمان في القلوب .

والقرآن تارة يذكر النبي والمؤمنين معه في مشهد واحد، كما في قصة إبراهيم وقصة شعيب، عليهما الصلاة والسلام .

قال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ [المتحنة: ٤] .

وقال في شأن شعيب والذين آمنوا معه: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ * قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿ [الأعراف: ٨٨] . [٨٩]

وتارة يكون مشهد الثبات في حياة النبي، كما حصل لقوم صالح ﷺ، وللشجرة من قوم فرعون، وكما حصل لمؤمن آل فرعون، ومؤمن أصحاب القرية .

قال تعالى في شأن قوم صالح **﴿﴾** قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ آسَئَكُمْ بِرُؤُوسِهِمْ قَوْمَهُمْ لِلَّذِينَ آسَئَضَعُوا لِئَمَّا آمَنَ مِنْهُمْ آتَمَلُّوكَ أَنْتَ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ آسَئَكُمْ بِرُؤُوسِهِمْ آتَمَلُّوكَ بِهِمْ كُفْرُوكَ **﴿﴾** [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال عن السحرة أنهم قالوا لفرعون بعدما تبين لهم الحق الذي جاء به موسى **﴿﴾** فَاتَّبِعُوهُ وَآمَنُوا بِهِ: **﴿﴾** لَنْ نُؤْمِنَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَتِيَّةِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى **﴿﴾** [طه: ٧٢، ٧٣]. وذلك بعد أن هددهم بقوله: **﴿﴾** ءَأَمِنْتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى **﴿﴾** [طه: ٧١].

وقد عرض القرآن موقف السحرة البطولي في مواضع عديدة، بأكثر من أسلوب . وجاءت قصة مؤمن آل فرعون مبينة مفصلة في سورة المؤمن، وكان مما قال لفرعون وقومه: **﴿﴾** أَنْتُمْ لَكُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ **﴿﴾** [غافر: ٢٨]. **﴿﴾** وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَنْقُومُ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ **﴿﴾** [غافر: ٣٨]. وقال: **﴿﴾** وَيَنْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ **﴿﴾** [غافر: ٤١]. وقال: **﴿﴾** لَا جُورَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ **﴿﴾** [غافر: ٤٣، ٤٤].

ولما ذكر - جلّ وعلا - موقف أهل القرية المعتنتين من رسلهم، أعقبه بموقف الاستجابة الرائع، ومشهد القوة في الحق، على لسان رجل منهم، هو بقيتهم .

قال تعالى: **﴿﴾** وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ **﴿﴾** [الآيات، إلى قوله: **﴿﴾** وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ آتِيْعُوا الْمُرْسَلِينَ * آتِيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمُ

أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنْ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ *
إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿ [يس: ١٣ - ٢٥] .

وفي أحيان أخر يذكر القرآن قصص البطولة ومشاهد القوة والثبات على الإيمان
لاتباع الأنبياء المؤمنين بهم ، بعد ذهاب أولئك الأنبياء .

وقصة الفتية ، أصحاب الكهف ، وأصحاب الأخدود من شواهد ذلك .

قال تعالى: ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَأَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنَاهُمْ هُدًى *
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَقَدْ
قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَبْتَدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿ [الكهف: ١٣ - ١٦] .

وسطر القرآن بأحرف من نور موقف القلة المؤمنة في وجه طغاة الروم ، أصحاب
الأخدود ، حيث استعلى الإيمان في قلوب القلة على أشد ألوان الإرهاب والتعذيب
الجسدي ، سطرها في سورة تتلى إلى ما شاء الله .

قال تعالى: ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ * إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا قُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿ [البروج: ٤ - ١١] .

وإذا كان الإيمان بالله بمعناه الشرعي ، هو المصدر الحقيقي لقوة القلب ، الذي تنشأ
عنه بالتالي كل مظاهر القوة والثبات في عالم الواقع ، كما تبين لنا ذلك فيما سبق .

وإذا كانت الأمثلة السابقة سبقت - فيما سبقت له - لغرض إيضاح: كيف أن الإيمان
كان وراء هذه القوة وهذا الثبات في مواقف المؤمنين في ميادين الدعوة والجهاد بالكلمة ،
برغم قلتهم وضعف مكانتهم بالمقاييس المادية .

إذا كان ذلك كذلك ، فقد تسأل عن أثر الإيمان في قوة المؤمنين وثباتهم في ميادين القتال والنزال بالسيف .

والجواب: أن القلوب إذا ثبتت ، وقويت إرادتها ، ثبتت الأقدام والأجسام ، واشتدت سواعدها ، فهذه من تلك .

ولن أفصل في هذه النقطة ، فقد مضى تفصيلها في مبحث (النصر والهزيمة) ، ولكن أشير هاهنا إلى بعض الأمثلة باختصار .

انهزم ضعفاء الإيمان من جنود طالوت ، وقالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ، وثبت الذين بلغ إيمانهم بالله وبلغ اليقين ، وقالوا بلهجة الواثق: ﴿ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ... الآيات ، إلى قوله سبحانه مبيناً نتيجة المعركة: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١] الآية .

وجئ قوم موسى ﷺ أن يدخلوا الأرض المقدسة و﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [المائدة: ٢٢] . لكن ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] .

ولهذا - والله أعلم - كان المؤمن الصابر من هذه الأمة يغلب اثنين ، وكان في أول الإسلام يغلب عشرة ، كما جاء مفصلاً في سورة الأنفال^(١) .

ولمَّا ضعف إيماننا - نحن المسلمين - بديننا ، واهترت ثقتنا بموعود ربنا ، أصبح «العدد الكبير منا ينكسر قدام اليسير من العدو ... وذلك بما كسبت أيدينا ... فالأعمال فاسدة ... والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ... بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه ؛ لظهور الفساد وكثرة الطغيان وقلة الرشاد ، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً ، براً وبحراً ، وعمت الفتن وعظمت الحن ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم»^(٢) .

(١) في الآيتين ٦٥ ، ٦٦ منها .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (٣/ ٢٥٥) بتصرف يسير .

وحيث إن قوة القلب تكون باجتماع همه ، وتوحد وجهته ، وسلامته من الحيرة والقلق ، واطمئنانه إلى ما بين يديه وما خلفه . . . كان قلب المؤمن بالله هو القوي بلا منازع ، وكان قلب المنافق أضعف القلوب ، حتى من قلب الكافر ؛ لأن فيه من أسباب الضعف فوق ما في قلب الكافر .

وكان قلب الكافر بينهما ؛ لأنه بينهما كذلك في الأسباب المقتضية للقوة والضعف . وأنت إذا تأملت مواقف الفئات الثلاث ، وجدتها من حيث الثبات والقوة على تلك القسمة ، سواء بسواء ، والله تعالى أعلم .

المبحث الرابع

سنة الله في الملأ وأتباعهم

أو دراسة للعلاقة بين القلة والكثرة

في كل أمة من الأمم بلا استثناء، توجد طوائف من ذوي السلطان والجاه والثروة. وهم (قلة) لهم مصالح مشتركة يجتمعون حولها، ويتمثلون من أجلها، وهي مؤسسة - في الغالب - ضد مبادئ العدالة ومصالح الأكثرية (الأمة)، بل لتسخير الأكثرية في بناء مجد (الأقلية) وتثبيت سلطانها، ومضاعفة ثروتها، ولهذا فقلماً تتفق مصالح القلة والكثرة، بل لا تكاد تتفق.

ولما تمتع به هذه القلة من مزايا وإمكانات، فإن الأكثرية (الأمة) عبر التاريخ - إلا قليلاً - تسمع وتطيع - رغبة أو رهبة أو سداجة - لكل نصيحة وأمر، ولكل توجه وتوجيه، وكثيراً ما دافعت بحماس عن مصالح هذه القلة، ووقفت معها حتى النهاية في مواجهة أعداء القلة، أي كانوا دون تمييز.

تلك باختصار هي قصة الملأ والأتباع، قصة الذين استكبروا والذين استضعفوا. وهي ظاهرة تتكرر؛ لأنها سنة إلهية، باستقراء الواقع وشهادة القرآن، كما سيتضح ذلك عما قليل.

وهذه السنة بحاجة إلى دراسة وتحلية؛ لمعرفة طبيعة الملأ وكشف أساليبهم، ولماذا تنخدع بهم الجماهير في كل أمة. وأهم من ذلك كله: معرفة مواقفهم من الحق وأهله. وفي القرآن الكريم أضواء كاشفة لجوانب هذه السنة، وإشارات إلى حقائق ودقائق، تؤلف بمجموعها صورة معبرة عنها أصدق تعبير.

وهذه السنة ذات فروع ومتعلقات، واستيعابها يستدعي تطويراً لا يتناسب وطبيعة هذا المبحث. والغرض إنما هو التنبيه والإشارة، فلا تتجاوز ذلك.

ولا بد قبل الخوض في التفاصيل، من معرفة معنى (الملأ) في لغة العرب، وفي كتاب الله تعالى، وليبيان ذلك أقول:

(الملا) في لغة العرب: الجماعة يجتمعون على رأي فيملثون العيون رواءً، والنفوس جلالاً وبهاءً^(١).

والمالأة على الشيء: المعاونة عليه ليكون معه . تقول: مالأته؛ أي عاونته وصرت من ملئه أي جمعه، نحو: شايعته أي صرت من شيعته^(٢)، يستوي في ذلك أن يكون الأمر أو الرأي المجتمع عليه خيراً أو شراً.

وفي القرآن الكريم وردت كلمة (الملا) مراداً بها ملا الخير في ثلاثة مواضع فقط:

في قصة سليمان ﷺ مع ملكة سبأ في سورة النمل: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وفي خبر الملا الأعلى: «السموات ومن فيها من الملائكة»^(٣)؛ وذلك فيما يتعلق بحراسة السماء من الشياطين أن يسترقوا السمع: ﴿إِنَّا نَرَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصفات: ٦ - ٨].

وفي اختصاصهم في شأن آدم ﷺ وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَا أَنذِيرُ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة ص: ٦٧ - ٧٠]... الآيات.

وما عدا هذه المواضع، فكل سياق ورد فيه ذكر الملا فملاً الشر والكفر والضلال، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاللَّهُ يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَالنَّوْءِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]. وقوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]... إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة، وسيأتي ذكر طائفة منها بإذن الله.

ولكثرة ورود كلمة (الملا) مراداً بها ملا الكفر والضلال، أصبحت تكاد تكون علماً عليهم بالغلبة، فلا يكاد الذهن ينصرف عند سماعها إلا إليهم. وهؤلاء هم الذين سأتناول أخبارهم، وأعرض لأحوالهم وأوصافهم بشيء من التفصيل.

(١) مفردات الراغب، مادة (ملا).

(٢) مفردات الراغب، مادة (ملا).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٤).

ولنبداً أولاً التعرف على أخص أوصاف الملائكة.
ولعل الكبر والتّرف من أخص أوصافهم.

أمّا الكبر: فقد قال تعالى عن الملائكة من قوم صالح: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ آتُوا صَالِحًا فَمِنْهُمْ مَنْ رَفِيَءٌ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال عن الملائكة من قوم شعيب: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلِيَّتًا ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال عن فرعون وملئه: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

والقرآن كما نعتهم بالاستكبار في الدنيا، فقد جعله وصفاً ملازماً لهم هناك في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحٰجَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ [غافر: ٤٧]... الآيات.

وقال: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ [إبراهيم: ٢١]... إلى غير ذلك من الآيات.

فهم في الدنيا يمارسون وظيفة الإضلال والمخادعة والمجادلة بالباطل، وفي الآخرة يتبرؤون من كل جرائمهم التي اقترفوها في حق الأمة.

والكبر معناه: بَطْر الحق وغمط الناس، كما فسّره بذلك النبي ﷺ فيما صحّ عنه من حديث عبد الله بن مسعود^(١)، عند مسلم وغيره^(٢).

وبطّر الحق: رده، وغمط الناس: احتقارهم^(٣). وعن هذين تنشأ ردائل كثيرة،

(١) ابن غافل بن حبيب، أبو عبد الرحمن، المهاجري البصري، الإمام الحبر، فقيه الأمة، كان من أذكى العلماء ومن السابقين الأولين، هاجر المهجرتين، وكان هو وأمه كأنهم من أهل بيت الرسول ﷺ؛ لكثرة دخولهم عليهم، وكان يوم البرموك على النفل، وكان يُعَرَّفُ بأمه أيضاً، فيقال: ابن أم عبد. توفي سنة (٣٢٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤٦١/١).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٢٨٩).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٢٨٩).

أهمها: التكذيب والاستهزاء والظلم واستعباد الناس .

وأما الترف فوصف ملازم للملأ ، وربما وُصفوا به صراحة ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتَرْفَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٣] .
والأكثر ذكر المترفين بأوصافهم الدالة على أنهم هم الملأ ، كالتحدث باسم الجماهير ، والتسلط ، ورعاية الفسق والفساد في الممالك والقرى .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤] . وفي آية أخرى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ عِلْقٍ مِّمَّا وَءَابَاءُ عَلَيْنَا وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] . وقال: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] .

وعن الترف تنشأ مجموعة من المفاسد الخلقية والاجتماعية ، ومن رَجِيمِ تُؤَلَّدُ الطبقية .

وأحياناً تصدر توجيهات وأقويل غير منسوبة إلى جهة معينة ، لكن هي من جنس ما يحترفه الملأ من التضليل .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا نَيِّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ ﴾ [سبأ: ٤٣] .

وقد تسأل عن (الكفر) ذلك الذنب العظيم والمنكر الأكبر ، ليس من صفاتهم؟!
فأقول: بلى ، هو من صفاتهم في الجملة ، لكنه يكون فيهم وفي الأكثرية التابعة لهم ، فهو من الأوصاف المشتركة . كما أنه - أعني الكفر - ليس وصفاً ملازماً للملأ ، ملازمة الأوصاف الأخر كالكبر والترف ، الذي يوجد - عادة - في أرباب المال والجاه والسلطان حتى في الأمم التي تدين بالأديان السماوية . والملأ موجودون في كل أمة بلا استثناء ، كما أسلفت .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤ ، ٣٥] .

وأكثر ما جاء ذكرهم في القرآن في أخبار بني إسرائيل ، وهم أشبه الأمم بهذه الأمة .

والآن، بعد أن عرفنا معنى الملائ، ووقفنا على أخص صفاتهم المميزة لهم؛ كالكبر والترف وما ينتج عن كل منهما من الفساد، نخطو بعد ذلك لنلتقي بالملائ وجهاً لوجه، وهم يمارسون وظيفتهم المفضلة! وهي وظيفة ذات شقين:

الأول: مواجهة الحق وأهله والتصدي لهم، والجدال بالباطل.

والثاني: تضليل الأمة، والتصدر باسمها، وقيادتها إلى الهاوية، والتلاعب بمقدراتها.

فما هي وسائل الملائ في هذه المواجهة المزدوجة؟ وما أساليبهم في ذلك؟

يمكن القول بادئ بدء: أن مركز القلّة (الملائ) في كل أمة محفوف بمخاطر:

الأول: يتمثل في الحق، وهو المنهج الإلهي، وفي حَمَلَة هذا المنهج من الأنبياء والرسل

- عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم. وهذا هو الخطر الأهم والأكبر في نظرهم. وهو

متضمن للخطر الثاني: يقظة الأمة ووعيها، وتحركها لاستعادة حقوقها، ووضع القلّة في

موضعها الطبيعي.

والأول مستلزم للثاني إذا كان التدين صحيحاً.

والثاني يمثل خطراً نسبياً على القلّة؛ لأنّ الوعي إذا لم يكن مؤسساً على هدي

المنهج الإلهي، فإنه قد يكون وسيلة لانتقال الأمة من قبضة هؤلاء الملائ إلى قبضة ملا

آخرين؛ قد يكونون مثلهم أو شرأ منهم!. لكن لكثرتهم في واقع العالم، من جهة،

ولفساد حال أغلب المتدينين.. لهذا وذاك كاد الميزان أن ينقلب في أيدي الناس؛ إذ

أصبحوا لا يرون في التدين وأهله فرصاً لنيل الحقوق. في حين انتزعت أمم وشعوب

كثيرة حقوقها المدنية بعيداً عن وصاية الدين!. وهذا من أبواب الفتنة، التي لم يتفطن لها

إلا قليلون.

مع أنه يستحيل أن ينتقل الناس في ظل غير المنهج الإلهي الحق إلى وضع تزول به

الامتيازات والاستغلال، مهما كان نوع الملائ واسمهم.

ولهذا يوازن الملائ في فترات يقظة الشعوب لارتكاب أخف المفسدين عليهم؛ فإذا

كان لا بد من يقظة للأمة، فلتكن يقظة جاهلية! معادية للحق.

ولمواجهة هذين الخطرين، لا بد للملائ من ممارسة مهمّة المواجهة والتضليل في آن

واحد.

وهم يمارسون هذه المواجهة وهذا التضليل تارة بصورة مكشوفة، وتارة بصورة

ملتوية، وأحياناً بسرّية وبصفة خاصة، حسبما يقتضيه المقام.

وقد سجّل القرآن الكريم ذلك كله بصورة معبرة، تكشف عن حقيقتهم، وتعريّ زيفهم. وسأعرض - فيما يلي - لأهم تلك الصور والأساليب والمواقف.

* الملائكة في مواجهة الرسل وأتباعهم:

هذه هي أولى المهام والصقها بالملائكة. وتاريخهم في التكذيب والسخرية، والإرهاب والتنكيل وما شابه ذلك، مشهور، بل هو جزء لا يتجزأ من سيرتهم.

ولهم في مواجهة الرسل وأتباعهم أساليب ووسائل، تفتتت عنها عقولهم العفنة ونفوسهم الشريرة. ومن هذه الوسائل والأساليب:

— اتهام الرسل وأتباعهم في أشخاصهم: وهي تُهمّ شتى متشابهة، بل متماثلة. أملاها عليهم الطغيان، فهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، حتى لكأنما تواصلوا بها.

وقد سجّلها عليهم القرآن، وبين التوقيت الذي يطلقون فيه التهم المثيرة للسخرية، والتي لم تكن معروفة في أشخاص هؤلاء الأنبياء والدعاة والمصلحين من قبل أن يكونوا دعاة إلى الله، هداة إليه!

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * أَنْتَوَا صَوَابٌ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقالوا عن الملائكة من قوم نوح أنهم قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. وقال عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِدِعْتِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال الملائكة من قوم هود هود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وقالوا - أو قالت - ثمود قوم صالح لنبيهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] (١).

وقال قوم صالح: ﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]. وقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

وقال قوم شعيب لشعيب، يسخرون منه عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٥).

وقال فرعون لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]... والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة . وكلها - كما نرى - تُهمّ جاهزة معلبة ، وُصفوا بها بعدما زكاهم الله بالوحي ، وشرفهم بالرسالة !
* ومن صور مواجهة الملأ للحق وأهله :

التشنيع على الرسل وعلى أتباعهم والخط من أقدارهم والتهوين من شأنهم ، والسخرية المُرّة بهم ؛ لتفسير الناس منهم ، ومن الدين الحق الذي يدعون إليه ؛ لأنّ تحشيدهم الناس على الإيمان بالله ، ومبادأة أقوامهم بما لا عهد لهم به من الحق والهدى ، يشكل تهديداً مباشراً لزعامة الملأ وسلطانهم المزيّف .

وقد حكى الله - تعالى - من ذلك صوراً ومشاهد :

منها: ما تفوّه به قوم نوح في حق نبيهم نوح ﷺ ومن آمن معه في أكثر من موضع ، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنَاكِ بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكَ مِن قَوْمٍ عَالِمِينَ مِن فَضْلِ بَلِّ نَطْنُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] . وقوله عنهم: ﴿قَالُوا أَنزَلْنَاكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] .

وقال قوم لوط ساخرين من لوط ﷺ ومن آمن معه ؛ من طهرهم وعفاهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]!

وفرعون الطاغية يقول عن كليم الله موسى ﷺ والمؤمنين معه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] . والشردمة: جماعة منقطعة ، وهو من قولهم: ثوب شراذم أي متقطع ^(١) .

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءَ مَن آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] .

(١) مفردات الراغب ، مادة (شردم) .

بل إنهم ينسبون إليهم كل أدى يقع بهم أو يتوقعون حصوله ، وأن ذلك بسببهم . وهذا غاية اللؤم والدناءة ، ومنتهى التنقص والسخرية .

فهذا نبي الله صالح ﷺ يقول لقومه مذكراً وواعظاً ، بأسلوب لطيف رقيق : ﴿يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] .

فماذا كان جواب قومه؟

﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧] ؛ أي: أصابنا الشؤم بسببك ومن آمن معك!

وبمثل هذا الجواب أجاب أصحاب القرية أنبياءهم المرسلين إليهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] .

وقال تعالى مبيناً حال فرعون ومن معه ، كيف كانوا يتطيرون بموسى ومن معه ، كلما أصابتهم سيئة: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]!

وقال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْمُدَيِّ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧] .

وكان حالهم كحال قوم موسى ، أنهم: ﴿إِنْ تُصِيبُنَا حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨] .

* ومن أساليبهم ووسائلهم في مواجهة الحق وأهله:

الإرهاب الجسدي، وحرب التجويع، ومصادرة الممتلكات، والإخراج من الديار . ويلجأ الملاً إلى هذه الوسائل - في الغالب - حينما يرون إصرار أهل الحق على مبادئهم ، ويفشلون في احتوائهم ودرء خطرهم .

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلِ هُمْ لِنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] . وقال عن قوم نوح أنهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ بِنَحْنُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] .

وكان من كيد قوم صالح ﷺ ما قصه الله بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]. والتبئيت: الفعل يدبر بالليل. والمعنى: تحالفوا^(١) ليفعلن ذلك.

أمّا قوم شعيب، فقد ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. و﴿قَالُوا يَنْدَشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وقال سبحانه عن الملأ من قوم إبراهيم الخليل ﷺ، أنهم ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

قال ابن عاشور عند هذه الآية: «لما غلبهم بالحجة القاهرة، لم يجدوا مخلصاً إلا بهلاكه، وكذلك المبطل إذا قرعت باطله حجة فساده غضب على الحق، ولم يبق له مفرج إلا مناصبته والتشفي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. واختار قوم إبراهيم أن يكون هلاكه بالإحراق؛ لأن النار أهول ما يعاقب به وأفظعه. والتحريق: مبالغة في الحرق، أي: حرقاً متلفاً. وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم؛ لأنهم قبلوا هذا القول، وإن كان النمرود هو الذي أمر بإحراقه، لأن الأمر بإتلاف النفوس لا يملكه إلا ولاة أمور الأقسام^(٢).

وقال عن قوم لوط أنهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ بِنَلُوطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وسجن يوسف ﷺ بعدما ظهرت أدلة براءته: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لَيْسَ جُنْحُنُهُمْ هَٰذَا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]^(٣)؛ لأنه سيكون له بعد خروجه من السجن شأن، ويلتف الناس حوله!

(١) مفردات الراغب، مادة (بئيت). وتفسير ابن كثير (٣/٣٧٦).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٧/١٠٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٧٧).

وتهدّد الملاً؛ فرعون وقومه موسى ﷺ بالسجن، واتمروا به ليقتلوه. قال تعالى حاكياً قولة فرعون لموسى: ﴿لَئِن أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى ابْنَ الْمَلَأِ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

ومرّ قريياً خبر أصحاب القرية، وما أوعدوا به رسلهم من رجهم وتعذيبهم. ومن هذا الباب ما جرى لأصحاب الأخدود من التحريق بالنار، عقاباً لهم على إيمانهم بالله رب الغلام! وكيف يقتل قوم يقولون: ربنا الله!؟ لولا أنه الطغيان والجبروت.

وقال تعالى عن بني إسرائيل، مصوراً حالهم السيئة مع رسلهم الكرام: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]؟ وقال الله عن المنافقين أنهم: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُسِفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧]. ويقولون: ﴿لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] (١).

وكان هذا الذي يقع للأبياء وأتباعهم من الأذى القولي والفعلية من الملاً المتنفذين، كان معلوماً أنه لا بد أن يقع كلما وجد سببه، كما قال تعالى عن أصحاب الكهف، يخذر بعضهم بعضاً قومهم: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرَّجُومَكُمُ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، أن ورقة بن نوفل (٢) قال لرسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْمُخْرِجِي هُمْ؟ قَالَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٩٦).

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة أخي أبيها، كان قبيل مبعث النبي ﷺ قد تنصّر، وكان يكتب الكتاب العربي والعبراني، وكان أحد الحفباء. عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُسَبِّهُوا وَرَقَةَ، فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ». أسنده الحافظ ابن كثير عن أبي بكر البزار وابن عساكر، وقال: هذا إسناد جيد، وروي مرسلًا، وهو أشبه. انظر: البداية والنهاية (٩/٣).

نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَصْرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا»^(١).

وهذه الأساليب التي سبق عرض نماذج منها، هي من باب التخويف والإرهاب .
ويقابلة أسلوب الترغيب والاحتواء .

ونحن إذا استعرضنا نصوص القرآن، لم نجد لهذا الأخير حضوراً في وسائل الملاءمة الكيدية، إذا ما قورن بأسلوب التهيب . وإن كان الملاءمة قد يضطرون إليه - أحياناً - فيلوحون به، ليزيدوا من ولاء أتباعهم لهم، وليظهروا بمظهر المنصفين لخصومهم، المنطقيين في مطالبهم .

ومن أمثلة أسلوب الترغيب والاحتواء: موقف فرعون مع مطالب السحرة من وعدهم بالتقريب والحظوة لديه .. وهذا تنزل كان فرعون مجبراً عليه، فالوقت ضيق، والمواجهة خطيرة ونتائجها مصيرية .

ومنه: ما صنعت قريش مع رسول الله ﷺ في عروضها المختلفة: «إن شئت الملك... وإن شئت المال... وإن شئت زوجة»، ولما لم تغن هذه العروض شيئاً، جاءوا من باب آخر: «يا محمد، تعبد ألهتنا سنة ونعبد إلهك سنة...» .
وهذا - والله أعلم - دليل على أن المؤمنين في الأمم السابقة كانوا قلة مستضعفين، فلا حاجة إلى مصانعتهم ومداراتهم .

هذه إشارات إلى بعض أساليبهم في مواجهة الحق وأهله . وهناك أساليب ووسائل أخرى سيأتي ذكر بعضها في ثنايا الحديث عن المهمة الأخرى والوظيفة الثانية التي يمارسها الملاءمة، وهي:

ما يتعلق بالاتباع، وهم عموم الأمة، وهم الأكثرية... من التضليل والاستعباد والاستغلال، وهي مهمة متشعبة تؤدي وظيفة مزدوجة .

ويستغل الملاءمة بطريقة ذكية حاجة الجماهير وجهلهم وثقتهم، ويخاطبون عواطفهم وغرائزهم، ويلوِّحون لهم بأنهم حراس على مصالحهم، وأنهم يتحدثون باسمهم... إلى آخر ما هنالك من الأساليب والوسائل، وسيمر بك - أيها الأخ القارئ - شيء منها .

(١) فتح الباري (١/٣٠)، ح رقم (٣) . وصحيح مسلم بشرح النووي (٢/٢٠٧) .

ولا ينسى الملا في أثناء ذلك ، أن يشنوا على ذواتهم ، تلميحاً أو تصريحاً ، ويلوحوا بما في حوزتهم من إمكانات مادية لا توجد عند خصومهم ، كما سيأتي بيان ذلك . ولنبدأ الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل .

* فمن أساليبهم في ذلك: التخطيط والتشاور للخروج بأسلوب ورأي موحد في مواجهة الحق وأهله.

وبعبارة أخرى: توحيد الرأي والكلمة ؛ لئلا يكون اختلافهم سبباً في تضعف موقف أتباعهم منهم ، مما قد يؤدي إلى تفرقهم من حولهم .
يشهد لهذا الأسلوب ، أمورٌ ، منها: أسلوب الخطاب بالجمع ، حينما ينطق القرآن برأي الملا في قضية من القضايا التي كثيراً ما تدور بينهم ، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن .

منها: قوله تعالى عن الرهط المفسدين من قوم صالح: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل: ٤٩] .

وقوله عن الملا من قوم فرعون: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١٢] . فلما أجمعوا أمرهم ، بدأ التنفيذ ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِيلِيقَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلْنَا نَبْنِي السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٨ - ٤٠] . وُني (جُمع) و (قيل) للمفعول لعدم تعيين جامعين وقائلين . أي: جمع من جمع ، وقال قائلون . وقوله: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ؟ استحثاث وحض للناس إلى الاجتماع ، فالاستفهام مستعمل في طلب الإسراع ، بحيث نزلوا منزلة من يسأل سؤوالاً ، تحقيقاً عن عزمه على الاجتماع ، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] ؟

ورجوا أتباع السحرة ؛ أي: أتباع ما يؤيده سحر السحرة ، وهو إبطال دين ما جاء به موسى ، فكان قوله: ﴿ لَعَلْنَا نَبْنِي السَّحَرَةَ ﴾ كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه ، وليس المقصود أن يصير السحرة أئمة لهم ؛ لأن فرعون هو المُتَّبِع (١) .

وَأَصْرَحُ مِنْهُ، مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ - جَل وَعَلَا - عَنِ الْمَلَأِ مِنْ قَرِيشٍ: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [سورة ص: ٦].

قال القاسمي عند تفسير هذه الآية: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية، ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين: ﴿إِنْ آمَسُوا﴾؛ أي في طريق آبائكم ﴿وَأَصِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ﴾؛ أي: عبادتها، مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيدها مزامعنا^(١).

وهذا التواصي بالصبر على آهنتهم، أثمر صبراً حقيقياً، كان هو الحائل بينهم وبين الاستجابة لأمر الله تبارك وتعالى، والاتباع لرسوله ﷺ، كما حكى الله ذلك عنهم في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا هُزُوا أَلَّذِي أَلَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢]^(٢).

* ومن أساليبهم في تضليل الأمة واستغفالها:

الظهور بمظهر الناصحين المنصفين المتجردين من حظوظهم الشخصية، المدافعين عن حقوق الأمة. وهذا من شدة مكرهم ودجلهم، فإن أحوالهم على الضد من ذلك. ومن تأمل نصوص القرآن، لم يلبس عليه الأمر طرفة عين. وإليك نماذج من نصحتهم وإنصافهم! ومثلاً من تجردهم، وصوراً من دفاعهم عن قضايا الأمة!

قال تعالى حاكياً إنصاف الملأ من قوم هود، وتجردهم في البحث عن الحق: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].
إلهم يبحثون عن الحق، ولهذا فلن يتركوا آهنتهم لمجرد دعوى لا دليل عليها، ولا بيعة ولا برهان يسندها! إنه منهج علمي في الثبوت والتحري!
وكذبوا! فإنه قد جاءتهم بينات وآيات قاطعات، فجددوا بها، قال سبحانه:
﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]^(٣).

(١) تفسير القاسمي (١٤/١٤٥، ١٤٦).

(٢) انظر: أضواء البيان (٦/٣٢٩).

(٣) انظر: تفسير المنار (١٢/١١٩).

ولكنها المتاجرة بالشعارات ، والدجل على الجماهير والدهماء .
وقال الملا من قوم هود أو قوم صالح^(١) ناصحين قومهم محذرين إياهم مغبة أتباع
نبيهم: ﴿ وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمُ إِتَّكُمُ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٤] . وأي عاقل يرضى
بالخسران ؟

أما هم ، أمّا الملا ، فلا مانع من طاعتهم واتباعهم ولو كانوا بشرًا مثلهم!
أما فرعون ، فقد بزّ أقرانه ، وسجّل القرآن له عدة مواقف ، تدور بين النصيح
والتحريي ؛ بغية الوصول إلى الحق!

منها: ما ذكره - جل وعلا - عنه في قوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ
رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]!

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]! فهل هناك أعجب من أن يقول
فرعون الضّالّ الوثني عن موسى كليم الله ورسوله ﷺ هذه المقالة؟!
أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد ، عن كل داعية مُصلِح؟!
أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر بوجه الإيمان الهادي؟!
إنه منطوق واحد يتكرر ، كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح
والظغيان ، على توالي الزمان واختلاف المكان .
والقصة قديمة مكررة ، تعرض بين الحين والحين^(٢) .

ومنها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] . وصدق في قوله: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ . ولكن ما الذي رأى؟
رأى أن يستخفّ قومه فيتبعوه ، ليقم بهم رياسته ، ولم ير الحق معه ، بل رأى الحق مع
موسى فجحد به مستيقناً له . وكذب في قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ . فإن هذا
قلبٌ للحقّ ، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله ، لكان الشرّ أهون .
ولكنه أمرهم باتباعه ، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق ، وفي اتباع الحق اتباع الضلال^(٣) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٤٥) .

(٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٧٨) .

(٣) تفسير السعدي (٦/٥٢٥) .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كُذَّابًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

«وبعيد عن الاحتمال، أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه، وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى، على هذا النحو المادي الساذج. إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى»^(١).

* ومن أساليبيهم وطرائقهم في المكر والتضليل: أنهم يستغلون الدين الموروث والمعتقد السائد لتحريك الجماهير وضرب الدين الصحيح.

وباختصار: يوظف الملام الدين لصالح قضيتهم في مواجهة المصلحين؛ ذلك أن للمعتقدات - بغض النظر عن كونها صحيحة أو محرقة أو باطلة - شأناً أي شأن في قلوب الناس وعواطفهم، وفي النفوس والأفئدة حاجة فطرية، وفقر طبعي إلى العبودية «ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده، فلا بد أن يكون عابداً لغيره، يعبد غيره فيكون مشركاً. وليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحد أو مشرك، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل. وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء»^(٢) أو الصالحين أو غيرهم من سائر المعبودات.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصِدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

والملا يستجيشون - عند الحاجة - هذه العواطف الدينية، فتهدب الأكرية على هذا النداء، عمياء صماء، غافلة عن المؤامرة التي تنفذ باسمها، ضد مصلحتها. وللملا في هذا الباب - أعني توظيف الدين لمصالحهم - طرائق وحيل لا تكاد تنتهي، وإليك بعض هذه الأساليب والحيل التي سجلها عليهم القرآن.

هؤلاء قوم نوح، لما أبلغ نوح عليه السلام في دعوتهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولم يجد فيهم استعداداً لقبول الحق الذي معه... شكاً إلى ربه ما لقي منهم، وكشف عن السبب الذي حال بينهم وبين أتباعه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ رَجُلًا وَعَشِيرَتِي لِيَتَّبِعُنِي وَكَشَفُوا عَنْ سَبَبِي وَأَعَانُوا عَلَى كُفْرِي وَكَلَّمْتُ النَّاسَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُتَّقِيَكَ فِئْتَانًا مِنْ نَحْوِي يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [نوح: ١٠٤].

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨٢)، بتصرف يسير.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/٢٨٢، ٢٨٣).

مَنْ لَزِزْتَهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا لَاحْسَارًا * وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كِبَارًا * وَقَالُوا لَا نَنْزُرُكَ الْهَيْكَلُ وَلَا نَنْزُرُكَ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿ [نوح: ٢١ - ٢٤].

فحضر الملائة أتباعهم على التمسك بأهنتهم وعبادتها والدفاع عنها عموماً، وخصوصاً منها آلهة بعينها؛ لِمَا لها من مكانة خاصة في نفوسهم، وكل ذلك كان مكرراً منهم بأتباعهم، بل أكبر المكر^(١)!

وهذا النمرد وملؤه، لما غلبهم إبراهيم الخليل ﷺ بحجته، وأزهق باطلهم، وخافوا على مكانتهم في قومهم، لجثوا إلى السلاح الفعّال، فالتقوا في روع الناس أن إبراهيم يسخر من دينكم، ويسفه ما كان عليه آبؤكم، ويتهدد أهنتكم، فإن كان لكم في شيء من ذلك حاجة فافعلوا ما نأمركم به! فأصاحت الجماهير وتأهبت لفعل ما تؤمر به.. ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْهَيْكَلُ إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿ [الأنبياء: ٦٨]؛ أي: ﴿ إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾ النصر للآلهة فافعلوا ما نأمركم به من إتلاف عدوها. وهذا تحريض وتلهيب لحميتهم^(٢).

وفي آية أخرى: ﴿ قَالُوا اتَّبِعُوا لَهْبَنِينَ، لَقَوْمٍ أَشْقَىٰ مِنْكُمْ، لَا يَدْعُونَ بَدِينَ الْآبَاءِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الصافات: ٩٧].

ومن مكر الملائة: أنهم لا يفتأون يُذَكِّرون بدين الآباء، وأنه حق، وأن كل من عارضه أو انتقص منه تجب محاربتة والوقوف في وجهه؛ لأنه مخالف لما عليه الآباء.

قال تعالى عن الملائة من قوم نوح: ﴿ قَالِ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وقال قوم شعيب له، لما أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم أن ينقصوا المكيال والميزان، وحذرهم عاقبة ذلك: ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْأَلُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ [هود: ٨٧]!

وقال عن كفار قريش: ﴿ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمُ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ ﴾ [سبا: ٤٣].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٢٦).

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١٧/١٠٦).

* ومن القضايا الهامة التي يدعو إليها الأنبياء: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت. ويستغل الملاء غرابة هذه القضية، واستعداد النفوس الغافلة لإنكارها، فيجعلون منها وسيلة تشويه للدين والمعتقد الجديد، ولمن يحمله .

قال تعالى حاكياً مقالة الملاء من قوم هود أو قوم صالح لأتباعهم: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظْماً أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ * هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨] . وقال: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُونَ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] . . . والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة .

والأخطر من ذلك كله: أن الملاء يذهبون في تنفير الناس من الدعوة الجديدة، ومن شخص الداعي مذهباً أبعد؛ إذ يصورون الأنبياء والدعاة إلى الحق، أنهم ذوو مطامع، وطلاب سيادة ومُلك، وليسوا من المصلحين في شيء . ويهيون بالأمة أن توقف هؤلاء عند حدّهم!

قال تعالى حاكياً مكرهم، بدءً من قوم نوح، الذين ما إن فرغ نوح ﷺ من دعوتهم إلى ربهم، حتى ابتدروه بتهمة حب الترفع وشهوة التعاضم . وهذا شيء من مثله لا يُقبل!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤] . ومعنى ﴿يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾: يسودكم ويشرف عليكم، بأن يكون متبوعاً وأنتم له تبع^(١) .

أما الملاء فلا مانع أن يكونوا أسياداً متفضلين، يستعبدون الناس وترفعون عليهم! وظاهر أن في مقالة الملاء هذه وأمثالها، مغالطة وظلماً، فإن نوحاً ﷺ لم يكن يريد أن يتفضل عليهم ويتأس فيهم، كان يدعوهم إلى ربهم ليغفر لهم، ولكنه القلب للحقائق، والضرب على الأوتار الحساسة؛ ليخفي الملاء عن جمهور الأمة حقيقة الأمر .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/١١٨) .

وأعظم الطغاة كِبْراً وتسلطاً: فرعون وملؤه . ولهذا تفننوا في رمي موسى ﷺ بدائهم الدوي، في عملية إسقاط منقطة النظير، اللهم إلا من طغاة الجاهلية المعاصرة، حتى لكأنك تقرا في كلامهم أخص صفاتهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ؟ وفي آية أخرى: ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطُرُفَيْكُمُ الْمَثَلَى ﴾ [طه: ٦٣] . وفي أخرى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨] .

ولما أسقط في يد فرعون الطاغية، ساعة آمن السحرة ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنْتُمْ بِهِ ءَقَبَلْ أَن ءَأَدَنْ لَكَرَّانَ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٣] . فبمجرد أن خالفوه أصبحوا متآمرين للانقلاب على شرعيته!

والعجيب في هذا أن الملاء يرفضون على الأنبياء والمصلحين ما يستجيزونه لأنفسهم، فهم لا ضير عليهم ولا غضاضة أن يستخدموا الدين ويجرضوا باسمه، مع أنهم أهل سياسة . ولا حق ولا شرعية للأنبياء؛ الذين إليهم المرجع في الدين عادة . . لا شرعية ولا حق لهم أن يتكلموا باسمه أو يدعوا إليه .

وأحياناً يمارس الملاء نوعاً من التضليل الرخيص، فيطرحون حججاً يسوغون بها رفضهم لدعوة الحق، ويسوغون بها ما يبيتون من البطش والأذى لأهله . وهم بذلك يشهدون على أنفسهم أنهم لا يتورعون من توظيف كل ما يخطر ببالهم، غير ملتفتين إلى صلاحيته ومعقوليته .

ومن أمثلة هذا التضليل الرخيص: احتجاجهم لرد الحق ببشرية الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وتحذيرهم الناس أن يتبعوهم أو يطيعوهم لذلك .

وهل كان الملاء وأسلافهم يتبعون ويطيعون إلا بشراً مثلهم أو حَجْراً دونهم؟ ولكن ما أعجب شأن الضلال! وما أفجر ذات المُضْلِينَ!؟

لم يرضوا للنبوّة ببشر، وقد رضوا للإلهية بمحجر^(١)!

قال تعالى عن الملائكة من قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وهذه الحجّة الساقطة؛ أعني الاحتجاج لردّ الحق ببشرية الرسل، هي حجة الأولين والآخرين. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وقد أبان الله - جل وعلا - سقوط تلك الحجّة بقوله بعد ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُونَ لَمَنْعْنَا لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَّوَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩]... والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة.

والمقصود: أنّ الملائكة من الأقسام، يجعلون من أي شيء حججاً، ويشيعونها بين الناس، فتتلفها الدهماء دون وعي أو تمحيص. ولو تأملوا لعلّموا أنّها حجج عليهم لا لهم. فهذا البشر - بطبيعة الحال - يأكل، ويشرب، ويمشي في الأسواق... و... فهل في ذلك ضير؟ وما وجه كون هذه وأشباهها قدحاً؟ وكيف ساغ لهذه العقول أن تجعل من هذه وأمثالها حججاً ترد بموجبها الحق، وتستبيح الواقعة بأهله؟!

قال تعالى عن الملائكة من قوم هود عليه السلام أو قوم صالح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، [٣٤].

وقال عن كفار قريش: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وهذه الحجج - كما ترى - فاسدة غير صحيحة، ولو سلّمنا بصحتها - جدلاً - فإنها في غير محل النزاع، كما لا يخفى.

والملائكة يسلكون أسلوب التعجيز، ليفحموا الأنبياء، فيظهر عجزهم، وينكفئ الناس عنهم، فيكون ذلك مسوغاً للواقعة بهم.

قال تعالى: ﴿الزِّيَاتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩، ١٠﴾ .

فانظر إلى قوله جل وعلا: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ، وهي الدلائل الواضحة على صدقهم ، ثم انظر إلى قولهم بعد ذلك ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ لتعلم يقيناً أنهم ليس لهم غرض في الوصول إلى الحق ، وإلا لا تبعوهم وآمنوا بهم إذا ما تبينوا صدقهم ، وأنهم جاءوا بالآيات من ربهم .

والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا يزعمون لأنفسهم سلطاناً وقدرة على شيء إلا بتمكين الله لهم وإقداره إياهم عليه ، فكيف يطلب منهم تحقيق أمر لم يدعوا القدرة عليه ، ثم يكون عدم تحقيقه على أيديهم سبباً في رد الحق والكفر به؟!

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] .

وانظر إلى أصحاب الأيكة قوم شعيب ﷺ ، بماذا أجابوا؟ وماذا طلبوا منه ﷺ؟ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا

كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧] .

وهل هناك أوضح برهاناً وأبين حجة من القرآن؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩] ، ومع

ذلك ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] .

وقال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَةٍ وَالْمَلَائِكَةُ قَيْلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ

تُؤْمِنُ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]. فكان جوابه ﷺ لهم بأمر ربه، مالك الملك وصاحب الشأن، جل وعلا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَّرْسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وهذا كله يدلُّ دلالة قاطعة على أن الملائمة وأتباعهم قد استبطنوا العناد، مهما كانت النتائج. وأظهر دليل على ذلك: أنهم إذا وقع ما طلبوه، أو ما هو أعظم منه، لم يزداهم ذلك إلا تكديباً وإعراضاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ * وَإِنَّا لَآتِيَانَا مَوَدَّةَ الْبَأْسِ فَنظَلَمُوا بِهَا * وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال فرعون وملؤه عن أنفسهم، لما جاءهم موسى بالآيات رجاء إيمانهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْرِكَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]. وهم الذين ﴿أَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيَؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]. فأكذب الله زعمهم؛ ليعلموه - جل وعلا - بحالهم، وأنهم على سنة أسلافهم، وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وبحث ذلك بطول. والغرض التنبيه إلى أنهم يكيدون للحق من هذا الباب، ومن كل باب ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

* وللملائمة مكيدة خفية، يتلاعبون من خلالها بمشاعر الأمة، ويمررون بواسطتها مخططاتهم. وهي مكيدة قد لا يتفطن لها إلا آحاد الناس:

إنها عامل الزمن!

وعامل الزمن أساس في أي قضية يريد الملائمة الإبرام أو النقض، وهو كفيل بأن تنسى الأمة قضاياها الشاغلة والأساسية، ومطالبها المشروعة، حينما تعلق هذه أو تلك على مشجب الزمن.

وسواء بُنيَ هذا الصَّرح أم لم يُبنَ^(١)، فإنَّ الهدف الذي أراد فرعون تحقيقه من وراء هذه الدعاية حاصلٌ. وإلى حين إتمام البناء، أو التظاهر بمحاولة ذلك، يكون في الوقت فسحة ومنتسع لطرح مبادرات جديدة! أو حدوث مشغلات صارفة.

* والملا في النهاية يضحون بمستقبلهم ومستقبل الأمة معهم، ويجرون الأمة في أحيان كثيرة إلى مواقف تكون فيها فهايتها؛ وذلك إرضاء لنزواتهم من جهة، كما أنها نتيجة لقراراتهم الفردية من جهة أخرى.

إنَّ الملا لعلَّوهم واستكبارهم وغرورهم لا يُخطرون بباهم، ولا يُدخلون في حسابهم قوة إلهية قاهرة، ولا رسالة ولا رسولا، ويستهترون بكل قوة إلا قوتهم، ولهذا وذاك يبادرون أنفسهم، والأمة من ورائهم باستعجال العقوبات الموعودة.

قال تعالى عن قوم عاد أنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وفي آية أخرى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِكَ عَنِ الْمِيثَاقَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

أما ثمود قوم نبي الله صالح ﷺ، فماذا كان من شأن الملا فيهم؟ قال تعالى عنهم: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتُنَبِّئُنَا إِيمًا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

ومشركو العرب كانوا أقبح من غيرهم، وأجزأ على الله جل وعلا. قال تعالى مبيِّنا موقفهم من الحق: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. تلك نماذج لاستعجالهم العذاب الذي يخوفهم به أنبياءهم إن كذبوا وأعرضوا عن الحق.

* وهناك صورة أخرى للتضحية بمستقبل الأمة، والمراهنة على مصيرها لمصلحة زمرة قليلة، هم الملا؛ وذلك بجرُّ الأمة إلى مواجهة الحق، وتسخيرها للقضاء عليه بيدها، لتكون شريكاً في المؤامرة.

(١) حكى ابن عاشور اختلاف المفسرين في: هل وقع بناء هذا الصرح وتم أم لم يقع. انظر: التحرير والتنوير (١٢٣/٢٠)، (١٢٤). أقول: ولا توجد دلائل تشهد لهذا أو ذاك. فالله أعلم.

قال ابن إسحاق^(١) صاحب السيرة: «ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لثمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجها الله فارجعوا. فقال أبو جهل ابن هشام: والله لا نرجع حتى نردّ بدرأ - وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمّعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا»^(٢).

* ولا ينسى الملاء برغم جرائرهم في حق الأمة أن يشنوا على ذواتهم، ويلوحو بما في حوزتهم من إمكانات مادية لا توجد في يد خصومهم. وأهم لذلك أفضل منهم وأولى بالاتباع، مشيرين بصراحة إلى أحقيتهم بالزعامة والثروس.

قال الملاء من قوم نوح لعامتهم، معرضين بنبي الله نوح ﷺ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وقالوا له: ﴿مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَلْنَاكَ إِلَّا آيَاتٍ لِلَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنَاكَ بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَزَلْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سبحانه عن الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمَيِّتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الآية.

وقال تعالى مصوراً غرور فرعون وما قاله لقومه، مُدْبِلاً بقوته وملكه، ومعرضاً بموسى ﷺ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ * أمراً حثيماً من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جلة معه ألمتكم مقررين﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

وقال هو وملؤه لموسى وأخيه هارون - عليهما السلام - لما جاءهم بآيات الله بينات:

(١) محمد بن إسحاق بن يسار، المطليبي بالولاء، المدني، من أقدم من أُرِخَ في الإسلام، إمام في السيرة والحديث مع اختلافهم في توثيقه، وقد روى له الإمام مسلم في صحيحه مقرّوناً بآخر، وروى عنه أصحاب السنن الأربعة، وعلق له البخاري في صحيحه، وكتابه «السيرة النبوية» من أشهر ما كتبت في بابه، وكانت وفاته ببغداد سنة (١٥١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣/٧). والأعلام (٢٨/٦). ومصادر السنة النبوية وتقومها، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٤٩.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٣٠١/٢) بعناية د/ همام سعيد ومحمد بن عبد الله أبو صعيك. قال المحققان في تخريج الخبر: «رواه ابن إسحاق معلقاً». ورواه الواقدي في المغازي (٤٣/١، ٤٤)، ورواه الطبري في تاريخه (٤٣٨/٢) من طريق ابن إسحاق، فيكون الخبر ضعيفاً. [السيرة النبوية (٣٠١/٢)].

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَمَّا جَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨].

أما هم ، أمّا الملائكة ، فلهم الحق ، وفيهم أهلية لأن يتفضلوا على الناس! ولأن يكون الأراذل بادي الرأي من جملة أتباعهم المسخرين لخدمتهم! ولأن تكون لهم الكبرياء في الأرض على الناس ، على حين يرون محرماً على الأنبياء وأتباعهم أن يسوسوهم بشرع الله وأن يقودوهم بأمر الله . . . إلى الله!

إنه منطق الجاهلية ، وإنها لغة الطغيان والعنجهية حيثما وُجِدَتْ ، فوق كل أرض وتحت كل سماء .

وتسأل بعد ذلك كله: وأين رأي الأكثرية؟ وكيف غابت إرادة الأمة؟

لِمَ لَمْ تدافع عن مصالحها ، وتختير لنفسها ، بدلاً من أن تكون أداة يلعب بها ، بل حُمُراً يركبها الملائكة لتحقيق مآربهم؟!

والجواب عن ذلك بعبارة جامعة:

لقد غاب رأي الأكثرية واستحمرها الملائكة؛ بسبب الفسق عن طاعة الله ، وبسبب الظلم للنفس وللخلق .


قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ لِقَوْمٍ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] ، دائماً وأبداً . والفسق يورث الظلم لا محالة ، وحيثما وُجِدَ في أمة ذلّت واستعبدها الشهوات ، وتسَلَطَ عليها من جنسها ، أو من غير جنسها ، برضاها أو كراهة ، من يسخرها لمصالحه ، ويهدم دينها وديناها لبناء مجده وديناه ، وتهدم هي دينها وديناها لبناء دنيا غيرها .

إن البشرية حينما لا يكون لمنهج الله وشرعه سلطان عليها ، فإنها لا تزال تتنقل من جور إلى جور ، ومن استعباد شخص أو طائفة إلى استعباد قوم آخرين .

وإن الفسق والظلم في الأمة ، هما الأرض الخصبة والجو الملائم لظهور طبقة الملائمة بالمواسفات والنعوت السابقة ، حيث فساد النفوس ، وخواء الأرواح ، وسفول الهمم ، وتقديس الشهوات . . . والله المستعان .

وإلى هنا ينتهي هذا المبحث ، وتنتهي هذه الجولات في مجالات سُنن الله في الأمم ،
وينتهي الباب الثاني من أبواب الكتاب ، ويليه الباب الثالث وهو بعنوان: «آثار رعاية
السُنن وعواقب الإعراض عنها» . وهو دراسة تطبيقية على واقع هذه الأمة .



الباب الثالث
آثار رعاية السنن

وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول: آثار رعاية السنن.

الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السنن.

بين يدي الباب

يقع هذا الباب مما قبله موقع المثال من القاعدة ، والتطبيق من التنظير . وقد مرّ بنا في التمهيد ، وفي البابين الأول والثاني عدة قضايا ومفاهيم ، تتعلق بخصائص السنن الإلهية ، وطريقة عملها في واقع الحياة ، وفي المجالات التي تحكمها هذه السنن ، وفي مواقف الأمم إزاءها ، ونتائج ذلك ، وغيرها من القضايا والمسائل .

وكان الاتجاه في دراستها منصباً على ناحيتين :

الأولى: إبراز هذه القضايا والمفاهيم وتجسيدها .

والثانية: تقريرها وبسطها ، والاستدلال لها من كتاب الله تعالى .

ولمّا كانت دراسة موضوع السنن مرتبطة أساساً بكتاب الله تعالى ، فإنّ من الطبيعي أن يكون ميدانها هو التاريخ كله ، وأن تكون الأمثلة والنماذج العملية لكل ما سبق ، مأخوذة من أحوال الأمم السابقة ، ومن أحوال هذه الأمة في فترة حياة النبي ﷺ^(١) .

وعلى هذا ، نكون - فيما مضى - قد حققنا أمرين مهمين :

أولهما: إبراز السنن الإلهية وتجسيدها ، وبيان ما يلزم لفهمها واستيعابها .

والثاني: تجلية آثارها ، والاستدلال والتمثيل لها من أحوال الأمم في التاريخ القديم ،

والمعاصر لتنزّل القرآن الكريم ، من واقع النصوص القرآنية ذاتها .

وحيث إنّ تقرير السنن الإلهية التي تحكم حياة الجماعات البشرية ، من الناحية

النظرية قد فرغ منه ، فإنّني في هذا الباب سأحاول استكمال الأمرين السابقين ؛ إبراز

السنن ، وتجلية آثارها وفق التسلسل التاريخي ، ولكن على النحو التالي :

— سأحرص على إبراز السنن ، من خلال معرفة آثارها في واقع هذه الأمة ، بالتّبع

والاستقراء . وذلك بجشد الأمثلة والشواهد ، ورصد الأرقام والإحصائيات ،

والاستشهاد بأقوال أهل الاختصاص والمجربين ، والخصوم والمحبين ، على الجوانب

المحمودة والمذمومة فيها .

(١) مع يقيننا بأن هذه الأمثلة والنماذج - وهي آيات من كتاب الله - مشتملة على النظام والسنن التي تحكم حياة الأمم والأفراد ، وتضبط تصرفاتهم ، فيما مضى وفيما يستقبل . وقد تقرّر هذا في مواضع . وعلى هذا الأساس ، قلت: إنّ هذا الباب يقع مما قبله موقع المثال من القاعدة .

وسأقتصر على ما لا بد منه من إبراز فائدة، أو ربط حادثة، أو تبيين مُنبههم، أو تجلية غامض، أو تلخيص يُقرب الفائدة... أو نحو ذلك، بعيداً عن التوسع في التنظير^(١).

وهذا الأسلوب - في نظري - أشبه بعنوان الباب «آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها»، ولعله يكون أكثر جاذبية وأبلغ تأثيراً في النفوس.

- وأنبه إلى أن الحديث في هذا الباب - بفصله - معنيّ باستعراض آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها في هذه الأمة، بشقيها؛ أمة الإجابة، وأمة الدعوة.

ولهذا الاقتصار ما يبرره، كما أنّ له أهمية خاصة؛ ذلك أن هذه الأمة هي خاتمة الأمم، وهي ذات تاريخ متطاوّل، وخصائص مميزة، مما أهلها لأن تكون ميداناً خصباً ومناسباً لانطباق السنن الإلهية بصورة أشمل، وظهور آثارها، في فترات وظروف مختلفة.

وأمر آخر مهم؛ وهو أنّ العالم الذي نعيشه اليوم، والذي آمل أن تسهم هذه الدراسة في تشخيص أدوائه ونعت دوائه... هذا العالم، ما هو إلا حلقة من حلقات هذه الأمة التي نزل القرآن بشأنها، فهو جزء من تاريخها الذي ابتداءً بنزول هذا القرآن... ومن هنا، كان أحق بالبيان وأولى بالتفصيل.

وسأعرض في هذا الباب لجوانب أربعة من حياة هذه الأمة:

جانين يمثلان حياة الأمة المسلمة في مرحلتي الصحة والقوة والإشراق، والضعف والمرض والانهيار:

- في صورتها المشرقة؛ حيث رعت السنن الإلهية في كل جوانب الحياة، المعنوية والمادية. وتلك صورة لم تحدث إلا في صدر الإسلام وعصره الأول.

- وحينما فرطت في جنب الله، وأدارت ظهرها لشريعته، فتفرقت كلمتها، ووهى نسيجها المحكم، ففقدت قوتها وريادتها، خصوصاً في عصورها المتأخرة.

وجانين يمثلان الأمم الجاهلية، ما يحمد من شؤونها وما يذم:

- جانبها الإيجابي المحمود: حيث القوة المادية والتفوق العلمي، والانضباط الإداري.

(١) لأنّ فيما تقدّم غنية، فلا حاجة إلى الإعادة والتكرار.

- وجانبها المظلم المذموم: حيث القلق النفسي، والتحلل الأخلاقي، واختلال الأمن، وانتشار الجريمة، والعدوان وظلم الشعوب الأخرى. وقد عمدتُ إلى الجوانب المحمودة، التي تمثل (رعاية السنن) فجعلتها متوالية في مبحثين، وإلى الأخرى التي تمثل (الإعراض عن السنن) فأتبعت بعضها بعضاً، في مبحثين.

ولا بأس بعد ذلك من التنبيه إلى بعض الأمور؛ لنكون على ذكر منها: أولاً: محور الدراسة هو الأمم لا الأفراد، فحينما أعرضُ للآثار المحمودة أو المذمومة لهذا المجتمع أو ذاك، فإثماً أحكم على الغالب، فلا حاجة إلى الاحتراز والاستثناء كل مرة. فليجر هذا مجرى القاعدة.

ثانياً: تقرر أن من خصائص سنن الله في الأمم، أنها تعمل بصورة مجتمعة؛ أي منظومة متكاملة. وهذا لا يعارض ما سترى من تفصيل لبعض الجوانب الإيجابية النافعة عند بعض الأمم، كالجوانب المادية عند الغرب المعاصر، فإن ذلك لا يعني أن هذه الجوانب الإيجابية لم تتأثر سلباً بالجوانب الأخرى المظلمة. كلاً، بل كان تأثيرها واضحاً. وسترى ذلك مفصلاً، بإذن الله. وهذا يؤكد صدق تلك الخاصة في السنن.

ثالثاً: سوف أعرضُ لأهم وأظهر آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها. ولا أدعي الإحاطة بها أو حصرها، بل ولم أقصد إلى ذلك^(١)، وأئى لي بحصرها في باب من أبواب هذه الدراسة، وكل جانب منها قد لا تفي به دراسة موسعة مستقلة. والآن أتجاوز هذا التمهيد، إلى الفصل الأول (آثار رعاية السنن)، فإليه ثم.

(١) وحذفت (من) المفيدة للتبعيض من العنوان؛ تحاشياً للثقل المستكره لو كان العنوان هكذا: (من آثار رعاية السنن ومن عواقب الإعراض عنها)، فجرى العنوان المثبت مجرى الإحاطة، والمقصود به الغالب.

الفصل الأول آثار رعاية السنن

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية [الآثار
الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة
الإسلامية في القرون الأولى].

المبحث الثاني: الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية)
[الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية
المعاصرة].

المبحث الأول

واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية^(١)

لا نستطيع أن نعرف مدى الثقل الكبرى الهائلة بين عصر الإسلام الذهبي والعصر الجاهلي قبله، بمجرد أن نستعرض الجوانب الإيجابية في الثقل الجديدة.. ما لم نطل إطلاقة على عصر الجاهلية ذاته.

وكيف نتبين آثار رعاية السنن في الأمة الإسلامية، بعد أن طلعت عليها شمس الرسالة، ما لم نلم إلمامة بشيء من أحوالها قبل ذلك؟

لا نستطيع ما لم نطل تلك الإطلاقة، وعلى الأقل ستكون الصورة غير واضحة، والثقل في أذهاننا أقل مما هي عليه في واقعها، وبالتالي قد لا نحتفل بالآثار المترتبة على رعاية السنن الإلهية، التي لم تكن مرعية أصلاً في ذاك العصر.

فكيف كانت الدنيا، وكيف كان العالم قبل بزوغ شمس الرسالة وطلوع سعد

الهداية؟!

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي^(٢) قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به»^(٣).

وقال الكلبي: «كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فانخذها رباً، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه»^(٤).

وفي البخاري عن عائشة قالت: «إِنَّ النَّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَهْجَاءَ فَنَكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمِ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلَيْتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ، فَيُصَدِّقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهَّرَتْ مِنْ طَمَثِهَا: أُرْسِلِي إِلَيَّ فَلَانَ فَاسْتَبْصِي»

(١) والمقصود بهذا المبحث: واقع الأمة الإسلامية في صدر الإسلام والخلافة الراشدة وما تلاها من عصور كانت السيادة فيها للإسلام، والعزة والتمكين فيها للمؤمنين.

(٢) قيل: اسمه عمران بن ملحان، وقيل غير ذلك. قال ابن قتيبة: وُلِدَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِأَحَدِي عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَأَسْلَمَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأُرْسِلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأُمُّ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَتَوَفِّيَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ. انظر: الإصابة (٧٢/٧)، وسير أعلام النبلاء (٢٥٣/٤).

(٣) فتح الباري (٩٠/٨)، حديث رقم (٤٣٧٦).

(٤) ماذا خسر العالم بالمحطات المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص ٥٥، عن كتاب (الأصنام) للكلبي، وفيه تفصيل أصنام العرب ومعبوداتهم في الجاهلية.

منه، وَيَعْتَرِلْهَا زَوْجَهَا، وَلَا يَمْسُهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِلْمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نِجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الْإِسْتِضَاعِ، وَنِكَاحُ آخَرَ: يَجْتَمِعُ الرُّهْطُ مَا دُونَ الْعَشْرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيْلِي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ - فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ - حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وُلِدَتْ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فَلَانُ - تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ - فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدَهَا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهَنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصَبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَأَطُّ بِهِ، وَدَعِيَ ابْنَهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمِ»^(١).

وفي البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»^(٢).

وفي خلافة عمر بن الخطاب ؓ، أرسل سعد بن أبي وقاص ؓ قبيل وقعة القادسية إلى كسرى طائفة من أصحابه، يدعونه إلى الله، ويرغبونه في الدخول في الإسلام، فيهم المغيرة بن شعبة، رضي الله عنهم. فلما دعوه وبيئوا له، جرت بينهم مقالة، ثم تكلم يزيدجرد^(٣) فقال لهم: «إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بيِّن منكم. قد كنا نوكل بكم قرى النواحي ليكفوناكم. لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثر فلا يفرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فأسكت القوم، فقام المغيرة بن شعبة فتكلم، وكان مما قال: «إني قد وصفنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا

(١) فتح الباري (١٢٨/٩)، حديث رقم (٥١٢٧).

(٢) انظر: فتح الباري (٥٥١/٦)، حديث رقم (٣٥٢٤).

(٣) كسرى؛ لقب ملك الفرس، و«يزدجرد»؛ اسم قائد الجيش.

فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإئماً هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.

ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حيّة، كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك...»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً حال أهل الأرض قبل مبعث محمد ﷺ: «أرسل الله رسوله ﷺ وقد مَقَتَ أهل الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب، وماتوا أو أكثرهم قبل مبعثه. والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصم بكتاب مبدل، أو مبدل منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أُمِّي مقبل على عبادة ما استحسنته من نجم أو قبر أو تمثال أو وثن، أو غير ذلك.

والناس في مقالات يظنونها علماً وهي جهل، وأعمال يحسبوننها صلاحاً، وهي فساد، فهدى الله الناس بما جاء به من البيئات والهدى هداية جلت عن الوصف»^(٢).

وقد أثبت أبو الحسن الندوي بالبراهين القاطعة أن «القرن السادس والسابع لميلاد المسيح^(٣) من أخط أطوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلّية منحدرّة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردّي، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رُشده، وقوة التمييز بين الخير والشرّ، والحسن والقيح.

وقد خفت دعوة الأنبياء من زمن، والمصاييح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل، لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً يدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة في الدعة والسكون، فراراً من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطّح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل... على حساب الضعفاء والمحكومين»^(٤).

(١) البداية والنهاية (٤١/٧، ٤٢)، بتصرف.

(٢) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية (المسألة الحادية والتسعون)، ص ٨٨.

(٣) كانت ولادة رسول الله ﷺ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، سنة ٥٧٠ للميلاد.

(٤) ماذا خسر العالم بالمحطات المسلمين، ص ٢٤.

وقال في موضع آخر: «بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء قد أصيب بزلازل شديد هزة هزاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محله... نظر إلى العالم بعين الأنبياء، فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر...»

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم. كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً...»

رأى معاقرة الخمر إلى حدّ الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حدّ الجشع والنهامة، ورأى القسوة والظلم إلى حد الواد وقتل الأولاد.

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راعٍ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران^(١).

«جاء الإسلام، وفي العالم ركام هائل، من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة... والضمير البشري تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون، لا يستقر منها على يقين..»

والحياة الإنسانية بتأثير هذا الركام الهائل تتخبط في فساد وانحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان^(٢).

هذه باختصار شديد، هي الحال السائدة في العالم يومئذٍ، ردة شاملة، وحالة من الإعراض عن هدى الله في كل المجالات، وذهور وانحراف عن إقامة السنن الإلهية الموصلة إلى برّ الأمان.. فاستحكم الضلال و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

(١) ماذا خسر العالم بالمحطات المسلمين، ص ٧٨، ٧٩. قد فصل المؤلف في الباب الأول من هذا الكتاب أوضاع الجاهلية الأولى، وأحوالها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لا في أمة العرب وحدها، بل في أمم الأرض كلها من الفرس والرومان والهنود والصينيين، وعند اليهود والنصارى وغيرهم... وبين الوضع المزري الذي كانت تعيشه المرأة والرقيق. وأجاد في ذلك كله إجادة تامة، فليراجعه من شاء. وانظر: البداية والنهاية (١٩٠/٢)، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب، ص ٢٦ وما بعدها، ودراسات في السيرة النبوية، ل محمد بن سرور زين العابدين، فصل (العالم قبل البعثة)، ص ١٥ وما بعدها، وغيرها.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص ٢٦.

أَيُّدِي النَّاسِ ﴿ [الروم: ٤١]. فكان لا بد أن تحيق بهم سنة الله التي تحل بأمثالهم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [النحل: ٣٤].

ثم جاء الإسلام . . فما الذي حدث؟

وقبل أن نعرف ما الذي حدث ، لا بد أن نعرف أي شيء هو هذا الإسلام! لنذكر بالتالي آثاره .

الإسلام نظام ربّاني شامل ومنهج إلهي كامل ، يختلف كل الاختلاف عن نظم الجاهلية في كل شؤون الحياة ، بدءً بالعقائد والتصورات . . وانهاء بأدق المسائل الفرعية التفصيلية .

حتى تلك الأمور التي يُقرّها الإسلام من أمور الجاهلية ، لأنها حسنة في ذاتها . . يتدخل الإسلام ليصحح منطلقاتها في النفوس ، ويسمو بأهدافها في الواقع ^(١) .

أساسه وعماده: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله .

وهاتان الشهادتان إعلان إلى الناس والأمم: أنه لا معبود بحق إلا الله ، وأنه لا يقبل من أحد أن يعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ ومن طريقه .

ودليله وإمامه: كتاب ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

[فصلت: ٤٢] .

وترجمانه ومعلمه: بشرٌ من أكمل البشر وأوفاهم وأبرهم وأرحمهم ، وأنقاهم وأعلمهم ، وأشجعهم وأحكمهم ، ﷺ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] .

وأمره كله جد لا هزل فيه .

﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] .

﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقْوَابِ ﴾ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ

حَجْرِينَ ﴿ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] .

جاء في السير: أنّ النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل في المواسم ؛ لعلّ أحداً منهم يؤويه ويمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ، وكان بنو عامر بن صعصعة فيمن عرض نفسه

(١) اقرأ - مثلاً - في كتاب (معالم في الطريق) ، العناوين التالية: نشأة المجتمع المسلم وخصائصه ، لا إله إلا الله منهج حياة ، نقلة بعيدة .

عليهم ، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟

قال ﷺ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» (١).

وجاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ، وكان مما سأله: أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم ، حتى سأله شهراً واحداً بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى . وسأله أن يعفيهم من الصلاة ، فقال لهم: «لا خير في دين لا صلاة فيه» (٢).

والإسلام دين أهدافه واضحة ، لا غموض فيها ولا التواء ..

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْقَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ [المتحنة: ١٢].

﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَآ حَرَّمَ رَبِّي كُفِّرُكُمْ عَنْكُمُ الْإِثْمَ الَّذِي كُفِّرُكُمْ بِهِ وَيُؤْتِيكُمْ مِنْهُ حَسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهَاكُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْعِيْرَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام (٧٦/٢) ، والخبر ضعيف ؛ لأن في سننه الواقدي ، وهو مجمع على ضعفه ، لكن خبر عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل في سوق ذي المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وقد ورد عند الإمام أحمد من حديث عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يُقال له: ربيعة بن عباد من بني الدليل ، وكان جاهلياً ، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز ، وهو يقول: «يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا» والناس مجتمعون عليه . . . الحديث . وسنده حسن ، وله شاهد عند ابن حبان ح (١٦٨٣) من حديث طارق بن عبد الله الحاربي . وانظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٧٦/٢) في الحاشية ، وزاد المعاد (٤٣/٣) في الحاشية .

(٢) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢٤٩/٤) . وفيه ضعف . انظر: المصدر السابق في الحاشية . وهو عند أحمد في المسند (٢١٨/٤) ، وعند أبي داود في: باب ما جاء في خبر الطائف ح (٣٠٢٥) بسياق مختصر ، وحسن إسناده الأرنؤوط في زاد المعاد بأبسط من هذا ، وفيه: أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في الزنا ؛ لأنهم قوم أهل أسفار ولا بد لهم منه ، وأن يأذن لهم في الربا ، لأنه عامة أموالهم ، وأن يأذن لهم في الخمر ، لأنهم لا صبر لهم عنها ، فأبى النبي ﷺ ذلك كله .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

«وأدركت أمم الجاهلية حقيقة الإسلام وجديته ووضوح أهدافه، ولم يكن أمرهم عليهم غمّة.

وأدرك سدنتها أن هذا الإسلام سوف يأتي على بنيانهم من القواعد، وأن كياناتهم ومصالحهم ستتهوى أمام زحفه، كما تتساقط أوراق الخريف.. فأعلنت الجاهلية فوق كل أرض وتحت كل سماء بعداوتها، ونذرت بحربه وحرب أتباعه، وقفت لمن آمن به في كل مرصد، ولم تأل جهداً في ذلك، وكان من أمر الجاهلية ما تحدّث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب»^(١).

ولكن هذا الدين، كان قدر الله الغالب، وأمره النافذ، فانتشر خبره في الآفاق وسارت بحديثه الركبان، ودخل الناس فيه أفواجا، ولم يلبث هذا الدين الجديد أن اكتسح المدائن والبلدان، بعد أن تمكّن في القلوب.. فحدث ما لم يكن يخطر لأحد على بال!

وقد لحّص هرقل، ملك الروم، وأبو سفيان بن حرب^(٢) - قبل أن يُسلم - هذا الحدث التاريخي العظيم في ذاك اللقاء المشهود، في بلاط هرقل.

حدث أبو سفيان «أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام - في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآذ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأثوه وهم بإبيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا يترجمانه فقال: أياكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم. فقال: أدثوه مني. وقرّبوا أصحابه، فأجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سأئل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

(١) ماذا خسّر العالم بالمحطات المسلمين، ص ٨٤. وانظر مثلاً: السيرة النبوية، لابن هشام (١/٣٣٣، ٣٦٤، ٣٩٢).
 (٢) صخر بن حرب القرشي الأموي، والد معاوية بن أبي سفيان. أسلم عام الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان قبل ذلك رأس المشركين، توفي في آخر خلافة عثمان بن عفان. انظر: الإصابة (٣/٢٣٧).

قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: ضَعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيْرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ لَا. قَالَ: فَهَلْ كُتِّمْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مَدَّةٍ لَا نَذْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أَدْخُلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ: فَهَلْ فَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ. فَقَالَ لِلرَّجُلَيْنِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ دُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَتَأَسَى يَقُولُ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ؟ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكٌ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُتِّمْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: أَيْرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: أَيْرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُحَالِطُ بِشَاسْتِهِ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: يَمُ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمِي هَاتَيْنِ»^(١)

وكذلك كان، فإن أصحاب النبي ﷺ «لم يزالوا في زيادة حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه وتمام نعمته، فله الحمد والمِنَّة»^(٢).

والآن نحن أمام مملكة جديدة وأمة ناشئة وليدة، تدين بدين هو الإسلام بمنهجه المتميز. قد صبغها بصبغته، وتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياتها الخاصة والعامية، الفردية والجماعية.. هذه الأمة هي «الأمة الإسلامية».

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر: فتح الباري (١/٣١، ٣٢).

(٢) فتح الباري (١/٣٦).

وهناك من حولها أمم الأرض، هناك بقايا العرب، وفارس والروم، والهند والصين.. وغيرهم، بمناهجهم الجاهلية الظلمة الآثمة^(١).

هلم بنا إلى هذه الأمة الإسلامية ذات الكيان الجديد، ماذا قدمت لنفسها، وللإنسانية المنكوبة؟

ماذا سجّل التاريخ في عالم الواقع، لا في عالم المثل، من الآثار الحميدة والمآثر الحسنة الجليلة؟

لقد كان الظلم خيماً، والحريات مسلوية، فهل قام سوق العدل ورفرفت راية الحرية والمساواة؟

وكان الفقر والمسغبة فاشية، وشريعة الغاب هي سيدة الموقف، خصوصاً بين قبائل العرب، فهل تحققت العدالة الاجتماعية، وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؟ وكانت الجرائم والفواحش مشرعة أبوابها، فهل شاع الطهر والعفاف واختفت الجريمة؟

وفوق ذلك كله، كان الناس برّبهم يشركون ويعدلون، وبه يكفرون! فهل تغير من ذلك شيء؟ وإلى أي حدّ كان هذا التبدّل والتحوّل؟

إنّ كلمة (نعم) قد تكون كافية في الإجابة عن هذه التساؤلات، لو كان المسلمون اليوم في موقع أفضل مما هم فيه، علماً ووعياً وبصيرة في دينهم، وثقة بقدرته على أن يبلغ بهم مرتبة القيادة والإمامة للبشرية والتمكين في الأرض، لو أخذوا به والتزموا هديه! بل لو كانوا كذلك، لربما لم يكونوا محتاجين أصلاً إلى إثارة مثل هذه التساؤلات، فضلاً عن الخوض في جواب مفصّل لها.

أما والأمر ليس كذلك، فلا بد من الجواب المفصّل؛ رجاء أن يقرأه جاهل فيعلم، أو غافل فيستيقظ، أو متردّد فيحسم موقفه لصالح هذا الدين.

لقد كانت الأمة الإسلامية في الصدر الأول - ولعدة قرون - شامة بين الأمم، وأ نموذجاً يُحتذى، أخذت بأسباب النجاح والتقدّم في كل ميدان، وجانبت أسباب الانحطاط والضعف وحاربتها على كل صعيد.

ولم يكن ذلك نتيجة عبقرية امتازت بها. وإلا فأين كانت تلك العبقرية قبل أن تكون أمة مسلمة؟

(١) وقد أشرت إلى طرف من أحوالهم في مستهل المبحث.

ولم يكن ذلك محض صدفة واتفاق؛ لأنها نشأت نشأة طبيعية في الهواء الطلق، تحت ضوء الشمس، وعانت في سبيل ذلك صنوف الأذى وضروب المجاهدة.

إن الذي حدث بالضبط، هو أنها كانت أرضاً طيبة قبلت هدى الله الذي أرسل به رسوله محمداً ﷺ، لما أراد الله بها من كرامته، فأشربت حب هذا الدين وانصهرت في بوتقته، فلم يعد لها اسم غير هذا الاسم ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وحتى أصبح رأس مالها وأنشودة فخارها ومحط آمالها، قول أمير المؤمنين عمر: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»^(١). وقول شاعر الإسلام وفتى الأنصار، عبد الله بن رواحة^(٢) ﷺ:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
وقوله خبيب بن عدي^(٣) ﷺ، يذكر مصابه قبيل مقتله:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزوع
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي^(٤)
وقول الآخر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم
ومن هذا الدين الذي دانت به، انبثقت سائر تصرفاتها، وعليه بنيت مواقفها وسياساتها، فليست شيئاً آخر غيره ﴿صَبَّغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وفي الصفحات التالية، أعرض لك أمثلة من تاريخها المشرق، الذي كان أثراً من آثار رعايتها للسُنن الإلهية، يوم التزمت هدى الله، أعرضها ولساني يترجم:
سلام على الإسلام أيام مجده طويل عريض يملأ الأرض والسما
فهلهم إليها تم.

(١) رواه الحاكم من طريق ابن شهاب، وابن كثير في البداية والنهاية. وسيأتي بسياق أم.
(٢) ابن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، يُكنى أبا محمد، كان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. انظر: الإصابة (٦٦/٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٣٠/١).
(٣) ابن مالك الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا، واستشهد مصلوباً في عهد النبي ﷺ، قتله المشركون ثأراً لقتلهم في بدر، وكان خبيب ﷺ قتل الحارث بن عامر. وقد ساق البخاري خبر مقتله. انظر: الإصابة (١٠٣/١)، وسير أعلام النبلاء (٢٤٦/١).
(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٢٥١/٣).

معنى الحياة في ظل واحة الإسلام

لا تشوّف النفوس إلى شيء تشوفها إلى حياة كريمة، تُصانُ فيها إنسانيتها، وتحفظ عليها كرامتها، تنعم فيها بالحرية، وتتفياً ظلال العدل والمساواة اللاتقة بالإنسان.. يتحقق فيها التكافل الاجتماعي والأمن الغذائي، وتختفي منها روح الطبقة... ويشعر المرء فيها بالأمن النفسي، والأمن على الأموال والأعراض... إلى حياة يشيع فيها روح الطهر والعفاف، وتختفي منها الجريمة والرديلة.. في جو مفعم بروح الأخوة والألفة والتعاون.. حياة مغايرة لما ألف الناس وعرفوا في ظل الجاهليات؛ حيث يعرفون الحياة على أنها الحياة البهيمية، تلك التي تمارس فيها الحرية الفوضوية، بكل تفاصيلها. وتقوم على أساس الطبقة، وإقرار الفوارق والامتيازات بين الأفراد، وما يستتبع ذلك من صور الامتهان والسُخرة والظلم والابتزاز، حتى لا تكاد تجد أمة إلا وفيها نفر من بني آدم، غير قليل، امتهنوا للطواغيت، وشقوا بذل الاستعباد والسُخرة، ولم يروا من الحياة إلا لونها الأسود الداكن.

إن الناس في ظل الجاهليات لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا من الناحية التصورية غير تلك القيم الفاسدة، كما ليس بإمكانهم إلا أن يقاسوا مرارتها من الناحية العملية. ولا عجب، فإن فاقد الشيء لا يعطيه. وقديماً قيل: إنك لا تحبي من الشوك العنب.

ومكلف الأشياء ضد طباعتها متطلب في الماء جذوة نار^(١)

ونحن نجزم بأن الإنسان لم يتمتع بالحياة الكريمة بمعناها الأشمل إلا في ظل الإسلام، تحت مظلة الدولة الإسلامية.

في ظل الإسلام وتحت مظلته فقط، عرف الإنسان معنى الحرية، وتفياً ظلال العدل والمساواة، وأمن، وغني في قصد، وترفع في سمو عن الرديلة، وتعلم الإنصاف، وأطرح الكسل والثاقل، وفهم معنى الأخوة.. وأدرك ما لا يُخصي.. ولقد وجدت من العسير أن أسوق مثلاً لأقول: إن العدل يتجلى فيه فقط، وآخر أقول فيه: إن الحرية والمساواة فحسب تلوح في قسماته، وثالثاً أقول: إنه دليل على تحقق الأمن.. أو غياب الرديلة.. لا لخباء في دلالة بعضها على هذا الجانب أو ذاك، ولكن: لأن أكثر الأمثلة والنماذج تحمل دلالات متعددة، وأحب أن يكون القارئ مشاركاً في استظهار هذه الدلالات، وقد أشير إلى بعضها من باب التنبيه.

(١) البيت لأبي الحسن الثهمي، من قصيدة له في رثاء ولده.

وأمر آخر ذو أهمية - في نظري - وهو: أننا بحاجة إلى التأكيد على وحدة الكينونة الإنسانية، وأن كل ما يصدر منها ما هو إلا إفراز لما تنطوي عليه من عقيدة، وما تحمله من تصوّر، يستوي في ذلك جليل الأمور وحقيرها؛ فإن مدنية أية أمة وموقفها من الأشياء... ما هو إلا انعكاس لثقافتها وتعبير عن عقيدتها وفكرها، وهما معا اللذان يرسمان لوحة حضارتها^(١).

فأنت تستطيع أن تقرأ في كل مثال، أكثر توجّهات الأمة، وتبين منه جماع أخلاقياتها. والله در القائل:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وما عجب هذا التفاوت بيننا فكل إناء بالذي فيه ينضح

وأعظم ما يميزها: أنها ليست توجهات نظرية لا مصداقية لها، ولا أخلاقيات نفعية أو إقليمية أو عرقية، كما سترى.. بل كانت فوق ذلك وأسمى من ذلك!

إن هذه الأمة لم تقم دولتها إلا على يدي تلاميذ مدرسة النبوة، ممن تربوا على يدي محمد ﷺ، وصنعوا على عينه، وشهدوا بأب أعينهم كيف تكون رعاية السنن، وأدركوا أنها ليست شيئاً سوى إقامة شريعة الله؛ كل شريعة الله، ووقفوا على آثارها الواقعية بذواتهم.. وعلى يديهم تخرّجت الأجيال، وبسيرتهم فتح العالم من جديد.

أقول: ومن هنا فقد وجدت مجال الاختيار صعباً؛ لأنه رحب، ووجدت أن من الغبن والابتسار، تعيين الدلالة على سبيل القصر، لما أسلفت.. ومع ذلك فسأحرص في الصفحات التالية على إيراد نماذج معبرة، وأضم الشبه إلى شبهه، والشيء إلى ما يقاربه..

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ^(٢) قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللَّثِيئَةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بِالرَّجُلِ نَسْتَعْمَلُهُ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانَا اللَّهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي إِلَيَّ، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يَهْدِي لَهُ أَمَّ لَأ..» الحديث^(٣).

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٦٧٢) وما بعدها. وسأزيد المسألة إيضاحاً في المبحث الثاني من هذا الفصل - بإذن الله.

(٢) الأنصاري المدني، قيل: اسمه عبد الرحمن، وقيل: المنذر بن سعيد. من فقهاء أصحاب النبي ﷺ، روى عنه جماعة من الصحابة، وتوفي سنة ٦٠ هـ، وقيل: بضع وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٤٨١).

(٣) رواه البخاري. انظر: الفتح (٥/٢٢٠) في الهبة، باب من لم يقبل الهدية لعلة، ح (٢٥٩٧).

«وشكا يهود خيبر - وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، وكان فيها عشرون ألف مقاتل - عبد الله بن رواحة . وكان رسول الله ﷺ يبعثه كل عام يخرص عليهم تمرهم ، ثم يقول: إن شئتم فلکم وإن شئتم فلي ، فكانوا يضمونونه ، بيد أنهم شكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه ، وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلي نساءهم ، فقالوا: هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القَسَمِ ، فقال عبد الله: يا معشر يهود ، إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إليّ ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم . وأما ما عرضتم عليّ من رشوة فإنها سُحّت ، وأنا لا نأكلها . فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»^(١) .

هكذا كان رسول الله ﷺ يتخير عماله ، ويحاسبهم ، وهكذا كان يستعمل الأصلح ، وهو الأتقى والأكفأ بحسب الإمكان ، ويمنع غيره وإن كان أثيراً عنده .

لقد استعمل «خالد بن الوليد»^(٢) على الحرب ، منذ أسلم ، وقال: «إن خالداً سيفُ الله على المشركين»^(٣) . مع أنه كان - أحياناً - قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ ، حتى إنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ»^(٤) ، لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة ، ولم يكن يجوز ذلك . . ومع ذلك ، فما زال يقدمه في إمارة الحرب ؛ لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره ، وفعل ما فعل بنوع تأويل .

وكان أبو ذر^(٥) عنه أصلح منه في الأمانة والصدق ، ومع هذا فقد قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر، إنني أراك ضعيفاً، وإنني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»^(٦) .

(١) الإسلام والحضارة العربية ، تأليف: محمد كرد علي (٩٦/٢) . وانظر الخبر في ترجمة عبد الله بن رواحة ، سير أعلام النبلاء (٢٣٧/١) .

(٢) ابن المغيرة القرشي المخزومي ، أبو سليمان ، سيف الله وفارس الإسلام ، هاجر مسلماً سنة ثمان ، وشهد مؤتة ، وتأمّر على الجيش بعد موت قواده الثلاثة ، وشهد الفتح وحنيناً ، واحتبس أذراعه ولأمنته في سبيل الله ، وحارب أهل الردة ، وغزا العراق . وعاش ستين سنة ، وقتل جماعة من الأبطال ، ومات على فراشه سنة ٢١ هـ ، فلا قرّت عين الجبناء . انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٦/٢) .

(٣) رواه البخاري عن أنس بلفظ مقارب . انظر: الفتح (١٠٠/٧) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب خالد بن الوليد . وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٦/١) .

(٤) أخرجه البخاري عن ابن عمر في المغازي ، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (٥٦/٨) ، ح (٤٣٣٩) ، وعبد الرزاق في المصنف (٢٢١/٥) .

(٥) هو: جندب بن جنادة ، الصحابي الزاهد المشهور ، كان ممن تخلف عن الجيش في غزوة تبوك ثم لحق بهم ، كانت وفاته بالربيعة سنة (٣١ هـ ، أو ٣٢ هـ) . انظر: الإصابة (٦٠/٧) .

(٦) رواه مسلم عن أبي ذر . انظر: صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة ، ح (١٨٢٦) .

نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية؛ لأنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد رُوي: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»^(١).

كان يمنع الرشوة، ويعدها غلواً وسُخْتاً ويحاسب عليها؛ لِمَا يترتب عليها من المفساد في حق الرعاة والرعية، كتعطيل الحدود ومنع الحقوق.

وهذا هو الموافق للعقل والشرع، وبه تتحقق مصلحة الأمة، وترك ذلك «من أكبر الأسباب التي هي فساد أهل البوادي والقرى والأمصار.. وأهل الحاضرة، من رؤساء الناس وأعيانهم وفقرائهم، وأمراء الناس ومقدميهم وجندهم، وهو سبب سقوط حرمة المتولي، وسقوط قدره من القلوب، وانحلال أمره، فإذا ارتشى على تعطيل حدٍ ضعفت نفسه أن يقيم حدًا آخر.. وإذا فعل ولي الأمر ذلك، فقد جمع فسادين عظيمين:

أحدهما: تعطيل الحد. والثاني: أكل السحت. فترك الواجب وفعل المحرم»^(٢).

ولمَّا فتح النبي ﷺ مكة، وتسلم مفاتيح الكعبة من بني شيبه، وطلبها منه علي بن أبي طالب، أو العباس^(٣)، وقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟»^(٤)، فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر»^(٥). . . . أرادوا أن يجمع لهم بين سقاية الحاج وسدانة البيت، وكانوا من أقرب الناس إليه؛ عمه وابن عمه، فأبى عليهم ذلك، وردّه إلى بني شيبه!

وكان من خطبته أيام التشريق: «ألا لا تظالموا - ثلاثاً - ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في أيام الجاهلية تحت قدمي هذه، ألا

(١) السياسة الشرعية، ص ١٧. والحديث رواه الترمذي في المناقب، ح (٣٨٠٢) عن أبي ذر، وقال: «حسن غريب». وحسن الأرنؤوط في «جامع الأصول» (٥٠/٩).

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية (٦٩، ٧٠) بتصرف.

(٣) هو: العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، قيل: أسلم قبل الهجرة، وكنم إسلامه، وقيل: خرج مع قومه إلى بدر فأمر يومئذ فادعى أنه مسلم، فالله أعلم. وكان مع النبي ﷺ ليلة العقبة يأخذ له من الأنصار قبل أن يسلم، وليس هو في عداد الطلقاء، فإنه كان قد قدم على النبي ﷺ قبل الفتح، وقدم الشام مع عمر، وكان يمنع الجار ويبدل المال ويعطي في التراب. توفي سنة (٣٢هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٧٨/٢)، والإصابة (٣٠/٤).

(٤) ابن أبي طلحة، واسمه: عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار، حاجب البيت، قتل أبوه طلحة وعمه عثمان بأحد، ثم أسلم عثمان في هدنة الحديبية، وهاجر، وشهد الفتح. وسكن المدينة إلى أن مات بها سنة (٤٢هـ). انظر: الإصابة (٢٢١/٤).

(٥) طرف من حديث ذكره ابن إسحاق في السيرة. ونقله عنه ابن كثير (٥١٥/١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وذكر في معناه آثاراً أخر عن ابن جرير (١٤٥/٥)، وليس في شيء من الكتب الستة، ولم أقف على كلام في إسناده لأحد من أهل الشأن، فالله أعلم.

وإن أول دم وُضِعَ دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل، ألا وإن كل ربا في الجاهلة موضوع، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس، فبدأ بنفسه وعشيرته، في أمرين، قلماً تدعن لهما النفوس بادي بدء؛ أمر الدماء وأمر الأموال، وهما مظنة الأثرة والاختصاص، واستغلال النفوذ.

لم يصانع رسول الله ﷺ قرابته، ولم يجعل لهم خصوصيات ليست لسائر أفراد الأمة، لا في المناصب ولا في غيرها؛ لأن مصلحة الأمة والأمة مقدمة على ما سواهما، ولأن مصلحة الخاصة أيضاً إنما تدوم وتبقى إذا قاموا بمصلحة العامة، وعدلوا فيهم!

جاء في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها: أن قريشاً، أهمهم شأن المخزومية، التي سرقت في غزوة الفتح، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ. فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجهه رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟». فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ؟ فاختطب، فأنتى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله ﷺ يتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت ثوبتها بعد ذلك ونزوت^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «في هذه القصة عبرة، فإن أشرف بيت كان في قريش بطنان: بنو مخزوم وبنو عبد المطلب وبنو عبد مناف. فلما وجب على هذه القطع بسرقتها، وكانت من أكبر القبائل وأشرف البيوت، وشفع فيها حب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، غضب رسول الله ﷺ، فأنكر عليه دخوله فيما حرم الله عليه، وهو الشفاعة في الحدود، ثم ضرب المثل بسيدة نساء العالمين، وقد برأها الله من ذلك، فقال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢)؛ وذلك «لأن المعاصي - ومن أعظمها تعطيل الحدود، أن ترك العدل في إقامتها - سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، كما يدل عليه الكتاب والسنة، فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله، ونقصت معصية الله تعالى، فحصل الرزق والنصر»^(٣).

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم. انظر: فتح الباري (٨٧/٧)، ح (٣٧٣٣). وانظر: صحيح مسلم في الحدود، ح (١٦٨٨).

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص ٦٥.

(٣) السابق، ص ٨٦ بتصرف.

وفي صحيح مسلم ، عن بريدة بن الحصيب ^(١) قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أو في حاجة نفسه أوصاهم بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً ، ثم يقول: «... اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً» ^(٢).

ما كان النبي ﷺ يبدأ أحداً بظلم ، ولا يغدر ، ولا يسبق بغدر ، بل كان أعداؤه من المشركين واليهود وغيرهم ، هم الذين يبدوون المسلمين بالظلم ويبعثون لهم الغدر .

وما كانت غزوات الرسول ﷺ وسراياه ، إلا عن دواع اضطرته إلى حرب المشركين ؛ فسبب وقعة الخندق: أن قريشاً كانت تبعث إلى اليهود وسائر القبائل ، يجرّضونهم على قتال الرسول ﷺ . والسبب في غزوة حنين - وتسمى غزوة هوازن - : ما بلغ الرسول ﷺ ، بعد أن فتح مكة وأسلم عامة أهلها ، أن هوازن وثقيف جمعت فيها جمعاً كثيراً ، وقصدوا محاربة المسلمين . ودعا إلى غزوة دومة الجندل: ما بلغه من أن جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم ، ويريدون أن يدنوا من المدينة . وسبب غزوة المريسيع - وهي غزوة بني المصطلق - : ما بلغه من أن فيها جمعاً يريد حرب الرسول ﷺ بقيادة الحارث بن أبي ضرار . وسبب غزوة الغابة: أن جماعة استاقوا غنمه ، وقتلوا ابن أبي ذر . وسرية ماء الرجيع: بعث الرسول ستة من أصحابه ، فغدر بهم أهل ماء الرجيع ، فكان ذلك سبب غزوة بني لحيان ^(٣).

هذا ، فضلاً عن الغزوات المشهورات ، كبدر وأحد وخيبر والفتح . وأسبابها معروفة مشهورة .

وفضلاً عما استفاض من أسباب إجلاء من أجلي من يهود ، وقتل من قتل منهم ، أن سبب ذلك هو ما تتابع من غدرهم ، وما ثبت من تحالفهم مع المشركين والمنافقين ، وأن جلاءهم لم يكن بسبب كفرهم ، لو التزموا ما عاهدوا النبي ﷺ والمؤمنين عليه ^(٤).

(١) ابن عبد الله الأسلمي ، أبو عبد الله ، قيل: أسلم عام الهجرة ، وشهد خيبر والفتح ، وكان معه اللواء ، واستعمله النبي ﷺ على صدقة قومه ، نزل مرو ونشر العلم بها ، وغزا خراسان زمن عثمان . توفي سنة (٦٢هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٤٦٩/٢).

(٢) انظر: صحيح مسلم ، في الجهاد ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، جزء من حديث رقم (١٧٣١) .

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/٣٣٩ ، ٣٤٠) ، وفيه ذكر أسباب كثير من الغزوات والسرايا ، وكلها من قبيل ما ذكرت .

(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/٣٤٧) ، والمجتمع المدني في عهد النبوة ، للدكتور/ أكرم ضياء العمري ، ص ١٣٧ ، وما بعدها .

وكثير من غزواته وسراياه كان الداعي إليها، أنه دعا قوماً إلى الإسلام فشاكسوه وقاوموه، وامتهنوا ما دعاهم إليه^(١). أو تهددوا المدينة، يريدون غزوها، أو قطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، أو اعتدوا على أحد من المسلمين، أو أهل ذمتهم في أطراف المملكة الإسلامية، أو نحواً من هذه الأسباب؛ ذلك أنه «من المتعذر أن يُخَمَى حمى الدين بغير حماية القائمين به، ولا يأمن المضعوف شرّ القوي إلا إذا قوي مثله، ولن تكون الحجاز بأمنٍ من جيوش الروم وفارس، إذا لم تكن العرب ذات سطوة يخشى بأسها»^(٢).

وكيف يغدر أو يظلم أو يمثل وهو الذي قال ما قال في النهي عن ذلك، بابي هو وأمي ﷺ؟

قال عمران بن حصين^(٣) - رضي الله عنهما: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن المثلة^(٤).

وبعد، فإن رغبتي أن أحدثك عن صور كثيرة من صور رعاية السنن، وأكشف لك عن آثار ذلك كله.. فأحدثك عن روح الأخوة التي أظلت المجتمع المسلم، يوم أن أصبحت أصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس. فهذا قرشي وذاك خزرجي، وذلك أوسيّ، ورابع حبشي، وخامس... و... كيف أصبحوا بنعمة الله إخوة متحابين، بلغت بهم الأخوة درجة اقتسام الأموال والبيوت والأرزاق، والتضحية بعلائق النسب فما دونها، إذا عارضت أخوة الإيمان.

وما قصة المؤاخاة الشهيرة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقصة مصعب بن عمير^(٥) مع أخيه أبي عزيز^(٦) - وكان صاحب لواء المشركين ببدر، بعد النصر بن

(١) الإسلام والحضارة العربية، نفس الجزء والصفحة.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/٣٤٨).

(٣) ابن عبيد الخزاعي، يُكنى أبا بُجَيْد، أسلمَ عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة، يوم الفتح، مات سنة (٥٢هـ)، وقيل: (٥٣هـ). انظر: الإصابة (٥/٢٦).

(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص ٨٢. والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٤٢٩، ٤٣٦)، عن عمران بن حصين. وقال البيهقي في (الفتح الرباني ١٤/٦٦): «وسنده لا بأس به». قلت: ويشهد له ما جاء في البخاري عن قتادة أنه قال - بعد أن ساق خبر القوم من عكل وعربية، وهم الذين كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، وأن النبي ﷺ أمر بهم فسُجِلت أعينهم وقطعت أيديهم، وثُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا - قال قتادة: «بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة، وينهى عن المثلة». انظر: الفتح (٧/٤٥٨).

(٥) ابن هاشم بن عبد مناف، السيد الشهيد السابق البدري، أول من قَدِمَ المدينة من المهاجرين، كان أترَفَ فتى بمكة، فصر على شظف العيش، وقاتل دون رسول الله ﷺ يوم أُحُد حتى قُتِلَ، قَتَلَهُ ابْنُ قَمِيَةَ اللَّيْثِيِّ، يظنه رسول الله ﷺ، ولم يجدوا ما يكفونوه به إلا تَوْبًا واحداً، إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجله بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غَطُّوا رَأْسَهُ واجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ» [متفق عليه]. انظر: سير أعلام النبلاء (١/١٤٥).

(٦) ابن عمير بن هاشم العبدي، له صحبة وسماع من النبي ﷺ، أُمِرَ يوم بدر مع من أُمِرَ من المشركين، وقيل: قُتِلَ يوم أُحُد كافرًا، والأول أظهر. انظر: الإصابة (٧/١٣٠).

الحارث، وأسره أبو اليسر^(١) يوم بدر، وقصة عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول^(٢) مع أبيه، وكان رأس النفاق، في غزوة بني المصطلق، وقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. وما حصل لهم من الهجر خمسين يوماً، حتى أنزل الله توبتهم، رضي الله عنهم... ما قصص هؤلاء وغيرهم في الأخوة بخافية^(٣).

وأحدث إليك عن حياة الطهر والعفاف والأمن، في مجتمع كان قوام حياته قبل إسلام أفراده احتساء الخمر والتغني بها، وممارسة الرذيلة والمباهاة بفعلها، في مجتمع يرى السُّلب والنَّهْب والإغارة عنوان فروسيته ودليل نخوته. فأصبحت تسمع لأول مرة في تاريخ الدنيا آنذاك: أن رجلاً يقارف الزنا، فيأتي مختاراً يقول: يا رسول الله، طَهَّرْنِي. وامرأة تفعل مثل ذلك فتقول: طهرني يا رسول الله! وتجد من يسأل متحرجاً: «يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها^(٤)؟» تفسير جديد للحياة، وقيم جديدة للعيش، تحترم النفوس والعقول والأعراض لا عهد للدنيا بها.

إنَّ هذه المشاهد والمواقف، لتؤكد لنا أن رعاية حدود الله، وحمل الأمة على الإذعان لها، قد كلف رسول الله ﷺ الكثير الكثير، ولكن نتائجها الملموسة كانت أكبر وأعظم.

لقد كان رسول الله ﷺ يواجه من الأمة المسلمة ألواناً من التساؤلات، بل الاعتراضات أحياناً، كلما أراد أن يحملهم على أمر كبير، كإقامة الحدود مثلاً، وترك دعوى الجاهلية ونخوتها، أو يدرّبهم على غير ما ألفوا، كإقرار مبدأ المساواة، والتمرن على البذل في سبيل الله. ولكن سنوات عشرًا مع ما سبقها من إعداد إيماني، بأحداثها وملابساتها، كانت كفيلة بتهديب تلك الطلائع، وتحويلها من شتات متناحر إلى قوة ضاربة وأمة متوّبة، حصدت في سنوات معدودة انتصارات متوالية، أرغمت من نأى منها ومن دنا أن يحسب لها ألف حساب!

(١) أبو اليسر، كعب بن عمرو الأنصاري، السلمي، المدني، البدري، العقبي، الذي أسرّ العباس يوم بدر، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، شهد العقبة وله عشرون سنة، وشهد صفين مع علي بن أبي طالب. وتوفي سنة (٥٥٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٥٣٧).

(٢) ابن مالك بن الحارث، أنصاري خزرجي، أبوه رأس النفاق، وهو من سادة الصحابة، وكان اسمه «الْحَبَّاب»، وبه كان يُكنى، فقَبِئَةُ النبي ﷺ. انظر: سير أعلام النبلاء (١/٣٢١).

(٣) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (نظام المواخاة في عهد النبوة)، ٧١ وما بعدها.

(٤) رواه مسلم من حديث المقداد بن الأسود ﷺ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، ح (٩٥).

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .
قال ابن هشام^(١): حدثني أبو عبيدة^(٢): أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت عام الوفود .

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تتريص بالإسلام أمر هذا الحبي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ . . وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما فُتِحَت مكة، ودانت له قريش ودوَّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، دخلوا في دين الله، كما قال عز وجل: ﴿أَفَؤَابًا﴾ [النصر: ٢]. يضربون إليه من كل وجه^(٣) .

«والقبائل تنزل على حكم الرسول ﷺ وأصحابه، والوفود تفد عليه من أقطار بلاد العرب، يدخل أهلها في طاعته، وتتخلى عن الشرك وتدين بالتوحيد، وتؤدي الصدقات والأموال، ومنهم من ينضم إلى جيشه، ومنهم من يبقى في أرضه، وأهل الكتاب يؤدون الجُزى والعشور، ويسالمون الرسول، لا يرجون غير رضاه»^(٤) .

أقول: لقد كان يهتأني أن أسترسل في الحديث عن هاتيك المعاني الضخمة التي تنطوي عليها سيرة رسول الله ﷺ، ويتسم بها مجتمع الإسلام في المدينة . . ولكنني مضطراً إلى ليّ عتق الحديث، وأن آيمم وجهي شطر المساحة الشاسعة من تاريخ صدر الأمة، لأقف بك على ثمرات هذه التربية الدءوب على مستوى العالم، بعد أن دانت جزيرة العرب بهذا الدين وتمثله أبنائها أحسن تمثل وأتمه .

لقد تعلم الصحابة في عهد النبوة كل ما يحتاج إليه الفرد وتحتاج إليه الأمة، ولم يقبض رسول الله ﷺ حتى أنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] . وقيل لسلمان الفارسي ﷺ: قد علمكم نبيكم كل شيء، حتى الخِراءة . قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول،

(١) هو: عبد الملك بن هشام بن أيوب الثعلبي، العلامة النحوي الإخباري. هدَّب السيرة النبويَّة، وسمعا من زياد الكائني صاحب ابن إسحاق، كان إمام مصر بالعربية والشعر. توفي سنة (٢١٨هـ) كما جزم به الذهبي. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٤٢٨).

(٢) معمر بن المثنى التميمي بالولاء، من أئمة اللغة والأدب، كان إبايضاً شعبياً من حفاظ الحديث، قال ابن قتيبة: «كان يغيض العرب، وصُفَّ في مثالبهم، ولما مات بالبصرة سنة (٢٠٩هـ) لم يحضر جنازته أحد، ليشدة نقده معاصريه». انظر: طبقات الزبيدي، ص ١٧٥، ونبغية الوعاة (٢/٢٩٤).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/٢٧٣، ٢٧٤).

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/٣٤٣).

أو أن نستنجي باليمين ، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار ، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم^(١) .

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير الجامع

ومرة أخرى ، ماذا أخذ وماذا أدع من الأمثلة؟ ولكن سأحاول الاختصار غير المُخِلِّ وتُخَيِّرُ الشواهد الكاشفة لآثار رعاية السنن في الجوانب ذات الأهمية لعموم الأمة ، خصوصاً في محنة المسلمين المعاصرة . وستقرأ في الصفحات التالية نماذج من العدل باهرة ، وأمثلة من الإحسان الرائعة ، وشواهد على سمو الأهداف وتُبلِّغُ المقاصد ، ومواقف كأنها الأساطير . . شاهدة بأن هذه الأمة كانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

ولن أعلق عليها بشيء ؛ لأن المعرفة لا تعرف ، كما قيل !

لَمَّا بَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيْفَةِ ، خَطَبَ فَحَمَدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ وُكِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِمُخَيَّرِكُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَقَوِّمُونِي ، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ وَالكَذِبُ خِيَانَةٌ ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أَرْجِعَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لَا يَدْعُ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا خَذَلَهُمُ اللَّهُ بِالذَّلِّ ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ . أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ »^(٢) .

ولما وُلِّيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْخِلَافَةَ ، كَانَ مِمَّا قَالَ فِي خُطْبَتِهِ : « فَوَاللَّهِ لَا يُحْضِرُنِي شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ فَيَلِيهِ أَحَدٌ دُونِي ، وَلَا يَتَغَيَّبُ عَنِّي فَأَكُو فِيهِ عَنِ الْجِزَاءِ وَالْأَمَانَةِ ، وَلَتُنَّ أَحْسَنُوا لِأَحْسَنِنَ إِلَيْهِمْ ، وَلَتُنَّ أَسَاءُوا لِأَنْكَلُنَّ بِهِمْ . وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي شَدِيدٌ فَلْيُنِّيْ ، وَإِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي ، وَإِنِّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي »^(٣) .

وكان بعض المسلمين تخوَّف من أن يشتد عليهم عمر في ولايته ، فخطب فيهم ، فكان مما قاله : اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت^(٤) ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم

(١) رواه مسلم عن سلمان ؓ . انظر : صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، باب الاستطابة ، ح (٢٦٢) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٣٠١/٦) .

(٣) كنز العمال ، لعلاء الدين البرهان فوري (٦٨٤/٥) ، ح (١٤١٨٧) . والإسلام والحضارة العربية (٣٦٥/٢) .

(٤) أي : تضاعفت وزادت .

والتعدّي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا أَلَيْنُ لهم من بعضهم لبعض، ولست أدعُ أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه، حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر، حتى يذعن بالحق. وإني بعد شدّتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم^(١).

وكتب عثمان بن عفان إلى الناس بالأمصار: «أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يُذِلّ المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله»^(٢).

هذا واسطة عقد آثار رعاية السنن، وجماعها، وهو مشتمل على أبواب من الخير، سيظهر لك طرف منها.

واسطة العقد أن تأتي الولاية - أيا كانت - إلى أحدهم لكفاءته، ولا يتطلبها رغبة فيها.. تمشي إليه ولا يمشي إليها، يدفعها عن نفسه بالراحتين واليد.

يفعل ذلك؛ لأنه لا أرب له في مطامعها، ويعلم ضخامة تكاليفها، فما الذي يغيره منها؟

قال أبو بكر، بعد أن بايعه من كان تأخر عن البيعة من الصحابة، كعليّ والزبير^(٣) رضي الله عنهم؛ قال: «والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها الله في سرّ ولا علانية...». فقبل المهاجرون مقالته^(٤).

ولمّا طعن عمر بن الخطاب، قيل له: لو استخلفت، فلما لم يقع اختياره على أحد، قال له رجل: أدلك على عبد الله بن عمر^(٥). فقال: «قاتلك الله، والله ما أردت بهذا خيراً، ويحك! كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي»^(٦).

(١) كنز العمال (٥/ ٦٨١ - ٦٨٣)، ح (١٤١٨٤). وعظماؤنا في التاريخ، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ١٣٩)، يُرجع إلى المصادر الأصلية.

(٣) هو: الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد، أبو عبد الله، حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته صفية، أسلم وهو حَدَثٌ، وأبلي في الإسلام، وكان صلّياً في دينه، وأوذي فيه فصر، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد السّنة أهل الشورى، وأول من سلّ سيفه في سبيل الله، قُتِلَ ﷺ في صف معاوية يوم الجمل سنة (٣٦هـ)، قتله ابن جرّموز. انظر: سير أعلام النبلاء (٤١/١).

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٢).

(٥) عبد الله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، القرشي، العدوي، الإمام القدوة، أبو عبد الرحمن. أسلم وهو صغير، وهاجر مع أبيه وهو لم يحتلم، أول غزواته الخندق، من المُكثِرِينَ في الحديث والفتيا. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٣).

(٦) الإسلام والحضارة العربية (٢/ ٣٧٠).

حتى إذا ما قلدها وتحملها، لم يكن شيء أحب إليه من أن يقوم بالحق والعدل فيها، ويحكم بالقسط، ويحسن إلى الناس، ويرعى الحقوق؛ لأنه يرى أن ذلك هو مسوغ وجوده. يُدني من كان أمثل في الحق، ولا يدنو منه إلا من كان كذلك. يختار الأصلاح؛ لأنها أمانة. ويحاسب عماله حساباً دقيقاً؛ لأن بيته ليس من زجاج^(١)!

إن الوالي في صدر هذه الأمة، كان فرداً ممتازاً، قبل أن يكون والياً، وكان شجاعاً قبل أن يكون قائداً، وكان أميناً قبل أن يكون جابياً أو خازناً؛ لأنه كان مؤمناً بالله قبل أي شيء آخر.

إن موقف الوالي من منصبه، ونظرته إلى مسئوليته الجديدة - مهما كان مسمّاه - هي - باستقراء الأحوال - حجر الزاوية في تفسير كثير مما يجري في مملكته^(٢).

فهو «كالسوق، ما نفق فيه جُلب إليه؛ هكذا قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة، جُلب إليه ذلك، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة، جُلب إليه»^(٣).

«حُبل مرّة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مال عظيم من الخمس، فقال: إن قوماً أدوا الأمانة في هذا لأمتاء. فقال له بعض الحاضرين: إنك أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة، ولو ركعت لرُكعوا»^(٤).

فمن أنزل نفسه من ولايته منزلة الراعي الأجير، والوالي على مال اليتيم، والشريك الوكيل، فقد عرف قدره وأحرز نفسه، ومن كان بخلاف ذلك، حصل عليه وعلى الأمة من النقص والبلاء بسببه، بقدر ما فرط في ذلك.

قال أبو مسلم الخولاني^(٥) لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جربها، وداويت مرضها، وجبست أولها على

(١) وكان الخلفاء الراشدون، وعدد من خلفاء بني أمية وبني العباس، ممن اشتهروا باللبانة والفظنة يفعلون ذلك، وأشهر من اشتهر بمحاسبة العمال والولاة على الأقاليم - فيما وقفت عليه - عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز، رحمه الله.

(٢) انظر مثلاً: رسالة مختصرة بعنوان: «مشاكل الناس لزمانهم»، للمؤرخ/ أحمد بن إسحاق اليعقوبي.

(٣) السياسة الشرعية، ص ٣١.

(٤) السياسة الشرعية، ص ٣١. ومعنى ركعت: أكلت ما شئت.

(٥) الداراني، سيد التابعين، وزاهد العصر، اختلف في اسمه، وصحح الذهبي أن اسمه: عبد الله بن ثوب. قديم من اليمن وأسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل المدينة في خلافة الصديق. وكانت وفاته - فيما قيل - سنة (٦٢هـ) غزياً بأرض الروم. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/٤).

أخرها^(١). وفأك سيدها أجرك، وإن أنت لم تهنا جرباها، ولم تداو مرضاها، ولم تحبس أولها على أخرها، عاقبك سيدها^(٢).

وقال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لو وسّعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى. فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم مالا، وسلّموه إلى واحدٍ ينفقه عليهم، فهل يحلّ لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم^(٣)؟

ولقد كان عامة ولاة الدولة الإسلامية في صدر الإسلام من ذاك الطراز، على تفاوت بينهم.

جاء في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري^(٤) - رضي الله عنهما - في القضاء، أن «أس بين الناس في خلقك وعدلك ووجهك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يياس ضعيف من عدلك».

وكان إذا استعمل العمال قال لهم: «إني لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ، على أشعارهم ولا على أبقارهم، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا فيهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل^(٥). ألا لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنهم^(٦). ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم، ولا تمنعوهم فتظلموهم^(٧)».

وكان يشترط عليهم ألا يشغلوا مناصبهم في فائدة خاصة، أو مصلحة لهم أو لأهل بيوتهم، وألا يغلقوا أبوابهم دون ذوي الحاجات. ويكتب بذلك كتاباً للوالي، ويُشهد عليه عدداً من الصحابة^(٨).

(١) يعني: حافظت على كل واحدة منها، بحيث تكون جميعها موضع رعايتك وعنايتك.

(٢) السياسة الشرعية، ص ١٢، بتصرف.

(٣) السياسة الشرعية، ص ٣١.

(٤) عبد الله بن قيس، أسلم وهاجر إلى الحبشة، وقدم المدينة بعد فتح خيبر، واستعمله عمر بن الخطاب في عدة ولايات، وكان أحد الحكيمين بصرفين، ثم اعتزل الفريقين، وكان حسن الصوت. مات سنة (٤٢هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر: الإصابة (١١٩/٤).

(٥) وأصل الخبر في مسلم، ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم عليهم ليعدلوا عليهم وليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ﷺ، ويقسموا فيهم فيهم، ويرفعوا إلي ما أشكل عليهم من أمرهم». انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥١/٥).

(٦) أي: لا تظيلوا أمد إقامتهم في الحرب بعيدين عن أهلهم ونسائهم فتفتنهم وتقطعوا نسلهم. انظر: عظامونا في التاريخ، للدكتور/ مصطفى السباعي، ص ١٤٠.

(٧) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٤٣/١)، عن تاريخ الطبري: باب مناقب عمر، بعد خبر مقتله. وانظر: كثر العمال (٥/٦٨٨)، ح (١٤١٩٧)، وعظامونا في التاريخ، ص ١٤٠.

(٨) انظر: كثر العمال (٥/٦٩١)، ح (١٤٢٠٢).

حَدَّثَ ابْنَهُ عبد الرحمن في الخمر، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر؛ لأنَّ أحدَ قِيظِهَا استعداه عليه وشكاه إليه، وقال كلمته العظيمة: «يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»^(١).

وأراد أن يحدَّ جبلة بن الأيهم، من ملوك غسان^(٢)؛ لأنَّ رجلاً فزارياً في الحج وطئ على إزاره، فلطمه جبلة فهشم أنفه، وشكاه الفزازي، فأراد عمر جبلة أن يفتدي نفسه أو يأمر الرجل بلطمه، فقال جبلة: كيف ذلك، وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال: إنَّ الإسلامَ جمعكما، وسوَّى بين الملك والسوقة في الحدِّ، ففرَّ جبلة والتحق بالروم^(٣).

أقول: فرَّ جبلة من عدل عمر إلى الروم، ولكن دخلت أقطار وممالك بأسرها في الإسلام، ببركة عدل عمر وبسببه. فما أربح الصفقة!

«ولما بُويغَ عمر بن عبد العزيز، شرع لأول مرة، بصرف عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وأخذ يرد المظالم؛ مظلمة مظلمة، لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا ردَّه. وكتب إلى جميع عماله، أنَّ الناس قد أصابهم بلاء وشدةٌ وجور في أحكام الله، وسُنن سيئةٌ ستتها عليهم علماء السوء، قلِّموا قصدوا الحقَّ والرفق والإحسان»^(٤).

وساوم عمر بن الخطاب رجلاً على فرس ليشتريه، فركبه عمر ليشوره^(٥). فغضب، فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا، قال: أجعل بيني وبينك حكماً. قال الرجل: شُرِّيح^(٦). فتحاكما إليه، فقال شُرِّيح: يا أمير المؤمنين، خذ ما ابتعت، أو ردَّ كما أخذت. فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا! سيرَّ إلى الكوفة، فبعته قاضياً عليها.

وردَّ عمر بن عبد العزيز على رجل أرضاً، كان قد ورثها من أبيه، وكان عبد الملك

(١) والقصة بطولها في التاريخ الإسلامي، القسم الثالث (الخلفاء الراشدون)، لمحمد شاعر، ص ١٩١، ١٩٢.
 (٢) من آل جفنة، آخر ملوك الفساسنة في بادية الشام، عاش في الجاهلية زمنًا، وقاتل المسلمين في دومة الجندل وفي البرموك، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة، ثم ارتد ولحق بالروم ولم يزل بالقسطنطينية عند ملك الروم حتى مات سنة (٢٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٢)، والأعلام (٢/١١١).
 (٣) الإسلام والحضارة العربية (٢/١٣٦)، وانظر: التاريخ الإسلامي، لمحمد شاعر (الخلفاء الراشدون)، ص ١٩٢.
 (٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/١٧٤)، وانظر: البداية والنهاية (٩/٢١٣).
 (٥) أي: ليعرف مقدار عدوه ويختبر سرعته. انظر: مفردات الراغب، مادة (شور).
 (٦) هو: الفقيه أبو أمية، شريح بن الحارث الكندي، قاضي الكوفة، يُقال: له صحة، ولم يصح، بل هو ممن أسلم في حياة النبي ﷺ وانتقل من اليمن في حياة الصديق، مات - رحمه الله - سنة (٧٨هـ)، أو سنة (٨٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/١٠٠).

ابن مروان^(١) قد أقطعها أباه ، فقال عمر: إن لي فيها شركاء ؛ إخوة وأخوات ، لا يرضون أن أفضي فيها بغير قضاء قاض . فقام معه إلى القاضي ، فقعده بين يديه ، فتكلم عمر بحجته ، وتكلم الرجل بحجته ، ففضى القاضي بها للرجل ، فقال عمر: إن عبد العزيز^(٢) قد أنفق عليها ألف درهم . قال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فتلجت نفس عمر بحكم القاضي ، وقال: وهل القضاء إلا هذا! تالله لو قضيت لي ما وليت لي عملاً ، وخرج إلى الرجل من حقه^(٣) .

ورغب مولى لعمر بن الخطاب أن يكتب عمر كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها ، فانتهره عمر وسبه وقال: أتريد أن يظلم الناس ، وهل هو إلا رجل من المسلمين ، يسعه ما يسعهم؟!

وأوعز زياد^(٤) إلى والي خراسان أن يصطفي معاوية^(٥) الصفراء والبيضاء ، فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة ، عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب والي خراسان إلى زياد: بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين ، وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه - والله - لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً على عبد ، ثم اتقى الله ، جعل له مخرجاً ، والسلام . وقسم الفيء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة ؛ لأنه رأى في ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد^(٦) .

وكان نور الدين زنكي^(٧) - كوالده - ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك . ويقول:

(١) ابن الحكم بن أمية ، أبو الوليد ، الخليفة الفقيه ، تمكك بعد أبيه الشام ومصر ، وحارب ابن الزبير ، وكان الحجاج ساعده الأمين في ذلك ، كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً ، قال الأصمعي: « قيل لعبد الملك: عجل بك الشيب . قال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة » . وقال الذهبي: « كان من رجال الدهر ، ودعاة الرجال ، وكان الحجاج من ذنوبه » . توفي سنة (٨٦ هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٦/٤) .

(٢) هو: عبد العزيز بن مروان ، والد عمر ، كان والياً على مصر عشرين سنة وزيادة ، وثقه ابن سعد والثقات ، وله في سنن أبي داود حديث . مات سنة (٨٥ هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (١٣٤/٤) ، (١٧٥) .

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١٣٤/٢) ، (١٧٥) .

(٤) هو: زياد بن أبيه ، سُمي بذلك ؛ لاختلافهم في اسم أبيه ، كان أميراً قائداً خطيباً من أهل الطائف . أدرك النبي ﷺ ولم يره ، وأسلم في عهد أبي بكر ، أُلحق معاوية بنسبه سنة (٤٤ هـ) ، وكان عضده الأقوى ، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق ، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة (٥٣ هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٤٩٤/٣) ، والأعلام (٥٣/٣) .

(٥) هو: معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأموي ، كاتب الوحي ، وخال المؤمنين ، ولي الشام مدة طويلة ، ووقعت بينه وبين علي بن أبي طالب وأهل العراق حروب ، وألقت إليه الخلافة بعد مقتل الحسين بن علي وتنازل الحسن سنة (٤١ هـ) ، وسُمي عام الجماعة ؛ لاجتماعهم على إمام واحد . وتوفي سنة (٦٠ هـ) ، رضي الله عنهم أجمعين . انظر: سير أعلام النبلاء (١١٩/٣) .

(٦) الإسلام والحضارة العربية (١٣٤/٢) ، (١٥١) .

(٧) نور الدين محمود بن زنكي ، المُلقب بالملك العادل ، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر ، كان أعدل ملوك زمانه وأجلمهم وأفضلهم ، كان معنياً بمصالح رعيته ، مداوماً للجهاد ، يباشر القتال بنفسه ، بنى مدارس كثيرة ، منها: «العادلية» و«دار الحديث» ، كلتاهما في دمشق ، وكان متواضعاً مهيباً مُكرماً للعلماء ، كان يتمنى أن يموت شهيداً ، وكان من المماليك . توفي - رحمه الله - سنة (٥٦٩ هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٥٣١/٢٠) ، والأعلام (١٧٠/٧) .

ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان؛ ظلموا الرعية، وغصبواهم أملاكهم!
وقال صلاح الدين^(١) لأحد خاصته، وقد استعداه على جمال: ما عسى أن أصنع
لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره
ونواهيه ممثلة، وإنا أنا عبد الشرع وشجنته^(٢) فالحق يقضي لك أو عليك^(٣)!
وكتب عمر بن الخطاب إلى ولاته، يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل
الذمة، وأوصى بأهل الذمة أن يوفى لهم عهدهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم. وكان إذا
أسلم الذمي سقطت عنه الجزية، وإذا ثبت أن عليه ديناً يستغرق ماله كله، يُعفى من
العُشر ومن الجزية^(٤).

مرَّ عمر بسائل؛ شيخ ضريير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل
الكتاب أنت؟ قال: يهودي. قال: فما الجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة
والسن. فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثم أرسل إلى خازن بيت المال
فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شيبته، ثم خذلناه عند الهرم^(٥).
وخاصم حسان بن مالك^(٦) عجم أهل دمشق إلى عمر بن العزيز في كنيسة كان
رجل من الأمراء أقطعها إياها، فقال له عمر: «إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في
عهدهم فلا سبيل لك عليها»^(٧).

وكتب عامل عمر بن العزيز على مصر إلى عمر: «إن أهل الذمة قد أسرعوا في
الإسلام وكسروا الجزية.. وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الإسلام.
فأجابه عمر: قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على
رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عمن أسلم، قَبَّحَ اللهُ رأيك، فإنَّ اللهُ إنما بعث

(١) هو: صلاح الدين، يوسف بن أيوب الأيوبي، الكردي، الملقَّب بـ «الملك الناصر»، الإمام المجاهد العادل، فاتح
القدس، وهازم الصليبيين، وقاطع دابر الفاطميين بمصر. توفي سنة (٥٨٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٧٨/٨)،
والأعلام (٢٢٠/٨).

(٢) الشجنته: الشبهة من الشيء والفرع منه. انظر: القاموس المحيط، مادة (ش ج ن).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (٢٨٨/٢، ٢٩١).

(٤) انظر: كنز العمال (٧٠٧/٥) ح (١٤٢٢٤)، والإسلام والحضارة العربية (١٣٨/٢)، وبهذه الوصايا كانت عامة الولاية
تعامل أهل الذمة. انظر: المصدر السابق (١٥١/٢، ١٧٩، ٢٢٩، ٢٣٠).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي، القسم الثالث (الخلفاء الراشدون)، لمحمود شاکر، ص ١٩٦. وانظر: أثر تطبيق النظام
الاقتصادي الإسلامي في المجتمع، ص ٣١٨.

(٦) ابن مجدلي بن أنيف، أمير العرب، أبو سليمان الكلبي، من أمراء معاوية يوم صفين، له قصر بدمشق، وهو قصر
البحار، ثم صار يُعرف بـ «قصر ابن أبي الحديد». انظر: سير أعلام النبلاء (٥٣٧/٣).

(٧) الإسلام والحضارة العربية (١٧٩/٢)، وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل. انظر: المصدر السابق (١٣٨/٢، ١٥١،
١٧٩).

محمدًا هاديًا، ولم يبعثه جايياً»^(١).

وكتب إليه عامله على العراق عدي بن أرطاة^(٢): «إِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرُوا فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى خَفْتُ أَنْ يَقِيلَ الْخِرَاجَ . فَكُتِبَ إِلَيْهِ: وَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنْ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَسْلَمُوا حَتَّى نَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ حِرَاثَيْنِ نَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ أَيْدِينَا»^(٣).

وكان عمر بن الخطاب يسأل القوم عن أميرهم: هل يعود المرضى؟ وهل يعود العبد؟ كيف صنيعه بالضعيف؟ وهل يُجلس على بابه؟ وكان يأمر عماله بذلك^(٤).

وقد أقام دور الضيافة، ورصد لها الأموال، واتخذ دار الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزيت، وما يحتاج إليه؛ ليعين من ذلك المحتاج. ووضع فيما بين مكة والمدينة وفيما بين الشام والحجاز ما يصلح في الطريق من ينقطع به.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان^(٥) صاحب الفتوح الواسعة من الهند إلى الأندلس خصصت أعطيات للمجذومين لمنعهم من الاحتكاك بالناس، قدر المستطاع، كما أعطى المُقعدَ خادماً، والضرير قائداً يأخذ بيده^(٦).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لئن سلمني الله، لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً».

وقال وهو يحدد سياسته في قسَم الأموال: «والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»^(٧).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمصار الشام أن يرفعوا إليه كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج، أو من به زمانة تحُول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فأمر لكل أعمى بقائد، ولكل اثنين من الزماني بخادم.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥) بنحوه.

(٢) الفزاري دمشقي، عامل عمر بن عبد العزيز على البصرة. قال عباد بن منصور: «خطبنا عدي على منبر المدائن حتى بكى وأبكى». وقال معمر: «كتب عمر إلى عدي بن أرطاة: إنك غررتني بعمامتك السوداء، وبجالتك القرء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور؟». قلته معاوية بن يزيد بن المهلب سنة (١٠٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥٣/٥).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١٨٠/٢).

(٤) انظر: كنز العمال (٦٩٦/٥)، ح (١٤٢٠٩).

(٥) أبو العباس الأموي، ولي الخلافة بعد أبيه، وكان مترفاً يتبحر في مشيته، وكان قليل العلم، نهته في البناء، ولكنه كان كثير الفتوح، وتوسعت مملكة الإسلام في عهده، وبنى جامع دمشق المعروف بـ «الجامع الأموي». وكانت وفاته سنة (٩٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٤٧/٤).

(٦) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٤٦/١).

(٧) الإسلام والحضارة العربية (١٢٨/٢، ١٣١).

وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم، ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونهم بالسوية، وفرض للعوانس الفقيرات. وكان لا يفرض للمولود حتى يفطم، فنادى مناديه: لا تعجلوا أولادكم عن الفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وانخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل.. وأنشأ الخانات في بلاده، يقري من مرَّ بها من المسلمين يوماً وليلة، ويتعهد دوابهم، ويقرون من كانت به علة يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به، يقوى بما يصل به إلى بلاده.. حتى لم يبق فقير في أيامه، في أكثر الأمصار؛ لكثرة ما ورَّع على الفقراء^(١).

وبعث عاملاً على صدقات إفريقية فأراد أن يعطي منها الفقراء فالتمسهم في كل مكان، فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال، فاشترى بها رقاباً وأعتقها، وجعل ولاءهم للمسلمين.

وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم، ويقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، لا يجد من يضعه فيهم؛ لكثرة ما أغنى الناس عمر^(٢)!

ولما تولَّى المهدي^(٣) وقف على مظالم كان يعمل بها من قبله، فقال: معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً تقدم العمل به.. أسقطوه عن الناس. فقال أحدهم: إن أسقط أمير المؤمنين هذا، ذهب من أموال السلطان في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم. فقال المهدي: أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً، وإن أجحف بيت المال^(٤).

قال ابن حوقل^(٥): «حدود المملكة الإسلامية هي: شريقها أرض الهند، وغربها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشمالها بلاد الروم وما يتصل بها

(١) وانظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١/١٤٦) وما بعدها. وانظر: البداية والنهاية (٩/٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/١٨٢، ١٨٨). وانظر خبره مع عامله على العراق في: أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع، ص ١٣٨، وقد عزاها الكاتب لـ «كتاب الأموال لابن سلام»، ص ٢٥١، فهي أعجب مما ذكر. (٣) محمد بن هارون، أحد خلفاء بني العباس. بُويح له بعد خلع المعتز سنة (٢٥٥هـ)، وكان فيه شجاعة، وكان حميد السيرة، يأخذ أخذ عمر بن عبد العزيز في الصلاح. توفي سنة (٢٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٥٣٥)، والأعلام (٧/١٢٨).

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/٢٤٤).

(٥) محمد بن حوقل البغدادي الموصل، رحالة من علماء البلدان، كان تاجراً، ويُقال: كان عيناً للفاطميين، له كتاب «المسالك والممالك». توفي سنة (٣٦٧هـ). انظر: الأعلام (٦/١١٠).

من الأرض والخزر البلغار والصقالبة والترك والصين، وجنوبيها بحر فارس. وكان المسلم يستطيع أن يرتحل داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه، وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلني، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً وعادات واحدة، وكان في هذه المملكة المتسعة الأطراف قانون عملي، يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية، فلا يستطيع أحد أن يستره على أي صورة من الصور..^(١)

ويقول الأصبخري عن مسلمي ما وراء النهر: «وأما سماحتهم، فإنّ الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه دخل دار نفسه.. لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنازل للأضياف، فإذا حل بينهم طارق تنافسوا فيه وتنازعوا، وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر؛ صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق، والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية أهلة إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقة، إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه.. وقل ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل (أي هيئ للناس في سبيل الله) من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة»^(٢).

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام، في جماعة، منهم أبو عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح^(٣)، فلما أتوا على مخاضة، وعمر على ناقته، نزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا؟ تلخ خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرني أن أهل البلد استشفروك.

فقال عمر: أوه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة، جعلته نكالا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به، أذلنا الله». وفي

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٥٥/٢)، عن كتاب «المسالك والممالك» لابن حوقل (١١/١).

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٤٧/١).

(٣) الفهري المكي، أمين هذه الأمة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام، وعن عزم الصديق على توليته الخلافة، وكان رأس الإسلام يوم وقعة اليرموك التي استأصل الله بها جيوش الروم. توفي في طاعون عمواس سنة (١٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥/١).

رواية: «يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟! فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزّ بغيره».

ولما تواجه الجيشان في القادسية، جيش المسلمين وجيش الفرس، بعث رستم^(١) إلى سعد^(٢) أن يبعث إليه برجل عاقل، عالم بما أسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبه^(٣) رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، ولا تمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إننا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً. قال له: إنني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به. وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ.

فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أمّا عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به: فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.

قال: وحسن أيضاً. وأي شيء أيضاً؟

قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم.

قال: وحسن أيضاً.

قال رستم: رأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟

قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضاً».

ثم بعث سعداً إلى رستم رسولاً آخر بطلبه، هو ربيعي بن عامر، فدخلوا عليه، وقد زينوا مجلسه بالتمارق المذهبة والزرابي الحرير... (إلى آخر ما وصفوا من الزينة)...

(١) قائد جيش الفرس.

(٢) هو: سعد بن مالك بن أمية، أبو إسحاق القرشي الزهري، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين، وأحد الستة أهل الشورى بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان فتح العراق على يديه، وكان على رأس جيش القادسية. توفي سنة (٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩٢/١).

(٣) ابن أبي عامر، الأمير أبو عيسى، من كبار الصحابة أولي الشجاعة، شهد بيعة الرضوان، وشهد المشاهد، ولزم الصديق، توفي أميراً على الكوفة سنة (٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣).

ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتوني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق، فخرق عامتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك، قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبي قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبي، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختاروا واحدة من ثلاث، بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أذنهم على أعلامهم^(١).

وكانوا - أعني المسلمين - مع اعتزازهم بدينهم وظهورهم على عدوهم، لا يأنفون من التصريح بما في عدوهم من خصال حسنة، وهذا من دلائل عظمتهم هم، ومظاهر إنصافهم.

جاء في صحيح مسلم أن المستورد القرشي^(٢) عند عمرو بن العاص، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذاك، إن فيهم لخصالاً أربعاً:

(١) البداية والنهاية (٣٩/٧، ٤٠) بتصرف. وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٢/٣).

(٢) هو: المستورد بن شداد بن عمرو، القرشي، الفهري، نزيل الكوفة، له ولأبيه صحة، له أحاديث في مسلم والترمذي وغيرهما، وعلق له البخاري. توفي بالإسكندرية سنة (٤٥هـ). انظر: الإصابة (٨٧/٦).

إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك^(١).
وبعد: فلا يتسع المقام للحديث عن كل جوانب العظمة في الإسلام، ولا حتى توفية بعضها حقها، ولست هنا أؤرخ لتلك الفترة، وإنما هو الاجتهاد في عرض بعض جوانب العظمة في صدر هذه الأمة، من خلال عرض صور وأمثلة ناطقة معبرة.

ولعل من أبرز جوانب العظمة التي قرأنا شواهدنا:

- صدق الإيمان، والجد في الأخذ من الكتاب والسنة، والصدور عنهما.
- صدق الجهاد في سبيل الله، والتجرد لهذا الدين.
- تحقيق معنى «الأمة» في صورته الحقيقية الشاملة.
- تحقيق العدل الشامل في السياسة والقضاء والمال في واقع الأرض.
- التميز في السلوك والأخلاق والمعاملات.
- الوفاء بالعهود والمواثيق.

وهذه الجوانب وتلك الخصائص المميزة، لازمة لذاتها في كل جيل يُراد له أن يجدد أمر هذا الدين، ويسير في ركاب الأمة المهتدية؛ أي إنه يتوقف عليها الوجود الإسلامي الصحيح للأمة، في أي زمان ومكان.

يؤكد ذلك: أن هذه الأمة حين انحرفت عنها، أصابها - على المدى - من الخلل والفساد والضعف ما سآبينه في المبحث الأول من الفصل التالي، بإذن الله تعالى^(٢).

وأخيراً أقول: إنه ليس غريباً ولا مُستعظماً على أمة، هذه بعض مناقبها ومآثرها «أن يفتحوا في سنين قليلة، الشام والعراق وفارس ومصر والجزيرة والروم والسند وبخارى والمغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط، وأن يأخذوا جزيرة من ملك الصين، والتوفيق حليف رايتهم أينما رحلوا، يفتحون بالعدل قلوب من يغلبونهم على أمرهم، عقبى فتحهم ديارهم غنوة أو صلحاً.. ويُعلمون الأمم المغلوبة لسانهم ومنازعتهم، مؤثرين في كل حالة من حالاتهم الآخرة على الدنيا، وكذلك كانوا في أقوالهم وأفعالهم»^(٣).

(١) صحيح مسلم، في الفتن، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، ح (٢٨٩٨).

(٢) وانظر: واقعنا المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص ٣٢، ٣٣.

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١٤٢/٢) بتصرف.

وكذلك كان .. لقد فتحت المدائن أبوابها راغبة أو راغمة بادي بدء ، وأحبت الشعوب هؤلاء الفاتحين ، ونظقت الألسن بالثناء عليهم ، وفضلتهم على من سواهم من العالمين ، ورأت الخلاص على أيديهم ، بل لقد بكى الناس فقدهم ، وأسفوا على خروجهم وفراقهم ..

وسأقيم شهادتهم - أعني غير المسلمين - مقام التلخيص لأهم آثار رعاية السنن في واقع الأمم ، والحق ما شهدت به الأعداء!

لَمَّا بلغ الجيش الإسلام وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في فِجْل^(١) ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب ، يقولون: أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا . أنتم أوفى لنا وأرف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا^(٢) .

ولقد دهش قبط مصر بجميل عمل عمرو بن العاص^(٣) ، فدخل منهم في الإسلام كثير^(٤) .

وكتب عمر بن العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب .

ولما ولي إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر^(٥) مولى بني مخزوم بلاد المغرب ، سار أحسن سيرة ، ودعا البربر إلى الإسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام ، فقرأه إسماعيل في النواحي ، فغلب الإسلام على المغرب .

ووفد على عمر بن عبد العزيز قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه أن قتيبة^(٦) دخل مدينتهم ، وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب إلى عامله أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما

(١) بكسر أوله وسكون ثانية: اسم موضع بالشام ، كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم ، قُتِلَ فيه جمع كبير من الروم ، وكان بعد فتح دمشق في عام واحد . انظر: معجم البلدان ، لياقوت (٤/٢٣٧) (فجل) .

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/١٩٧) .

(٣) ابن وائل ، الإمام ، أبو عبد الله ، داهية قریش ورجل العالم ، ومن يُضْرَبُ بهِ المثل في الفطنة والدهاء والحزم ، هاجر إلى رسول الله ﷺ مسلماً سنة ثمان ، شهد اليرموك ، وافتتح مصر وولياها دهرًا وأحسن السيرة في أهلها ، وفتح طرابلس . وتوفي ليلة الفطر سنة (٤٣هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٥٤) .

(٤) الإسلام والحضارة العربية (٢/١٢٥) .

(٥) المخزومي ، قرشي بالولاء ، أحد التابعين ، كان قتيهاً ورجلاً ، استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية سنة ٩٩ هـ ، فأسلم على يديه جمهور كبير من البربر . توفي سنة (١٣٢هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢١٣) ، والأعلام (١/٣١٩) .

(٦) هو: قُتَيْبَةُ بن مسلم الباهلي ، أحد أمراء الإسلام وقادته الكبار ، تولَّى فتح بلاد ما وراء النهر إلى أطراف الصين . كانت وفاته سنة (٩٦هـ) . انظر: الأعلام (٥/١٨٩) .

ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين، أخرجوا. فحكم القاضي بإخراج المسلمين على أن ينادوهم على سواء، فكره أهل سمرقند الحرب، وأقروه فأقاموا بين أظهرهم^(١).

«لما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه - أي عمر بن عبد العزيز - نزل عن سريره وبكى، وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب، كان ذهب للقاء بين المسلمين والروم، ما أبكى المُقل، ومما قال: «لقد بلغني من برّه وفضله وصدقته، ما لو كان أحد بعد عيسى يُحيي الموتى، لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه، فزهّد فيها حتى صار مثل الراهب^(٢)».

وكتب بطريك أنطاكية، معترفاً أن خلاص أهل ملته كان على أيدي المسلمين، فقال، بعد أن سرد اضطهادات هرقل: ... إن الله لمّا رأى شرور الروم، الذين لجأوا إلى القسوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا في كافة ممالكهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم^(٣).

وقال لبون: «... وأهم العوامل في امتداد حكمهم - يعني المسلمين - اجتماع كلمة قبائلهم المختلفة تحت علم واحد، وهو علم الإسلام، فوجّه هذا وجهتهم إلى هدف سام أورثهم حماسة، فكانوا أبداً على استعداد للمفاداة بأنفسهم في سبيله. وكان هذا الهدف دينياً صرفاً، ودولة العرب قامت على هذا الأساس، وكانت الدولة الوحيدة الكبرى القائمة باسم الدين، ومنه انبعثت سياستها وحالتها الاجتماعية...»^(٤).

ويقول أرنولد^(٥): «إن الأخبارَ دوّنت كثيراً من دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وقد قيل: إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في

(١) الإسلام والحضارة العربية (١٨٩/٢)، ١٩٠.

(٢) الإسلام والحضارة العربية (١٨٨/٢). وانظر: سير أعلام النبلاء (١٤٢/٥)، ١٤٣.

(٣) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٩٧/٢) بتصرف يسير.

(٤) الإسلام والحضارة العربية (١٥٠/١).

(٥) توماس أرنولد: مستشرق إنجليزي، تعلّم في كمبريدج، وعيّن مدرساً في كلية عليكرة بالهند سنة (١٨٨٨م)، فاستأذا للفلسفة في لاهور، فريساً للكلية الشرقية في البنجاب، ثم عاد إلى لندن فعيّن أستاذاً للعربية في جامعته. له كتب بالإنجليزية، منها: تعاليم الإسلام، والمتزلة، والخلافة. وزار مصر، وتوفي سنة (١٣٤٩هـ). انظر: الأعلام (٩٤/٢).

المجتمع الإسلامي ، الذي كان أكثر رقياً ، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي يشيع في هذا المجتمع ، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة ، وكان كل مسلم ساذج أمة داعية إلى دينه»^(١) .

وقال دوزي^(٢) : «إنَّ العربَ لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط ، بل بالفطرة والغريزة ، حتى حققوا بادي بدء مقالة الثورة الفرنسية الشريفة^(٣) وهي : الحرية ، والمساواة ، والإخاء ، ولقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ، ويقول : لا أعرف مولى غير مولى العالم . وبلغ الحد الأعظم من الحرية التي تمتع بها ، بحيث لو قرنت معها أصولنا في الحرية الراقية إلى أبعد الغايات ، تسجل أنها تشبه قواعد الاستبداد . . .»^(٤) .

ولعلَّ فيما ذكرت كفاية ، تغني عن الإطالة .

وقد آن أوان الانتقال إلى المبحث الثاني ، وهو :

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية والمدنية).

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١٩٨/٢) .

(٢) رينهارت بيتر دوزي ، مستشرق هولندي من أصل فرنسي ، بروتستانتي المذهب ، كان من أعضاء عدة مجامع علمية ، وقرأ الآداب بعدة لغات ، وانصرفت عنايته للعربية ، أشهر آثاره : معجم «دوزي» ، و«تاريخ المسلمين في أسبانية» . وكان مولده بـ «ليدن» ، وفيه توفي سنة (١٣٠٠هـ) . انظر : الأعلام (٣/٣٨) .

(٣) قُلْتُ: وأين الثرى من الثرى ، والتَّبْرُّ من الثَّرابِ؟! ولكن ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ [النجم: ٣٠] .

(٤) الإسلام والحضارة العربية (١٥٣/٢) . وشهادات المنصفين من الغربيين قديماً وحديثاً كثيرة ، والغرض هنا هو التمثيل فحسب .

المبحث الثاني

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة

(في الجوانب المادية والمدنية)

سبق القول بأن سنن الله في الأمم، سننٌ عامةٌ عالمية، مَنْ أَخَذَ بِسُنَّةِ مِنْهَا مِنْ أُمَّةٍ مُؤْمِنَةٌ أَوْ كَافِرَةٌ، تَحَقَّقَتْ لَهُ نَتَائِجُهَا فِي الدُّنْيَا.

وتبيّن لنا - في المبحث السابق - كيف أن الأمة الإسلامية في عهدها الأول، لما رعت هذه السنن حق رعايتها بصورة شاملة، آتت أكلها وتحققت نتائجها، فظهر على يديها من صور العدل ومظاهر الحرية والمساواة، والتكافل الاجتماعي، والأمن، واستقامة الأحوال، مع ما كانت عليه من سعة الناحية وترامي أطراف المملكة. شيء عظيم شهد به الأعداء، وسارت بأخباره الرُّكبان..

وحيث إن هذا الفصل معنيٌ بدراسة آثار رعاية السنن، فإنّ أوضح مثال يمكن أن تُلقَى الضوء عليه في هذا المبحث، بعد ذلك المثال الرائع، هو: الجوانب المادية (المدنية) في المجتمعات الغربية المعاصرة.

إنها مجتمعات جاهلية كافرة بكل المقاييس الشرعية، ومع ذلك فهي اليوم أممٌ ممكنةٌ في الأرض ذات سلطان باهر، وقوّة مادية ضخمة، وإبداع في معظم جوانب الحياة المادية والمدنية!

ولا عجب ولا تناقض! إنها السنن. لا تحابي أحداً، ولا تمتنع ممن أخذ بها، إذا وفّى شروط ذلك وأتى بأسبابه.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهَرَفْنَا بِهَا لَئِيْبُحْسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]. وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وهذا ليس في حق الكافرين فقط ، بل المؤمنون أولى بذلك وأحق . .
 قال جل وعلا مبيناً كيف مكنّ لذي القرنين ، لما أخذ بأسباب التمكين في الأرض:
 ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتَى سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤ ، ٨٥] ^(١) .
 فمتى وجدت الإرادة الجازمة ، والقدرة التامة على الفعل ، وجد الفعل وحصل
 المقصود ^(٢) .

وقد تقرّر فيما مضى أن تحصيل الأشياء المدنية والمادية - أيا كانت - أمر له أسبابه
 المعقولة ، وليس شيئاً مترتباً على الإيمان بالله تعالى ، لا يحصل إلا به ، كما يشهد بذلك
 الواقع ، ويدلّ له استقراء التاريخ ^(٣) .

نعم ، للإيمان أثره الكبير في توجيه الأشياء المادية والمدنية نحو الأهداف الصحيحة ،
 وتوجيه العقول والأفكار إلى نوعية الأشياء المطلوب تحصيلها ، وإلى كيفية الاستفادة منها
 بعد تحصيلها ، وهكذا . . ولكن وجودها - من حيث هي أشياء - ليس مرتبطاً به ، أو
 موقوفاً عليه .

وأحبّ قبل الشروع في استعراض أهم الآثار التي تحققت للعالم الغربي المعاصر
 جراء رعايته للسُنن المتعلقة بهذا الجانب . . . أحبّ قبل ذلك أن أُنبّه إلى قضية أساس ،
 وقاعدة لا يستقيم الحديث ما لم يُبين عليها ، وينطلق منها . وقد أُشرتُ إليها في مطلع
 المبحث الأول ، ووعدت بأن أزيدها بياناً في هذا المبحث .

وهذه القضية هي: أنه بالتتبع والاستقراء ، ثبت أن الأشياء المادية ومظاهر الحياة
 المدنية في الأمة ، وهي ما يعبر عنه بـ (مدنية الأمة) أنها ليست شيئاً منفصلاً عن عقيدتها ،
 وتراثها الفكري ، وتصورها للحياة الدنيا والآخرة ، وهي ما يعبر عنه بـ (ثقافة الأمة) .

ونحن وإن استعملنا (ثقافة الأمة) في مقابل (الأشياء المدنية للأمة) بدلاً من كلمة
 (حضارة الأمة) ، التي هي نتاج امتزاج الأمرين (المدنية والثقافة) ^(٤) ، فإنّ المهم هو أن
 نعلم أنّ (حضارة كل أمة وعاء لمدينتها) ؛ لأنها غير منفكة عن التأثير بثقافتها ، وإن كان
 غير لازم أن تكون مدينتها وثقافتها على قدم سواء في التقدم أو التخلف ؛ لأنّ كونهما
 على قدم المساواة - تقدماً أو تخلفاً - يُعدّ معياراً حضارياً ، وليس مدنياً أو ثقافياً .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٠٠/٣) .

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٢/١٠) .

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٦٣/١٥) .

(٤) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٦٧١/٢) .

أي أننا قد نجد أمة متقدمة مدنياً، وهي متخلفة ثقافياً، وقد نجد أمة متقدمة ثقافياً، ومتخلفة مدنياً..

ولأضرب مثلاً يتبين منه بوضوح، كيف أن التقدم المدني لا يعني بالضرورة تقدماً ثقافياً، ولا يعني بالضرورة إذن تقدماً حضارياً.

لنفرض فرضاً أن مجموعة من اللصوص استطاعت من خلال السرقة ومن خلال الغش أن توجد مجتمعاً وأن تقيم بلداً، هذا المجتمع وهذا البلد لو توفرت لديه كل أسباب الرفاه، واستطاع أن يستعمل كل إنجازات المدنية، فمجتمع هذا شأنه متقدم مدنياً؛ لأنه استطاع في الجانب المدني - أي في الجانب المادي البحت - استطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية، ولكن هل نستطيع أن نعتبر مجتمع اللصوص هذا مجتمعاً متقدماً حضارياً؟

لو تصورنا مجتمع اللصوص هذا قد نغمس في الإباحية الجنسية، واستباح كثيراً من الأشياء التي تعد خاطئة أو شاذة في فطرة البشر، لو أن مجتمعاً هذا شأنه استخدم أعظم منجزات العلم من الناحية المدنية^(١)، فإئنا لا نستطيع أن نصفه بأنه متقدم ثقافياً أو حضارياً، وإن كنا نقول بأنه مجتمع متقدم مادياً.

ولعل كيان إسرائيل المغتصبة للأرض وما عليها في فلسطين يصلح مثالا لمجتمع اللصوص الذي ضربنا به المثل.

وإذا كانت قد «اتضح - مبدئياً - فكرة التخلف الحضاري والتقدم الحضاري»^(٢)، فإئنا بحاجة إلى أن نخطو الخطوة الثانية، وبها نصل إلى مقصودنا من هذا التنبيه.

وهذه الخطوة تلخص في أن الأمة - مضرب المثل - أو غيرها من ذوات الثقافة المنحرفة أو المتخلفة، لأي سبب، كأن تكون «ثقافتها غير صحيحة، أو ليست حقاً، أو فيها أخطاء.. الأمة ذات الثقافة المنحرفة، وإن تقدمت مدنياً، فإن تقدمها المدني مطبوع بتخلفها الثقافي؛ لأن هناك ارتباطاً بين الناتج المدني، وبين الفكر والثقافة التي هي وراء الناتج المدني...

ولهذا يلاحظ أن كل أمة من الأمم، تحاول أن تجعل نواتجها المدنية منسجمة مع فكرها وثقافتها، وكثيراً ما تضع رموز ثقافتها ودينها على نواتجها المدنية، حسب

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٦٧٢/٢) بتصرف يسير.

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٦٧٣/٢).

جغرافية ومذهبية، تُشعرك بأن هؤلاء الرموز حاضرون في ذاكرة الأمة، في حين تبدو هذه الأمة شاردة عن الدين ! .

وإذن، فالمشهد الحضاري هو اللوحة التي تخلد الناتج المدني، وتسجل مدى ارتباطه بالثقافة التي وراءه .

والخلاصة أنه عندما تكون ثقافة أمة ما متخلفة، حتى ولو كانت متقدمة مديناً، لا بد أن تظهر آثار التخلف الثقافي على مدينة هذه الأمة^(١)، والعكس صحيح .

تلك قضية لا بد من التنبيه لها، وفهمها فهماً صحيحاً:

* لنضع الأمور في نصابها الصحيح، فلا تبهرننا مظاهر الأشياء عن أسسها ودوافعها .

* ولنكون أكثر قدرة على تفسير وجهة العالم المعاصر اليوم، وإلى أين تساق البشرية

في ظل هيمنة ثقافة منحرفة وحضارة رديئة، مهما كان طلاؤها حسناً وملمسها ليناً!

* ولنستبين أكثر فأكثر صدق ما تقرر من أن السنن الإلهية في الأمم تعمل في حياتهم

بصورة متشابكة، يؤثر بعضها في بعض ويتأثر به، تماماً كطبيعة البشر أنفسهم «كالجسد

الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢) .

وقد مضى المثل الأول، وهو المجتمع المتوازن مادياً وثقافياً (حضارياً) في المبحث

السابق، وما نحن أولاء أمام المثل الثاني .

وفي هذا المثل - الثاني - أحسب أننا تصورنا أي مجتمع ندرس، وعلى أي جانب من

جوانبه سيكون التركيز .

إننا ندرس مجتمعات جاهلية مادية، بالمقاييس الشرعية، أي متخلفة حضارياً على

رأي، وثقافياً على رأي آخر، متقدمة مادياً ومديناً، كما تقرر ذلك قريباً. وسنلاحظ

تلقائياً كيف تتأثر الجوانب الإيجابية النافعة في الأصل، بالجوانب الأخر المنحرفة الخاطئة،

برغم أننا غير معنيين في هذا المبحث إلا بالجوانب الإيجابية، وهي مادية في لحمتها

وسداها .

لقد نهضت أوروبا وأمريكا، وتبعتها دول أخر كالإيبان والصين، ودول أخر في

طريقها نحو التقدم المادي ككوريا الجنوبية . . وهو تقدم مادي ومدني باهر، على كل

المستويات .

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٦٧٤) . وانظر: تفسير التاريخ، لعبد الحميد صديقي، ص ٢١ وما بعدها .

(٢) متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير ؓ . انظر: فتح الباري (١٠/٣٦٦) في الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم . وصحيح مسلم في البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ح (٢٥٨٦) .

فما هي قصة النهضة في تلك الأمم؛ الغربية النصرانية، والشرقية الوثنية المعاصرة؟
 بدهي أن نقول: إن هذه الأمم لم تنهض صدفة، ولم تستو على عرش التفوق المادي
 فجأة وبلا مقدمات، ولم تظفر بما ظفرت به عفواً صفاً، بلا كد ولا عناء!
 فما هي قصة ذلك التفوق؟

أمّا آثاره، فظاهرة للعيان في المجالات المدنية، على اختلافها.. في مجالات الطب
 والهندسة والتصنيع الحربي والمدني، وفي وسائل الاتصال والترفيه، وفي الإدارة والنقل
 والتغذية... إلى آخر ما هنالك.

ولا يكفي أن نقول: إن ذلك كله، إنما تم وتحقق لهم؛ لأنهم أخذوا بالأسباب
 الموصلة إليه، ورعوا السنن وأتوا بالشروط المطلوبة..
 وهي السنن التي جعلها الله طريقاً إلى مثله.

لا يكفي ذلك، وإن كان صحيحاً لا غبار عليه، وكلُّ جواب مفصل فهو آيل في
 النهاية إليه!

لا يكفي؛ لأنَّ المهم - في نظري - هو: أن نعرف ما هي الأسباب التي أخذت بها
 تلك الأمم؟ كيف رعت تلك السنن ووفت بالشروط المطلوبة؟ ما هي قوانين التقدّم
 المادي؟

هذا بيت القصيد في هذا المبحث.

وفي الصفحات التالية سأحاول استعراض أهم الأسباب والأسس التي كانت وراء
 نهضة أوروبا المادية والمدنية، ومن سار في فلكها.

في الوقت الذي نشر الإسلام بنوده في المعمورة، وأسس حضارته المثالية على
 مستوى العالم، كانت أوروبا تغط في نوم عميق، وجعل مطبق وتختلف ذريع في كل
 المجالات، وما عهد الرق والإقطاع، وتسلط الكنيسة ورجال الدين، وما جرّ ذلك كله
 من ويلات على أوروبا.. ليس ذلك بخافٍ على من له أدنى اطلاع على تاريخ تلك
 الحقبة من التاريخ.. ولم تستيقظ أوروبا إلا على وقع أقدام الفاتحين، ولا تعلّمت إلا على
 أيدي المسلمين، ولم تستبصر إلا بنور حضارتهم ومدنيتهم، في بغداد وقرطبة وغيرهما
 من مراكز العلم والحضارة، بصورة مباشرة، ولم تتلمذ إلا على كتبهم في شتى الفنون،
 زهاء أربعة قرون أو تزيد، بصورة غير مباشرة^(١).

(١) انظر على سبيل المثال: الإسلام والحضارة العربية (٨/١) وما بعدها، وكتاب مفتريات على الإسلام، ص ٢٥٨.

ولكن أوروبا استيقظت وهي صاحبة ثار، ترى أنها صاحبة حق مسلوب، وحضارة مُفتات عليها.

وكان لتلك النومة وذاك التخلف الحضاري، أثر بالغ في هذا الانبعاث الجديد بهذه الروح المتوثبة.. أشبه بميلاد جديد، وتلك سُنَّة إلهية! «والتاريخ قد عودنا أن كل شعب يستسلم للنوم، فإن الله يبعث عليه سوطاً يوقظه»^(١). إن كان في عمر هذا الشعب بقية. وكان على أوروبا - وقد تجاوزها الزمن - أن تفتش عن سرِّ تخلفها، فتلفتت فما وجدت شيئاً أقعدها يستحق أن يبدأ به قبل شيئين:

استعباد الإقطاعيين، وتسَلُّط الكنيسة بما لها من سلطان باسم الدين^(٢)؛ لأن هذين السببين هما سبب الذلِّ والجهل، وجماع ذلك (سلب الحريات واستلاب الحقوق).

وكان الإحساس بالحاجة إلى استعادة حقوق الإنسان في تفكير الأوروبيين قد ظهر في وقت مبكر نسبياً، وترجم بصورة مكتوبة^(٣)، وكان في بداياته بمثابة معاهدة بين الملك وأمرائه. وجاءت مواده في جانب مصالح الأمراء بقدر أكبر، على حين لم يشتمل أي بند فيه على شيء يتعلَّق بحقوق العامة من الناس في قليل أو كثير.

فلما تفحصه الناس في العصور التالية، وقرأوا بين سطوره ما قصده كُتَّابه الأصليون من معنى، تملكهم الدهشة والحيرة، ورأى فيه خبراء القانون في القرن السابع عشر الميلادي أنه منح الشعب الإنجليزي حقوق التحقيق في الجريمة أمام مجلس قضاء وجهاً لوجه، والتظلم ضد الحبس بدون اقرار الجريمة^(٤)!

ثم أصدر (توم باين) ميثاقه الخاص بحقوق الإنسان، فآثر «في أفكار الغربيين تأثيراً ثورياً كبيراً؛ إذ أشاع هذا الميثاق فكرة حقوق الإنسان في الدول الغربية على نطاق واسع عام ١٧٩١م».

وكان إعلان حقوق الإنسان الذي ظهر عام ١٧٨٩م، أهم وثائق الثورة الفرنسية. وكان ثمرة الفلسفة الاجتماعية في القرن الثامن عشر.. وقد تضمَّن الحقوق الفطرية فيما يختص بمحاكمة الشعب، والحرية والمساواة والملكية، كما شمل أيضاً حق التصويت

(١) شروط النهضة، للمفكر مالك بن نبي، ص ٢٢٦.

(٢) ودين الكنيسة شيء ابتدعه القسس والرهبان ليأكلوا به أموال الناس بالباطل، وتكون لهم الكبرياء في الأرض. ودين الله الحق من دين القسس والرهبان المحرّف المبدل براء. هذا لو كانت النصرانية ديناً غير منسوخ! فكيف عميت أعين وصمت آذان عن الحق بين؛ فجعلت من دين الرهبان ديناً إلهياً، وحلته أوزارهم، ثم سحبت هذه الفرقة على الإسلام!

(٣) كان ذلك سنة (١٢١٥م) على يد الملك (جان) في إنجلترا. انظر: على مشارف القرن الخامس عشر - دراسة للسنتن الإلمية، والمسلم المعاصر، تأليف: إبراهيم بن علي الوزير، ص ١٣٥.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٥.

والانتخاب، وحق التشريع، وحق تحكم الرأي العام في فرض الضرائب، وحق التحقيق في الجرائم أمام مجلس قضاء، وغيرها من الحقوق .

وقد وضع مجلس التشريع الفرنسي في عصر الثورة هذا الإعلان؛ كي يوضع في بداية الدستور، على أن تُرَاعَى مواده وبنوده عند تدوين الدستور^(١). وكانت «ترمي إلى استخلاص حقوق الإنسان، وحمايتها ضد سلطة الكنيسة، وضد طغيان الوضع السياسي للمجتمع الذي كانت تناصره الكنيسة»^(٢).

ومن ثم، فهَمَ عامة الغربيين أن الدين يخلو من تصور لحقوق الإنسان؛ لأنَّ إعلان هذه المواثيق، خصوصاً الأخيرة، جاء في عصر الثورة على الدين، وعلى أيدي خصومه^(٣). وكان فهمهم هذا في حدود ما ورثوه من دين الكنيسة التي يحكمون باسمها، وتحنق أنفاسهم تحت سلطانها، ثم يُقال لهم: هذا دين الله، وما يجري لكم إنما يجري باسم الله!.. وكان فهمهم أن هذا الدين يخلو من حقوق الإنسان، ويخلو من الإبداع أيضاً فهماً صحيحاً مؤيداً بالواقع، ولهذا لم تنجح الجهود الإصلاحية «التي اتجهت للدفاع عن المسيحية في إعادة الثقة بها كمصدر توجيه أصيل في الحياة الإنسانية؛ لأنَّ طابع القرون الوسطى - وهو طابع السلطة الدينية - لم يزل شبحاً رهيباً يحول دون قبول إعادة التجربة مرةً أخرى»^(٤).

يقول الفيلسوف برتراندرسل: «في عصر ما يُسمَّى: عصر الإيمان، وفي الوقت الذي كان يؤمن الناس فيه إيماناً حقيقياً بالدين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه، أنشئ (ديوان الفتيش) بتعذيباته؛ فأحرقت جثث ملايين من النساء التعسفات كأمثلة للعيان، واستخدم باسم الدين كل أنواع القسوة ضد جميع صنوف الناس .

وأنت تجد عندما تنظر في العالم: أن كل أمانة صغيرة تدلّ على التقدم في الشعور الإنساني، وكل تحسن في قانون العقوبات، وكل خطوة تجاه التقليل من الحرب، وكل خطوة نحو معالجة أفضل للعناصر الملونة، أو كل تلطيف للرِّق .. كل تقدّم خفي وقع في العالم، عُورِضَ بإجماع الكنائس المنظمة في العالم»^(٥).

(١) المرجع السابق، ص ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص ١٠٣.

(٣) انظر: على مشارف القرن الخامس عشر - دراسة للسنن الإلهية، والمسلم المعاصر، ص ١٣٦. وقد توالت بعد ذلك مواثيق حقوق الإنسان تباعاً، وكان أشهرها وآخرها: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرته الأمم المتحدة عام

(١٩٤٨م). انظر: المصدر السابق، ص ١٣٦ بتصرف.

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص ١٠٣.

(٥) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي، ص ١٠٢.

«ومن هنا كانت الثورة على الدين ورجاله، وكان إعلان الكفر بسلطة الدين والقائمين عليها . . فقامت النهضة الأوروبية . . وهي في الواقع ثورة على الكنيسة، ومن أجل حق الإنسان في التفكير والحياة، وحرية الرأي»^(١).

وإذن، فقد كانت أولى الدرجات في سلّم النهضة المادية المدنية لأوروبا المعاصرة، كانت استعادة كرامة الإنسان المسلوية، ومنحه الحق كاملاً (في التفكير والحياة وحرية الرأي)، ولكن بعيداً عن أي سلطان للدين! كانت البداية من هنا . . وكل شيء يأتي بعد ذلك .

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإني أقول:

وكذلك كان الإسلام، على ما بينهما من البون الشاسع في المنطلقات والأهداف، فقد عُني أول ما عني باستعادة كرامة الإنسان، ومنحه كامل حقه في التفكير وحرية الرأي، يوم ربطه بمخالفه، ورفع عنه وصاية البشر، وكان عنوان الدخول في الإسلام: شهادة أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)! وكان ذلك هو بداية المشوار، وطريق الإبداع .

فكان إيمان المؤمنين بالله والتزامهم شرعه، هو سرّ انطلاقتهم وبداية نهضتهم الشاملة، وهو أعظم شاهد على أن الإسلام بطبيعته يدفع عجلة التقدم إلى الأمام .

وكان كفر الأوربيين بالكنيسة وسدنتها، هو بداية انطلاقتهم ونهضتهم المادية المعاصرة! وفيه شاهد على فساد الديانة النصرانية الكنسية المنسوخة المحرّفة .

وبهذا كله، يتأكد لنا أن منح الإنسان حريته وكرامته وإسعاده، ورعاية ذلك . . أنه حجر الزاوية في كل نهضة وتقدم، خصوصاً في المجالات المادية والعلمية التجريبية التي تعتمد على التفكير الحرّ، فإنّ تطورها مرهون بما يمنحه الإنسان من قواه ومواهبه، ولا تنطلق المواهب وتبدع العقول إلا في جو من الحرية والشعور بالكرامة والأمن^(٢) .

وسأعرض لأهم الجوانب التي كانت (الحرية الفردية) مفتاح ما تحقق فيها من إيجابيات . . وهي جوانب (التفكير والسياسة والمال)، والتي كانت بدورها هي مفتاح النهضة الأوروبية المعاصرة .

(١) المصدر السابق، ص ١٠٢ .

(٢) ولا يعني هنا ما ترتب على هذه الحرية من سلبيات ضخمة، واعتداء على حريات الآخرين باسم المحافظة على هذه الحرية والتمتع بها، خصوصاً أنّها كانت رد فعل لعصر الحرمان والكبت . فذلك شيء سأعرض له في البحث الثاني من هذا الفصل بإذن الله تعالى . ولكن ألفت الانتباه هنا إلى ما تقرّر في مفتاح هذا البحث من أن الجوانب المظلمة من هذه الحضارة الجاهلية لا بد أن تُلقَى ظلها على الجوانب الأخرى المشرقة!

* ففي جانب التفكير:

انطلقت العقول المغلولة من إسارها، فاندفعت في مجالات الحياة.. ولما كانت فلسفتها مادية صرفة، فقد وجدّت في المذهب الحسيّ والمنهج التجريبي^(١) ضالتها المنشودة، فاعتمدته أساساً للبحث والمعرفة، فقادها من نصر إلى نصر في مجال البحوث العلمية والطبيعية، بصورة سريعة، كان من نتائجها «اكتشاف البخار ثم الكهرباء، وما ترتب على هذه الاكتشافات من صناعة السفينة والقطار والطائرة، وامتلاكه - عن طريق الكشف التجريبي والصناعة الآلية - ناصية الأمر في الماء وعلى الأرض وفي الهواء، حتى أصبح المعمل محراباً للعلم يُقدّس»^(٢).

* وفي الجانب السياسي:

«خلقت الحرية الفردية فكرة (النقد الحر) لنظام الحكم، وللقوانين التي تحكم المجتمع، وهيأت لإيجاد (رأي عام) سياسي تبلور فيما يسمى بالنظام الديمقراطي.. واعتبرت أن في هذا النظام الضمان الكافي لتمتع الفرد بحريته السياسية في الرأي، والقول والنقد بصفة عامة، وضماناً كافياً أيضاً للفصل فيما يُؤدّى له من خدمات عن طريق الدولة، وفي تقييم المشروعات التي تقدمها الدولة في هذا السبيل»^(٣).

* وفي الجانب المالي:

ضمنت الحرية الفردية لصاحب المال حرية الاستغلال بدون تحديد لحدّ أعلى في الاستثمار، أو في التملك الفردي، ضمنّت له حرية التوسع في الأراضي الزراعية ووسائل استثمارها، وحرية إقامة المصانع وملكية الأسهم فيها، وحرية تأسيس الشركات وتوجيهها في أي قطاع وبأي عدد^(٤).

ولمّا لهذه الحرية من مكانة في تحصيل هذه المكاسب وتحسينها، كانت الثورات تقوم في أوروبا وأمريكا، بهدف البحث عن الحرية، والدفاع عنها، وكانت المحور الذي تدور حوله حياة شعوبها بعد نجاحها^(٥).

(١) ورثت أوروبا المنهج التجريبي فيما ورثت من معارف المسلمين، فطورت ذلك ثم نسبتها إليها. والمذهب الحسي أو الفلسفة الحسيّة تعني: «إلغاء اعتبار أي مذهب فكري لا يكون واقعياً يؤيده الحس وتسنده التجارب». انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ١٠٦.

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ١٠٤، ثم تحوّل إلى إله يُعبَد من دون الله.

(٣) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ١٠٦.

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ١٠٦. ومرة أخرى: لستُ بصدد تقويم الحرية الفردية التي انتزعها الفرد لنفسه في الغرب من كل وجه، وإلّا قصدتُ إلى إيضاح حقيقة: أن الإبداع والتقدّم المادي والمدني مركّز على حرية الإنسان وإحساسه بكرامته.

(٥) انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص ١٠٥.

وبعد: فربما أكون قد أطلتُ في هذا الجانب ، أعني جانب الحرية الفردية وما تفرغ عنها من حرية الفكر والسياسة والمال ، ولكنه - في رأبي - يستحق أكثر من ذلك ؛ لأنَّ أيَّ جهد أو عمل لا يُبنى عليه ولا ينطلق منه ، فلا قيمة له تُذكر .

وهل يمكن أن تصنع أمة شيئاً قبل أن تجد الإنسان القادر؟!

ومع ذلك ، فلم تنهض أوروبا وتتفوق مادياً بهذه وحدها . .

نعم ، كانت تلك الحرية بمثابة الأرضية التي تقف عليها النهضة ، وتنطلق منها ، وبمثابة الإطار الذي تحتمي به . ولكن - دون شك - كانت هناك أمور أخرى كثيرة ، ساهمت في صناعة هذا التفوق المادي .

* فمن الأمور التي كانت وراء تقدّم أوروبا المعاصرة:

وجود الإرادة القويّة على مستوى الفرد والأمة ، وتمييزها باطراد.

وقوة الإرادة مرتبطة بوضوح الهدف ، والهدف عند هذه الأمم واضح ، هو: التفوق الماديّ ، والتوسع الأفقي على حساب الآخرين .

وقوة الإرادة ، من أخص سماتها في الأمة: الإصرار وعدم اليأس ، وإخضاع الأشياء وتذليل الصعوبات من أجل بلوغ الغاية وتحقيق الطموح .

وإذا أرادت الأمة شيئاً وكانت صادقة في إرادتها ، جئدت كل إمكاناتها لخدمة هذه الإرادة ، واجتهدت في ابتكار الوسائل المُعيّنة على ذلك .

وهذا ما حدث بالفعل!

فما إن تحررت تلك الشعوب ، وأصبحت قادرة على التفكير الحرّ ، حتى ولدت عندها هذه الرغبة العارمة والإرادة الجازمة في التفوّق والتميّز . .

فحدّا بها ذلك إلى تطوير وابتكار أنجح الوسائل وأسرعها فاعلية في تحقيق هذا الهدف - هدف التفوق والتميز المادي - وهي كثيرة ، أبرزها ثلاثة مظاهر:

- تربية الأمة على الأهداف المنشودة .

- وحمايتها من المؤثرات الخارجية .

- والعمل الدؤوب والتضحية من أجل بناء المستقبل .

وكانت وسائل الإعلام ، ومناهج التعليم ، أهم وسيلتين في هذا المضمار .

وهذا ما يفسر لنا هذا التطور المُذهل، والتوجيه المُحكّم في هذين المرفقين منذ وقت مبكر!

وكان أول ما تعلّم الناس، أن تاريخ النهضة في أوربا يبدأ من (أثينا)، وأن عبقريتهم ترجع إلى عبقرية الرومان.. ومن أجل ذلك زوّر الكُتّاب الغربيون التاريخ، كما لاحظ ذلك المؤرخ الشهير جوستاف لوبون، وكان ذلك كله بغرض تجاهل دور الإسلام وإغفال تأثيره فيما يجري، ليحافظوا على مستوى العداء المتأصل في النفوس؛ لأنهم سيحتاجون إليه في جولاتهم القادمة^(١)!

وكانوا يكرّسون الحسّ الوطني بمعناه الضيق في أذهان أفراد الأمة وناشئتها، ويلقنونهم مزايا بلادهم، وخصائص جنسهم ولغتهم، يزيدون بذلك من تعلقهم بترائهم وترايبهم، ويحصنونهم ضد خصومهم.

وهذا ما يفسر لنا سرّ بقاء دولة ناهضة كاليابان، شبه مغلقة في وجه أكثر اللغات انتشاراً، وهي اللغة الإنجليزية، إلى وقت قريب^(٢)؛ لأنّ الناشئة كانوا يلقنون في المدارس أن العمل هو خط الدفاع الأول عن اليابان، واللغة هي خط الدفاع الثاني، وكانت آخر الإصدارات العلمية تترجم إلى اللغة اليابانية وتنتشر، قبل أن تنتشر في بلدان كاتبيها وبلغاتهم؛ لئلا تقوم في نفوس الناس حاجة إلى البحث عن الجديد خارج لغتهم الأصلية! وكان شعور الألمان بتفوق جنسهم وراء طموحهم في الاستيلاء على العالم.

ومرة ثانية، لقد كانت الإرادة الجازمة في التفوق، والطموح نحو الشهود الحضاري، على مستوى الأمة.. كان وراء إعادة البناء الشامل، بل التفوق الصناعي المذهل لهاتين الدولتين؛ ألمانيا واليابان في زمن وجيز، بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أنّهما كانتا مقيدتين بشروط الحلفاء، أي تحت وصاية الدول المستعمرة^(٣)!

بل لم تخرج جنود الاحتلال الأمريكي من جزيرة أوكيناوا اليابانية إلا بعد عقدين من الاحتلال^(٤). وهي إلى اليوم تحت مظلة الحماية الأمريكية.

(١) انظر: شروط النهضة، ص ٢٢٤.

(٢) وإن كانت خفّت حدتها في السنوات الأخيرة، وظهر جيل ممن يعشقون رطانة الأجنبي ويتباهون بها، لحاجة ولنير حاجة، كما حدّثني بذلك أخ ثقة زار اليابان، ولقي عدداً من مفكرها، وتباحث معهم في سرّ قلة عدد الذين يحسنون اللغة الإنجليزية في بلد ناهض كاليابان.

(٣) انظر: شروط النهضة، ص ٢١٤. ولم يمضِ على نهاية تلك الحرب نصف قرن حتى الآن، فقد كانت نهايتها عام (١٩٤٥م).

(٤) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والأخرة، ص ٨.

«ففي عام ١٩٤٨م فرضت الحكومة الألمانية على الشعب الألماني كله، نساءً وأطفالاً ورجالاً، التطوع يومياً ساعتين يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي بالمجان، من أجل الصالح العام فقط، وسمي هذا: التجنيد العام»^(١).

ولما ضحى المبتعث الياباني (تاكيو أوساهيرا) بشهوة الحصول على الدكتوراه من ألمانيا، وتفرغ لاختراع (المحرك) عاد إلى بلاده من غير (دكتوراه)، لكنه عاد بمفتاح تطور اليابان كلها^(٢)!

وشيء آخر كانوا يحافظون عليه أشد المحافظة.. كانوا يحافظون على انتمائهم العقدي الديني، ويرونه جزءاً لا يتجزأ من كيان الأمة.

لقد عُزِلَ الدين عندهم عن التدخل في الشؤون المادية والمدنية، للملابسات التي عرفت من قبل، لكنهم لم يكفروا به ولم يتنكروا له كلية، وبكل فئاتهم، كما يظن نفر غير قليل منا. وكيف يكفرون به وهو أمضى سلاح يعتدّون به، وأقوى جامعة تربطهم، ثم إنهم أناس بطبيعتهم، ففيهم فقر طبعي إلى دين يهتمون به، أيا كان.

فإيمان النصارى بأنهم أمة نصرانية، لم يطرأ عليه تغير جوهري، من عصر الجمود إلى عصر الذرة، وإن كان طرأ تغيير في كيفية تدخله في شؤونهم المدنية، وفي صلتهم بالكنيسة^(٣).

وتعصّب اليهود ليهوديتهم أشهر من أن يستدل له، ويكفي أن تعلم أن مقر الحكومة الإسرائيلية اسمه (مجلس الكنيست الإسرائيلي)؛ وأن أحزاباً دينية متطرفة تشارك غالباً في كل ائتلاف حكومي^(٤).

واليابانيون، وهم بوذيون وثنيون، يقول قائلهم (أوساهيرا): «إنني بوذي، ومذهبي يقدس العمل، فأنت تتعبّد إذ تعمل، وما تعمله بعد ذلك من شيء نافع يقربك من بوذا»^(٥).

(١) شروط النهضة، ص ٢١٥ بتصرف.

(٢) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة، ص ١٤. وانظر قصته بطولها في كتاب «التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز»، تاليف: هانز ج. لينجتر وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسى، ص ١٥.

(٣) انظر مثلاً: كتاب الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد ومحب الدين الخطيب.

(٤) وأقرأ إن شئت: كتاب «درس النكبة الثانية»، للدكتور/ يوسف القرضاوي، ص ٧٣ وما بعدها.

(٥) مجلة «المسلم المعاصر»، العدد الرابع والخمسون، ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة، ص ١٤. وانظر قصته بطولها في كتاب «التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز»، تاليف: هانز ج. لينجتر وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسى، ص ١٥.

إن الانتساب إلى الدين عند هؤلاء مفخرة، وشارة تميزهم عن غيرهم، وما رأينا أحداً منهم توارى بدينه أو أخجله الانتساب إليه، حتى وهو طقوس وخزعبلات .. إنه التميّز!

وهناك الإفادة من جهود الآخرين، والتخطيط طويل المدى لبلوغ الأهداف. وقد مرّ بنا كيف أنهم أفادوا من المنهج التجريبي الذي أخذوه عن المسلمين، فكان ذلك أعظم الفتوح في تاريخهم المعاصر. وأما سياستهم في تحويل ثروات الآخرين وإمكاناتهم وموارد بلادهم لصالحهم، فشيء يطول وصفه.

يقول جولفيه كستلو: «إن عهد السياحات الكبرى بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي، وقامت بها البرتغال أولاً على يد فاسكو دي جاما، ثم أسبانيا على يد كريستوف كولمبس.. بفضل المعلومات التي ثقفوها بواسطة العرب في الجغرافيا والفلك.. وما عتم الأسبان^(١) أن أسسوا مملكة استعمارية حقيقية في أمريكا^(٢).

«وكان من أولى مقاصد فاسكو دي جاما بطوافه بحر الهند، محاربة السفن العربية، بل كان الغرض من تطوافه في البحر أن يجارب الصليب الهلال في أقصى بقاع المعمورة^(٣).

وجاء نابليون بونابرت^(٤) في سنة ١٧٩٨م يفتح مصر! ويحمل في جملة ما يحمله من العُدَد والعدُد طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والآداب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن.. وزمرة من رجال الفنون من المصورين والرسّامين والموسيقيين.. وأقاموا في القاهرة مطبعة أخذت تطبع منشورات نابليون العربية.. وبعض المطبوعات الغربية والفرنسية^(٥).

وحملة نابليون هذه، لها أخوات في طول العالم الإسلامي وعرضه، بل والعالم الفقير بعامة، وهي مثال على سياسة القوم في نقل خيرات البلاد إلى بني جلدتهم وإيجاد الأسواق لبضائعهم.

(١) أي: ما ليكوا. يُقال: ما عتم أن فعل، أي: ما لبث. انظر: القاموس المحيط، مادة (عتم).

(٢) الإسلام والحضارة العربية (١/٣٤٥).

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١/٣٤٠).

(٤) قائد الحملة الفرنسية على مصر.

(٥) الإسلام والحضارة العربية (١/٣٧١).

لقد أدركوا أن نشر ثقافتهم ومدنيتهم في هذه البلدان ، خير وسيلة «لإزالة الحواجز التي تقوم بينهم وبين الشعوب ، وهي حواجز تهدد مصالحهم الاقتصادية ، وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة ، غير مأمونة العواقب»^(١) .

وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، وكثير منهم يجادلون فيه ، مأخوذين بما يرون من مظاهر الإصلاح ، التي لا بد أن يقدمها القوم ليتقاضوا ثمنها أضعافاً مضاعفة . وهذا من ذكائهم ودقة تخطيطهم .

وكانت قوافل المبشرين ورجال الدين والفكر النصراني ، يسبقون إلى كل بلدة يُراد استغلالها ، فيخبرون أهلها ، ومسالكتها ، ويسبرون نقاط ضعفها وقوتها ؛ تمهيداً للجيش الغازية .

وقد قيل في هذا - والسياسة فن - إن غرام الشعوب اللاتينية (الفرنسيين والإيطاليين والبرتغاليين والإسبانيين) أن يتمثلوا أبداً الشعوب المستعمرة ، ويلقنوهم لغتهم ، وينسوهم كل شيء لهم . أمّا الشعوب المستعمرة من أهالي شمالي أوربا (الإنجليز والهولنديون والبلجيكيون والألمان ، ومن تسلسلوا منهم كأهل الولايات المتحدة واستراليا ، فلا يهمهم إلا الانتفاع بهم مادياً ، والمسائل الأخرى فرعية»^(٢) .

وقد ضُربَ المثل بحسن استعمار الهولنديين لجاوة وسومطرة ، وأنه لطيف اللمس^(٣) ! وأنه حصل على أيديهم من ارتقاء الزراعة ، والعناية بصحة السكان أشياء . . وماذا بعد؟ ليعمل المواطنون في هذه المزارع بأجور قليلة ، بإدارة هولندية ، وموارد الثروة فيها تنصب إلى خزائن الهولنديين وجيوبهم^(٤) !

ومما يجدر التنبيه له: أن التخطيط للأشياء ودراسة احتمالاتها ليس شيئاً عرضياً عندهم ، بل هو محل عنايتهم ، وأساس في حياتهم ، حتى في الأشياء البديهية البسيطة في نظر غيرهم . وتلك فضيلة فاقوا بها وجنوا ثمارها .

(١) الإسلام والحضارة الغربية ، للدكتور/ محمد محمد حسين ، ص ٤٢ ، وانظر دور الحملة الفرنسية في مصر ، وتفصيل أهدافها الحقيقية ، في: واقعنا المعاصر ، للأستاذ/ محمد قطب ، ص ١٩٨ ، وسيأتي لها مزيد بحث في البحث التالي بإذن الله .

(٢) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٦٠) بتصرف يسير . وهذا يخرج مخرج الغالب ، بل هو رأي خاضع للتمحيص . ولكل زمان دولة ورجال .

(٣) على حد قول الشاعر:

فلا تظن أن اللث يتسم

إذا رأيت نيوب اللث بادية

(٤) الإسلام والحضارة العربية (١/ ٣٦٢ ، ٣٦٣) بتصرف .

كل شيء عندهم يخضع للتنظيم والتقنين ، حتى رعاة الغنم لهم حظ من ذلك ^(١) .
وكل شيء يُبذل فيه من الجهد والدراسة ما يضمن تحقيق أفضل النتائج ، بأقل قدر
ممکن من السليبيات ^(٢) .

وهكذا في سائر شؤونهم المادية والمدنية .. ومن سُنَّة الله أن يستأثر العامل بالخالل ،
ويتحكم العالم بالجاهل .. ويأخذ المستبسلُ المستسلم .. والغاية المنشودة عندهم تحصيل
الرزق من كل وجه وبكل حيلة ، والأخذ بحظ من النعمة ، تعين على الاستمتاع بمباهج
الحياة ونعيمها ^(٣) .

وقد بلغوا مجدهم وكسبهم كثيراً مما أرادوا .. وكلما تقدّم العهد بهؤلاء وهؤلاء -
وكلٌّ على شاكلته - كلما ازداد القوي قوة والضعيف ضعفاً ؛ لأنَّ الأول يستقبل الهدف ،
فكل خطوة تقرّبه إليه ، وأمّا الثاني فمستدبر له ، فكل خطوة تبعده منه .

تلك هي - باختصار - أمهات الأسس ، التي لَمَّا رعيتها هذه الأمم ، آتت ثمارها
المادية والمدنية ، ومكّنت لها في الأرض ، وأخضعت لها الأمم والشعوب التي فرطت في
هذه الأسباب ، حتى أصبحت هذه الأخيرة من جملة غنائمها .

وتلك هي سُنَّة الله فيمن أخذ بالأسباب وجَدَّ في تحصيلها ، أنه يؤتى ثمرة ذلك كما
في قوله سبحانه: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾
[هود: ١٥] ... وغيرها من الآيات ، وقد سبق ذكر بعضها في أول المبحث .

والخلاصة:

أنَّ الأوربيين ومن شاكلهم ، نجحوا في تحقيق التقدم في علوم المادة ؛ لأنهم وضعوا
لأنفسهم (منهجاً) يحقق لهم تلك الأهداف وفق فلسفتهم ، وسهروا على حمايته ..
«أرادوا القوة .. فوضعوا لأنفسهم منهجاً يحقق لهم القوة في كل الميادين ، حتى ولو
كان عن طريق الاستعمار! استخدموا التعليم .. ووضعوا مناهج تعليمية مدروسة ،
بُذِلت في دراستها عناية ملحوظة ، وجُرِّبت وأجريت الملاحظات عليها أثناء التجربة ،
وعُدلت أخطاؤها ، واستُكْمِل نقصها ، للوصول بها إلى أقصى طاقتها الإنتاجية ، ورُوعي
في هذه المناهج تخريج قوم عمليين ومنتجين ، واسعي الأفق ، تم تدريبهم على تجربة ما

(١) انظر: شروط النهضة ، ص ١٤٨ .

(٢) وقد يصيبون وقد يخطئون ، وهذه طبيعة البشر ، بل إنهم ليفضلون على الناس بسيطة: فهم يعتمدون على الأسباب
وحدها . ولكن المهم أنهم يبذلون الأسباب المقدورة لهم ، والسنن جارية مع أسبابها . وهذا هو المراد هنا .

(٣) الإسلام والحضارة العربية (١/٣٣٧) .

يمكن تجربته من المعلومات، فنشأوا واقعيين تجريبيين.. ووضعوا مناهج تربوية مدروسة، تعود الصغار على كثير من الفضائل التي يحتاجون إليها وهم كبار.

تعوّدهم على النظام والانضباط.. وعلى المثابرة والجَلْد.. وعلى الاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية.. وعلى النشاط في الحركة.. وعلى الجرأة في مواجهة المواقف.. وعلى الصدق والأمانة واحترام الممتلكات العامة.. وعلى السلوك المهذب مع الآخرين..

وكلها - كما ترى - (فضائل) نافعة، وكلها من أدوات التمكين والقوة اللازمة للشعوب التي ترغب في التمكين في الأرض.

واستخدموا العلم.. ويسروا به كثيراً من مشتقات الحياة.. كما استخدموه في حل مشكلاتهم، فدرسوها بطريقة علمية منظمّة، ووضعوا لها حلولاً مبنية على أسس علمية. واستخدموا - باختصار - أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية تحقق للإنسان كثيراً من ضروريات حياته، وقدراً من تحقيق الذات، خصوصاً (في النظم الليبرالية) (١).

وأختتم هذا البحث ببيان بعض متعلقات تلك الأسس، التي أجرى الله سنته أنها تكون من ثمارها؛ لئلا يظن ناظر مستعجل أنني تركتها إغفالاً لها أو ذهولاً عنها، ولناخذها واحدة واحدة، بأخصر عبارة.

ظفّر الإنسان والمواطن في أوربا بحريته الشخصية، وأصبح يمارس حياته وفق هواه.

فماذا حدث؟

كانت الشعوب الأوربية موجودة طيلة ثمانية قرون أو تزيد، ولكنها كانت مجرد أصفار إلى جهة اليسار، فلما تحرّر الإنسان وأمن، بدأ يفكر بطريقة صحيحة، وأصبح بإمكانه أن يدافع عن حقه في التفكير وإبداء الرأي، وحقه في الأمن والاستقرار، وحقه في تحقيق المستوى اللائق من المعيشة، عن طريق التملك والتنقل وغيرها.. وحقه في الحياة الكريمة، بالطبع وفق فلسفته ونظريته إلى الحياة.. وهذه كلها بعض مكاسبه من الحرية!

ثم ماذا؟

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، باختصار وتصرف.

لقد كان الذي لا بد أن يكون .. فلم تلبث هذه الأمم مع الزمن أن تجسدت في أفرادها - نتيجة لما سبق - روح الاستقلالية والتميز وقوة الإرادة . استقلالية في الرأي والقرار ، ورفض تام لأي نوع من أنواع الاستعباد والقهر .

وتميّز في مقومات الأمة ؛ ثقافتها وتراثها ولغتها وجنسها .. وقوة في إرادتها تحقيق أهدافها في التفوق العلمي والمادي ، وفي القوة وبسط النفوذ ..

فكان من الطبيعي ، أن تسخر لخدمة ذلك كل ما في حوزتها ، وفي مقدمة ذلك : الإعلام ، والتعليم ؛ لصياغة الإنسان ، ورفع مستواه ؛ ليكون على مستوى أهداف الأمة هناك .. وكان لا بد أن توظف كل ما تملك ، الإنسان ، الأرض ، المال ، والزمن .. لتحقيق إرادتها في التفوق والسُّبق .

أما وقد تمّ ذلك كله ، فلا بد أن يكون من ثماره :

- تقدم مذهل في وسائل الإعلام .
- سياسة محكمة هادفة في التعليم .
- واصطفاء بعناية للكفاءات والعقول المبدعة النابهة .
- وتطوير مستمر للوسائل التي تعين في تحقيق أفضل النتائج في استثمار الأرض والمال .

- وشعور متزايد بقيمة الزمن ، الذي هو مضمار السباق مع الآخرين .

- وتبعاً لذلك ، ووفق فلسفتها المادية النفعية ، كان لا بد أن تستغل كل طاقة في العالم يمكن استغلالها ، مادية أو معنوية لصالح أهدافها ، وعليها أن تبذل ما في وسعها في سبيل ذلك .

- وتبعاً لذلك أيضاً ، فإنّ عليها أن تكون قويّة مرهوبة الجانب ، لكي يتسنى لها حماية مكتسباتها ومواردها ، في الداخل والخارج ، ولتغري الآخرين الضعفاء بالدخول معها في أحلاف و معاهدات ، في صالحها أولاً وأخيراً .

- وهذا كله لا يمكن أن يكون مثمراً ثماره المطلوبة ، ما لم يكن جارياً وفق خطط مرحلية مدروسة ، شاملة لكل نواحي الحياة ، وأن تكون روح هذا النظام سارية في حسّ ونخيلة كل فرد ، ليكون الجميع حراً سألّه ، أمتاء عليه .

وإذا اجتمعت هذه المقومات كلها - وقد اجتمعت إلى حد كبير لهذه الأمم الأوربية ومن سار سيرتهم - فسوف تنظر الشعوب والأمم الأخرى المغلوبة على أمرها إلى تلك

نظرة إعجاب وإكبار.. حرية وأمن واستقرار، وإمكانات مادية هائلة، ووسائل متاحة في كل اتجاه، وفوق ذلك: حفاوة بالعقول، وتوظيف أمثل للكفاءات، وفرص أحسن للاستثمار والعيش في ظل الأمن والحرية! على حين أنها تجد الضد من ذلك وتقيضه في كثير من الجوانب في بلادها. فما للعقول لا تهاجر؟ وما للأموال لا تتدحرج؟
لا شيء.. لا شيء!

وبالفعل، فقد هاجرت العقول وخرجت الأموال^(١)، فزاد من تقدم أولئك الأقوياء وثرائهم، وأصبح هؤلاء الضعفاء في مواجهة التخلف والجهل والفقر وجهاً لوجه! والله المستعان.

(١) انظر تفصيل هذه المظاهر المحزنة، بالحقائق والأرقام في: كتاب «هجرة العلماء من العالم الإسلامي»، د. محمد عبد العليم مرسي، الفصل الثالث (أسباب هجرة العلماء وذوي الكفاءات من العالم الإسلامي)، فقد فصل الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأكاديمية والتعليمية، وذكر أسباباً أخرى متنوعة.

الفصل الثاني

عواقب الإعراض عن السنن

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر.

المبحث الثاني: واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب

الإنسانية)

تمهيد

وقفنا في الفصل السابق على الآثار الحميدة والعواقب الحسنة، الناتجة عن رعاية السنن الإلهية في الحياة، وكان ذلك من خلال التأمل في أنموذجين مختلفين في الزمان والمكان، وفي المنطلقات والأهداف، وفي شمولية الآثار المترتبة على الأخذ بالسنن الإلهية وجزئيتها.

وظهر لنا بجلاء، صدق ما تقرر غير مرة: أن هذه السنن جارية مع أسبابها المعقولة المقدورة للبشر، وأنها مع من أخذ بها، كائناً من كان.

وفي هذا الفصل - بإذن الله تعالى - سأفصلُ القول في أنموذجين، هما الوجهان الآخران للأنموذجين السابقين، ولكن من زاوية أخرى مقابلة لتلك: زاوية الإعراض عن السنن الإلهية كلية، أو التقصير في الأخذ بها، والسير على هدى منها.

وسأمضي في تقرير هذين الباحثين على نحو ما مر بك في مبحثي الفصل السابق، فأذكر في المبحث الأول: أظهر وأخطر العواقب الوخيمة التي حاقت بالأمة الإسلامية المعاصرة، جرأء ما أعرضت عن السنن الإلهية. وهذه العواقب شاملة لأحوالها المادية والمعنوية.

ثم أستعرض في المبحث الثاني: أبرز العواقب الوخيمة، الناجمة عن الإعراض عن السنن الإلهية في الأمم الجاهلية المعاصرة، خصوصاً في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية، وإن شئت فقل الإنسانية عموماً، وهي ما سوى الجوانب المادية، التي سبق الحديث عنها في المبحث السابق.

ولنبداً الحديث عن المبحث الأول في الصفحات التالية.

المبحث الأول

الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر

إنّ الأُمَّة التي كان لرعاية السُنن الإلهية، وإقامة شرع الله وتحكيمه في حياتها، من الآثار الحميدة والمآثر الجليلة المادية والمعنوية ما بهر العالم وشغل الناس، في قرون خلت. وكانت مملكة المسلمين من العظمة والانتساع، بحيث لا تكاد تجد أهل بلد أو مصر فيما نأى ودنا إلا وفي سمع أهله عنها وعنهم خبر.

إنّ تلك الأمة، هي الأمة التي كان للإعراض عن هدى الله وتحكيم شريعته، وإهمال الأخذ بسننه التي أودعها في كتابه المثلو، وفي كونه المنظور، من العواقب الوخيمة والرزايا الجسيمة؛ المعنوية والمادية ما أشمت بها حاسديها، وجرأ عليها من هب ودب ودرج، فانتقصت من أطرافها، وأذلت في عقر دارها.

وإذن، فليست الأمة الإسلامية اليوم نبتة مبتوتة الجذور، ولا ظاهرة حديثة الظهور، بل هي امتداد للأمة الإسلامية التي كانت المدينة النبوية دولتها الأولى. ومن هنا، فليس لها تاريخ تختص به، ولا نسب تشرف به إلا تاريخ الإسلام، وشرف الانتساب إليه.

ليس لها تاريخ تختص به؛ لأنّ تاريخ الأمة الواحدة لا يمكن تجزئته كما يجزئ الوراق القطعة من الورق، وكما يقطع بائع الحلوى الحلوى. خصوصاً، إذا كانت هذه الأمة وهذا التاريخ، من الضخامة والانتساع والامتداد في الزمان والمكان كهذه الأمة. بل إذا كان الاتصال بين حلقاتها، بحيث لا يمكن انقطاعها ولا يتصور انفصامها كحال هذه الأمة، التي لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين منصورين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك^(١).

والأمة الإسلامية في واقعها المعاصر، بكل ما فيها من جوانب التقصير، امتداد للأمة الإسلامية ذات العمق والامتداد في الزمان والمكان.

ذلك أن الأمم بطبيعتها، لا تتوالى إيجابياتها، بحيث لا تتخللها سلبيات البتة، ولا يكون العكس فتصبح كتلة من السلبيات، لا يكون فيها بوارق أمل، وإن وجد شيء من ذلك - على سبيل الفرض - فإنّ أمدّه لا يطول، ولا يمكن أن يطول.

(١) جزء حديث متفق على صحته، من حديث المغيرة بن شعبة ؓ، وسبق تحريجه.

نعم، قد ينحسر هذا أو ذاك إلى حد كبير، فيبدو الغالب؛ سلباً أو إيجاباً، وكأنه الوضع الوحيد، ولكن الأمر على ما وصفتُ لك .

لا يعرف التاريخ الاجتماع البشري هذه التجزئة والخطوط الفاصلة، التي تفصل بين الأشياء المادية عادة... غير أن التاريخ يسجل - وبكل أمانة - لهذه الأمة أو تلك: صفحات مضيئة مُشرقة، بغض النظر عن موقعها من الزمان والمكان .

- وصفحات أخرى قائمة أو سوداء، بغض النظر عن موقعها من الزمان والمكان كذلك . ثم يكون الحساب وتكون الموازنة .. هذا هو منطق التاريخ، وهذا هو سبيل الحكم على أحوال الأمم بصفة عامة .

يقول الأستاذ الأديب علي الطنطاوي في هذا المعنى: «سقوط روما كان نهاية القرون الأولى، وبداية القرون الوسطى، ولكن هل معنى هذا أنه إذا كان سقوطها يوم الخميس، كان الأربعاء من القرون الأولى، والجمعة من القرون الوسطى؟ وإذا انتهى العصر الأموي بقتل مروان^(١)، وولاية السفاح^(٢)، فهل القصيدة التي نظمت قبل مقتله بيوم لها مزايا وخصائص الشعر الأموي، والتي نظمت بعده بيوم لها خصائص ومزايا الشعر العباسي؟

التبدل الأنبي ليس من سنن الله في هذا الوجود، الليل يكون أسود حالكاً ثم يكون بعده النهار أبيض مشرقاً، فهل تحوّل الظلام نوراً في لحظة، أم الله يولج الليل في النهار؟»^(٣)

وبناء على ذلك أقول: إن واقع الأمة الإسلامية اليوم، واقع كوّنته مواقف كثيرة؛ هزائم وتنازلات ومخالفات عقدية وسلوكية، ومظالم وأهواء وتسلط، واختلافات وجهل وغفلة .. في أزمة متطاولة، وعلى أيدي أجيال متلاحقة، حتى انتهى إلى هذه الصورة الموجعة الأليمة^(٤) .

(١) هو: مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، أبو عبد الله، آخر ملوك بني أمية، ويُلقَّب بـ «مروان الحمار»؛ لجرأته، كان حازماً مُدبِّراً شجاعاً، إلا أن ذلك لم ينفعه عند إدبار المُلك والحلال السلطان. قُتِلَ في بُوصير من أعمال مصر سنة (١٣٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧٤/٦)، والأعلام (٢٠٨/٧).

(٢) هو: عبد الله بن محمد بن علي، أبو العباس، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الذّهاة، بُويح له بالخلافة سنة (١٣٢هـ)، وتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب، ولهذا لُقِّبَ بـ «السُّفاح». توفي سنة (١٣٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧٧/٦)، والأعلام (١١٦/٤).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي (١/٥٠).

(٤) انظر مثلاً: الإسلام اليوم للأستاذ/ أبي الأعلى المودودي، مبحث (المراحل التي اجتازتها الأمة الإسلامية)، ص ١٠ وما بعدها. وكتاب: هل نحن مسلمون، للأستاذ/ محمد قطب، مبحث (خط الانحراف)، ص ٩٧ وما بعدها.

والجيل المعاصر ما هو إلا حلقة في هذه السلسلة الطويلة، وعليه كفل من المأساة الراهنة، ولكن ليس هو صانعها ومهندسها الأول، وإن كانت قد تجلّت فيه مظاهرها، واكتوى بناورها.

والميزة والفضيلة لأي جيل تكمن في مقدار ما يملك من الأهلية واليقظة التي ترشحه لأن تكون بداية التحوّل إلى الأحسن في أوضاع الأمة بصورة مُلفتة وحقيقية.. أن تكون بداية ذلك التحوّل من عنده وعلى يديه.

وإنه لشرفٌ عظيم في الدنيا والآخرة! نسأل الله بمَنه وكرمه أن يمنحنا هذا الشرف العظيم، وأن يسوق على أيدينا هذا الخير العميم.

وثمة أمران ينبغي أن نكون على ذكر منهما، ويُصرّ بهما، قبل الخوض في تفصيل عواقب الإعراض عن سنن الله وهديه؛ لأنّ الاشتغال بذكر العواقب ما هو إلا حديث عن النتائج. وغير سديد أن نتحدث عن النتائج ونحن لم نضع أيدينا على أسباب الانحراف ومظاهر الإعراض الرئيسة.

الأمر الأول: مفاده أن من تأمّل في أسباب الانحراف والإعراض التي مُنيت بها الأمة الإسلامية في تاريخها، فإنّه واجدٌ أن هذه الأسباب لم تزدها الأيام إلا رسوخاً، ومظاهرها إلا استفحالاً، فالأسباب هي الأسباب، وإن اختلفت صورها وأسمائها.

وهذا بالنظر إلى جملة الأسباب، في عموم الأحوال والأزمان، ولو ذهب تسبرها على التفصيل، فستتهي والعلم عند الله إلى نحو هذا الاستنتاج.

وليس ما أقول ضرباً من الخرص، ولكنه مقتضى السنن الإلهية^(١)، كما سيتضح لك ذلك باستعراض:

الأمر الثاني: وهو أننا إذا أردنا أن نرصد عواقب الإعراض عن سنن الله وهديه في واقع الأمة الإسلامية المعاصر، فلا بد أن نقف - ولو بصورة مختصرة - على خط الانحراف عن هذه السنن عبر تاريخ الأمة الإسلامية؛ كيف بدأ؟ وكيف امتد؟ لتمييز بالاستقراء - بين ما هو أساس ومُنطلق لانحرافات آخر، وبين ما هو مظهر وأثر لهذا الانحراف أو ذاك.

(١) كما تبيّن لك ذلك من خلال استعراض خصائص السنن وأنها ثابتة مطردة.

لقد بدأ خط الانحراف عن الجادة المستقيمة يوم طعن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يوم كسر الباب فدخلت منه الفتنة^(١) التي أفضت إلى اختلاف وانقسام فاقتتال... ثم بدأ «منذ العصر الأموي أول كسر في المبادئ الإسلامية في سياسة الحكم والمال؛ إذ بدأ الملك العضوض بنظامه الوراثي ومظالمه، وبدأ ما يشبه الإقطاع في محيط الأمراء وأتباع السلطان، ومع ذلك فقد ظل المجتمع إسلامياً في مجموعه..»

ثم جاء العصر العباسي.. ودخل في الفكر الإسلامي بعض المفاهيم الغربية عليه، وأبرزها: الصوفية، والفلسفة النظرية التجريدية، الغربية على التصور الإسلامي في واقعيته المثالية.. وانتشر في قصور الخلفاء والأمراء والأتباع، جو من اللهو والفسوق والتفاهة، والانصراف عن الكدح والجد.. لا يعرفه الإسلام، ولا يمكن أن يسيغه.. وانعكس شيء من ذلك الفساد على المجتمع.. وإن كان الفرد العادي فيه قد بقي.. مسلماً، يعيش بروح الإسلام ويحكمها في حياته، يتجنب الحرام ويسعى إلى الحلال، مسترشداً بهدي الله ورسوله، ومحافظاً على مواضع المجتمع المستمدة من تعاليم الإسلام.. وكان الجهاد قائماً، والعلم والبحث مشرعة أبوابه^(٢).

«وتُسرَد أسباب كثيرة ساعدت في هذا التحول، غير أن السبب الرئيس لهذا التحول - في نظري - هو تناقص عدد المسلمين المتعمقين الواعين في المجتمع الإسلامي في ذلك الحين.. بينما كان الذين ينقصهم الفهم الحقيقي للإسلام، وكان لا يتلاءم سلوكهم - في جملة - مع الإسلام، قد تصاعدت نسبتهم إلى درجة أصبح معها من المتعذر، العناية الكافية بتربية هذا العدد الضخم تربية إسلامية، وثقيفه ثقافة إسلامية، مع أنه كان في المسلمين رجال الصلاح والتقوى.. وأصبح من المستحيل تخليص المجتمع الإسلامي من المضاعفات المنبثقة من فقدان الوعي الإسلامي الصحيح فيهم، وبالتالي أصبح من المستحيل المحافظة على المجتمع من آثار عاهاتهم الخلقية»^(٣).

«ونتيجة لذلك؛ حلت الملكية محل الخلافة، وانفرط عقد النظام الذي أقامه المسلمون الأوائل ببذل مُهَجِّهم. وطالت هذه المرحلة من مراحل تاريخنا قروناً طويلة»^(٤). بل لا تزال قائمة إلى يوم الناس هذا على أسوأ ما يكون من سوء.

(١) كما ثبت ذلك من حديث حذيفة رضي الله عنه، عند مسلم، في كتاب الإيمان.

(٢) هل نحن مسلمون، ص ١٠١ - ١٠٥، باختصار وتصرف.

(٣) الإسلام اليوم، لأبي الأعلى المودودي، ص ٢٧، ٢٨ بتصرف. وانظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٦٥٣/٢) وما بعدها، من بحث بعنوان: الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية، وكتاب: أزمة العقل

المسلم، ص ٤٦. وكلاهما للدكتور/ عبد الحميد أحمد أبو سليمان.

(٤) الإسلام اليوم، ص ٢٨. وانظر: أزمة العقل المسلم، ص ٤٧، ٨١.

«وجاء العصر التركي، حيث استولى الأتراك العثمانيون على مقاليد الحكم. وقد حقق الأتراك للإسلام أمجاداً حربية رائعة، ما في ذلك شك، ولكن لا شك كذلك في أن مفاهيم الإسلام قد عانت انحساراً كبيراً على يد الأتراك...»

لقد كان أبرز ما في الإسلام منذ مولده أنه (حركة)... حركة فاعلة في كل اتجاه، في ميدان الفتح، كما هو في ميدان العلم، وميدان الفقه، وميدان الاقتصاد والاجتماع والفكر والسياسة.. وكل منحى من مناحي الحياة.

فلما تولاه العثمانيون امتدوا به في ميدان الفتح ما أهلتهم له عبقريتهم الحربية وقوتهم العسكرية. ولكنهم جمدوا به جموداً معيباً في بقية الميادين.

لم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم.. ومن ثم توقف المد العلمي الإسلامي.. ولم يكونوا أصلاء في الفقه... والفقه هو التعبير الدائم عن نمو المجتمع في ظل الفكرة الإسلامية. ومن ثم تلاقى تجميد الفقه، وتجميد المجتمع الإسلامي في وقفة هائلة منكرة.

حافظ المجتمع على تقاليده الموروثة، ولكن هذه التقاليد ذاتها فقدت معناها، وصارت مظهراً بغير روح.. ومن هذه الوقفة المنكرة، بدأ الخطر الحقيقي على الإسلام.. فليس أخطر على أي فكرة أو نظام من أن يقف نموه، ويتجمد على صورة من الصور.. لأنه يأخذ بعد ذلك حتماً في الاضمحلال والضمور»^(١).

وكانت دولة المماليك والأيوبيين أشبه شيء بدولة الترك، عناية بالجهاد، وإهمال لجوانب العلم والإبداع^(٢). باستثناء فترات محدودة في عهد نور الدين وصلاح الدين، كانت الأمة فيها تتجه نحو التكامل.

«وفي أثناء ذلك كله، كان الإسلام قد تعرّض لأحداث عنيفة أليمة من الداخل والخارج على السواء، من صراعات الأسر الحاكمة، ومن هجمات المغول والتتار، وهجمات الصليبيين حيناً بعد حين، فلما جاءت هذه الوقفة المتحجرة على يد الحكم العثماني، كان ذلك إرهاباً بضربة قاصمة تصيب الإسلام»^(٣).

كما تعرّض في الوقت نفسه لخطر آخر، هو أشد من ذلك أو هو سبب لذلك.. تعرّض لتيارات فكرية منحرفة وفرق ضالة مناوئة، ظهرت في أزمنة مبكرة، وعمت بلاد

(١) هل نحن مسلمون، ص ١٠٦، ١٠٧ بتصرف يسير.

(٢) انظر: العرب والتحتدي، د. محمد عمارة، ص ١٣٧ وما بعدها.

(٣) هل نحن مسلمون، ص ١٠٦، ١٠٧. وانظر: العرب والتحتدي، ص ١٣٧ وما بعدها.

الإسلام ، وكانت تنمو وتزدهر على حساب قوته وصفائه ، ومن نجا من واحد منها قد لا ينجو من سائرهما . . .

ظهرت الصوفية التي تقعد بالناس عن العمل والبناء ، وتحيل التوكل إلى تواكل وخمول . . وأطلت الفلسفة الإغريقية بعقلانيتها التجريدية الباردة الجريئة ، وكانت عُدَّة الفلاسفة والمتكلمين من المعتزلة وغيرهم . .

وشاع الفكر الإرجائي الذي يجعل الإيمان مجرد التصديق والإقرار ، ويُخرج الأعمال من مسمى الإيمان ، وكان أخطر على المدى البعيد من سابقه ؛ لأنه كان تكأة وتبريراً لكل نفلت من التكليف التي جاء بها الشرع ، وعُرف في الأمة طوائف باسم المُرجئة ، ومنهم انتقل التأثير إلى كثير من المسلمين ، تحت مسميات شتى^(١) .

وظهرت الخوارج في الطرف الآخر . . .

وكانت الشيعة - بفرقها المختلفة - من أعظم الفرق نكاية بالأمة وإيقاعاً بها ، وكانوا يناصبون أهل السنة العداة جملة وتفصيلاً . وزاد من خطورتهم أنه كانت لهم دول في المشرق كالبيهيين والفاطميين ، وفي المغرب كالموحدين . . تحكمت في بلاد المسلمين وكانت سيفاً مصلتاً على عقيدتهم وفكرهم ، وعلى علمائهم وعامتهم ، وحليفاً دائماً لأعدائهم . .

وهذه النوابت وغيرها ، كانت وراء تبديد طاقات الأمة ، وتفرق كلمتها ، وانحراف مسيرتها ، مما عجل بنهاية سلطانتها ، وأطمع فيها أعداءها . .

كما أنها من جهة أخرى ، كانت عقوبات متنوعة أوقعها الله بها ؛ جزاء ما فرطت في جنب الله ، وأعرضت عن السنن التي بها قوام حياتها وقوتها وعزتها وكرامتها ، وجماعها أئباع الشرع المُنزَّل ، والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

ومن هذا العرض الموجز ، نستطيع أن نستخلص أهم الأسباب التي قعدت بالعالم الإسلامي عن أداء وظيفته في العالم ، وأرغمته على هذا التخلف المشين ، والذلّ المخزي . . وهي السنن التي لما أعرض عنها ، كان من آثارها ما سأحدثك عنه بعد قليل . . وأهم هذه الأسباب:

* الانحراف في سياسة الحكم، بحيث أصبح (ملكاً عضوضاً) بترك الشورى الحقيقية، وحلول (الملك) محل (الخلافة)، وكان تأثير هذا الانحراف على كيان الأمة عظيماً.

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٢٦ وما بعدها.

* وصاحب ذلك وزامته انحراف في سياسة المال، في توزيعه بايدي بدء، ثم في توزيعه وطرق تحصيله فيما بعد، ولا يكاد الانحراف الأول يتفك عن الانحراف الثاني، فيما أعلم .

ومن هذين الانحرافين، ظهرت انحرافات كثيرة، ووجدت مفسد خطيرة على مستوى الأمة، منها:

— تعطيل مبدأ الشورى، وتولي غير الأكفاء وتنحية من هم أولى منهم بشؤون الأمة، وشيوع أنواع الظلم والجور، وظهور ألوان الطبقة بسبب المكانة أو المال أو النسب، وما إليها. وتخلى الحكومات الإسلامية عن فريضة الدعوة إلى الإسلام، وحمل مشاعله في الدنيا، واقتصرها - في أغلب الأحيان - على فتح البلاد وجباية الأموال^(١). وأخطر من ذلك كله: انقسام قيادة الأمة وانشطارها إلى شطرين: قيادة سياسية، وأخرى دينية.. استأثر الحكام بالشئون السياسية، وتركوا للعلماء والمصلحين قيادة الأمة في الشئون الدينية والأخلاقية والفكرية..

ثم لم يلبث الحكام أن فرضوا سلطانهم على كلتا الناحيتين، ودسوا أنوفهم في كل شأن من شئون الأمة، فأخضعوه لسلطانهم وأهوائهم؛ لأن ترك القيادة في زمام العلماء والمصلحين يقف عائقاً في سبيل شهواتهم ونفوذهم، فنجم عن كل ذلك التباعد بين هاتين القيادتين واتساع الصدع، ثم شرع التناحر، بدلاً من التعاون والتلاحم^(٢).

ولا يزال الناس يشاهدون هذه الظاهرة الغريبة قائمة على قدم وساق في تاريخ الإسلام المعاصر، ويعانون ما جلبته على الأمة الإسلامية من الأضرار الفادحة.

ومن الأسباب التي قعدت بالأمة الإسلامية عن أداء وظيفتها:

— الضعف والتدنّي في مستوى تربية أفراد الأمة المسلمة على المبادئ والأهداف التي قامت عليها الأمة. وهذا الضعف والتدنّي شمل: طرائق التربية، والمضامين التربوية، والمجالات التي هي المساحة الطبيعية للتربية. ومهّد - مع مرور الوقت - لكثير من الآفات الاجتماعية، كالترف والفساد الأخلاقي والأثرة والعصبية المقيتة، وقضى بالتدريج على فاعلية الأفراد في الإبداع والتضحية في سبيل نصره الحق، وأضعف إرادتهم في مواجهة الأخطاء وتصحيحها والنهوض من عثراتهم الجماعية، وأوهى

(١) انظر: الإسلام اليوم، ص ٣١.

(٢) انظر: الإسلام اليوم، ص ٢٩، ٣٠، ٣١. و: أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ص ٤٧، ٨١.

ولاءهم لأمتهم، فسمحوا لأنفسهم ولقياداتهم السياسية أن تمرر باسمهم ولإتات أضررت بالأمّة وبالملة، ولم تعد مبادئ الأمّة وأهدافها الكبرى التي تحتاج إلى بذل ومصابرة في بؤرة الشعور، ولم يعد كثير منهم حارساً أميناً عليها، بل قدموا عليها، أموراً ثانوية، وانشغلوا عنها ربما بتوافه الأمور.

- وهذا الضعف والتدني في مستوى التربية العقائدية الإيمانية، والأخلاقية السلوكية، جعل اختراق صفوف الأمّة ومزيقها إلى فرق وشيع مختلفة متناحرة أمراً سهلاً...

- وأخيراً، أصيبت الأمّة بنوع شلل في معظم جوانب حياتها، وتوقفت عن النماء، خصوصاً في الجوانب العلمية وجوانب الإبداع العملية، فعم الجهل وسادت الغفلة، واستعاض الناس بمظاهر الأشياء وصورها عن حقائقها ومعانيها، وانتشرت البدع والخرافات في الاعتقاد والتصوّر، وفي التطبيق، وأميتت السنن، واستحكمت غربة الدين في نفوس أكثر المسلمين في كثير من البقاع.. ولم تعد القيادة السياسية مؤهلة لتحقيق أهداف الأمّة، ولا الأفراد بمدركين حجم الخطر، وخطورة التوقف والجمود، ومغبة الانحراف عن منهاج النبوة، وظهر فصام نكد بين الشعور والسلوك، وبين التدين والمدنية، خصوصاً بعد الهجمة الصليبية الأخيرة على مصر فالعالم الإسلامي... (١)

- وكان الذي أغرى بظهور تلك الأسباب، وسهّل لانتشارها، هو التخلّي التدريجي عن القيام بشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بكلمة الحق، على مستوى الخاصة من الخلفاء والأمراء، وعلى مستوى عامة الأمّة، من قبل العلماء والوعاظ وقادة الفكر والدعوة...

ولا يعنينا هنا معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا السكوت على المنكرات والمخالفات؛ الاعتقادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرها... بقدر ما يعنينا أن نعرف أن تلك المخالفات الضخمة التي أدت إلى انهيار كيان الأمّة وزوال سلطانها.. أن ذلك كان بسبب التخلّي والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هذه سئة الله، وتلك هي عواقب مخالفتها وتركها! (٢)

تلك هي - فيما أرى - أمهات الأسباب ومهمات السنن التي فرطت فيها الأمّة الإسلامية، فانفرط عقد نظامها، وسقطت من عين الله، وهانت على عدوّها، يوم هانت في عين نفسها.

(١) انظر: هل نحن مسلمون، ص ١١٠ وما بعدها. و: العرب والتحدّي، ص ١٤٠.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص ١٢٠.

ولهذه الأسباب - والله أعلم - مُنيّ العالم الإسلامي بعقوبات إلهية متنوعة ، في فترات مختلفة . مُنيّ بضربات خارجية موجعة ، من أمم مختلفة ؛ المغول والتتار في المشرق ، والصليبيين في المشرق والمغرب .

ودخلت الأمة في معاهدات وأحلاف مخزية ، خصوصاً مع النصارى في الأندلس ، أيام دولة ملوك الطوائف^(١) . وفي المشرق في الشام ، أيام الدولة الأيوبية . ووقع بين فئات المسلمين أنفسهم من العداوات والخصومات والثارات ، ما لم يكن معهوداً مثله في أسلافهم .

وأصبح المسلمون من الغفلة والجهل والفسوق ، بحيث انتظموا - غير مرة - جنوداً تحت إمرة النصارى أو بوحى منهم^(٢) !

وقدموا لأعدائهم خدمات عظيمة ، ما كانت لتحصل لهم لولا هذه الغفلة وذاك الجهل^(٣) .

فاجتمعت على هذه الأمة عوامل داخلية فثاكة ، وعوامل خارجية حاكمة ، على مدى ألف عام ، بل تزيد . . فتلاشى وجودها الحضاري ، وسلمت زمام الأمور - راغمة - للأمم الجاهلية الناهضة مادياً ومدنياً .

ولم ينجح في إنقاذ هذا الوضع المتردي للأمة ، وجود بعض القيادات الواعية بين الحين والحين ، ولم تستفق الأمة كما ينبغي على أصوات المصلحين النصّحة ، الذين لم يخل منهم جيل ودولة^(٤) قديماً قيل :

لا تقاتل بواحد أهل بيت فضيعان يغلبان قويا

لم تستيقظ إلا على وقع سنابك خيول الغزاة ، وبأصوات مدافعهم ، يجوبون البلاد ، ويعبثون بوحدة الأمة ودينها ومقدراتها ، بصورة مباشرة أول الأمر ، وبأيدي عملائهم وصنائعهم فيما بعد . . . لم تستفق إلا بعد فوات الأوان!

وكانت إفاقة غير طبيعية . . . كانت إفاقة انبهار وإعجاب بتفوق الخصوم ، ورغبة جامعة في التقليد والمحاكاة .

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ، د. عبد الرحمن الحجي ، ص ٣٢٥ وما بعدها ، ٤٠٩ وما بعدها .

(٢) انظر: هل نحن مسلمون ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣) انظر: واقعا المعاصر ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٤) انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/٢٧٨) .

وسبب ذلك: أن جماهير الأمة نامت يوم نامت، جاهلة بعقيدتها. زاهدة بتراتها، شاكئة في قدرتها على صنع أي شيء لمستقبلها. ومن نام على شيء فقمن أن يستيقظ عليه، وتلك أقبح أنواع الإفاقة وأشدّها ضرراً على الأمة!

إنّ الجاهل البسيط يمكن أن يتعلم، والمهزوم الواثق بنفسه يمكن أن ينتصر، والمتخلف يمكن أن يتقدم.. إذا أخذ بالأسباب، وكان جاداً وصبوراً.. ولكن من كان جهله مركباً، وهزيمته من داخل نفسه، وتخلفه نتيجة مغالطة مكشوفة لطبيعة الأشياء، كحال أمتنا الإسلامية في زمن انحطاطها، فإنّ له شأنًا آخر!

كان أول ما بدأ به رواد النهضة! للخروج بنا من تخلفنا أن عدّوا على ما بين أيدينا من أشياء فحطموها، حتى لا تعوق انطلاقتنا، زعموا!

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها^(١)

وبفعل الانبهار، راحوا يستجدون أعداءنا التاريخيين ليقدموا لنا ثمرة جهودهم وسرّ تفوقهم على طبق من ذهب! وكلما خان أصحابنا التقدير وحُسن الظنّ بعدّونا، كرّوا على أسياننا يحطمون ما بقي منها، وعلى خلاصات أمتنا يستأصلونهم، ليقدموا أدلة جديدة تشفع لهم في استحقاقنا جرعة أخرى من التقدم والتحضّر!

إن الخلل كان في نقطة البدء، وفي دُخيلة من تزعمه وقاده!

وبيان ذلك: أن تعلم أن حركة التنوير العَلَمَانِيَّة الحديثة، قد انطلقت في رؤيتها لأزمة الأمة من وضعية الانبهار الحاد بما حققه المجتمع الأوربي الحديث من إنجازات مدنية وتنظيمية هائلة، فانكبت هذه النخبة على دراسة التجربة الأوربية الحديثة^(٢). وبدلاً من أن تتعلق هذه الدراسة بالتقنية الأوربية، أو المناهج العلمية التطبيقية، أو علوم التنظيم والإدارة، ونحو ذلك مما كان هو أهم أسباب تقدم أوربا الحديثة، وهو الذي نجحت في البدء به أمم أخرى كاليابان مثلاً.. بدلاً من أن تفعل ذلك، انحرفت فاتجهت إلى المناخ الثقافي الأوربي، وجذوره التاريخية، من منطلق أنّ هذا الإنجاز المدني، كان وليد مناخ ثقافي معين ساعد على التقدم.

فانحرفوا نحو دراسة آداب الغرب وتاريخهم وفكرهم الديني والسياسي واجتماعهم واقتصادهم.. كل ذلك من واقع نفسي مهزوم.. حتى حدث في عقولهم نوع استبدال

(١) البيتُ لمرّوان بن سعيد النحوي، أحد أصحاب الخليل المتقدمين. انظر: كتاب سيويه، تحقيق: عبد السلام هارون (٩٧/١).

(٢) جذور الانحرف في الفكر الإسلامي الحديث، تأليف: جمال سلطان، ص ١٠٤.

كامل لـ (العالم العقلي) كما هو عند الإنسان الأوروبي . . واتخذوا من تجربة الغرب (نموذجاً) كاملاً يحاكمون إليه كل ما عندهم من دين وتراث وواقع إسلامي في الماضي والحاضر، بدلاً من المقارنة والموازنة، وأغفلوا بدهية أحسبها لا تخفى على من له أدنى مسكة عقل، وهي: «أن لكل تجربة إنسانية خصوصيتها، التي تجعل من الصعب أو المحال تعديتها برمتها إلى بناء إنساني آخر»^(١).

وتجاهلوا «حقيقة أولية وشرطاً أساسياً، وهو أن النهضة أو الحضارة . . تولد أساساً في ضمير الإنسان، شروطها ومثيراتها، ثم تنعكس هذه الفاعلية الإنسانية على الواقع والأشياء والقوانين والنظم، فتحدث فيها التغيير المرجو نحو الحضارة»^(٢). وما يولد في الضمائر غير الذي يتلقف بالمحاكاة والتقليد البيغائي.

هذا بالضبط ما جرى لأمتنا الإسلامية في تاريخها المعاصر، بدءاً واستمراراً . . ولقد نسي أصحابنا - رؤاد النهضة - ونسينا معهم في تلك السنين العجاف، طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ . .

* نسينا أو نسيت طلائع هذه الأمة في أوائل العصر الحديث - شعوباً وقيادات - أن الأمة الإسلامية يوم نهضت نهضتها الميمونة أول مرة؛ أنها لم تستعن بعدوها، وإن استفادت منه . ولم تكن تحسن الظن به، وأن عدوها كان مستميتاً في القضاء عليها، وأنها نهضت بعقيدتها الإيجابية، وبسواعد أبنائها المؤمنين بأهدافها ومبادئها .

* ونسينا أن أوروبا يوم نهضت في العصور المتأخرة، كانت نهضتها على الرغم منا، وكانت نهضتها نتيجة جهود أبنائها المؤمنين بفلسفتها وأهدافها، وأنها رغم إباحيتها وإلحادها في الواقع، ما تزال شديدة التعصب لدينها . . شديدة الولاء لبني ملتها . لقد تخلصت من الدين الزائف المعوق لنهضتها، ولم تتبرأ من انتمائها لمدارها الحضاري .

* ونسينا أن نهضة اليابان كانت بغير إرادة الغرب . . وأن اليابانيين لم يكفروا ببوذيتهم كي يتقدموا! بل ازدادوا مع الأيام إيماناً بقدسية بوذا! وأن نهضة ألمانيا كانت بغير اختيار الحلفاء . . وأنها لم تجعل دينها قرباناً لنهضتها!

* وأن نهضة كل دولة في الدنيا كانت تكون بغير استشارة الدنيا كلها!!

* نسينا هذا كله، وتذكرنا فقط أن أوروبا نهضت يوم كفرت بالكنيسة ونحّت الدين جانباً! ولو تذكرنا أن أوروبا تتلمذت على علومنا وحضارتنا . . بوصفنا مسلمين لا

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٤، ١٠٥ بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٣٢، ١٣٣ بتصرف.

بوصفنا عرباً، وأنا على مدى قرنين لم نستطيع أن نتعلم من أوربا شيئاً نافعاً، يوم أصبحنا عرباً بلا هوية . . لكفى .

نسينا هذا كله، ووقفنا على أعتاب الأمم المتقدمة نريد أن نشترى الحضارة! أو أن يتفضلوا علينا فنوهب الحضارة بالمجان! إي والله . هل تصدقون!!
ونسينا - في غمرة الإعجاب - ماذا نريد أن نتعلم؟! ولماذا نتعلم؟ وعلى يدي من نتعلم!؟

بل نسينا أن من شيمة الجاهل، أن يقف موقف التلميذ ممن هو أعلم منه ليتعلم، ثم يعود علماً يزاحم العلماء، ليتفوق عليهم!
نسينا كل هذا، فوقفنا موقف الزبون السفيه من صاحب الحانوت الماكر^(١). فاشترى بأثمان باهظة أقبح ما في حانوته وأرخصها ثمناً . .

فتعلم التلاميذ وأصبحوا أساتذة، وبقينا نحن زبائن أوفياء للأساتذة وللتلاميذ!
وشيء آخر أستكمل به أبعاد المأساة:

قد يقول قائل: أنت تبالغ في التشاؤم!

إن طلائع الأمة لم يذهبوا هنا وهناك إلا ليتعلموا الحضارة والمدنية . . .

وأقول: لنسلم جدلاً بدعوى هؤلاء، لكن لا بد أن يسلموا لنا بأن اختيارنا للتلاميذ

الطلائع كان غير موفق بكل المقاييس!

كان من اختيارهم إما جاهلاً، أو مخدوعاً، أو مغرضاً ذا نية سيئة .

كان الطلبة والمبتعثون أحسن ما يُقال عنهم - في جملتهم - أنهم جهلة بدينهم، ضَعْفَةٌ في ولائهم لأمتهم، بادية عليهم علائم الفسق والتحلل، لم تكن الأهداف البعيدة واضحة في أذهانهم، ولم تكن عداوة أعدائهم راسخة في قلوبهم . فكانت النتائج أنهم لم يعودوا على أمتهم بما انتدبتهم له، وعادوا إليها بما أراد أعداؤها لها من نكسة وخيبة وفساد . . فتولوا أزمة الأمور؛ لأنهم رواد نهضة الأمة! وولاهم المستعمر مقاليد البلاد؛ لأنه ربأهم على عينه . . فاجتمعت فيهم أوهام المخدوعين من أمتهم، وإرادة الماكرين من أعدائهم . . فلا تسأل عن الحنة المرتقبة!

(١) وهو معنى عبارة رائحة أنشأها المفكر الإسلامي، مالك بن نبي، وهو يقارن بين موقف العالم الإسلامي من الحضارة الغربية وموقف اليابان ومن سار سيرها من تلك الحضارة .

تلك - باختصار - هي أبعاد المأساة ومعالم الكارثة، وأولاء هم أطرافها . ويكفي بعد ذلك أن أنقل فقرات شاهدة على بعض عواقب هذا الإعراض عن السنن الإلهية في الواقع المعاصر للأمة الإسلامية، وهي فروع على تلك الأسباب، وامتداد لآثارها الوخيمة، وإن اختلفت الأسماء والألوان . والحُرّ تكفيه الإشارة .

وكما لم يكن مستطاعاً حصر مفاخر هذه الأمة ومآثرها في الماضي، فكذلك لا يمكن الإحاطة برزاياها ونكباتها في الحاضر . . وصدق القائل:

أئى اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوماً جناحاه^(١)

ومن قال:

فلو كان سهما واحدا لا تقيته ولكنه سهم وثن وثالث

ولكن سأذكر من العواقب أبرزها، وما أراه أهم وأجمع من غيره . . والبُغرة تدلّ على البعير!

وسأعرض لعواقب هذا الإعراض المُريع عن سنن الله وهدية؛ عن الإسلام الذي هو قَدْر هذه الأمة وسرّ وجودها وبقائها . . سأعرض لهذه العواقب في خطوط عريضة، وبصورة مجملّة، ثم أفصّل بعض التفصيل مثلين في دولتين، تمثل كل منهما نموذجا متكاملا للإعراض عن سنن الله، وقد حصل لكل منهما من العواقب الوخيمة في كل المجالات ما فيه مزدجر، لو كنا نعقل!

وهاتان الدولتان هما (تركيا) دولة الخلافة الإسلامية، و(مصر) بوابة العالم العربي . «أول ما يبدو هنا من عواقب هذا الإعراض وآثار ذلك الانحراف عن صراط الله المستقيم، حين ننظر إلى القرنين الأخيرين، والقرن الأخير بصفة خاصة، أول ما يبدو هنا هو هذا الغبش الشديد المحيط بحقيقة الإسلام في نفوس المسلمين، والبُعد المتزايد عن هذه الحقيقة في الحياة الواقعية . أي أنه فساد في التصور وفساد في السلوك»^(٢) .

ومعنى ذلك: أن غالبية المفاهيم، إن لم نقل «كُل المفاهيم الإسلامية، قد فسدت وانحرفت في حسّ أكثر الأجيال المتأخرة، بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله، التي أصبحت مجرد كلمة تُقال باللسان، والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد، إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية، تُؤدّى أو لا تُؤدّى، إلى مفهوم القضاء والقدر، الذي تحوّل إلى قوة مثبتة مخدلة، إلى مفهوم الدنيا والآخرة، اللتين انفصلتا وتحوّلتا إلى معسكرين

(١) البيت للشاعر المصري، محمود غنيم، المتوفى سنة (١٣٩٣هـ)، من قصيدة له، مطلعها:
تاه الدليل فلا تعجب إذا تاهوا أو ضيع الركب أشباح وأشباه

انظر ترجمته في: الأعلام (١٧٩/٧) .

(٢) واقفنا المعاصر، ص ١٦٥، بتصرف وزيادة .

متقابلين متعادين، العمل في أحدهما يؤدي إلى إهمال العمل في الآخر، إلى مفهوم عمارة الأرض، الذي تحوّل من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقف العمارة، ولكن بغير منهج الله!

وأصبح الدين في النهاية صورة باهتة خاوية من الروح، لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تدافع من كل صَوْبٍ للقضاء على الإسلام^(١). ويمكن أن نطلق على هذا الغبش والفساد في التصورات والمفاهيم اسم (التخلف العقيدي) في حياة الأمة.

ونطلق على ما تولّد من ذلك من انحراف وبعُد عن التطبيق الصحيح لتعاليم الإسلام اسم (التخلف في السلوك والعمل) على مستوى الأمة^(٢).

وكلا الأمرين خطير غاية الخطورة، ولكن الخطورة القصوى تكمن - بلا شك - في (التخلف العقيدي)؛ لأنه هو الذي يُمدد للتخلف السلوكي من ناحية، ويؤخّر علاجه من ناحية أخرى..

ولأنّ التخلف السلوكي يمكن علاجه بالتذكير، كما تعالج سائر الغفلات، وليس كذلك التخلف العقيدي؛ لأنّ التذكير لا يجد استجابة طبيعية في القلب، ويحتاج الأمر إلى إبراء القلب ذاته مما ألمّ به من أمراض^(٣).

و«من التخلف العقيدي نشأت كل ألوان التخلف التي أصابت العالم الإسلامي.. التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والفكري والثقافي.. وقد تختلف النسبة بين العوامل المختلفة التي أدت إلى التخلف العقيدي في تأثيرها في كل نوع من أنواع التخلف التي ذكرناها آنفاً، فتكون نسبة تأثير الفكر الإرجائي في بعضها أوضح، ونسبة تأثير الصوفية في بعضها أظهر، ونسبة التفلّت من التكاليف في بعضها أكثر، ونسبة تأثير الاستبداد السياسي في بعضها أشدّ.. ولكنها موجودة في مجموعها، وعاملة في كل مجال من مجالات التخلف التي ترتبت أصلاً على التخلف العقيدي واستمدت منه»^(٤).

وحينما نقول: إنّ كل أنواع التخلف التي غشيت العالم الإسلام اليوم كلها نابعة من التخلف العقيدي... حينما نقول ذلك، فإننا نعني: العقيدة الإسلامية التي تستوعب حياة الأمة والأفراد، وتصدر عنها كل تصرفاتهم.. نعني بالعقيدة التفسير الكامل لمعنى الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله).. نعني العقيدة التي يفسر مدلولها قوله

(١) واقعنا المعاصر، ص ١٦٣، بتصرف يسير.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٧٢.

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٧٢ بتصرف.

(٤) واقعنا المعاصر، ص ١٧٣.

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْإِنْسَانِ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. ويقرر معناها قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وترجمها في الواقع حياة رسول الله ﷺ وسيرته، وأقواله وأفعاله، بكل أبعادها وملابساتها، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين من بعده.

وحينئذ نقول: التخلف العلمي انحراف سببه خلل في فهم العقيدة أو في تطبيقها، أو فيهما معاً.. والانحراف في السلوك تخلف سببه خلل في فهم العقيدة أو في تطبيقها، أو فيهما معاً.. وهكذا.

والآن يمكن أن نستطرد في ضرب الأمثلة على عواقب الإعراض عن السنن في حياة الأمة الإسلامية المعاصرة على سبيل الإجمال.

وسأذكر النماذج التي استجدت، ولم يكن للأمة الإسلامية بها عهد قبل هذه الحقبة التاريخية، التي لا تتجاوز قرنين على وجه التقريب.

**** فمن ذلك: الهجمة الصليبية واحتلال العالم الإسلامي.**

كان المسلمون في صراع مسلح دائم مع أعدائهم من النصارى والوثنيين وغيرهم.. كانوا يغيرون على أجزاء من الأرض الإسلامية، ثم ينقلبون على أعقابهم.. حتى يوم أغار التتار على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية لم يحكموا العالم الإسلامي، وإنما دخلوا في دين المغلوبين، وصاروا من جند الإسلام! ولم يظفر الصليبيون طوال مائتي عام بطلبتهم، وسلمت بيت المقدس للمسلمين!

ولأول مرة، فقد اجتاحت أوروبا الصليبية العالم الإسلامي كله تقريباً - ما عدا أجزاء من الجزيرة العربية وتركيا - بجيوشها، فاحتلت بقاعاً من الأرض كانت خاضعة للحكم الإسلامي، يعيش فيها نصارى ومسلمون، واستولت على بلدان العالم الإسلامي التي يسكنها المسلمون أنفسهم!

ولأول مرة تتحكم أوروبا الصليبية بخيرات بلاد المسلمين، وتحرمهم منها^(١).

**** ومن ذلك: إلغاء الخلافة الإسلامية وتمزيق وحدة العالم الإسلامي.**

كانت الخلافة الإسلامية تمثل رابطة قوية بين شعوب العالم الإسلامي عبر تاريخ المسلمين الطويل، حتى في فترات ضعفها وانحرافها..

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٨٣، ١٩٠. والحلول المستوردة، للدكتور/ يوسف القرضاوي، ص ٢١.

ولم تنزل الشعوب المسلمة، حتى في فترات الخروج عن طاعة الخليفة من قِبَل بعض الأمراء تشعر بوحدها، ولم تكن الحواجز السياسية والجغرافية بين بلدان المسلمين معروفة.. وكان ذلك من أعظم أسباب قوتها وهيبتها.

وهذه الرابطة كانت هاجساً يؤرق أوروبا، حتى في طور ضعف الخلافة الشديد.

«يقول أحد المبشرين في بدايات القرن العشرين، قبيل انهيار الدولة العثمانية: إن أوروبا كانت تخشى الرجل المريض (وهو مريض!)؛ لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر على استعداد للقتال بإشارة من إصبعه»^(١).

وقال أحمد راسم: «تغبط أعظم إمبراطوريات العالم الدولة العثمانية على ما كان لها من الملك العظيم، والسultan الذي يضم تحت لوائه زهاء ثلاثمائة مليون من المسلمين، ارتبطوا بالخلافة العثمانية برياط معنوي أكيد..»^(٢).

ولهذا تأمرت قوى الشرّ «على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها، وفُتت العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة، تتصارع فيما بينها وتتساحن فيما يحقق مصالح الأعداء دائماً، ويحقق لهم السيطرة على مقدرات المسلمين! وانتزعت فلسطين، وقد استولى الأعداء على بيت المقدس، التي ثارت من أجلها الحروب الصليبية الأولى»^(٣).

ولأول مرة تُقام هذه الحواجز، وتصطنع تلك الحدود بين بلدان العالم الإسلامي وبين شعوبه، مما رسخ أقدام العداوة، وأكد الشعور بالفرقة، وقطع الأمل بعودة دولة الخلافة.

**** ومن الرزايا الجسيمة التي مُني بها العالم الإسلامي بسبب الإعراض عن سنن الله:**

تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم وفرض التحاكم إلى غير شريعة الله.

إنه لم يفكر حاكم من الحكام في بلاد المسلمين، وإن بلغ من الاستبداد والطغيان والفسوق ما بلغ، أن يحكم المسلمين بغير شرع الله، ويرفض الالتزام بمبدأ الإسلام.

ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه - يوماً ما - نظام غير نظام الإسلام، أو يُقَسَّر على التحاكم إلى غير شريعة الله!^(٤)

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، للأستاذ/ محمد قطب، ص ١٨٩. وقد جاء هذا المعنى في كلام للمؤرخ الغربي

(كورنو). انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/٥٣٣).

(٢) الإسلام والحضارة العربية (٢/٥٣٥).

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٨٣.

(٤) انظر: الحلول المستوردة، ص ١٨.

نعم ، قد حصل نوع خروج على الشريعة ، بإدخال بعض القوانين الوضعية في وقت مبكر نسبياً ، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، الذي اشتهر بهذه التسمية بسبب تلك الفعل المنكرة^(١) .

وكانت هذه ثغرة بدأت تتسع حتى أدت في النهاية إلى أفقع ما حدث في تاريخ الأمة من انحرافات^(٢) .

لأول مرة تُفرض القوانين الوضعية على المسلمين ، وتُنحى الشريعة الإسلامية عن واقع حياتهم ، من قِبَل المستعمرين ، ثم على يدي العملاء المستأجرين !
لأول مرة في البلاد الإسلامية يجري نقل «الأنظمة والقوانين الغربية ، وتعطيل تطبيق الأحكام الشرعية ، والهجوم عليها ووصفها بالقسوة والوحشية ، وإهدار كرامة الإنسان ، وعدم ملاءمتها للمدنية الحديثة . .

وما دَخَلَ الاستعمار بلداً إسلامياً إلا انتهى أمره بهذه النتيجة ، في التخلّي عن الشريعة الإسلامية .

وأول عمل قام به الإنجليز في الهند ، إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول عمل قام به نابليون في مصر ، هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسي محلها ، وأول عمل قام به صنيعة الاستعمار (مصطفى كمال) في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية^(٣) . ثم اتسع الخرق على الرّاقع .

وقد يفضلون - أعني المستعمرين أو عملاءهم - على الشريعة! فيحشرونها في (ركن) ضيق ، تنظمه وتقضي فيه ، وهو ما يتعلق بشؤون الأسرة ، أو ما سُمي (الأحوال الشخصية) . . أما شؤون الحياة والعلاقات المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولية . . فلها (قوانين وضعية) ، تحكم بها (محاكم مدنية)^(٤) !

**** ومن العقوبات الإلهية التي لا عهد للأمة الإسلامية بها :**

نفسي الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي .

لم يكن مجتمع المسلمين - حتى في القرون المفضلة - مجتمعاً ملائكياً ، خالياً تماماً من الفساد أو الانحراف الخلقي . . لكن من المؤكد أنه كان نظيفاً طاهراً إلى حد بعيد . . وحتى

(١) انظر: واقعا المعاصر ، ص ١٦٠ ، وقد تولى الحكم من سنة (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) . السابق في الحاشية .

(٢) انظر: واقعا المعاصر ، ص ١٦٠ .

(٣) معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية ، للشيخ مناع القطان ، ص ٤٦ بتصرف يسير . وانظر: الحلول المستوردة ، ص ٧٣ .

(٤) الحلول المستوردة ، ص ٧٣ بتصرف .

في عصور الضعف والجهل والجمود، كانت الأخلاق والآداب الاجتماعية مرعية في الجملة، وعلى مستوى الأمة.

أما أن يكون الفساد والعهر والانحلال، ويكون الخمر والتهتك والسفور ويكون الترف الماجن والربا وسائر الرذائل.. أما أن تكون هذه شيئاً مباحاً، ومشاعاً في الأمة، تُحمى بقوة القانون! أما هذا فشيء لم تعرفه أمة الإسلام إلا على أيدي طلائع النهضة المشثومة! وهي مما عاقب الله به هذه الأمة في هذا العصر، فيما عاقبها به، لما تشبهت بأعدائها، وخنعت لهم ورضيت سيرتهم..

والأنكى من ذلك، أن يكون الطُّهر والعفاف، والحشمة والثَّرَع عن الدنيا.. أن يكون ذلك عنواناً على اعتلال الذوق، ودليلاً على التخلف والرجعية والجمود والتزمت!

** ومن ذلك: سلب الحريات وإهدار كرامة الإنسان.

لم تشهد شعوب العالم الإسلامي منذ فجر الإسلام - فيما أظن - خصومة واختلافاً بينها وبين حكامها مثل ما شهدته في عصرنا الحاضر، حيث إن الشعوب المسلمة على طرفي نقيض مع حكامها، من صنائع الغرب والشرق..

ولم يلق المسلم من الحرمان وإهدار الكرامة، مذ كان مسلماً، ما لقي ويلقى في هذه الأزمان..

وحتى في أزمنة الاستبداد والطغيان السياسي فيما مضى، فإنه توجد هناك أشكال من الحرية، تُبقي على الحد الأدنى من الكرامة؛ هناك حرية العبادة وحرية الدعوة إلى الله، وحرية التنقل والحركة، وهناك حرية التفكير والتأليف والتعليم فيما لا يتعارض مع سلطان الوالي^(١)، وحرية الاتجار.. وغيرها.

أما في واقع الأمة الإسلامية المعاصر، فإن الشعوب الإسلامية - في زمن الحرية المزعوم - تعيش في سجون كبيرة تسمى البلاد الإسلامية.. لا تملك حق إبداء الرأي، فضلاً عن النقد والاعتراض، أو الكتابة والنشر، فضلاً عن المشاركة الفعلية في تدبير شؤون بلادها! لا يسمح للمُبدعين وذوي الكفاءات بالإبداع والتطوير، ولا للمصلحين بالإصلاح وكبح جماح الفساد، بل وليس لهم حق المطالبة بكف الفساد والرذيلة عنهم، فضلاً عن المطالبة بتطهير المجتمع منها!

وليس للناس حق أن يسألوا عن ثروات بلادهم أين تذهب، ولماذا تُهدر!

(١) ولم يكن سلطان الوالي آنذاك قائماً على أساس التعارض مع الإسلام جملة.

ليس للمسلمين في هذه الدويلة أو تلك ، أن ينصروا إخوانهم المسلمين المنكوبين في أي مكان! ليس لهم أن ينصروهم بالمال أو السلاح والرجال ، بل وليس لهم أن ينصروهم ويشاركوهم بالمشاعر الطيبة والدعاء إلا سيراً في كثير من الأحيان! أو يكونون مخالفين للأنظمة! هذا فضلاً عن القيود على الحركة والتنقل ، وعلى التجارة بألوانها في عدد غير قليل من بلدان العالم الإسلامي . . . إلى آخر القصة .

وكل هذه المظالم مما ابتلى به المسلمون في العصر الأخير عقوبة على تفریطهم في جنب الله وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

**** وما جدّ في حياة المسلمين، ولم يكن لهم بمثله عهد:**

محاربة الإسلام ومحاربة تجفيف منابعه والعمل ضد مصالح الأمة؛ أي محاولة القضاء على الهوية الإسلامية، وقتل الشعور بالولاء للإسلام والانتماء إليه.. وذلك عبر وسائل شتى، من أبرزها:

* إبراز زعامات علمانية وقيادات لا دينية على مختلف المستويات ، والنفخ فيها والتطليل لها ؛ ممن يُنتخب انتخاباً صورياً ، أو تأتي به الانقلابات العسكرية .

تُضغى «عليهم البطولات الكاذبة ، وهم يذبحون المسلمين وتقطر دماؤهم من أيديهم ، ويُعبّدون شعوبهم لمصالح الصليبية الصهيونية لقاء شهوة السلطة وشهوة الطغيان .. ويُفقرون شعوبهم ويستنزفون طاقاتها ، فتركبها الديون ، وتهبط عمّلاتها ويزيد تحكم الأعداء فيها ، وهم جالسون بغلظ أكبادهم يتسلون بمصائب شعوبهم!»^(١) . في الوقت الذي تتم فيه محاولة إلغاء فاعلية القيادات الحقيقية للأمة من العلماء والمصلحين ، وإقصائهم عن دائرة الضوء ، وتشويه صورتهم بأي وسيلة .. بالتزوير والإثارة المفتعلة ، أو بالنفي والتشريد ، أو بتكميم الأفواه ، أو بأي شيء آخر .. لمصلحة الأمة!

* توظيف إمكانات الأمة الإعلامية والتعليمية لخدمة هذه الأغراض ، وتجييش جحافل من سقط الناس ، تنزعها قيادات مصطنعة «لا تعرف الإسلام على حقيقته ، بل هي نافرة منه ، منسلخة عنه ، مُسممة الأفكار تجاهه ، تدعو بدعوات الغرب ، وتنق بأفكاره ، وترفض أن تحكم بشريعة الله بعد أن قيل لها إنها رجعية وجهود وتأخر! وتقف للدعوة الإسلامية بالمرصاد .. سواء منها الحكام والمفكرون والكتّاب والسينمائيون

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ، ص ١٨٤ .

والإذاعيون والتلفزيونيون والقصاصون والمسرحيون والفنانات والفنانون .. والأولاد والبنات التقدميون المنحلو الأخلاق»^(١) .

إنَّ تعمّد محاربة الإسلام لذاته على أيدي حكامه، وتسخير إمكانات الأمة لذلك ... بادرة لا عهد للمسلمين بها من قبل .

وتدمير مناهج التعليم، وتعمّد تجهيل الأمة لإطفاء شعلة الإيمان فيها، وصرف ولائها عنوة إلى أي شيء غير دينها .. مهزلة يبرأ منها تاريخ المسلمين ..

*** ومن عواقب الإعراض عن سنن الله التي أمر المسلمون بالأخذ بها:

سحق الأقليات الإسلامية وتذويبها في المجتمعات الجاهلية:

إذا كان المسلمون يعيشون غرباء في بلادهم، وهم كل السكان أو أكثر من ٩٠ ٪ من عدد السكان .. فما ظنكُ بالأقليات الإسلامية في البلاد الكافرة المهيمنة؟!

إنَّ أحسن أحوالهم أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثالثة، يعيشون على امتهان الحرف الدينية في عرف المجتمع .. ويُحرّمون من حقوقهم في التعليم والوظائف، وسائر المميزات .. ويُجبرون على التخلي عن كثير من شعائر دينهم وعاداتهم .. وتُسن القوانين والتشريعات ضد مصالحهم .

«والنتيجة النهائية لهذا الضغط الاجتماعي على عقول الأقلية الضعيفة هي تشككها في صحة معتقداتها، ونتيجة لذلك فإنها تبدأ في التساهل ببعض المبادئ الأساسية لدينها، كما أن البعض منها يبدأ في الشعور بالحنج مما هو عليه ..

وعندما يفقد المجتمع أو جماعة منه، ثقته في أخلاقياته وكيانه وتكوينه، فإنَّ باب الانهيار لا يمكن إغلاقه بسهولة»^(٢) .

ولم يكن ذلك ليكون لو كان للمسلمين شوكة قويّة، ودولة مُهابة . ويوم كانت لهم تلك الدولة وتلك الشوكة، كان الظلم مرفوعاً عنهم، وكانت قوتهم مستمدة من قوة الأمة التي ينتمون إليها، والديانة التي يدينون بها!

ومما يَحزُّ في النفوس ويبعث على الأسى، أن ترى كثيراً من الجاليات الإسلامية قد فرّت بدينها من ظلم الظالمين ببلادها، واستجارت بخصومها وأعدائها؛ لأنهم أعدل

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٨٤ .

(٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٢٦١، ٢٦٢)، من بحث للدكتور/ عبده كاسوزي، الأستاذ بجامعة ماكربري - أوغندا، بعنوان: «مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش بين أغليات غير إسلامية»، وقد ذكر الباحث صوراً من معاناة هذه الأقليات، ابتداءً بإخراجهم من دينهم، وانتهاءً بالتدخل لمحاولة تغيير أسمائهم، وما بين ذلك .

سياسة وأرعى لحقوق الإنسان من سدنة الحكم في بلادهم^(١)! فتقسّم الظلم والهوان أكثر المسلمين ..

فطائفة يشكون إلى الله ظلم أعدائهم من غير أهل ملتهم .. وطوائف يجأرون إلى الله من ظلم بني جلدتهم!

إذا خانك الأذى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالتك الأبعاد

وبالمقابل تتمتع الأقليات غير المسلمة من اليهود والنصارى وغيرهم في بلاد المسلمين بميزات، وتظفر بتسهيلات لا يحلم المسلمون في بلادهم أن يظفروا بها .. بل إن كرامة الأغلبية المسلمة وحريتها وحقوقها، لتذهب فداءً لكرامة الأقلية الكافرة وحريتها وحقوقها! باسم التسامح وحقوق الأقليات .

أحرامٌ على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس؟

وما ذلك إلا لغلبة أهل تلك الديانات على أمة الإسلام، وفسوق عامة المتنفذين من أهله فאלله المستعان .

* ومن عواقب الإعراض عن سنن الله على سبيل الإشارة:

- هجرة العقول الإسلامية: من تمكن منهم من الهجرة وتهيات له أسبابها، فحرمت الأمة من أهم عناصر البناء على الإطلاق، وهو الإنسان .. وأي إنسان؟! إله الإنسان المفكر المبدع! الإنسان الإيجابي الموهوب! بسبب العوامل السابقة مجتمعة، وغيرها^(٢) .

- نزوح رؤوس الأموال الإسلامية وحرمان البلاد منها: وهي رؤوس أموال ضخمة كان يمكن أن تساعد في تهيئة أوضاع اقتصادية جيدة لعدد من الدول الإسلامية، وتستقطب آلافاً من العقول المهاجرة، وتشغل ملايين العاطلين، وتستثمر ملايين الأفدنة المعطلة من أراضي المسلمين، وتساهم في نهضة صناعية مدنية ضخمة، تغني العالم الإسلامي عن الاعتماد على الاستيراد، ونهضة صناعية حربية تعيد للأمة هيبتها وكرامتها ..

(١) وهذه الجاليات غير الأقليات الإسلامية الذين هم من أهل البلاد الأصليين، ولكنهم أقلية بالنظر إلى مجموع السكان، وهم الذين أشرت إليهم في أول هذه الفقرة .

(٢) انظر على سبيل المثال: هجرة العلماء من العالم الإسلامي، للدكتور/ محمد عبد العليم مرسى، وكتاب: قضية التخلف العلمي، للدكتور/ زغلول راغب النجار، ص ١٨، ١٣٢ .

لقد حدث العكس؛ إذ أسهمت هذه الأرصدة والأموال الإسلامية في البنوك الغربية بقوة، في إدارة عجلة الاقتصاد الغربي، وعملت على تحقيق الرفاهية، في الوقت الذي عمَّ فيه الفقر والبطالة أرجاء العالم الإسلامي.

وما نزوح هذه الأموال، إلا بسبب الطغيان السياسي، وعدم الاستقرار، وتقييد الحريات.. وهذه الأموال النازحة لا تمثل إلا نسبة قليلة من خيرات البلاد الإسلامية، والتي استأثر بها العدو واصطفاها لنفسه، وفرض على العالم الإسلامي مختلف القيود؛ ليضمن استمرارية تدفقها إليه^(١).

وهكذا لم ترجع الأموال النازحة، وسُرقت الثروات الباقية، وزادت الديون، وزاد الاستبداد.

* ومن عواقب الإعراض عن سنن الله وهذاه:

هذه الهزائم المتتالية في كل مواجهة بين العالم الإسلامي المنكوب وبين أعدائه.. حتى إسرائيل. هزائم ومجازر تلون تاريخ العالم الإسلامي المعاصر، على امتداد رقعة الفسيحة؛ في تركيا، وفي مصر، وفي الهند، وفي فلسطين، وفي الحبشة، وفي الفلبين وأفغانستان، وفي جمهوريات آسيا الوسطى.. وفوق كل أرض وتحت كل سماء.. ويكفي أن تعلم أن العالم الإسلامي كله - إلا أجزاء من شبه جزيرة العرب - قد وطئت أرضه أقدام المستعمرين.

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأيت صبري على الذلّ ذلت

* ومنها: وقوع بلاد المسلمين ضحية الفوضى السياسية، بصورة لا مثيل لها.

حتى أصبح العالم الإسلامي حقلاً للتجارب، وسوقاً لتجار المبادئ..

فالليبراليون الديمقراطيون اليمينيون يحلفون لشعوبهم أن الخلاص على أيديهم بمعاونة الغرب المتقدم..

والاشتراكيون الثوريون اليساريون يعدّون الشعوب بالفردوس المنتظر والعدالة والمساواة من هناك، من موسكو^(٢). هكذا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار..

﴿كَلِمَاتٍ حَلَّتْ أُمَّةٌ لَعْنَتُ أَخْنَبِطَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

(١) اقرأ نبذة موجزة عن خيرات بلاد المسلمين وثرواتها في كتاب: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، للدكتور/ زغلول راغب النجار، ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) اقرأ: كيف فشلت الليبرالية الديمقراطية، ولماذا فشلت الاشتراكية الثورية العربية في البلاد الإسلامية. اقرأ ذلك في: كتاب الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.

وهؤلاء و هؤلاء يلوخون بالخلاص العاجل عبر (مجلس الشعب) أو (مجلس قيادة الثورة) أو (مجلس الوزراء) أو (مجلس الأمة)، أو...، أو...، وفي النهاية..

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا!

وصارت الشعوب الإسلامية تدفع الثمن في كل مرة، مزيداً من التخلف ومزيداً من الظلم والاستعباد! ولم تتمخض هذه التجارب الطويلة إلا عن شيء واحد، يُسمح بمزاولته؛ يمينا أو يساراً. أتدرون ما هو؟

إنه حرية المجون والخلاعة والتحلل من قيود الأخلاق والحشمة والتدين «وهذا لعمر الله أعجب العجب.. أن تُمنع (حرية الحقوق) وتطلق (حرية الفسوق)؟»^(١).

** وأخيراً وليس آخراً: فإن من عقوبات الله على الإعراض عن سننه تنكب جادة

الحق:

انتكاس المفاهيم، والضرب في كل واد، إلا وادي الحق الأحق بالاتباع، تطلباً للخروج من الأزمات، وتبريراً للواقع الأليم..

تلك حال كثير من المسلمين اليوم، بل أكثرهم، على المستويين السياسي والفكري، وعلى مستوى الحل الإسلامي.

فعلى المستوى السياسي والفكري الجاهلي: عمت الفوضى السياسية، واستشرت حمى المتاجرة بالشعارات في كل العالم الإسلامي، والعربي منه على وجه الخصوص، على امتداد خمسين سنة مضت، بل تزيد.

لا جديد.. اللهم إلا مزيد من الشعارات واللافئات، لمواجهة متطلبات العصر، والمزايدة على الصحو الإسلامية! ومزيد من التبعية للنصارى واليهود، خصوصاً في هذه الأيام! ومزيد من الديون على كاهل الشعوب، والتكشف إلى حد المجاعة والموت! ومزيد من الفساد والرشوة والابتزاز. ومزيد من الكبت ومصادرة الحريات..

وفي كنف هذه الفوضى السياسية نشطت تيارات فكرية منحرفة، كانت لها جذورها السابقة؛ كالصوفية والفكر الإرجائي والعقلانية الاعتزالية، في صورة تجمعات وأحزاب، أو في تيارات شعبية يغذيها الواقع المتدهور.. وولدت تيارات وأحزاب علمانية قومية، وبعثية واشتراكية.. فزادت من معاناة الأمة، ومسخت هويتها.

وعلى صعيد الحل الإسلامي، ماذا نحن واجدون؟

وجدنا الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية النهوض بالأمّة وإصلاح حالها، قد اختلفوا في كيفية الإصلاح ووسائله اختلافاً كبيراً ..

فاشتغل قوم بالدعوة إلى استئناف الحياة الإسلامية عن طريق تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق .. وكفى .

ورأى آخرون في دهاليز السياسة ومغامرات الانتخابات أقرب وسيلة لاستئناف الحياة الحرة الكريمة .. ونسوا في غمرة السياسة والأعيها تزكية النفوس وتقويم الأخلاق ..

وهؤلاء وأولئك لم يُعيروا البناء العقيدي وتصحيح المفاهيم وفق الكتاب والسنة اهتماماً يوازي ما لهما من أهمية ...

وذهب فريق ثالث يعيب على الطائفتين هذه الحلول الجزئية للمشكلة، بحجة أن العناية يجب أن تنصب على تنقية العقيدة ومحاربة البدع والخرافات، وهي الأخرى تنطلق من تصور جزئي لمفهوم العقيدة، وكيفية استصلاح الأمّة من خلالها ...

وكل طائفة تكاد تحصر الصواب فيها والكمال في منهجها، وتعادي غيرها، وتهون من شأنه، وتنكر قيمة جهاده في الواقع، بل وأحياناً ترى أن غيرها يقف حجر عثرة أمام الإصلاح المنشود!

وكل أولئك وغيرهم، يلقي بعضهم باللائمة على بعض، ويحمّله مسؤولية ما يجري في دنيا المسلمين، بصورة كلية أو جزئية ..

فالشعوب تلعن الحكومات، وتقعّد تنظر نتائج سبابها وشتائمها، والحكومات تسخر من الشعوب، وتصفها بالجهل والغباء والتخلف ..

أمّا الحل الإسلامي الشامل، الذي يتنظم الجوانب العقائدية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والعلاقات الدولية، الفردية والجماعية للأمّة الإسلامية .. أما هذا الحل .. فقد نبذه وأعرض عنه الأولون، إلا قليل منهم، ولم يوفق له الآخرون، ولم يُصنغ هؤلاء وأولئك لنصح الناصحين^(١)!

وهذا كله من عقوبات الله على الإعراض عن صراطه المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦] .

(١) اقرأ - إن شئت - كتاب: مجتمع الكراهية، لسعد جمعة، رئيس وزراء الأردن أيام حرب (الأيام الستة). والحلول المستوردة، للقرضاوي، وواقنا المعاصر، لحمد قطب؛ لتقف على طرف المأساة في الوطن الإسلامي الكبير.

تلك - فيما أحسب - أهم أسباب ما تعانیه الأمة الإسلامية اليوم من فساد وتخلّف ، وهذه بعض مظاهر العقاب الإلهي عليها ، على مستوى الأمة الإسلامية أيضاً ..
 فإن قال قائل: هذا بفعل العدو المدجج بالسلاح ، المدفوع بالحقد الصليبي والكيد اليهودي والأطماع الاقتصادية ..

قلنا: هذا صحيح ؛ لأن الله تعالى يقول عنهم: ﴿ وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ أَلْبَعُضَهُ مِنْ أَوْرَهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨] .
 ويقول: ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨] . ويقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ رَضِىَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .
 وإن قال آخر: هذا بفعل الحكام المتسلطين والعملاء المأجورين ..

قلنا: وهذا صحيح ؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] . ويقول: ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] . ويقول: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧] .
 وإن قال ثالث: والشعوب المستضعفة لا حول لها ولا طول ..

قلنا: هذا فيه نظر!

فيه نظر ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقْوَمُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] . ويقول: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] . ويقول: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] . ويقول: ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

ويقول عن قوم فرعون مبيناً علّة استخفافه بهم ، وطاعتهم إيّاه في ذلك: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] .

وفيه نظر ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] . ويقول: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠]. ويقول:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويقول أمراً باتباع رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿وَلَا تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

ويقول محذراً من رد الحق ومخالفة الرسول ﷺ: ﴿وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَأْتُوا اللَّهَ إِنَّا اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

فهل ننكر من ذلك شيئاً؟!

وأذكر هنا مثلاً واحداً فقط نتبين منه: من أين أتينا؟

هل قام العلماء والمصلحون، والدعاة الصادقون، والمفكرون والأدباء والإسلاميون بواجبهم في بداية هذه التحولات، ومستهل تلك الأحداث قبل قرنين من الزمان على وجه التقريب؟

هل كانوا يومها على مستوى أحداث الأمة، والظروف المتغيرة آنذاك؟
هل ألقوا بثقلهم كقيادات للأمة وللشعوب الإسلامية، يتكلمون باسمها ويتحسسون مشاكلها، ويكشفون لها الأعياب أعدائها، كما كان يفعل مصطفى كامل وسعد زغلول في مصر؟^(١) ، بغض النظر عن وجهتهما الإصلاحية، التي تعلي من شأن القومية على حساب الدين.

أم أنهم كانوا في مؤخرة الركب، وآخر من يعلم؟!

أم أنهم، أو أكثرهم، كانوا يمثلون جبهة الرفض السلبي، يبررون بذلك عجزهم وقصورهم؟!

أم هل كان ذلك مبلغهم من العلم والفقه والوعي؟

أم أن منهم من كان ذليلاً لبلغة السلطان، يبرر الواقع ويبارك كل خطوة، حتى ليقول للناس إذا لزم الأمر: «إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر! ولا ينبغي

(١) زعيان من زعماء الوطنية في مصر. توفي الأول منهما سنة (١٣٢٦هـ)، وتوفي الثاني سنة (١٣٤٦هـ). انظر: الأعلام (٨٣/٧)، (٢٣٨/٧).

أن نحاربهم ونقاومهم! إنما واجبنا أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات!»^(١) .

ومن لم يكن هذا ولا ذاك ولا ذلك ، لاذ بالصمت وآثر العزلة طلباً للسلامة!
واختياره هذا نظر قصير واجتهاد لم يحالفه التوفيق ، وإن كنا لا نشك في نية صاحبه ..

ألم تكن نتيجة ذلك كله: أن اتخذَ الناس رؤوساً جهالاً ، وقيادات عمية .. فطمَّ الوادي على القرى؟
ثم عليك بالقياس .

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
وهجو ذا الزمان بغير جرم ولو نطق الزمان بنا هجانا

ولعل فيما ذكرت من إشارات كفاية ، وانتقل إلى ما وعدت به من التمثيل بحال بلدين من بلدان العالم الإسلامي ، كان لهما سبق والريادة في هذا المشوار البائس! هما: تركيا دولة الخلافة ، ومصر بوابة العالم الإسلامي .

(تركيا) دولة الخلافة الإسلامية ، و(مصر) بوابة العالم الإسلامي . تمثل كل منهما أعموداً متكاملًا للإعراض عن سنن الله ، وقد حصل لكل منهما من العواقب الوخيمة في كل المجالات ما فيه مزدجر ، لو كنا نعقل!

هذه تركيا آخر دولة ورثت الخلافة الإسلامية .. لَمَّا أدارت ظهرها للإسلام وللشرق ، ويمت وجهها قِبَل الغرب ، فمنحتهم صفو ودها ، وضَحَّت بالإسلام جملة وتفصيلاً ، على مستوى القيادات والمؤسسات الرسمية . ماذا طلعت علينا به من إبداعات وإصلاحات ، وماذا جنت على نفسها وعلى العالم الإسلامي؟

لقد تلاشت قبضة دولة الخلافة على ممالك الإسلام التابعة لها ، وأصبحت كالرجل المريض - كما قيل - وذلك لأسباب أشرت إليها بصورة إجمالية فيما سبق .

ويعيننا في هذا المبحث أن نجيب عن هذا السؤال:

- لقد كان بإمكان تركيا أن تخرج من محتتها ، فتحول ضعفها قوة ، وتستعيد مكانتها التاريخية ، بحكم السنن الإلهية التي لا تمتنع على من أخذ بها ، خصوصاً وأنها ما تزال

(١) هذه فتوى أستاذ الجليل ، لظفي السيد! انظر: واقعنا المعاصر ، ص ٣٠٧ .

مرتبطة بالدول الإسلامية التابعة لها بأكثر من سبب، وأن أسباب ضعفها وتخلفها معروفة، يمكن تلافئها!

فكيف فكّرت تركيا وقدرت للخروج مما هي فيه؟ وماذا كانت النتائج على صعيد الواقع؟

لقد كانت تركيا عزيزة منيعة مرهوبة الجانب لعدة قرون، يوم كانت قائمة بأمر الإسلام، تحكم به، وتجاهد في سبيله.. ففرطت في جنب الله وأعرضت عن أسباب قوتها فعاقبها الله جزاء ما أعرضت عن سننه ورغبت عن دينه!

وأبدأ بالإشارة إلى جانبين مهمين من الجوانب الحيوية في حياة الأمم عادة، ثم أعرض لمجمل النتائج التي تحققت لها على صعيد الواقع.

الجانب الأول: الجانب العسكري:

كيف خططت تركيا لإعداد جيش قوي، قادر على تحويل الهزائم إلى انتصارات، والدفاع عن كرامة الأمة الإسلامية؟

في عام ١٧٩٣م صدر نظام عسكري عُرفَ باسم قانون (النظام الجديد) لتطوير الجيش وتحديثه! فما الجديد في هذا النظام؟

بموجب هذا النظام، أحضِرَ الضباط المتخصصون من فرنسا وسويسرا ودول أوروبا؛ للتدريب في الكليات العسكرية. وبدأ إرسال الطلاب إلى أوروبا لدراسة العلوم العسكرية.. وكان الزي العسكري (لضباط الإسلام) خليطاً من الأزياء العسكرية الفرنسية والإنجليزية والروسية.. وصارت أهم الأسرار والمواقع العسكرية تُنقلُ إلى الغرب من أجل أن تظهر تركيا بمظهر الدولة الأوربية؛ فكان من نتائج ذلك أن الجيش التركي أول من أدار ظهره للإسلام، وابتلعه الاستغراب^(١).

والبقية تأتي تبعاً لذلك!

الجانب الثاني: جانب التعليم والتربية:

وهنا مكمّن الخطر وقاصمة الظهر لمستقبل الأمة. فماذا كان من شأن التعليم؟ «في عام ١٨٤٥م تم تأسيس جامعة (دار القانون) بجانب كلية الديانة الإسلامية، وفيها بدأ تدريس القانون الروماني والفرنسي على يدي أساتذة غير مسلمين..»

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٢٢٨، ٢٢٩) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز ترك، بعنوان: «الصراع على تربي الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية».

وبعد قيام الجمهورية، كلفت الدولة أستاذاً سويسرياً القيام بمهمة تطوير منهاجها! وكان من نصائحه: إغلاق دار الفنون وكلية الديانة الإسلامية، وأن تحل محلها (جامعة اسطنبول)، وكان أكثر من نصف أساتذتها من الأجانب، وكان يدرس اللغة العربية والفارسية أساتذة ألمان! وكانت للأجانب مدارس تدرس بلغتهم، غير خاضعة للرقابة التركية.. ثم خُطت البلاد خطوة أخرى فأحلت التاريخ الغربي وجغرافيته وأدبه محل تاريخنا وجغرافيتنا وأدبنا، ومن لا يستذكرها يرسب في الامتحان! وكان التعليم مختلطاً، حتى المرحلة الجامعية.

وفي عام ١٩٢٦م تم حذف الدروس الدينية من مقررات كافة المدارس، وبعد عام ١٩٥٠م سمح بتدريسها مرة واحدة في الأسبوع، في بعض الفصول الدراسية فقط... وقد أعدت وزارة التعليم كتاباً دراسياً يدعو إلى هجر الموسيقى الشرقية... إلى آخر السلسلة...

وقد أدى ذلك كله، إلى ظهور جيل جاهل بدينه وبتراثه، معادٍ لوطنه وأمته، فوضوي، يملأ الشوارع، ويحرم الأمة نعمة الأمن على الحياة والممتلكات^(١).

وبعد هذا المشوار المؤسف في طريق التغريب والفرنجة، على مستوى الجيش وعلى مستوى التعليم والتربية... كان لا بد أن تنتهي الأمة إلى حال من التبعية والمادية والانحلال، يمكن رصد بعض مظاهرها في النقاط التالية:

- سيطرت المادية الغربية على كل القطاعات. وقد وصل الإلحاد المادي إلى حد أنه حتى الخدمات الدينية لا يتم أداؤها دون إغراء مادي.

- كافة أشكال المظاهر الغربية من ملابس وأطعمة وشراب ومتعة واحتفالات يعتبر اتباعها أمراً ضرورياً.

- في سنة ١٩٢٥م وباسم الاستغراب، تم إغلاق مساكن الدراويش (التكية)، والتي كانت تعتبر من بقايا مؤسسات الانقطاع لعبادة الله، وحلت محلها الحانات والنوادي الليلية وصالات الرقص وغيرها من أماكن الرذيلة، وذلك بأعداد كبيرة غطت كل أرجاء البلاد.

- لم تتم حماية الصناعات الوطنية، بل تم فتح الأبواب لكل أنواع المنتجات الصناعية الغربية.

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/٢٢٩ - ٢٣١) من بحث للأستاذ عثمان أوزترك، بعنوان: «الصراع على تبني الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية»، باختصار وتصرف.

- تركت الموارد والثروات التجارية للشركات الأجنبية .
 - بدأت القيم الاجتماعية في الانحدار ، وأخذ المال والشهرة والمنصب تستحوذ على الاحترام ، وليست الفضيلة والقيم والأخلاق .
 - ظهر جيل جديد لا يعرف شيئاً عن قيمه ومبادئه الدينية والتاريخية ، إلا ما يُلقن من الشبهات ، ويدرس من المعلومات الناقصة المشوّهة ، وبالمقابل يعرف الكثير عن الممثلات والمغنيات والراقصات الغريبات .
 - أصبحت الأغلبية التي لا تملك عقلاً ، والتي تربط خلاصها بالغرب هي سيدة الكلمة في البلاد^(١) .

هذا مبلغ المستغربين الأتراك من العلم ، أن ألقوا تركيا في هوة بين الإسلام وبين مدينة الغرب ما لها من قرار ، حتى قيل: إنه ربما لو تمّ استغراب تركيا بالكامل ، لكانت في وضع أفضل مما هي عليه الآن . . فقد كان من الممكن على الأقل حل مشكلات الطرق والمياه والكهرباء .

«إنّ الذين يحولون تركيا في اتجاه الغرب يعرفون جيداً أنه حتى الطرق الريفية في أي دولة غربية أفضل بكثير من أي طريق في مدينة اسطنبول . إنّ إسرائيل تحول مياه البحر بالتقطير إلى مياه صالحة للشرب ، أمّا تركيا التي تدّعي أنها غربية فإنها لا تستطيع الاستفادة من مياهها الكثيرة ذات النوعية الجيدة ، والموجودة بكثرة في آبارها ، وتعاني من الجفاف ، ولا تستطيع الاستفادة من أنهارها . وإنه لمن الصعب أن نجد تياراً كهربائياً غير منقطع ، ليس فقط في القرى ، وإنّما أيضاً في المدن ، بل حتى في المدن الكبيرة مثل اسطنبول وأنقرة»^(٢) .

والقصة طويلة ، وطبيعة الموضوع لا تسمح بأكثر من هذه الإشارة ، ولكن هاهنا وقفان:

الوقفّة الأولى:

فيما نقلته من أحوال تركيا - على محدوديته - تبدو أسباب كثيرة كانت تقف وراء فشلها الحضاري ، أي عقوباتها الإلهية . . . من هذه الأسباب على سبيل المثال:

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣١ ، ٢٣٢) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تورك ، بعنوان: «الصراع على تبنى الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية» ، باختصار وتصرف .
 (٢) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣١) من بحث للأستاذ/ عثمان أوز تورك ، بعنوان: «الصراع على تبنى الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية» ، باختصار وتصرف .

* الثقة المطلقة العمياء بأعدائها، حيث مكنتهم من تولي مهمة تطوير وتحديث الجيش بشقيه؛ السلاح والرجال! ومتى كان العدو غيباً لدرجة أن يقوم بتطوير أسلحة خصمه، ويربي الجنود على عداوته! أليس في ذلك مخالفة صريحة لقوله سبحانه وتعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]... وغيرها من الآيات؟ مع ما فيه من الغفلة المفرطة ومصادمة العقل، الذي يقضي بالاحتراس من العدو مهما تكلف الود والنصح!

* وهذا يقودنا إلى الشك الكبير في مدى تحقق مبدأ الولاء والبراء، وهل هناك إرادة جادة في إصلاح الأوضاع لمصلحة الأمة، لا لمصلحة فئة محدودة! كما يوقفنا على مبلغ الغفلة والجهل، وغياب الوعي والتخلي عن المسؤولية، التي حاقت بالشعوب الإسلامية آنذاك!

* حالة الانبهار وانعدام الفاعلية والإبداع، والشعور بمركب النقص والإحساس بالهزيمة... كل ذلك ساهم في تنامي الروح المنهزمة، القابلة للاستغناء (أي طلب الغزو)، وقد أدرك العدو هذه الروح، فاستغلها لصالحه أحسن استغلال.. وأنتج ذلك كله نفسية أزهد ما تكون في أشياءها وموروثاتها وإمكاناتها... أي بأسباب تميزها. ولم تخف تلك - هي الأخرى - على الأعداء، فدخلوا منها بلا استئذان. يظهر ذلك جلياً عند تأمل الحياة الاجتماعية والفكرية، التي ذكرت لك طرفاً من أخبارها.

* وإلا فأي مسوغ لإشاعة الرذيلة وتشجيع الانحلال، في مثل تلك المرحلة من حياة تركيا، التي تحتاج فيها إلى الصبر والجلد وقوة الإرادة، على فرض أنها كانت مضطرة للتلمذ على مدينة الغرب بهذه الطريقة، لتنهض من جديد؟

* وأي داعٍ الحُج على جعل التعليم مختلطاً في تلك المرحلة نفسها، ما علاقة ذلك بصناعة النهضة الجديدة؟!

* ولم كان الذي يطور مناهج التعليم في الجامعة، وليس ميناها أستاذ سويسري يدعى (أ. مالشي)؟

* والذي يدرس اللغة العربية والفارسية، أساتذة المان^(١)؟!

غُلقَتها عرضاً وعلقت رجلاً
غيري وغلقت أخرى غيرها الرجل^(٢)!

(١) انظر: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٣٠).

(٢) البيت للأعشى. انظر: ديوان الأعشى الكبير، ص ١٠٧.

* وما هي الحجّة التي سوغت ترك ثروات البلاد ومواردها تحت تصرف الأجانب الأعداء؟ ما علاقة هذا ببناء الذات؟

* وكيف تنهض البلاد وهي سوق مشرعة أبوابها لمنتجات الآخرين؟

وكيف .. وكيف .. ولم .. ولم ..؟

وقد تقول: هؤلاء عملاء الغرب، وقد تسلطوا بقوة السلاح ودعم الأجانب، ولم يكن سواد الأمة راضياً بذلك .

وأقول: من أعدى الأول؟ من سمح للأول، وغض الطرف عن الخطأ الصغير؟ ثم من صفق له ومات من أجله؟ وجعل من نفسه حقل تجارب لإصلاحاته التاريخية؟!

فإن قلت: هؤلاء المرتزقة والمناققون وضعاف الإيمان وأهل الشهوات والمناصب، وأضرابهم، وليس شرفاء الأمة .

فإنني أقول لك: كيف سمحت الأمة بشرفائها وأحرارها وأخبارها هؤلاء أن يتكاثروا، وأن يتسلطوا؟

ستقول لي: تلك سنة الله في الأمم إذا تقادم بها العهد .

وأقول حينئذٍ: وتلك سنة الله في الأمم إذا سمحت لنفسها أن تبلغ هذه الغاية من

قبل ومن بعد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] .

الوقفه الثانية:

ومع كل ما متّحت تركيا للغرب الكافر من تسهيلات، وما بذلت من جهود متواصلة - ليس أهمها وأخطرها ما ذكرت لك - للسير في ركابهم، فقد قلبوا لها ظهر المجن، وخذلوا أحوج ما كانت إليهم .. فقد طلبت الانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة منذ فترة طويلة، ولكن دون جدوى .. وكانت تعاني من الحصار المضروب على متوجاتها المحدودة في الأسواق العالمية كأي دولة ترتبط تاريخياً وشعبياً بالإسلام .

وبعد حرب الخليج الأخيرة سنة ١٩٩٠م حاولت تركيا أن تستغل لحظة الرضا عنها، فطلبت من الأمريكان أن يفتحوا أسواقهم لمنسوجاتها، فلم تحرز تقدماً يُذكر!

وصدق الله العظيم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨] .

وهكذا تحوّلت تركيا من دولة عظمى، مرهوبة الجانب، تبعث إلى أقاليم المسلمين بالحكام والولاية.. إلى دولة تابعة تستجدي العالم، وترسل العمال والحرفيين!

المثال الثاني: مصر (بوابة العالم الإسلامي):

وباختصار شديد أقول: قد اختلف المؤرخون المحدثون في رائد نهضة مصر الحديثة! هل كان محمد علي باشا (تولى مصر سنة ١٢٢٠هـ) ^(١). أو كانت الحملة الفرنسية (١٢١٣هـ) بقيادة نابليون! بعد اتفاق أكثرهم على أن سبب النهضة لا يخرج عنهما!

ويرى الدكتور محمد عمارة: أن النهضة المصرية كانت بقيادة محمد علي، «ثم جاءت الحملة الفرنسية... لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم في ركاب الغزو الاستعماري ولتلعب دور (الماس الكهربائي) الذي لم يصعق ضحيته فيميتها، ولم يكن المصدر الحقيقي ليقظتها ومبعث حياتها، وإنما كان (المنبه) لها كي تستيقظ، فتعي العصر وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون» ^(٢)!

ولستُ بصدد ترجيح الأقوال والمفاضلة بينها، أو طرح رأي آخر.. والذي يعيننا هنا أن مصر كانت نائمة ^(٣)، ونومتها كانت لأسباب أشرت إليها مجملة فيما سبق، وهي عقوبة من الله على إعراضها عن هداه، وترك الأخذ بسنن الحياة التي أودعها في كتابه.. فاستيقظت، وكانت بداية نهضتها خاطئة؛ لمخالفتها سنن الحياة وطبيعة الأشياء.. وكانت تلك عقوبة أخرى! فكيف كانت البداية؟

يقول الدكتور عمارة: «تميّزت هذه النهضة.. بكونها حركة (إصلاح مدني) قادها (مصلحون مدنيون)، ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمدراء الذين تميّزوا عن (المصلحين الدينيين)، والذين لم يتقدموا إلى الأمة (كفقهاء وعلماء دين).. فالمنطلقات للإصلاح كانت (مدنية).. والمعايير للإصلاح كانت (مصلحة الأمة).. ولم يكن موقف محمد علي من هذا الدين وعلمائه اختياراً فكرياً خراً.. فهو لم يعتمد على الإسلام في نهضته الإصلاحية، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الإسلامي؛ لأنّ الرجل لم يكن من علماء الدين.. وفاقد الشيء لا يعطيه» ^(٤).

(١) المعروف بـ «محمد علي الكبير» مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، احترف تجارة الدخان فأثري، وكان أمياً تعلّم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، وتولى مصر سنة (١٢٢٠هـ)، وفي عهده كثرت المدارس والمعامل، وأرسلت البعثات لتلقي العلم في أوروبا. وتوفي سنة (١٢٦٥هـ). انظر: الأعلام (٦/٢٩٨).

(٢) العرب والتجدي، للدكتور/ محمد عمارة، ص ١٨٠.

(٣) شأنها في ذلك، شأن بقية بلدان العالم الإسلامي.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٢، ١٨٣ بتصرف يسير. وأقول: إن محمد علي - وإن لم يكن من علماء الدين - فقد كان مسلماً، أليس كذلك؟ وهل كان كل ولاية المسلمين من علماء الدين؟ ومع ذلك فلم يحدث هذا الذي حدث... ولكن وراء الأكمة ما وراءها!

وأغلب الظن، أن الذي مهّد لهذه الخطوة، بل المخاطرة، عوامل كثيرة، في مقدمتها: غياب الوعي لدى جماهير الأمة، والعلماء بصفة خاصة، وانحسار مفهوم الدين، بحيث لم يستوعبوا الموقف، ولم يتصوروا حجم الكارثة في المستقبل، وبالتالي لم يتدخلوا في الوقت المناسب وبصورة صحيحة. وكان ما جرى عقوبة على ذلك.

«ثم إن البعثات العلمية قد كوّنت كوادراً عربية للدولة، أخذت تزايل كوكبة القادة الذين أتوا مع محمد علي إلى مصر صغاراً فنشأوا فيها نشأة عربية، جعلتهم يعتزرون بالعروبة، وينفرون من الانتساب إلى الأتراك»^(١)!

وعلى أيدي هؤلاء المبعوثين، وبمباركة مَنْ ابتعثهم، ومن رباهم هناك، بدأ مسلسل الانحلال الاجتماعي، ونقض عرى الإسلام عروة عروة باسم التطور والتطوير، وباسم الإصلاح والتحديث!

وحدث ما لا بد أن يحدث بين هذه النهضة المستغربة! وبين العلماء والشيوخ من الاختلاف والانشطار؛ لاختلاف الفريقين في طرائق التفكير، وفي المنطلقات والأهداف^(٢).

وكان من نتائج ذلك: أن أدخلت القوانين الوضعية الفرنسية، بحجة الفصل في المعاملات التي استجدت في الحياة المعاصرة! وعجز العلماء والشيوخ عن مواكبتها والفصل فيها^(٣)!

وفي كل مرة - كما سبق - يكون دين الأمة وتكون أخلاقها أول ما يُقضى عليه، لتستمر عجلة الإصلاح إلى الأمام! ولا ضير؛ لأن كل ما يجري لمصلحة الأمة! ويكون الانحلال والفسوق، بل والعلمنة، أول طلائع الإصلاح المنشود!

ويصاحب هذا السيل من المفاسد وهذا الكم من الخسائر المادية والمعنوية (قشرة حضارية زائفة، لا تعالج شيئاً في الحقيقة)^(٤). وإلماً تُعشى العيون عن حجم الكارثة وفداحة الخطب وتبرر مزيداً من العبث والاستغلال.

(١) السابق، ص ١٨٧.

(٢) السابق، ص ١٨٥. ومن الإنصاف أن نقول: إن كثيراً من المواقف والتصرفات من هؤلاء العلماء والشيوخ، كانت نافذة دخل منها الآخرون لتبرير مواقفهم، واتخذوها ذريعة لتشويه الإسلام وترويج العلمانية.

(٣) انظر: السابق، ص ١٩٢.

(٤) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٨٧.

ولنعد إلى تلك القشة الحضارية في مصر في ذلك الوقت . من هو صاحب الفضل فيها؟ أهي طلائع المبتعثين إلى أوروبا، أم حملة نابليون؟ والأخير أظهر .

لقد دخل نابليون غازياً، وهزم جيوش المماليك شمالي القاهرة هزيمة منكرة، وأقام في مصر بعض الوقت، وأدخل فيها إصلاحات عدة وتنظيمات؛ فجاء بالمطبعة، وعمل على تطوير الزراعة، ونشط الحركة العلمية وجاء بقانون جديد مستمد من التشريع الفرنسي، وكان أول قانون غير قانون الله يُحكّم به المسلمون^(١) .

ولهذا قال أكثر الناس: «بأنّ الحملة الفرنسية على مصر، كانت هي الخير والبركة؛ لأنها أيقظت المسلمين من سباتهم، فأفاقوا يتطلعون إلى الأخذ بوسائل الحضارة الحديثة»^(٢) .

ثم إنَّ محمد علي لم يأت والياً على مصر إلا في عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥م أي بعد مغادرة الحملة الفرنسية بثلاث سنوات^(٣) .

وإذا ثبت أن أكثر الإصلاحات المدنية كان ببركة الحملة الفرنسية! فماذا بقي لمحمد علي وطلائع النهضة؟ وكيف نوفق بين هذين الحدثين: الحملة الفرنسية، وإصلاحات محمد علي، اللذين ينحصر الانبعاث العربي عموماً والمصري خصوصاً فيهما، عند أكثر الناس!؟

لعل من الخير أن يكونوا شركاء للحملة الفرنسية في الأرباح والخسائر!

وهذا أعدل الأقوال، وإليك القصة باختصار:

«جاء محمد علي إلى مصر والياً من قِبَل الأتراك . . يُسيرُ في نفسه الاستقلال عن الخلافة التركية في الآستانة، ولكنه لا يصحو أو لا يهتم بالنفوذ الفرنسي، الذي يتغلغل معه في البلاد!

(١) انظر: هل نحن مسلمون، ص ١١٧ .

(٢) هل نحن مسلمون، ص ١١٩ .

(٣) انظر: واقعتنا المعاصر، ص ٢٠٥، ولْيُعلم أن الحملة قد أرغمت على مغادرة مصر بعدما تناول نابليون على الأزره وضربه بالقنابل، واتخذ اصطبلًا للخيل، وحاول اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام، بالإضافة إلى الظروف التي أحاطت بفرنسا نفسها . ولكن الذي غادر مصر في ذلك التاريخ ليس هو كل شيء يتعلق بالحملة، فقد بقيت البعثة العلمية، وبقي معها رجال ادَّعوا الإسلام، كما ادَّعاه نابليون من قبل، وبقي معهد الآثار الفرعونية الذي أنشأه نابليون . وبقي آثارهم حتى بعد أن احتل الإنجليز مصر سنة (١٨٨٢م) في عهد توفيق . انظر: واقعتنا المعاصر، ص ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٥ .

لا يصحو أو لا يهتم بأن فرنسا تحتضنه، وتشير عليه، وتضع له مشروعات عمرانية، وتساعد في تنفيذها، لأهداف بعيدة.. أبعد من أهدافه هو البعيدة.. التي ظن نفسه بارعاً أشد البراعة، وهو يعمل لها من وراء الخلافة!

كانت فرنسا تحتضن محمد علي، وتشجعه على الاستقلال عن الخلافة؛ لأن ذلك مثل (طيب) يُحْتَدَى في بقية العالم الإسلامي، فيتفكك هذا العالم إلى دويلات صغيرة، يُشرف عليها النفوذ الغربي، ويتبنى (حركة الإصلاح) فيها.. الإصلاح المقترن بهدم المقومات الإسلامية، وسلخ المسلمين من عقيدتهم، وإخضاعهم للنفوذ الصليبي^(١)!

وجاء الإنجليز إلى مصر، فأتوا على ما لم يأت عليه الفرنسيون، في الاتجاه نفسه «ولكن طريقتهم تختلف في الوسائل، وإن لم تختلف في الأهداف.. بطيء ولكنه أكيد المفعول»^(٢). فماذا فعل الإنجليز في مصر؟

عين المعتمد البريطاني (اللورد كرومر)^(٣) القسيس (دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف، وكانت السلطة الفعلية بيده.. وحين يكون القسيس على رأس السلطة في وزارة المعارف، فما الذي يتوقع أن يكون من أمر التعليم؟

فتح مدارس، ووضع لها مناهج خاصة، وجعل الفرص لا تمنح إلا لخرابجها، والمرتبات العالية مقصورة عليهم^(٤)!

وظلت وسائل الإعلام تمارس بإزاء مناهج التعليم عملية تدمير اجتماعي وأخلاقي ووجداني، بصورة مفزعة، عبر الصحف والمجلات والكتب القصصية الماجنة.. وبرزت على السطح بقوة قضية (تحرير المرأة) على يدي قاسم أمين^(٥)، تلميذ الشيخ محمد عبده^(٦)! وظهر على مسرح الأحداث في فترات متقطعة - نتيجة ظروف جدت في مصر -

(١) هل نحن مسلمون، ص ١٢٧.

(٢) واقعنا المعاصر، ص ٢١٦.

(٣) كان اسمه «بارنج»، وبعد منحه لقب «لورد» عُرفَ باسم اللورد كرومر، وكان قبل أن يكون مندوباً سامياً في مصر، كان سكرتيراً للسفارة الإنجليزية في الأستانة في عهد السلطان عبد الحميد، وكان يكتب تقارير مطولة عن المسألة البلقانية، ويقترح أن يكون حكام تلك الأقاليم مسيحيين. ومن آثاره الفكرية: مصر الحديثة، وعباس الثاني خديوي مصر. انظر: أزمة العصر، د. محمد محمد حسين، ص ٤٨. والمستشرقون، لنجيب العقيقي (٢/٤٩٩).

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٧ وما بعدها.

(٥) هو: قاسم بن محمد، كاتب مصري، اشتهر بمناصرة حرية المرأة، كردي الأصل. توفي سنة (١٣٢٦هـ). انظر: الأعلام (١٨٤/٥).

(٦) مفتي الديار المصرية، ومن رجال الإصلاح في مصر، شارك في مناصرة الثورة العرابية، وتلمذ لجمال الدين الأفغاني، وأصدر معه جريدة «العروة الوثقى» ببarris، وتوفي بالإسكندرية، ودفن بالقاهرة سنة (١٣٢٣هـ). انظر: الأعلام (٢٥٢/٦).

زعامات وطنية، لتقوم بعملية توازن بين الاستعمار وبين إدارة الشعب المصري المسلم؛ لأنه لا بد من ذلك الوسيط على المدى البعيد .

ظهر سعد زغلول .. وقد هيأته مواهب خاصة ليكون بطلاً، فكان في الوقت المناسب، وأفرج عنه الإنجليز ليكون (معبود الجماهير)؛ وليقطف ثمرة ثورة الشعب التي نبتت من الأزهر^(١)!

وجاء الزعيم جمال عبد الناصر^(٢)، بطل الاشتراكية في مصر، وكان من شأنه ما كان «فأتمت المصانع الحيوية والمؤسسات، فتحول من فيها من العمال بين يوم وليلة إلى (موظفين) في الدولة، كل همهم التقرب إلى المباحث والمخابرات بالتجسس على إخوانهم وكتابة التقارير!

ولم يرتفع الدخل القومي بالتجربة الاشتراكية، ولم يصلح الفساد، بل انهار الاقتصاد انهياراً حاداً، وصل أكثر من مرة إلى حافة الإفلاس! وعُولجَ في كل مرة بالقروض التي تؤدي في النهاية إلى مزيد من الانهيار^(٣).

وجرى على يديه أعظم مذبح للإسلاميين في تاريخ مصر الحديث!

وبعد: فإن ما قيل من نتائج النهضة والتطوير في تركيا، يُقالُ مثله في مصر .

لقد ظلت البعثات العلمية المصرية تسير تباعاً لتنتقل إلى الأمة أحدث ما وصل إليه الغرب من مدنية... فلم تقع أعين أكثرهم إلا على الجديد في الملاهي والمسارح، فأمعنوا النظر فيه فأتقنوه.. فجاءوا إلى قومهم يبشرون بما ظفروا به.. فلم يلمع في دنيا مصر الناهضة! ويترك أثراً بيئاً إلا أمثال سعد زغلول، الزعيم الوطني، وقاسم أمين بطل تحرير المرأة، وطه حسين^(٤)، بطل التغريب في الأدب العربي، وهو الذي دعا إلى التقليد الأعمى لحلو الحياة الغربية ومرّها.. ولم يزل الخير في نقص والشر في زيادة، منذ ذلك الوقت .

(١) انظر: واقعتنا المعاصر، فصل (دور الاحتلال البريطاني وأدواته في الإفساد)، ص ٢١٥ وما بعدها، ص ٣٢٠. ومعبود الجماهير: لقب أطلقته الصحف الوفدية على سعد هذا. المصدر السابق، ص ٣٢٤ في الحاشية. ونموذ بالله من الشرك وأسبابه .

(٢) ابن حسين، نائز عسكري، حكم مصر ثمانية عشر سنة، وحول مصر إلى النظام الاشتراكي. توفي سنة (١٣٩٠هـ). انظر: الأعلام (١٣٤/٢).

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٤ بتصرف يسير .

(٤) طه حسين بن علي بن سلامة، دكتور في الأدب، أحدث ضجة في عالم الأدب العربي، كُفَّ بصره وهو في الثالثة من عمره، وتخرَّج في الأزهر والجامعة المصرية القديمة، وأبْتِئَتْ إلى فرنسا، وتنتقل في الوظائف إلى أن أصبح وزيراً للمعارف، وكان داعية إلى تقليد الغرب في حلو الحياة ومرّها. توفي سنة (١٣٩٣هـ). انظر: الأعلام (٢٣١/٣).

ويظل السؤال قائماً: هل تحولت مصر إلى بلد متقدم، بمقاييسهم هم؟
أين المصانع المنتجة؟ والزراعة المتطورة؟ والجيش القوي المدجج بال سلاح الوطني؟
بل أين حرية الفكر والإبداع والعمل والحركة .

حتى هذه التي قامت النهضة لتحقيقها، لم تر النور بعد!

ولا أقول: أين مصر الإسلامية؟ مصر عمرو بن العاص؟ مصر الأزهر؟ مصر المآثر؟ لأنّ
الجواب معروف، فالنهضة المعاصرة قامت على أساس مدني لا على أساس ديني .
لكننا نجد، ويجد الناس - دون عناء - آثار التفسخ والانحلال والفوضى الاجتماعية،
وضمور المبادئ الأخلاقية، و... وما شابه ذلك . نجد آثاره واضحة منذ فجر النهضة!
فهو يشق طريقه باطراد، رغم كل الظروف والملابسات!

إن وجد الاستعمار، فيها ونعمت، وإن تولى الزعامة الوطنيون، الأحرار أو العبيد!
فالتيجة هي النتيجة .

إن كان النظام ملكياً، أو كان جمهورياً؛ اشتراكياً شرقياً أو رأسمالياً غربياً ..
فالتيجة واحدة، وعجلة الفساد والانحلال تتقدم باطراد! شيء عجيب حقاً!

وقد زامن ذلك دعوات إصلاحية - بغض النظر عما قيل حولها، وما في مناهجها
من ملاحظات - فلم يؤبه لها، ولم يُمكن لأصحابها مع ما فيها من تسامح وتجاوز!

ولعلّي أختم هذا المبحث ببعض المقارنات السريعة، بين العالم الإسلامي وبين
بعض الدول غير الإسلامية، والتي كانت في ظروف أسوأ بكثير من ظروف العالم
الإسلامي في مطلع النهضة! وكيف اختلفت النتائج مع مرور الوقت، بصورة مذهلة،
لعل ذلك يساعد في كشف جوانب المأساة، فأقول:

هل تعلم أن مصر قد بعثت البعث وانفتحت على مدينة الغرب، وكوّنت قاعدة
صناعية حديثة كما وكيفاً، قبل اليابان بنحو أربعين سنة؟

وأن اليابان قد بدأت مشوار النهضة مثل مصر بإرسال البعثات إلى أوروبا أيضاً؟!
وقد تعجب إذا علمت أن مصر كانت من بين البلاد التي أرسلت إليها البعثات
اليابانية للوقوف على أسرار التقدم^(١)!

(١) انظر: التربية في اليابان المعاصرة، تأليف: إدوارد زيو شامب، ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص ٩.

«ودارت الأيام، فإذا مصر وبغداد ودمشق وما حولها تصنف في عداد (الدول المتخلفة) .. وهناك .. هناك في أقصى المشرق .. نجد أمة تنظر إليها أمم الأرض جميعاً بانبهار؛ لِمَا حققت في فترة قياسية في عمر الأمم .. وكان لها ما أرادت من قوة ومنعة وتقدّم، بسبب تربية أبنائها وتعليمهم، وحرصها في الوقت نفسه على أن تبقى عاداتها وقيمها، وأن تحافظ على تراثها وتقاليدها»^(١)!

اليابان التي لا تتجاوز مساحتها ٤٪ من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية .. «ألا نذهل مع العالم حينما نستمع إلى الإذاعات .. في يناير ١٩٨٦م وهي تتحدث عن (رجاء) دول السوق الأوروبية المشتركة (مجتمعة) وهي تتجه إلى اليابان تطلب منها أن تخفف من سيل صادراتها إلى دول السوق؟ وأن تعمل على فتح أسواقها، بعض الشيء للمنتجات الأوروبية»^(٢)!

(فون براون) أبو الصواريخ كما يطلقون عليه، عالم من علماء الألمان، استأثر به الأمريكيان بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .. يقول الدكتور عبد العليم مرسي: «قرأت ذات يوم أن الأمريكيين حملوا هذا العالم، هو أو واحد مثله في طائرة عسكرية من إحدى قواعد الحلفاء في غرب أوروبا، تحيط بها مجموعة من الطائرات الحربية، لم تحط من قبل .. ولا من بعد، بطائرة ملك أو رئيس، حتى أوصلوه إلى الأرض الأمريكية، وذلك خوفاً على حياته من أن يخطفه السوفييت أو ينسفوا طائرته، وما كان ذلك إلا تقديراً لعلمه وعقله وإبداعه، وخوفاً على كل هذا من أن يضيع من بين أيديهم ..»^(٣).

وبالمقابل، ففي العالم الإسلامي يُجبرُّ مئات، بل ألوف .. لا يقلون أهمية عن (فون براون) على هجر بلادهم والبحث عن لقمة العيش .. وهؤلاء هم الآخرون تتلقفهم تلك الدول التي تدرك قيمة الإنسان المبدع فتضعهم مواضعهم اللاتقة بهم!

بينما نحتفي نحن - بلا حياء - بالفنانين واللاعبين والمهرجين!

وهذه ألمانيا الغربية تتكون من «وحدات سياسية عشر يسمونها ولايات، يضاف إليها الجزء الغربي من برلين (برلين الغربية) لتصبح جميعها إحدى عشر ولاية، لكل منها حكومة منتخبة، وبرلمان منتخب، ثم تتوحد جميعها في القمة .. هذا التعدد السياسي لم

(١) التربية وقضايا الطاقة، تأليف: رودني ف. ألن. ترجمة: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٩.

(٣) التربية في ألمانيا الغربية. تأليف؟ هانز ج. ليجتر وباربارا لينجتر. ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي، مقدمة المترجم، ص ١٣.

يضعف المجتمع الأم، حيث وَجَدَتْ هذه الولايات كلها أن بقاءها وتقدمها وقوتها ورخاءها كلها مرهون بوحدتها.. (١).

وأمریکا دولة مؤلفة من خمسين ولاية... وكانت وحدتها مصدر قوتها..

وأوروبا في مواجهة الخطر الأمريكي، بدأت منذ زمن تنسج خيوط وحدتها، وخطت في ذلك خطوات ملموسة، وما السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبي، ثم العملة الأوروبية الموحدة (اليورو) إلا تنفيذ عملي لخطوات هذا المشوار.. إنهم يجتمعون على المصالح المشتركة، دون أن يتنازلوا عن شيء من حقوقهم أو يذوبوا في غيرهم!

إلا العالم الإسلامي، الذي كان في أصله أمة واحدة، ودولة واحدة، يحكمها خليفة واحد، وهو الآن ما يزال ذا مصالح مشتركة، ويواجه عدواً مشتركاً.. إلا هذا العالم الإسلامي، فإنه كل يوم يتمزق، وكل حلف يُعقد، أو معاهدة تبرم، فإلى الفشل مصيرها، ثم يعقبها مزيد من التمزق! اللهم إلا ما كان من اتفاقهم على محاربة الصحوة الإسلامية والوقوف في وجه دعوة الحق!

وباختصار... فكل شيء في واقع العالم الإسلامي يصلح أن يكون مثلاً للمقارنة مع دول الكفر، وكل شيء نتيجة مقارنته لصالحهم! إلا الإسلام الذي لا علاقة له بكل ما يجري من هزائم.

ولعل فيما ذكرت كفاية ودليلاً على فساد المقاصد، واختلال التربية، وغياب الأهداف الصحيحة، وضعف الإرادة، وفشل الإدارة على مستوى قيادات البلاد الإسلامية، وغالبية شعوبها.. وذلك كله راجع إلى جملة الأسباب التي ذكرت طائفة منها فيما سبق.. وسبب تلك الأسباب: هو الانحراف عن منهج الله وصراطه المستقيم، ودينه القويم.

وهنا أقول بوضوح: إن محور المشكلة، هي أن الكافرين من العرب والعجم، يحاولون أن يكفر العالم الإسلامي كما كفروا، وأن يردوا شعوبه عن دينهم ما استطاعوا... مصداق ذلك، قوله سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢) اللهم إلا بقايا من عاطفة إسلامية، تربط بين الشعوب الإسلامية، هي الأمل - بإذن الله - في عودة وحدته، وبعثه من جديد.

وأف العالم الإسلامف فف جملة ، لا فمكن أن فكون كذلك ، لا فف الحال ولا فف المائل .
قال عفله الصلاة والسلام: «ولا تزال طائفة من أمتف ظاهرفن على الحق لا فضرهم من
خذلهم حتى فأتف أمر الله وهم كذلك» (١) .
وبالتالف ، فإن ما حلّ وفحلّ بالعالم الإسلامف من العقوبات الإلهفة ، لفس لإفنائه
ومحوه . كلا ، وإئما هف لإفقاظه وتأدفةه وتطهفره . . بفقدر الإعراض تكون العقوبة .
وقد استبفظ العالم الإسلامف ، وهو الآن فمحصّ وفتمفّز ، وغدا فسود وفقود وفق
سنن الله ، بإذن الله .

(١) متفق عفله ، واللفظ لمسلم ، وسبق فخرفةه .

المبحث الثاني

واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية)

وأعني بـ (الجوانب الإنسانية): النواحي الاجتماعية، والأخلاقية، والفكرية، والمبادئ والاعتقادات، ونحوها.

أو: هي - باختصار - ما سوى الأشياء المادية والمدنية.

وقد تكلمتُ في المبحث الثاني من الفصل السابق عن المكاسب التي حققتها الجاهلية المعاصرة من وراء رعاية السنن الإلهية في الجوانب المادية والمدنية، وأنها كبيرة ومذهلة، وقد ضمنت لها التفوق والسيادة على العالم، بما فيه العالم الإسلامي بأسره!

ومرّبنا هناك، أنّ هذا التفوق المادي والمدني كان مطبوعاً بطابع الفلسفة الوثنية التي أسّست أوروبا عليها تلك النهضة، ومتأثراً بها في كل ملامح من ملامحه، كما كانت النهضة المادية والمدنية الإسلامية فيما مضى، كانت مطبوعة بطابع الإسلام وحضارته.. وهكذا. فكل إناء بالذي فيه ينضح.

نهضت أوروبا معادية للأديان، كافرة بها؛ ظروف خاصة بها، وكانت نهضتها مادية بحتة، قائمة على أصول وثنية مستخلصة من الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية.

ومع أن الذي أيقظ أوروبا هو (الإسلام)، وأنها امتداد للنصرانية، وفيها جوانب أخلاقية وروحية، إلا أن الظروف التي واكبت نهضتها، سوغت لها هذا الصدود المطلق عن تعاليم الدين، واختيار المنطق المادي والفلسفة الوثنية^(١)!

ومع مرور الزمن، وتوالي النجاحات في عالم المادة والكشف والاختراع، ازدادت هذه الجاهلية فتنة إلى فتنتها.. فخف ميزان الأخلاق، وأشواق النفس وشفافية الروح، وتحلّل المجتمع، وزاد الطمع، واختفت (إنسانية الإنسان)، وبرزت قيمة (المادة)!

تلك - باختصار شديد - هي المعادلة التي تحكم واقع الجاهلية المعاصر برمته.

فهل يجري ذلك عبثاً ودون حساب؟ هل تنعم هذه الجاهلية بإنجازاتها المادية، ثم لا تشقى بإنسانيتها المفلسة؟ وممارساتها البشعة؟ وظلمها واستعبادها لخلق الله، حتى وإن كانوا هم ظالمين مثلها؟!!

(١) انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٢٢ وما بعدها.

كلا .. كلا ..

إن الجاهلية المعاصرة، أمة من الأمم، واقعة في قبضة الله، محكومة بسنن الله التي لا تحابي أحداً، ولا تغادر تصرفاً - على مستوى الأمة - دون حساب في الدنيا، قبل الآخرة!

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلدِّينِ تُبَدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ولكن أحكام الله وسننه، لا تجري وفق الأهواء والعواطف، بل بالعدل الذي لا يحيف، وبالقوة التي لا يمتنع منها أحد ..

وكما تحققت هذه الجاهلة من العلو والسلطان في الأرض، بما أخذت به من أسباب ذلك، فسيحقيق بها - دون شك - ما فرطت فيه من أمر الله ﴿ جَزَاءً وَفَاءً ﴾ [النبا: ٢٦].

يقول الدكتور الكسيس كاريل^(١): «إنَّ النَّاسَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا الْحَضَارَةَ العصرية في مجراها الحالي؛ لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط... لقد فتنهم جمال علوم الجماد... إنهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية - يقصد السنن الإلهية - وهي قوانين أكثر غموضاً، وإن كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الدنيا... كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم»^(٢).

وفي هذا البحث، سألقي الضوء على شيء من مظاهر الجزاء الإلهي، الذي أوقعه ويوقعه الله - جل وعلا - على هذه الأمم الناكبة عن الصراط... المعتدية على القوانين الإلهية، مع ما هي فيه من التمكين والعلو في الأرض.

وأعلم أن هذا باب واسع، ولكن سأحاول التركيز، وأقدم الأهم على المهم.. ولست في هذا البحث معنياً بتتبع أصول الجاهلية المعاصرة ونقدها، وإنما الغرض هو الوقوف على بعض العواقب السيئة، والعقوبات التي نجمت عن السير على تلك الأصول المنحرفة...

(١) طبيب فرنسي، تنقل في وظائف التعليم والتطبيب ومجال الأبحاث في فرنسا والولايات المتحدة، ومُنِحَ جائزة نوبل للأبحاث الطبية عام (١٩١٢م)، اشتهر بكتابه «الإنسان ذلك المجهول». توفي سنة (١٩٤٤م). انظر: الإنسان ذلك المجهول، ص ٥.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، للدكتور/ الكسيس كاريل. تعريب: شفيق أسعد فريد، ص ١١، وما بين علامتي الاعتراض زيادة من الباحث.

وبعبارة أخرى: العواقب السيئة والعقوبات التي حلت بها جزاء إعراضها عن هدي الله والإيمان به . . .

ومع ذلك، فلا بد من الإشارة إلى تلك الأصول والأسس (المحاور) التي توجه السلوك والأعمال، وتُشد إليها تصرفات الجاهلية كافة؛ لأنَّ «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» و«الشيء من معدنه لا يستغرب».

وقد لخصَّ الأستاذ محمد قطب - حفظه الله - أصول ومكونات الفلسفة الجاهلية المعاصرة بكلام مختصر جامع، فقال: «لقد ورثت من الجاهلية الإغريقية عبادة العقل، وعبادة الجسد في صورة جمال حسيّ، والروح الوثنية في النظر إلى الكون والحياة والإنسان، وبصفة خاصة علاقة الصراع بين البشر والآلهة، حيث الآلهة تريد تدمير الإنسان، والإنسان يريد أن يثبت ذاته بالتمرد على الآلهة».

وورثت من الجاهلية الرومانية عبادة الجسد في صورة شهوات حسيّة، وتزيين الحياة الدنيا لزيادة الاستمتاع الحسيّ بها إلى أقصى الغاية، ومن ثم الاهتمام البالغ بالعمارة المادية للأرض.

وورثت منهما معاً نزعة الاستعمار، واستعباد الآخرين من أجل شهوة السيطرة من ناحية، ومن أجل زيادة الرفاهية الحسيّة من ناحية أخرى.

وأخذت من المسلمين المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي كان أساس كل التقدم العلمي الحديث.

وفي الأخير جاءها التأثير اليهودي، الذي نفذ من الثغرات التي أوجدها نفور أوربا من الدين، فصنع الحياة الأوربية بالصبغة النفعية، وعمّق الاتجاهات المادية، وزاد من الجفوة الروحية، ونشر التفسخ الأخلاقي في المجتمع الأوربي، مستغلاً أحداث الثورة الفرنسية، ثم الثورة الصناعية، ثم النظرية الداروينية على أوسع نطاق^(١).

تلك - باختصار - هي مكونات الجاهلية المعاصرة، وهذه هي منطلقاتها وأهدافها . . .

وواضح لمن تأمل هذه الأسس، أن محاسنها تنحصر في الجوانب المادية، التي لم تسلم من تأثير الجوانب الأخرى، كما بيّنت ذلك من قبل.

أمّا الجوانب الأخرى (الإنسانية بالمعنى الأعم) فهي عديمة الخير، ومفلسة عقيمة، وتنطوي على شرور مستطيرة.

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٣٠.

وإذا علمنا أنَّ الجوانب المادية، عادة ما تكون خادمة للأهداف الإنسانية، أدركنا حجم المأساة التي تحيق بالجاهلية المعاصرة، وبالإنسانية من ورائها!

وفيما يلي نحاول أن نقرأ شيئاً من ملامح المأساة، وأزمة الحضارة الجاهلية المعاصرة «ولعل أحسن من يُستمع إليهم في نقدها أبنائها ونتاجها من العلماء والمفكرين والباحثين»^(١)؛ لأنَّ هؤلاء وأمثالهم، هم وحدهم الذين يمثلون صوت العقل والمنطق، في بعض ما يكتبون عن حضارتهم، من بين الملايين السادة المخمورة، أو الألوفا من الانتهازيين النفعيين من السياسة والرأسماليين ودهاقنة الفساد، فإنَّ الأولين مغفلون مغرَّرون بهم، والثانيون متنفعون بالأوضاع القائمة، مستفيدون من هذا التناقض والفساد.

والحقيقة أنه يصعب تقسيم العقوبات الإلهية بصورة دقيقة على أنواع المخالفات؛ لأنَّ المخالفات ذاتها تمثل نسيجاً موحداً يُشكِّل الحياة ويلونها بلونه... .

نعم، قد نقول على جهة التمثيل: إنَّ الخواء الروحي، والقلق النفسي، سببه الإلحاد، أو التدين بالخرافة.

ونقول: إنَّ هناك أنواعاً من الأمراض يسببها الشذوذ الجنسي وإدمان المخدرات.

ولكن الإلحاد والشذوذ الجنسي، لكل منهما أسباب أيضاً، فيكون الشيء سبباً لغيره، ويكون نتيجة لسبب آخر. ويجمعها كلها أنها انحرافات عن المنهج الرباني للحياة، أعلاها الكفر والإلحاد والإعراض... . فما دون ذلك من المخالفات المتولدة منه... .

ولكن يمكن ملاحظة الأسباب الجامعة، والتي تكون مجلِّبة لعقوبات متنوعة... . وسأتناول ثلاثة من هذه الأسباب الجوامع... . وأذكر أمثلة لِمَا حلَّ بهذه الأمم من العقوبات بسببها.

وأول هذه الأسباب وأجلاها: الإلحاد والإعراض عن الإيمان بالله.

والثاني: مخالفة الفطرة والطبيعة الإنسانية في العلاقات الاجتماعية.

والثالث: الظلم وإرادة العلو في الأرض بغير الحق.

فأما السبب الأول: فقد قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٨٣/٢)، من بحث للدكتور/ نبيل صبحي الطويل، بعنوان: كتاب (إنسانية الإنسان)، تأليف: رينيه دوبر... تحليل وعرض وتلخيص.

صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ
كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].
وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ
لِلَّوَّابِلِ أَكْثَرُھُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

و(المعيشة الضنك) و(الصدر الضيق) يمثلان الأزمات النفسية والقلق وما يصيب
المُعْرِض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل^(١).
وكذلك مَنْ مثله مثل (من خرَّ من السماء) فإنَّ «مَنْ ترك الإيمان فهو بمنزلة الساقط
من السماء، عُرضة للآفات والبليات، فأما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك
المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه وأذهبوا عليه
دينه وديناه»^(٢).

أو تهوي به ريح الشكوك والأوهام في مكان سحيق، في أودية الضلالة، لا يملك
الخلاص ما دام على شركه.

والمثل المضروب لرجل ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ مثال الحيرة وتشتت النفس، فأنت
ترى مَنْ هذا مثله «لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع»^(٣).

وهذه الأوصاف، هي عين ما يصف مفكرو الجاهلية المعاصرون أنفسهم
ومجتمعاتهم به، وينعتهم بها غيرهم، ممن خَبَر أحوالهم، وسبر تصرفاتهم!
إنهم قادرون على وصف أحوالهم بدقة لا تنقصها الصراحة والوضوح... ولكنهم
باعترافهم عاجزون كل العجز عن فهم الأسباب الحقيقية لأزماتهم... يائسون من
إمكانية العثور على حلول عملية مجدية لإنقاذ إنسانية الإنسان... ولهذا نراهم يعززون
مشكلاتهم تارة إلى أشكال المدنية المعاصرة، إلى أشياء الحضارة، بعدما كانوا منحوها كل
ثقتهم!

(١) تفسير السعدي (١٩٨/٥).

(٢) تفسير السعدي (٢٩٢/٥) بتصرف يسير.

(٣) تفسير السعدي (٤٩٦/٦).

وإلى تخلف الدراسات الإنسانية وضحالتها بإزاء الدراسات والبحوث المادية والتكنولوجية المتقدمة تارة أخرى!

وإلى غياب تعاليم الدين عن ضمير الإنسان، ومسرح الحياة تارة ثالثة^(١)! وتلك وإن كانت أسباباً كان يمكن أن تخفف من وطأة مأساة تلك الجاهلية، لو وجدت، لكن الحقيقة التي لا شك فيها، أن رفض الجاهلية المعاصرة - وكل جاهلية في التاريخ - لألوهية الله جهرة، أو اتخاذ مناهج من صنع البشر، هو أعظم جناياتهما، وسبب فسادها الأساسي.

وإن قيام هذه الحضارة المعاصرة على أساس غير ديني، بل على أساس العداء للدين.. إن ذلك هو الثغرة التي جاءت منها كل الآفات، وجنايتها الحقيقية على الإنسان تنبع كلها من هذا المصدر الخبيث^(٢).

وعلى أساس من هذا التصور، ينبغي أن ننظر إلى كل مشكلات الحضارة. وعلى أساس من هذا التصور أيضاً، ينبغي أن ندرك السرّ في عجز كل المفكرين ورجال الدين والساسة والمصلحين، المتقدمين منهم والمتأخرين.. أن ندرك السرّ في عجزهم عن تحقيق الإصلاح المنشود، والوقوف على السبب المعقول لمشكلاتهم، وإعلانهم دون موارد عن ذلك العجز!

إنهم ببساطة يفتقدون القاعدة الصحيحة للانطلاق، ويبدأون بداية خاطئة في كل مرة، سواء منهم من يرد المشكلات إلى ظواهر الأشياء، ومن يردها إلى ما كان يعرفه من عقائد وأخلاقيات الجاهلية الأولى وجاهلية القرون الوسطى!

يقول رينيه دوبو^(٣): «الاعتقاد بأن العالم المعاصر سخيّف وباطل، ليس أمراً مقصوراً على الفلاسفة والأدباء المبرزين، فهو منتشر بين كل الفئات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر على كل مظاهر ونشاطات الحياة.. والتشاؤم العام نابع - في الغالب - من عدم ارتياح الرأي العام، لدى إدراكه أن العلم لا يستطيع حلّ المشاكل الإنسانية^(٤).

(١) اقرأ إن شئت، كتاب: إنسانية الإنسان، وكتاب: الإنسان ذلك المجهول.

(٢) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ١١٨.

(٣) أستاذ في جامعة (روكفلر) بنيويورك، وأخصائي بعلم الحياة - البيولوجيا - كان أول من أظهر إمكانية صنع عقاقير مضادة للجراثيم من الجراثيم نفسها، نال عدة جوائز عالية لأبحاثه العلمية. انظر: إنسانية الإنسان، ص ٤.

(٤) إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ص ٣٣.

ونراه في موضع آخر يعزو أمراض المدنية إلى «التأثيرات المحيطة المؤذية» يقول: «منذ قرنين تقريباً، والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت من صحته العضوية، إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة، اللذين يولدان السعادة والهناء. ومن الصعب تحديد الأسباب الدقيقة لأمراض المدنية الحديثة، ولكن لا شك أن كثيراً من هذه الأسباب ناشئ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن التأثيرات المحيطة المؤذية.

وكثير من أصول المشاكل الصحية للإنسان المعاصر - حاضراً ومستقبلاً - تكمن في الآثار الضارة للبيئة التكنولوجية، وطرق المعيشة الجديدة.. وعندما يختلط الإنسان اجتماعياً أكثر من اللازم تكون ردود فعله - على الأرجح - خيبة وظلماً وعدواناً، تتطور كلها لتصبح أمراضاً عصبية ونفسانية. وقد يأتي يوم لا يكون العنف فيه، حتى ولا القنابل تهديداً خطيراً، بل انفراجاً وارتياحاً»^(١)!

لقد تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأنهم هذا الصراع البالغين، أما المراهقون فقد أصبحوا لا يجدون فيه أية قيمة تذكر.

وعندما يشاهد هؤلاء جميعاً تعقيد الحياة المدوخ، والجهود المهووسة لاختراع تكنولوجيات جديدة لتُحل مشاكل خلقتها التكنولوجيات نفسها، يعلو صراخهم: «قفوا هذا العالم فنحن نريد أن نخرج منه»^(٢)!

ويرى (دوبو) أن إنسان العصر يشبه «الحيوان البري الذي يقضي حياته في حديقة الحيوان.. يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه العضوية والفكرية؛ فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان، وعن الطبيعة، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته»^(٣).

ومن هنا يعلن بوضوح أن «التطلع إلى موقف إنساني غير خاضع لأوامر التكنولوجيا، ليس رجعية ولا انهزامية، بل هو موقف... تقدمي وجهد بطولي»^(٤)!

(١) الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (١١٠/٢). وانظر: إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ص ١٨٦، ١٩٠، ١٩١.

(٢) إنسانية الإنسان، ص ١٧١.

(٣) إنسانية الإنسان، ص ٣٣.

(٤) إنسانية الإنسان، ص ٢٣٢.

وأحسب أن الكلام من الوضوح بحيث يغني عن التعليق عليه، لكن لتذكر جيداً أننا - نحن المسلمين - يجب أن نسمي هذا الذي يجري (عقوبة إلهية) على الكفر بالله والإعراض عن ذكره، وليس شيئاً آخر!

ولنعد إلى الوراء، قبل ما يزيد على ستين عاماً، حيث السعير لم يتضح أواره، والبلاء لم تكتمل أطواره، لنجد كاتباً أمريكياً متفلسفاً ينادي بالويل والثبور، ويرفع عقيرته أسىً للمصير المرعب الذي ينتظر أمته. نجد (ول ديورانت) يقول سنة ١٩٢٩م: «ثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطيرة؛ لأننا أغنياء في الآلات، فقراء في الأغراض، وقد ذهب اتران العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقنا، ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة، تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب، إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقنا بال سقراط، نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية، التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماخن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى، نفقد الفلسفة (!) التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية، التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات، إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السليمة، ونُلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب. وعندنا مئة ألف سياسي، وليس عندنا (رجل حكيم) واحد. إننا نظوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل، ولكننا لا نعرف أين نذهب ولم نفكر في ذلك، أو هل نجد السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة، أو أننا نهلك بمعرفتنا التي أسكرتنا بظم القوة، ولن ننجو منها بغير الحكمة»^(١).

وأختم هذه الاعترافات بما كتبه (رينيه دويو) حامل جائزة نوبل في العلوم، تحت عنوان (التشاؤم الجديد)، يقول: «باقتراب عام ٢٠٠٠ ميلادية بدأت وافدة من التكهنات المشؤومة في سائر أنحاء العالم، تماماً كما حدث بين المسيحيين في الفترة التي سبقت عام ١٠٠٠م... والآن يعتقد المتنبئون المشائمون أن البشرية في طريقها إلى تدمير نفسها بنفسها، وإذا لم يحدث ذلك - وهذا احتمال ضعيف - فستسير البشرية قدماً نحو التخلي عن قيم ورفاه المدنية الغربية، فالأسلحة النووية وتلوث البيئة وانقطاع التيار الكهربائي وانعدام الطاقة والفساد المتنامي في الآداب المدنية، كل هذه الأمور تشكل تهديدات

(١) العلمانية - نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، تأليف: الدكتور/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

واضحة مباشرة للوجود الإنساني ، أضف إلى ذلك: أن الشدّة في تقنين الحياة الاجتماعية وانعدام (حرمة المنزل) قد تصل إلى مدى تنعدم فيه إمكانية العيش التقليدي في حياة متمدنة متحضرة .

وأكثر المطلّعين على الواقع الحالي ، يؤيدون ما كتبه الصحفي الأمريكي (جيمس رستن) في أكثر الصحف اليومية نفوذاً ، وفي أكثر مدن العالم ازدهاراً ، ومما قال: إن الوهم المتفائل القديم أن باستطاعتنا عمل أي شيء نريده .. بدأ يتلاشى في بحر من الشكوك ، ليحل محله تشاؤم جديد . ويبدو أن عناوين الصحف اليومية تعكس وتؤكد الفكرة القائلة: إن مشاكل المدن الكبيرة والعنصريات والشعوب أمور لا طاقة لنا مجملها أو مكافحتها والسيطرة عليها .

والخوف منتشر في كل مكان ، ويظهر بوضوح تام بالنسبة للأسلحة النووية والأخطار التي تهدد الصحة ، وارتفاع نسبة الآلات الذاتية الحركة والإدارة في عالم الصناعة ، والآثار الضارة غير المحددة لتكنولوجيا العلم .

والمقالات الشعبية الرائجة اليوم تحت عنوان: (الحقيقة عن كذا أو كيت) تعني أغلب الأحيان أخطار المكتشفات التكنولوجية والطبية الحديثة .

وهناك مُحدّدات أخرى تسمو على الخوف من التدمير المادي ، وتؤثر على (الكيف) في الحياة . وبصورة خاصة يُتهم العلم الآن بتهديم القيم الدينية والفلسفية دون أن يجد بدائل لها توجه السلوك أو تقدم تصوراً معقولاً ذا قيمة بالنسبة للكون .

والتأثير الساحق لضياح الإيمان .. عبّر عنه بأسلوب لاذع في الجيل السابق الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) في إنذاره المدوي: «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتعطيم القيم المتعارف عليها ، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة .. تدمر نفسها بنفسها» .

ولقد وصل القلق للأوساط العلمية نفسها ، ففي الوقت الذي لا يزال كل العلماء على اعتقادهم بأن الفرص المتاحة للمعرفة العلمية لا حدود لها ، كثير منهم يشك في حكمة وأمان الامتداد التطبيقي لهذه المعرفة^(١) .

وهكذا تتنغص «حياة الناس بقلق وذعر لا يكادون يستينون مصدرهما ، و... تعصف بهم دوامة من الحيرة والضياح تزداد سُعاراً كلما تذكروا أن وجودهم في الدنيا لا

يزيد هدفاً وحكمة عن وجود أدنى الديدان وأحط الحشرات ، ونتج عن ذلك - مما نتج - أن استهان الفرد بنفسه وفقدت حياته معناها وقيمتها ، فأصبح الانتحار بوسائله المتعددة ، بل أصبحت المسابقات والمباريات الفردية والجماعية تعتمد بالدرجة الأولى على المخاطرة والزج بالنفس في الأهوال ، واستأثرت مناظر العنف باهتمام الناس ، سواء أكانت على الطبيعة أم في وسائل الإعلام^(١) .

ولم يكن في مقدور الجاهلية أن تعتق نفسها من هذا الرق الجديد ، أو تنقذها من تلك الحيرة المستحكمة ، حتى مع شعورها بالخطر المحقق ، وبرغم توالي النذر ، وتوالي الصيحات ..

«لقد شعر الكثيرون بالخطر المحقق وأنذروا به ، غير أن أحداً لم يصنع إليهم ؛ لأنّ معبوداً جديداً غريباً كان قد ولد ، ولأن عبادة جديدة قد طغت على الشعب ، هي عبادة المستحدث^(٢)» .

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي): قال لي صحفي نرويجي:

إنّ مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

قلت له: وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر؟

أجاب متأماً: إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة^(٣)!

إنها ضريبة الإلحاد وتآليه العقل والمخرف الفطرة ، أن تشقى الإنسانية وتدمر نفسها بما تنتجه باختيارها ، وتصنعه يداها! وإنه وضع ملازم للجاهلية .. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] .

ولله در القائل:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيي ديناً^(٤)

ولننظر في بعض الآثار الاجتماعية في حياة الأمم الجاهلية المعاصرة ، والتي نجمت عن الإعراض عن السنن الإلهية التي أجرى الله نظام الحياة على سننها ..

(١) العلمانية ، د. سفر الحوالي ، ص ٣٥٢ .

(٢) مصير الإنسان ، تأليف: ليكون دي نوي ، من مقدمة الكتاب . والنص منقول من كتاب: العلمانية ، للدكتور/ سفر الحوالي ، ص ٣٥٢ .

(٣) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة ، للأستاذ/ سيد قطب ، ص ١٦١ .

(٤) البيتُ للشاعر/ محمد إقبال ، من قصيدته: (شكوى وجواب شكوى) .

لقد حدثونا عن الحيرة القاتلة والقلق المُفزع، أخبرونا عن أنفسهم أنهم يسرون بلا تبصر، ويتجهون إلى غير هدف وغاية محددة، ولم يخفوا ذعرهم من الأشياء؛ من التقدم والتطور! من الثراء والرفاه! من القوة والتفوق! من معرفة الأسرار وارتداد المجهول! من أسباب السعادة! وأنهم الآن يواجهون عقوبات لا يدرون شيئاً عن أسبابها الحقيقية، ولا متى تنتهي، وإلى أي شيء تنتهي^(١)!

يواجهون عقوبات بدنية وعقلية، ويعانون من تدهور العلاقات الاجتماعية، خصوصاً في محيط الأسرة، وعلى مستوى المرأة والشباب ..

أصبحت الحرية - وهي أساس نهضتهم - لعنة تصب فوق رؤوسهم .. عصابات قتل واغتصاب وسرقة، ومخدرات وفوضى، وفنون من العهر والإباحية!

﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وصار العلم والوفرة المادية (دينهم الجديد) معولاً يهدمون به مستقبلهم ومستقبل البشرية الشاردة معهم!

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وفيما يلي أسوق بعض الأمثلة من قولهم بأفواههم، وما كتبه أيديهم - والاعتراف سيد البيئات - وما نقله غيرهم، ممن استقرأ أحوالهم وروى عنهم.

* ففي الجانب البدني والعقلي، يقولون:

«إن أول ما جرَّ على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم، اضمحلال قواهم الجسدية، وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً .. فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب توافرها في المتطوعة للجنود الفرنسي، على فترة كل بضع سنين؛ لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام»^(٢).

وفي السويد يقدر «عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً؛ أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع أطفال العائلات كلها .. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف .. إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥، ١٧، يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً .. ويتبع ذلك حقيقة رهيبية؛ إن عُشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون

(١) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص ٣٥٤.

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة، للأستاذ/ سيد قطب، ص ١٥٠، نقلاً عن كتاب: «الحجاب»، للمودودي.

لاضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية ، ولا شك أن التماذي في التمتع بجزية عدم الإيمان سيضعف هذه الانحرافات النفسية»^(١) .

إنّ الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم .

يقول س . و . بيرس: «إنّ شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر» .

بلادة الذهن توجد - غالباً - حينما تتقدّم المعرفة العلميّة!

«ومشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري . . . إنها أكثر خطورة من السلّ والسرطان وأمراض القلب والكلى ، والتيفوس والطاعون والكوليرا . . . ويبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسئولين عن الشؤون العامة .

وإن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة في الرجال العصريين . . . إنهم خليط من الأشخاص مضطربي الأعصاب ، بليدي الشعور ، مغرورين معدومي الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عضلية ، وإن كانوا سريعي التعب . يعانون حدة الدوافع الجنسية ، برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً»^(٢) .

وفي الجانب التالي ، سنرى مزيداً من العقوبات البدنية والعقلية ، التي أصابت إنسان الجاهلية المعاصرة ، من خلال استعراض بعض مظاهر العقوبات الإلهية في المجال الاجتماعي . . . وخصوصاً مجال الأسرة والمرأة .

* الجانب الثاني: الجانب الاجتماعي (وخصوصاً في مجال الأسرة والمرأة).

وقد تسبب عن مصادمة الفطرة ، والانحراف بها عن طبيعتها في هذا الجانب الاجتماعي الخطير مشكلات ضخمة على مستوى الأمم ، وكان حظ الجاهلية المعاصرة منها موفوراً وهي من الثمار المرّة للإلحاد ، والحرية البهيمية ، والتقدم غير المنضبط بضوابط الشرع الإلهي!

(١) المصدر السابق ، ص ١٦١ ، والكلام للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطن .

أقول: وقد مضى على هذه الإحصائيات أكثر من أربعين عاماً ، والانحلال يتضاعف باطراد إلى يوم الناس هذا .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ . وهي فقرات منقولة من كتاب: «الإنسان ذلك المجهول» ، للدكتور/ الكسيس كاريل .

لقد برّر الإلحاد والكفر بالدين للعقل أن يرسم للإنسان منهجاً للحياة بعيداً عن وصاية الدين! ثم جاءت الحرية لتملي على هذا العقل نوعية هذا المنهج الملائم للإنسان، الحيوان بطبيعة الحال!

وأخيراً، قال العلم: لا مشكلة. فكل عقبة يمكن تذليلها، وكل نقص يمكن تسديده. فماذا كانت النتائج؟

* من التزمت إلى الانفلات!

يقول (ول. ديورانت) الكاتب الأمريكي: «وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة، قد تعاون - أكثر مما نظن - مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات - وقد أكسبهم المال جرأة - أن الدين يُشهرّ بملاذهم، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين.

وأدّى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى ردّ فعل في الأدب وعلم النفس، صورّ الجنس مرادفاً للحياة، وقد كان اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة، أيكون ذنباً؟ أمّا الآن فلنا أن ندهش ونقول: ليس من الإجماع أن نرى تلك اليد ولا نقبلها؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة^(١).

وكانت جريمة الحرب العالمية الأولى الآثمة، بوابة إلى سلسلة من جرائم السلم! فقد عوّدت الجنود الوحشية والإباحية، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد الآلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي، وأدّت تلك الحرب إلى رخص الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهدّت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطّمت الإيمان بالعناية الإلهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية.. وظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي. وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها، واستهدفت الصناعات الريح، بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج؛ خشية مسؤوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة، أو إلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد مُنِحَ حريات جديدة، تحميه الاختراعات من نتائج

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ١٣٨.

المغامرات النسائية في الماضي^(١)، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة ..

فحياة المدنية تُفضي إلى كل مشط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية، وكل سبيل يسهل أداءها ..^(٢).

* موانع الحمل .. البواعث و النتائج.

كان بريق الحرية أخذاً، وأوار الشهوة مستعراً، والوقت ضيقاً لا يسمح بالتأجيل .. فكان لا بد من الصلات الجنسية على كل مستوى، وبكل وسيلة .. لقد أصبحت العفة - التي كانت فضيلة - موضعاً للسخرية!

ولكن هنا مشكلة! الحمل والوضع، والقيود الأسرية الثقيلة!

وأخيراً، حُلَّت المشكلة! ولكنها أنتجت مشكلات!

يقول (ول ديورانت): «واختراع موانع الحمل وذيوها هو السبب المباشر في تغيير أخلاقنا. فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج؛ لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج. أمّا اليوم، فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل! وخلقت موقفاً لم يكن أباًؤنا يتوقعونه؛ لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل»^(٣).

لقد أصبح عقد الزواج عقد مصلحة، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه، بدلاً من عقد النكاح الشريف!

ولم تعد المرأة في ظل الحرية البهيمية تعتمد على الرجل في معاشها، فهي ليست زوجة وأماً، ولكنها امرأة عاملة منتجة، وصديقة!

ليست هناك مراسيم زواج، ولا عمق في الحجة، ولا بيت ينتظر الترحيب بهما. كل ما هنالك علاقة جنسية بين حيوانين ناطقين في غرفة، كأنهما فيها في زنزانة، أو في أي مكان آخر، ليس فيه معنى البيت وأنسه .. كل شيء مؤقت، كل شيء بارد وجاف.

(١) يشير إلى وسائل منع الحمل، والوقاية من الأمراض السرية. انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ١٣٩، في الحاشية.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٦، ١٣٩ بتصرف في الترتيب. والكلام للدكتور/ ول. ديورانت.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٦.

كإلا الزوجين يأوي متى شاء، ويمارس في السرّ والعلانية ما يشاء؛ لأنّ كلا منهما حرّ، وليس لأحد حق في أن يصادر حرّيته^(١)!

«إذن، أين يمكن أن يلعب الطفل، وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال، وتوفير العناية بهم، وتعليمهم سنين طويلة في المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحبّ.. فيعترمان منع النسل.. إلى أن يقع الطلاق»^(٢)!

لقد كانت قشة قصمت ظهر البعير!

ذهبت الأسرة، وانحل رباط الزوجية، فلا سكن، ولا مودة، ولا رحمة، ولم يعد هناك بيت يذكر؛ لأنه لا معنى لوجوده! وقَلَّ الإنجاب أو عُدِمَ، وأصبحت القوانين الأخلاقية مثاراً للسخرية.. كل ذلك من أجل عيون الحرية الشخصية!

وماذا بعد؟

خذ مثلاً من فرنسا.

«كان أكثر الأمم تأثراً بمحركة منع التناسل هي فرنسا، فكانت نسبة المواليد فيها إلى انخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب العالمية الأولى).. فلما نشبت هذه الحرب، ودُفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة، أدرك أرباب فكرها - بغتةً - أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين، ورجال محاربين.. فتملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم، وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء، وحتى أهل الجدد من رجال الدين والسياسة، كلهم يهيئون بالناس من كل جانب، وبصوت واحد: أن يكثرُوا من التوليد والتناسل، ولا يبألوا بالقيود التقليدية من النكاح والزواج، ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن، تستحق العز والكرامة لا العتب والملامة! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية، فانتهزوا الفرصة السانحة، وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات»^(٣).

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:

٨٢].

وهاك مثلاً ثانياً من السويد.

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١. والكلام للدكتور/ ول. ديورانت.

(٣) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ١٤٩ باختصار وتصرف يسير. والنص بطوله من كلام أبي الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب).

تعترف الأبحاث العلمية ، وتؤكد الإحصاءات أن السويد من أرقى دول العالم ومن أكثرها ثراء . . والتسهيلات والإعانات التي تقدم للأفراد في كل المجالات لا توجد في نظام دولة من دول العالم ، ولا يتمتع بها شعب من الشعوب! خصوصاً في مجال الأمومة والطفولة^(١)!

ولمع وجود هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة ، فإن الخط البياني لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض . . مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج في الجامعة . . فإن الأسرة السويدية في الطريق إلى عدم إنجاب أطفال على الإطلاق . .

يقابل هذا: انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين . . وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين . . إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقاً للإحصائيات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد ، والنسبة بدأت صغيرة ، وهي مستمرة في الزيادة^(٢) .

بل لقد أصبح المعروف منكرأ .

لقد «أصبح الزواج - رغم هشاشته - مصدر إزعاج للقائمين على تلك المجتمعات ، فقد طلعت الصحافة الغربية يوماً بخبر يقول:

«انزعجت السلطات التعليمية في سكوتلاندة بسبب موجة الزواج التي تعصف بالمدرسات ، فقد تبين أنه خلال عام ١٩٦٠م عُينت ١٥٦٣ مدرسة في سكوتلاندة ، وفي نهاية العام الدراسي تركت ألف منهن الوظيفة للزواج . وقالت السلطات: إن الزواج يهدد النظام المدرسي»^(٣)!

وأخيراً ، ماذا كانت حصيلة المرأة المسكينة المخدوعة؟

لقد كانت المحور الذي تدور حوله رحى الحرية . وهل الحرية إلا الانفلات من قيود الأخلاق ، وإطلاق العنان للشهوات؟ وهل يكون شيء من ذلك بدون المرأة؟

(١) راجع تفاصيل ذلك في: الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ . والكلام للدكتور/ عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطع ، قبل أكثر من أربعين عاماً ، والنسب أخذة في الازدياد ، وقد جمع الدكتور/ ناصر العمر ، طائفة من هذه الإحصائيات في محاضرة قيمة بعنوان: (الأرقام الناطقة) .

(٣) العلمانية ، للدكتور/ سفر الحوالي ، ص ٤٣٥ . عن كتاب: (المرأة بين الفقه والقانون) ، للدكتور/ مصطفى السباعي .

لقد خسرت كل شيء، كما خسر المجتمع من ورائها، ورجعت تندب حظها التبعس، بعد أن قطع المجتمع عليها خط الرجعة .

لقد دفع بها الوضع الاجتماعي الذي لا يرحم إلى أن أصبحت تُطرد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكي تبدأ في الكدح لنيل لقمة العيش، وإذا ما رغبت أو أجبرتها الظروف في البقاء في المنزل مع أسرتها بعد هذه السن، فإنها تدفع لوالديها إيجار غرفتها وثمان طعامها وغسيل ملابسها، بل تدفع رسماً معيناً مقابل اتصالاتها الهاتفية . وإذا حظيت الطريفة بأي عمل، فإنها تستشعر دوماً تهديد البطالة والأزمات الاقتصادية، وتظل خاضعة لاستغلال الرأسماليين أو عبودية الدولة إن كانت شيوعية، ويؤدي إرهابها المستمر وقلقها الدائم إلى أن تفقد طبيعتها الأنثوية، وتُضحي عرضة للأمراض العصبية، وفي بعض الأحيان لا تجد وسيلة للخلاص من هذا الكابوس الرهيب أفضل من الانتحار .^(١)، انتقاماً من نفسها، كما فعلت الممثلة الشهيرة (مارلين مونرو) التي كتبت قبيل انتحارها نصيحة لبنات جنسها، تقول فيها:

احذري المجد .. احذري من كل من يمدحك بالأضواء .. إنني أتعس امرأة على هذه الأرض .. لم أستطع أن أكون أما .. إنني امرأة أفضل البيت .. الحياة العائلية الشريفة على كل شيء .. إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، بل إن هذه الحياة العائلية هي رمز سعادة المرأة، بل الإنسانية .

وتقول في النهاية: لقد ظلمني كل الناس .. وإن العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة . مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة .
وليس غريباً أن تؤكد الإحصائيات العالمية أن نسبة محاولات الانتحار عند النساء أكثر منها عند الرجال^(٢) .

وقد أفاد تقرير كتبه أحد الأطباء الاجتماعيين في (فيينا) هذه الملاحظة، واستطرد في ذكر عدد محاولات الانتحار، وأنها تزداد باطراد، وأن النسبة الأعلى فيها دائماً من النساء، ما بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٥٩ م، وقال: إنه في العام الأخير، في كل تسعة أيام توجد ست محاولات انتحار، أربع منها من جانب الفتيات، واثنان من جانب الفتيان^(٣) .

وعلى سبيل الإشارة أقول:

(١) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص ٤٣٤، وانظر: المرأة بين الفقه والقانون، للسباعي .

(٢) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص ٤٣٦ .

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٤٣٦، ٤٣٧ .

والأطفال الذين يجرمون من عطف الأمومة وحنانها، ما مصيرهم؟ وكيف يعبرون عن اختياراتهم العاطفية في المجتمع؟ إنه مصير مرعب وجنوح مفرط!
وحالات الشذوذ الجنسي بين كل من الجنسين على حدة، اللواط والسحاق.. أكثر من عشرين مليوناً من الجنسين في الولايات المتحدة وحدها^(١)!
وجرائم القتل والاختطاف والاعتصاب والسرقه.. أشياء لا يمكن تصورها.

يقول تقرير رسمي صادر عن النائب الاتحادي العام في الولايات المتحدة الأمريكية عن الجرائم الأمريكية المسلحة رسمياً: «تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة، وتقع جريمة اغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة، وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية، وجريمة اختطاف كل ٢٠ ثانية». هذا مع العلم أن النسب آخذة في الارتفاع باطراد^(٢).

وأدع التعليق على هذه المشاهد والكوارث (العقوبات) لفطنة القارئ..

وأنقل إلى الجانب الثالث وهو: الظلم وإرادة العلو في الأرض بغير الحق:

والظلم والاستبداد وإرادة العلو في الأرض بغير الحق، أمور ملازمة للجاهلية، وقد عرفنا من قبل أن الجاهلية المعاصرة قد ورثت هذه الخصائص من الجاهليات القديمة، الإغريقية والرومانية، ثم طورت ذلك وتفننت فيه، كما طورت وسائل الفساد الأخرى.

وفي ظل الجاهلية، وفي غيبة المنهج الرباني عن قيادة الحياة، لا تكون القوة محايده أبداً، فضلاً عن أن تكون لمنصرة الحق وإنصاف المظلوم.. بل لا تنفك - عادة - من شهوة ظلم الآخرين واستعمارهم، لأنّ التمكن ليس له من غاية إلا العلو في الأرض والإفساد فيها.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم^(٣)!

وقد تمكّنت الجاهلية المعاصرة من أسباب القوة المادية، وهي نعمة كبرى. فكيف تم تسخيرها؟ وما هي نتائج ذلك على البشرية جمعاء، وعلى الجاهلية المعاصرة بوجه خاص؟

ماذا نتصور حين تكون القوة والسلطان غير مضبوط بشريعة الله؟

(١) وهذه الإحصائية يزيد عمرها على اثني عشر عاماً، بدليل أن وفداً يمثل منظمات اللواط والسحاق، قاموا بمقابلة مارغريت مساعدة الرئيس جيمي كارتر للعلاقات العامة، للمطالبة بحق حرية العمل في المؤسسات العسكرية، وللسماع بمزيد من حرية اللواط! انظر: العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي، ص ٤٤١، عن مجلة (المتجمع)، العدد (٣٥٠).

(٣) البيت لأبي الطيب المتيني. انظر: ديوان المتيني بشرح العكبري (٢/ ٣٦٠).

لقد أدى ذلك إلى جرائم وحشية في حق البشرية جمعاء ، وكان سوطاً عاقب الله به الإنسانية المُعْرِضَةَ عن هدي الله ، الناكبة عن صراطه ؛ القوي منها والضعيف !
أدى إلى صراع مدمر بين الدول التي تملك القوة ، ولا تملك الضوابط (الإنسانية) لاستخدام القوة . ويكفي من أمر هذا الصراع حربان عالميتان في أقل من نصف قرن ، والتهديد بحرب ثالثة ، يمكن أن تدمر وجه الأرض .

وأدى إلى الاستعمار الوحشي الذي ألغى كل كرامة للضعيف الذي لا يملك وسائل القوة . ذلك الاستعمار الذي وقعت في قبضته كل دول ما يُسمى بالعالم الثالث ، وهو أكثر من نصف الأرض . لأن القانون السائد في الجاهلية هو قانون الغاب: القوة هي الحق ، والقوي يأكل الضعيف . والبقاء للأصلح في عرفهم تعني: البقاء للأقوى مهما يكن ما ينطوي عليه من الشر^(١) .

وقد تجلّى في سلوك الجاهلية المعاصرة ، إرادة العلو والفساد في الأرض ، كما لم يتجلّى في جاهلية أخرى .

أمّا إرادة الفساد في الأرض ، فقد رأينا - فيما سبق - كيف كانت قوة العلم والمال والسلاح أسباباً لنشر الإلحاد والرذيلة والفساد الأخلاقي ، ودعم ذلك وحمایته ، بل وفرضه بالقوة ، كما في العالم الإسلامي .

وأما إرادة العلو في الأرض ، وما يتبع ذلك من القهر والاستعباد ، وما ينتج عنه من القتل والتشريد والتجويع .. فشيء يطول ذكره ، ويؤدي المسامع وصفه ، ولو لم يكن من مخازي الجاهلية إلا هو لكان كافياً في تسويد وجهها المتجهم .

ولن أتعرض لجرائم الدول الكبرى في حق مئات الملايين من البشر من المسلمين وغيرهم ، خاصة في آسيا وإفريقيا . مع يقيني بأن ما أصابهم ما هو إلا بسبب ذنوبهم .

ولكن سأشير فقط إلى بعض العقوبات الإلهية التي أوقعها الله بذات الذين أرادوا العلو في الأرض بغير الحق ، ونشروا فيها الفساد!

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٥١ .

كانت بريطانيا - فيما مضى - قوة عظمى لا تغيب عن مستعمراتها الشمس! وكانت الهند وأستراليا وماليزيا، ومصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين ودول الخليج وعدن، ونيجيريا وغانا وسيراليون، وأجزاء كثيرة من أمريكا . . بعض مستعمراتها^(١).

وكانت مثلاً للوحشية والظلم والاستغلال البشع، وكانت لا تخرج من مستعمرة إلا وتترك فيها من عوامل الإفساد الداخلية، ومشاكل الحدود مع جيرانها ما تطمئن معه على أنه لا يمكن أن تقوم لأهلها قائمة بعد ذلك . وهي إمام في هذه الأفاعيل الهمجية، ولا أبرئ غيرها .

وبينما هي كذلك، إذ مكر الله بها فانحسر سلطانها، واستأخرت عن موقع الصدارة، وأجبرت على الدخول في حربين عالميتين في غضون ثلاثة عقود، وصبّ الألمان عليها من عذاب الحرب صباً، ففرحت بنجدة الحلفاء لتنجو بذاتها، وأصبحت بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الأولى دولة من الدرجة الثالثة أو الرابعة .

وألمانيا التي فرحت بقوتها، فخرجت بطراً وأشراً، تريد استعمار العالم! فميتت بهزيمة نكراء، وقسمت بلادها، ولم تتخلص من عقابيل ذلك إلا بعد خمسين سنة تقريباً .

وروسيا التي استولت على بلاد تركستان المسلمة؛ بخارى، وسمرقند، وطشقند^(٢)، وغيرها . وضمت إليها دولاً أخرى نصرانية، حتى بلغ مجموع ما استعمرته خمس عشرة جمهورية، أو أكثر، وكانت أفغانستان من آخر ضحاياها .

وقد حكمت شعوب تلك البلاد بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م بالحديد والنار، وسخرتهم لخدمة مصالحها، وحملتهم على الكفر بأديانهم واعتناق الإلحاد ومبادئ الشيوعية، وألغت الملكية الفردية، ونشرت جواً من الرعب والجانسونية . . حتى بلغ الأمر متناه .

وقد مكّنها من ذلك كله، أنّها كانت على جانب عظيم من القوة والسلطان المادي، فقد كانت على مدى خمسة عقود أو تزيد، القوة الثانية في العالم المعاصر، وربما كانت الأولى أحياناً .

(١) انظر: معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية، مناع القطان، ص ٤٣، ودائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدلي (٦٥٤/١).

(٢) انظر: معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية، مناع القطان، ص ٤٤.

وبينما هي كذلك قوة وتمكيناً في الأرض؛ إذ تداعت حيطانها وتهاوت أركانها، فتحطمت اقتصادها، وتعلمت شعوبها المقهورة.. فانكشمت على حدودها، ورفعت يدها عن مستعمراتها، وصارت تستجدي أعداءها ليساعدها في الخروج من محتتها.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإن أمريكا المنتفذة اليوم، تسير على خطى صواحباتها، فكل شعب منها موتور، وكل حق من جرائمها مقهور مهدور... وأنا لنتظر سنة الله فيها، كما رأينا جميل صنعه في أمثالها.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولا أستطيع المضي في نقل الشواهد، وتفصيل جوانب المأساة التي لحقت بالأمم الجاهلية المعاصرة في كل مناحي الحياة، بشقيها الرأسمالي والشيوعي، فذلك شيء لا يستوعبه مبحث في فصل من فصول كتاب. وحسي تلك الإشارات.

ثم إن تتبع ذلك ليس هدفاً بذاته، وإنما أردتُ التنبيه إلى أن ما حلَّ بهذه الأمم، ما هو إلا عقوبات إلهية.. وإن سميت بغير اسمها، وإن عقلَ الإنسان عللها وأسبابها، وإن تمكّن من علاج بعضها والتخلص منها!

إن الانحراف الذي مارسته الجاهلية المعاصرة عن هدى الله ومنهجه كان كبيراً وعميقاً، وفي كل اتجاه، فلا جرم ستكون العقوبة مروعة وعميقة الغور.

لم يكن بُد وقد شرّد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه. وجعل الإنسان نفسه كذلك وراح يخبط في التيه بلا دليل، وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل ومن ذلك الهوى، واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها، في هوة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه.

لم يكن بُد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له، فاعتبر نفسه حيواناً وقد أراد الله إنساناً وجعل نفسه آلة، وقد أراد الله مهندساً للآلة. بل جعل الآلة والمادة إلهاً يحكم فيه بما يريد.. لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً، كما أن الرجل حيوان خشن، غاية الالتقاء بينهما اللذة، وغاية الاتصال بينهما المتاع..

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته في الإنتاج المادي، وأقام حياته كلها على أساس مادي، وتصور مادي، وكبّت الجوانب الحيّة المرفقة..

التي وهبها الله له ، لأنه (الإنسان) الخليفة الفذة في هذا الكون ، التي تشمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على أكل الربا ، ليكذّ القطيع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية والبنوك المراهين ..

وفي النهاية ، لم يكن بُد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله ؛ فاتخذ من المال إلهاً ، ومن الهوى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الإنتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً ، ومن الجنس إلهاً ، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ليهرب من الله ، ويستنكف عن عبادته!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تُحلّ به عقوبة الله لمن خالف الفطرة . وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة . وقد كان ..

كان .. وأداها من نفسه وأعصابه . ومن بدنه وعافيته . ومن سعاده وطمأنينته . ومن مواهبه وخصائصه .

وكتب على البشرية كلها أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة: حروباً رهيبية ، ضحاياها بالملايين ؛ قتل وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات .. أزمات إذا قل الإنتاج وأزمات إذا زاد الإنتاج ، وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجز وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة ، وأزمات إذا نقصت المحصولات وأزمات إذا فاضت المحصولات ، وأزمات إذا قلّ النسل وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، يخرّون أمواتاً بالسكّنة وتفجر المخ ، أو يخرّون أشلاء أو مجانين .. وما سلّطت عليهم سوى أنفسهم ، وما كان إلا نذير الله الذي لم تتفتح له القلوب والآذان^(١) .

ألم يغيروا ما بأنفسهم من الحق والعدل؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٢٠ - ١٢٢ باختصار وتصرف يسير .

الم يدلوا نعم الله كفرة، بنسبتها إلى غيره، وبترك شكرها، وباستعمالها في معاصيه؟

﴿وَمَنْ يُبَدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

الم يدلوا ويتعبدوا للمادة والتراب، ويعبدوا أهواءهم؟

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَارِيسِ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُنَكِّتَهُ أَهْلَادَ إِلَى الْأَرْضِ فَأَتَّبَعَهُ هُونًا فَشَلَّهُ كَمَا شَلَّ الْكَلْبَ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرُكُهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

الم يعمدوا إلى مصادمة الفطرة بإزالة الفوارق بين الرجل والمرأة، وإقحام كل منهما

في خصائص الآخر؟ والله يقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

ويُغروا المرأة بالمطالبة بذلك، والله يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى

بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

ويلغوا قوامه الرجل على المرأة، والله يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا

فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

الم يقيموا حياتهم على قاعدة الربا، بكل صورته، وقد محقه الله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا

وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وآذن متعاطيه بالمحاربة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

الم يجعل الله السبيل والحجة قائمة على الذين يظلمون الناس ويغنون في الأرض

بغير الحق، بإنزال العذاب عليهم؟ ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا

السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:

وأخيراً... ألم يحكم الله بخسران غير المؤمنين الصادقين ، من سائر الكافرين؟
 ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ
 وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣] .


فكيف بالكافرين المجرمين الظالمين؟

ألا إنهم بين عقوبات الله يتنقلون ، وفي مساخط الله يتقلبون .

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] .

فكيف يتصور الخلاص للبشرية الشاردة عن الحق ، المُعْرِضَةَ عن هدى الله ؛ بصورة
 جزئية ، كما هي حال معظم المسلمين اليوم ، أو بصورة كلية ، كما هي حال الأمم
 الجاهلية في الشرق والغرب؟

هذا ما سأحدث عنه بإذن الله في الباب الرابع (طريق الخلاص) .



الباب الرابع طريق الخلاص

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: فقه السنن.

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها.

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار.



بين يدي (الباب)

هذا هو الباب الرابع والأخير من أبواب هذه الدراسة، وعنوانه كما رأيت هو: (طريق الخلاص).

وإذا كنت قلت: إنَّ الباب الثالث (آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها) يقع مما قبله موقع المثال من القاعدة، فإنَّ هذا الباب (طريق الخلاص) واقع مما قبله موقع الثمرة والنتيجة من تصور وفهم القاعدة والمثال المضروب.

وإذا كان موضوع الباب الثالث عموم هذه الأمة، أمة الإجابة وأمة الدعوة، فإنَّ هذا الباب يخاطب أمة الإجابة بخاصة.

كما أنه ليس عرضاً تاريخياً، وإن كان مقصوداً من العرض التاريخي الاعتبار، وإنَّما هو دعوة موجهة، وخلاصة مزاجها الدلائل الشرعية والوقائع التاريخية.

وإذا كان (الخلاص أو الخلوص) هو زوال الشوائب والأخلاق عن الشيء وتحليصه منها بعد أن كانت فيه ^(١)، بطريقة من الطرق المناسبة.. فإنَّ خلاص هذه الأمة لا يكون إلا بتطهيرها وتنقيتها مما خالطها من الشوائب والانحرافات العقدية والسلوكية والأخلاقية والفكرية.. وما داخل نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية تبعاً لذلك من الفساد والعطب.

ولا يكون ذلك إلا عن طريق واحد، هو العودة إلى دينها، والأخذ بما في كتاب ربها وسنة رسولها ونبينا محمد ﷺ بقوة، والاهتداء بهدي سلفها الصالح، ممن كانوا المثل الأعلى في نجاح التجربة المؤسسة على الكتاب والسنة.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا يكون الخلاص مثمراً ثمرته المرجوة، ما لم يكن قائماً على أصول صحيحة منطقية؛ تبدأ بالعلم (المعرفة) والفقه (الفهم والإدراك)، وتنتهي بالعمل (الممارسة والتطبيق)، وتنتهي بالدعوة والجهاد لحماية المستوى الرفيع الذي وصلت إليه، وضمانة استمرارية العطاء.

(١) انظر: مفردات الراغب (خلص).

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وأنبه هنا إلى أمور ثلاثة:

الأول: ضرورة الفهم الشامل لمعنى (طريق الخلاص) الذي ينبغي على الأمة أن تسلكه.. إنه طريق أوله في الدنيا وآخره في الآخرة.

وهو طريق حضاري يستوعب جوانب الحياة المعنوية والمادية.

أي أنه طريق: يرفض الفصل والتمييز بين أعمال الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

وقال: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكُ إِنَّا نَسِيبُنَا وَمَنْ يَنْسِبْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَسَىٰ * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند هذه الآية: «من قرأ القرآن وأتبع ما فيه، هداية الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية»^(١).

كما يرفض التجزئة وأنصاف الحلول في نظرتة إلى العملية الإصلاحية (الخلاص).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَيْتُ وَنَسِيَتْ وَنَسِيَ وَنَسِيَ اللَّهُ رَّبَّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ * وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الأمر الثاني: التدرج، وأعني به: البدء بالعلم، فالعمل، فالدعوة والجهاد، ولا يعني ذلك المرحلة الحرفية؛ إذ من الخطأ اعتقاد أن معنى التدرج أن ترتد الأمة كلها أو طائفة منها إلى المرحلة الأولى، وتهمل المرحلتين التاليتين حتى تفرغ منها.. كلا، ليس هذا بمقصود.

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٥/ ٣٣٠).

ليس هذا بمقصود؛ لأننا إذا نظرنا إلى المراحل السابقة بمنظار شمولي، أدركنا عملياً أن الأمة يجب أن تمارس العلم فالفقه، والعمل والتطبيق، والدعوة والجهاد، بمعانيها الواسعة في كل جوانب حياتها بصورة متداخلة، تداخل الكينونة الإنسانية. والمرحلية الحرفية تتعارض وهذه النظرة، وبالتالي لا يمكن تطبيقها في عالم الواقع.

إذن، فالترج المقصود في باب (خلاص الأمة)، هو أن تقوم المؤسسات التربوية والعلمية والإعلامية في الأمة بترويض أفرادها على مبدأ (الترج)، وذلك من خلال: الطرح النظري لهذا المبدأ (الترج)، إلى حد الإيمان بأهميته. ثم التأكيد على ممارسته في عالم الواقع؛ وذلك بمساعدة الأفراد على هذا السلوك بكل وسيلة ممكنة.

وأن تكون هذه المؤسسات قائمة بالفعل على أساس مبدأ (الترج)، في جانبه العلمي والعملية.

والترج بهذا المعنى، لا يتعارض مع مبدأ تقديم الأولويات، كما لا يتعارض مع المرحلية في التنفيذ على ضوء الإمكانيات المتاحة للأمة..

لا يتعارض مع شيء من ذلك؛ لأن الأولويات التي نبدأ بها نحتاج فيها هي الأخرى إلى ممارسة مبدأ التدرج المنطقي.. نحتاج في تنفيذها إلى المعرفة والفقه أولاً، ثم الممارسة والتطبيق ثانياً، فالدعوة والجهاد من أجل إشاعتها والحفاظ عليها ثالثاً. وقل مثل ذلك في مرحلة التنفيذ.

إن عامل الزمن في (مبدأ التدرج في خلاص الأمة) بالمعنى الذي أعنيه هنا، خاضع في سرعته وإبطائه لمدى تحقق مراحل التدرج بصورة صحيحة، وليس العكس. وليس معنى ذلك أن الزمن غير مهم، كلا. ولكن تضافر الجهود وصدق النوايا وحسن التآني للأمر، يختصر الزمن لمصلحة الأمة.

الأمر الثالث: ويراعي مبدأ التدرج المنطقي، الذي يبدأ بالمعرفة والفقه أولاً، ثم الممارسة والتطبيق ثانياً، فالدعوة والجهاد من أجل تعميم الشيء والحفاظ عليه ثالثاً.. وهذا قد يكون واضحاً بعض الشيء في مجال المبادئ والتصورات والأفكار (الجوانب النظرية).

ولكن نحتاج إلى فهم مرحلة (الدعوة والجهاد) كيف يمكن تطبيقها في عالم الماديات؟ وجواباً على ذلك، أقول باختصار:

إنّ تطبيق المرحلة الثالثة (الدعوة والجهاد) في باب الأشياء المادية، يستلزم فهماً أوسع لمعنيي (الدعوة والجهاد).

إنّ الجهاد معناه: بذل الجهد واستفراغ الوُسع للوصول إلى المقصود، مأخوذاً من إجهاد النفس وكذاً الذهن^(١).. وهو بهذا المعنى داخل في المراحل الثلاث، ولازم لكل عمل مفيد. أمّا في المرحلة الثالثة، فإنّ الجهاد يعني بذل المزيد لتحقيق الإبداع وضمان الجودة، والتخلص من السليبات التي تكتنف أعمال البشر عادة، خصوصاً في بداياتها، وهو يعني أيضاً تكرار التجربة والممارسة، للأسباب ذاتها..

وبذل الجهد بهذه الصورة، هو الوسيلة الصحيحة لتطوير الأشياء، فإنّ الممارسة الآلية للأشياء لا تساعد على رؤية عيوبها، وحتى لو ظهرت عيوبها، فإنّ العقلية الاستهلاكية التي تتوقف عند المرحلة الثانية، غير مرشحة للمضي بها قدماً نحو الأحسن. أمّا الكلمة الثانية (الدعوة).. فإنّها في عالم الماديات تعني الدعوة إلى: التكامل البشري: سواء كان رقعة الأرض، أو المواد الخام، أو رأس المال، أو التقنية المتطورة، أو الموقع الجغرافي المتميز، أو غير ذلك..

والتكامل البشري سواء كان يداً عاملة، أو خبرات فنية متخصصة.

كما أن الدعوة هنا تعني: (الدعاية)، وهو استخدام شائع في ترويج الأشياء المادية.. تعني الدعاية لمنتجات الأمة المادية، وفتح الأسواق أمامها، ورفع القيود التي تُضربها.. ونحو ذلك.

أمّا ثمرة هذا التدرج في خلاص الأمة، فإنّه يظهر - عادة - على مستوى الأمة بمجموعها، ونستدل على وجوده عملياً بأمور، أبرزها:

١ - أن تصبح أعمال الأمة وتصرفاتها، أقرب إلى الصواب والحق في جملتها، وتقل نسبة المخالفات والتصرفات العشوائية؛ لأنّ التدرج يُسددها بإذن الله، وهذا التسديد يظهر أيضاً في سلوك الأفراد، ويطلع كل أشياء الأمة بطابعه.

٢ - تطبيع الممارسات العملية بعد معرفتها وفقهها ذهنياً، بحيث لا تصبح مجرد معرفة ذهنية باردة، أو نظريات فلسفية جدلية عقيمة؛ لأنّ ثمرة العلم العمل، وبهذا تصبح الأمة أمة إيجابية فاعلة منتجة.

(١) انظر: مفردات الراغب، وأساس البلاغة، للزنجشيري، مادة (جهد).

وبعد ، فإن هذا الباب ذو فصول ثلاثة ، هي المراحل التي أسلفت لك بيانها ، وهي بحروفها كالتالي :

الفصل الأول: فقه السنن.

الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها.

الفصل الثالث: ضمان الاستمرار.

الفصل الأول

فقه السنن

فقه السنن أول خطوة نخطوها في طريق الخلاص الطويل . .

أول خطوة نخطوها . . وإذا نجحنا في اجتيازها بأمان ، فما بعدها أيسر منها بإذن الله تعالى .

وأي خطوة تُتخذ قبلها ، على سبيل التجاهل لها أو الجهل بها ، أو بغية اختصار المسافة . . فستكون عواقب ذلك - في نظري - وخيمة ، ونتائجه مخيبة للأمال!

فماذا أعني بفقه السنن في باب (خلاص الأمة)؟

لعل مما يساعد في الإجابة على هذا السؤال ، أن أقدم بمقدمتين مختصرتين:

المقدمة الأولى: في التعريف بكلمة (فقه) ، والإشارة إلى العلاقة بينها وبين العلم والمعرفة .

المقدمة الثانية: في التنبية إلى تمييز القرآن بين من اتصف بالفقه والإدراك ، ومن أُرْكِسَ في الغفلة والإعراض .

المقدمة الأولى: الفقه في اللغة: هو الفهم والإدراك للشيء ، وهو العلم به ومعرفته معرفة تامة تبلغ حد الإدراك لمراميه وفقه مقاصده ، ويتفاوت ذلك بتفاوت الملكات والمدارك . ولهذا يُقال للعالم بالشرعية: فقيه ، ويُقال عالم^(١) .

وللفقه في الاصطلاح الشرعي تعريفان: عام ، وخاص .

فالعام: ما عرفه به أبو حنيفة - رحمه الله - بأنه: معرفة النفس ما لها وما عليها .

وهذا التعريف شامل للأحكام العلمية والعملية ، وهو الذي كان مشهوراً عند المتقدمين ، قبل استقلال الفقه بمعناه الخاص عن غيره من علوم الشريعة ، ويسمى الفقه الأكبر ، وهو أشبه بما نحن بصده من فقه السنن .

ثم استقل الفقه فصار موضوعه مقصوراً على معرفة ما للنفس وما عليها من الأحكام العملية .

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (٤/٤٤٣) ، ، اللسان ، مادة (فقه) .

وعرفه الشافعي - رحمه الله - بالتعريف المشهور بعده عند العلماء ^(١)؛ عرفه بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية» ^(٢).
ولا يُقال لمجرد العلم بلا فقه فقه، ولا يستحق من كان كذلك وصف الفقيه. فالفقه
أخص من العلم، أو يُقال: هو علم خاص ^(٣).
قال الراغب في مفرداته: «الفقه: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص
من العلم».

وقال في مادة (علم): «العلم: إدراك الشيء بحقيقته».
والفقه مستلزم لمطلق العلم؛ إذ لا يُتصور فقه بلا علم. وليس العكس بلازم؛ إذ
يوجد علم بلا فقه، وهو كثير.
ويظهر بالتأمل أن لفظ (العلم) إذا أُطلق أُريد به: إدراك حقيقة الشيء، لا مجرد
سماعه؛ لأن الإدراك والمعرفة وعقل الأشياء، وما يترتب على ذلك من العمل هو
المقصود من السماع والعلم، وبدون ذلك يصبح كلاً علم.
والفرق بينهما على هذا النحو ثابت في كلام الشارع الحكيم - جلّ وعلا - على
لسان رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَاً ﴾ [محمد: ١٦]. وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١].

فقد أثبتت الآيات لهم مطلق السماع والاستماع، وأثبتت لهم عدم الفهم أيضاً.
وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۗ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومعلوم أن المنفي عنهم هو الاستماع النافع الموصل إلى الحق والهدى، والمثبت لهم
هو مطلق الاستماع الذي تقوم عليهم به الحجة.

(١) وهو تعريف الفقه بمعناه الخاص.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور/ وهبة الزحيلي (١/١٥، ١٦) بتصرف.

(٣) وعليه يُحملُ كلام من فسّر الفقه بمطلق العلم، كقول ابن فارس: «... وكل علم بشيء فهو فقه» [معجم مقاييس
اللغة، لابن فارس (٤/٤٤٢)]. وقول صاحب اللسان: «... وفقيه فقهاً، بمعنى: عليم علماً» [اللسان، مادة (فقه)].
أقول: إلا أن يكون ذلك من باب التجوز، ومن باب تفسير أحد اللفظين بالآخر على سبيل التوسع.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وهم أولو الفقه في الدين والعقل^(١). والآيات في هذا كثيرة.

وقد صحَّ من حديث ابن مسعود^(٢) عن النبي ﷺ قال: «نصَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلغ أوعى من سامع»^(٣).

وقوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت^(٤): «نصَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه»^(٥).

وتأمل قوله ﷺ: «فبلغه كما سمعه»، وقوله في الحديث الآخر: «سمع منا حديثاً فحفظه»، تجد أن النبي ﷺ قد أثبت لهذا السامع قدراً زائداً على مجرد السماع، ألا وهو الحفظ والضبط، وهو علم بلا شك.. ومع ذلك لم يجزم بكونه فقيهاً، بل «ربَّ مبلغ أوعى من سامع»، و«ربَّ حامل فقه ليس بفقيه».

والمعرفة أشبه بالفقه، وأقرب إلى مدلوله؛ فإنها إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم^(٦).

وإذ قد ثبت أن الفقه هو الفهم والإدراك، فإنَّ صاحبه لا يستوي هو ومن حُرِّمه، بل بينهما بون شاسع. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

والجواب: أنهم لا يستوون! وبيان ذلك في:

(١) تفسير ابن جرير (١٨٣/٥).

(٢) ابن غافل، الهذلي، حليف بني زهرة، أبو عبد الرحمن، أسلم مبكراً، وهاجر المهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبي ﷺ، وكان صاحب نعليه، وحدث عن النبي ﷺ الكثير. توفي بالمدينة سنة (٣٢٢هـ). انظر: الإصابة (١٢٩/٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٨٠/٤)، عن جبير بن مطعم، والترمذي في العلم، باب الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٩)، وغيرهم. وهو حديث صحيح. انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (١٨/٨)، والجامع الصغير، للسيوطي (٦٧٤/٢).

(٤) ابن الضحاك، الأنصاري، الخزرجي، أبو سعيد، شهد أحدًا، وقيل: أول مشاهدته الخندق، لصغر سنه. كان من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، ومن علماء الصحابة، كان له شرف جمع القرآن في عهد الصديق وعهد عثمان، وتولى قسَم غنائم اليرموك. توفي سنة (٤٥هـ) في قول الأكثرين. انظر: الإصابة (٢٢/٣).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٨٢/٤) عن جبير بن مطعم، والترمذي في العلم، باب: الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٨)، وأبو داود في العلم، باب: فضل نشر العلم، رقم (٣٦٦٠)، وغيرهم. وهو حديث صحيح. انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (١٨/٨)، والجامع الصغير، للسيوطي (٦٧٤/٢)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، (١)، ح (٤٠٤) بأطول منه.

(٦) انظر: مفردات الراغب (عرف).

المقدمة الثانية، وهي: في التنبيه إلى تمييز القرآن بين من اتصف بالفقه والإدراك، ومن أركس في الغفلة والإعراض.

لقد امتدح الله أهل الفقه والعلم أفراداً وأمماً في كتابه وأثنى عليهم، وناههم بأحسن النعوت، وذم الغافلين المعرضين أفراداً وأمماً، وناههم بأقبح النعوت، ونفر من حالهم.. وميز بين الفريقين أعظم تمييز وأبينه.

وقد مرُّبك إشارة إلى ذلك في الآيات السالف ذكرها، وأزيد المسألة إيضاحاً فأقول: إن أهل الفقه والعلم على الحقيقة، هم أهل خشية الله، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ أي: العارفون بالله وبما له - سبحانه - من نعوت العظمة والجلال، العالمون بأمره ونهيه واقتداره^(١).

وهم المؤمنون المؤهلون للاستجابة لأمره والاهتداء بهديه سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]؛ أي: سماع تفهم وفقه وانتفاع^(٢).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَولو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وهم الذين يتفكرون بالمواعظ ويعقلون الأمثال المضروبة، ويعتبرون بالحوادث ويتذكرون إذا ذكروا، وهم أهل العقول الراجحة والبصائر النافذة، وأولو الأبواب...

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

وقال: ﴿فَذَكِّرْ يَا لِقْزَانٍ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق: ٤٥]. وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿يُخْرِجُونَ

يُؤْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٧].

وأهل الفقه والعلم، هم أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم.

قال تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٣٢/٢٢).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٨٥/٧)، وتفسير البيهقي (٩٥/٢).

وعليهم المعول ، في فهم المعضلات وحل المشكلات ، التي تعرض للناس في شئون دينهم ودنياهم .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] . . . إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على أوصافهم ، المبيّنة عن خصائصهم .

وعلى الضدّ من ذلك ، الغافلون المعرضون ، وهم أكثر الخلق عن ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وهم شرّ الدواب عند الله ، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ ﴾ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢ ، ٢٣] .

وأمثال هؤلاء لا تغني فيهم الآيات والتذر ، برغم وضوحها .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَغْنِي الْآبَتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] .

وعلتهم الإعراض والجهل ، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] ، [١٠٦] .

ولهذا يسكنون في مساكن الظالمين ، ويرون آثار العقوبات الإلهية فيهم وفي ديارهم ، فلا يرعَوون ولا يتذكرون .

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلِي قَرِيبٌ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَفْسَئْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ * وَسَكَتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤ ، ٤٥] .

ولا ينفي عنهم صفة الغفلة كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، بل إن هذا العلم وحده ك (لا علم)!

قال تعالى: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي آذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي
يَضَعُ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ * نِنصِرِ اللَّهُ يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ١ - ٧].

قال في الكشف: «ذمهم الله - عز وجل - بأنهم عقلاء في أمور الدنيا، بُله في أمر
الدين .. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من قوله: «لا يعلمون». وفي هذا الإبدال من النكتة
أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم
الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا» (١).

وبسط هذا يطول، وقد ذكر في غير موضع، وسيأتي له مزيد بيان، بإذن شاء الله .
وخلاصة ما سبق:

- أننا تبينا معنى الفقه، وأنه أخص من مطلق العلم، وأنه مستلزم له .

- وميِّزنا بين (الفقه) بمدلوله الاصطلاحي الخاص بالأحكام العملية، وهو اصطلاح
متأخر، وهو جزء من مدلول الفقه بمعناه العام .. ميِّزنا بينه وبين الفقه بمعناه الأعم،
الذي هو فقه الأحكام العلمية والعملية في الحياة الإنسانية، وهو الفقه الأكبر . وعرفنا أن
هذا الأخير هو أشبه بمرادنا في هذا الفصل .

- وأدركنا عظيم الفرق بين أهل الفقه والعلم، وأهل الغفلة والإعراض، بالوقوف
على بعض أوصافهم ومواقفهم، من خلال بعض الآيات .

ولعل السبيل قد تمهدت الآن للإجابة عن السؤال السابق:

ماذا نعني بـ (فقه السنن) في (طريق خلاص الأمة)؟

لقد قلت في بداية الحديث: إن (فقه السنن) هو الخطوة الأولى في طريق الخلاص
الطويل . وإن صحة ما بعدها من الخطوات موقوف على صحتها وسلامتها .. وبيئتُ
معنى كلمة (فقه) وأي معنى أريده من معانيها، وأنه المعنى الأعم ..

وأنت على علم أن كلمة (سنن) في هذا السياق تعني: القوانين التي تضبط حياة
الإنسان، والنظام الإلهي الذي أجرى عليه شئونه في هذه الحياة .

والمحت في الكلمة بين يدي الباب ، إلى منطقية البدء بهذه الخطوة قبل التطبيق والممارسة ، ومن باب أولى قبل الدعوة والجهاد ..
وحسبي في هذا الفصل ، أن أجلي هذه المعاني ، وأشفعها ببعض الأمثلة والنماذج .
فإذا بلغت ذلك ، فهذا ما أعني به (فقه السنن) .

ويمكن أن يختصر مختصر ما أريد طرحه في هذا الفصل بكلمات ، فيقول: إن (فقه السنن) يعني: الفهم والإدراك للقوانين والطرائق التي تحكم حياة الجماعة البشرية على هذا الكوكب الأرضي ، من منطلق صحيح ، حسب الطاقة البشرية ..
وهذا كلام صحيح ، وجواب سديد .. ولو كان يكفي لما احتاج العالم الإسلامي في إصلاحه إلى كبير عناء ، فإن عامة المسلمين يحسن أكثرهم مثل هذا الكلام أو أحسن منه!

بل أقول: إن ترديد مثل هذه الإجابة والاقتصار عليها من عامة المسلمين حين يواجهون المشكلات .. إن هذا لشاهد على غياب (فقه سنن الله في التغيير والإصلاح)! .
إنه لا يلزم من صحة الجواب في نفسه ، وكونه مطابقاً للسؤال أن يكون كافياً في حق أكثر الناس .

إن هذا الجواب هو تعبير صادق عن فكرة الإصلاح ، ولكن الفكرة تحتاج إلى أكبر من مجرد التعبير الصادق ، تحتاج إلى التنظير المتكامل والطرح الشمولي ، وتحتاج إلى مبادرات علمية تحمل حلولاً عملية ممكنة التطبيق ...
وأنت خبير بأن جملة من الكلام ، مهما كانت صادقة لا يمكن أن تفي بذلك .
وتجاوز مثل هذا الجواب المجلل إلى جواب مفصل ، هو ما سأحاول القيام به في هذا الفصل وما يليه من فصول .

وسأعرض رأبي وتصوري - وهو جهد المقل - في فقه السنن على مستوى الأمة الإسلامية اليوم ، من خلال فهمي وإدراكي للنصوص ، وأحداث التاريخ .
في طريق الخلاص .. نحن أمام (أمة) ذات كيان ضخم وتاريخ طويل .. تعاني من أزمة عميقة الجذور ، متشابكة الخيوط .
والحديث هو عن «فقه السنن الإلهية في كيفية الخروج من الأزمة وتجاوز المشكلة ، كي تستعيد الأمة عافيتها» .

ومن الفقه أن تتأمل في الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية ومشكلتها) قبل الدخول في بحث كيفية الخروج منها ؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فإن الفشل والخطأ ،

غالباً ما يكون بسبب التقصير في دراسة المشكلات وفقه ملابساتها فقهاً كافياً، وليس بسبب قلة الإمكانيات، وأكثر الناس يظنون الأمر بعكس ذلك .

ومن هنا، فسأعرض لهذه المسألة في مبحثين:

المبحث الأول: فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة).

المبحث الثاني: فقه الخروج من الأزمة (الخلاص منها).

وسأعرض لكل منهما في نقاط يكمل بعضها بعضاً، مراعيّاً الاختصار قدر الإمكان .

المبحث الأول

فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة)

نستطيع تقريب (فقه الأزمة) إذا تمكنا من:

- تحديد بؤرة الأزمة أو المشكلة . وهذا يستلزم: التمييز بين (أسبابها) و(أعراضها) و(مراحلها) . والتعرف على (مستوى الأزمة) من خلال الواقع والتجربة .
ولبيان ذلك أقول:

إن أول ما يجب على طلائع الأمة الإسلامية من العلماء والدعاة والمصلحين ، الذين رشحوا أنفسهم للعمل في سبيل خلاص الأمة واستعادة مكانتها . . أن يُمعنوا النظر ويظيلوا التأمل في سبب أو أسباب أزمة الأمة ومرضها . وأن يجتهدوا في التمييز بين أسباب الأزمة ، وبين أعراضها ومراحلها . .

إن ما أصاب العالم الإسلامي في قرونه الأخيرة ، هو - في حقيقته - أكبر من أزمة . . إنها ردة حضارية ونكسة شمولية وهزيمة نكراء بكل المقاييس ، جاثمة بكلكها^(١) على العالم الإسلامي ، أرضاً وشعوباً ، ومقدرات . . وفي كل الميادين .
وما من شعب إلا له منها نصيب ، وما من بقعة إلا وفيها منها شروخ وندوب ، فمن مُقِلّ ومن مستكثراً!

لقد تنقل العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين بين ضروب من الاستعمار العسكري المباشر ، والاستعمار الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بالوكالة . . . وكان في كلتا الحالتين يعاني من الجهل والفقر والتخلف .

وينبغي ألا نشغل بخطابية وصف الفاجعة عن موضوعية التشخيص .

ومن هنا ، فإن علينا قبل أن نبدأ في تحديد بؤرة الأزمة أو المشكلة ، والتمييز بين (أسبابها) و(أعراضها) و(مراحلها) ومعرفة واقعها^(٢) ، أن نتذكر هنا مسلمّات لا بد أن تكون أساس انطلاقتنا . . وهي من فقه حال الأمة ، الذي نحن بصدد مُدارسته .

(١) الكَلْكَلُ: هو الصُّدْر ، وقيل غيره . والعرب تقول: ألقى عَلَيْهِ الذُّهْرُ كَلْكَلَهُ ، إذا ألقى عَلَيْهِ ثِقْلَهُ . انظر: أساس البلاغة ، للزمخشري ، والقاموس المحيط ، مادة (كلل) .

(٢) انظر: إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها ، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني ، ص ١١١ ، ١١٢ .

أولاً: هناك فرق هائل بين موت الأمة أو انقضاء أجل مرحلة محددة من مراحلها، وبين مرضها، مهما كان شدة وعمقاً.

فموت الأمة أو انقضاء مرحلة محددة من مراحلها، أمرٌ لا حيلة في استرجاعه، ولا مكان لمبضع الجراح فيه. فلا أحد يستطيع إعادة أمة بائدة كعاد وثمود، أو مرحلة انقضت كعهد النبوة وخلافة الخلفاء الراشدين؛ لأنَّ سنن الله تأبى ذلك، وقضاءه - سبحانه - جرى بأن ذلك لا يكون.

أمَّا مرض الأمة - وهو ما تعاني منه أمة الإسلام اليوم - فإنَّ له أسباباً «يمكن التدخل بها إيجاباً وسلباً، مثلما يمكن التدخل في أسباب صحة الأفراد وأمراضهم»^(١).

وينبغي ألا نشك لحظة أن ما في أمة الإسلام اليوم هو من قبيل الأمراض؛ لأنَّ لها أجلاً لم تبلغه ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤].

لم تبلغ أجلها لأنَّ الصادق المصدوق عليه السلام يقول في الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٢).

ويقول في الحديث الآخر: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»^(٣). وفي أخرى: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود...»، وفي رواية: «حتى تقاتلوا اليهود...»^(٤) الحديث.

لم تبلغ أجلها؛ لأنَّ لها مع أعدائها جولات قادمة وملاحم مشهودة. ومن هنا فلا مكان لليأس ولا حجة في القعود عن الإصلاح.

ثانياً: يجب التفريق - ونحن نُقوِّم واقع الأمة المؤلم - بين الأنظمة السياسية الحاكمة، وبين الشعوب الإسلامية.

إنَّ «اعتماد أنظمة الحكم والأشكال السياسية فقط للنظر إلى الأمم، والحكم عليها، وتقويمها، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة، والبُعد عن الحقيقة والواقع»^(٥)؛ ذلك لأنَّ

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١١.
(٢) متفق عليه، من حديث سعد بن أبي وقاص. انظر: الفتح (١٣/٢٤٩)، ومسلم في الإمارة، ح (١٩٢١). وهذا لفظ مسلم، عن ثوبان.
(٣) رواه مسلم في الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان، رقم (١٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة. انظر: الفتح (٦/٧٥) في الجهاد، باب: قتال اليهود، ومسلم في الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت، من البلاء، رقم (٢٩٢٢).
(٥) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة، ص ١١.

هذه الأنظمة السياسية في طول العالم الإسلامي وعرضه، لم تتسلم مقاليد الأمور في بلادها باختيار الشعوب، ولم تكن تمثل مصالحهم، ولا تعد مواقفها تعبيراً عن آرائهم ومنطلقاتهم في أغلب الأحيان... بل هي إلى عدوهم أقرب منها إليهم.

والذين ينظرون إلى الشعوب الإسلامية من خلال المواقف السياسية والأنظمة الحاكمة، يخطئون فهم واقع الشعوب، ويخلطون بين شيئين مختلفين..

وهذا الخطأ والخلط، يؤثر في فقه الخروج من الأزمة، ويضر بها ضرراً بالغاً.

ثالثاً: ولا بد أيضاً أن يكون المعيار الذي تُقوّم به حال الأمة معياراً محدداً؛ موحداً منضبطاً.

وبكل وضوح وثقة، أقول: نحن مسلمون.. وأمتنا أمة مسلمة.. فلا خيار لنا في

تحديد المعيار!

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:

[٨٥].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ

اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الحشر: ٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

إن المعيار الذي يجب أن نحتكم إليه، ونحاكم الواقع والناس على ضوئه، هو الكتاب والسنة، وتطبيقاتها المتمثلة في السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، وما وافق ذلك من سيرة سلف الأمة.

وبكل فخر وثقة نقول أيضاً: إننا «كلمًا اقتربنا من الكتاب والسنة، ومن حياة

الصدر الأول - رضوان الله عليهم - فنحن (متقدمون) عقدياً وسلوكياً، والجوانب

الإنسانية الأخرى كذلك بلا شك، أو هكذا يجب أن يكون. وكلمًا تأخرنا عن الكتاب

والسنة وعن العيش في ظلالها ، فنحن متخلفون في مجال العقيدة والتصور ، وبالتالي في مجال السلوك وسائر الجوانب الإنسانية .

وتلك حقيقة مهمة ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا ، ونحن نبحث عن طريق الخلاص ، وينبغي أن نستصحبها معنا دائماً لكي لا نضل الطريق»^(١) .

ولنعد بعد هذا إلى تحديد (بؤرة الأزمة) في حاضر الأمة الإسلامية ، ومحاولة التمييز بين أسبابها وأعراضها ومراحلها . . وهو بيت القصيد في هذه النقطة .

تأملت في واقع أمتنا الإسلامية وفي مظاهر أزمتنا الراهنة ، فوجدت خيوطها تُشدُّ إلى خيطين ، ومظاهرها لا تنفك عن أحد سبيين هما:

* ضعف الإيمان الصادق، وضعف العلم النافع:

فأما ضعف الإيمان الصادق: فقد سهَّل شيوع أنواع الفسوق والانحرافات في الخاصة والعامة ، ونفذت إلى الأمة بسببه ضروب الشهوات التي عبَّدت الطريق أمام الغزاة ؛ إذ زينت طرائقهم ، وحبذت مُشاكلتهم ، وخضدت شوكة مقاومتهم .

ومن جانب آخر: تجرأت النفوس بسبب هذا الضعف على ترك الفرائض والواجبات وزهدت في الأعمال الصالحة وأنواع القربات .

وأما ضعف العلم النافع: فأنج أنواع البدع والخرافات التي اتخذها أكثر الناس ديناً وشرعاً ، وطمس بها وجه الحق وأخفى رسومه ، وختق الإبداع وغلَّ العقل عن التفكير البناء ، وبرر لأنواع المظالم ، وسُرقت في عهده الثروات .

ومن جانب آخر: فإنه بسبب ضعف العلم ، انفتح باب عريض دخل منه كل من هبَّ ودبَّ ودرج ، ليقول في الإسلام ما شاء ؛ قبولاً ورفضاً وتأويلاً ، إفتاءً وتفسيراً ، دون حسيب أو رقيب .

وتولد من امتزاج هذين السبيين في العقلية والنفسية الإسلامية توأمان مقبوحان ، هما: (الهزيمة النفسية) ، و(انحسار الوعي الإسلامي)^(٢) ، ومن مظاهر ذلك: ضعف البصيرة ، والانبهار بالآخر ، وضعف الإرادة الجازمة والعزيمة النافذة . .

والهزيمة النفسية أليق بضعف الإيمان ، وانحسار الوعي أشبه بضعف العلم النافع .

(١) واقعنا المعاصر ، للأستاذ الداعية/ محمد قطب ، ص ١٧٣ . بتصريف وزيادة .

(٢) أو انعدامه بالكلية أحياناً .

ونشأ من هذا المزيج وما تولد منه ، تصورات غريبة ، واعتقادات عارية من الدليل والبرهان ، بل البراهين ناطقة بخلافها ، شاهدة بفسادها . . ومن ذلك على سبيل المثال:

أن تجد أكثر المسلمين يحسنون الظن بأنفسهم ، ويزكون أعمالهم ، مع ما هم فيه من مخالفة وتقصير ، وبالتالي فهم لا يقبلون نصحاً ، ولا يرتضون نقداً . في تعطيل مؤسف لقانون الأسباب ، وإقصاء متعمد للشفافية في النظر إلى الذات .

ولهذا تجد كثيرين يعتقدون خطأ مخالفيهم ، وأنهم لا يستحقون ما هم فيه ، وأنهم - أعني المسلمين - أولى به منهم ، حتى مع جدّ أولئك وتشميرهم ، وإعراض المسلمين وتفريطهم .

وإذا رأوا أن الله لم ينصرهم ، بل سلط عليهم الكفار والفجار فظهروا عليهم . . إذا رأوا ذلك ، ظنوا بالله ظن السوء ؛ إذ كيف يُدبّل أهل الباطل على أهل الحق! وارتابوا في صدق وعد الله أنه ينصر المؤمنين في الدنيا . وأحسن حالهم أن يعتقد بعضهم أن ما وعد الله به من النصر والنعيم لا يكون للمؤمنين إلا في الآخرة ، وأمّا الدنيا فهي للكافرين والفجار^(١) .

فهم قد أصيبوا بجهل وعجز مركبين ، فاشتغلوا بالجدل وأعرضوا عن العمل . وإلى هذين السببين ، وما تولد منهما ونشأ عنهما ، ترجع - والله أعلم - كل أعراض (أزمة الأمة الإسلامية) العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . .

وإليها يعزى ما تنقلت فيه الأمة فيما مضى ، وما تعيشه اليوم بسبب هذا التراكم السلبي من مراحل وأطوار سياسية رديئة مخزية .

ومن هنا نستطيع أن نبدأ مشوار التمييز بين الأسباب والأعراض والمراحل لأزمة الأمة ، على أساس أن الأسباب مرجعها ما في الأنفس ، وأن الأعراض هي مجموعة المظاهر العامة (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) التي تصبغ مجتمع الأمة ، وأن المراحل هي الأطوار السياسية التي تفرزها مجموعة الأعراض ، بفعل تلك الأسباب . . .

وقد يظن ظان أن هذه قسمة عقلية افتراضية ، ينقصها الدليل الذي يؤكد مصداقيتها ، سواء كان دليلاً شرعياً من الكتاب والسنة أم دليلاً واقعياً منطقياً ، تصدقه الحوادث .

(١) انظر: جامع الرسائل ، لابن تيمية (٣٢٤/٢) وما بعدها . وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة بجواب نفيس ، وسأذكر ملخصه في البحث التالي: (فقه الخروج من الأزمة) ، بإذن الله تعالى .

وأقول: إن ذلك التمييز بينها على النحو الذي مرُّ بك ، لم يكن وليد رأي فطير ، ولا دعوى عارية من الدليل .. وإليك البيان .

لو تأملنا ثانية في الأسباب والأعراض والمراحل التي تتاب الأمم ، وهي تجمعات بشرية محكومة بسنن ثابتة مطردة ، بغض النظر عن موضوع الحديث ، وهو أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة ، فماذا نحن واجدون؟

ستجد أن القرآن يقول بوضوح:

إنَّ (الأسباب) التي تؤثر في تغير أحوال الأمم وتحولها من حال إلى حال ، أساسها ما في الأنفس من معتقدات وقيم وثقافات (١) .

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] . وقال: ﴿ذَلِكَ

يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُعْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] .

فنفى - سبحانه وتعالى - أن يكون منه تغيير لأحوال الأقوام والأمم ، الأخلاقية والاقتصادية والسياسية وغيرها . نحو الخير أو الشر ، إلا حين يحدث سبب ذلك ، وهو ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من المعتقدات والقيم والثقافات ، ومن التصورات والإرادات .

ويُفهم من الآيات أنه يستحيل أن يغير القوم ما بأنفسهم ثم لا يتغير شيء في واقعهم ؛ أي أن تغيير ما بالأنفس سبب ، وتغير الأحوال مظهر وعرض لهذا السبب . وهذا يقودنا إلى القول بأن (أعراض) تلك الأسباب ، على مستوى الأمة ، تكون سياسية واقتصادية واجتماعية (٢) ... وغيرها مما تفرزه الأنفس التي أصيبت أو تعافت في معتقداتها وقيمها وثقافتها ...

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] .

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّرَابِ لَعَلَّهُمْ

يَذَكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ

أَلَّا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا

(١) انظر: إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها ، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١١ ، ١١٢ ، بتصرف .

نَحْنُ لَكَ يَوْمَئِذٍ مُّصَلِّتُونَ * فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَاءَ ابْتِغَاءً لِمُفَصَّلَاتِكَ
فَأَسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣].

فما ذكر الله في هذه الآيات من العقوبات، كلها أعراض للسبب الأساس، وهو الكفر بالله والإعراض عن الحق، ونتائج متسببة عنه. وهذا واضح لمن تأمل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: لعلمهم يتذكرون فيرجعون إلى الله بالتوبة ^(١)؛ أي: يأتون بالسبب الموجب لتغيير الحال.

ومن تأمل قوله: ﴿فَأَسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ...﴾ الآية، أي: أصروا على السبب الموجب للانتقام والعقوبة، عتوا وتمرداً ^(٢).

وإذا تكاثرت أعراض المرض على الأمة، تحوّلت هذه الأمة تلقائياً إلى مرحلة سياسية تتناسب والحالة المرضية للأمة.. وهذا هو مبرر قولنا: إن (المراحل) تكون سياسية ^(٣)، تبدأ بتحويلات محدودة، وتنتهي إلى مرحلة اللاعودة، فاهلاك وهي - كما سبق - محصلة ونتيجة تفاعل أعراض المرض في جسم الأمة لفترة زمنية، تطول أو تقصر. وهذه المراحل ليست صورة واحدة..

فقد تكون المرحلة السياسية تحولات في أنظمة الحكم من الشورى إلى الجبرية والملك العضوض، الذي ينقل الأمة من المستوى الراجع للأمن والحرية والفاعلية إلى أضداد ذلك من الخوف والسلبية، شيئاً فشيئاً، فتزول هيبة الأمة ويهون شأنها.. كحال الأمة الإسلامية في تحولاتها السياسية عبر القرون.

وقد تعني ضروباً من الاستعمار والتسلط الخارجي والقهر والإذلال.. كما حصل لبني إسرائيل مرتين، وكما حصل للمسلمين على يد التتار في المشرق، وعلى أيدي النصارى في الأندلس.

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٨/٩).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٤٠/٩).

(٣) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١١، ١١٢.

وقد تعني المرحلة السياسية، انعدام فاعلية الأمة على مسرح الحياة كقوة ذات ثقل ووزن، بحيث تصبح مجرد تابع ذليل لغيرها، وإن كان أشخاصها موجودين . وهذا كما حدث للروم وفارس، في قرون خلت أيام قوة سلطان الإسلام ومجد المسلمين، وكحال الأمة الإسلامية اليوم .

وهذه المراحل وما شابها، يُستوحى منها انقضاء أجل مرحلة أو مراحل من عمر الأمة، مع بقاء دورة حضارية أو أكثر لها في علم الله، وهذا شيء غير انقضاء أجلها كلية .

وقد تكون المرحلة السياسية تعني انقضاء أجلها، بالنظر إليها كأمة ذات فاعلية، كحال اليهود بعد موسى ﷺ . .

وأخيراً، قد تكون المرحلة السياسية لأمة ما، دماراً شاملاً، وعقوبة استتصال . . وهذا يكون في الأمم التي قضى الله بانتهاء أجلها ووجودها، كالأمم البائدة؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأضرابهم .

وقد نبه القرآن إلى هذه المراحل في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وقوله عن بني إسرائيل: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَزَدِينَ وَلِنَعْلَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ - ٧] .

وقوله سبحانه عنهم: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ يَلْبَعْنَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَعْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَصْمَاتٍ مِّنْهُمُ الصَّلِاحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦ - ١٦٨] .

وقوله عنهم: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّكْرُ أَنْ مَا تَقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ إِيمَاعَصُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقوله سبحانه عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦].

ونلاحظ في هذه الآيات، أن القرآن يدمج الأسباب بالأعراض في الفاظ عامة ﴿إِيمَاعَصُوا﴾ كانوا يكسبون ﴿﴾، ﴿لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ﴿ذَلِكَ إِيمَاعَصُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾... ويضعنا أمام المرحلة وجهاً لوجه، وفي هذا تنبيه إلى أن هذه المرحلة أو تلك كانت محصلة ونتيجة اجتماع الأسباب، وما تفرع عنها من أعراض مختلفة.

«ويحتاج العاملون في ميادين (إخراج الأمة) ورعايتها إلى التمييز بينها على النحو الذي ذكر.. وأي خلط بينها يتسبب في الاضطراب والارتباك في ميادين التربية والدعوة والمعالجة، فيشتغل المعالجون بالأعراض بدل الأسباب.. أو يخطئون في ترتيب الأسباب والمراحل، أو يخطئون في استعمال وسائل العلاج وطرقه، أو يخطئون في توفير المؤسسات اللازمة لذلك، وهكذا»^(١).

وإلى هنا نكون قد تبينا جوهر أزمة الأمة المتمثل في ضعف الإيمان الصحيح، وضعف العالم النافع. وعرفنا ما تولد منهما من الهزيمة النفسية وضعف الإرادة الجازمة، وانحسار الوعي وضموره لدى جماهير الأمة المسلمة.

وأن هذا المزيج المسيخ كان الأرض التي أنبتت هذا الواقع المرّ، وأفرزت كل ما رأينا ورأى الناس من فساد وانحطاط في الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، ومن تناقضات وضلالات في التصورات والمفاهيم.

وأقمنا منارات يهتدي بها الناظر في (لجة الأزمة) فيميز جنس الأسباب (بؤرة الأزمة) من (أعراضها) ومظاهرها، وبالتالي من (مراحلها) وأطوارها.. على مستوى الأمة.

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني، ص ١١٢، بتصرف.

وبقي أن نطل إطلالة على (واقع الأمة الإسلامية المعاصرة) ؛ لنقرأ شيئاً من مشاهد (الأزمة) التي تصورنا من قبل أسبابها وأعراضها ومراحلها ..

وهي مشاهد - بل صور سريعة خاطفة - من واقع حياة الأمة في الوطن الإسلامي الكبير، تبدو في صورة قرار سياسي، أو بعثة علمية! أو فتوى شرعية! أو تظاهرة شعبية، أو إصلاح وتطوير لمؤسسات رسمية، وأحياناً فئات فردية أو جماعية في قضايا فكرية أو اجتماعية أو اقتصادية، تجري مجرى المسلمات! وربما كانت شهادة من هنا أو هناك ... إلى آخر ما هنالك .

ولقد تبدو - كما ستلاحظ - وكأنها حوادث فردية أو قُطرية، ولكنها كانت كقطرات الماء النازل من السماء، تبدو صغيرة جداً، ثم ما تلبث أن تكون سيلاً عارماً تجري منه الأودية، ويغمر القرى ويهدم المنازل والدور ..

وهي مشاهد ومواقف ولدت وترعرعت في ظل الهزيمة النفسية والخسار الوعي الإسلامي، فهي متشابهة في منزعها وسببها، وإن اختلفت في ظروفها ونوعيتها . ومن هنا، فليست حوادث فردية - بالمعنى الضيق - ولكنها إفرازات واقع فكري وثقافي مسيطر، وإيجاءات نفسية معبّرة . وهذا هو التواتر المعنوي، الذي يرقى - لقوته - إلى مستوى الإلزام العقلي بصحة ما يدل عليه .

وفي الصفحات التالية سأعرض لبعض الأمثلة على نحو ما ذكرت لك .. وأبدأ الحديث عن الظروف والملابسات الفكرية والسياسية التي كان العالم الإسلامي يعيشها، وعن مواقف الأمة تجاه هذه الأوضاع والظروف .. ومن المناسب أن أستهل الحديث بطرح التساؤل التالي:

على مدى قرنين من الزمان، كم نسبة الذين تولوا قيادة الأمة الإسلامية من غير العلمانيين والاشتراكيين والقوميين .. وأضرابهم من المستغربين، ممن تاجروا بمبادئ الأمة وثرواتها وبلادها وطاقت أبنائها .. لقاء ثمن بخس يصيبونه؟!!

كم نسبة القيادات الرشيدة التي رفعت بدين الأمة رأساً، وأقامت للعدل في رعاياها سوقاً؟!!

كم نسبة هؤلاء إلى أولئك في طول العالم الإسلامي وعرضه .. على مدى قرنين من الزمان؟!!

كم هي حصة القوانين والأنظمة والتشريعات التي أسهمت في حماية معتقد الأمة وأخلاقها وسلوها ، إلى تلك التي كرسَتْ غُربتها وتغريبها وتخريبها ؟ .

قد تعجز أن تستخرج عدد أصابع اليد الواحدة من هذا الكم الهائل من القيادات ، مهما كنت متساعماً في الاختيار . وقد لا تجد من التشريعات ما تفاخر به إن كنت وطيناً ، فضلاً عن أن تكون إسلامي الهوية .

إن سجل القيادات السياسية في العالم ، بدءاً بمحمد علي ، ومروراً بمصطفى كمال .. وانتهاؤه بجمال عبدالناصر والجيل المعاصر الذي يتقلد أمور المسلمين اليوم ، أكثره سجل خيانات متتابعة ، وحرب على الإسلام لا هوادة فيها . وإن خلط بعضهم عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وسجل الشعوب الإسلامية بعلمائها ومفكرها وعمتها تجاه هذا الوضع الغريب ليس أقل سوءاً .. إنه سجل يكشف مدى الغفلة القاتلة ، أو النفاق المفضوح .. وكلاهما داء دوي وبلاء مُمض .

لقد صنعت الشعوب ، بمعونة علمائها وقادة الفكر فيها أبطالاً عليها ، وبررت مظالمهم ، وصمتت عن جرائمهم .. وما زالت تمارس ذلك .

بل لقد تجرأت علوج المستعمرين أن يطرحوا أنفسهم على أنهم أئمة نصحة ، وبارك ذلك من باركه!

وأمة هذا منطقتها وموقفها من مثل هذه القضية الجوهرية ، على مدى قرنين ، أمة تحتاج إلى بناء جديد ، وأن تسري في شرايينها دماء جديدة .. أمة تحتاج إلى بعث من جديد .

ولعل صنائع الفرنسيين في مصر وأهل مصر .. ومواقف بعض العلماء يومها وطغام الناس وعوامهم من ذلك ، يكشف عن كثير من أحوال الأمة ، ويوقفنا على مكانم الداء فيها ، فإن مصر كانت هي بوابة العالم الإسلامي ، كما سبق بيان ذلك .. ولناخذ بعض الأمثلة على ذلك:

* الفرنسيون ومرسوم الإسكندرية:

وهو مرسوم كتبه الفرنسيون إبان دخولهم الإسكندرية ، وطبعوه ووزعوه على البلاد .. وصورة ذلك المكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ..

يا أيها المصريون ، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه! وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من أيدي الظالمين . وإنني أكثر من الممالك أعبد الله - سبحانه وتعالى - ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم (!) وقولوا لهم أيضاً: إن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يمتلكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء .. فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للممالك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى (!) من الآن فصاعداً لا يأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور ، بذلك يصلح حال الأمة كلها .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة ... وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم: إنَّ الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون (!) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام (!!). ومع ذلك ، الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني ، وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه (!!). ومع ذلك الممالك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممثلين لأمره^(١)!

ولما حلَّ بالناس البلاء والكرب بعد معركة بشتيل - بلد مجاور لإمبابة - وهزيمة الممالك والمصريين ... «اجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج ينتظروا ما يكون من جوابهم ، فأرسلوا رسولين .. فغابا وعادا فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة .. فقال: وأين عظماؤكم ومشايخكم ، لِمَ تأخروا عن الحضور إلينا ، لترتب ما يكون لهم فيه الراحة؟ وضمنهم^(٢) ويش في وجوههم .. وطلبنا منهم أماناً ، فذكروهم الكتاب الأول الذي آمنوا فيه الناس .. ولما طلبنا منهم أماناً آخر كتبوا لهم أيضاً ، وأخبروهم أنهم لم يأتوا إلا بقصد إزالة الممالك الظالمين .. وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية ، فيكونون مطمئنين ، وفي مساكنهم مرتاحين .. ولما رجع الجواب بذلك ، اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجزيرة ، فتلقاهم

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، للجبرتي (٢/ ١٨٢ ، ١٨٣) .

(٢) لعل صوابها: «وضمنهم ويش في وجوههم» .

وضحك لهم ، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال: لأي شيء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية ، وإجراء الشريعة (!!)^(١) .

هذا بعض ما فعلوه مع العلماء بخاصة . . بل لقد تمكّنوا بدعائهم - وعلى حين غفلة من علماء المسلمين - من استصدار خطاب إلى جميع أهل مصر ، باسم (عقلاء الأنام علماء الإسلام) وغيرهم ، يعلمونهم فيه «أن حضرة ساري عسكر الكبير بونا بارتة أمير الجيوش الفرنسية صفح الصفح الكلي عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد . . من الفتنة والشرّ مع العساكر الفرنسية (!!) وأنه انتخب أربعة عشر شخصاً ، أصحاب معرفة وإتقان ، خرجوا بالقرعة من ستين رجلاً . . وذلك لأجل قضاء حوايج الرعايا ، وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام . . كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه بمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره (!!) وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا وقتل منهم اثنين . . وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام ؛ لأنّ الخيانة ليست من عادة الفرنسيين ، خصوصاً مع النساء والأرامل ، فإنّ ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس (!!) ووضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكّاس ؛ لأنّه بلغه أنه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس ، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ، ومُرّاده رفع الظلم عن كامل الخلق . . فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ، واتركوا الفتنة والشُرور (!!) ، ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة»^(٢) .

وإذا كان هذا وأمثاله ، صدر عن بعض من أسماهم (عقلاء الأنام علماء الإسلام) فإنّ اللسان يتعقد عن وصف مأساة الأمة ونكبتها على أيدي أمثال هؤلاء ، ومبلغ الغفلة وغيبوبة الوعي ، التي كانوا يتمتعون بها .

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/١٩٢ ، ١٩٣) باختصار وتصرف .

(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/٢٤٧ ، ٢٤٨) باختصار وتصرف . وقد أدرك الفرنسيون بذكائهم ، نقاط الضعف في المسلمين ، وفهموا لهجة الخطاب التي تنزع من قلوب المسلمين فتيل الحقد والكراهية ، وتستدر عواطفهم بالجان لصالح جلاذيتهم ومصاصي دمايتهم! وانظر: كتاب الفرنسيين إلى أهل العريش وغزة في السابق (٢/٢٥٥) . وما جاء فيه: «... وقصدنا أنّ القضاة يلازمون خدمتهم ووظائفهم على ما كانوا عليه ، وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معتزلاً ومعتبراً (!!) والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين ، إذ كل خير يأتي من الله تعالى ، وهو يعطي النصر لمن يشاء...» . وفي كتاب أهل غزة: «بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا عدوان إلا على الظالمين...» . وفي آخره: «... فاستقيموا - عباد الله - وارضوا بقضاء الله ، وتأذّبوا في أحكام مولاكم الذي خلقكم وسواكم ، والسلام!!» فالله المستعان .

وإن كان هؤلاء الذين صدر باسمهم هذا الخطاب من جملة الأعداء، فكيف يتكلمون باسم العلماء، وكيف تخفى حالهم على جماهير الأمة؟!
والخلاصة: أن ما جرى، ما هو إلا سذاجة مفرطة، أو هزيمة نفسية منكرة.. أو هما معاً!

وقد تسأل عن حال العامة، فأقول: إن أمرهم لأهون في عين أعدائهم! فما هو إلا أن مشى الفرنسيون (في الأسواق من غير سلاح.. وصاروا يضاحكون الناس ويشترتون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريال فرانسة، ويأخذ البيضة بنصف فضة، قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم^(١). فلما رأى منهم العامة ذلك، أنسوا بهم واطمأنوا لهم (!!) وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات، وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار (!) وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهواوي^(٢).

وإذا كانت تلك مواقفهم من المستعمرين النصارى، فما الظن بمواقفهم من بني جلدتهم من العلمانيين الليبراليين والاشتراكيين وسائر الانتهازيين؟!
ولعل في ألقاب التبجيل التي أضيفت على أمثال محمد علي ومصطفى كمال وجمال عبد الناصر وصدام حسين وأضرابهم.. ما يكشف لنا طبيعة المأساة المرة التي تعاني منها الشعوب الإسلامية وقياداتها العلمية والفكرية.

ولعل في سرقة ثمرات جهاد الشعوب الإسلامية بعد طول التضحيات من قِبَل حفنة من سماسرة الاستعمار وصنائه.. ما يكشف جانباً آخر من تلك المأساة..

فجهاد الشعب المصري ضد الفرنسيين، الذين حاول نابليونهم حكم مصر بالقانون الفرنسي، لم يُعِدَّ الشريعة إلى مكان الصدارة! واستمرت الفرنجة على يدي أبناء محمد علي^(٣).

(١) أقول: وهناك أمرٌ آخر، وهو: أن يجبروا أنفسهم إلى الناس ويخففوا عما قد يكون في نفوس الأهالي من كراهية تجاههم، ويطمعواهم بالدرهم والدنانير، وهي أعظم ما استُعِدَّت به قلوب العامة الغرغاء، ويشهد لهذا: ما ذكره الجبرتي من حال العامة معهم بعد. وقد رأينا في حرب الخليج الأخيرة عام ١٩٩٠م، شيئاً من ذلك، في المناطق التي تواجد فيها النصارى بهذه المناسبة. وهي سياسة ذكئة يسلكها من يحتاج إلى اصطياذ قلوب العامة وتآلفهم، وقد أكدها الجبرتي في تاريخه في أكثر من موضع. انظر: (١٩٥/٢).

(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (١٩٣/٢، ١٩٤).

(٣) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (١٩٣/٢، ١٩٤).

وجاء الإنجليز، فنحوا الشريعة وحكموا البلاد بقانون نابليون، دون ثورة تذكر من جانب الشعب على هذا الإجراء!

وجاء أستاذ الجيل! ليرت على أكتاف المسلمين في مصر، كي يتقبلوا هذا الوضع الجديد.. جاء ليقول في جريدته: «إن الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر! ولا ينبغي أن نحاربهم ونقاومهم! إنما واجبتنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات»^(١)!

ولما قامت الثورة عام ١٩١٩م على الإنجليز بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت قد قامت لأسباب متعددة، أهمها: عزل مصر رسمياً عن دولة الخلافة بعزل الخديوي توفيق.. لما قامت الثورة كانت ثورة إسلامية يقوم بها شعب مسلم، وكانت تنطلق من الأزهر..

ثم ماذا؟ ثم يكون بطلها المتوج سعد زغلول.. سعد الذي قال لمحمود باشا؛ إذ استوقفه الأخير وسد أمامه الطريق وقال له: «إن الشعب يغلي.. ولا بد أن يصنع شيئاً! فردّ عليه سعد: وماذا نصنع والحماية معلنة على البلاد؟!»^(٢).

إنها ثورة نابعة من ذات الشعب (ومن الأزهر على وجه الخصوص)، ولم تكن بوحى من سعد زغلول، ولكن سعداً ركب الموجة واستغلّ الثورة!

ومما يدلّ دلالة شبيهة قاطعة على ذلك، ما جاء في تقرير مطول كتبه (النبّي) القائد البريطاني الذي مكث شهراً في مصر يدرس أحوال الثورة، وكان مما جاء فيه: «إن الثورة تنبع من الأزهر، وهذا أمر له خطورته البالغة». وجاء فيه: «أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة»... وعاد سعد زغلول ليقول: الدين لله والوطن للجميع^(٣)!

وثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت تُعرّف بثورة المليون شهيد! يسرق ثمارها أناسٌ لم تعرفهم الأمة في ساحات الجهاد، ولم تشهد لهم بالصلاح، ولا حتى بالوطنية! ويطارد أبطال الجهاد وقادة الأمة من العلماء بيد الأمة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لمصلحة الحزب الحاكم!

(١) واقعنا المعاصر، ص ٣٠٥. وأستاذ الجيل: لَقَّبَ أضنفيَ على/لطفني السيد، لأنه كان أستاذاً لجيل من الزعماء أمثال:

محمد عبده، وقاسم أمين، وسعد زغلول! انظر: واقعنا المعاصر، ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٣٢٠، ٣٢١.

ويكاد الجهاد الأفغاني - وهو جهاد بزم ما سبقه - أن تكون نهايته مؤسفة ، وأن يقطف ثمرته من كان يترصد بالشعب الأفغاني المسلم الدوائر ، ونسأل الله أن يحميه من نهاية كنهاية سوائفه .

أما في مجال التدين ، على المستوى الفردي ، وعلى مستوى المذهبية السائدة ؛ فقها وعقائديا .. فقد استمر التقليد المذهبي على نطاق واسع ، وازدهرت الطرق الصوفية ، وبقيت رسومها ومزاراتها ، بل لقد جدد الاستعمار ما اندرس منها ، وشجع عليها . حتى أصبح التدين الرسمي في معظم أرجاء العالم الإسلامي تدينا صوفيا . وصار التجديد والاجتهاد بمثابة الشذوذ ، والدعاة إليه غرباء خارجون على الدين الرسمي ! .

على أننا ينبغي أن نعلم جيدا أن الأمة الإسلامية ، طوال أزمتها المعاصرة ، لم تكن كلها على ما وصفت لك من انحسار الوعي والهزيمة النفسية .. ولا أدلّ على ذلك من قيام تلك الحركات الجهادية لطرد المستعمرين في كل مكان ... وتلك الحركات الإصلاحية التي تحوّلت فيما بعد إلى تيارات واعية ، استعصت على التحييد والتجاهل ، وقاومت الكيد بكل أشكاله .

ولكن الذي قصدتُ إلى بيانه ، هو: أن الدولة في الأمة الإسلامية اليوم ، ومنذ قرنين على الأقل ، لم تكن - في معظم البقاع - تنطلق من هدي الشريعة أو تحتكم إليها ، وأن الشعوب الإسلامية - في معظمها - كانت دون مستوى الإدراك لحجم المؤامرة وشراسة الهجمة ، ولهذا كانت وقودها من حيث تشعر أو لا تشعر .. وهنا تكمن (الأزمة) .

ومن الجانب السياسي إلى الجانب الفكري من جوانب (أزمة الأمة) ...

وهو خطير ومشعب ، ولكن سأقف على أمثلة محدودة ، تكشف عمق الجهل والسطحية ، وتؤكد روح الهزيمة النفسية والتبعية الفكرية الوقحة ...

إنّ الأمة الإسلامية - طيلة قرونها المنصرمة - كانت تعرف جيدا من هي ، وماذا تريد .. لقد كانت إجابة ربي بن عامر ^(١): «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» لقد كانت

(١) هو: ربي بن عامر بن خالد بن عمرو ، كان من أشرف العرب ، ولاء عمر بن الخطاب ؓ مجنبة الجند تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح ؓ في العراق ، وله ذكرٌ في غزوة نهاوند ، وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان ، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة . انظر: الإصابة (١٩٤/٢) .

تلك الإجابة حاضرة في أذهان المسلمين - في عمومهم - كأفراد، فضلاً عن المسلمين بالنظر إليهم أمة ودولة . . .

و«إن هذا السؤال الوجودي: مَنْ نحن؟ وماذا نريد؟ لم تطرحه الأمة، ولم تعرفه في تاريخها الحديث كله؛ لأنها كانت تعرفه، وإنما هو سؤال النخبة المتغربة، التي تحببت في البحث عن (هوية) من الفرعونية أو الآشورية أو البربرية أو القومية العنصرية اللاتينية، تعامياً عن الحقيقة الكبرى في الزمان والمكان؛ حقيقة الإسلام، أمّا الأمة فقد طرحت سؤالها المحوري الكبير، الذي سجّله شكيب أرسلان^(١) في كتابه «لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟!» .

السؤال لم يكن: من نحن؟ وإنما كان: لماذا حدث بنا (نحن) هذا التخلف؟^(٢) .
وفرق كبير بين السؤالين .

إنّ هذه النخبة، بما تحملها من جهل عميق بالإسلام، وهزيمة نفسية يسندها ضعف الإيمان، هي التي صنعت (الأزمة الفكرية)، وشوشت مفاهيم الإسلام، مباشرة عن طريق التلمذ والاقتراء، أو بواسطة الترجمة، والسرقة الفكرية . . وكانت (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد الإسلامية^(٣) .

وحتى لا نفتتت على الواقع الفكري الذي تخلّق في زمن الأزمة، نقل وصفاً دقيقاً للكيفية التي صنعت بها (النخبة المثقفة) في بلاد آسيا وأفريقيا، وفي ديار العرب والمسلمين، والوظيفة التي تؤديها، بقلم جان بول سارتر . وهو غير متهم فيما يقول .

يقول فيه: «كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في أمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس، فتغير ملابسهم ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة، ويرتدون السترات والسرراويل، ويتعلمون منا طريقة جديدة في الرواح والغدو والاستقبال والاستدبار، ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا، وكنا ندبر لبعضهم زيجات أوروبية، ثم

(١) هو: الأمير شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة الشوخيين ملوك الحيرة، عالم بالأدب والسياسة، مؤرخ من أكابر الكُتاب، ينعت بـ «أمير البيان»، عالِم السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية، وتناول شتى القضايا العربية والإسلامية، وله مشاركات وتأليف متنوعة، تنقل في البلدان، وتقلد عدّة مناصب، وألقى عصا التسيار في لبنان، وبها توفي سنة (١٣٦٦هـ) . انظر: الأعلام (١٧٣/٣) .

(٢) دفاع عن ثقافتنا، للكاتب/ جمال سلطان، ص ٤٢، بتصرف .

(٣) هذه الكلمة لـ «جان بول سارتر»، كما سترى في النص التالي . انظر: دفاع عن ثقافتنا، للكاتب/ جمال سلطان، ص

نلقنهم أسلوب الحياة على أساس جديد، وطرز جديدة من الزينة واستهلاك أوربي جديد وغذاء أوربي، كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في (أوربية) بلادهم، ثم نرسلهم إلى بلادهم، وأي بلاد؟ كانت أبوابها مغلقة دائماً في وجوهنا، لم نكن نجد منفذاً إليها، كنا بالنسبة لها رجساً ونجساً وخناً، كنا أعداء يخافون منا، وكأنهم همج لم يعرفوا بشراً، لكننا بمجرد أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم، كنا بمجرد أن نصيح في أمستردام أو برلين أو بلجيكا أو باريس، قائلين: «الإخاء البشري»، نرى أن رَجْع أصواتنا يرتد من أقاصي إفريقيا أو فج من الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى أو شمال أفريقيا. ثم إننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها، غير ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسب! بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم، هذا هو دور المفكر الذي يتشكّل بالشكل الأوربي، ويلعبه في الدول الإسلامية، دور (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد التي لم يكن يعرفها أو يعرف لغاتها، وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والفكرية، المسمة للاستعمار الغربي داخل هذه الأشجار المورقة الأصلية، هذا هو السوس الذي كنا قد صنعناه وسميناه بـ (المفكرين)، كانوا عالمين بلغتنا، وكان قصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا، في حين أنهم أشباهنا وليسوا مثلنا، إنهم نخرروا من الداخل ثقافة أهليهم وأديانهم القومية التي تصنع الحضارات، ومثلهم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية، وتحت أي شعار وبأي اسم؟! باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية، أو الوقوف ضد السلفية»^(١).

وهذا الكلام يأتي على معاهد الأزمة الفكرية، وما تمخض عنها من ويلات.

وقد تتبع جذور هذه الأزمة عدد من الكُتّاب والباحثين، أمثال الدكتور محمد حسين^(٢)، والأستاذ محمد قطب^(٣)، والكاتب جمال سلطان في عدد من كتاباته^(٤)، وغيرهم كثير^(٥).

(١) دفاع عن ثقافتنا، جمال سلطان، ص ٤٢، بتصرف يسير.

(٢) ومن كتبه في هذا المضمار: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين»، و«أزمة العصر».

(٣) ومن كتبه الرائعة في هذا الصدد: «واقعتنا المعاصرة».

(٤) ومنها على سبيل المثال: «غزو من الداخل»، و«دفاع عن ثقافتنا»، و«جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث».

(٥) انظر مثلاً: أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للدكتور/محسن عبد الحميد.

ولنقرأ أ نموذجاً من نماذج الأزمة الفكرية والغربة الثقافية والفكرية عن الإسلام ، وهو اعتراف أدلى به كاتب ومفكر يحتل مركزاً مرموقاً بين الكتاب ، وله حضور ثقافي في ساحة الفكر العربي المعاصر! وهو اعتراف على نفسه ، وشهادة على ألوف من أمثاله ، كما سترى!

لقد عبّر الدكتور زكي نجيب محمود عن هذه الحقيقة بصراحة كاملة بعد أن جاوز الستين من عمره ، فقال: «لم تكن قد أتيت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي (!) على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد ، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني لا فكر سواه (!) لأنّ عيونهم لم تفتح على غيره لتراه . ولبت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام . الفكر الأوربي دراسته وهو طالب ، والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ . وكانت أسماء الأعلام والمذاهب لا تحيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين .

ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ، فلقد فوجئ وهو في أنضج سنه بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ليست هي ، كم أخذنا من ثقافات الغرب ، وكم ينبغي لنا أن نزيد! إذ لو كان الأمر كذلك ، لكان . فما علينا عندئذٍ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رصدت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين .

لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة ، وإنما المشكلة على الحقيقة ، هي كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد ، الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره نفلت منا عروبتنا أو نفلت منها»^(١) .

وفي موضع آخر يصور الكاتب نفسه الكيفية التي تمت بها معانقة الفكر الإسلامي ، وهي تكشف جانباً آخر من جوانب أزمة الفكر في حياة الأمة . .

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام ، للدكتور/عبد الحميد ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، نقلاً عن كتاب «تجديد الفكر العربي» ، للدكتور/زكي نجيب محمود ، ص ٥ ، ٦ ، المقدمة . ونلاحظ لوعة الثقافة الغربية في أكثر من موضع من كلامه ، خصوصاً قوله في آخر النص المنقول: «... وبين تراثنا الذي بغيره نفلت منا عروبتنا أو نفلت منها!»

يقول: «.. استيقظ صاحبنا كاتب هذه السطور بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان، كأنه سائح مرٌ بمدينة باريس، وليس بين يديه إلا يومان، ولا بد له خلاهما أن يريح ضميره بزيارة اللوفر، فراح يعدو من غرفة إلى غرفة، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل»^(١).

هذا كلام فيلسوف الوضعية المنطقية في العالم العربي، كما يُسمى^(٢). والاعتراف سيد البيئات!

وأمثال هؤلاء المفكرين هم الذين أفسدوا على الأمة فكرها، وشوهوا في عيون ملايين المسلمين كل شيء يتصل بالإسلام.. وجرجروا الأمة في متاهات الغرب والشرق، ونقلوا الأزمة برمتها وأسقطوها على الإسلام، خصوصاً إذا تكلموا باسمه مدافعين عنه، أو تكلموا عنه مفسرين له^(٣).

«إنّ مئات الدراسات الجامعية وغير الجامعية، وعشرات المجلات الفكرية والدوريات العامة كانت تمشي في خطين متوازيين:

أولهما: تجاهل الإسلام تجاهلاً كاملاً.

ثانيهما: الجهل المركّب به وبمضارته وقضاياه.

كان الناس يقرؤون - على سبيل المثال - في كتب الاقتصاد، في الجامعات وغيرها، كل شيء حول الاقتصاد ومذاهبه وتاريخه، دون ذكر أي شيء عن الاقتصاد الإسلامي، علماً ومذهباً وتاريخياً، وإن ذُكرَ فيذكر على جهل مركّب وسخرية واستهزاء!

لقد سئِلَ أحد أكابر الاقتصاديين العرب الماركسيين في قاعة إحدى الجامعات العربية عما يعرفه حول الاقتصاد الإسلامي، فأجاب: «لم أقرأ حول هذا الموضوع أي شيء».

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، للدكتور/ محسن عبد الحميد، ص ١٤٣. عن كتاب «تجديد الفكر العربي»، للدكتور/ زكي نجيب محمود، ص ٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٤٢، وانظر: اعترافات أستاذ الفلسفة في جامعة الكويت، الدكتور/ فؤاد زكريا، بفشل العلمانية في العالم الإسلامي، وأنها جسم غريب وافد... في: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥ وما بعدها... وهذا الدكتور، هو أحد أساطين العلمانية وروادها. ومن المؤسف أنّ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وجّهت إليه الدعوة لصياغة المخطط العربي الثقافي لمواجهة (الغزو الثقافي)! انظر: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥. وإنّ تعجب من شيء، فأعجب لعلماني فتح يصوغ مخططاً لمواجهة الغزو الثقافي!

لا يُلام الذئب في عدوانه إن يك الرامي عدو القتم

(٣) وأتمنى على كل مسلم أن يطالع كتابات أمثال الكتاب الذين ذكرتهم قبلاً، وخصوصاً كتابات: جمال سلطان، بحكم كونها هي الأيسر والأخصر، فهي تقربُ إلى الأذهان آخر تطورات الانحراف الفكري، وما جدّ من مظاهره.

وسئلاً آخر، فأجاب مستهزئاً: «أستطيع أن أقول: إن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد رأسمالي بدائي».

وعندما سأله الطلبة أن يعطيهم بعض المصادر حول الاقتصاد الإسلامي، قال: تستطيعون مراجعة كتاب الخراج لأبي يوسف^(١).. وعندما وُجِّهَ ببعض المراجع الحديثة في هذا الموضوع، قال: «أنا أدرّس الاقتصاد وليس الدين!»^(٢).

وهذا الجهل المركّب في ظل النفسية المهزومة، هو الذي جعل من أمة الإسلام اليوم ميداناً لاستعراض سقط النصارى واليهود والوثنيين، على كل صعيد..

فقد اكتسحت العالم الإسلام موجة القوميات.. ثم شاعت الروح الليبرالية، ثم انحسر ظلها عن بعض المناطق إبان زخم الاشتراكية والقومية، ثم عادت حلّيمة إلى الليبرالية! دون أدنى مرر منطقي لهذه أو تلك، إلا رجع الصّدَى وتقليد البيغاء، بفعل تنوع الولاء، وتبدّل الأولياء. على حد قول الشاعر الجاهلي:

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدناي

وإن أردت أن تعرف مبلغ جهل جمهور الأمة، وأنها مجرد صدى ممحوج لسقط الأفكار والمذاهب الأجنبية، فهناك هذا المثال، الذي يقص علينا قصة (القومية) التي طوحت بدين الأمة ووحدتها، وكرست الإلحاد والعلمانية.. فما قصة القومية؟

يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «لقد ظهرت النزعة القومية العنصرية أول ما ظهرت في البلاد العثمانية في ستينات القرن الميلادي الماضي، عندما احتكت الدولة العثمانية بألمانيا.. وبدأت البعثات العسكرية والثقافية تتقاطر على ألمانيا، التي كانت تعيش يومئذٍ الحالة القصوى في العصية للجنس الجرمانى، نتيجة لظروفها السياسية والأخطار العسكرية التي تهددها من الخارج، فرجع المبعوثون الأتراك وهم مشحونون بالإعجاب الكبير لحركة القومية الألمانية ومظاهر الحضارة الغربية، ليشكلوا نواة الحركة الطورانية العنصرية التي تحوّلت بعد سنوات قليلة إلى حركة (تركيا الفتاة) ثم إلى (الاتحاد والترقي) التي انسلخت من الرابطة الإسلامية، ودعت إلى إلغاء الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الأوروبية محلها.

ثم تبنت بعنف سياسة التتريك (بعد خلع السلطان عبد الحميد)، واضطهاد الشعوب التي كانت تحت لواء الدولة العثمانية، لاسيما العرب، والاستعلاء عليها،

(١) الإمام، المجتهد، والمحدث، صاحب أبي حنيفة، يعقوب بن إبراهيم، الأنصاري، الكوفي. كان أبوه فقيراً، فكان أبو حنيفة يتعاهده بالدرهم مئة بعد مئة. قال الإمام أحمد: «وكان أميل إلى الحديث من أبي حنيفة ومحمد». وثقه النسائي، وقال أبو حاتم: «يكتب حديثه». توفي سنة (١٨٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥٣٥/٨).

(٢) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ١٤١، ١٤٢. وانظر: مزيداً من الأمثلة في: أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للمؤلف، ص ٥٢ وما بعدها، ٨٠ وما بعدها.

الأمر الذي أدى إلى حركة رد فعل قوي عند الشباب العرب المتأثرين بالثقافة الأوروبية... وانتهت حركة القومية العربية العلمانية الحديثة إلى سلوك خط معارض للإسلام من حيث هو عقيدة وشريعة وسلوك، بل حاول مفكروها أن يوجهوها بحيث توضع ديناً، بدل دين الإسلام، فهذا أحد هؤلاء يقول:

«القومية بالنسبة إلينا - نحن القوميون العرب - دين له جنته وناره، ولكن في هذه الدنيا».

إن الحركة الطورانية العنصرية التركية، وحركة القومية العربية، كان لهما تأثير كبير في دفع الأكراد.. إلى التفكير في قوميتهم... ومن هنا فإن المتطرفين من القوميون الأكراد دعوا قومهم إلى الانسلاخ من الإسلام عقيدة ولغة وحضارة»^(١).

ألا يدل هذا المسلسل الذي كان أوله مجرد (إعجاب) من (فتة).. فانتهى إلى أعظم رزية تحمل بالعالم الإسلامي، بواسطة (ردود الأفعال).. ألا يدل ذلك على مبلغ الخواء والغفلة والهزيمة النفسية التي حاقت بأمة الإسلام؟ بلى.. وقديماً قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وعلى صعيد آخر، يمكن أن نتبين مهزلة مسلسل الفساد الاجتماعي لو تتبعنا قصة البعثات العلمية! التي انطلقت من مصر إلى أوروبا، لأغراض علمية، فنسيت أهدافها واستبدلت بها أهدافاً أخرى!

كيف ظهرت بواكير هذا الفساد والانحراف الاجتماعي يوم رجعت أولى تلك البعثات إلى أرض مصر، إذ كتب إمام الحملة ومفتيها رفاة الطهطاوي^(٢) رأيه في المرأة والحجاب... كتب يقول: «إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة»^(٣).

ثم واصل المشوار قاسم أمين، الذي «اطلع قبل ذهابه إلى فرنسا على رسالة مستشرق يتهم الإسلام باحتقار المرأة وعدم الاعتراف بكيانها الإنساني. وغلى الدم في عروقه، كما يصف في مذكراته، وقرر أن يرد على هذا المستشرق ويفند افتراءاته على الإسلام. ولكنه عاد بوجه غير الذي ذهب به!»^(٤).

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ١٢٩، ١٣١.

(٢) رفاة بن رافع الطهطاوي، تعلم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، تعلم الفرنسية، وله كتب، منها: تعريب القانون المدني الفرنسي، وتلخيص الإبريز، وهو في رحلته إلى فرنسا. توفي سنة (١٢٩٠هـ). انظر: الأعلام (٢٩/٣).

(٣) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، ص ٨٦، عن كتاب: الطهطاوي «الأعمال الكاملة» (٢/٢٥٨).

(٤) واقعتنا المعاصر، ص ٢٥٠.

إنه الجهل العميق بمخاتق الإسلام وتعاليمه، وإنها الهزيمة النفسية التي زلزلت النفوس وأسلمت قيادها لكل غاد ورائح .

ولا أريد المُضي في استعراض الأمثلة على مظاهر أزمة الأمة ^(١)، فليست مقصودة لذاتها، وإنما ذكرت منها ما ذكرتُ على سبيل التمثيل؛ حتى يكون من يتصدى لإصلاح الأمة والخروج بها من هودتها، على بينة من حالها بمختلف شرائحها وطبقاتها .

وفقه السنن يقتضي من العاملين في مجال الإصلاح وتخليص الأمة، تتبعاً دقيقاً وتفصيلاً واعياً لمختلف أبعاد الأزمة، ومعرفة بداياتها وما انتهت إليه؛ لضمان سلامة الحلول المقترحة لها . .

وإن من تمام تصور الواقعة، ومن الأمانة في تصوير حال الأمة الإسلامية، أن تذكر الجوانب المضيئة، وأن تقوّم الأعمال النافعة بقيمتها الحقيقية دون مبالغة أو جفاء، وهي كثيرة ولها آثار ملموسة . .

فهناك الحركات والجمعيات الإصلاحية، ما بين دعوية وجهادية، وثالثة تجمع بين الدعوة والجهاد، على ما بينها من تفاوت في مناهجها وأهدافها .

وتلك كان لها أعظم الأثر في الإبقاء على روح الانبعاث الإسلامي بين الحين والحين ^(٢) .

وهناك القيادات العلمية والشعبية، كخطيب الجمعة وأستاذ الجامعة، والمصلح الاجتماعي، والمعارض السياسي . . وهناك البطولات الفردية، كذاك الفتى الذي قتل الجنرال (كلير) قائد الجيش الفرنسي، والحاكم العام في مصر بعد عودة نابليون إلى فرنسة ^(٣) .

وقد كان لها أثرها في توجيه الأمة نحو مقاومة تيار الفساد، وتوعيتها بالمخاطر المحدقة بها ^(٤) .

(١) ويمكن الرجوع إلى المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث، ففيه عرض لجوانب من واقع الأمة المعاصر .
(٢) وهي كثيرة، وعلى رأس هذه الحركات وفي مقدمتها: الحركة التصحيحية التي قادها الشيخ المجدد/ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في نجد . وهناك الحركة السنوسية، وجمعية العلماء المسلمين في المغرب العربي، والمهدية في السودان، وهناك الحركة الإصلاحية التي قادها/ جمال الدين الأفغاني وتلميذه/ محمد عبده في مصر، ثم كانت حركة الإخوان المسلمين في مصر أيضاً، والجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وفي باكستان .

(٣) هو: سليمان الحلبي، وقد قتلوه شرّاً قتلًا ومثلوا به، وكان ذلك سنة (١٢١٥هـ) . انظر: الأعلام (٣/١٣٣) .
(٤) وهي قيادات كثيرة لا يمكن حصر أشخاصها، وإن كان تأثيرها في أوساط الأمة يتفاوت تفاوتاً كبيراً، وتفاوت أشخاصها يرجع إلى أسباب كثيرة، منها: تفاوت مواهبهم وقدراتهم، وطبيعة الظروف التي عاشوها، ونوع العمل الذي قاموا به، والمنهج الذي ساروا عليه . . إلى غير ذلك .

وهناك الحسن الإسلامي ورصيد الفطرة المخبوء في ضمائر المسلمين، وشعائر الإسلام الظاهرة ومناسباته المتكررة، على ما أصابها من تشويه وإهمال في حسّ الأجيال المسلمة. وهي أمور لم يكن بمقدور الكيد البشري، مهما كان خبيثاً أن يستأصلها من قلوب عامة أفراد الأمة المسلمة؛ لأنّ الله أراد بهذه الأمة خيراً، وأراد لهذا الدين أن يكون قَدَرَهَا وأن تكون قائمة به إلى ما شاء الله.

وفي الصفحات التالية، أتحدّث عن المبحث الثاني: (فقه الخروج من هذه الأزمة).
ومن الله أستمدّ العون والتأييد.

المبحث الثاني

فقه الخروج من الأزمة

هذا هو المبحث الثاني من مبحثي (فقه السنن) المتعلق بفقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية) ، وهو يتناول فقه الخروج بالأمة مما هي فيه من محنة ، وتصحيح ما فسد من أحوالها ..

وقد تصورنا - فيما مضى - طبيعة المشكلة وجوهر الأزمة ، ووقفنا على ضخامة الانحرافات ، وسجلنا تباشير العودة وطلائع الصحة ..
وتلك خطوة لا بد منها - كما أسلفت بيان ذلك - لكل طرح نظري صائب وعملي مشر .

وبناء على ما سبق ، فإن فقه الخروج بالأمة من أزمتها وتصحيح مسارها ، إذا ما أريد له أن يؤتي ثماره ، لا بد أن يكون متمشياً مع السنن التي جعلها الله أسباباً لإصلاح أحوال الأمم ، وأناط بتحقيقها النتائج ..

وقد خطونا الخطوة الأولى فيما مضى ، حين حدّدنا طبيعة الأزمة ، وتصورنا حجم المشكلة .. ونحاول مواصلة المشوار في إيضاح الخطوات التي يقتضيها فقه الخروج من الأزمة ، ويمكن تركيزها في الخطوات التالية:
أولاً: الإيمان الجازم بأن ما حدث لم يكن صدفة ، وأنه محكوم بسنن وأسباب معقولة .

وهي سنن إلهية ، لها من الثبات والاطراد والعموم ، وغيرها من الخصائص ما يقطع بدخول كل أحوال البشر ، خيرها وشرها تحت سلطانها ووفق نظامها ^(١) .
وتلك بدهية فيما نحسب ، ولكن الواقع يجعلنا نعيد النظر في مقدار وضوحها ، وبالتالي في استصحابها عند الممارسة العملية .

وقد توافرت نصوص القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ في التأكيد عليها ، وفطر الله البشر على قبولها والاهتداء إليها ، إذا سلمت نفوسهم من عوارض الجهل والغفلة والإعراض .

(١) وقد فصلت هذا المعنى في فصل: (خصائص السنن) ، في الباب الأول .

ولو تأملنا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقوله: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]... وغيرها من الآيات.

وأمعنا النظر في مثل قول رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١).

وقوله ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْنِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مِنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٢). وقوله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ - وَفِي رِوَايَةٍ: الْمُنْكَرَ - فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَيَّ يَدِيهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْتَمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»^(٣).

وقوله ﷺ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ»^(٤) الحديث.

(١) رواه أبو داود في البيوع، باب: في النهي عن العينة، ح (٣٤٦٢) عن ابن عمر. وقال الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول لابن الأثير (١١/٧٦٥): «حديث صحيح». وذكره الألباني - رحمه الله - في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١) ح (١١)، وقال: «هو حديث صحيح لمجموع طرقه».

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٥٠، ٩٢). وصححه الشيخ/أحمد شاكر في تخريج أحاديث المسند (٧/١٢١)، ح (٥١١٤). ونسبه السيوطي في الجامع الصغير (١/٤٨٧) لأبي يعلى في مسنده، ولطبراني في الكبير، كلهم عن ابن عمر. وأفرد الحافظ ابن رجب شرح هذا الحديث برسالة مستقلة، وحسن إسناده. والرسالة مطبوعة ضمن مجموع بعنوان: «من دقائق الكنوز»، وهي آخرها.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢، ٥، ٧، ٩)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن (تفسير سورة المائدة، ح رقم (٢١٦٩)، وأبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، ح رقم (٤٣٣٨). وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (١/٢٦٧، ٢٦٨): «هذا الحديث جيد الإسناد». وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١/٣٢٧). وقال الأرنؤوط في التعليق على جامع الأصول، لابن الأثير (١/٣٣١): «إسناده قوي».

(٤) متفق عليه، من حديث عائشة - رضي الله عنها. انظر: فتح الباري (٦/٣٧٧، ٣٧٨) في الأنبياء، باب: ما يذكر عن بني إسرائيل، ومسلم في الحدود، ح رقم (١٦٨٨).

إننا لو تأملنا في هذه النصوص وما شابهها ، لأدركنا يقيناً أن ما حلَّ بالأمة كانت له أسباب ، هي من جنس ما ذكر في هذه النصوص وغيرها ، وأن هذه الأسباب ظاهرة بيّنة لا غموض فيها ، وأن الخلاص منها ممكن ومقدور عليه .

وأنه لا مكان للصدفة ، ولا معنى للبحث عن حلول وهمية ، وتجاهل الأسباب الحقيقية للمشكلات .

إن الإيمان بأن مشكلات العالم الإسلامي خاضعة لسنن إلهية ، يعني فيما يعني :
- أنها مشكلات طبيعية ، أي منسجمة مع أسبابها ، مهما كانت ضخامة تلك المشكلات وتعقيدها .

- وأن تجاوزها وعلاجها ممكن ، ولو كلف الكثير ، واحتاج إلى زمن طويل .
- وبالتالي فإن وسائل العلاج والإصلاح هي مما بين أيدينا ، وليست خوارق ، وأن قدراتنا الذاتية - على محدوديتها - هي أساس الانطلاقة ، وأن بلوغ المقصود يبدأ من إدراك قيمة الموجود . بهذا نهضت الشعوب ، وبهذا تنهض من جديد .

وبعكس ذلك الذي يغفل أو يستهين بهذا الارتباط بين واقع الأمة وبين أسبابها التي هي السنن الإلهية ، أو يجهل وجود هذه العلاقة ، أو يظن أن سنن الله تعمل في حياة البشر بطرق غامضة أو غير منضبطة . فإن أعمال أمثال هؤلاء تتسم بالعشوائية ، ويصاب أحدهم باليأس وعدم الثقة في إمكاناته ، ويحتقر جهوده إلى ضخامة الواقع المنحرف ، فيقعده متحسراً ينتظر خوارق السماء ، وربما قال: نحن في زمن فتنة ، واعتزل معترك الحياة واشتغل بمخاضة نفسه ^(١) .

ولعل من المناسب أن أعرض هنا لبعض التصورات والقناعات الغربية التي عشتت في رؤوس وأدمغة كثير من المسلمين ، في ظل الهزيمة النفسية والحصار الوعي ، والذهول عن إدراك العلاقة بين المشكلات وبين أسبابها ^(٢) .

وأبين كيف أن القرآن رسم للأمة الطريق إلى تصحيحها واجتياز آثارها بصورة جليّة ، لو أننا بحثنا عن العلاج مظانه .

فمن ذلك: أن تجد أكثر المسلمين يحسنون الظن بأنفسهم ، ويزكون أعمالهم ، مع ما هم فيه من مخالفة وتقصير ، وبالتالي فهم لا يقبلون نصحاً ، ولا يرتضون نقداً ولا يسعون إلى استصلاح ما اختل من أمرهم .

(١) يمكن مراجعة كتاب «حتى يغيروا ما بأنفسهم» ، لجودت سعيد .

(٢) وقد أشرت إليها بإجمال في البحث السابق ، ووعدتُ ببسط الإجابة عليها في هذا البحث .

ثم هم مع ذلك ، يعتقدون خطأ مخالفيهم ، وأنهم لا يستحقون ما هم فيه من متاع الدنيا ، وأنهم - أعني المسلمين - أولى به منهم ، حتى مع جدّ أولئك وتشميرهم ، وإعراض المسلمين وتفريطهم .

وإذا رأوا أن الله لم ينصرهم ، بل سلط عليهم الكفار والفجار فظهروا عليهم . . إذا رأوا ذلك ، ظنوا بالله ظن السوء ؛ إذ كيف يُدبّل أهل الباطل على أهل الحق ! وارتابوا في صدق وعد الله أنه ينصر المؤمنين في الدنيا . وأحسن حالهم أن يعتقد بعضهم أن ما وعد الله به من النصر والنعيم لا يكون للمؤمنين إلا في الآخرة ، وأمّا الدنيا فهي للكافرين والفجار ^(١) .

وهذه التصورات وما شاكلها ، دليل على أن عامة المسلمين لا يواجهون المشكلات الواقعة بأسبابها المعقولة . . إنّما يواجهونها بالأمانى الفارغة ، واجترار الماضي ، دون إدراك صحيح لعلاقة الأسباب بمسبباتها ، وكان ما يجري إنّما يجري بمحض الصدفة بلا حكمة ، أو كأن السنن التي يخضع لها البشر لا تنطبق عليهم . وكان أمجاد الماضي قد تحققت على يدي أجيال تنابلة بطالين كحال أجيالنا موضع الحديث .

وقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية في دحض هذه الشبهة ، وعالج هذا الجهل عن طريق إحكام الصلة بين الأسباب ومسبباتها ؛ وجوداً وعمداً ، وقرّر أن الإعراض عن ملاحظة هذه الصلة راجع إلى «الجهل بأمر الله ونهيه ، وبوعده ووعيده ، فإنّ صاحبها إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، تارك للمحظور . . وهذا من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أنّ صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعده الله تعالى .

أمّا الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجودها ، وما أكثر ما يفعل محرّمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرّم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأنّ خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

(١) انظر: جامع الرسائل ، لابن تيمية (٢/٣٢٤) وما بعدها .

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا، يكونون معذبين بما فيه، بخلاف من فارقههم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١] .

وقال تعالى في كتابه: ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلرَّسُولِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادِّثُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَكَأَنَّكَ كُنتَ فِي سَبِيلِهِۦ ۗ فَمِنْ قَبْلِهِۦمُ ۙ ﴾ [المجادلة: ٥] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادِّثُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ أُو۟لَٰئِكَ فِي ٱلْأَذْدَانِ * كَتَبَ ٱللَّهُ لِٱلْغَٰلِبِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١] .

وقال تعالى في كتابه: ﴿ إِنَّا وَرِثْنَاهُ وَإِلَيْكُمْ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] .

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء، فقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصْرَةَ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٌ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِم يُقُولُونَ نَخَشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْـِٔحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَهٗلُوآءَ ٱلَّذِينَ ٱقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَأْتِيَهُمْ لَحْمَكُم حَيۜطَتٌ أَعْمَلْتُم فَاصْبِرُوا خَبِيرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٣] .

وقال تعالى في كتابه: ﴿ بَشِيرِ ٱلْمُنَافِقِينَ يَأَنَّ لَهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكُفْرَانَ أَوْلِيَآءَ مِّنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوتُ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩] .

وقال تعالى في كتابه: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا۟ ٱلْأَدْبُرَ ثُمَّ لَأْيَحِدُونَ وَإِنَّا وَلَٰئِنصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَن جَعَلِ ٱلسَّنَةَ ٱللَّهُ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣] .

وقال تعالى لما قص قصة نوح، وهي نصره على قومه في الدنيا، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ ءَأْيَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ

لِلْمُنْتَفِعِينَ ﴿ [هود: ٤٩] . وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وأخبر أن ما سيحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] .

وذمَّ في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢] .

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية، وأمرهم بالاستغفار والصبر؛ لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب، فيزيله الاستغفار. ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن هذا كله داخل في مسمى الطاعة والإيمان^(١).

وفي حياة الأمة الإسلامية أمثلة لا تُحصى، كلها تثبت أن الأمة لما أدركت العلاقة بين ما هي فيه من ضعف وهزيمة وبين سببه - أيا كان هذا السبب - ومارست عملية الإصلاح، أنها تمكنت من تجاوز الحن وتحويل الهزائم إلى انتصارات. وهذا ليس خاصا بها، بل هو لسائر الأمم؛ إذا أقامت ما يصلح دنياها استقامت بحسبها، وإن استوفت ما يصلح دينها سعدت. ولن أستطرد هنا، فهذه المسألة فصل خاص بها^(٢). ولكن أذكر مثلين مختصرين:

* لقد كان الاستعمار بجيوشه المدججة بالسلاح مسيطراً على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي، على حين فترة من تعطيل الجهاد، مصداق قوله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة،

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية (٢/٣٢٧، ٣٣٤)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) هو الفصل الثاني من هذا الباب.

وأخذتم أذنان البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١).

ولما انطلقت كتائب المجاهدين هنا وهناك.. في الجزائر، وفي ليبيا، وفي أفغانستان.. لم يجد الاستعمار بُدأ من الخروج.

* وفي السودان، لما وجدت إرادة جازمة في تحقيق الاكتفاء الذاتي وتوفير الأمن الغذائي... تحولت السودان إلى بلد مصدر، وانخفضت أسعار السلع بصورة هائلة^(٢). وإن كان حال بينها وبين استكمال مشوارها الإصلاحية كيد العدو وخذلان الجار والقريب.

وإدراك هذه العلاقة بين المشكلة وسببها، هو مفتاح الحل لها.. وهو ما أقصد إلى بيانه.

ومتى بلغ علماء الأمة ودعاتها والمصلحون فيها مرحلة الإيمان الجازم بهذه الخطوة، على النحو الذي أشرت إليه آنفاً، فقد قطعنا في مشوار (فقه السنن) مسافة طيبة. ومتى أصبح الحديث عن هذه العلاقة بين مشكلات الأمة وبين أسبابها مقبولاً لدى عامة الناس، لا يقابل بالجدل أو الرفض والاستغراب، فقد طبعنا هذه الخطوة، ومهدنا السبيل لما بعدها من خطوات.

ثانياً: أن تكون الأمة مستعدة للتصحيح، مؤمنة بضرورة المناصحة وتقويم الأوضاع.

وما لم يوجد الحد الأدنى من ذلك، فقل على الأمة العفاء.

فقد كان هلاك من هلك من الأمم بسبب أنهم كانوا لا يجيبون الناصحين.

والنصح والتصحيح معنى عام يشمل كل تصحيح متصور، بدءاً بدعوة الناس من الكفر والشرك، إلى الإيمان والتوحيد.. وانتهاءً بأدق الملاحظات.. وما بين ذلك.

والنصح والتصحيح والنقد والمراجعة في الأمة، ليس خاصاً في شأن دون غيره، بل هو شامل لشؤون الدين والدنيا.

كما أنه ليس حكراً على أحد، بل من جاء بحق وصواب، ودعا إليه فهو ناصح..

ومن هنا فإن أفراد الأمة ما بين ناصح ومنصوح، وجامع بينهما.

(١) سبق تحريمه قريباً، ص ٥٩٤.

(٢) أكتب هذا الكلام والأسواق تستقبل السكر السوداني، وكنا لا نعرفه من قبل، وقد حدثني بانخفاض الأسعار، عدد من الذين قدموا من السودان، وقد لا يستمر ذلك طويلاً لما أراه من مكائد تلوح في الأفق.

ويؤيد ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

وقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري^(٢): «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسانه، فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٣).
ولبسط ذلك موضع آخر^(٤).

واستعداد الأمة للتصحيح، يستلزم الاعتراف بالأخطاء وجوانب القصور، وعدم تبريرها أو الدفاع عنها.

وينبغي أن يكون التصحيح مضبوطاً بضوابط الشرع، وخير معوان على ذلك أن تعكف الأمة على تقليب صفحات التاريخ الإسلامي، خصوصاً العهد النبوي وعصر صدر الإسلام، فإنها واجدة أروع أنموذج عملي صالح للتطبيق.

كما أن النصح والتصحيح يتطلب جواً من الحرية في التعبير والكتابة والتفكير. وقد شاهدنا كيف أن الغرب لما شجع على تقويم الأوضاع، وكفل الأجواء المناسبة له... أصبح النقد والتصحيح من أهم أسباب تقدمه وازدهاره، وبعكس ذلك العالم الإسلامي، كيف تدهورت أحواله بسبب تحلف شرط الحرية، وتجاهل قياداته النقد والتقييم، بل وتحريم ذلك على شعوبه، وتحريم فاعليه!

ولا تستقيم أحوال الأمة حتى يُنادَى فيها بمثل نداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الممدوي: «رحم الله امرءاً أهدي إلينا عيوبنا»^(٥).

وقوله ﷺ: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها».

وأول من يطالب بامثال هذه الخطوة، علماء الأمة ودعاة الإصلاح فيها، فإذا رأى الناس منهم ذلك، أكبروهم وقلدوهم.. فشاعت هذه الروح في جسم الأمة، وحيثئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، إن شاء الله.

ومن الخطوات في هذا السبيل (سبيل خلاص الأمة):

(١) رواه مسلم، عن تميم الداري رضي الله عنه. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، ح رقم (٩٥).

(٢) سعد بن مالك بن سنان، الإمام، المجاهد، مفتي أهل المدينة، استشهد أبوه يوم أحد، وشهد هو الخندق وبيعة

الرضوان، كان كثير الحديث. مات رضي الله عنه سنة (٥٧٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/١٦٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي من الإيمان، ح رقم (٤٩).

(٤) هو الفصل الثالث من هذا الباب، بإذن الله تعالى.

(٥) انظر: أدب الدنيا والدين، ص ٢٣٦، والنص مجرّوفه: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَا».

ثالثاً: ضرورة التمييز بين ما تختص به الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، وما تشترك مع غيرها فيه.

وهذه خطوة لا بد منها إذا أردنا لهذه الأمة أن تستعيد عافيتها... وهي خطوة لا بد منها أيضاً لتحقيق استعلاء الأمة بإيمانها ومنهجها...

ولعل الغفلة عن خصائص هذه الأمة أو الجهل بها، أو تجاهلها وعدم الاقتناع بها.. لعل ذلك كان سبب فشل كثير من الجهود الإصلاحية التلقيفية، وسقوط كل محاولات الإصلاح الجاهلية الإسقاطية.

إن الأمة الإسلامية أمة متميزة بنشأتها، متميزة بوسائلها، متميزة برسالتها وأهدافها.. متميزة بنظام حياتها.. وبالتالي فهي متميزة بالحلول المناسبة لها^(١).

وإذا كان لكل أمة خصائص وظروف، قد لا تشترك مع غيرها فيها، فإن الأمة الإسلامية تمثل هذا التميز أتم تمثيل.

إن الجاهلية أسرة واحدة، مهما اختلفت أحوال الأمم فيها، وإن الإسلام شيء آخر مختلف تماماً، ولا يمكن أن تتشابه المنطلقات والأهداف..

وإن تاريخ هذه الأمة مرتبط بالإسلام، وقدرها في هذه الأرض هو الإسلام. وقد عبّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا المعنى بعبارة الرائعة: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العزة بغيره أذلنا الله»^(٢).

ولنتظر في بعض خصائص هذه الأمة، وكيف فشلت الجهود المطروحة حين تجاهلتها.

* فمثلاً: وحدة الأمة:

المسلمون أمة واحدة، مهما تباعدت ديارهم وتباينت لغاتهم وألوانهم.. تلك مسألة من بدهيات دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:

٩٢]. وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلِئَلَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:

٥٢].

(١) مع خضوعها كغيرها من الأمم للسُّنن الإلهية وعدم استثنائها منها.

(٢) البداية والنهاية (٦٠/٧).

فلا مكان للقومية في محيط المجتمع الإسلامي، مهما كان لونها وشكلها، وأي حل لمشكلة الأمة الإسلامية على أساس قومي، محكومٌ عليه بالفشل سلفاً؛ لأنه يناقض خاصية وحدة الأمة الإسلامية تحت راية واحدة هي الإسلام!

وأي إصلاح للأوضاع على أساس حزبي ضيق أو إقليمي أو عرقي.. أو نحو ذلك، فلن يفلح على صعيد الواقع؛ لأنه يصادم ما تقرر في نفوس المسلمين من كونهم أمة واحدة^(١).

* ومثل ثان: الإصلاح عن طريق طرح مناهج بديلة عن منهج الإسلام، كالعلمانية، التي تعني الرذة الكبرى إلى الجاهلية في كل مفاصل الحياة.

وبرغم ما لقيت العلمانية من دعاية، وما ساندها من قوى؛ ربما لم تنهياً لغيرها.. لقد كانت هي خيار النظم السياسية في العالم الإسلامي، وكانت هذه النظم تدعمها بكل ما أوتيت من قوة، رافعة شعار الحرية والديمقراطية، زاعمة أنها هي بوابة الرقي والتحضّر، وعلى يديها يمكن إخراج العالم الإسلامي من ورطة التخلف والجهل.

ولأنها نبتة غريبة، فلم تؤد بعد رحلة طويلة، إلا إلى مزيد من الضياع والذل والتخلف، وشيوع الرذيلة وإهدار الكرامة، لكل شعوب العالم الإسلامي^(٢).

فشلت العلمانية في تحقيق أي شيء إيجابي للأمة، وإن كانت نجحت في تحطيم قواها المعنوية، وتبديد طاقاتها المادية، وتمزيق وحدة شعوبها؛ لأنها قامت على أساس مناقض لدين الأمة وعقيدها، التي بنيت عليه حضارتها.

فشلت؛ لأن الله يقول في كتابه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والعلمانية تقول فيما تقول: الدين لله والوطن للجميع. وتقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وحتى هذه الشعارات لم تكن العلمانية وفية لها، بل هي أول من كفر بها. فانتهى الوطن للزمر الحاكمة ومن يخدمها، وحوصر الدين وأهله وفرضت عليه الوصاية! بل أصبح الدين جزءاً من تراث الأمة، أدى دوره وانتهى ليسلم الزمام إلى العلمانية.

(١) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٨٦ وما بعدها.

(٢) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ٩٨.

ولا أدلّ على فشلها، وفشل غيرها من الشعارات، من أن أحداً من الناس لا يستطيع استشارة عواطف الشعوب الإسلامية، ويلهب حماسها لمواجهة المواقف الصعبة بشيء من هذه الشعارات، لكن بالإسلام وحده!

فاعجب لقوم يضربون الإسلام في الصميم، ثم يرفعونه شعاراً عند الحاجة! واعجب لشعوب تُطعن في خاصرتها، ثم تموت دون من طعنها فداءً له، إذا ما دغدغ مشاعرها ببعض كلمات!

وستفشل هذه الشعارات أبداً؛ لأنّ هذا هو منطقتها أبداً.

* ومثل ثالث: نظام الحكم في الإسلام نظام شورى محكم.

وهو متميز عن كل أشكال الحكم الجاهلية، بما فيها النظام الديمقراطي. ولا يصلح شيء منها لطبيعة الإسلام، وبالتالي لا يصلح شيء منها للأمة الإسلامية.

ويدور جدل حول الديمقراطية، وإمكانية صلاحيتها للعالم الإسلامي.

وباختصار شديد، أقول: لا تصلح الديمقراطية نظام حكم في العالم الإسلامي؛ لأنها

لا تؤمن بمبدأ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَنكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧]. ولا تعترف

بأن الله وحده الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:

٥٤]. وإنما تؤمن بمبدأ أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً آلهة وأرباباً من دون الله. وهذا

كفرٌ بواح، يؤدي إلى فساد عريض لا يمكن أن يقره المسلم الصادق^(١).

ولا يرضى بالديمقراطية، بمعناها الغربي المعاصر، إلا من كان عنده استعداد سلفاً

للتضحية بالإسلام كله، فضلاً عن التضحية بجوانب منه، إذا صوت ضده البرلمان^(٢).

وبالمناسبة، أقول أيضاً: إنّ الديمقراطية بمعناها الغربي - وهي صورة مرفوضة - لم

تُمارس بصورتها الحقيقية إلا في بلاد الغرب، والذي يمارس في العالم الإسلامي هو

ديكتاتورية، يسمونها الديمقراطية! أو ما سماه بعضهم بالديمقراطية الاستباقية.

أقول هذا لسبب بسيط، وهو: أن الديمقراطية التي تعطي الحق لرأي الأغلبية، لو

مُورست بصورتها الحقيقية لاختارت الشعوب الإسلام منذ زمن بعيد...^(٣).

(١) انظر: أزمة العصر، د. محمد محمد حسين، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٢) وهذا غير مسألة المشاركة بالبرلمان إذا لم يكن هناك طريق أقرب وأسلم منه لنصرة الحق وتخفيف الشرّ، فهذه ضرورة تُقدَّرُ بقدرها، وهي داخلة في باب المصالح والمفاسد، الخاضعة لاجتهاد المجتهدين، كل حالة بحسبها.

(٣) ولعل التجربة الجزائرية أقرب مثال على صِدْقِ ما أقول.

ثم تكون الشعوب الإسلامية ملزمة - إن كانت صادقة في إسلامها - أن تقيم نظام الشورى الإسلامي .

ومن هنا فإن العالم الإسلامي لا يصلحه إلا نظام شورى ، نابع من طبيعة دين الأمة . وأي تجربة أخرى فهي فاشلة ، ولا تؤدي إلا إلى مزيد من الاستبداد ، الذي يكرس تخلف الأمة . ولو ذهبنا نعدد الأمثلة ، لطال الحديث !

فهناك جانب التعليم والإعلام ، وهناك الجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي ... و... كلها فشلت ؛ لأن الذين يخططون للأمة ، دأبوا على استيراد الحلول والتجارب من بلاد تختلف في أديانها وظروفها وكل ملابساتها عن العالم الإسلامي .. على حين أنهم تجاهلوا كل الحلول المستمدة من دين الأمة ، وأغمضوا عيونهم عن كل التجارب النابعة من ذات الأمة ، عبر تاريخها الطويل ^(١) .

ويظهر أنهم قاسوا المبادئ والأفكار على الأثاث ولعب الأطفال ، فجعلوا الاستيراد كله من باب واحد! وتركوا ما ينفع الأمة مما عند الآخرين في الجوانب العلمية والإدارية والفنية .

وإذا أراد المخلصون في إصلاح أوضاع الأمة والخروج بها من أزمتها الراهنة ، إذا ما أرادوا للجهود المبذولة نجاحاً ، فإن عليهم أن يعملوا على تمييز الأمة ، بإبراز خصائصها ، وفضح كل دخيل يُراد به مزاحمة تلك الخصائص .

وتبعاً لذلك ، فإن على دعاة الإصلاح أن يبينوا الجوانب التي يصح فيها الاقتباس - وهي الجوانب المادية والمدنية بشروط وضوابط معروفة - من الجوانب التي هي من خصائص هذه الأمة وهي سرّ تمييزها ، والمسلمون هم أساتذتها ومعلموها للإنسانية ، وهي ما عدا الجوانب المادية والمدنية ، من العقائد والعبادات وروح المعاملات والأخلاق ، وما يتصل بها ويتفرع عنها ..

ويوم يتميز في حسّ أفراد الأمة ما هو من خصائص دينهم وأمتهم ، فيبحثون عنه فيما بين أيديهم ، وما هو عام فيستفيدونه ممن سبقهم وممن حولهم ... يوم تصل الأمة إلى هذه المرحلة ، نكون قد حققنا إنجازات تثلج الصدر .

وبالمناسبة فإن آية الدخلاء لمن أراد أن يعرفهم بسيماهم .. آيتهم أن ترى أحدهم ينقل قيم الغرب ويحتفي بها ، ويلزم قيم أمته ورجالاتها ، يود لو أن بينه وبينهم برزخاً ،

(١) انظر: ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ، للمفكر: مالك بن نبي ، ترجمة: عبد الصبور شاهين ، ص ١٠٢ ، مبحث (الشروط الأولية للتربية الاجتماعية) .

تراه يعظم إنجازات الغرب ويعتذر عن أخطائهم مهما كانت ، ويضخم أخطاء المسلمين ويعممها ، ويضيق ذرعا بمظاهر التدين . يفرح بكل متمرّد على الثواب ، ويعدّ شذوذه إبداعاً ، وزجره عن غيه قتلاً للإبداع ومصادرة للحريات .

* رابعاً: ومن الخطوات في (طريق الخروج بالأمة من الأزمة):

الإيمان العميق بضرورة التغيير الشامل ، على منهج الكتاب والسنة ، ورفض الحلول الجزئية .

والحلول الجزئية تارة تكون بالاشتغال بجانب من جوانب الحياة ، كالاقتصار على الجانب الأخلاقي وتزكية النفوس مثلاً ، أو الجانب السياسي أو الاقتصادي . . . وهكذا . وتارة تكون نتيجة القصور في فهم شمولية الإسلام ، أو تعمد حصره وقصره ، كما تفعل الأنظمة السياسية التي تحكم الشعوب الإسلامية اليوم .

إن الإسلام دين ودولة ، عقيدة وشريعة ونظام حياة ، وكل محاولة لطرح جزئي لحل مشاكل الأمة ، فلن تجتمع عليه الكلمة ، وسيؤدي - حتماً - إلى تضخيم هذا الجانب أو ذلك على حساب الجوانب الأخرى ، مع ما يحدث بسببه من الصراع والخصومة بين أنصار هذا الحل وأنصار الحلول الأخرى . . ثم إنه ليس هو الإسلام بصورته الشاملة التي أمر الله عباده بإقامته في الأرض .

وأعني برفض الحلول الجزئية ، رفض تلك الحلول التي تتعصب لجانب واحد من الدين ، وترفض ما عداه أو تهوّن من شأنه - بلسان المقال أو بلسان الحال - وترى أن ما تقوم به هو الدين ، وكل جهد يقوم به غيرها فهو جهد باطل ، لا يخدم الإسلام .

فهذا مرفوضٌ ؛ لأنه يرفض الحل الشمولي الذي أمر الله به ، ويشكّل عقبة في طريقه ، ويكسر الفرقة ، ويقف حجر عثرة في طريق وحدة كلمة الأمة .

أمّا من يقوم بوسعه في خدمة الإسلام في جانب من جوانبه ، وينذر نفسه لسد ثغرة من ثغراته ، مع إيمانه بأهمية الجوانب الأخرى ، وضرورة القيام بها - وإن كان هو لا يقوم بها - فهذا عمله مشكور ، وينبغي تسديد نقصه .

بل حتى الذي ينذر نفسه للقيام بجانب من الحق ، وإن كان لا يرى أهمية غيره ، أو يرى أن الصواب أن يبدأ الإصلاح من عنده ، لكن لا يقف حجر عثرة في وجه جهود الآخرين ، فهذا يُسدد نقصه ، وإن كان لا يوافق على رأيه وطريقته .

إنّ الحل الشامل لمشكلات الأمة ، أن تقوم المؤسسات العلمية والتربوية والدعوية والفنية ، كلّ فيما يخصه ، وكلّ فيما يحسنه ، شريطة أن تقوم كل مؤسسة بتزويد أفرادها

بالحد الأدنى من العلم الشرعي الضروري، وأن تتحرك كل مؤسسة مستصحبة الشعور بأنها جزء مكمل للمؤسسات الأخرى في الأمة. وتتكفل المؤسسات العلمية والتربوية والإعلامية بتعليم أفراد الأمة وتربيتها وتزكيتها. وأهم ما يبدأ به: تطبيع العلم الشرعي بواسطة تعميمه وتقريبه للعامة^(١).

إن على من يروم خلاص الأمة، أن يؤمن بضرورة الحل الشامل؛ أي بضرورة أخذ الإسلام كله، وإن على «جميع المخلصين أن يدركوا أنه لم يعد يكفي اليوم الاعتماد على الجانب العقيدي وحده أو التشريعي وحده أو السلوكي وحده، لمجابهة الأزمات الحضارية والانتكاسات الفردية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع الإسلامي، بل لا بد أن تمشي الخطوط الثلاثة متكاملة متوازنة متعاقبة، لمعالجة السقوط العقائدي والاجتماعي والأخلاقي فيه، تمهيداً لإحداث التغيير الإسلامي المنتظر»^(٢).

ولكن جميعاً على ذكر من أن الإسلام لم تقم له دولة وسلطان إلا يوم كان هذا الفهم الشمولي هو المسيطر على أفراد الأمة، وبقدر ما انحسر هذا الفهم وتجزأ، ابتعدت الأمة في مجموعها عن تمثيل الإسلام، وتبع ذلك ما تبعه من انحسار قوتها وقيمتها. ثم إنه لا يلزم من الإيمان بضرورة الحل الشامل، معالجة القضايا كلها دفعة واحدة، فهذا ما لا يُستطاع عادة، ومن هنا تأتي أهمية التدرج وتقديم الأولويات، وهي الخطوة التالية:

* خامساً: التدرج وتقديم الأولويات في الإصلاح والتغيير:

وهي خطوة كذلك، لا بد منها لكل عمل وإصلاح يُراد له الاستمرار. إن العجلة واختصار الخطوات في مجال التربية وإصلاح الأمم، أمرٌ ينطوي على محاذير، و«ربّ عجلة تهب ريثاً».

وقد يستقل (التدرج) من قلّت خبرته ومعرفته بطبائع النفوس وحجم العقبات، وغفل عن سنة الله في تغيير أحوال الأمم، خصوصاً إذا كان ممتلئاً حماساً وغيره، ورأى الفساد ضارباً أطنابه في ربوع العالم الإسلامي.

وينفذ صبره حينما يرى هذا الحصار المضروب على دعاة الإسلام، وعلى كلمة الحق، وعلى الجهود المخلصة الفاعلة.

(١) سيأتي لهذه النقطة بسط وتفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب، بإذن الله تعالى.

(٢) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ٩٩، بتصرف يسير.

ولكن فقه السنن في هذا المجال يؤكد - برغم ذلك - ضرورة التدرج والمرحلية في تغيير أحوال الأمة نحو الأحسن، وذلك لأمر، منها:

- أن (التدرج) هو الموافق لطبائع النفوس، فإن انتقالها فجأة من حال إلى حال، لا يمكن أن يتم، ولو حدث ذلك لعارض، فإنه لا يمكن أن ينفك من آثار سلبية جانبية، تظهر في ثاني أحواله. وإذا كانت تلك حال الأفراد، فما بالك بأحوال الأمم والشعوب.. لا شك أن الأمر أقرب إلى الاستحالة منه إلى الإمكان.

ولعل المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام قد ضرب الرقم القياسي في سرعة التحول، ومع ذلك فقد مكث النبي ﷺ - وهو المؤيد من ربه - ثلاثة وعشرين عاماً حتى وافاه الأجل، وهو يربي أصحابه ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

ولا قيمة لتغيير يفرض فرضاً، ولا ينبع من قناعات النفوس، وأي تغيير من هذا القبيل يعد جسماً غريباً تلفظه الأمم، حالما تزول ملاساته.

ولعل أقرب مثال على ذلك: حال الجمهوريات الإسلامية التي وقعت تحت الاحتلال الروسي، وما لقي أهلها من محاولات شرسة وقاسية للتذويب وغسيل المخ.. وما إن زال الكابوس حتى عادت تلك الجمهوريات تبحث عن هويتها.

- والتدرج هو الذي ينسجم - على وجه الخصوص - وحال العالم الإسلامي، الذي يعيش عُقد الجهل والفقر والتخلف، ويعاني مشاكل مزمنة من الكبت والحرمان، وهي مشكلات عميقة الغور.

فتحتاج الأمة إلى أن تراجع دينها، وتكتشف طاقاتها المعطلة، وتميز بين عدوها وصديقها في زحمة التضليل الإعلامي الموجه، وتعيد قراءة تاريخها بعد طول تشويه، وتبني مؤسساتها الدعوية والتربوية والعلمية والإعلامية على أسس صحيحة.. وكل ذلك لا بد له من فترة زمنية كافية، ولا بد في تحقيقه من مرحلية وتدرج تقتضيهما منطقية البناء.

- والتدرج في الإصلاح ضرورة تقتضيهما مصلحة الدعوة الإسلامية الوليدة، التي بدأت تشق طريقها وسط مخاطر الأقربين والأبعدين. الذين لم يقبلوا التعايش مع الإسلام المستضعف المسالم، فكيف يتقبلونه ديناً فاعلاً حركياً تغييرياً؟.

لقد واجه العالم الإسلامي عقوداً من السنين كانت تركز فيه المبادئ العلمانية والقومية، ولقي الإسلام والدعاة إليه، من التشويه والتجاهل شيئاً لا يكاد يخطر على بال، فإذا ما قورن ذلك بحال عامة الأمة المتردّي.. أدركنا كم نحن بحاجة إلى الوقت.

- ومع ذلك ، فإن من الأهمية بمكان ، أن ندرك جيداً أن التدرج أمرٌ نسبي ، يتماشى وحالة الأمة ، وتطورات الأوضاع ، وليس فترة زمنية ثابتة ، بل هو أمر تحكمه ظروف الأمة وأحوال الدعوة .

ولعله قد اتضح مما سبق ، أن التدرج ليس نقيض الشمول ، ولكنه يعني البدء بالأولويات ، وأن تكون حركة الإصلاح مواكبة لقدرات الأمة وظروفها متمشية معها ، كما سبق ، مع التخطيط لاستكمال جوانب النقص متى أمكن ذلك .

وقد تبيننا في المبحث الأول ، عند الحديث عن (تحديد أزمة الأمة وتشخيصها) أن للأزمة أسباباً ، ولها أعراضاً ومظاهر ، وأنها تنتهي بمراحل .

وعرفنا أن: الأصل أن البدء يجب أن يكون بمعالجة الأسباب ، وهي (ما بالأنفس) من ضعف الإيمان الصادق ، وقلة العلم النافع ؛ لأن ما بالأنفس هو الذي يفرز أنواع السلوك ، التي تتشكّل - إذا كثرت - لتصبح أعراضاً ومظاهر جماعية لتلك الأسباب . وأن أي جهد يبدأ بعلاج المظاهر دون اجتثاث أسبابها ، فهو جهدٌ ضائع!

فالمجتمع النظيف الملتزم ينفي عنه الخنا والفساد ، دون أن تتدخل قوة القاهرة لحجزه عنه ، وبعبكس ذلك المجتمع المنحرف يحتال بشتى الوسائل لممارسة الفساد وتحصيله ، مهما وُضعت في وجهه القيود والعراقيل ، بغض النظر عن حالة الغنى والفقر داخل المجتمع .

نعم ، إن تقليص فرص الفساد والانحراف ، يساعد على اجتثاث أسبابه بصورة كبيرة ، وهو أمرٌ لا بد من القيام به ، ولكنه لا يغني - بحال - عن معالجة الأسباب ذاتها . وفرق كبير بين تقليص فرص الفساد ، الذي هو من باب سد الذرائع . وبين تجفيف منابعه من النفوس ، الذي يعني خلق الإرادة الذاتية لرفض الانحراف ومقاومته . مع أن كليهما ضرورة ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .

سادساً: ومن الخطوات في طريق (الخروج بالأمة من الأزمة):

ضرورة التفريق بين الإسلام (نصوص الكتاب والسنة) ، وبين واقع المسلمين العملي . وهذه الخطوة من الضرورة بمكان لكل عمل تصحيحي ، يُراد من ورائه إخراج الأمة الإسلامية من دائرة التخلف والمرض .

إن القرآن الكريم ، وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ وسيرته ، هما أصل هذا الدين ومصدره ومرجعته ، وهما المبرآن من الخطأ والهوى . فإن الله قد تكفل بحفظ كتابه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وأخبر أنه حق كله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وأخبر عن عصمة المبلغ عنه ﷺ بقوله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤].

وأمر المؤمنين أمراً عاماً بأخذ كل ما جاء من طريقه ﷺ، وترك كل ما نهى عنه بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقال ﷺ عن نفسه: «ألا إني أوتيتُ هذا الكتاب ومثله معي»^(١).

وما سوى هذين المصدرين فعمل بشري، غير معصوم، فيه الخطأ وفيه الصواب، و«كلُّ أحدٍ يُؤخَذُ من قوله ويُتركُ إلا المعصوم ﷺ»^(٢).

ومن هنا، ف «إنَّ منهج التغيير الإسلامي .. لا بد أن يضع حداً فاصلاً واضحاً بين ما هو وحي إلهي وبين ما هو جهد بشري، أو فكر بشري أو تصور بشري لمسائل حول الوحي الإلهي وتفسيره وشرحه في إطار قواعده وأصوله، وفي ضوء المراحل التاريخية المتتابعة»^(٣)، فضلاً عن الجهود البشرية التي لم تبين أصلاً على نص من كتاب أو سنة.

وقد أدت عمومية المصطلحات، مثل (الفكر الإسلامي) و(التراث الإسلامي) إلى نوع خلط وتداخل بينهما. وساعد في تكريس هذا التداخل بين ما هو حق مطلق، وبين ما هو اجتهاد محتمل ... ساعد في تكريس هذا التداخل ما تراكم من اجتهادات الرجال وآرائهم عبر القرون، ومنها ما كان مخالفاً للحق متعصباً لآراء الرجال.

وقد كان هذا الخلط والتداخل غير مقصود - خصوصاً عند الراسخين من العلماء والمفكرين - ولكن تلقف ذلك من يحسن ومن لا يحسن الكلام في مسائل الشريعة، ومن هو حسن القصد والنية، ومن أضمر الكيد وتعمد الخلط وإحداث الفوضى واللبس بين ما هو حق في ذاته، وهو نصوص الكتاب والسنة، وبين آراء الرجال وأقوالهم.

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/١٣٠، ١٣٢). والترمذي في العلم، ح رقم (٢٦٦٦)، وقال: «هذا حديث حسن». وأبو داود في سننه في السنة، باب: لزوم السنة، ح رقم (٤٦٠٤) وهذا لفظه. وابن ماجه في المقدمة، باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ، ح رقم (١٢). وقال الأرنؤوط في تخريجه لأحاديث جامع الأصول (١/٢٨١): «وسنده صحيح».

(٢) قالها الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٩٣)، ونصها: «كُلُّ أَحَدٍ يُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ ﷺ».

(٣) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص ٢٣.

ومن هذا الباب، تجرأ أرباب المذاهب المادية والعلمانيون على «تسميتها معاً بـ (التراث)». فهؤلاء عندما يريدون أن يراجعوا هذا التراث، يراجعونه من حيث هو كل في نظرهم لا يتجزأ. والنتيجة الطبيعية عند هؤلاء، أن الوحي الإلهي يخضع للمرحلة الزمنية، فهو من التراث الذي يتعلّق بالماضي»^(١).

ثم إن الخلط بين الإسلام المعصوم، وبين واقع المسلمين بكل ملبساته، يؤدي إلى التسوية بينهما في النظر والحكم، بحيث تصبح أخطاء المسلمين محسوبة على الإسلام، أي أنها تلبس لبوساً شرعياً، ويضيع تميز الإسلام وصفائه بسبب احتساب أخطاء المسلمين عليه... وقد أدى ذلك إلى الصّدِّ والتنفير عن سبيل الله ودينه، وما يزال تكأة لكل متصيد وشانئ.

ولا بد لمن يتصدّى لإخراج الأمة المسلمة من أزمته، أن يعمل على تحرير الفرق بين هذين، وتجليته للأمة، ليخلصها من هذا التشويه والخلط الشائن.

ونحن إذا فعلنا ذلك، فإننا نحقق - إضافة إلى ما سبق - أموراً؛ منها:

* إعادة ثقة الأمة بالإسلام الحق، الذي شوه جماله تراكم أخطاء القرون.

* إعادة فتح ملف التاريخ الإسلامي، والنظر إليه على أنه عمل وجهد بشري قابل للتقويم والنقد، وليس من الحق المطلق الذي يجب التسليم لكل ما فيه.

* قطع الطريق أمام أولئك الذين يجعلون من واقع المسلمين حجّة لضرب الإسلام وتشويهه، والتشكيك في قدرته على إدارة شؤون الحياة.

* وهذا الجهد من شأنه أن يقضي على حدة التعصب للرجال وآرائهم، ويشجع على التمحور حول الحق، بغض النظر عن قائله، فإنه قد تقرر أن الحق لا يعرف بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق. وهذه كلها وغيرها، أمورٌ ضرورية لاستئناف الحياة الإسلامية في واقع الأمة.

* فضلاً عن أن هذا العمل - التفرقة بين الإسلام وواقع المسلمين - مجدّ ذاته، دين ندين الله بالقيام به؛ لئلا يختلط الحق بالباطل.

(١) المذهبية الإسلامية والتنفير الحضاري، ص ٢٤.

* سابعاً: ومن الخطوات في سبيل إخراج الأمة الإسلامية من أزمتها الراهنة:

التعامل مع مستجدات العصر من منطلق شرعي، وبوعي وبصيرة، وبروح عالية، واعتداد بالشخصية الإسلامية المتميزة^(١).

والتعامل مع هذه المستجدات، يشمل:

* بيان حكم الشرع فيها، وتحديد موقف الأمة منها على ضوء ذلك.

* توجيه الأمة إلى تحصيل النافع منها بحسب الحاجة، وعلى قدر الطاقة.

أي: أن نفقه الواقعة - وهي هنا الشيء الجديد المستحدث - وأن نستفيد منها.. وبهذا تعود للفقهاء الإسلامي مكانته، ويخرج من عزلته المفروضة عليه، ليمارس دوره الطبيعي الريادي، بقيادة الفقهاء، الذين يفترض فيهم أنهم أعرف الناس بمقاصد التشريع، ومصالح الأمة^(٢). إن التطور سنة الحياة «والإسلام بقواعده؛ ومنها العرف، والمصلحة المرسله، والاستحسان، وسدّ الذرائع، وبمصادره وسعة مفاهيم نصوصه، يتسع لأن يحكم المجتمعات البشرية المتطورة في أوضاعها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية.. فيقرّ الإسلام التطور الحميد ويتقبله، لأنه يتفق مع حكم الشارع وقصده، وينبذ كل تطور خبيث هدام؛ لأنه بعيد عن قصد الشارع ومخالف لحكمه..

وقد ترأّب على ما جد في الحياة المعاصرة من مخترعات وصناعات، وما جدّ من علاقات وارتباطات، ومعاملات مالية ومصرفية اقتضاها التطور، ترتب على ذلك مشكلات جديدة، يسأل الناس دائماً عن حكمها وموقف الإسلام منها..

ومن هنا، وجب معرفة حكم الشرع في كل جديد مستحدث، وموقف الإسلام منه بصورة واضحة بيّنة، مدعمة بالدليل عن طريق العلماء المتخصصين..

لقد ازدهر الفقه الإسلامي حينما واجه الفقهاء كل ما جدّ في عصورهم، واستنبطوا حكم الله فيه بعين البصيرة، وإعمال الرأي... يقضون فيما جدّ عليهم بما فيه مصلحة الناس، وما يتناسب مع البيئة؛ لأنّ فقههم هو القانون الحاكم المطبق، وبهذا استطاعوا أن يواجهوا توسع دولتهم الكبير... وكان الفقه مسائراً للحياة غير متخلف عنها^(٣).

(١) انظر: بحث «التحدي الحضاري وكيف نواجهه»، للدكتور/عمود محمد سفر، في «الإسلام والحضارة الغربية ودور الشباب المسلم» (٣٧/٢) وما بعدها.

(٢) انظر: ضوابط للدراسات الفقهية، لسلمان العودة، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٣) وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، للدكتور/محمد سلام مذكور. بحث ضمن كتاب: «وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية»، ص ٢٧٦، ٢٧٦، باختصار وتصرف. والكتاب مجموعة من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقده جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٣٩٦هـ.

وكيف يتخلف الفقه الإسلامي في حسّ الراسخين من أهله عن مواكبة أحداث الحياة وهم يقرأون مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وهذا عام في شئون الدنيا والآخرة.

قال الشنيطي - رحمه الله -: «وهذه الآية - آية الإسراء - أجمل الله - جلا وعلا - فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال، لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»^(١).

وحين يكون الفقه الإسلامي بهذه المثابة، نستطيع أن نحقق الكثير، و «أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع في شرك التقليد والمحاكاة للحضارات الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها، وأن نكون قادرين على حماية مجتمعنا الإسلامي - في طور نموه - من الأمراض التي أصابت مجتمعات الغرب، وما زالت تستشري فيها»^(٢).

ومن جهة أخرى، نفض عن المجتمع الإسلامي داء الجمود، ونقضي على فكرة الرفض المطلق، وهما آفتان كذف بهما طوفان الجهل إبان تقهقر حركة الفقه الإسلامي. إن الأمة الإسلامية اليوم، تحسّ بوطأة التحدي الحضاري لها، وتعيش مرارة التخلف العلمي والتقني والإداري.. والخطورة تكمن في أن مجرد إحساس الأمة بالتحدي الحضاري الذي تواجهه - لمّا خلا من تلك القيود والضوابط في التعامل - فإنّه قد دفعها دفعا أهوج إلى تقليد أعمى، وضاعف من الإحساس بالهزيمة الداخلية. هذا بالضبط ما حصل لأمتنا في العصر الحديث. وما تزال الأمة - في مجموعها - تعيش بهذه الروح.

إنّ من الفقه أن نستوعب مستجدات العصر، وأن نعلّم الأمة موقف الشرع منها جملة وتفصيلاً، وأن ندعى الأمة بمؤسساتها وأفرادها، على لسان علمائها وفقهائها واختصاصيها إلى تحصيل كل ما تحتاج إليه، وألا يكون تقدم وسائل الحياة من مقرونا بقيم العلمانيين والمتفرجين، وكأنه شيء لا دخل للشرع والدين فيه.

(١) أضواء البيان (٤٠٩/٣) وما بعدها، وفيه تفصيل لكثير من المسائل، انطلاقاً من دلالة هذه الآية.

(٢) بحث «التحدي الحضاري وكيف نواجهه»، للدكتور/ محمود محمد سفر، في: «الإسلام والحضارة الغربية ودور الشباب المسلم» (٣٩/٢).

* ثامناً: ومن الخطوات الواجب التنبيه لها في مسيرة خلاص الأمة من أزمتها: أن نفقه الصعوبات والعقبات التي لا بد أن تواجهها الأمة الإسلامية في سبيل التغيير وفي مرحلة النهوض .

وهي صعوبات وعقبات متنوعة . . متنوعة في طبيعتها، ومتنوعة في جبهتها .
وأذكرُ منها على سبيل المثال:

- العقبات الذاتية، التي تتبع من ذوات نفوس المسلمين الطيبين؛ من برود العاطفة، وضعف الإرادة، ومحدودية الوعي، والانشغال بأشياء الحياة ومتعتها . . . وغير ذلك .
وهي أشد العقبات، واجتيازها من أصعب الصعوبات، وهي تحتاج إلى جهود ضخمة لعلاجها وتحطيتها، وكثيراً ما تُهمل استهانة بها، أو بسبب انصراف الجهود إلى غيرها . وكثيراً ما تخور العزائم دون بلوغ شأو يُذكر فيها . وسواء كان هذا أو ذاك، أو كلاهما، فإنَّ النتيجة لا تتغير، وهي بقاء تلك العقبة، وبالتالي فساد كل جهد يُبدل حينئذٍ .

ومن هذه العقبات التي لا بد أن تواجهها الأمة في مرحلة النهوض:

- العقبات والصعوبات الداخلية، التي نمت وترعرعت في ظل الأوضاع الفاسدة في بلاد المسلمين، وتتمثل في المنافقين والعلمانيين والقوميين المتنفذين . . ممن عشتت في أدمغتهم أفكار ومناهج غريبة أو شرقية كافرة لا تؤمن بالفكرة الإسلامية سبيلاً للنهوض . . وهؤلاء يحتاجون إلى مواجهة متواصلة وجهود ضخمة؛ لكشف حقيقتهم، وتعرية مواقفهم، وتمييزهم لتعرفهم الأمة بسيماهم .

- ومنها: العقبات والصعوبات الخارجية، المتمثلة في القوى الكافرة من اليهود والنصارى والوثنيين . . . وسائر ملل الكفر والشرك .

وهي قوى ضاربة ضخمة، دائمة العداوة، تتربص بالأمة الدوائر . . وتحتاج مواجهتها إلى خلق روح الاستعلاء الواثق في قلوب المسلمين تجاهها، فقد اختلط الأمر! كما تحتاج إلى رص الصفوف وجمع الكلمة وامتلاك القوة . .

- ومنها: تفرق كلمة المسلمين عموماً، وعلماء الأمة ودعاتها خصوصاً، بسبب الاختلاف في بعض المسائل الاجتهادية، العلمية أو العملية، وفي المناهج وطرائق الإصلاح . . واضطراب الميزان عند كثير منهم . وتفرق كلمتهم، لأسباب؛ منها:

* الجهل محدود ما يسوغ ويُقبل فيه الاختلاف، من المسائل الشرعية والوسائل المأذون فيها، وما لا يجوز فيه الاختلاف، ولا يشملها الحد المأذون فيه.

* وضيق عطن وأفق كثير ممن يمارس الإصلاح أو يدعيه، فلا تتسع صدورهم لوجهات النظر الأخرى - في حدود ما يؤمنون هم نظرياً بأنه مما يسوغ فيه الاختلاف - ولا يقبلون من مخالفيهم إلا أن يروا رأيهم. وينسون أن من حق الآخرين أن يعاملوهم بالمثل، وأن أتباع مخالفيهم لهم ليس أولى من العكس.

ولم يزل الصحابة رضي الله عنهم، فمن بعدهم من العلماء الراسخين في العلم يختلفون في مسائل الاجتهاد، ثم تتسع صدور بعضهم لبعض، ولا يكون شيء من ذلك الاختلاف سبباً للعداوة والفرقة.

وقد لخص الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - منهج الحق في مثل هذه المسألة بقوله: «هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على كل أحد قبوله بكراهية. فمن عنده شيء أحسن منه، فليأت به»^(١).

* ومنها: انزعاج طوائف منهم بوجود الاختلاف ذاته، فيتحركون مسكونين بهاجس اجتثاث دابر الاختلافات، ولا يقبلون من أحد أن يتسع صدره لآراء الآخرين.. وربما كانوا من القاعدين، الذين أحسن أحوالهم الجهر بأسفهم على اختلاف ذات بين المسلمين، دون تمييز للمحق من المبطل منهم، لبُعدهم عنهم.. وهؤلاء يحاولون محالاً، ويرومون القضاء على شيء هو من سنة الحياة والأحياء.

ولهذا، فهم - لو تأملوا في أمرهم - يشكّلون طائفة جديدة تضاف إلى الطوائف الأخرى المختلفة!

وفرق بين التحذير من الاختلاف وبين مفاصله وجرائره على الأمة.. وبين حشر المختلفين جملة في زمرة واحدة، وذمهم لأنهم مختلفون، والاختلاف مذموم^(٢).

وتشكل هذه العقبة - أعني اختلاف كلمة المسلمين - خنجراً مسموماً في خاصرة الأمة، هو أسرع إلى فسادها من أي آفة أخرى.

(١) أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، ص ٧٥ عن كتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الخلفاء»، لابن عبد البر القرطبي، ص ١٤٠.

(٢) ولا شك أن الذي أوصل أمثال هؤلاء إلى ذم المختلفين جملة، هو أنهم بنوا هذه النتيجة على مقدمة خاطئة، هي: أن الاختلاف مذموم. والحق أن الاختلاف لا يذم بإطلاق، ولا يُحْمَدُ بإطلاق كذلك. بل المذموم منه، هو الاختلاف في الحق البين أو مخالفته، أو المخالفة بلا بيّنة، بل بالهوى والجهل... أو ما شابه ذلك. أمّا مخالفة المبطلين والتمسك بالحق وإن خالفك الناس، فهذا يَصْدُقُ عليه مسمى «الاختلاف»، ولكنه اختلاف محمود مأمور به.

ومن هنا ، فإن اجتماع كلمة المسلمين عامة ، وعلمائهم خاصة ، أو قل : استعدادهم للتعاون ، يحتاج إلى جهود مضمّنة ومسامح حثيثة مخلصّة وإلى صبر ومصابرة^(١) .

ومن العوائق والعقبات التي تواجه المصلحين في مرحلة النهوض بالأمة:

- قلة المنابر الإسلامية الأصيلة ، مع الحصار المضروب عليها ؛ مما يشكل عقبة في طريق إيصال كلمة الحق ، وكشف زيف الباطل للناس .

ولعل في انتشار القنوات الفضائية ما يعين على تجاوز هذه العقبة ، إذا أحسنت الاستفادة من هذه الفرصة . وإلا فهي سلاح ذو حدين .

* ومنها: الحال التي عليها أكثر شعوب العالم الإسلامي من الجهل والفقر ، ومن التحلل والفسوق .

* ومن هذه العقبات - وهي نتاج ما سبق - غياب القدوة الصالحة المؤثرة في القضايا العلمية والعملية ، بسبب قلتهم ، وتعمد إخفائهم ، وتشويههم .

وهذه العقبة - في نظري - من أكبر العوائق وأكثرها خطورة . وإن ظن أكثر الناس أنها ليست بهذه الأهمية .

هذه العقبات والعوائق ، وغيرها مما سبق الحديث عنه في أكثر من موضع ، وغيرها مما لم أذكر . . . كلها عقبات وعوائق وصعوبات يجب استصحابها واستبطنها لكل من يتصدى لتغيير واقع الأمة .

والذين يظنون أن طريق الإصلاح طريق مذلة سهلة المسالك ، أو يبخعون أنفسهم إذا لم تكن نتائج جهودهم قد أتت على كل المشكلات فحسمتها . . . هؤلاء وأولئك لم يعرفوا طبيعة الإسلام ، ولا قرأوا تاريخ المسلمين بصفة خاصة ، وتاريخ العالم بعامة .

﴿الرَّ * أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنَا وَأَنْهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] .

إن هذه العوائق والعقبات ، هي ابتلاءات وعقوبات بسبب الذنوب ، لا تزول إلا بالمجاهدة والاستصلاح ، والناس لم يجتمعوا على الحق الخالص في زمن النبوت ، ولم يخلص المجتمع الإسلامي من المنافقين والمرجفين وضعاف الإيمان في وقتهم ، فكيف يطمع طامع في ذلك فيمن بعدهم!؟

* تاسعاً: ومن الخطوات في طريق الخروج بالأمة من أزمتها ومخنتها:

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام ، طه جابر فياض العلواني ، مقدمة المؤلف ، ص ٧ وما بعدها .

اعتماد الدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية الهادفة في تشخيص أحوال شعوب العالم الإسلامي، وتوصيف مشكلاته .

وهذه الدراسات على جانب كبير من الأهمية، لأنها تساعد - بصورة كبيرة - على توفير معلومات دقيقة عن أحوال العالم الإسلامي جملة، وأحوال كل دولة منه على التفصيل، فإن ما يصلح من الوسائل في هذا البلد، قد لا يصلح في ذاك، وما يحتاج إليه أهل هذه الجهة، قد لا يحتاج إليه آخرون . . . وهكذا .

وكما تقوم هذه الدراسات برصد الجوانب السلبية والحاجات، فهي كذلك تسجل الإيجابيات الموجودة عند هذا الشعب أو ذاك، لتنميتها وتسخيرها لمصلحة الأمة . إن من الفقه في مجال تغيير واقع الأمة، أن يكون هناك مسح اجتماعي للتعرف على طبائع الشعوب وحاجاتها ومزاياها؛ من أجل تقديم خدمات أفضل لها، ومن أجل تسخير أفضل لطاقتها .

وقد استفاد الغرب - وما يزال - من هذه الوسيلة في غزو الشعوب في أفكارها، واستنزاف خيراتها، كما استفاد منها في أعمال التطوير وتلافي السلبات في دياره . ولعلني أضربُ لذلك مثلاً، بجانب من الجوانب الكثيرة التي تتطلب دراسة علمية، وتكوين رؤية صحيحة حولها، ألا وهو: قياس مستوى الإحساس بأزمة الأمة، ومعرفة الآراء في أسبابها في حسّ أفراد الأمة أنفسهم، على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم . ولستُ بصدد دراسة هذا الجانب دراسة ميدانية، ولكنها مقدمة نظرية مختصرة، وخواطر لما ينبغي أن تكون عليه دراسة في هذا المجال .

فأقول: حينما نتناول دراسة مستوى الإحساس بالأزمة أو المشكلة (بصفة عامة) في حسّ أفراد الأمة ومداركهم، ومعرفة آرائهم في أسبابها، على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم، فإن علينا أن نستبطن جملة قضايا ومسلمات، منها:

* أن الإحساس بأزمة أو مشكلة ما، يعني بالضرورة (الوعي) أو قل: بداية الوعي بها، وأن انعدام الإحساس يعني (الغفلة وغيوبة الوعي تجاهها) .

* وأن التمييز بين أسباب الأزمة وأعراضها ومراحلها، يعني (وعياً متقدماً) . وأن انعدام التمييز بينها أو الخلط فيه، يعني (وعياً غامضاً ومشوشاً) .

* وأن (نوعية الإحساس بالمشكلة) بين الفردية الضيقة، والقطرية الواسعة، والعالمية الأوسع . تعطي انطباعاً تفاؤلياً أو مخيباً لمن يتصدى لدراسة الواقعة . . . كما أن (نوعية الإحساس) تكشف عن (نوعية الوعي) أيضاً .

من هنا نبدأ . . .

وقد نفاجا بما لم نكن نتوقع ، سلباً أو إيجاباً! ولكن لا بد من مواجهة النتائج بما يليه (فقه الواقعة) لا بما يُرضي العواطف أو بغضبها .

* ولا ينبغي لنا أن نستبق الأحداث فنفترض مستوى معيناً للوعي أو الإحساس بأزمة الأمة ، أو بجانب من جوانبها ؛ لأننا حينئذٍ نخالف أساساً من أسس فقه الواقعة . وحتى لو افترضنا وتوقعنا مستوى معيناً فإنه لا يصح بحال أن يؤثر ذلك على مجرى الدراسة أو يتدخل نفسياً في تفسير أو صياغة بياناتها أو نتائجها .

* ولهذا فسوف نعمد إلى رصد بعض النصوص والظواهر والحوادث ؛ لنشارك معاً في نهاية المطاف في قراءة المُحصَّلة وإصدار الحكم . . .

فكيف يحسّ العالم الإسلامي بهذه النكسة والنكبة . أو قل هذا التخلف والضعف المستحکم؟

ما طريقته في تفسيرها؟

أهي شيء واحد، أم أن لها أسباباً ومظاهر، وأنها مرّت بمراحل؟

* شعوب العالم الإسلامي - كغيرها - تتكون عادة من طبقات ثلاث: طبقة الساسة المتنفذين ومن يدور في فلکهم من الرأسماليين ، وطبقة العلماء والمفكرين والقياديين ، وطبقة العامة . والعامة فيهم الأغنياء والفقراء ، والكبار ومن دونهم ، والذكور والإناث . * وإذا استطعنا معرفة مستوى إحساس هذه الطبقات الثلاث ، ونوعية هذا الإحساس ، وكيف يفسّر كل منهم (أزمة الأمة) ، فقد نتمكّن من تكوين رؤية صحيحة تساعد في اجتياز الأزمة وتخطّي المحنة .

* ولا بد قبل البدء في استعراض بعض الأمثلة أن نعرف المقصود بكلمة (الإحساس أو الوعي بالأزمة) ، فقد يكون عند البعض بدهياً ، ولكن لا بد من تحديد المدلول .

* نعني بكلمة الإحساس والوعي بالأزمة: إدراك أبعادها والشعور بخطورها . . بغض النظر عن ذات الشخص: هل عانى منها بشخصه واکتوى بنارها أو لا ؛ بمعنى أن شخصاً ما قد يكون غنياً موسراً ، فهل يعيش مشكلة الفقر والعوز التي يعاني منها العالم الإسلامي على أنها همٌّ من همومه؟ وهل لها مكان في حسّه ، وهل لها نصيب من ماله ، بعد أن نجا منها بنفسه؟ وهل الفقر مشكلة في نظره أم هي مظهر لها؟ . . . وهكذا .

وهذا الفقير المُعَدَّم ، الملتزم سلوكياً ، هل يعيش مشكلة الفساد الاجتماعي والانحراف الخلقي الضارب بأطنابه في ربوع ديار المسلمين؟ . . . إلى آخر ما هنالك .

* ولست أعني بالإحساس والوعي، مجرد قياس نسبة وقع المأساة في بؤرة الشعور لدى الأفراد، ومدى الامتعاض منها، فإن هذا يأتي تبعاً... ولو كان هو المقصود لكان بحثنا في آثار الأزمة، لا في مستوى الإحساس والوعي بها.

هذا تصور موجز لِمَا ينبغي أن تؤسس عليه دراسة من هذا النوع، والغرض التمثيل، والتذكير بأهمية مثل هذه الدراسة.

ويعد، فهذه - باختصار - هي أهم الخطوات التي يقتضيها الفقه في سنن الله، لمن أراد سلوك الطريق إلى (خلاص الأمة).

وقد تركتُ بسط بعض الجوانب والخطوات، مثل تطبيع العلوم الشرعية، والتربية على أهداف الأمة، والعمل على إيجاد القدوة الصالحة، وربط عجلة الإصلاح بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي... ونحوها؛ لأنني سأعرض لها بشيء من التفصيل في الفصلين القادمين بإذن الله تعالى.

وإن من الفقه في سنن الله، أن نعلم أننا كما نحتاج إلى التأمل والتفكير العميق، والسير والتتبع، والتنظير العلمي، من أجل تحديد أدق لطبيعة أزمة الأمة وأبعادها، واتخاذ أنجع الوسائل والأساليب للوصول إلى المقاصد والأهداف.

إن من الفقه أن نعلم أننا كما نحن محتاجون إلى ذلك كله، فإننا كذلك إلى تحويل ذلك إلى ممارسة عملية وواقع مشهود أشد احتياجاً، بل أقول: إنه لا قيمة لشيء من ذلك إذا لم يكن قابلاً للتطبيق من جهة، وأن ما نقوم به مقدمة له ومَعْبَرٌ إليه من جهة أخرى.

فعلام إن لم أشف نفساً حرة يا صاحبي أجيد حمل سلاحني؟

أمّا مجرد العلم بالشيء والتوصيف له والحديث الفارغ عنه، فليس فيه إلا دغدغة المشاعر المعنّاة، لتستنيم للضيم وترضى بالجهل، وهي تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي إلى حيث بدأت. ثم إنه إقامة للحجة على الأمة في الدنيا وشاهد على ما بها من الوهن.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

ومن هنا، فإن مشوار الإصلاح لم ينته عند فقه السنن في حياة الأمم فقهاً نظرياً، ولا ينبغي له أن ينتهي قبل أن نبلغ به جزاء الأهم وغايته، بطرح الأساليب والكيفيات التي نترجم من خلالها الأقوال والآراء إلى مواقف وأفعال إيجابية منتجة.

فإلى هذه المحاولة. إلى الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها.

الفصل الثاني

التفاعل مع السنن وتطبيقها

وأعني بالتفاعل مع السنن: التمازج النفسي والشعوري مع خطوات الإصلاح، بحيث تصبح جزءاً من مشاعر أفراد الأمة وإحساسهم، وليست شيئاً أجنبياً منهم، تمهيداً لتحقيق النقلة المنشودة في عالم الواقع.. مثلما تتمتج السوائل المختلفة، ليخرج من مجموعها مادة نافعة، لا نحصل عليها إلا من هذا المزيج.

وأعني بتطبيق السنن: تحويل النظريات والخواطر والنصوص والآراء إلى سلوك وواقع، نتيجة التفاعل بين (مجموع قدرات الأمة، وخطوات الإصلاح وبرامجه). وما لم توجد قناعة كافية، بل شدة القناعة - على مستوى الأفراد - لم يحصل التفاعل الإيجابي البتة.

وما لم يتحقق هذا الأخير، فلا أمل في تطبيق خطوات الإصلاح المأمول، بصورة صحيحة سليمة.

وليست هناك حدود فاصلة بين عملية (التفاعل النفسي) و(التطبيق السلوكي الواقعي) لخطوات الإصلاح، ولكن هناك مظاهر يُستدل بها على حصول ذلك من عدمه.

فالإصرار والمثابرة وتكرار المحاولة، والإبداع وإتقان الأشياء، والتخطيط السليم، وعدم التسرع بغية اختصار الخطوات بصورة غير طبيعية.. وما شابه ذلك، كلها دلائل على قوة التفاعل بين الأشخاص والأفكار، بصورة صحيحة؛ نتيجة شدة قناعة الأشخاص بتلك الأفكار.

والعكس صحيح، فاليأس والملل والفضل المتكرر، وعدم الإبداع، وإتيان البيوت من ظهورها بغية اختصار المشوار.. ونحو ذلك، كلها مؤشرات على وجود فصام نكد بين الأشخاص والأفكار؛ أي أن الأفكار ليست محل قناعة عند الأشخاص، وبالتالي ينعدم الحماس والإبداع والصبر. ويظهر ذلك في الواقع والسلوك (التطبيق) بصورة شك وتردد، أو فشل وهزيمة، أو تدنٍ في مستوى الإنتاج أو الجودة. أو ما شابه ذلك من المظاهر.

وإذا كان فقه السنن يمثل - بصورة أساسية - مرحلة (العلم) فإن التفاعل معها وتطبيقها يمثل - بصورة أساسية أيضاً - مرحلة (العمل بالعلم) ، ولا يصلح أحدهما دون الآخر ، كما لا غنى عنهما معاً .

ومن تأمل طريقة القرآن وجد أنه كثيراً ما يقرب بين العلم النافع والعمل الصالح على جهة المدح لمن جمع بينهما ، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] . وقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] . وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] . وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] ، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وهؤلاء الجامعون بين العلم النافع والعمل الصالح ، هم أهل الصراط المستقيم والطريقة المحمودة في الدنيا وفي الآخرة . أمّا من أعرض عن واحد منهما ، فهم مذمومون ؛ لأنهم مغضوب عليهم بتركهم العمل بما عندهم من العلم ، أو ضالون بترك تعلم العلم النافع ، والتعبّد لله بالجهل والضلال . والله يذكرهم في القرآن على جهة الذم لهم والتحذير منهم ومن سلوك سيئهم .

وأخبر - سبحانه - أن اليهود مغضوب عليهم ؛ لأنهم علموا ثم لم يعملوا بعلمهم ، وأن النصراني ضالون ؛ لأنهم لم يعبدوا الله على علم ، بل عبده على جهل وضلال ، عبده بالبدع .

ولهذا أمر المسلم أن يستعيد بالله من حال كلتا الطائفتين ، وأن يسأل ربه الهداية إلى الصراط المستقيم ، وجعل هذا في سورة الفاتحة ، التي يقرأها المسلم في كل ركعة من

صلاة؛ فريضة أو نافلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

والصراط المستقيم هو الجامع بين العلم النافع، وهو الإيمان وسائر ما يقرب إلى الله من العلوم، والعمل الصالح، وهو العمل بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، وهو يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح^(١).

وبهذا يتبين لنا، أن العلم النافع والعمل الصالح، يشمل الدين كله. وأقبح مثلين ذكرهما الله في كتابه، هما مثلان مضروران لمن علم ثم لم يعمل بعلمه. قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. وقال: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكُفِرَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وإذ قد تبين بما سبق منزلة العمل من العلم، وأنه بمنزلة الثمرة من الشجرة، والغاية من الوسيلة، فما هي الوسائل والسبل لتحقيق تفاعل أمثل بين أفراد الأمة وبين خطوات الإصلاح، بين الأشخاص والأفكار، بين العلم والعمل به. نراه متجسداً في سلوك حيّ وعمل مثمر وواقع مشاهد؟

لعل في صفحات هذا الفصل محاولة للإجابة عن هذا السؤال.

* * * الطريق إلى تحقق تفاعل الأمة وتطبيقها للسنن الإلهية في الإصلاح.

لعل مسار الحديث أن يتضح بالمقدمة التالية:

من المعلوم من طبائع النفوس، أنه لا يحدث تفاعل ما، بين الشخص والفكرة ما لم تكن الفكرة محل قناعة من الشخص، وبقدر هذه القناعة، يكون الحماس للفكرة ومحاولة تمثلها وتطبيقها.

وأنه بقدر وضوح الفكرة - في ذاتها - وقوة المعرفة بها، يكون تطبيقها أقرب إلى الصحة والسلامة.

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/١٤) وما بعدها.

وبقدر وضوح الأهداف البعيدة للفكرة وسموها، يكون الإصرار وتكرار المحاولة والاستهانة بالعقبات وتذليل الصعوبات .

ومتى اجتمعت هذه الأمور في شخص أو أشخاص ، حول فكرة أو مجموعة أفكار ، تحقق الإبداع والإحسان .

وإذن ، فهاهنا أربعة أمور ، وإن شئت فقل : ثلاثة ، والرابع نتيجة لاجتماعها :

١ - مدى القناعة (الإيمان) بالأفكار ، وينتج عنه مستوى التفاعل معها . وهذه القناعة (الإيمان) ، تتأثر قوة وضعفاً بـ :

٢ - مقدار وضوح ومعرفة الأفكار - في ذاتها - وهذا ينتج عنه سلامة التطبيق وحُسن التمثيل لها .

٣ - وضوح الأهداف وسموها ، وينتج عنه الإصرار والاستهانة بالأخطار وتذليل العقبات . وهو مستلزم للأمرين الأولين ؛ لأنه ما لم تتضح الأفكار وتحصل القناعة المنتجة للتفاعل ، لم تتضح الأهداف البعيدة ، ولم يوجد الإصرار على تحقيقها ، وتذليل العقبات في طريقها . . . وهل الأهداف البعيدة العامة إلا مستفادة من مجموعة الأهداف والقناعات الأولية القريبة؟ وهل سموها إلا من سموها وشرفها؟

٤ - واجتماعها في شخص أو أمة ، يُنتجُ الإحسان والإبداع ، وهو يمثل قمة التفاعل وأحسن صور التطبيق .

أي أن لكل منها - أي الأعمال - حدًا أدنى ، وحدًا أعلى ، ووسطاً متفاوتاً . ويُقاسُ نسبة النجاح والإخفاق بنسبة القرب أو البُعد من هذا الحد أو ذاك .

ويدرك هذا النجاح أو الإخفاق بالوقوف على آثارها في الواقع ، ومدى تحققها . ومن هنا ، فإنُّ علينا إن كنا جادين في إصلاح أوضاع الأمة المتردية - بعد أن شخصنا مشكلتها وأدركنا حجمها - أن نعالجها باستصلاح الخلل الطارئ على الأمور السابقة ، بصورة عملية .

وجمَّاعُ ما تستصلح به الأحوال بصورة مجملة:

* تربية أفراد الأمة بالعلم النافع والعمل الصالح وعليهما .

* وإيجاد المناخ الملائم لهذه التربية .

* وهذا وذاك ، لا يتم تمامهما إلا بإزالة العوائق ومنع المؤثرات ، التي تحول دون

تحقيق ذلك بصورة كلية ، أو تزاممه وتقلل من ثمرته .

ويتفرع عن هذه الجُمْل ويلزم لها من التفاصيل العملية ما لا يحصى كثرة . وسأذكر أهمها بعد إيضاح الأمور الأربعة السابقة بشيء من البسط .

ولتذكر دائماً أن الإصلاح الذي نتحدث عنه ، هو إعادة الأمة الإسلامية إلى الحق الذي هو الإسلام على منهج أهل السنة والجماعة ، وعرض واقعها على نصوص الكتاب والسنة ، وتقويم هذا الواقع وتصحيحه على هدي من سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه وسيرة السلف الصالح .

وبعد ، فلنبداً الحديث عنها ، واحدة واحدة .

ففيما يتعلّق بمدى قناعة (إيمان) عامة أفراد الأمة بـ (الإسلام) كدين شامل كامل ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً ونظام حياة ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، وقادر على حل كل مشكلات الحياة ، ومواكبة التطور والتقدم المادي ، بل وقيادته ، وتحقيق الأمن والرخاء والسعادة للإنسان . . . إلى آخر ما ينطوي عليه من مزايا ، وما يتفرّد به من خصائص لا غنى للبشرية عنها .

أقول: إن الأمة الإسلامية اليوم تعاني - في مجموعها - من خلل كبير في هذا الجانب ، نتيجة الغزو الفكري المركز ، والتشويه المتعمّد لتعاليم الإسلام وأحكامه ، ونتيجة لتخلف المسلمين أنفسهم في واقعهم السياسي والاقتصادي والعسكري . . . وغير ذلك .

وخلاصة هذا الإخطبوط الشيطاني: هو إلصاق كل نقائص المسلمين وأخطائهم بذات الإسلام ، وإيهام المسلمين أنفسهم بأن ما أصابهم هو بسبب الإسلام الذي يؤمنون به .

وقد أحدث ذلك كله اضطراباً وشكاً خامر نفوس الكثرة الكاثرة من المسلمين ، وظهر على فلتات السنة بعضهم ، وتجسد في أكثر أعمالهم ومواقفهم .

والإيمان الجازم ، أعني (الاقتناع) بالإسلام ، إيمانان:

إيمان مفصّل واع ذو حرارة وتأثير ، وهو حظ القلة - بل الندرة - من خلاصات المسلمين .

وإيمان مجمل غامض ذو تأثير محدود ، وهذا الضرب هو حظ أكثر المسلمين اليوم من

الإسلام .

وأبرز مظاهر هذا الأخير في الواقع، أنه يميز المسلمين بالهوية، و ببعض الشعائر التعبدية، والأحوال الشخصية، وبشيء من العواطف الإسلامية، يمكن استئثارها عند بعض الأحداث الكبيرة الواضحة .

وقد اختلط بهذا الإسلام، ما لا يُحصَى من أنواع البدع والخرافات، وضروب المعاصي والمخالفات الكبيرة في العقائد والأحكام؛ كالتوسّل والتعلق بالأموات، وكالسحر الشعوذة وموالات الكافرين، والاحتكام إلى أنظمتهم وقوانينهم، وكالتوكّل على غير الله والخوف مما سواه . وكالربا وشرب الخمر وارتكاب الفواحش والغش والكذب والسرقة وعدم إتقان الأعمال . . . إلى آخر ما هنالك .

وحديثنا عن هذا الضرب، وهو واقع عامة المسلمين .

إنّ عدم أخذ الإسلام بشمولية وبقوّة، والشكّ في قدرته على حل مشكلات الأمة المتفاقمة، والرضا ببعض الأنظمة البديلة، والحلول التفيقية . . وما إلى ذلك، هي أدلّة قويّة شاهدة على اضطراب إيمان وقناعة من هذه حالة بالإسلام كنظام كامل شامل لكل جوانب الحياة .

ويتبع ذلك ويتبع عنه - عادة - ضعف التفاعل مع هذا الدين وقضاياه، لتخلف شرطه وهو شدة القناعة وقوة الإيمان به . وهذا - كما أسلفت - لسان حال أكثر المسلمين، وإن كان لسان مقالهم يقول غير ذلك .

إنّ علينا - معشر المسلمين، وخصوصاً العلماء والمصلحين - أن ننظرَ بجد في سبب مشكلة ضعف التفاعل مع الإسلام وقضاياه، وعدم الجدّ في أخذه والالتزام به . . أن ننظرَ في سبب هذه المشكلة .

وسببها وأساسها، هو: ضعف الإيمان بالإسلام بمعناه الشامل، وعدم التسليم المطلق؛ أي: عدم القناعة التامة بذلك .

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يتظاهر - بصورة مستمرة - متفاعلاً مع قضايا الأمة وهمومها، ومتفانياً في خدمة الإسلام، غيوراً على مصالحه، وهو لا يملك القاعدة التي ينطلق منها والمحطة التي يتزوّد منها، لا يملك الإيمان الصادق والقناعة الكافية .

لا يملك القدرة على التخلص من كثير من الأمور المخالفة لهدي الإسلام، وإن كان يعلم مجرمتها مثلاً؛ لأنّ هنا انفصلاً في اللاشعور بين عالمه الخاص وبين الإسلام؛ لأنّ القناعة وقوة الإيمان لم ترتق لتحدث انتفاعل التام بين عالمه وبين الإسلام، وبالتالي فإنّ

له منظاراً آخر ورأياً آخر غير رأي الإسلام ونظره في بعض الأمور أو في كثير منها، وإن كان مسلماً يصلي ويصوم! . وقد يكون له هذا المنظار الخاص المخالف لرأي الإسلام تجاه نفسه، بينما هو مثالي في خطابه ونقده لأوضاع الآخرين . . أي أنه يستجيز لنفسه ما لا يستجيزه لغيره .

ولهذا السبب، نلاحظ أن أكثر المسلمين اليوم يعيش تناقضاً عجيبياً .

تجد مسلماً يصلي ويصوم ويتصدق، ويأكل الربا ويستبيح الاختلاط، وقد يكون معجباً شديد الإعجاب بالكافرين!

وتجد آخرَ شديد الحماس لقضية أو مجموعة من قضايا الإسلام؛ كبناء المساجد والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين ممن حوله، ولكنه لا يرفع بمجازر المسلمين هنا وهناك رأساً، ويخل عليهم بأقل القليل .
وتجد ثالثاً . . ورابعاً . . وهكذا .

وهؤلاء كل منهم يؤلف في شخصيته بين حق وباطل، لا عن جهل، ولكن عن فساد في التنشئة والتربية .

ومنهم من يُعنى بأمور، ويدع ما هو أكبر وأولى منها، لا على سبيل التخصص! ولا عجب، فإنَّ القناعة بهذا الأمر أو ذاك تولد تفاعلاً يقود إلى الإيجابية، على حين تكون القضايا الأخرى ما تزال بالنسبة له في دائرة الظل، وقد لا تكون عنده بها أدنى قناعة، وبالتالي تولدت عنده هذه السلبية تجاهها .

وقد يقول قائل: هب أننا سلمنا بأن التفاعل مع الأشياء وليد القناعة بها، فكيف توجد القناعة بالأشياء؟

وهنا ندخل في بيان الأمر الثاني، وهو:

أن نعلم أن القناعة بالأشياء محكومة بمقدار وضوح هذه الأشياء في الأذهان؛ أي أن القناعة وليدة وضوح الفكرة .

والقناعة - بعد وضوح الفكرة - قد تكون بشدة قبولها وتبنيها، وقد تكون بشدة رفضها ومقاومتها . وكلاهما مقصود، فإنَّ مقاومة الأفكار الرديئة ورفضها مراد، بمنزلة قبول الأفكار الصحيحة وتبنيها . . . كلاهما مراد، وكلاهما يحتاج إلى قناعة وإيمان .

كما أن وضوح الفكرة يعني فهمها والمعرفة التامة بها، أيا كانت الصورة التي تتم وتحصل بها المعرفة؛ بالقراءة أو السماع، أو بطول الإلف والمعاشة وتكرار المشاهدة أو الفعل... أو ما شابه ذلك.

وأية قناعة بفكرة ما، إذا لم تكن مبنية على أساس من العلم والمعرفة والفهم، فإنها قناعة وقتية وعاطفية وغير راسخة.

وأية قناعة بفكرة ما، بُنيت على معلومات خاطئة وفهم مغلوط، فإنها وإن تحولت إلى ممارسة، فإنها محرومة سلفاً من التطبيق الصحيح، وقد تضر أكثر مما تنفع. وبناءً على هذا، أقول:

إن الاضطراب والسلبية التي تكتنف المسلم المعاصر تجاه الإسلام وقضايا المسلمين اليوم، منشؤها الجهل بالإسلام - بمعناه الشمولي - وعدم فهمه فهماً صحيحاً.

وواقع أكثر المسلمين اليوم تجاه الإسلام، لا يخلو من إحدى حالتين:

* إما جاهل لا يدري أهذا الفعل أو ذلك من الإسلام أم لا!

* وإما عالم بأنه من الإسلام، ولكنه جاهل بالكيفية الصحيحة لفعله؛ أي لا يعرف الحق فيه على وجه التفصيل.

وغير هذا وذاك، العالم العارف بالحق على التفصيل، ولكنه مستبطن للمخالفة متعمداً لها، فهذا له شأن آخر، وليس مما نحن بصدد الحديث عنه.

ويحسن أن أضرب لكل حالٍ مثالاً يتضح به المقصود.

إن خروج المسلم من إسلامه بأن يؤمر بترك الشهادتين بصورة مباشرة صعب جداً، وقد يكون - في كثير من الأحيان - غير ممكن!

ولكن خروجه من إسلامه بأن يقرّ بنظام علماني يفصل الدين عن الحياة، ويشرّع من الأنظمة ما لم يأذن به الله.. أو يخرج من إسلامه بالتوسل ودعاء الأموات والطواف حول القبور والأضرحة، مما هو من الشرك الأكبر.. أو بنحو ذلك من المكفرات، فهذا ممكن، وهو كثير، وأكثر من يقعون فيه لا يعلمون!

فكيف ذلك؟ وما الفرق بين أن يؤمر بترك الشهادتين، أو أن يترك مقتضاهما،

ويأتي بما يناقضهما؟

إنَّ قناعته بأن كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي الفيصل بين الإيمان والكفر قوِيَّةٌ ؛ لأنَّه قد علم ذلك وفهمه .

ولكن قناعته بأن النظام الذي يحتكم إليه علماني كافر ، وأن التوسل والدعاء الذي يمارسه كفر . . هذا وذاك ليسا محل قناعة تامة ؛ لأنَّه لم يعلم ذلك ولم يفهمه فيما فهم من دينه ، أو أن علمه به لم يبلغ حد الإيمان الجازم . . . وقد يجادل ببراءة عن فعله بأنه لا يناقض الإسلام ، وأنه يفعل ما يفعل للقربة والبركة ، وقد يزيد فيزعم أنه يُثابُّ على فعله ذلك^(١) !

هذا مثل، ومثل ثان:

قد تجد المسلم يحافظ على الصلوات محافظة شديدة ، ولكنه قد يؤديها بكيفية خاطئة تؤدي إلى بطلان الصلاة ؛ كترك الطمأنينة مثلاً ، أو عدم صحتها أصلاً ؛ كترك الوضوء لها أو الإخلال به إخلالاً يؤدي إلى فساده ؛ كأن لا يسبغ الوضوء أو لا يحسن التطهر من الحدث الأكبر . وقد يسبقها أو يعقبها بأذكار بدعية ، أو بكيفية بدعية ، كأن يحافظ على أذكار لم ترد على لسان الشارع ، أو يؤديها بصورة جماعية غير مشروعة . . ونحو ذلك . فهو قد علم وفهم أن من لازم كونه مسلماً أن يصلي هذه الصلوات . . ولكنه تعلم كيفية أدائها أو الاستعداد لها بصورة خاطئة .

فمثل هذا المسلم قد علم مشروعية الصلاة ومنزلتها من الدين ، فهو لا يدعها لقول أحد . ولكنه جاهل بالكيفية الصحيحة لأدائها ، فمن ثم أخلَّ بها هذا الإخلال الذي قد يصل أحياناً إلى حد إبطالها .

ويمكن أن نقيس على هذين المثليين عشرات الأمثلة .

ومما سبق ، يتضح لنا أن العلم والمعرفة بالأشياء ضرورية ؛ لأمر ؛ منها:

أولاً: أنها هي الطريق إلى القناعة بالأفكار والأشياء ، والقناعة هي أساس التفاعل معها والتطبيق لها ، كما سبق .

وثانياً: أن هذه المعرفة هي التي تضمن سلامة التطبيق وصحة الأداء .

(١) ولستُ هنا بصدد التفريق بين من يفعله جاهلاً أو متأولاً فيكون غير كافر بفعله ، وبين من يفعله عالماً عامداً فيكون كافراً ؛ لأن الغرض هو بيان مدى الغموض والجهل الذي يكتنف تعاليم الإسلام وشرائعه عند كثير من المسلمين .

فإنه لا قيمة لفكرة لا تلقى قبولاً وقناعة تكفي لإخراجها من حيز التنظير إلى ميدان التطبيق. ولا قيمة لفكرة لقيت قناعة، لكنها حُرِّمَت من التطبيق الصحيح، بسبب معرفة خاطئة.

وهل يلزم من القناعة بالأفكار والتفاعل معها وتطبيقها تطبيقاً صحيحاً... هل يلزم من ذلك كله وضوح الأهداف؟

وبعبارة أخرى: هل يلزم من معرفة الفكرة، وضوح الهدف منها؟ يبدو لي أن معرفة الفكرة وتطبيقها عملياً بصورة صحيحة للمرة الأولى، لا يستلزم وضوح الهدف من الفعل بإطلاق، أو لا يستلزم وضوح كل الأهداف. لأنَّ الهدف قد يكون واحداً، وقد يكون عدة أهداف، بعضها قريب واضح، وبعضها بعيد يحتاج إلى تأمل وسبر.

ولكن هدفاً ما، لا بد أن يكون واضحاً في ذهن الفاعل؛ لأنه هو الذي يفسر الدافع إلى هذا الفعل أو ذاك، ولا بد من وضوح جملة الأهداف لضمان تكرار الفعل واستمرارية الصواب.

ولإيضاح هذه النقطة، أضرب لك هذا المثل:

قد يوجد شخصان بشيء من المال لإخوانهم المضطهدين الذين يواجهون عدواً من الكافرين، في مكان ما من العالم.

أما أحدهما فقد جاد بالمال وسخا به؛ لتحقيقاً لمعنى الأخوة في الدين والثَّصرة على العدو، ولتفريج كربة من كرب هؤلاء المسلمين، ورجاء ثواب الله في الدار الآخرة. وهي كلها أهداف صحيحة ومطلوبة.

وأنفق الآخر ما أنفق، وفي ذهنه هذه الأهداف كلها، ولكن كان يسيطر عليه هاجس آخر زائد عليها، هذا الهاجس يتمثل في: أننا يجب أن نعين إخواننا لأنَّ عدونا مشترك، والذي يتغدى بهم سوف يتعشى بنا، فنحن حين ندعم إخواننا، فنحن ندافع عن أنفسنا في حقيقة الأمر، وإخواننا يقاتلون ويدافعون نيابة عنا.

فهل سيكون موقف هذين من مسألة البذل والجود بالمال لهذا الغرض، واحداً؟

لا أظنُّ ذلك! سيكون بينهما - في الغالب - اختلاف في مقدار المبلغ المدفوع... وفي استمرار الدعم ما دامت الحاجة قائمة.. وربما في التفكير بوسائل أخرى لتخفيف

المعاناة ، ما أمكن ذلك . أي: سيختلفان في مدى الإصرار والثبات ، وتذليل العقبات ، وتخطيها من أجل تنفيذ وإنجاح الفكرة .

أرأيت إذا كانت الفكرة في ذاتها شريفة صحيحة ، موافقة لطباع النفوس ، وأهدافها سامية ، في الدنيا والآخرة!
إنّ التفاني سيكون أكبر بلا شك ، وإن تحقيق الأهداف سيكون من طلابها قاب قوسين أو أدنى .

إذن ، فإنّ علينا لتحقيق تطبيق أمثل لتعاليم الإسلام ، أن نبرز الأهداف والحكم والمقاصد من الأوامر والنواهي ، وسائر التطبيقات والمواقف .

وأن نطرح في الساحة الإسلامية نماذج صالحة يقتدي بها عامة الناس ، ليتدربوا على النهوض بالمسئوليات الفردية والجماعية . وتكون هذه القدوة القريبة متجردة من داء الحزبية ومن عاهة الأنا . . يدعون الناس إلى القدوة المثلّى ؛ إلى الاقتداء بشخص الرسول ﷺ ، والدوران حول فكرة الإسلام من خلال هديه وطريقته ﷺ .

وتبدو أهمية إبراز قدوات عملية ، ونزولها في الساحة الإسلامية ، إذا ما أدركنا غربة الإسلام في نفوس الناس وواقعهم ، بسبب تكريس البدائل الرديئة وتقريبها وتعميمها ، وحمل الناس على اعتناقها والإعجاب بها بكل وسيلة .

وأية فكرة لا ينهض لحملها وتمثلها رجال يسرون بها بين الناس ، فإنها فكرة كسيحة ، بل ميتة لا تستحق في نظر الآخرين شرف الحياة .
يقول قائلهم: لو كانت هذه الفكرة ذات قيمة وشأن ، لكان أهلها ودعاتها أولى من يتمثلها وأول من يجسدها .

وأخيراً ، فإنّه إذا توافر في شخص أو أمة من الناس ، عن فكرة أو مجموعة أفكار: معرفة صحيحة ، وقناعة قويّة ، وتفاعل تام ، وتطبيق سليم ، وكانت أهدافها واضحة ونبيلة . فهذا غاية المأمول ، وحينئذ نكون قد حققنا شيئاً كثيراً يستحق كل الجهود المبذولة .

وبعد هذا البسط الوسيط للمراحل التي يتم من خلالها التفاعل الأمثل والتطبيق الصحيح من قبل أفراد الأمة لخطوات استئناف الحياة الإسلامية ، بعد طول غياب... بعد ذلك أنتقل لأطرح بعض الوسائل العملية التي تسهم في بعث روح الإسلام في النفوس ، وتجسيد تعاليمه في عالم الواقع .

وقد أشرتُ من قبل إلى أن جِماع الخير لهذه الأمة أن تتربى على العلم النافع والعمل الصالح . وهذا هدف نبيل وأفق سامق ، فكيف نصل بالأمة إليه؟

لا شك أن الوصول بأفراد الأمة الإسلامية إلى درجة أن تكون علومهم نافعة وأعمالهم صالحة ليس بالأمر الهين، وإن في طريقه من العقبات والعقائيل الكثير الكثير، ولكن مسافة ألف ميل تبدأ بخطوة، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق الموصلة بين الأمة وبين أهدافها الكبيرة .

وما قيمة المنجزات المادية العملاقة إذا كانت مشيدة بعقول وأيدٍ أجنبية، ومواد أجنبية، وتُدارُ بكفاءات أجنبية؟!

وما قيمتها إذا كانت الأمة لم تدرك بعدُ قيمتها، ولم تحسن استغلالها، وهي غير قادرة على تطويرها؟!

وما قيمة البعثات العلمية، إذا كان نصيب الأمة منها دفع فاتورة التكاليف، ثم تكون غنيمتها منها زيادة في عدد الذين يحسنون رطانة الأعاجم، وغشاء الأعاجم؟!

وما قيمة المؤتمرات العلمية والفكرية إذا كانت قراراتها حبراً على ورق، وكان الذي ينظمها غير مؤمن بنتائجها سلفاً، والذي يشارك فيها غير قادر على تبني نتائجها سلفاً؟!

لا قيمة تُذكرُ لشيء من ذلك، إلا مزيد من التخدير للمشاعر، وتطويل أمد المعاناة للأمة .

فكيف نصل بالأمة إلى بغيتها؟

يمكن ذلك عن طريق واحد فقط !

عن طريق الأمة نفسها، وعلى وجه الخصوص عن طريق إنسان الأمة!

إن الأمة الإسلامية هي الإنسان بخصائصه، وبما يحمل من مبدأ وفكرة، مضافاً إليه الأرض، والثروات، والزمن، الذي هو عمر الأمة ومضمار سباقها .

والبداية من الإنسان، فهو الذي يصنع الحضارة، وهو الذي يحمي الحضارة .

فإذا استطعنا أن نقدم له الإسلام بمعناه الصحيح ونفهمه إيّاه، منطلقين من القاعدة المشتركة والمفاهيم الأساسية التي ورثها إنسان الأمة المسلمة؛ كونه مسلماً ومن أمة مسلمة، وأن تاريخه وقدره هو الإسلام . لو فعلنا ذلك فإيُّه سوف يقتنع به تلقائياً . . وسوف يتفاعل مع تعاليمه فيطبقها بصورة صحيحة، وسوف يستमित في الدفاع عنها، بإذن الله .

فكيف نجعل إنسان الأمة بهذه المثابة وبتلك المنزلة؟

بالتعليم الصحيح، والتربية السليمة .

التعليم والتربية اللذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر لا في الواقع ، ولا في الأهداف العامة ، وإذا انفصلا عن بعضهما ، أو تنافرت أهدافهما فلا قيمة تذكر لكل منهما .

وكلاهما شاق ودونه عقبات . ولكن لا بد منهما لنبداً بداية صحيحة .

ولن أدخل في تفاصيل الأشياء ، لن أتحدث عن كيف تُقام المصانع وتستخرج ثروات الأرض ، وكيف تُمش الجيوش ، وما إلى ذلك . فتلك أمور تُدرك الأمة حاجتها إليها ، وتبحث وسائل تحقيقها ضمن أولوياتها . ولن يعجزها ذلك إذا كانت مؤمنة بالإسلام حقاً ، مستقلة في إرادتها وإدارتها . إنها كلها تابعة للإنسان ، نابعة منه ، مصطبغة بأهدافه خادمة لها .

وبقدر ما تستجيب مؤسسات الأمة التعليمية والإعلامية ، الرسمية والشعبية ، بقدر ما تستجيب لهذا الغرض ؛ التعليم الصحيح والتربية السليمة ، وتتوفر لتحقيق هذا الهدف ، تكون النتائج أفضل وأسرع .

وبقدر ما تقتنع قيادات الأمة العلمية والفكرية ويقتنع دعائها ومصالحوها ومربوها بهذا الاتجاه ، يمكن تغطية الساحة الإسلامية وملء الفراغ ، من الناحيتين العلمية والعملية التربوية ، بصورة جيدة .

بقدر ما يدرك هؤلاء أن مشكلات الأمة ثقافية وليست مدنية ، مشكلاتها في حزمة القنوات المبدئية ، وليست في كمية الأشياء والموجودات . بقدر هذه القنوات تكون إبرة بوصلة النهضة في الاتجاه الصحيح .

وفي الصفحات التالية ، أذكر أهم الوسائل والأساليب التي أرى أنها مما يمكن تبنيه وتطبيقه ، وتربية أفراد الأمة عليه ، في ظل الأوضاع الراهنة للأمة الإسلامية .

* فمن هذه الوسائل والأساليب:

العمل على نشر العلوم الشرعية في أوساط الأمة، وتنقيتها وتطبيعها.
وهذه أول خطوة يجب البدء بها؛ لأسباب كثيرة، منها:

* أن العلم هو مفتاح العمل ودليل العامل. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ [محمد: ١٩]. فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

* ومنها: أن الأمة تعيش حالة من الجهل في كثير من مسائل الدين والشرع، في أبواب العقيدة والعبادات والمعاملات... وغيرها؛ لأسباب ليس هذا محل بسطها، فهي بحاجة إلى التعليم والبيان، قبل أن تطالب بالعمل والتطبيق الصحيح، وقد تقرر أن الجاهل معذور حتى يبلغه العلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْزِلْنَا قَوْلًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾

[التوبة: ١١٥].

أي: ما كان الله ليحكم على قوم بالضلالة حتى يبين لهم ما يجب عليهم أن يفعلوه مما يجب عليهم أن يذروه، ثم يخالفون أمره ونهيه.

«قال مجاهد في معنى هذه الآية: بيان الله - عز وجل - للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا»^(١).

* وحتى الجوانب التي تعلم الأمة أنها من الشرع والدين، قد اختلط فيها الصواب بكثير من الأخطاء. ولا بد من العلم لتصحيح الأخطاء، وإلا كانت الدعوة المجردة تعني تكريس الأخطاء، والتعبد لله بالبدع والخرافات، كما هو حال أكثر المسلمين اليوم!

* وقد اختلط عند كثير من الناس العبادات بالعبادات، وما هو من الدين والشرع بما هو من الأعراف والتقاليد. ولا بد من العلم لتمييز هذه من تلك.

* والعلم ضرورة ملحة للقضاء على البدع والخرافات، والأهواء والشهوات، وجمع كلمة الأمة على الحق، الذي هو الإسلام، ولا تجتمع الأمة على الحق ما دامت البدع والأهواء والشهوات مستحكمة، ذات سلطان على العقول والقلوب.

(١) تفسير ابن جرير (١١/٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٩٥)

* ثم إن العلم الشرعي هو الطريق إلى حماية الأمة الإسلامية من الاستغلال والاستغلال تحت شتى الشعارات .

كما أنه الطريق إلى معرفة حقوقها المشروعة ، وكيفية تحقيقها ، وحمايتها ، وكيف تستردها عن اغتصابها واعتدى عليها .

* وباختصار ، فإن العلم الشرعي هو العلم النافع ، الذي هو أساس العمل الصالح ؛ إذ لا يتصور عمل صالح ، نافع لذات عامله وللخلق^(١) ، لا يسبقه ويدل عليه علم نافع . وإذا فسد العلم أو قُيد ، فسد العمل تبعاً له .

فالعلم أساس الإيمان ، فإن الإيمان في اللغة هو: التصديق ، والإيمان بالله هو: التصديق به - سبحانه - وبما جاء من عنده ، وذلك هو ذروة العلم النافع .

وأي إصلاح للأمة لا ينطلق من أساس العلم الشرعي ولا يُبنى عليه فهو جهد ضائع ، وبداية خاطئة!

وقد كان رُسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - معلمين للبشرية بالقول أولاً ، وبالعمل ثانياً .

قال سبحانه: ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

[النحل: ٣٦]

والأمر بعبادة الله وحده وتوحيده والنهي عن الشرك وعبادة الطاغوت ، أشرف تعليم منهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لأممهم .

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وامتدح الله الربانيين بأنهم يُعلِّمون الكتاب ويدرسونه ؛ أي: يبيِّنون للناس الحق بالتعليم والعمل ، ويربونهم عليه ، ويشفقون عليهم من مخالفته^(٢) .

(١) وهو الجامع بين الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ فُقَرَاءً رِيْبَةً فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَيْبَسَ دُونَ رِيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

(٢) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْحِينَ يَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠٦] ، قال: كونوا فقهاء معلمين ، وقال سعيد بن جبیر: العالم الذي عمل بما تعلمه ، وقال عطاء: كونوا حكماء وعلماء ونصحاء لله في خلقه ، وقيل: الربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس ، وقيل: هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره . انظر: تفسير البغوي (١/ ٣٢٠ ، ٣٢١) .

وما كان إعراض أكثر الخلق عن الحق وردّهم له إلا بسبب الجهل ، سواء كان إعراضهم إعراض استكبار وعناد ، أو كان محض تقليد للأباء والأسلاف ، أو كان لمجرد الهوى والشهوة .

قال تعالى: ﴿ وَجَمَلُوا أَلْمَلِيكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتَأْ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبْ شَهَدْتُهُمْ وَرَسَلُوا * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ أَنْتُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ * قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩ - ٢٤] . وذلك كله بسبب الجهل ، فإن هذه كلها يجمعها أنها معاصي الله كبار ، وكل من عصى الله فهو جاهلٌ بوجه من الوجوه ، ولو كان عالماً ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧] .

«قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً ، فهو جاهلٌ حتى يترع عن الذنب .

وعن قتادة عن أبي العالية^(١) أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة . وعن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره . وعن مجاهد قال: كل من عمل بمعصية الله فذاك منه بجهل حتى يرجع عنه» .

وقال: كل من عصى ربه فهو جاهل ، حتى يترع عن معصيته^(٢) .

ووجه ذلك: أن الجهل قد يكون عدم معرفة الحق الذي هو حكم الله في هذا الأمر ، وقد يكون جهلاً بقدر الله وقدرته وعظمته وسعة علمه ، وما ينبغي له سبحانه من نعوت العظمة والجلال .

وجميع المعاصي والمخالفات تندرج تحت هذين .

(١) هو: رفيع بن مهران البصري ، الرياحي ، من كبار التابعين ، أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بستين ، قال أبو بكر بن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن منه» . وقال أبو القاسم الطبري: «هو ثقة يجمع على توثيقه» . روى له البخاري ومسلم . توفي سنة تسعين ، وقيل غير ذلك . انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٠٧) ، وكتاب الوفيات ، لابن قنفذ القسطنطيني ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٤/٢٩٨ ، ٢٩٩) ، وتفسير ابن كثير (١/٤٦٣) .

وقد تكون بالجمع بينهما .

قال تعالى لنييه ورسوله نوح ﷺ في شأن ابنه: ﴿وَأَدَايُ نُوحٍ رَبُّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦] .

وقال يوسف ﷺ لإخوته: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] .

وقال موسى ﷺ عن نفسه لما قال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِيْنَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ * وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٢١] .

وقال جل وعلا مبيناً علة تطاول المشركين من أهل الكتاب وغيرهم على جنباه الرفيع ، وجراءتهم على الكذب عليه سبحانه والشرك به ، أنهم ما عظموه حق عظمته سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَتَّخِذُونَهُ قَرَأَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] .

وقال سبحانه عن نفسه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] .

والذين كفروا هم سائر الكفرة من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، ومن غيرهم من سائر أصناف الكفر .

وعن مجاهد في قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ؛ أي: يشركون^(١) .

وهذا تعجيب من حالهم المنبئة عن عظيم جهلهم وظلمهم .

ثم إنَّ الجهل هو أيضاً سبب التخلف في علوم المادة . ولا تستطيع الأمة الإسلامية اليوم أن تظفر بهذا العلم ، ما لم تسترد حقوقها التي أضاعتها ، وتعرف مكانتها ورسالتها في هذا العالم . وقد عرفت أن هذه لا يمكن تحقيقها لهذه الأمة - بصفة خاصة - ما لم تسلح بالعلوم الشرعية ؛ لأنها حينئذ ستعلم أن العلم الذي يتوصل به إلى تحصيل القوة المادية ضرب من ضروب العلم النافع ، المطلوب شرعاً . وعندها سوف تسعى إلى تحصيله ، على أنه جزء من دينها تنتظر الثواب عليه في العاجل والآجل ، وسوف تطالب بتحقيقه على أنه جزء من حقوقها المشروعة . وليس منطقة محظورة لا دخل لها فيها!

والمقصود بالعلوم الشرعية التي يجب نشرها وتنقيتها وتطبيعها في أوساط الأمة لتأهل لتطبيق الإصلاح المنشود ، هي العلوم المتصلة بالعقيدة ، والمتعلقة بالأحكام التفصيلية ؛ العلمية والعملية . وهي تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وتشمل أعمال الحياة العامة وموقف الإنسان منها .

والمقصود بتنقيتها: تصفيتها من الشوائب ، سواء كانت من قبيل البدع ، أو من قبيل الاجتهادات التي لا دليل عليها ، ومن الأقوال الشاذة والضعيفة التي ثبت ضعفها ، وتبين الحق بخلافها . فإنَّ الأمة لم تتعب بالعمل بكل ما قيل ، بل بما شرعه الله ورسوله ﷺ .

ويمكن تطبيع العلوم الشرعية على مستوى الأمة بتقريبها ، وتعميمها .

وأعني بتقريبها: تسهيلها وتبسيطها ليسهل فهمها واستيعابها وحفظها والرجوع إليها للعامة ، فضلاً عن الخاصة .

ويدخل في تقريب العلوم الشرعية إلى الفهوم والأذهان: اختصارها والتركيز على الأهم فالأهم منها ، وترك التفاصيل التي لا ضرورة تدعو إليها لكل أحد ، وإفراد المسائل الأهم في كتيبات صغيرة ، تنبيهاً على أهميتها ، ولئلا يُنسى بعضها بعضاً ، وهكذا .

ومما يساعد في تقريبها: جودة إخراجها ، وحسن أسلوبها وعرضها ، ووضوح عرضها وقوة دليلها .

وأعني بتعميمها: العمل على نشرها في كل مكان ، وبكل وسيلة ممكنة ، في المدن والقرى والهجر ، وفي المؤسسات والشركات ، وفي البيوت والمنتديات . فضلاً عن المدارس والجامعات وغيرها .

وبكل وسيلة ممكنة ؛ كالكتيب ، والشريط ، والمطوية ، وعبر الصحيفة والمجلة والجريدة ، والإذاعة والتلفاز ، والإنترنت . . . وبالخطب ، والدروس والمحاضرات والندوات والمناسبات ، وبالمراسلة والمهاتفة . . . وغيرها .

. وحتى تؤتي هذه الوسيلة الخطيرة - أعني نشر العلوم وتطبيقها - الثمرة المرجوة منها، ينبغي ملاحظة ما يلي:

* أن تكون جامعة بين الترغيب والترهيب بأسلوب واعظ يخاطب العقل والقلب والعاطفة معاً.

* وأن تعتمد على الدليل والتعليل في جانب التأصيل، وعلى الدليل والتعليل مضافاً إليه الوثائق والأرقام والإحصاءات والشهادات في الجانب الواقعي.

* التركيز على شمولية الإسلام وعظمته، وأنه عُني بكل دقيق وجليل مما يحتاج إليه الإنسان في الدنيا والآخرة، وربط القضية الجزئية - محل الدراسة - بمحور الإسلام وأساسه وهو العقيدة؛ لئلا يُظن أن العقيدة شيء منفصل عن السلوك والعمل، أو يظن أن السلوك والعمل يمكن أن يوجد بصورة قوية راسخة دون أساس من العقيدة والإيمان بالله.

* ربط العلوم الشرعية بالواقع المعاش، عن طريق استمداد الأمثلة والشواهد من الواقع، وتأصيل العلوم التي يُظن أنها أجنبية لا تعرفها الشريعة الإسلامية تأصيلاً شرعياً، كالعلوم الاجتماعية والتربوية والنفسية والاقتصادية ونحوها.

* العناية بالمناسبات والأحداث، ومعالجتها علاجاً شرعياً، وطرح هذا العلاج الشرعي لعامة الناس وبصورة مكثفة؛ لأنَّ تقبّل الناس وتفهمهم له في ظرفه وأوانه سيكون أكثر من طرحه وعلاجه في أي وقت آخر.

* توفير وعرض المواد التي تتضمن شرح العلوم الشرعية بأرخص ثمن ممكن، ليتمكن عامة الناس من اقتنائها.

* استخدام الوسائل الحديثة كالفيديو والتلفزيون والسينما في نقل الأحداث بالصور. وتأصيل بعض القضايا الشرعية؛ كوحدة الأمة الإسلامية، ومسألة الولاء والبراء، ومسألة عداوة اليهود والنصارى وسائر ملل الكفر للمسلمين... ونحوها، بأساليب مناسبة، فإنَّ لهذا تأثيراً عظيماً في تأكيد هذه المفاهيم الشرعية واستقرارها في النفوس.

* أن يتوجه الخطاب بالعلوم الشرعية إلى كل فئات الأمة من المثقفين والمهنيين والتجار والفلاحين والعسكريين والطلاب والأطفال؛ الذكور والإناث. وأن يكون لكل فئة حديث يناسبها ويعالج همومها ومشكلاتها.

* توظيف منبر الجمعة توظيفاً أمثل، بحيث يؤدي رسالته الشرعية على الوجه الصحيح.

* ومنبر الجمعة نافذة أسبوعية يُطلّ من خلالها الخطيب على مئات المصلين، يعلمهم ما يجهلون، ويعظهم ويعالج مشكلاتهم. وسيأتي لهذه الوسيلة مزيد بيان بإذن الله.

* إحياء رسالة المسجد، ليكون مكاناً لما هو أوسع من مجرد التعليم والوعظ.. أن تكون مكاناً للقاء اجتماعي، ومنطلقاً ومرجعاً لأهل الحي.

هذه بعض المقترحات والتنبيهات التي أرى أنها مما يساعد على تحقيق انتشار العلوم الشرعية الصحيحة في أوساط الأمة، وفتح مغاليق القلوب والنفوس لأخذها بجد وقناعة. وهي - بلا شك - تحتاج منّا إلى جهود جبارة وأن تحشد لها الطاقات والكفاءات، وتُرصد لها الأموال، كما أن تنفيذها يحتاج إلى وقت متطول.. ولكنها عملية ضرورية وجوهريّة.

أمّا نتائجها إذا ما تيسّرت لها الإمكانيات، فهي باهرة.

إنّها ستُحدث في عالم الأفكار ثورة ضخمة، وستهيئ أفراد الأمة لعملية مراجعة شاملة لما في النفوس، ولما في الواقع على حد سواء. وعندها سيتغيّر أكثر الأشياء.. ستتغير موازين القوى المؤثرة؛ سيختفي أشخاص ويبرز آخرون.. وسترتفع شعارات وستنكس أخرى.. وسيأخذ الصراع الفكري والسياسي والعسكري، بل والاقتصادي وجهة أخرى!

ستترك الحركة العلمية التصحيحية أثراً على كل صعيد، سيتغيّر كل شيء في طرائق تفكير الناس تقريباً.. ولكن ببطء في أول الأمر.. ببطء ولكنه أكيد المفعول، بإذن الله.

وماذا بعد هذه الخطوة؟

لقد فعل نشر وتقية وتطبيع العلم النافع آثاره على نحو ما سبق، ولكنها في الغالب ثورة في التفكير، ومراجعة شاملة للقناعات وللأوضاع القائمة. أي أنها لم تصبح عملاً وممارسة وحركة في الواقع إلا في حدود ضيقة، وإن كانت عملاً فكرياً وشعورياً ونفسياً. إنها عملية تفاعل مع الاتجاه الصحيح بكل أبعاده، وإنه الاستعداد النفسي للتصحيح. فما هي الخطوة التالية؟ إنها:

الممارسة العملية للإصلاح، والتدريب على الأعمال الصالحة:

إن العلم النافع بطبيعته يغري بالعمل الصالح ويهدي إليه، ويهيئ النفس للقيام به وتأييده، ورفض ما سواه واطراحه، وكذلك العكس. فإن العلم الفاسد المنحرف يشجع على الأعمال المنحرفة الفاسدة.

ولكن تحول العلم النافع إلى عمل وممارسة لا يتم عادة بهذه البساطة التي تبدو لأول وهلة.

نعم، إنه ليست فيه مشقة من يعمل الأعمال بالتلقين والترويض بلا علم ولا قناعة.

ولكن العمل لا ينبثق من العلم انبثاقاً آلياً، بل لا بد من التدريب، والتشجيع على التطبيق والممارسة العملية لكل علم نافع يُراد له أن يؤتي ثماره.

إن العلم النافع يربي في الأمة ملكة الإرادة (قوة التفاعل) الصالحة، التي تنجب القدرات والقدرات الصالحة، في صورة أعمال صالحة في الواقع.

إذن، فالأعمال الصالحة هي مظهر العلوم النافعة وترجمتها، ويقدر صفاتها ووضوحها وصحتها، تكون سلامة الأعمال وقوتها. شريطة أن تكون قناة التوصيل ووسيلة ترجمة الأفكار من أحسن الجمع بينهما.

وهنا تبرز قيمة (القدوة الحسنة) وضرورتها في عملية التدريب على الممارسة وترجمة العلوم النافعة إلى أعمال صالحة.

وإذا كانت العلوم النافعة تشمل (علم ما ينفع) لاجتلابه والقيام بتحصيله، و(علم ما يضر) لاجتنابه والعمل على إزالته، فإن الأعمال الصالحة كذلك، فهي من حيث أثرها تنقسم إلى قسمين:

- عمل هدفه جلب النافع للإنسان والمُرَضِي لله.

- وعمل هدفه دفع الضرر بالإنسان والمغضب لله^(١).

ولا بد من هذا وهذا في باب العلم النافع وفي باب العمل الصالح... ولا تصلح

الحياة ولا تستقيم إلا بالجمع بينهما علماً وعملاً.

«والفرد الذي يمارس القسمين من العمل يطلق عليه اسم (الصالح - المصلح)

والذي يقتصر على القسم الأول يطلق عليه اسم (الصالح).

(١) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٩.

والقيام بأحد القسمين لا يغني عن الآخر؛ لأنَّ القسم الأول يفيد في النماء والتقدم؛ بينما يفيد القسم الثاني في منع أسباب الفساد والتأخر. ولذلك جاء في القرآن الكريم أنَّ الخراب لا يلحق بالأمم التي تتكون من أفراد صالحين مصلحين، ولكنه ينزل بالأمم التي تضم أفراداً صالحين غير مصلحين»^(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]؛ أي: مصلحون فيما بينهم، يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، ويتأمرّون بالمعروف ويتناهون عن المنكر^(٢).

وقال سبحانه في شأن الطائفتين المختلفتين في أصحاب السبب: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِّى رَكِبُوا وَعَلَّاهُمْ يَنْفُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

فجاء القرآن صريحاً في هلاك الفرقة العادية الظالمة، ونجاة الفرقة المعتزلة الناهية، وسكت عن الفرقة الساكتة. ولهذا اختلفَ فيهم: هل نجوا مع الناجين، أو هلكوا مع المعذنين، فإنَّ القرآن سكت عنهم، فلم يخبر بمصيرهم، كما سكتوا على المنكر فلم ينكروه، والجزاء من جنس العمل.

قال ابن عباس: ما أدري ما فعلَ بهم. وروي عنه أنهم هلكوا؛ عقوبة على ترك النهي^(٣)، فقد جاء عنه في سياق طويل: «... فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم».

قال ابن كثير تعقيماً على قول ابن عباس: «وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة^(٤) في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيّن حالهم بعد ذلك، والله أعلم»^(٥).

(١) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٩ بتصرف يسير.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٤٠٦/٢)، وتفسير القاسمي (١٨١/٩).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٠٧/٧). وتفسير ابن كثير (٢٥٧/٢).

(٤) وكان عكرمة قد راجعه في قوله بهلاك الساكتين. قال عكرمة: «فقلت له: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما

هم عليه وخالفهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال عكرمة: فأمر لي

فكسيت ثوبين غليظين».

(٥) تفسير ابن كثير (٢٥٩/٢).

وقد جاء ذمهم وأخذهم بتركهم التناهي عن المنكر فيما بينهم صريحاً في قوله تعالى:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. وقال سبحانه: ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله - عز وجل - المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم»^(١).

ولهذا تتردد كلمة (العمل) في مواضع عديدة من القرآن لتشمل جميع ممارسات الحياة، على المستوى الفردي والمستوى الجماعي^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]... الآية.

وقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]... الآية، وغير ذلك من الآيات.

والعمل الصالح - الذي يهدي إليه العلم النافع - من صفته: أن يكون موافقاً للحق نافعاً للخلق، كالعلم النافع، فإنه لا يكون نافعاً بحق حتى يكون كذلك. وأن يكون عملاً أخلاقياً، ناجحاً في آن؛ «لأنَّ العمل إذا كان أخلاقياً ولكن غير ناجح لا يجلب منفعة ولا يدفع ضرراً، وإذا كان ناجحاً ولكن غير أخلاقي فإنه يجلب ضرراً، فإذا اجتمعت فيه الصفتان كان عملاً نافعاً غير ضار»^(٣).

هذا العمل الصالح في عمومته وشموله وصفته هو العمل الذي تصلح به حال الأمة، وهو الثمرة الطبيعية للتفاعل ما بين أفراد الأمة (الأشخاص) وبين العلم النافع (الأفكار).

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٥١). وسيأتي لهذه المسألة مزيد بسط في الفصل الثالث، بإذن الله تعالى.

(٢) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٨ بتقديم وتأخير.

(٣) أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٤٩.

وكما ذكرت من قبل ، فإن مجرد التفاعل مع الأفكار والمبادئ الصحيحة لا يكفي وحده لإيجاد وممارسة الأعمال الصالحة في الواقع . . . لا يكفي:

* إما لأن الإرادة المتولدة من القناعة غير كافية بذاتها لتحويل الفكرة والعلم إلى عمل .

* وإما لعدم القدرة على الترجمة الصحيحة للفكرة؛ أي عدم انضباط الممارسة للعمل الصالح بضابط العلم النافع ، وهنا لم يأت الإشكال من ضعف الإرادة أو القدرة ، وإنما من خطأ المحاولة .

* وإما لوجود المعارض القوي من خارج النفس (في الواقع) بحيث يصعب الاستمرار على ممارسة العمل الصالح ، وإن وجدت الإرادة الدافعة في أول الأمر ، وإن كانت الممارسة سليمة صحيحة .

وقد يجتمع سبب أو أكثر ، وقد تجتمع كلها - وهو الغالب في واقع الأمة الإسلامية اليوم .

وعلى ضوء ما سبق ، فإننا نحتاج لمعالجة هذه العوائق والتغلب عليها ، وتطبيع الأعمال الصالحة وممارسة التربية والتدريب والتطبيق في واقع الأمة . . . نحتاج إلى ما يلي:

* إلى نشر وتعميم العلم النافع على أفراد الأمة بالوسائل والأساليب التي سبقت الإشارة إليها .

* وإلى التدريب على الأعمال الصالحة وممارستها أثناء تعليمها . وهذا وذاك يستلزم إيجاد القدوات الحسنة الصالحة ، التي تعيش بين الناس . تعلم الأفكار الصحيحة ، وتطبقها وتشجع على تطبيقها ، وتساعد في تصحيح هذه التطبيقات .

ولكي يتم إيجاد القدوة الصالحة الحسنة ، نحتاج إلى تربية الثُجُب من أفراد الأمة تربية خاصة ، والعناية بهم ، وأن تكون تلك التربية والعناية تسير جنباً إلى جنب مع تربية عموم أفراد الأمة . وهذا لا يتحقق بصورة جيدة ما لم يتوفر المناخ الملائم للاستصلاح والتربية .

ومن هنا ، فلا بد من مقاومة كل صور الفساد وضروب الانحرافات في الواقع بصورة عملية ، بعد أن يكون قد اتضح فسادها ، وقوي داعي تركها في النفوس ، بفعل انتشار العلوم النافعة والأعمال الصالحة .

وهذه القنوات يُكَمَّل بعضها بعضاً، ويستلزم بعضها بعضاً.. وتفصيل الوسائل العملية التي يتم من خلالها تحقيق ما سبق شيء يطول. ولا يمكن حصره، ولكن سأذكر في الصفحات التالية أهم الوسائل والأساليب الممكنة التطبيق في ضوء أوضاع الأمة الراهنة، وأنبه إلى بعض الوسائل الهامة، التي ينبغي استصلاحها وتبنيها، إذا ما هياً الله لأمة محمد ﷺ قيادة ربانية، تُسخر إمكانات الأمة لخدمة دينها وأهدافها.

فمن الوسائل والأساليب العملية في باب تربية الأمة وتدريبها على العمل الصالح:

نشر وتنقية وتعميم العلم النافع بعامة، والعلم الشرعي بالمقام الأول.

فإن نشر العلم النافع وتقريبه للناس بشتى الوسائل، عمل صالح وقربة، بل من أعظم القربات عند الله تعالى، وهو أعمّ الأعمال الصالحة نفعاً في العاجل والآجل.

فينبغي تدريب الأمة على ذلك، وإشعار من يقوم بهذا العمل الجليل أن ما يقوم به عمل صالح وعبادة لله، فلا يستكثر عليه أي جهد ووقت ومال. وأن يخلص لله فيه النية والقصد.

وهذه الوسيلة هي عمل صالح في ذاتها، وسبب ووسيلة إلى سائر الأعمال الصالحة.

وإذا استطعنا تلقين الناس هذه المعاني البسيطة، العظيمة في آن، نكون قد حققنا جملة أهداف، منها:

* تعميم ومضاعفة انتشار العلم النافع بواسطة هذا العمل الصالح.

* نكون قد تمكناً بصورة عملية من تدريب وتسخير طاقات بشرية ومالية كثيرة للقيام بهذا العمل الصالح، تتولى إعداده ونشره وتوزيعه وتمويله.

* وتبعاً لذلك سيزداد مستوى الوعي والإدراك، وستشجذ الهمم وتفتح القرائح، فيكون الإبداع، وتكون الإيجابية مع عديد من القضايا الإسلامية.

* ومن الأمور العملية في هذا المجال: تأسيس دور النشر التي تنبئ الفكر الإسلامي الصحيح، وترجمة الكتب وتسجيل الأشرطة المسموعة والمرئية، في المسائل المهمة، ونشرها وتوزيعها.. وغير ذلك مما ذكرته من قبل، عند الحديث عن نشر العلم النافع وتنقيته وتعميمه وتقريبه، فليراجع.

وإنما ذكرته هنا وهناك؛ بقصد التأكيد على أنه داخل في البابين؛ باب العلم النافع وباب العمل الصالح، وأنه أصل في الموضوعين.

* ومن الوسائل والأساليب العملية في ذلك:

تنشيط الحركة التعليمية، الخيرية والأهلية في أوساط الأمة.

وتنشيط الحركة العلمية بهذا الاتجاه، سيكون من جهة بديلاً عن التعليم المنحرف ومزاحماً له، خصوصاً في البلاد التي لا تكاد المؤسسات التعليمية الرسمية تقدم لأبناء المسلمين إلا الإلحاد والانحلال وتكريس المفاهيم العلمانية، وربما قدمت مادة الدين الإسلامي بصورة مشوهة منقوصة، معزولة عن التطبيق، في جو من الاختلاط وغياب القدوة الصالحة.

ومن جهة أخرى ستكون الحركة التعليمية مجالاً خصباً لتربية أجيال الأمة وتلقينها العلوم النافعة، وتدريب النخب الممتازة، وإعطاء البدائل القيادية الصالحة للمجتمع. ويجب أن تمثل الحركة التعليمية الخيرية والأهلية في مؤسسات قائمة، وفي المساجد، ووسائل الإعلام. وأن تدرس شتى العلوم الممكن تدرسيها.

وتنشيط هذه الحركة كسابقه سيوظف طاقات بشرية وأموراً، ويتطلب جهوداً وأوقافاً، في التعليم والإشراف والتمويل، وسيشغل أعداداً غفيرة من مختلف طبقات الأمة في التلمذ والتحصيل.

وسيرك آثاره على المدى في مختلف قطاعات الأمة ومناشط الحياة.

والمطلوب في هذا التعليم أن يكون تعليماً وتربية، وهنا تكمن قيمة هذه الوسيلة.

إن الذي نفتقده في أكثر المؤسسات التعليمية القائمة فيما نفتقد هو: جودة المادة العلمية وصحتها، وموافقته لدين الأمة ورسالتها وأهدافها، وسلامة المنهج التعليمي وقدرته على الجمع بين النظرية والتطبيق، بين العلم والعمل.

إضافة إلى أن المعلم، وهو حجر الزاوية في العملية التعليمية هو الآخر يفتقر في أحيان كثيرة إلى أساسيات علمية وعملية في تحصيله، وفي شخصه، وفي توجهاته. . تجعله غير قادر على أداء رسالته التعليمية التربوية بصورة صحيحة.

ولهذا فشلت المؤسسات التعليمية القائمة في تحقيق أهداف التربية الإسلامية المنشودة.

إن هناك صوراً كثيرة للتدريب على الأعمال الصالحة من خلال تعليم العلم النافع، في المؤسسة التعليمية وفي المسجد.

وإنَّ هناك أهدافاً كثيرة يمكن إبرازها والتفاعل معها عبر الرحلة التعليمية الهادفة .
وأذكر مثلين على ذلك:

المثل الأول: تربية القدرات العقلية التحليلية والنقدية والتطبيقية البناءة^(١) . إضافة إلى جانب الحفظ والاستيعاب . وهذه الأخيرة تكاد تكون وحدها حصيلة المناهج التعليمية القائمة .

إنَّ العقلية التحليلية والنقدية والتجريبية هي التي تفتقدها المؤسسات العلمية القائمة إلى حد كبير . ونتيجة لذلك ، فإنَّ «المسلم المعاصر يستطيع أن يروي ويخطب ، ولكنه لا يستطيع أن يناقش أو يحلل أو يطبق ويتوصل إلى حل . . . وينعكس هذا العجز على علاقات الأفراد ومواقفهم ، فالخطيب أو المتحدث يريد في جميع أحواله أناساً يستمعون له ويصفقون ، لا أناساً يناقشون ويعارضون .

وحين يستدعي الموقف قدرات عقلية تتعدى الحفظ ، تنفجر الانفعالات ويشور الخلاف وينفجر التعسف المخرب»^(٢) .

وإذا وجدت العقلية التي تجمع بين الحفظ والفهم والتحليل والنقد والتطبيق . . لم يعد هناك مشكلة كبيرة في تحويل الأقوال والمعارف إلى أفعال وإبداع ؛ لأنه ليس لديها وقت لمضغ المعلومات واجترارها دون جدوى ، بل هناك الفحص والتمييز ثم العمل والإنتاج . وهذا يستلزم نفي المعلومات التي لا تعين على عمل صالح ، والحفاوة بكل علم وثيق الصلة بمحاجات الأمة . سواء كان علماً نظرياً أو عملياً تطبيقياً .

ومن الأهداف أيضاً ، وهو المثل الثاني:

تربية العقول والنفوس على مبدأ التفكير الجماعي والحس الجماعي بدلاً من التفكير الفردي والاهتمام الذاتي^(٣) .

إنَّ الذي لا يتربى على الروح الجماعية والاهتمام بالآخرين ، يصعب عليه أن يسهم بروح فاعلة في بناء كيان يكون شريكاً إيجابياً فيه ، ومن العسير عليه أن يستوعب هموم الآخرين ؛ لأنه لم يتدرب إلا على حمل همومه الخاصة .

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية ، د . ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) أهداف التربية الإسلامية ، د . ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٧٧ بتصريف سير .

(٣) انظر: أهداف التربية الإسلامية ، د . ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٦٨ .

وكيف يمكن أن تتحقق للأمة الإسلامية وحدة، وتكون قوة في ظل التفكير الفردي والاهتمام الذاتي النفعي؟

إنّ هناك أموراً تتطلب رأياً جماعياً لإقرارها وتحقيقها أو رفضها أو تعديلها، وأموراً أخرى تستدعي تنازلات وتضحيات فردية لمصلحة الجماعة والأمة... وأنى لهذه أن توجد ما لم تكن الأمة بأفرادها قد تربّت على ذلك؟

وكيف يتم الإصلاح والتغيير المنشود على مستوى الأمة، ما لم يتم التغيير والتصحيح على مستوى الأفراد؟

والتغيير هنا أن يعيش الفرد همّ الأمة، ويفكر في مصلحتها.

وإنّ واقع الأمة الإسلامية في تفككها وتشرذمها لأكبر دليل وشاهد على غياب هذه الروح الواحدة والهمّ المشترك، نتيجة استبعاد أسباب ذلك على مستوى المادة العلمية وهي هنا العقيدة الإسلامية والرابطة الإيمانية. وهذه قد استُبعدت تماماً أو هُمِّشت ونزع منها فتيل التأثير.

أمّا الوسائل فعقيمة، وأمّا الأهداف فوطنية شكلية أو قومية أو حزبية، أو فوضوية بلا أهداف محددة، يقدمها أستاذ قد يكون غير كفء، ملء إهابه هزيمة نفسية.

وهو ذاته يعيش عقلية ونفسية بعيدة في تكوينها عن أهداف الأمة وهمومها! هذا، فضلاً عن ضعف البصيرة في الدين، وتصحيح المعتقد والعبادة، والتهديب الخلفي والنفسي، والعزوف عن اكتساب الفضائل، والترفع عن الدنيا، وسمو الهمة والعناية بمعالي الأمور.

وتتضح قيمة هذه الخطوة والتي قبلها، إذا ما أدركنا خطورة الوسيلة التعليمية وأهميتها في صياغة المفاهيم وصناعة الأفكار وتحويل الاهتمامات، وتبديل التصورات حول القضايا الكلية والجزئية، بما لا يوازئها أو يماثلها في ذلك وسيلة أخرى، على مستوى الأمم.

ويمكن التدريب على تطبيق الأعمال الصالحة من خلال:

إقامة المشاريع والجمعيات الخيرية.

وهذه لها صور، وهي تخدم مجموعة أهداف. فالمشاريع والجمعيات الخيرية يمكن أن تكون اجتماعية تُعنى بالفقراء والمحتاجين والمعوقين والأيتام والأرامل، ومن كان على شاكلتهم.

ويمكن أن تكون معنية بالقضايا الدعوية، كبناء المؤسسات الدعوية وتمويلها، وتفريغ الدعاة، والعمل على تقريب وجهات نظر العاملين في مجال الدعوة، والمساعدة في إزالة أسباب الخلاف .

ويمكن أن تكون معنية بشئون الإغاثة وتتبع النكبات والكوارث التي تلحق بهذا البلد الإسلامي أو ذاك، وما أكثرها .

ويمكن أن تعنى بشأن الجهاد والمجاهدين، وتصويب مسيرتهم، ودعمهم وتقديم الخدمات اللازمة لهم .

ويمكن أن تجمع بين صورتين أو أكثر من المناشط الخيرية .

إلى آخر ما هنالك من الصور التي يمكن أن تقوم على أساسها هذه الجمعيات والمشاريع الخيرية .

ومعلوم أن المناشط الخيرية تحتاج - كغيرها - إلى طاقات بشرية، تخطط وتتابع، وأخرى تنفذ، وإلى أموال وتضحيات كبيرة .

ومما يساعد في تنفيذ هذه المشاريع والجمعيات:

* إعداد الدراسات التفصيلية الدقيقة عن فكرتها وأساليب تنفيذها، وعن أهدافها .
وطرح هذه الدراسات في صورة كتيبات على الرأي العام الإسلامي؛ لضمان إحداث التفاعل والرقى المطلوب في بنائها، والدعم المادي والمعنوي لها .

* إصدار نشرات دورية بأهم إنجازات هذه المؤسسات ومشاريعها المستقبلية . . كي يطمئن الناس إلى صدقها واستمرارية عطائها .

* إسناد الإشراف عليها إلى أشخاص أو جهات تثق الأمة بهم، وتأنمهم على مستقبل هذه المشاريع، ممن جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح .

ومن التدريب على تطبيق وممارسة الأعمال الصالحة: تبني وتأسيس المؤسسات الاقتصادية والمالية الإسلامية.

وهذه أيضاً يمكن أن تكون أهدافها خيرية بحجة أو خيرية تجارية، أو تجارية فقط .
والأمة الإسلامية بأمرس الحاجة إليها كلها؛ لسد حاجات الفقر والعوز التي لا تنتهي، ولتهيئة الأذهان والظروف لطرح الاقتصاد الإسلامي بديلاً ومنافساً للاقتصاد الجاهلي الربوي، الذي ينمو ويتحرك بأموال المسلمين وأرصدتهم . ولرفع مستوى دخل الفرد المسلم، الذي يكاد يكون في جملته أدنى مستوى لدخل الفرد في العالم . ولتحفيز الصناعات البديلة التي تقدم المنتجات المتوافقة وهوية الإنسان المسلم، في مجالات الغذاء واللباس والترفيه وغيرها .

ويمكن تنفيذها بطرح هذه الأفكار مكتوبة، واستكتاب المتخصصين في مجالات الاقتصاد والاستثمار.

ومن عوامل نجاحها - وهو مقصود لذاته - إتاحة الفرصة لاشتراك أكبر عدد ممكن من الأفراد في مؤسسات اقتصادية متنوعة بأسهم ميسرة، بحيث يتمكن جمهور الناس من الدخول فيها، واقتناء مدخراتهم بعيداً عن مخاطر المشروعات الشخصية الصغيرة، أو الاضطرار إلى تركها ودائع غير نامية في المصارف.

ويمكن بواسطتها صناعة البدائل الإسلامية، والمنافسة في كافة الفرص على مستوى العالم، وهنا نكون قد حققنا عدة أهداف في آن واحد^(١).

ومن فوائد هذه الخطوة - إضافة إلى ما سبق - تنمية المهارات الإسلامية، وإيجاد البدائل الإسلامية التي تساعد بدورها في إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع المسلم^(٢).

ولا تؤدي هذه الخطوات فائدتها المرجوة منها، حتى تكون مصحوبة بالدعوة الهادفة والتوجيه السليم، وإبراز أهداف الإسلام الكلية وتوحيها عند كل خطوة وعمل، ولو كان عملاً جزئياً، وجعلها جزءاً لا يتجزأ من إيمان وثقافة الفرد المسلم، في أي موقع كان.

ومن فوائد ذلك أن يكون هذا الحراك الاقتصادي عينه مفتوحة دائماً على تنمية المجتمع المسلم ودعم قضاياه، وليس مجرد تجارة تستفيد من الفرص، ثم تكون عقيماً لا تلد الخير، ولا تبذل المعروف.

ومن التدريب على تطبيق وممارسة الأعمال الصالحة:

تنشيط الحركة الإعلامية بإقامة المؤسسات الإعلامية المتخصصة، والإفادة مما يمكن الاستفادة منه مما هو موجود.

والكلام عن أهمية الإعلام في نشر الفكر والمعرفة، ومقاومة الأفكار المنحرفة، وصناعة الرأي العام، والتمهيد لكل عمل أو فكر يُراد له الانتشار والذيع. إن أهميته في ذلك كله أمر معلوم، فلا أشتغل بتقريره.

(١) ومن هذه الأهداف: توظيف أموال قطاع كبير من أفراد الأمة في استثمارات نزيهة، وقطع الطريق على المؤسسات الربوية التي كان سيكون مآل هذه الأموال إليها في الغالب. إضافة إلى تنمية المهارات، وإيجاد البدائل النافعة، ورفع مستوى دخول الأفراد.

(٢) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان في الفصل الثالث، بإذن الله تعالى.

ولعل الواقع السيئ للأمة الإسلامية خير شاهد على فاعلية الإعلام وقوة تأثيره؛ إذ أفلح الإعلام في مسخ وتشويه دين الأمة وتاريخها وأبطالها، وربطها بعجلة الاستعمار، وترويضها للإيمان بثقافةٍ وأوضاع غريبة عنها. ولم ينج من لوثاته إلا أقل الناس.

وإذا كان لا يمكن للأمة في ظل الهيمنة الغربية المستعمرة، والعلمانية الوطنية المستأجرة أن تؤسس إعلاماً إسلامياً قوياً، فإنها تستطيع أن تحقق بعض المقصود بإمكاناتها المحدودة.

تستطيع أن تقيم دور النشر... وهذه وسيلة إعلامية.

وتستطيع إصدار بعض الصحف والمجلات... وهذه وسيلة إعلامية.

وتتمكّن من استئجار القنوات التلفزيونية والإذاعية التجارية في بعض البلاد الحرة، وهذه وسيلة إعلامية.

وتستطيع تأسيس قنوات فضائية، ولو بسقف حرية محدود نسبياً. ولكن آثاره الإيجابية كبيرة مشهودة.

ويستطيع الخيرون المشاركة بما أمكن من وسائل الإعلام، وتقديم مواد إعلامية متميزة، وهذا يخفف من غلواء الشر، ويزاحم المنتجات الإعلامية الرديئة. وإن كان لذلك محاذيره.. لكنها الموازنة الذكية.

وتستطيع الآن بواسطة الإنترنت، الذي جمع العديد من المزايا، وخفض التكاليف، وألغى الحواجز، واختصر المسافات.

وتستطيع عرض كثير من المفاهيم الإسلامية، وتصحيح كثير من الأخطاء بالصوت والصورة عبر أشرطة الفيديو المنتشرة.

وتستطيع ذلك من خلال أشرطة الكاسيت... وغير ذلك من الوسائل التي يعرفها أهل الاختصاص.

وغير خافٍ أن هذه الوسائل ونحوها تحتاج - كما أسلفتُ غير مرة - إلى طاقات بشرية متخصصة مؤهلة، وإلى دعم مادي هائل. ولكنها ضرورة لا غنى عنها، كما أن ثمارها عظيمة النفع بصورة قد لا يتصورها الكثيرون.

إن من الخصائص التي يتميز بها الإعلام أنه يخاطب كل فئات المجتمع وطبقاته، بلغة مفهومة، ومادة متجددة تحمل عنصر التنوع والتشويق، يحمل هموم الإنسان اليومية، ويحيب على تساؤلاته أولاً بأول، ولهذا يُقبل الفرد عليه مختاراً، بل رغباً متشوقاً.

وهذه الخصائص وغيرها مما تميز بها الإعلام عن التعليم ، على أهمية الأخير وقوة تأثيره!

وثمة شيء آخر مهم تستطيع الأمة — ممثلة في قياداتها العلمية والدعوية والتربوية — من خلاله أن تربي الأمة على الأعمال الصالحة، بصورة لا توجد عند غير المسلمين!
إنه منبر الجمعة:

حيث يحتشد الناس رجالاً ونساء خاشعين منصتين كل أسبوع .
فلو أن الخطيب أدرك مسؤوليته ، وأعدّ للأمر عدته ، وفهم الحكمة من تشريع هذه الشعيرة العظيمة ، وأنها لتعليم الناس وتربيتهم ، وحل مشكلاتهم . وليست لحشرهم في زاوية من الدين ، وترك ما سواه من شئون الحياة يعبث بها من يعبث .
لو أدرك الخطيب ذلك ، لتعلم الناس من منبر الجمعة: أن الإسلام دين شامل كامل . وعلى هذا ، فإن العقيدة من الدين ، والأحكام من الدين ، والاجتماع من الدين ، والسياسة من الدين ، والاقتصاد من الدين . وأن كل شيء يقع فللدين منه موقف ، وله فيه حكم .

وأن المسلم يجب أن يكون على مستوى هذا الدين في الفهم والتطبيق .
وعليه ، فهو مأمورٌ بأن يتحدث عن العقيدة والأحكام والأخلاق والسياسة والاقتصاد . . . لأنه يتحدث عن الدين ، وليس عن شيء آخر .
ولكان على الخطيب أن يعلمهم ويربيهم في آن . فإذا حدثهم عن حرمة الربا ، طرح لهم حلولاً عملية ، وبدأهم بذلك .
وإذا حدثهم عن منكر واقع ، عظمه عليهم ، وبيّن لهم كيفية التخلص منه ، وأعطاهم البدائل المناسبة .

وإذا ألمّت بالمسلمين نازلة ، أطلعهم على جلية الوضع ، وكشف ما قد يخفى على بعضهم من ملبساته ، وفي الوقت ذاته يذكر لهم ما يجب عليهم تجاه هذا الحدث ، فإن كانت حاجة مادية حضهم على التبرع والمساهمة ، وجمع منهم ما يتيسر ، أو دهم على الطرق المأمونة لإيصال تبرعاتهم . وإن كانت نجدة أهاب بالقادرين منهم على ذلك . . . وهكذا .

فإنّ هذا كله وما مثله ، هو مما يعينهم ، وهو من الدين الذي شرعت الخطبة لتعليمهم إياه .

وإذا انكفأ الناس عن خطيب أو إليه ، فأئماً ذلك بسبب اشتغاله بما ينفعهم أو تفريطه في ذلك ، وهو الملوم في ذلك أو المحمود . وعامة الناس إنمأ يبحثون عما ينفعهم . ومن أحسن الظن بنفسه ، وعاب على الناس تفريطهم في حقه ، أو عدم معرفة قدر ما يقول ، أو أنهم لا يدركون مصالحتهم . وأطلق الكلام هكذا ، فإن عليه أن يراجع اجتهاده ، ويعود باللوم على نفسه ، فإن ما حصل له إنمأ هو بتفريطه فيما ينفع الناس ، وإن ظن خلاف ذلك .

ومن المفيد ، أن نعتبر بجواب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن شبهة تقديم بعض أمراء بني أمية لخطبة العيد قبل الصلاة ، وهي وإن كانت بدعة ، وليست من جنس ما نحن فيه سواء بسواء ، إلا أن العلة الجامعة ، الحاملة على الابتداء هناك ، والعتاب هنا هي التفريط فيما ينفع الناس .

يقول شيخ الإسلام : « ... ومثل ما حدثت الحاجة إليه بتفريط من الناس : تقديم الخطبة في العيد ، فإنه لما فعله بعض الأمراء أنكره المسلمون ؛ لأنه بدعة ، فاعتذر من أحدثه بأن الناس يَنْفُضُونَ قبل سماع الخطبة .

فيقال : سببه تفريطك ، فإن الخطبة مقصدها التذكير وتعليم الدين ، وأنت قصدك إقامة رياستك ، وإن قصدت صلاحهم لم تعلمهم ما ينفعهم»^(١) .

وهذه الخطوات كلها ، وغيرها ، تؤكد أهمية تربية النخب والعمل على إيجاد القدوة الصالحة .

تربية النخب والعمل على إيجاد القدوة الصالحة:

وتلك خطوة عملية لا بد منها؛ لأمر كثيرة، منها:

* أن هذه النخب والقدوات الصالحة هم الذين يشقون الطريق أمام جماهير الأمة الواقفة الحائرة ، ويكسرون حاجز الصمت والسلبية .

لقد كانت العرب أيام بعثة رسول الله ﷺ تتربص بالإسلام ورسول الله ﷺ ومن معه أن تخضد قريش شوكتهم ، وأن يحسم الأمر لصالح الجاهلية . ولكن القلة (النخبة) من المهاجرين والأنصار صبرت وصابرت حتى ارتفع لواء الحق ، وزالت غربة الدين ، فلما رأت العرب هذا النجاح وهذا الغلب لدين الله دخلوا فيه أفواجاً ، ووفدوا على رسول الله ﷺ جموعاً إثر جموع عام تسع ، حتى سمي عام الوفود لذلك^(٢) .

(١) المسائل التي لخصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية ، ص ٩٤ .

(٢) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/٢٧٣) .

وهم - أعني التَّخَب - الذين ينتظر أن يكون منهم العالم الرباني، والداعية المؤثر، والخطيب الواعي، والمجاهد الصابر، والتاجر الأمين المنفق، والإعلامي الناجح، والقيادي المظفر. وإذا لم تكن النخبة في الطليعة، فمن يكون إذا؟

* ومنها: أن وجود القدوة الصالحة بين ظهراني الناس يعطي للأفكار الصحيحة قوة مضاعفة؛ لأنهم يرونها ماثلة أمامهم، ممكنة التطبيق، بلا سلبات، وعندها تسقط الدعاوى المزيفة التي تلوح للناس أن الإسلام غير ممكن التطبيق، وأن تطبيقه سيولد مضاعفات ومشكلات. وتروج هذه الشبه على من لم يمارس تعاليم الإسلام بصورة عملية.

وكون القدوة الصالحة ضرورة في استئناف الحياة الإسلامية بصورة صحيحة ليس اقتراحاً للمناقشة، أو فكرة يمكن الاستغناء عنها.. كلا.

إنه منهج شرعي أصيل، أن يُتلقى دين الله بالافتداء والتأسي.

لقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقتدي بمن قبله من النبيين، بما قاموا به من أمر الله وحفظ حدوده، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاتِهِمْ آفَقَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ أي: اتبع أثرهم واعمل كما عملوا^(١).

وأمر - سبحانه - رسوله والمؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ﷺ والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَأَنَا بُرٌّ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهٍ وَبِدَايِنًا وَمِن بَيْنِكُمْ الْعِدَّةُ وَابْتِغَاءً أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤]؛ يعني: لكم أسوة حسنة في إبراهيم وقومه، تتأسون بها في أمورهم، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك، فإنه كان عن موعدة وعددها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه^(٢).

وحض الله المؤمنين أن يتأسوا برسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان للقدوة الصالحة أثر عظيم في انتشار الإسلام في بلاد لم تطأها جيوش المسلمين، في أماكن كثيرة في إفريقيا وآسيا وغيرها، ولا بد أن تكون القدوة الصالحة في

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٧/ ٢٦٥).

(٢) انظر: تفسير البقوي (٤/ ٣٣٠). وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٨).

مواقع القيادة، وأن تخوض غمار الحياة بصورة جماعية ما أمكن ذلك، فإنّ للأعمال الجماعية من التأثير ما ليس لغيرها .

لقد نجح الإسلاميون^(١) نجاحاً باهراً حينما أُتيحت لهم فرص محدودة في زمن محدود، في الجزائر وفي فلسطين والسودان، وفي اليمن ومصر والأردن وغيرها، وأثبتوا للأمة أنهم حاضرون ومستعدون للتضحية في أوقات الأزمات . ولكن حتى لا يأتي هذا النجاح على حُجُب الأنظمة الفاشلة فيهتكها، سارعت الدنيا كلها لإجهاض كل تجربة إسلامية مهما كانت محدودة، وتشويهها!

ونجحت مؤسسات مالية إسلامية في مصر، فصُودرت ممتلكاتها، ومنعت من مواولة أنشطتها التجارية^(٢)!

والفوائد والأهداف التي تحققها النخبة الممتازة والقذوة الصالحة، إذا أحسن اختيارها وتربيتها، كثيرة لا يأتي عليها الحصر .

وتربية النخبة يجب أن يكون في مقدمة اهتمامات العاملين في مجال التعليم والدعوة، والمهتمين بإخراج الأمة المسلمة واستعادة عافيتها وقوتها .

والقذوة الصالحة هي الجامعة بين العلم النافع والعمل الصالح، وهي خير من يربي الأمة على الإعجاب بالمثل الأعلى، وخير من يقربه إلى قلوبهم .

وكأما غابت هذه القذوات والمنارات، استبدل الناس بالمثل الأعلى الحق، مثلاً أخرى رديئة زائفة، شعروا بذلك أم لم يشعروا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس - وفي رواية: من العباد - ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهلاً فسُتُلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(٣) .

وإذا قلت: إن القذوة الحسنة تقرب الناس من المثل الأعلى وتدلهم عليه، فأنا أعني أن الشخص القذوة هو أقرب مثل حي يعطي «نموذج الحياة التي يُرادُ للفرد المسلم أن يجيها، وللأمة المسلمة أن تعيش طبقاً لها»^(٤) .

(١) وليس معنى ذلك أننا راضون عن تفاصيل هذه التجارب، أو عن اتجاه التجمعات التي حققت هذه النجاحات من كل وجه . ونحن فطننا عليهم لا يمنعنا من الإشادة بما حققوه من نجاح، والثناء عليه والدفاع عنهم، وأن نعد جهودهم تلك، خطوات في الاتجاه الصحيح .

(٢) مثل: شركة الريان الاستثمارية في مصر .

(٣) متفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما . انظر: فتح الباري، في العلم، باب: كيف يُقبَضُ العلم (١/١٩٤)، ح رقم (١٠٠) . ومسلم في العلم، باب: رفع العلم وقبضه، ح رقم (٢٦٧٣) .

(٤) أهداف التربية الإسلامية، د . ماجد عرسان الكيلاني، ص ٨٠ .

فهو من هذا الباب قدوة فيما وافق الحق فيه ، وبالتالي فليس هناك شخص يصلح للاقتداء به من كل وجه ، وفي كل حال ، غير المعصوم نبي هذه الأمة محمد ﷺ .

فالأمة - أية أمة - لا تخلو حالها مع (المثل الأعلى) الذي تقتدي به وتتسبب إليه من إحدى حالات أربع :

الحال الأولى: أن يكون مثلها الأعلى حقاً واقتداؤها به صحيحاً.

وهذا يعطي أفضل النتائج . وشاهده تربية النبي ﷺ للرعيّل الأول من المسلمين على منهج الإسلام ؛ إذ كان ﷺ هو المثل الأعلى^(١) الذي يُقتدى به ، فلم يتعرّض الحق لاختلاف الفهوم ، ولا لضعف التمثل والتطبيق .

الحال الثانية: أن يكون مثل الأمة الأعلى باطلاً ، ولكنه كان واضحاً في الأذهان ، ويكون تطبيق الخطوات إلى بلوغه جيداً وصحيحاً.

وهذا يعطي نسبة عالية من النتائج . وشاهده ما عليه أمم الغرب واليابان ، فإن أهدافها ومثلها العليا - سواء كانت مادية مجتة ، أو وطنية ، أو جنسية - وإن كانت فاسدة باطلة ، إلا أن تلك الدول استطاعت بالتربية والتوجيه وحسن التطبيق لمتطلبات تلك الأهداف أن تحقق لشعوبها نتائج مادية باهرة . فهي منسجمة مع مثلها الأعلى متمثلة له ، وإن كان هذا المثل لفساده وبطلانه لم يحقق لها السعادة ، وإن حقق لها السيادة!

الحال الثالثة: أن يكون المثل الأعلى حقاً ، ولكن حصل الجهل والتقصير في كيفية الفهم والاقتداء والتطبيق .

وهذا يعطي نتائج أقل من سابقه ؛ لأن صحة المثل في ذاته لا يُعفى من ضرورة حسن الاقتداء به ، كما لا يشفع في حماية من لم يرفع به رأساً ، بل يناله من النقص بقدر ما يفرط فيه من حُسن التمثل والتطبيق .

وهذا هو حال الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة .

ومع بالغ الأسى والأسف ، فإنه كثيراً ما «يُساء فهم هذه الظاهرة ، ظاهرة تخلف المسلمين ، فلا ينسب هذا التخلف إلى العجز في نظم التربية والتوجيه . . ولا ينسب كذلك إلى نوع المشتغلين بهذه المهمات ، بل يظن أن السبب هو الإسلام نفسه . وهذا قد يوقع في البلبلة ، ويدفع كثيراً من أبناء المجتمعات الإسلامية إلى البحث عن (مثل أعلى)^(٢) . آخر خارج دائرة الإسلام .

(١) أي: الذي كَمَلَ من البشر الكمال النسبي المقدّر للإنسان أن يبلغه ، فلا يستطيع أحد أن يكون مثله في كماله ﷺ .
(٢) أهداف التربية الإسلامية ، د . ماجد عرسان الكيلاني ، ص ٨٣ ، ٨٤ بتصرف يسير .

الحال الرابعة: أن يكون مثل الأمة الأعلى باطلاً، والطريق إليه خطأ. وهذا أقبح الأربعة، وليست له نتائج دينية أو دنيوية نافعة، وذلك كالتعصب للنعرات القديمة كالفرعونية، أو القبلية، التي تنتهي إلى الحروب الأهلية الطاحنة، والفتن الداخلية المدمرة^(١).

ومن العمل الصالح الذي يجب أن تتربى عليه الأمة:

مقاومة الفساد والانحراف في النفوس، وفي الواقع.. بصورة عملية. ولا بد من ذلك لحماية العلم النافع والعمل الصالح مما يفسده أو يضعف أثره في النفوس، أو يأتي على مكتسباته ويعرقل حركة مؤسساته في الواقع. ومقاومة الفساد والانحراف تكون بالوسائل والأساليب المتقدمة ذاتها؛ أي من خلال المؤسسات العلمية والإعلامية والاقتصادية، ومن خلال إبراز القدوات الصالحة، وقطع الطريق على الطفيليات التي لا يخلو منها مجتمع أو مؤسسة. كما تكون مقاومة الفساد بغير ذلك مما لم أذكر؛ ذلك لأن إصلاح النفوس يستلزم مقاومة الفساد فيها، وإصلاح الواقع يقتضي العمل على تطهيره من الفساد والانحراف.

وقولهم: (التخلية قبل التحلية)، ليس معناه أن الإصلاح لا يكون حتى تزول آثار الفساد كلية، فإن هذا غير مراد، وإنما معناه أن إصلاح النفوس والأحوال بإزالة الفساد والانحراف المانع من قبول الحق يجب أن يسبق، فلا تصلح النفس أن يكون الإصلاح والخير فيها مجاوراً للفساد والخبث، ولا يلزم من ذلك التطهير، وإنما التأهيل مع استمرار المجاهدة، ويكفي أن نعلم أن العمل على تحلية النفس هو في حقيقته تحلية لها، فإن المنكر لا يزول إلا بالمعروف، وإن المنكر لا يزول عادة دفعة واحدة.

ومقاومة الفساد عمل صالح وقربة إلى الله، وكلما كان الفساد أعم وأكثر ضرراً، كانت مقاومته أعظم أجراً وأكثر نفعاً.

والتربية على مقاومة الفساد والانحراف ضرورة لحماية دين الأمة ومنجزاتها.

ومقاومة الفساد تكون بعدة أساليب، منها:

* تعرية الفساد وفضحه، وإماطة اللثام عن سدنته ومن وراءه، وبيان ما ينطوي عليه من مخاطر وأضرار.

(١) انظر: أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٨٣، ٨٤. وانظر: العمل قدرة وإرادة، لجودت سعيد، ص ١٥٥، ١٥٦.

* كما تكون بتدريب أفراد الأمة على الجرأة في قول كلمة الحق والاستهانة بالأخطار في سبيل ذلك، وتمرينها على ممارسة النقد وإبداء الرأي، وتأجيج الغيرة على حرمان الله أن تنتهك، مع إجماع النفوس بلجام الحكمة، والتأدب بأدب الشرع.

* وتكون بمقاطعة الفساد، وذلك بمقاطعة مؤسساته، ومحاصرته في معاقله، وتقديم البدائل الأخرى متى وُجِدَتْ.

وكل ذلك من العمل الصالح الذي يجب أن تدرّب الأمة على القيام به، وأن يكون مضبوطاً بضوابط الشرع، فإن مقاومة الفساد والانحراف نهى عن المنكر، كما أن نشر العلم النافع والعمل الصالح أمرٌ بالمعروف.

ويجب أن تُربى الأمة على ضرورة الجمع بينهما، وأن تدرك أنه لا معنى لأي جهد إصلاحي يقتصر على الأمر بالمعروف، إذا كان الفساد والمنكر من ورائه، يحيط به وينسخ أثره.

وأخيراً، فإن خير معين على تفاعل الأمة مع خطوات الإصلاح وتطبيقها: ربط مسيرة إصلاح الأمة بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

وتوثيق الصلة بين خطوات الإصلاح لاستئناف الحياة الإسلامية وبين تجربة الأمة الرائدة في صدر الإسلام ضرورة وهدف، فإنه «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»^(١).

* فهو تربية بالقدوة، وحسبك برسول الله ﷺ وصحابته الكرام وخلفائه الراشدين قدوة للأمة ومنازل يُهتدى بها.

* وهو تربية بالقصص والأحداث، وتأثير القصص والأحداث في النفوس، وحملها على الامتثال والتطبيق شيء عجيب، وهذا - والله أعلم - من الحكم في أن الله أكثر في كتابه من ضرب الأمثال وسياق القصص وأحوال الأمم الغابرة.

* وهو تربية على الشمول في الفهم والعمل، وعلى الجرأة في قول الحق وإبداء الرأي.

(١) جاءت هذه الجملة والحكمة البليغة في مفتتح خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي، ونصها: «إني رأيتُ آخر هذه الأمة لا

يصلح إلا بما صلح به أولها: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف». انظر: الإسلام والحضارة العربية (٢/١٦٥).

وأصلها للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ؓ.

* وهو تربية للأمة على معرفة ما عليها من الواجبات وما لها من الحقوق ، وقيمة أداء الأول بأمانة ، وأخذ الثاني بقوة .

* كما أنه تربية للأمة على كيفية التخلص من أخطائها والنهوض من عثراتها في كل الميادين ، وأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ .

وبالجمل ، فإن ربط خطوات الإصلاح بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي يعني ربط الأمة بماضيها المشرق وتجربتها الناجحة ، بشهادة العالم واعتراف التاريخ والأمم .

ويربط الأمة بالسيرة النبوية يعني الاقتداء برسول الله ﷺ ، والاهتداء بهديه ، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

والأخذ بمحاسن تاريخ المسلمين من سلف هذه الأمة داخل في معنى قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١) .

وقوله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٢) .

وهم قد اجتمعوا على أصول الإسلام من تحكيم الكتاب والسنة ونبذ الشرك والكفر والبدع ، وتولوا المؤمنين وتبرأوا من اليهود والنصارى وسائر الكافرين ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وأقاموا شعائر الدين الظاهرة ، ومنعوا أسباب الفسق والفساد ، وأقاموا علم الجهاد في سبيل الله ، وأجمعوا على ذلك . فاتباعهم في ذلك والتأسي بهم هو من اتباع سبيل المؤمنين ، وقد قال الله تعالى متوعداً من خالف سبيلهم: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] .

(١) جزء من حديث رواه أحمد وأهل السنن بسند صحيح ، عن العرياض بن سارية . انظر: المسند (٤/١٢٧ ، ١٢٨) . والترمذي في أهل العلم ، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، رقم (٢٦٧٨) ، وقال: «هذا حديث صحيح» . وأبو داود في السنة ، باب في لزوم السنة ، رقم (٤٦٠٧) . والبيهقي في شرح السنة (١/٢٠٥) ، رقم (١٠٢) ، وقال: «هذا حديث حسن» . وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة للبيهقي ، الموضع السابق . وعبد القادر الأرنؤوط في تحريجه لأحاديث جامع الأصول (١/٢٧٩) .

(٢) متفق عليه ، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه . انظر: فتح الباري (٥/٢٥٨) ، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، ح رقم (٢٦٥١) . ومسلم في فضائل الصحابة ، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ح رقم (٢٥٣٥) .

ومعنى المشاققة: المُعاداة . والآية - وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره - فهي عامة في كل من خالف طريق المسلمين^(١) .

ولا يمكن التآسي بهم ما لم نقف على جلية أمرهم ونقرأ سيرهم .

ويمكن تحقيق هذا الترابط بين شعور الفرد، وخطوات الإصلاح، وبين السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، وذلك عن طريق إعادة عرض السيرة والتاريخ الإسلامي بأسلوب مناسب، وإبراز مواطن العبرة واستنباط الدروس والفوائد، وربط ذلك كله بواقع الأمة، والمقارنة بين الحالين، وذكر أسباب هذا التباين، وكيف يمكن ردم الهوة بين الواقع القائم وبين الصورة المعروضة، ليتحقق الأمل المنشود .

والأُتَلَقَى التاريخ الإسلامي على أنه تجربة كاملة، مبرأة من العيوب والنقائص، فيقع التناقض بينه وبين نصوص الوحي وهدى المعصوم ﷺ، حين يقف المرء على بعض الأخطاء التي لا شك في وجودها .

كما لا يُتَلَقَى مشوهاً مسوخاً، كما يعرضه المستشرقون، وينقله عنهم تلامذتهم من المستغربين والمخدوعين، بحيث تبدو قيمته باعتباره تاريخاً عظيماً يُقْتَدَى به في جملته ويحاكى .. تبدو ضئيلة غير مشجعة .

بل يُنظَرُ إليه على أنه عمل بشري لأمة ممتازة، غير معصومة، فيكون في جوانبه الإيجابية قدوة، وفي جوانبه السلبية عبرة وعظة .

ويمكن تحقيق هذا الترابط من خلال إبراز نواحي العظمة في التاريخ الإسلامي وما قدّمه إنسان هذا التاريخ للإنسانية . وربط الناشئة بعظماء الأمة الحقيقيين عن طريق كشف جوانب عظمتهم وعرض مواقفهم البطولية، ومقارنة ذلك ببعض الأبطال المصنوعين الذين لا يستحقون الاحترام والتقدير، فضلاً عن التآسي والافتداء بهم .

لقد ضعف التواصل بين أمة الإسلام وبين تاريخها وسير عظمائها وأبطالها ومحل القدوة والأسوة لها .. ضعف إلى حد الانقطاع، بل إلى حد الجفوة والعداء لدى كثير من المسلمين، بسبب الجهل والتشويه والتعتيم .

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣٨٥/٥)، وسارق الدرع هو ابن أبيرق، لما حكم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالقطع هرب إلى مكة وارتنذ . وقيل: نزلت في نفر من قريش، قدّموا المدينة وأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين . انظر: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة . فالله أعلم .

ولا أبلغ إذا قلت: إن أساس هذا المهجر والقطيعة، هو هجر كتاب الله - تعالى - هجر تلاوة وتدبر، وهجر عمل وتطبيق، فلا عجب أن تهجر سنة رسوله ﷺ وسيرته، ومن باب أولى أن تُشيع هذه الأمية حول تاريخ الإسلام وأبطاله وعظمائه، وأن يستعيز الناس عن ذلك كله بأبطال الفن ونجوم الرياضة والسينما والمغامرات والقصص البوليسية، وأن يضربوا الأمثال بزعماء الشرق والغرب والزعامات الوطنية المزيفة والعلمانية الغربية .

ذلك أن الأمة صيغت عقول ناشئتها ولقنت هذه القطيعة منذ نعومة أظفارها، في مناهج التعليم وفي وسائل الإعلام .

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه

ولا عجب فنحن لما لم ننتفع بالقرآن، لم نعتبر بأحداث التاريخ .

إن على رواد الإصلاح ودعاة الأمة ومصلحيها، أن يجتهدوا في أن يعيدوا للأمة الثقة بدينها وتاريخها، وذلك بأن يقبلوا صفحات التاريخ ويثروا لآلته ودرره، ويزاحموا بها تلك الدمى الوضيعة في عقول أبناء الأمة، وأن يحسنوا الربط بين كل حادثة ومناسبة وبين السيرة والتاريخ الإسلامي .

وبهذا يصبح التاريخ مدرسة تربي فيها الأمة . وخليق بمن يتربى في مدرسة التاريخ الإسلامي أن يتشبه بأساتذته وصانعيه .

وبعد: فلعل من المناسب أن أذكر في خاتمة هذا الفصل، خلاصة وجهة نظري في أن هذه الخطوات والأساليب وما شاكلها، هي التي تؤهل الأمة للتفاعل مع السنن، وهي الطريق الأمثل لتطبيقها في مثل أوضاع الأمة الإسلامية اليوم، فأقول:

إن من سنن الله في الأمم، أن تغير أحوالها لا يكون إلا بتغيير ما بأنفسها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

وبما أن حديثنا عن الأمة الإسلامية بصفة خاصة، فأني أقول:

إن تغيير ما بنفس المسلمين، الذي هو مقدمة لتغيير ما يحيط بهم من أحوال وأوضاع سيئة، قد تنهياً له ظروف ممتازة وقد توضع في طريقه العراقيل .

قد تتهياً له ظروف ممتازة، وذلك إذا اجتمع سلطان الشرع والحجة، وسلطان السيف والقوة. إذا اجتمعا على بيان الحق ونصرتة، وذلك بأن يكون الحكم والولاية والسلطان خادماً للشرع حارساً له^(١).

وفي مثل هذه الحال، ما أسرع ما تصلح الأحوال ويقمع الفساد ويمد العدل والأمن والرخاء ورواقه.

فهذا المجتمع الإسلامي في المدينة وفي عهد الخلافة الراشدة، أحسن مثال على ذلك وأبلغه.

والمجتمع الإسلامي في عهد عمر بن عبد العزيز، أحسن مثال كذلك على إمكانية النجاح وترميم ما انثلم، وعلى صدق واطراد هذه القاعدة.

فقد كان المجتمع آنذاك لم يزل صالحاً راغباً في الخير، ولكنه كانت تنقصه قيادة راشدة وحاكم عادل. فلما جاء عمر بن العزيز أعاد الأمور إلى شيء أشبه ما يكون بعهد الخلافة الراشدة.

وقد يفترقان؛ السلطان والقرآن، فتحصل الخصومة والصراع^(٢).

فالعلماء والمصلحون يريدون إقامة سلطان الشريعة، والوالي أو السلطان يريد تثبيت حكمه وبقاء سلطانه، ولو خالف الشرع وناقضه، سواء كانت مخالفته جزئية، كما هي الحال في عامة الولاة والسلطين في عصور الإسلام المتقدمة، أو كانت مخالفة كلية أو شبه كلية، كما هو الحال في عامة حكام ورؤساء دول العالم الإسلامي في العصور الأخيرة.

وافتراق القرآن عن السلطان جزئياً أو كلياً هو الوضع السائد والغالب في تاريخ المسلمين.

وفي مثل تلك الحال، فإنّ تغيير أحوال الأمة وإصلاح أوضاعها؛ أي محاولة الجمع بين القرآن والسلطان، إما أن يكون بتغيير القمة، أو بتغيير القاعدة، والمقصود بالتغيير هو تغيير الوجهة، باستصلاح أو بإزالة نحو الأفضل، وليس مجرد الاستبدال، فإنه لا معنى له.

وكل أسلوب من هذه الأساليب يستلزم عملاً معيناً وجهداً خاصاً. والناس في هذا ثلاث طوائف.

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٣٩٤) وما بعدها.

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٣٩٤) وما بعدها.

فالشائفة الذين يرون أن التغيير الصحيح يجب أن يبدأ بالقمة، يرون أنه لا جدوى من استصلاح الشعوب ودعوتها، فهي جاهلة متخلفة، مقهورة بقوة الحديد والنار، ويرون اختصار الطريق من هناك، من القمة والقيادة.

فهم لذلك منهمكون في العمل السياسي والحزبي، بعيدون عن الأعمال الدعوية والتربية الإيمانية ونشر العلوم النافعة.

والذين يرون العكس، يذهبون إلى الطرف الآخر المقابل لأولئك، فيخرجون - وفق نظرتهم للإصلاح - الجوانب السياسية والاقتصادية، ومقاومة الفساد والباطل، ونشر العلوم النافعة من دائرة اهتمامهم، ويرون أن الأوضاع والأحوال والناس يمكن أن يصلحوا بالتهذيب الخلقي وإشاعة بعض الفضائل والآداب الإسلامية، والرفائق.. وما إلى ذلك.

وهؤلاء وأولئك أخذوا ببعض الحق فاختلفوا وتفرقوا، وحصل بسبب اختلافهم وافتراقهم تفرق واختلاف كلمة الأمة، وإن كانوا لا يقصدون إلى ذلك، فإن النتائج في الدنيا لا يلزم أن تكون أسبابها مقصودة. وعصم الله طائفة أخذوا الدين كله إيماناً، وقاموا به عملاً حسب استطاعتهم؛ ذلك أن الأمة الإسلامية معصومة أن تجتمع على الباطل الذي هو الكفر، معصومة كذلك أن تجتمع على بعض الحق الذي هو أخذ بعض الدين والشرع وترك بعضه؛ لأنها لو اجتمعت للزم من اجتماعها أن يكون الأمر المجمع عليه حقاً كله.. والمجمع على تركه باطلاً كله، وليس الأمر كذلك.

ثم إن القيام ببعض الحق وترك بعضه قد يحمل على التعصب لبعض الحق ضد بعضه الآخر، وذلك بسبب تضخيم هذا الجانب من الدين أو ذاك على غيره وربما تضخم الفرع حتى أصبح أعظم وأولى في نظر هذه الطائفة بالتقديم والعناية من الأصل، وسواء كان ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال، أو بهما. وهذا يورث - لا محالة - تعصباً وتحزباً للذي يرى صواب هذا المنهج ضد غيره، وهو يقود بالضرورة إلى تعصب وتحزب في مقابله، وقد يكون على بعض الحق أيضاً.. فيكون التفرق في الدين وفي أهله، وهذا من أكبر الغلط، ومن الجهل والظلم الذي نهى الله عنه.

والحق الذي لا شك فيه، هو أخذ الدين كله، والعمل على استصلاح القمة والقاعدة والحاكم والمحكوم في الأمة، بكل وسيلة مشروعة تحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة أو تقلل منها.

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة ، علم ذلك وتبين له أنه الحق .

فإن الله أطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه ، وهذا الإطلاق يدل على عموم الأمر بفعله من كل أحد ، وأن يؤمر وينهى كل أحد .

قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُقِيمُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] . وقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] .

فكما لا يستثنى أحد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ، فكذلك لا يستثنى أحد من أن يأمر ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينهى عنه .

وقال ﷺ في حديث أبي سعيد: «من رأى منكم منكراً فليغيره...» الحديث (١) .

وإرادة العموم في هذا الحديث ظاهرة بيّنة .

وحتى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] ، والآية الأخرى التي في سورة الأنفال: ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ لَمِ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] . فيها إيماء إلى أن تغيير ما بالقوم ، الذي يترتب عليه تغيير حالهم عام ، فيشمل الحاكم والمحكوم .

إذا ثبت ذلك ، فإن من المعلوم أن المعروف يشمل كل علم نافع وعمل صالح ، وأن المنكر هو ما كان بضد ذلك . فدخل في هاتين الجملتين الأمر بالدين والخير كله ؛ لأنه من المعروف ، والنهي عن الباطل والفسوق كله ؛ لأنه من المنكر .

ثم إن الله قرن بين العلم النافع والعمل الصالح ، وعلق الفلاح والنصر والتمكين على مجموعهما . قال سبحانه: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] .

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، ح (٤٩) .

فلم ينصره - سبحانه - على الحقيقة من لم يجمع بين هذه الأمور، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أعمال صالحة مشتملة على علوم نافعة، وهي التي أجملها سبحانه بقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والعبادة اسم جامع للدين كله^(١). والدين إما أمر أو نهي، فعل أو ترك. فهذا هو دين الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو هدي النبي ﷺ وفعله. وهو أعلم الخلق بمراد الله جل وعلا. فكما أبطل الشرك وعبادة الأصنام وأمر بالتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، فكذلك جرّد البشر من حق التشريع والتحليل والتحريم، وردّ ذلك كله إلى الله الواحد الأحد ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما لا يخلق غيره، فكذلك لا يشرع غيره ولا يأمر إلا هو سبحانه.

ومع هذا وذاك، جاهد النبي ﷺ لإبطال الفساد، وتطهير الأمة من المحرمات كالربا والزنا وشرب الخمر، ومن الظلم والاستعباد والقهر. كما جاهد من أجل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصلة الأرحام وتحقيق وحدة الأمة، وقاتل الكفار والمشركين. وحاسب ولاته وعماله وحاسبتهم الأمة، ولم يُحفظ عنه ﷺ ولا نزل في كتاب الله تعالى نص أو حرف يخالف شيئاً من ذلك.

ولم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتى استقرت هذه المعاني في أخلاق عامة المسلمين، وعرفوا أنها كلها من الدين، وأن الدين هو كلها مجتمعة. وشرح ذلك وتقريره يطول.

والمقصود: أنه لا صحة ولا مستند لمن يظن أن إصلاح أحوال الأمة يكون بإصلاح القمة فحسب، أو القاعدة فقط. ولا صحة أيضاً لمن يظن أن إصلاح جانب أو جوانب من الدين والشرع يستلزم صلاح الجوانب الأخرى، دون جهد يبذل وأذى يلحق المصلحين، قد يبلغ اشد أنواع الأذى.

(١) انظر: العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣٨.

إذا كان ذلك كذلك ، فإن من تمام إيضاح ما ذهبت إليه في أما بسطته من وسائل وأساليب هي أقرب طريق عملي يستطيع أولو البصيرة والمعنيون بإصلاح أوضاع الأمة أن يسلكوه . . إن من تمام الإيضاح لذلك أن ندرك أموراً ، منها:

* أن من طبيعة النفوس ، أنها لا تترك ما هي عليه من أمر واقع محسوس ، حتى وإن كان فيه من الخطأ والقصور والنقص ما فيه . . لا تترك ذلك إلا إلى شيء آخر محسوس مائل أمامها . . سواء كان مثوله في صورة قدوة صالحة ، أو كيان قائم ، تجاوز مرحلة التنظير إلى حيز الوجود وعالم التطبيق .

* وأن خيراً من الإغراق في المثاليات وانتظار الخوارق ، أن نبدأ إصلاح الأحوال بما نملك من وسائل ، ونسعى لامتلاك المزيد منها . . فإن الوسائل تكتسب بالدربة ، وإن الحقوق والفرص تُؤخذ ولا تُوهب . وفرق - أي فرق - بين من ينام منتظراً فرصة ذهبية قد تأتي ، وأغلب الظن أنها لا تأتي ، تاركاً الفساد يصول ويعبث دون حسيب ولا رقيب ، وبين من يبدأ متوكلاً على الله ، واثقاً بنصره وتأييده ، موقناً أن سنن الله في تغيير الأحوال تقتضي ذلك ، وتشهد له ، وكل فرصة تسنح فهي من توفيق الله ، فهذا هو الحريّ بالتوفيق والتأييد .

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

* وأن نبدأ بداية صحيحة ، فنزواج بين بساطة البداية وشموليتها . .

ننشر العلم النافع الذي يصحح الاعتقاد والعبادة ، ويشرح ويبين الحق من الباطل في أبواب المعاملة والسلوك .

ثم نتبع ذلك بطرح مقترحات عملية لتنفيذ تلك التعاليم الصحيحة ، العلمية والدعوية والاقتصادية وغيرها . . نبدأ الخطوة الأولى والثانية . . ثم تتابع الخطوات بعد ذلك .

ومع الزمن . . ومع ازدياد الوعي . . ومع نجاح هذه التجربة وتلك . . توجد المؤسسات المختلفة ، وتتوفر البدائل ، وينهار الحصار المضروب على الحق وأهله .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] .

وبداية بهذه الكيفية ، تحقق أمرين رئيسيين:

* تحقيق التكامل في الجهود الإصلاحية، فإن العلم والتعليم - مثلاً - يحتاج إلى الطاقات البشرية الصادقة، ما بين عالم يُستكْتَب، وناشر ينشر، ومعلم يشرح ويبين بأسلوب محرر مناسب للمقام، ويحتاج إلى مال لذلك كله.. وقل مثل ذلك في بقية الجوانب.

* وتحقيق سرعة الانتشار في أوساط الأمة، فإن في أفراد الأمة العالم، وفيهم المربي البار، وفيهم المهندس والطبيب، وفيهم التاجر، وفيهم الإداري الناجح، وفيهم الإعلامي

وهم جميعاً يؤلفون مجتمعاً واحداً، لا يستغني بعضه عن بعض، وكل منهم يجب أن ينال نصيبه من العلم النافع، وأن يؤدي دوره في عملية الإصلاح بما يقدر عليه من العمل الصالح.

والذي يهمل الجانب الاقتصادي أو الإعلامي مثلاً، يكون في حقيقة الأمر قد خسر جزءاً من المجتمع، فيهم النوابغ والكفاءات، وقصر في استثمار جانب مهم لا غنى به عنه.

ومن الأمور التي ينبغي أن ندركها ونكون على ذكر منها، ونحن نحاول ممارسة عملية الإصلاح:

* أن من طبيعة النفس أنها تستوحش من قلة السالكين، إلا من رزقه الله رسوخاً في العلم والإيمان.

وأن مما يخفف من وقع هذه القلّة - المورثة للوحشة - على النفوس الراغبة في الحق أن ترى الجهود الإسلامية أينما وجهت، وأن تشعر بأن عودة الأمة ليست في صفوف طلاب العلم والمثقفين، أو بين الطلاب والطالبات فحسب، بل وفي صفوف التجار والزراع، وفي أوساط العساكر والأجناد..

وأثبات ضاربة الجذور في النفوس، وأنها قدر إلهي له ما بعده. وهذا له أثر كبير في تقوية النفوس، واندفاعها للتفاعل مع خطوات الإصلاح ودعمها.

وأخيراً، فإن على من يرشح نفسه لهذا السبيل أن يؤمن بجدوى وقيمة النجاح النسبي، وأنه مؤشرٌ صحيح.

إن الذي يؤمن بجدوى النجاح النسبي، يكون قادراً على الصبر ومواصلة الطريق، وقادراً على الاستفادة من كل جهد يبذل..

والذي يؤمن بالنجاح النسبي، يدرك أنّ التفاعل النسبي مع خطوات الإصلاح والتطبيق النسبي لها .. أنه نجاح .

وأنّ الوعي الاجتماعي النسبي بالمخاطر التي تحدق بالأمة من داخلها ومن خارجها .. أنه نجاح .

وأن انتشار العلم النافع على قلته .. نجاح .

إلى آخر ما هنالك ..

ولكن ليس من النجاح، التوقف أو التراجع اكتفاءً بهذا النجاح، أو زهداً به واحتقاراً له .

ولعلّي بهذا أكون قد أوضحت وجهة نظري في ما أراه أسلوباً عملياً للتفاعل مع السنن وخطوات الإصلاح، وكيف يتم تطبيقها؛ لأنّقل إلى الحديث عن الوسائل التي تضمن - بإذن الله - استمرار فاعلية الإصلاح، وتساعد في تقدمه وتعميقه ..

وسيكون الحديث عنها في الفصل الثالث . ومن الله استمدّ العون والتسديد .

الفصل الثالث

ضمان الاستمرار^(١)

إذا كان علاج أمراض الأمة ومداواة أدوائها لا يتم إلا بالفقه التام والمعرفة الصحيحة بهذه الأدوية والمعضلات، ثم بالأدوية والعلاجات، وهي الأسباب الشرعية التي تناسبها.. ثم بتدريب الأمة أفراداً وجماعات، وحملها على تعاطي هذه الأدوية والأسباب شيئاً فشيئاً، وإزالة الأسباب والعوارض المانعة من تأثيرها في جسم الأمة..

إذا كان ذلك كذلك، فإن مما لا يقل أهمية وضرورة عن ذلك كله، مجاهدتها على الاستمرار على تعاطي تلك الأسباب، والبُعد عما يخرمها أو ينقصها أو يفسدها.

والاستمرار على تعاطي الأسباب المنجية، والبُعد عن أضدادها من أهم المهمات، ومن الأمور الشاقة التي لا يتفطن له إلا آحاد العقلاء، ولا يصبر عليه، إلا قلائل الرجال، فضلاً عن الجماعات والأمم^(٢). وتكمن أهميته في أن استقرار الصلاح، والدرية على الإصلاح، أن ثمرته وغايته هو استمراره في الأمة، وإلا ذهبت كل الجهود والتضحيات التي سبقتها بما دون الحد الأدنى من المكاسب. وما قيمة تعليم الناس وتدريبهم على الأعمال الصالحة؛ إذ كنا إذا بدت لنا ثمار هذه الجهود قعدنا، وقلنا: الناس بخير.. الناس لا يحتاجون إلى مُصْلِحِينَ ودعاة، فقد صلحت أحوالهم.. الأمة شبت عن الطوق وبدأت تدرك مسئولياتها.. وما إلى ذلك.

إن هذا منطق ظاهر القصور، ولكنه قد قيل! بلسان الحال أو بلسان المقال.. والذين يعيشون شيئاً من هموم الأمة، ويخالطون أشتات الناس يعرفون ذلك.

ولو تمعنا قليلاً، لأدركنا أن الناس إذا كانوا بخير، فإن هذا الخير ما جاء إلا بمجاهدة

(١) الضمان: هو الكفالة، والضمن: الكفيل.. والمقصود هنا: الأسباب والوسائل الشرعية، التي قضى الله وحكم وتكفل لمن أخذ بها، وواظب عليها، أن ينال ما رُتب عليها من صلاح الأحوال، وأن يستمر له ذلك ما بقي كذلك، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ اللهُ لَا يُبَدِّلُ مَا بَدَّلَهُ حَقٌّ بِبَدَلٍ وَلَا مَأْتِيهِمْ كَيْدٌ﴾ [الرعد: ١١]، وكما في الصحيح: «لضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرج إلا جهاداً في سبيله وإيماناً وتصديقاً برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرحمه إلى مسكنه الذي خرج منه تاللاً ما نال من أجر أو غنيمة». متفق عليه، من حديث أبي هريرة. [الفتح ٦/ ٢٢٠]، ح (٣١٣٣). ومسلم في الإمارة، ح (١٨٧٦). وهذه الأسباب جعلها الله ضامنة للأمة التي تأخذ بها؛ أي: حافظة لها أن تحلُ بها التغيير، كما يحفظ الإمام على المأمومين صلواتهم. انظر: اللسان، مادة (ضمن).

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٤).

ومصابرة، وأنه لا يدوم، فضلاً أن يزداد ويصلب عوده إلا بالمجاهدة والمصابرة كذلك .
وهل ضمير الخير وخف ميزانه في نفوس وقلوب أهله إلا بسبب القعود، وترك الأسباب
التي تضمن له القوة والاستمرار إلى ما شاء الله؟!!

وهل يظن أولئك أن الشرّ وجند الشيطان قد سئموا الكفاح، ووضعوا السلاح
وسلموا للأمر الواقع؟ إنهم كلما زاد الخير انتشاراً والمعروف رواجاً، كلما أجلبوا بخيلهم
ورجلهم، ونشروا الأعلام واستنفروا قواهم . .

تلك هي طبيعة الخير والشرّ والحق والباطل . والذين يقعدون في حال استقامة
أحوال الأمة لم يدركوا هذه الحقيقة الكبرى والبديهية التي شهد بها تاريخ الدنيا، وليس
تاريخ الإسلام وحده، فكيف بمن يقول ذلك أو يفكر فيه، ولم تقم أمة الإسلام بعد على
قدميها، بل هي في حال موات وشتات . (١)؟!

وتكمن مشقة الاستمرار على حال من الصلاح والاستقامة في أن الناس من
طبيعتهم أنهم إذا أمثوا وشبعوا وانتصروا . . وزال عنهم هاجس الخوف وشبح الحرب
ولأواء الفقر أو المرض . . وما إلى ذلك، استناموا وانصرفوا عن الجد وركنوا إلى الدعة
والغفلة، ونسوا أو تناسوا الحال التي كانوا عليها، والأسباب التي نجاهم الله مما كانوا فيه
بسبب الأخذ بها . . فإذا ما طالت بهم الحال، لم يزيّدوا إلا بُعداً من تلك الأسباب،
وإمعاناً في ارتكاب أضدادها .

وفي مثل تلك الحال يقلّ الناصح ويعزّ الداعي، وإن وُجِدَ - على قَلْبِهِ - قابله
بالإعراض، واتهموه بالمبالغة في وصف الأحوال، وتشككوا في جدوى ما يلقي إليهم،
ظناً منهم أن لا حاجة إليه، اتكالا على ما هم فيه من أمن عارض ونعمة سابغة . .

وقد أخبر الله في كتابه في مواضع أن ذلك حال عامة الكفار، قال جلّ وعلا:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿ [الأعراف: ٩٤، ٩٥] . وقال: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . وقال تعالى:
﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

(١) راجع إن شئت: مبحث (المدافعة)، الصراع بين الحق والباطل، في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب .

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿غافر: ٨٣﴾ . . . وغيرها من الآيات^(١) . وقد أصاب أكثر المسلمين داء تلك الأمم ، فها نحن نرى كل صنوف الإعراض ومظاهر الفسوق ومحاربة أهل الإصلاح في ديار المسلمين وأكثرنا لا يزال يعاني ويعيش شظف العيش ، وحال الخوف ، وذل الهزائم المتوالية والابتزاز والقهر . . ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]! بل إن كثيرا من أمم الكفر قد أخذت بأسباب الرقي الدنيوي ، ولم يسعف هذه الأمة أن تجاري تلك الأمم في هذا المضمار الذي تهدي إليه العقول ، حتى لو كانت نكبة عن هدي الشرائع !

إن أمتنا تحتاج إلى مجاهدة ليستقيم عامة أفرادها أولاً على الجادة - وقد بينت وسائل ذلك في الفصل السابق - وتحتاج إلى جهد وصبر مضاعف للاستمرار عليها .
وثمة شيء آخر يوضح أهمية الاستمرار على تعاطي الأسباب المنجية ، وهو أمر قد يغيب عن بال الكثيرين ، وهو مما اختص الله به المسلمين ؛ رحمة بهم .

ذلكم هو: أن الله قد أعلم الأمة وأذنها كيف تكون مستعدة للمحافظة على نتائج جهادها ، وحراسة مكاسبها المادية والمعنوية ، التي اكتسبتها عبر رحلة الاستصلاح والبناء الطويلة ، أعلمها بذلك قبل الظفر بها وامتلاكها ؛ وأن ذلك بتعاطي الأسباب التي جعلها الله أسباباً للظفر بها والتأهل لها . فأسباب الظفر هي أدوات الاستمرار عليه . . وزيادة .
أي أن الله قد يحجب عن الأمة النصر ، ويمنعها ما تجاهد من أجل تحصيله ، إذا علم سبحانه أنها ليست أهلاً لذلك فيما يستقبل من أمرها ، وأنها لو ظفرت به لأضاعته ولم تقدره حق قدره .

وقد نبهنا القرآن إلى هذا في غير موضع . . وتأمل معي قول الله تعالى:
﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّهْم فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَابُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٤١] .

فقد علّق - سبحانه - النصر بشروط مستقبلية ، يعلمها سبحانه ، ويعامل خلقه بمقتضاها ، وهي مطالبة ضمنية بهذه الشروط بعد التمكين وإيتاء الملك ؛ لئلا يسلب منهم .

(١) راجع: مبحث (أخذ الأمم بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك) ، في الفصل الثاني من الباب الثاني .

قال الحسن وأبو العالية: «هم هذه الأمة إذا فتح عليهم أقاموا الصلاة». وقال الضحاك^(١): «هو شرط شرطه الله - عز وجل - على من آتاه المُلْك».

قال القرطبي: «وهذا حسن»^(٢).

وفي الآية ثناء على الصحابة - رضي الله عنهم؛ لأنهم لما مكن لهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فظهر علم الله فيهم علانية أنهم أهل لنصر الله وتأييده.

قال عثمان رضي الله عنه: «هذا والله ثناء قبل بلاء». يريد: أن الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا»^(٣).

وفي مقابل ذلك أخبر - سبحانه - عن حال من استبطن الإعراض، وأصر على التولي. أنه لو سمع الحق ومُنِح النصر والتمكين في المستقبل لاستمر في الإعراض، وأفسد في الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ - وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

إن المحافظة على النصر، والقيام بشروطه، أهم من تحقيق النصر ذاته.

وإن المحافظة على المكاسب المعنوية والمادية للأمة لا تقل أهمية عن تحصيلها وامتلاكها. والذين ينظرون إلى مشكلات الأمة نظرة موضعية قاصرة عجلية، ولا يخططون لحماية ثمرات الجهود، ولا يجهدون في ترسيخ الأسباب التي تضمن - بإذن الله - استكمالها واستمرارها. إن الذين ينظرون هذه النظرة، قد قصروا في اتخاذ الأسباب الشرعية، ولم يفقهوا الأمر حق فقهه.

(١) هو: أمية بن الضحّاك بن قيس الفهري، القرشي، عذّاده في في صغار الصحابة، شهد صفين مع معاوية، وولاه الكوفة ثم دمشق، ولما مات معاوية بن يزيد وانعقد الأمر لمروان بن الحكم، امتنع الضحاك من مبايعته، فقتل بمرج راهط سنة (٦٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٢٤١)، وكتاب الرقيات لابن قنفذ، ص ٧٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/٧٣).

(٣) الكشاف، للزخشي (٣/١٦).

ولهؤلاء وأمثالهم أقول:

إن مشوار الإصلاح لم ينته عند حدود ما فصلنا في الفصل السابق (التفاعل مع السنن وتطبيقها)، وما تلك إلا خطوة على طريق خلاص الأمة، لا يتم تمامها إلا بهذه الخطوة التي نحاول أن نخطو نحوها .. ونضع أقدامنا عليها.

ويجب أن نتذكر دائماً، أن خطوات إصلاح الأمة ووسائل تنفيذها، وأساليب المحافظة عليها .. عملية متداخلة متشابكة، يكمل بعضها بعضاً ويفتقر بعضها إلى بعض، وليست أجزاءً ولا تفريق، وليست مراحل محدودة، محكومة بأطر لا تتجاوزها .. كما أنها ليست فوضى غير خاضعة لاعتبارات الزمان والمكان وملابسات الحال، غير مفتقرة إلى التخطيط والتقنين.

كلا . لا هذا ولا ذاك ... إنها - باختصار - تشبه طبيعة النفس الإنسانية في تداخلها وتكاملها، وسائر خصائصها التي تميزها عن المادة الصماء وقوانينها وسننها.

يوضح ذلك: أن الأمة - على سبيل المثال - لا يمكن أن يتجاوز كل أفرادها مرحلة ما أسميته (فقه السنن) بنجاح إلى مرحلة (التفاعل معها وتطبيقها)، بحيث نستطيع أن نتعامل مع جميع أفرادها وفق متطلبات مرحلة (ضمان الاستمرار).

بل ما زالت، ولن تزال فيها من كل الطبقات؛ من استوعب المرحلة النهائية، ومن لا يزال دون مستوى المرحلة الأولى ... وهكذا.

هذا من جهة .

ومن جهة أخرى: فإن إصلاح الأمة في كل مرحلة يفيد فائدة كبرى في إصلاح

المراحل كلها في آن ..

فمثلاً: عندما يتحدث متحدث عن ضرورة ترسيخ وحدة الأمة الإسلامية، فإنه يجب أن يعالجه من الناحية النظرية، وأن يطرح ما يراه مناسباً من الوسائل العملية التطبيقية، وأن يربط ذلك بتاريخ الأمة، ويذكر أمثلة ونماذج حيّة، وأن يكشف عن الآثار الوخيمة من جراء تمزق أوصال الأمة وتفكك وحدتها، وأن يعرض للأهداف والغايات والثمار التي يمكن أن تجنيها الأمة بسبب تحقيق هذه الوحدة.

وهذه السلسلة المتصلة الحلقات، تسهم في التفقيه في السنن، ومعرفة الأسباب المعينة على الخروج بالأمة من أزمتها، وتحمل على التفاعل معها وتطبيقها من خلال الوسائل المقترحة، ثم إن تحقق وحدة الأمة بعد ذلك، واحد من أهم أسباب الاستمرار والقوة على مستوى الأمة.

إن غاية ما أقصده بطرح تلك المراحل أو الخطوات الكبرى في طريق الخروج بالامة مما هي فيه، بالأسلوب الذي طرحتها فيه، أن أؤكد على مبدأ التدرج المنطقي في عملية الإصلاح، كل شيء بحسبه، بحيث لا نبدأ الخطوة الثالثة ونحن أميون أو شبه أميين في المرحلة الأولى، أو أن نشتغل بمجمل الناس على عمل ما قبل أن نقوم بما يجب من تعليمهم وتبصيرهم به... وهكذا.

إذا تبين ذلك، فما هي أهم الأسباب والوسائل التي ضمن الله لمن أخذ بها، علماً وعملاً، ودعا إليها وجاهد لتحقيقها أن الله يحفظه من الغير، ويتم عليه النعمة، ويمكن له في الأرض، ما حفظها وقام بأمر الله فيها؟
وجواباً عن هذا السؤال أقول:

هناك أسباب ووسائل كثيرة لا بد منها، وجماعها - كما أسلفت - التحقق بالعلم النافع والقيام بالعمل الصالح، وبعض هذه الأسباب التي بمقام تحصيل ذلك والتحقق به، وبعضها أشبه بمقام المحافظة عليه وضمان استمراره..
وقد فصلت في الفصلين السابقين أهم الوسائل والأساليب النافعة في تحصيل وتطبيق كل منهما..

وفي هذا الفصل أحاول تبيان ما يتعلّق بضمان الاستمرار على ذلك والمحافظة عليه. باختصار غير مخل بالمقصود. وأسأل الله الإعانة والتسديد.
* فمن ذلك: التعمق في فقه السنن لمواجهة مشكلات الحياة المتجددة، والقدرة على التطوير واستباق الأحداث، وتطويرها لمصلحة الأمة.

و يتم ذلك من خلال مزيد من الدراسات العلمية النظرية والعملية الميدانية في كل جانب تحتاج إليه الأمة.

ومن خلال التخطيط والتنظيم والاستطلاع، الذي يتمثل في ما يسمى بالدراسات المستقبلية والدراسات الاستشرافية^(١). ونشر ما يهم جمهور الأمة من نتائج هذه الدراسات، ومراجعة المواقف والخطط السابقة وتعديلها وفق ما ترشد إليه النتائج الجديدة، والمستجدات الحادثة.

(١) مقدمة في ظاهرة التغيير، للدكتور إبراهيم عباس، ص ٢٦ بتصرف. وانظر أهمية الدراسات المستقبلية، خصوصاً في ظل التقدم العلمي الهائل، ودوافع الاهتمام بها، وأنها من جهة تخدم في التخطيط السليم للمستقبل، ومن جهة أخرى تمكس مدى القلق والرعب من المستقبل في حسن وتقدير إنسان الحضارة الجاهلية المعاصرة. انظر ذلك في: كتاب الدراسات المستقبلية - عرض تحليلي ونقد، للدكتورين/ جورج طعمة، وسعد حافظ.

وهذا هو مقتضى الفقه الشرعي، كما نبه إلى ذلك الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - بقوله: «يَجِدُ لِلنَّاسِ مِنَ الْأَقْضِيَةِ بِقَدْرِ مَا يَجِدُ لَهُمْ مِنَ الْقَضَايَا». ولهذا أمر الله عباده بالتدبر والنظر في آيات الكتاب، والسير للنظر والتأمل في آيات الكون، فعن طريق هذين تستكمل المعارف وتصح القرائح .

قال تعالى: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص:

. [٢٩

وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ في غير ما آية [النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٠،

الروم: ٤٢]. وقال - سبحانه - بعد ما قصر نبا المهلكين من الأمم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأَلْمِذَاهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا يستلزم تكرار النظر والبحث والاستزادة من العلوم حتى يتبين الحق لمن خفي عليه، وحتى يدعن له من يجادل فيه .

* ومن الوسائل التي تعين في المحافظة على المستوى الرفيع الذي تصل إليه الأمة

بالمجاهدة:

الإفاضة في شرح معنى العلم النافع والعمل الصالح، وتأكيد شموليتهما لكل ما

يحتاج إليه الإنسان في عمارة الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

وضرب الأمثال في ذلك من واقع التاريخ الإسلامي .

وهذا جانب مهم، وربما زهد بعض الأخيار في بعض الاختصاصات، أو استهان بأهمية شغل بعض الأعمال، ظناً منهم أنها من جنس الأعمال الدنيوية، وأنهم بالتالي لا أجر لهم فيها ولا ثواب لهم عليها، أو أن أجرهم زهيد حتى مع الاحتساب . وهذا مسلك في الفهم إذا تكاثرت سالكوه، أضر ذلك بمصالح الأمة الحيوية، وجعل رقيها المادي موقوفاً على سفلة الناس ومن لا خير فيهم، ممن كانوا ولا زالوا أولاء لكل عدو مستعمر وخذاماً لكل طاغية متسلط، أو جعل مصيرها بيد عدوها الأبعد، كما عليه حال الأمة اليوم .

ومما يفيد في هذا الجانب: أن يشرح العلماء وطلاب العلم لعموم الناس منزلة فروض الكفاية من الدين، وأن منزلتها تؤخذ من اسمها، فهي فروض لا بد من القيام بها، وليست مندوبة يسع تركها.

وأن الذي يسد هذه الثغرة، يكون نائباً عن الأمة في هذا الباب، وهذا شرفٌ عظيمٌ له في الدنيا والآخرة.

وأنه لا يستوي من يقصر نفسه على القيام بالواجبات العينية، ومن يتعدى ذلك إلى النهوض بفروض الكفاية عن غيره من القاعدين أو العاجزين... إلى آخر ما هنالك من المعاني التي قد تكون غائبة عن الأذهان، بسبب الجهل أو التقليد، أو لأي سبب آخر.

والمقصود: أن مما يضمن للأمة التقدم والاستمرار: أن يجاهد المصلحون ويجهدوا في شرح معنى الإسلام، وحقيقة العلم النافع والعمل الصالح^(١)؛ حتى يعلم الناس أنه لا حاجة بهم إلى أن يستعيروا نظاماً سياسياً أو اقتصادياً أو تربوياً من غيرهم، فضلاً أن يبحثوا عن المبادئ والقيم، وحتى يشعر كل مسلم - أيا كان اختصاصه - أنه عامل للإسلام ماجور في عمله، نائب عن الأمة فيما هو فيه، إذا أحسن القصد وأصلح النية.

* ومن ذلك: بناء الأمة بناءً عقائدياً متيناً سليماً.

فالعقيدة قطب رحي الأمة وركيزتها، وهي سبب عزها ومصدر قوتها وثباتها، وليست عبادتها وأخلاقها وتصوراتها ومواقفها إلا فروعاً على تلك العقيدة، مصبوغة بصبغتها فإذا قويت العقيدة ورسخت قويت الأمة بكل مظاهرها، وإذا انحلت عُراها ووهى أساسها خارت قوى الأمة، ولو كانت على جبال من القوة المادية.

فأنت تعرف الأمة ذات العقيدة الصلبة من حفاوتها بعباداتها، وتعرفها في أخلاق أبنائها ومعاملاتهم وفي كل شئونهم.

والعقيدة التي نطالب بحمايتها هي «العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه، إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله، وما لقيصر حقّ ليس للفرد من رعاياه، وأنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله

(١) وقد أوضحت معنى الصلاح وضده، بشيء من البسط في مبحث (التمكين والاستخلاف) في الفصل الأول من الباب الثاني.

وجسده ، أو تتولى شعائره ، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه ، وأنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ، ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته^(١) .

إن العقيدة التي نطالب بحمايتها ، هي العقيدة التي نفهمها من دلالة قوله سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ [البقرة: ٣٠] .

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

«إن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وإن وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعاً .

إن حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس ؛ أي: استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يعبد ، ورباً يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني: هو التوجه لله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التبعيد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهد في سبيل الله ، والجهد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله . . . كلها عبادة ، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه^(٢) .

وحماية العقيدة بهذا المعنى ، لا تتم إلا بأن تتلقاها الأمة على طريقة القرآن الفريدة ، وهي ربط كل التوجيهات والأوامر والنواهي برباط العقيدة والإيمان .

(١) السلام العالمي والإسلام ، للأستاذ/سيد قطب ، ص ٨ .

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٣٨٧) بتصرف .

فلا تكاد تجد حكماً أو أدباً أو توجيهاً إلا وتجد مختوماً بما يناسبه من أسماء الله وصفاته ، أو بالأمر بالتقوى والتحذير من المخالفة ، أو تكون الآية مُفْتَتِحَةً بالنداء باسم الإيمان ... أو ما شابه ذلك^(١) .

اقرأ - مثلاً - قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ * لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رِزْصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤ - ٢٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨ ، ٢٣٩] .

فانظر كيف اعترض بذكر شيء من شأن الصلاة والأمر بذكر الله بين أحكام الطلاق والعدد؛ لأنه كتاب تشريع ، وكتاب تذكير وموعظة^(٢) .

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١] . وقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] .
وعامة القرآن كذلك .

إن العقيدة التي لا تظهر آثارها على اللسان: صدقاً في المقال ، وعفة عن قول الزور والحناء ، وصدعاً بكلمة الحق .. وعلى الجوارح: وقوفاً عند حدود الله ، وقياماً بأوامر الله .. وعلى الأخلاق: كرمًا وحياءً وشجاعة ووفاء ... إلى آخر ما هنالك من المظاهر .

إن العقيدة التي لا تظهر آثارها كذلك ، هي عقيدة قابعة في الضمير ، لا أثر لها في واقع الحياة ، وإن كان لها من أثر فآثر فردي قاصر سلبى . ومثل هذه العقيدة قد لا تساعد في بناء الحياة وعمارة الكون .

(١) راجع: مقدمة سورة الأنعام في الظلال ، ففيها تفصيل شافٍ وإيضاح كافٍ لمنهج القرآن في عرض العقيدة وطريقته في تقريرها .

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/٤٦٥) .

هذا لون من ألوان حماية العقيدة ؛ وهو أن نخلصها من لوثة التجزئة ، وهي داء يكاد يكون من أوسع الأدواء انتشاراً بين أفراد الأمة الإسلامية اليوم .

ومن حماية العقيدة: أن نظهر ساحتها من ألوان البدع والخرافات وضروب الشرك الخفي والجلي ؛ في الجانب التصوري العلمي ، كبدعة الأشاعرة والمعتزلة وما شابه ذلك . وفي الجانب العملي ، كالبدع الشركية العملية ؛ كالطواف حول القبور وبدع المتصوفة ، وكبدعة المولد... ونحوها .

ومن حماية عقيدة الأمة: أن تتلقاها الأجيال وتتعلمها الناشئة ، وأن يكون لها الحظ الأوفر في مناهج التعليم والإعلام ، في الوقت والإمكانات والوسائل^(١) .

ذلك أن تلقى أفراد الأمة وناشئتها للعقيدة الإسلامية بشمولها ونقاها على طريقة القرآن من أقوى عوامل استمرار عطاء الأمة وإيجابتها ، وقوتها وشجاعته .

* ومن الأمور التي تضمن للأمة البقاء والاستمرار:

العدل في الأقضية والأحكام ، وفي الحقوق والواجبات .. على مستوى الراعي والرعية .

وهذا باب عظيم ، وسب رئيس من أسباب البقاء والاستقرار .

وما تفانى الأولون وحلت بهم المثالات إلا بسبب ظلمهم وجور بعضهم على بعض ، وقد ثبت بنصوص الشريعة وباستقراء التاريخ أن ظلم العباد بعضهم لبعض هو أسرع في فئائهم من أية معصية أخرى حتى الشرك بالله . وأنه لا يمكن أن تستقيم الأحوال وتعمر الديار وتكثر الخيرات ، والأمة ما بين ظالم ومظلوم .

قال شيخ الإسلام: إن «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم ؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويُقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام ؛ وذلك أن العدل نظام كل شيء ؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة»^(٢) .

(١) أقول هذا الكلام في الوقت الذي تسعى دول - كونس - جاهدة في تخفيف منابح الإسلام ، وفي الوقت الذي يعمد قوم منا إلى سلخ المواد الشرعية - خصوصاً العقيدة - من أهم القضايا العقدية ، باسم التطوير ، وباسم التخفيف عن الطلاب ، وباسم تحاشي التكرار والحقيقة - التي لا شك فيها - أن وراء الأكمة ما وراءها!

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (١٤٦/٢٨) . وفي أدب الدنيا والدين ، للمواردي ، ص ١٤٢ ، قال بعض الحكماء: «الملك يبقى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم» .

والواقع يشهد بذلك ويؤيده، فإنَّ الغربَ لما أقام نظام حياته على أساس العدل النسبي فيما بينهم، كان ذلك من أعظم أسباب ازدهاره وتقدمه، وبعكس ذلك العالم الثالث، ومنه العالم الإسلامي لما كان قائماً على أساس التسلُّط وهضم الحقوق، حاق به من الضعف والتخلف والذلَّ ما هو مشاهد للعيان .

وقد يجتمع في الأمة الظلم الأكبر وهو الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والتظالم بين أفراد الأمة .. وهذا في عامة الأمم الجاهلية، فمن مُقل ومن مستكثر، فإن الكافرين لا ينفكون من التظالم فيما بينهم، مع اجتماعهم على الكفر والشرك بالله . وهذا وذاك مما يسرع في هلاكهم ومحققهم . ويكون التظالم بينهم هو السبب المباشر لفنائهم وزوال عمالكتهم .

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «... إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»... الحديث^(١).

وقد تسلم الأمة من أن تجتمع على الشرك والكفر، وتبتلى بالتظالم فيما بينها، وهذا هو الواقع في الأمة الإسلامية منذ قرون، وكان ولا يزال من أقوى الأسباب في ضعفها وذهاب ريجها . ولن تقوم للمسلمين قائمة ما لم يقيموا العدل بينهم، ويكفوا عن ممارسة الظلم والأثرة، حتى ولو أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا وصاموا .

فإنَّ الله يتتقم للمظلومين من عباده، ولا يقيم للظالمين دولة، بل يسلِّط عليهم ما يزعجهم ويقض عليهم مضاجعهم؛ من عدو حاسد ومتربص طامع؛ لأنهم جعلوا الله عليهم سلطاناً وسيلاً بينغيهم وظلمهم .

ولن تقوم للعدل قائمة في ديار المسلمين إلا إذا حكموا شرع الله فيهم؛ في كل شئونهم، صغيرها وكبيرها، خاصها وعامها، على كل كبير وصغير، وحاكم ومحكوم . وكل من ادعى إقامة العدل في أمة محمد ﷺ، ثم لا يحكمهم بشريعة ربهم، فهو كاذب في دعواه .

(١) متفق عليه، من حديث عائشة . وسبق تحريجه .

ولأمة محمد ﷺ خصوصية، وهي أن العدل فيها مربوط بالإسلام، لا يكون مع غيره، ولو حاولوا ما حاولوا؛ لأن العدل - النسبي بالطبع - لو تحقق بغير الإسلام، لكان في ذلك أعظم فتنه للمسلمين عن دينهم. وليس كذلك الكافرون. فله الحمد والمثمة.

* ومن الأمور التي جعلها الله - بمقتضى سننه - ضامنة لاستمرار عطاء الأمة، والمحافظة على ثمار العلم النافع والعمل الصالح:

الوعي واليقظة التامة على مستوى أفراد الأمة.

وعن طريق هذا الوعي، تعرف الأمة ما عليها من واجبات فتؤديها، وتتعرف على ما لها من حقوق فتطالب بها.

وبالوعي تستطيع الأمة التمييز بين من يخدمها ومن يستخدمها، ومن يناصر قضاياها، ومن يستغل قضاياها. فتمنح ولاءها وكلمتها لمن يستحقها، وتعرّي زيف الآخرين، وتضع حداً للاستغلال والتهريج.

إن الوعي واليقظة في صفوف الأمة قد أثمر ثماره في الدول الكافرة، يوم قامت الأمة بأسرها بدور المراقب والمقوم لأعمال الساسة والأحزاب الحاكمة؛ فحفظت الأموال فلا تختلس، واستقرت الحريات، فلا يعتدى عليها، وضمنت الحقوق والممتلكات، فلا تسلب أو تصادر.

وإذا قالت الأمة كلمتها في أمر من أمورها، نفذ. وإذا تكلمت في حق شخص، سقط. وإذا ساندت شخصاً، تبوأ فيها أعلى مكان. ولولا الوعي واليقظة، لم تظفر بشيء من ذلك.

ولهذا فإن الأمم الغربية اليوم لا تدافع عن شيء دفاعها عن حرياتها وحقوقها، كما أنه لا توجد أمة مثلها يؤدي الفرد فيها ما عليه من واجبات تجاه الآخرين، في حدود وطنه؛ وسبب ذلك: أن الجميع تدرّب على المطالبة بحقوقه، والأمة بمجموعها تقف حارسة للحقوق العامة، فإذا طالب كل بحقه أنتج ذلك أن يؤدي كل واجبه.

وما لها لا تدافع عنها، وهي أعز شيء لديها، إن لم أقل: كل شيء لديها؟! ومن تذوق طعم الحرية والأنفة، لم يطق طوق العبودية.

وإذا كان الوعي واليقظة بلغ بالأمم الغربية هذا الشاؤ، فإن يقظة المسلم ووعيه أتم من ذلك وأكمل، إذا وجّه الوجهة الصحيحة.

إنه وعي إنسان يؤمن بمبدأ صحيح، ويعيش لهدف سام وغاية نبيلة، لا وعي إنسان يعبد المادة ويسعى بهمة الحيوان.

إن وعي المسلم ويقظته يفترض فيها أن تعلم جنس الإنسان معنى الحياة والحرية ، وحقيقة الكرامة والجرأة ؛ لأنه أخذ ذلك كله من القرآن ، وتلقاه عملياً من معلم البشرية ﷺ من خلال سيرته ، ووعى في ذاكرته أروع الأمثلة في اليقظة من تلامذة مدرسة النبوة . فلا يبالي بعد ذلك بمن خالف أو أبى .

لقد أشاد «القرآن بالذين يرفضون الظلم ، ويتناصرون لمقاومته ، واستنهض همهم لمنازلته: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٢] .

والرسول ﷺ يجعل خنوع الأمة وعدم تناصرها لمقاومة الظلم من العلامات الدالة على موتها ، وانتهاء مبررات وجودها: «إذا رأيت أممي لا يقولون للظالم منهم أنت ظالم، فقد تودع منها»^(١) .

واستحقاقها العقوبة ، كما جاء في حديث أبي بكر ؓ أنه قال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه -: «أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وإنما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» . وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرن على أن يغيروا ولا يغيرون، إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»^(٢) .

إن الوعي الذي تعلمته الأمة من دينها ، هو الوقوف مع الحق ومساندته ، والوقوف في وجه الظلم ومقارعته ، ولو كان من أقرب قريب وأنسب نسب ، حتى شاع ذلك بينهم شياع سائر تعاليم الإسلام ، بل كان بعضهم يطالب الآخرين بأن يعاملوه على أساس هذا الوعي واليقظة ، لعلمهم أن هذا لو مات في النفوس لضاع الحق وتسلط بعض الأمة على بعض .

(١) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها ، للدكتور/ ماجد الكيلاني ، ص ٨٩ بتصرف يسير .

والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن عمرو . انظر: الفتح الرباني (١٩/ ١٧٥ ، ١٧٦) .

قال الساعاتي في تحريجه: «أورده الهيثمي وقال: رواه أحمد والبخاري بإسنادين ، ورجال أحمد إسنادي البزار رجال الصحيح ، وكذلك رجال أحمد... وأورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد» . قلت (والقاتل الساعاتي): وأقره الذهبي .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي وصححه ، وأبو داود ، والبخاري في شرح السنة (١٤/ ٣٤٤) ، وإسناده صحيح ، وسبق تحريجه .

«كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلس ، وحوله المهاجرون والأنصار ، فقال: أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً . فقال بشر بن سعد ^(١): لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدْح . فقال عمر: أنتم إذن! أنتم إذن؟ أي: أنتم إذن الرجال الممثلون للأمة الحقّة» ^(٢) .

إنّ الطريق الوحيد لحماية حقوق الأمة - ودينها في مقدمة هذه الحقوق - هو أن تكون على مستوى المسؤولية ، يقظة ووعياً ، وجرأة في إبداء الرأي ، وقوة في الدفاع عنه ، ما دامت تعتقد صوابه ، حتى يثبت لها خطؤه .

وإذا أصبحت بهذه المنزلة استطاعت أن تفرض احترامها ، وأن تنتزع حقوقها ، وأن تفرض الشورى الشرعية وتختار أهلها الأكفاء .

وعلى أولي العلم والرأي في الأمة في ذلك ، مسؤولية أعظم من غيرهم ، بما معهم من العلم والبصر في الأمور ، ولما لهم من المكانة والحظوة عند الخاصة ، والإجلال والطاعة في قلوب العامة . فكلامهم مسموع ورأيهم مطاع من الفريقين .

وإذا كانوا على وعي ويقظة ، كانوا حراساً أمناء وممثلين عن الأمة أكفاء ، فحفظوا للأمة حقوقها ، ومنعوا الظلم عنها ، وقاموا في الأمة يعلمونها ما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات ، في أمور دينها ودنياها ، فازدادت ثقة الأمة بهم ، وأخذها عنهم .

وكل ذلك يرفع من رصيدهم عند الخاصة ؛ لأنّ قيمة العالم عند الخاصة ما هي إلا صدى لقيمتهم ومنزلتهم عند العامة ، وليس العكس ^(٣) .

وأما إذا كانت الأخرى ، فتحوّل العالم إلى تابع يسير في ركاب الخاصة ، فإله مع الزمن تصبح له مطالب وحقوق ، يشتغل في تحصيلها ، ويعتاض بها عن المطالبة بحقوق الأمة ، وإذا تعذر الجمع بينهما ، قدم حقوقه على حقوق الأمة ، وشيئاً فشيئاً حتى يصبح ينظر إلى حقوق الأمة من خلال واقعه هو ، فلا يتحمس لقضاياها ؛ لأنه لم يعد يرى الأمور على طبيعتها .. وشيئاً فشيئاً حتى يبدأ ينكر على الأمة أن تكون لها كل هذه الحقوق! أو أن تكون الخاصة تظلم هذه المظالم!

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها ، للدكتور/ ماجد الكيلاني ، ص ٩٠ عن: كنز العمال (٥/٦٨٧ ،

٦٨٨) . والقِدْحُ: السُّهُمُ .

(٣) هذا هو الغالب والواقع ، وعكس ذلك نادر في الواقع ، وإن كان هو الأصل ، ولا يكون هذا الأخير إلا إذا اجتمع السلطان والقرآن .

وحينئذ يكون عقبه في طريق الأمة ، وعلى الأقل يكون عنصراً سلبياً ، وهو محسوب عليها .

أما هو فقد سقط من عين الخاصة ، بعد أن أسقط حقوق العامة . تلك سنة الله . والأمة الواعية اليقظة هي التي تميز بين الفتتين ، وتمنح ولاءها لأنصح الفريقين ، ما بقي ولاؤه للحق .

إن الأمة الواعية اليقظة هي التي تتمحور حول الحق ، وتتعلق بالمبادئ ولا تتعصب للأشخاص ، ولكن تنزلهم منازلهم . ومنازلهم تكون بقدر ما يحملون من الحق ، ويدافعون عن الحرية والعدل .

وكم عانت الأمة الإسلامية من جراء غيبة الوعي وغفلة السواد من متاعب ، وجرت على نفسها من مصائب .

فكم وضيع رفعته ، فضحك منها حتى استلقى على قفاه ، وهي تظن أنه يضحك معجباً بذكائها ، فمنحته المزيد!

وكم من مصلح ناصح أراد بها خيراً ورام لها عزاً فخذلته ، ولم تعرف له قدراً ، حتى فارقتها طريداً أو مقتولاً أو ميتاً على فراشه ، إلا القليل!

وكم منكر أقرته وباركته . . . ومعروف أنكرته وهجرته! وكم . . ؟ وكم . . ؟

وكم صدق فيها قول الشاعر:

أكل امرئ تحسين امرءاً ونار توقد بالليل ناراً^(١)

وقول الآخر:

أمرهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلى ضحي الغد

وقول الآخر:

ولو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(٢)

ومن دلائل الغفلة وغياب الوعي: أنك تجد بعضهم يؤازر المستعمرين من النصارى والملاحدة ، ويجعلون من أنفسهم جسراً يعبر منه أولئك لإذلال المسلمين .

(١) البيت لأبي داود الأيادي ، واسمه: جارية بن الحجاج . انظر: شرح ابن عقل (٧٧/٢) .

(٢) البيت لعمر بن معد يكرب . انظر: الأصمعيات ، ص ١٢٢ ، ومعنى قوله: ولكن الرماح أجرت ؛ أي: إن رماح قومي قطعت لساني عن مدحهم والفخر بهم ؛ لفرارهم من الحرب .

وقد تجد آخرين، يستوحش أحدهم أن يؤازر الكفرة الأجانب، ولكنه لا يجد غضاضة ولا يتمرّ وجهه أن يكون ساعداً أيمن لطاغية من بني جلدته، وإن كان هذا الأخير أنكى على الأمة من الأول وأشد كفراً!

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟» من ذلك أمثلة مؤلمة.. كالوزير المقرئ الذي كان أشد حماساً وتعصباً لتنصير البربر في المغرب ورفع الشريعة منهم، من الفرنسيين أنفسهم.. وكان كلما أرادت فرنسا - تحت تأثير سخط العالم الإسلامي - أن تعدل عن حملتها في تنصير البربر، جاء هذا المقرئ يجرها عاقبة الرجوع إلى الصواب، ويقول لها: إن أهالي المغرب يعدون هذا منها نكوصاً وضعفاً، وبعد ذلك لا يمكنها أن تثبت أقدامها في شمالي أفريقيا!

وكالبغدادى؛ باشا فاس، الذي ضرب نحو مئة من الشبان بالسياط، لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء: «يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر، ليس بإخراج للبربر من الإسلام!

ثم يقول شكيب أرسلان: «وليس واحد من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسا وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والراهبات، يجوس خلال بلاد البربر، ويبني الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان، وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسا فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر، حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية».

ومن يدري فقد يكون المقرئ والبغدادى هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر!

وقد يكون المقرئ هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة (مراكش الكاثوليكية) التي تطعن في الإسلام وتقذف محمداً ﷺ.

وبعد هذا، فمن يدري؟ فقد يكون المقرئ مصلياً وصائماً ويديه سبحة يقرأ عليها أوراداً.

ومن يدري؟ فقد يكون البغدادي السيء الذِّكر من يتمسِّحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء، ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب .

وأما المفتي! فهو المفتي! فلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلي الخمس، ويصوم ويجتهد ويوتر ويتنفل .. إلخ» .

يقول: «لقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال، لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعلمين في قضية دينية مباشرة. فقد اقترحت عليهم فرنسا أن يُمضوا برقية إلى جمعية الأمم ينكرون بها على المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين، فأضاه منهم عمائم مكورة، وطبالس محررة ومجررة، ورقاب غليظة وبطون عظيمة .. ومن العدل أن نقول:

أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله الذين منهم في المشرق، والذين منهم في المغرب، ممن يوقعون على اقتراحات الأجانب المضرة بالدين والوطن»^(١) .

وقد ذكرتُ لك من قبل، ما جرى في مصر إبان احتلال الفرنسيين لها، ثم في عهد الإنجليز، وما قال أستاذ الجيل لطفي السيد! في فصل مضى .

أما الذين يبررون للطغاة الوطنيين جرائمهم، فأكثر من أن تحصيهم الأقلام، ويكفي أن تعلم أنه ما من طاغية أو متسلط إلا ويدور في فلكه طائفة من أشباه العلماء من المرتزقة، يلوح بهم متى شاء ليقصم بهم ظهر الدين والملة .

والحق أنهم ليسوا من طينة واحدة، بل هم مشارب شتى، فمنهم المخدوع المُغرَّر به، ومنهم المأتي من قِبَل جهله وضعف فقهه وفهمه للواقع ومجريات الأمور، ومنهم رقيق الدين الفاسق في باطنة أمره، ومنهم الطمَّاع الجشع الذي يسعى لِمَصَالِحِهِ، ولا يعنيه أمر الأمة في شيء ... ومنهم ... ومنهم .

ومنهم القوَّال لكلِّمة الحق الصادق في لهجته، وهؤلاء أقل من القليل .

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

(١) انظر: كتاب لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، للامير شكيب أرسلان، ص ٦٢، ٦٤ بتصرف .
وقد علّق الشيخ رشيد رضا على الخبر الأخير بـ «أن الفرنسيين أرادوهم في السنة التالية لإمضاء بيانات خيثة كهذه، فامتنعوا واحتجوا بأن عملهم ذاك عرضهم للإهانة واستوجب مقت الشعب السوري لهم، فهم لن يكرروا تلك الخيانة. ثم قال: وهذا دليل على أن الأمة تقدر متى شاءت أن تقوم أود هؤلاء المشايخ، وأن الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم» ١٠١. بتصرف يسير

والخلاصة:

* أن وعي الأمة ويقظتها ضرورة مُلِحَّة وركن ركين إذا ما أُريد للإصلاح أن يؤتي ثماره، وللحقوق أن تُصان وللملَّة والشُرْعَة أن ترتفع أعلامها .

* وأن وعي العلماء ويقظتهم، وقيامهم بمسئولياتهم التي تحمّلوها من أعظم أسباب الاستقرار والاستمرار، وصلاح الحال والمآل .

* وهذا يقودنا إلى الحديث عن واسطة عقد استمرار الأمة في أمتة من العقوبات والنكسات، وازدياد في الخيرات والبركات .. ذلكم هو:

* قيام سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله^(١) .

وهذا هو صمام الأمان، وواسطة عقد الأسباب الحافظة للمجتمع والأمة، وهو أول طريق الإصلاح وأوسطه وآخره، وأعظم ما يعول - بعد الله - عليه في استرداد عافية الأمة بعد بلائها، وعلاج أدوائها كلما خامرتها وأنهكتها .. فكما لا تصلح الأمة إلا بالأمر والنهي، فكذلك لا تبقى صالحة إلا بممارسة هذه الشعيرة والشريعة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معنى عام يدخل فيه الدين كله، ويخرج بحده الباطل كله، كما بينت ذلك في أكثر من موضع^(٢) .

ومطلق الأمر والنهي طبيعة بشرية وخصلة جيلية لا ينفك منها إنسان^(٣)، ولهذا يُقال: إن لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل .

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، وهم المؤمنون الذين رحمهم الله فخالقوا أهواءهم وما تأمرهم به أنفسهم^(٤)، واتتمروا بالمعروف . ولهذا لا يحمّد الأمر والنهي لذاتهما، بل من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو المحمود، دون ما سواه .

أمّا خصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضرورة بشرية لا قوام للإنسانية إلا بها، ليس فقط في شئون دينها، بل وفي شئون دنياها، ولهذا كان التدافع بين الخلق

(١) مسألة: هل هناك فرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الدعوة إلى الله؟ أم أن معنى الكلمتين واحد؟ تلك مسألة سأحاول تبيانها بعد الفراغ من الحديث عن هذه النقطة، بإذن الله تعالى .

(٢) وانظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٩ وما بعدها . وكتاب: حتى لا تفرق السفينة، للشيخ/سلمان بن فهد العودة، ص ٥ .

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٦٥ .

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (١/١٣) .

عامة، وبين الحق والباطل بصفة خاصة لبقاء الأصلاح، ولدفع الفساد عن الأرض سنة إلهية لا صلاح لهذا العالم إلا بها. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].
ولهذا لا تخلو حال الناس من أمور ثلاثة^(١):

فإنما أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر» وهذه حال كُمل المؤمنين .
وإنما «أن يتآمروا بالمنكر، ويتناهوا عن المعروف، وهذه حال المنافقين» والكافرين .
وإنما «أن يتآمروا ببعض المعروف ويبعض المنكر، ويتناهوا عن بعض المعروف وعن بعض المنكر، فيقع منهم حق وباطل»، وهذه حال عامة المسلمين .
والأمة الإسلامية، ما كانت خير أمة أخرجت للناس إلا لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . فإذا عطلت هذه الشعيرة أو قصرت فيها، فقد فقدت من خيريتها ومبرر وجودها وسرّ تمييزها وسبب فلاحها بقدر ما فرطت وقصرت فيه في هذا الباب .

ولهذا قال - سبحانه - بعد أن وصف هذه الأمة بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ، قال: ﴿وَلَوْ أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهؤلاء المؤمنون القلة من أهل الكتاب (أمة) كان من صفتهم أنهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِلِي وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وأنهم كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون . ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

ومن عداهم استحقوا اللعن والعذاب؛ لأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

(١) انظر: حتى لا تفرق السفينة، ص ١٤، ١٥.

ومما سبق يتبين أن الخير في أهل الكتاب كان في أمة وطائفة منهم ، وهو تنبيه وإشارة إلى قلته فيهم ، لقلة من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منهم ، كما قال سبحانه في الآية السابقة: ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ . وفي الآية الأخرى: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَصْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] .

أما في هذه الأمة ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة وخاصية لها في عمومها ، لا يخلو منه جيل ولا بلد ، ف (الأمة) في قوله سبحانه: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهي واردة في شأن هذه الأمة ، أكمل وصفاً وأكثر عدداً من (الأمة) المذكورة في أهل الكتاب . ولهذا استحققت هذه الأمة بمجموعها وصف الخيرية ، لقيامها بموجب هذا الوصف ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ . . الآية [آل عمران: ١١٠] ، وإن لم يقم به كل واحد منهم ، فهو فرض كفاية على الصحيح ^(١) .

والكفاية أمرٌ نسبيٌ وقد يكون فرض عين في حالات معينة ، وعلى أشخاص بأعيانهم ^(٢) .

والمقصود: أن كفاية هذه الأمة بقيام طائفة منها بهذه الشعيرة أعظم من كفاية غيرها فيه .

وإذا كان لا بد في واقع الحال من أمر ونهي ، وأمر ونه ، ومأمور ومنهي ، وشيء يؤمر به وشيء يُنهى عنه . فإما أن يغلب أهل الصلاح والخير فيأمروا بالمعروف من قدروا عليه من أفراد الأمة ، وينهوه عن المنكر . . وبهذا تصلح أحوالهم ويندفع المكروه عنهم ، مع وجود شيء من الباطل والفساد ، لكن يكون مستخفياً متوارياً ، لأن الدولة للحق .

(١) وقيل: إن ﴿يَنْهَى﴾ في قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ؛ لبيان الجنس ، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] . والمقصود: اجتناب الأوثان كلها ؛ لأنها كلها رجس . قال ابن عطية: «وهذه الآية على هذا التأويل ، إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح» . قال: «ولل هذا المعنى ذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين» . انظر: المحرر الوجيز (١٨٧ ، ١٨٦/٣) . وتفسير أبي السعود (٦٦/٢) .

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ١٥ . وكتاب: حتى لا تغرق السفينة ، ص ٤٣ وما بعدها .

وإما أن يكون العكس ، فيغلب أهل الشرّ والباطل ، فلا بد أن يأمرُوا بالمنكر من قدرُوا عليه من أفراد الأمة وينهَوْهم عن المعروف ، ويكون ذلك سبباً في حلول العقوبة وفساد ذات البين ، وتهدم أركان الدين ، مع وجود الخير والصلاح ، لكن يكون مستخفياً مقهوراً ؛ لأنّ الدولة للباطل .

وإما أن تكون الحرب سجّالاً ، فيوجد هذا وهذا ، فيكون في الأمة صلاح وفساد وخير وشر ، بقدر استجابتها وانصياعها لكل منهما .

وها هنا مسألة قد يغفل عنها الكثيرون ، وهي :

أن انحسار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع من المجتمعات ذو خطورة مضاعفة ، على خلاف ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، فإنّ بعض الناس إذا رأوا غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفه في مجتمعات المسلمين اليوم ، ظنّوا أن المشكلة هي فقط أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد زال أو ضعف .

والواقع أن المشكلة أبعد من هذا وأكبر ، فإنه إذا ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قوي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . فالمصيبة مضاعفة^(١) .

وهذا يقتضي الحزم والمبادرة والمغالبة ؛ لئلا تغرق سفينة المجتمع ويسرع إلى أهلها

العطب . قال تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

فإنّ «الناس إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيّره إذا كان قادراً على ذلك ، فإذا سكت فكلهم عصاة ؛ هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل تعالى بحكمته الراضي بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة»^(٢) .

وجاء في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ آگَا خَرَقْنَا فِي نَصِيصِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُؤْذَ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(٣) .

(١) حتى لا تغرق السفينة ، ص ١٥ .

(٢) تفسير القاسمي (٣٧/٨) ، ونسبه للكرخي .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٦٨/٤ ، ٢٧٠) ، والبخاري في الشركة ، باب : هل يقرع في القسمة؟ والإسهام له (١٣٢/٥) ح (٢٤٩٣) واللفظ له ، والترمذي في الفتن ، باب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ح رقم (٢١٧٤) ، عن النعمان بن بشير ؓ .

ومن فوائد الآية والحديث:

* أن المجتمع الإسلامي لا يخلو من أن يكون فيه القائم بحدود الله، والواقع فيها، بصورة يتعذر معها الفصل بينهما، بحيث لا يؤثر أحدهما على الآخر.

* وأن المصير في الدنيا مشترك، فإذا غلب الصلاح اندفع العقاب عن عموم الأمة، فنجت ببركة إصلاح المصلحين، وإذا كان العكس حلت العقوبة فعمت الفاعلين والساكين، وليس ثمة خيار ثالث.

* وأن القائمين بحدود الله لا يكفي أن يكونوا قائمين بها في خاصة أنفسهم، بل إن لم يكونوا صالحين مصلحين، فإنهم يهلكون، ولا يكون لوجودهم قيمة تُذكر في تأخير العقوبة.

* فإما الأخذ على الأيدي، وإيقاف عجلة الفساد، فتكون النجاة من العقوبات والأمن من الغير. وإما التُّرك والتخلية بين الفساق والمفسدين وبين ما يشتهون ويهوون، فيكون الهلاك والدمار.

* قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا فَلِيلاً مِّمَّنْ أُنجِيسْنَا مِنْهُمُ ۖ وَأَتَّعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. والمعنى: هلاً كان في المهلكين من ينهى عن الفساد في الأرض، ولو وجد ذلك فيهم لما هلكوا، ولنجوا كما نجا القليل الناهون عن الفساد، ولهذا قال في الآية بعدها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِیَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. فأكد سبحانه أن المهلكين كانوا لا ينهون عن الفساد في الأرض، وكانوا لا يصلحون، فهم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر.

وليس للأمر والنهي حدود لا يتجاوزها، لا في نوع الفعل ولا في ذات الفاعل. بمعنى: أنه ليس هناك معروف لا ينبغي الأمر به، ولا منكر يشرع السكوت عنه. لأي شخص، وعن أي شخص. وإنما الحدود والموانع تقوم في أمور عارضة. وملابس طارئة، وهي راجعة إلى مسألة المصالح والمفاسد. وهي استثناءات تؤكد العموم وتشهد له.

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المنزلة، كان تعطيله وتركه سبباً في حلول عقوبات ومفاسد لا تتناهى.

* فمنها: الهلاك العام بسبب كثرة الخبث؛ أي: غلبة المنكر على المعروف. ولا يكون ذلك إلا إذا تُرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ففي الصحيحين من حديث زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(١).

ومن العقوبات والمفاسد التي تحلّ بسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

* الاختلاف والتناحر.

وما يدل على ارتباط ذلك بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الله عز وجل

قال: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

* إضافة إلى ما يورثه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شيوع المنكرات وعلو الفساق وانحطاط الأخلاق، واستباحة المحرمات، وترك الفرائض والواجبات، والسخرية بالشرعية.

وكل ذلك يورث الهزائم والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. إلى آخر ما هنالك من آثار وعواقب^(٢).

ولا تكون البراءة والسلامة من مثل هذه العواقب بفعل المعروف فقط، بل لا بد من الأمر به، ولا في ترك المنكر فحسب، بل لا بد من النهي عنه.

فهل يقول قائل بعد ذلك: إن الأمة يمكن أن تصلح حالها وتستقر أوضاعها وتأمين على مكتسباتها، بل وتحفظ بسمتها وخصائصها.. دون أن تقوم لله قومة صادقة، أفراداً وجماعات، وبكل وسيلة ممكنة بهذا الجانب العظيم؟

فإن قال ذلك قائل، وزعمه زاعم، فإن نصوص الكتاب والسنة، وشواهد التاريخ والواقع تجابهه وتكذب زعمه.

(١) متفق عليه. انظر: الفتح (١٣/١٠٥، ١٠٦) في الفتن، باب: ياجوج وماجوج. ومسلم في الفتن وأشراف الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم ياجوج وماجوج، ح (٢٨٨٠).

(٢) انظر في العقوبات والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كتاب: حتى لا تفرق السفينة، للشيخ/سلمان العودة، ص ٢٥ وما بعدها.

إنَّ المسلمينَ لم يكونوا أكثرَ عدداً في أي وقت مضى منهم في القرنين الأخيرين ، ومع ذلك فقد «بلغت الجراءة بأعداء الله من بني جلدتنا ، وعن زَعَمنا أنهم منا - نحن المسلمين - أن يعلن مصطفى كمال^(١) - هادم الخلافة - تحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف ، ويمنع الأذان بالعربية ، ويمنع الصلاة أمام الناس ، ويفرض السفور على كل امرأة تتعامل مع الدولة أو تدرس في مدارسها .

ولقد وصل الصِّلَفُ بعبد الحكيم عامر^(٢) ، أن يوزع أمراً على خطباء المساجد أن يمتنعوا عن الكلام على فرعون موسى .

ويبلغ الغرور بالتصَيُّريِّ أن يعلن حكم الإعدام عقوبة على من ثبت أنه من الإخوان المسلمين .

ووصل الاستهتار والسخرية بالقيم عند أحدهم أن يؤسس نوادي للمرأة يسميها (صفر في الأخلاق) .

ويعلن جمال سالم^(٣) ، هزأه بالقرآن الكريم فيطلب من الأستاذ الهضيبي^(٤) أن يقرأ الفاتحة معكوسة .

ويصرح حمزة البسيوني^(٥) قائلاً لمن استغاثوا بالله أثناء التعذيب: «لو جاء الله لوضعت في الزنزانة»^(٦)!

ليس هذا فقط ، بل أصبح المسلمون الملتزمون غرباء في ديارهم ، يوصفون بالتطرف والإرهاب ، ويلاحقون من أجهزة أمنهم ، وفي دولهم التي قامت على دمائهم وعرق جيئهم! فقط لأنهم متدينون !

(١) مصطفى كمال ، اشتهر بلقب (أتاتورك) ؛ أي: أب الأتراك . ولد في سلانيك عام ١٢٩٦هـ من امرأة اسمها (زيدة) ، ومن أب غير معروف على الحقيقة ، كان قائدا عسكرياً ، قاد بعض الجيوش بعد الحرب العالمية الأولى ، وتولى كبر هدم الخلافة الإسلامية سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٤م . وطرد أسرة آل عثمان وجردهم من ممتلكاتهم ، وكان سنه آنذاك يقارب الأربعين ، وهلك في سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٨م . انظر: الرجل الصنم ، ص ٣٧ وما بعدها ، ٢٩٦ وما بعدها ، ٥٢٠ وما بعدها .

(٢) المشير عبد الحكيم عامر ، قائد القوات المسلحة في عهد جمال عبد الناصر ، والنائب الأول لرئيس الجمهورية . انظر: قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر ، لعمر التلمساني ، ص ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٤ .

(٣) من رجالات الدولة في عهد عبد الناصر ، وكان ينييه أحياناً إذا غاب ، وكان حاد المزاج عصبياً إلى حد غير طبيعي ، غير متزن في جميع نواحي شخصيته . انظر: قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٤) هو: حسن الهضيبي المصري ، المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر ، ولي القضاء في أسبوط ، ثم كان مستشاراً قانونياً . توفي سنة ١٣٩٣هـ . انظر: الأعلام (٢/ ٢٢٥) .

(٥) ضابط أمن في حكومة جمال عبد الناصر ، وكان قائد السجن الحربي .

(٦) غير وبصائر للجهاد في العصر الحاضر ، للدكتور/ عبد الله عزام ، ص ٣٢ بتصرف وزيادة يسيرة .

وَشَادُّ بِيوت الربا، وتنصب مواخير الدعارة، تطاول مآذنيهم، وتدمر عقائدهم وأخلاقهم.. أرأيت لو كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر منذ البدء، وبصورة مكافئة.. أكان يكون من ذلك شيء؟!

* أمّا ما يتعلّق بالدعوة إلى الله:

فإنّ ما أسلفت من تفصيل في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّه منطبق عليها.. بالنظر إلى أن الدعوة إلى الله تعالى جنس يندرج تحته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من جهة.

ومن جهة أخرى فقد تختص الدعوة إلى الله بأنها أصبحت مصطلحاً يعني: التبشير بالإسلام ونشره وبيان محاسنه والتفنن في عرضه.

وأضيف هاهنا أمراً أرى أنه مما يعين على استمرار الدعوة إلى الله، في جانبيها العام والاصطلاحي.. وهو:

ربط الدعوة إلى الله بمؤسسات قائمة مستقلة، ذات بُعد اجتماعي واقتصادي وإداري. وهذا مما يسهل مهماتها، ويقطع الطريق على من يروم القضاء عليها أو محاصرتها.

إنّ من الخطأ أن تظل الدعوة إلى الله تعالى منحصرة في أشخاص العلماء والدعاة والمصلحين، بحيث يكون وجودها مرتبطاً بوجودهم، فإذا ما ذهبوا أو منعوا ذهب كل شيء، وبقيت الأمة في سلبية وتواكل، كالأسرة التي ذهب عائلها الذي يلي أمرها وينفق عليها.

ونحن على يقين بأن الله - جل وعلا - لم يكن ليضيع دينه، ولا ما بعث به نبيه محمداً ﷺ، ولكن لا بد من بذل الأسباب المأمور بها، مع صدق التوكّل عليه سبحانه.

هذه ثمرة تجنيها الأمة من ربط الدعوة إلى الله بمؤسسات وهيكل قائمة، وفائدة أخرى لا تقل أهمية عن ذلك، وهي:

مضاعفة تأثير الدعوة، وتوسيع نطاقها في صفوف الأمة؛ لأنّ الدعوة التي تنطلق من مؤسسات قائمة، ضاربة في عمق الأمة هنا وهناك، لها من الإمكانيات ما يكفل لها سرعة الانتشار. ومعلوم أن سرعة الانتشار وسعته من أقوى عوامل التأثير.

ولو قارنا بين جهود الدعاة والمصلحين من المسلمين، وبين جهود المنصرّين من النصارى، لرأينا بوناً شاسعاً، في أعدادهم، وفي وسائلهم وإمكاناتهم.

وما ذاك إلا لارتباط المنصرّين بمؤسسات قائمة، مدعومة من الحكومات ومن الشعوب الصليبية، على حين أن المسلمين تكاد جهودهم أن تكون فردية في غالبها، وما كان منها مرتبطاً بمؤسسات، فهي مؤسسات محدودة الإمكانيات، محدودة الأهداف، لاتلقى دعماً كافياً من الحكومات.

إضافة إلى أن ما يعيشه العالم من تقدم وتطور في الوسائل والأساليب يحتم علينا أن نختار لإبلاغ دين الله والدعوة إلى الحق أفضل السبل وأنجعها، وأكثرها فاعلية وتأثيراً. وأختم الحديث عن أهمية الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حفظ كيان الأمة واستمرار عافيتها، أختمه بهذه المسألة:

مسألة: هل هناك فرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الدعوة إلى الله؟ أم أن معنى الكلمتين واحد؟

وأقول: أمّا من جهة الدلالة الاصطلاحية، فبينها تلازم، وبعضها يفسّر بعضاً. فإنّ الدعوة إلى الله معناها: الأمر بالمعروف، الذي هو الخير والإسلام، وذلك يستلزم النهي عن المنكر. الذي هو الكفر والباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال ابن جرير عند هذه الآية: «يقول - جلّ ثناؤه: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ يعني: الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: يأمرون الناس بأئباع محمد ﷺ ودينه الذي جاء به من عند الله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يعني: وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله»^(١).

ويمكن أن يُقال: الدعوة إلى الخير جنس، تحته نوعان: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا هو المعنى الذي فسّر الرازي به الآية آفة الذكر، يقول في المسألة الثانية: «هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء، أولها: الدعوة إلى الخير، ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة،

(١) تفسير ابن جرير (٤/٣٨).

فتقول: ... الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان: (أحدهما) الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو المعروف. و(الثاني) الترغيب في ترك ما لا ينبغي، وهو النهي عن المنكر، فذكر الجنس أولاً. ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان^(١).

وهذا تفصيل جيد، فإن الدعوة مشتملة - ولا بد - على ترغيب وترهيب، وأمر ونهي. ومع ذلك، فإن كلمة (الدعوة) وإن كان مضمونها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنها أصبحت مصطلحاً يعني: تبليغ الإسلام والدعوة إليه، والتفنن في عرض شرائعه وبيان محاسنه، والدفاع عنه فكرياً ضد خصومه، وإقامة المؤسسات والجمعيات على هذا الأساس، ولهذه الأغراض.

ولهذا شاع استعمال كلمة (الدعوة) في أول مراحل تبليغ الإسلام وبيان شرائعه، خصوصاً بين غير المسلمين، كما جاء في حديث بعث معاذ إلى اليمن، وفيه: «فليكن أول ما تدعوهم إليه...» [متفق عليه]. وفي حديث علي يوم خيبر، وفيه: «إذا نزلت بساحتهم فادعهم»^(٢). وفي كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل وفيه: «سلام علي من اتبع الهدى، أما بعد: فأني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم...» الحديث^(٣).

ووجه ذلك - والله أعلم - أن الدعوة فيها - كما قال الراغب - معنى الحث على القصد إلى الشيء المدعو إليه، فهي أليق بمقام المبتدئ الخالي الذهن، فلذلك جرى استخدامها دون لفظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فإن مضمونها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أسلفت.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد صار علماً على بعض وظائف (المحتسب)، وإن كانت وظائف المحتسب فيما مضى أضعاف ما هي عليه اليوم.

ومع ذلك، فقد أبطلت وظيفة المحتسب في معظم البلاد الإسلامية، وحلت محلها وظيفة الداعي الرسمي، التي هي وظيفة ما كان يعرف باسم (الواعظ)!

ويبدو أنه لا تعارض في الظاهر بين الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، ولكن قد يشكل التوفيق بين الدعوة وبين النهي عن المنكر. وهذا الإشكال منشؤه الخلط بين

(١) التفسير الكبير، للرازي، ص ١٦٧/٨.

(٢) متفق عليه، من حديث سهل بن سعد ؓ. انظر: فتح الباري (٧/٧٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب علي ؓ.

و مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب علي ؓ، ح (٢٤٠٦).

(٣) رواه البخاري. انظر: فتح الباري (١/٣٢).

(النهي عن المنكر) وبين (تغيير المنكر)، والظن أن معناهما واحد، ولعل هذا الإشكال أن يزول ببيان الفرق بينهما .

ويتلخص الفرق بينهما في:

* أن النهي عن المنكر عام، فيكون قبل وقوعه، على جهة التنفير منه والترغيب في مجانبته، ويكون بعد وقوعه . وأما تغييره فإنه لا يكون إلا بعد وقوعه، كما في حديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده...» [رواه مسلم].

* وأن تغيير المنكر بعد وقوعه يكون على مراتب بحسب الاستطاعة، كما جاء في حديث أبي سعيد: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» .

وملخص هذين الفرقين:

أن النهي عن المنكر أعم من جهة الوقت والفاعل، وأخص من جهة الآلة، فإنه يكون باللسان ونحوه كالقلم . . وأن تغيير المنكر أعم من جهة الآلة، وأخص من جهة الوقت والفاعل، أعني: المُنكِر (بكسر الكاف) فيكون باللسان وباليد ونحوها .

* ومن الفروق: أن النهي عن المنكر يكون - عادة - قبل تغييره . وهذا واضح في شأن دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام، فإنهم يؤمرون وينهون . فإن امتثلوا وغيروا باختيارهم، وإلا باشر المسلمون تغيير منكرهم بأيديهم، وذلك بمجاهدتهم حتى يخضعوا لحكم الإسلام . وكذلك يجب أن يكون في كل منكر، وذلك من الحكمة في الدعوة إلى الله .

* وعلى هذا، فإن النهي عن المنكر، مرحلة من مراحل إزالة المنكر وتغييره، وليس مرادفاً له، وقد يتفقان فيما إذا كان تغيير المنكر باللسان . أي أنه يجتمع النهي عن المنكر وتغييره في شخص واحد، في وقت واحد، وقد يجتمعان في شخص واحد، في وقتين مختلفين، كأن ينهى عن المنكر، ثم يباشر هو نفسه إزالته وتغييره .

وخلاصة هذه الفروق: أن تغيير المنكر فرع على النهي عنه، وأن النهي عن المنكر أعم من تغييره . وبهذا يتبين أن بين الدعوة والأمر والنهي والتغيير تلازماً وتكاملاً، وإن كان لكل منها نوع تميز، والله تعالى أعلم .

وبعد ، فلعلني أنتقل من عموم الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مظهر من أبين مظاهره ، أختصه بالحديث ؛ لأنه ، مع أهميته في ضمان استمرار الأمة قد نسيه - أو تناساه - الكثيرون ، على المستويين الرسمي والشعبي ، وأعني بذلك ذروة سنن الإسلام : الجهاد في سبيل الله .

* الجهاد في سبيل الله :

ولن أحدثك عن معنى الجهاد وفضله ، فذلك شيء لا أظنك تجهله . ولكن سأشير إلى ما يناسب المقام من المعنى الداعي إلى ذكره هنا ، فأقول :

إذا كانت حماية حقوق الأمة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية ، وتأمين حرياتنا في داخل ديارها ، تحتاج إلى انتزاع من برائن الأقوياء والمتسلطين ، عبر جهود متواصلة من كل أفراد الأمة .

وإذا كانت حماية عقيدة الأمة وأخلاقها ، وتأمين سبيل انتشار الدعوة وإبلاغ كلمة الحق إلى أفراد الأمة نفسها ، يحتاج إلى يقظة ومجاهدة مستمرة ، لمواجهة العقبات التي لا تتناهى .

إذا كان هذا وذاك لا تقوم لهما قائمة إلا باليقظة التامة والوعي الإيجابي الفاعل ، وإلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على كل صعيد ، وبكل وسيلة .

فكيف نتصور أنه يمكن حماية ذلك كله ، إلى جانب حماية كيان الأمة ومقوماتها الأساسية ؛ جغرافيتها وثوراتها الطبيعية وطاقاتها البشرية .. من العدو الأجنبي المتربص ، العدو التاريخي ، دون أن نكون أقوياء مرهوبي الجانب؟

إن سكان العالم الإسلامي يمثلون ثلث سكان المعمورة .. وبلادهم تعد - في مجملتها - من أغني بلاد العالم وأكثرها خصباً ، وأحسنها موقعاً .. وهم مع هذا وذاك يتميزون بفكر وعقيدة ، وفلسفة للوجود والحياة ، متميزة عن كل الأفكار والعقائد والفلسفات الأخرى التي يدين بها سكان هذا الكوكب الأرضي ، وبالتالي فهم يشكلون تحدياً ضخماً ومنافساً رئيساً لكل العالم .

فهل يعقل - مع هذا كله - أن يقف العالم متفرجاً إزاء هذه الفرص والإمكانات ، مكتوف الأيدي تجاه هذا التحدي الحضاري؟ بالطبع ، لا .

إن العالم كله - والعالم الصليبي بصفة خاصة - لم يقف متفرجاً يوماً ما . لقد أغار على الإسلام وديار المسلمين في المشرق وفي المغرب ، ومزق وحدتهم بإسقاط الخلافة

الإسلامية ، واحتلّ معظم بلادهم احتلالاً مباشراً أو بالوكالة ، واستنزف خيراتها ، وحرم المسلمين منها . . ولا يزال كذلك .

والعدو في ذلك كله منطقي مع نفسه ومبادئه وأهدافه!

ولكننا - نحن المسلمين - لم نكن منطقيين مع أنفسنا ، ومع ديننا وأهدافنا ، ومع عدونا ، يوم نكسنا راية الجهاد في سبيل الله ، وعطلنا ذروة سنام الإسلام ، ودخل المنهزمون منا مع أعدائنا الأقوياء في معاهدات وأحلاف جائرة ، وأوهمنا أنفسنا بأنها يمكن أن تغني غناء الجهاد في سبيل الله ، في الدفاع عن ديننا ، وحماية حقوقنا ، وتحرير أرضنا ، وصيانة كرامتنا وحرمتنا! حتى بلغ بنا الأمر أن استبعدنا فكرة الجهاد في سبيل الله ، وأركسنا أنفسنا في تبعية ذليلة مقيبة ، لم يخفف من وقعها وألمها إلا أننا أشغلنا أنفسنا بهموم صغيرة ، تناسب طموحاتنا ، التي لم تتجاوز عند أغلب سواد الأمة شهوات البطون والفروج ، وحب الرياسة وإيثار السلامة بأي ثمن ، وإلا ما شغلنا به عدونا من خصومات لا تنقطع ، وخلافات لا تنتهي .

لم نكن منطقيين مع طبيعة الدين الذي ارتضاه الله لنا ، ولم نكن مؤمنين بالخيرة التي اختار الله لنا .

لقد رضي الله لنا الإسلام ديناً ، واختار لنا الجهاد طريقاً إلى العزة والكرامة في الدنيا والآخرة . قال تعالى: ﴿ أَيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [المائدة: ٣] . وقال: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٧] ، [٧٨] .

فتأمل قوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ بعد أمره المؤمنين بأداء الصلاة وامتثال الأوامر وفعل الخيرات عموماً ، والمجاهدة في سبيل الله . . فإنه تنبيه إلى أن هذا الاصطفاء إنما يستحقه من قام بذلك كله .

قال القرطبي: «قوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ ؛ أي: اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره ، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم»^(١) .

والجهاد المأمور به في هذه الآية، عام في جهاد الكفار والظلمة وجهاد النفس^(١).

وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ أي: فرض عليكم قتال عدوكم ومجاهدته، مع ما فيه من المشقة وحصول أنواع المخاوف من تلف المال والنفس، التي تسبب لكم كراهيته... ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ كالجهد في سبيل الله، لما فيه من المشقة والضرر في تقديركم ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في حقيقة الأمر؛ لما فيه من الثواب العظيم والتحرز من العقاب الأليم، ولما فيه من النصر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرياتهم وأولادهم، مع الأمن في الديار، وصيانة الأعراس والأموال... ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ كالذعة والقفود عن الجهاد في سبيل الله ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لأنه يعقب الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، فيحلّ بكم أشدّ مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم، من حلول الذلّ والهوان، وفوات المغنم العاجلة والآجلة، وفوات الأجر العظيم، وحصول العقاب. وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قوة أمر بالتزام ما فرض الله من القتال، وعدم التراجع عنه لهُوى النفوس ونظر المخلوقين القاصر^(٢).

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرِفٍ تُحْمِلُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَوَسُّوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالْآخِرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

وتأمل قوله: ﴿وَالْآخِرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ﴾؛ أي: وأزيدكم على ما وعدتكم به من مغفرة الذنوب وسكنى الجنات.. أزيدكم على ذلك: زيادة تحبونها، وهي النصر والفتح القريب، إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه^(٣).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩٩/١٢).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (١٥٩/٢)، وتفسير ابن كثير (٢٥٢/١)، وفتح القدير (٢١٩/١)، وتفسير السعدي (٢٦٤/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦١/٤).

أجل ، لم نكن منطقيين مع ديننا ، ولم نكن مصدقين حقاً بموعد ربنا ، وما أجرى من حكمته وستته أن عزّنا وكرامتنا لأئصان إلا بالجهاد في سبيل الله . . فما أشبه حالنا بقول رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا يبرعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١) .
ولله در القائل:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم^(٢)

هذا جانب من المسألة ؛ جانب حماية كيان الأمة الإسلامية القائم .

والجانب الآخر ، هو: أننا - أمة الإسلام - أصحاب رسالة عالمية ، مكلفون بإبلاغها إلى العالم ، وقيادة هذا العالم باسمها وبمنهجها .

ونحن - أمة الإسلام - مطالبون - بما معنا من الحق والهدى - أن نحور الإنسان كل الإنسان ، في الأرض كل الأرض ، من أغلال الشرك والفكر ، ومن رق العبودية لغير الله ، وأن نزيح العقبات والعوائق التي تحول بين الناس وبين سماع الحق .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، مؤمنهم وكافرهم^(٣) .
وهذا يستلزم إقامة علم الجهاد ، لتتصر دولة الحق ، وينشر العدل رواقه ، فيخضع العالم لحكم الإسلام ، وإن لم يدينوا به .

وقال جل وعلا: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «... وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»^(٤) .

فكيف نتصور أنه يمكن أن ننشر الإسلام والحق ، والعدل ، والسلام في العالم ، ونحن لا نملك قوة تسنده وتحميه؟!!

وكيف يمكن أن نحور الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها ، ونحن بعد لم نحور أنفسنا من هيمنته وسلطانه؟!!

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ، باب: في النهي عن العينة ، ح (٣٤٦٢) ، من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو حديث صحيح . وسبق تحريجه .

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي .

(٣) تفسير ابن جرير (١٠٦/١٧) .

(٤) متفق عليه ، من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما . انظر: الفتح (٤٣٦/١) ح (٣٣٥) .

إننا بغير اتخاذ الأسباب المادية المأمور بها شرعاً، وأولها القوة، وبغير الجهاد في سبيل الله، لا نستطيع أن نحمي ذاتنا من العدو المتربص. ولا يمكن أن نقنع العالم بمجدية ما نحن عليه من الحق والإسلام، ولا أن نحملهم على احترامه وتقديره، لأننا نحن أنفسنا لسنا محل احترام العالم وتقديره، والعالم لا يحترم إلا القوي، ولا يفهم إلا لغة القوة. والمبادئ والأفكار تكتسب أهميتها وتأثيرها من أهمية حاملها وقوة تأثيره، ولا يكفي أن تكون هي صحيحة في ذاتها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَكُنَّا عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَازِلِينَ﴾ [الحج: ٤٠].

فلم يمنع الصوامع والبيع والصلوات والمساجد كونها أماكن لعبادة الله وذكره. لم يكن شرفها في ذاتها ليمنعها أن تتناول عليها يد الباطل بالتهديم والامتهان. بل الأمر كما قيل:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وماذا تغني المبادئ الصحيحة إذا كانت كلاً مباحاً، ليس لها من يحميها ويغار عليها، ويتمثلها تطبيقاً، ويجاهد في سبيلها؟

فهل يصح بعد ذلك أن يقول قائل: إننا بالبيان المشرق وحده، وبال دعوة والتبليغ الأعزل يمكن أن نفتح البلدان والممالك، ونزيع العقبات ونقطع دابر الكفر والطغيان، المتمثل في كيانات سياسية، وقوى اقتصادية وعسكرية وبشرية ضاربة؟

هذا وهم كبير، وإن كان محل تفكير، وربما قناعة فئات من المسلمين!

إن إقامة شرع الله في الأرض، وإزالة مملكة الشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من العباد وردّه إلى الله وحده؛ بسيادة الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية.. كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان؛ لأنّ المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال^(١).

(١) معالم في الطريق، للأستاذ/ سيد قطب، ص ٨٢، ٨٣.

ومما سبق ، يتضح أن وظيفة الجهاد الإسلامي ، تتلخص في ثلاث نقاط^(١) :

١ - تأمين سبل نشر الدعوة الإسلامية . قال تعالى: ﴿ وَقَدْ لُولُوهُمْ حَتَّى لَا تُكُونَ فَتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

٢ - حماية دار الإسلام التي يقيمها لتكون منطلقاً لدعوته ومحضناً لفكرته . قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] .

٣ - إنقاذ المستضعفين في الأرض والدفاع عنهم . قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَإِنَّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥] .

وما لم تتحقق هذه الوظائف والأهداف ، فلا أمن ولا عزة ، ولا كرامة لأمة الإسلام .

ومن العوامل والأسباب الحافظة للأمة من الغير ، الضامنة لاستمرار قوتها وتماسكها:

* إحياء الشعور بأهمية وحدة الأمة الإسلامية ، وحشد الجهود لتحقيقه .

ليس شيء أنفع للأمة في هذه الدنيا - بعد إيمانها بالله - من اجتماع كلمتها ، وتوحد رأيها ومواقفها ، وتكامل قواها وإمكاناتها ؛ أي أن تكون (أمة واحدة) ، لا أمماً ودولاً . ولهذا امتن الله عليها بهذه الأخوة الإيمانية والتوحد على منهج الحق .

قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

ووحدة الأمة الإسلامية هي الأصل ، وليست شيئاً طارئاً أملت الضرورة واقتضته المصالح المشتركة ، كالذي يحدث بين الأمم الأخرى لسبب أو لآخر .

إنها وحدة في المبدأ والعقيدة ، ولو لم يكن ثمة سبب موجب للوحدة سوى هذه الرابطة لكفى .

(١) انظر: غير وبصائر للجهاد في العصر الحاضر ، للدكتور/ عبد الله عزّام ، ص ٢٣ .

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء:

٩٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وفرق بين من يتحد لمصلحة عاجلة، من جلب نفع أو دفع ضرر. وبين من يتحد لأنه يرى الوحدة ديناً، واجتماع الكلمة قرينة يُتاب عليها، والتناصر عبادة تستنزل النصر الإلهي في العاجل، وتقرب إليه - سبحانه - في الآجل. ويرى ترك ذلك مما يعاقب عليه في الدنيا وفي الآخرة.

أما قيمة اتحاد الكلمة ووحدة الصف وأهميتها في تحقيق التفوق والقوة مادياً ومعنوياً فأمر ظاهر، وهو مقتضى العقل والمنطق، فضلاً عن الشرع. كيف لا والأمر كما قيل:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أحاداً

ولهذا كانت الأمم الضعيفة تتحالف فيما بينها لتدرا عن نفسها خطر الدوبان في الأمم القوية، وتقف سداً منيعاً في وجه هجماتها الاقتصادية أو العسكرية الاستعمارية، ولتحقق من وراء اتحادها مكاسب جديدة.

وبالأمس القريب كانت أوروبا وأمريكا حلفاً واحداً (حلف الناتو)، بزعامة الدولة القوية أمريكا، في مواجهة الكتلة الشرقية (حلف وارسو)، بزعامة الدولة الأم روسيا. واليوم، لما انفرط عقد حلف وارسو وتمزق شمله، نشطت أوروبا للاستقلال عن حلف الناتو، والتكتل حول نفسها في مواجهة حليف الأمس، أمريكا!

هذا على مستوى الدول، أما على مستوى الدولة الواحدة، فإن اجتماع كلمة أمة بعينها، أعني توحد الجبهة الداخلية لدولة ما - مجد ذاته - ضرورة لقيوتها وحمايتها من الاختراق، وتمزيق الشمل، الذي هو من أقوى أسباب انهيارها وزوالها.

جاء في السير: أن وفد بني الحارث بن كعب لما قدموا على رسول الله ﷺ بمعية خالد

ابن الوليد ﷺ، كان فيما قال لهم ﷺ أن قال: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟».

قالوا: لم نكن نغلب أحداً. قال: بلى. قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبداً أحداً بظلم.

قال: «صدقتم»^(١).

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣١٦/٤، ٣٢٢). وزاد المعاد، لابن القيم (٦٢١/٣، ٦٢٢). والسيرة النبوية لابن كثير (١٨٨/٤، ١٩٠). والخبر ضعيف؛ لأن مدار إسناده على ابن إسحاق، ولم يصرح بالتحديث. ورواه ابن سعد في طبقاته، وفي سننه الراقي وهو ضعيف. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣٢٠/٤) في الحاشية. =

وقد اجتمع لأمة الإسلام من أسباب التوحيد واجتماع الكلمة ما لم يكن لأمة غيرها، فلا جرم كان اجتماعها من أوجب الواجبات، وأهم المهمات لمصالح دينها ودنياها؛ لأن أسباب وحدتها قوية قائمة، ومبررات ائتلافها كثيرة متوافرة.

وللمسلمين في مسألة الوحدة تجربة فريدة في قوتها واتساعها، وتطاؤها في الزمان. لقد كانت الأمة الإسلامية بالأمس القريب مترابطة متماسكة في وحدة جامعة دامت قروناً وآماداً، وقد تولى القيادة فيها العرب وغير العرب، وترجم وحدتها بالأمس البعيد هارون الرشيد خليفة المسلمين^(١)، وهو يخاطب السحابة الغادية فوق رأسه: أمطري حيث شئت، فإن خراجك سوف يأتيني.

وبالأمس القريب كانت دولة الإسلام بقيادة آل عثمان ممتدة من وسط أوروبا إلى أقصى المعمورة شرقاً، وأواسط إفريقيا جنوباً، بل أقول: امتدت بتكاملها مع الدول المغربية إلى إفريقيا كلها جنوباً^(٢).

والذين يحيلون أو يستبعدون اتحاد كلمة الأمة الإسلامية اليوم - برغم وجود هذه المبررات والمسوغات - ويقولون عن وحدتها الماضية: ذلك تاريخ انتهى، ولا سبيل إلى عودته. الذين يقولون ذلك، وما أكثرهم، قد لا يقنعهم إلا أن نسوق لهم أمثلة قريبة ومعاصرة، فإنهم قد ضعفت ثقتهم بدينهم، ويقدرته على جمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها، فيقال لهم: ها هي الصين بمليار من البشر، بعدد المسلمين دولة واحدة، متعددة الأجناس والأعراف واللغات، وفيها خمس وخمسون قومية، حسب بيان رسمي صيني، ولم ينكر أحد عليها وحدتها، ولا تزال تطالب بجزيرة صغيرة (تايوان)؛ لأنها من الصين، بعد أن استعادت سيادتها على (هونج كونج)!

وبالأمس القريب كان الاتحاد السوفيتي، الذي تشكل مساحته سدس المعمورة، قد أقام دولة عقائدية ضمت مئات الملايين، وعشرات القوميات، وأشتات الديانات التي تأبى التجانس. فلماذا يقر هؤلاء بهذا الواقع، وينكرون ذلك على أمة الإسلام؟!

= أقول: ولكن معنى القصة صحيح، تشهد لها النصوص الأخرى الصحيحة، وانظر: مبحث (سنة الله في النصر والهزيمة)، في الفصل الأول من الباب الثاني.

(١) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم، ولأه أبوه غزو الروم، فصالحته ملكتهم علي مال عظيم تدفعه إلى خزانة الخليفة كل عام، يُبوع له بالخلافة سنة ١٧٠هـ، وكان شجاعاً كثير الغزو والحج، جواداً متواضعاً، وكان يطوف أكثر الليالي متنكراً. وامتدت ولايته ٢٣ سنة. وتوفي - رحمه الله - سنة (١٩٣هـ). انظر: البداية والنهاية (٢١٣/١٠)، والأعلام (٦٢/٨).

(٢) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ١٣٠، ١٣١ بتصرف.

وكانت بريطانيا تحكم أكثر من نصف العالم، وتعدّه جزءاً من كيائها، وتصرف شؤونه من ركن قصي في هذا العالم.

وكذلك أمريكا اليوم، بمئات ملايينها واتساع رقعتها واختلاف قومياتها ولغاتها، ليست دولة واحدة؟! ولولا توحد هذه القارة لما كانت اليوم القوة الأولى في العالم^(١)! والمانيا الاتحادية، لولا اتحادها، لم تكن ثالث أو رابع قوة اقتصادية يحسب لها حساب. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن يأبى أكثر الناس إلا أن يجعلوا أمام وحدة المسلمين ألف عقبة، ويوهمون الناس وأنفسهم - تحت تأثير الغزو الفكري، وبفعل الهزيمة النفسية - يوهمون الناس وأنفسهم أن هذه العقبات لا يمكن تجاوزها.. ونسوا «أن الإسلام في دولته الواحدة التي دامت ألفاً وثلاث مئة عام ويزيد، لم يتصارع يوماً مع قومية من القوميات، أو يفضل جنساً على جنس، بل ألف بينها، ووضعها على قدم المساواة»^(٢). وكان نسيج وحده في إحداث هذا التأكف. فما الذي تغيّر في الإسلام ذاته حتى يوصم بالعجز؟! حتى يوصم بالعجز؟!

وما هي المؤهلات التي امتازت بها تلك الدول - التي حكينا خبر بعضها آنفاً - وبفضلها ذلت العقبات، وصار اجتماعها مقبولاً لا غضاضة فيه؟

لقد أدرك أعداء هذه الأمة أن سرّ قوة الأمة الإسلامية في اجتماعها، برغم ما تعانيه من تخلف وجهل. فعملوا جاهدين على إسقاط الخلافة الإسلامية، رمز وحدة المسلمين، ولم يشفع لها أنهم كانوا يطلقون عليها لقب (الرجل المريض)، ولم يخفوا قلقهم من هذا الرجل المريض؛ لأنّ إشارة بأصبع الخليفة كانت كافية لتحريك ثلاث مئة مليون مسلم آنذاك.

وإذا كانت الوحدة السياسية اليوم غير ممكنة - على الأقل في المنظور القريب - فإنّ مظاهر الوحدة أكثر وأكبر وأشمل من مجرد الوحدة السياسية، ويمكن العمل على مستوى الشعوب الإسلامية على تحقيق الكثير من مظاهر هذه الوحدة، وسوف تساعد هذه - بإذن الله - في تحقيق مكاسب ضخمة لعموم الأمة، وستكون سبباً في استكمال ما تبقى من مظاهر الوحدة.

بل إنني أقول: إنّ هذا التمزق السياسي والتجزئة الجغرافية لم تكن لتوجد، لولا ما في الأمة من ضعف الرابطة الدينية، وغياب مبدأ التناصر بالحق، وترك الجهاد في سبيل

(١) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٣١ بتصرف.

(٢) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٣١ بتصرف.

الله، وغياب الوعي بأهمية الوحدة في حفظ الحقوق ودفع الشؤر على مستوى أفراد الأمة. أي إن وحدة الأمة الإسلامية تعد محصلة يقظة ووعي شموليين، فهي مظهر لأسباب عدة.

وأرى أن ما قدمته في الفصل الثاني من الوسائل والأساليب التي ينتشر بواسطتها العلم النافع، والوسائل والأساليب التي تدرج على الأعمال الصالحة، وعلى تطبيقها وتحسينها. أرى أن هذه وتلك - في مجموعها - هي المظاهر التي يتم بها وعن طريقها تحقيق وحدة الأمة على مستوى الشعوب الإسلامية، وهي التي يمكن البدء بها إذا ما توافرت المهتم وصدقت التوايا.

* ويمكن تلخيص آيات العمل لتوحيد كلمة الأمة في نقاط:

أولاً: نشر الوعي بوجود تحقيق الوحدة الإسلامية من الناحية الشرعية، وبيان أهمية ذلك والحاجة إليه من الناحية الواقعية. ويمكن أن يتم ذلك بأمر، منها:

* أن يكون جمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها وتنسيق جهودها وإمكاناتها همًا يلزم رواد الإصلاح، وقضية في مقدمة القضايا التي تبتأثر باهتمامهم.

* وأن يكون هناك عمل دعوي ومنسق لجمع كلمة العلماء والدعاة والمصلحين، وأن يكونوا في أنفسهم فوق الخلافات، وعلى مستوى المسئولية، وعند حسن ظن الأمة

بهم.

* ومن خلال الطرق المتواصلة لمسألة الوحدة الإسلامية من منظور شرعي وبأسلوب معاصر، وأن يكون الطرح متجاوزاً للأطر المحلية والإقليمية الضيقة، وأن يخاطب به الإنسان المسلم من حيث هو مسلم، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، وأن ينشر ذلك بعدة لغات، وبالوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية.

* ومنها: محاولة نقل وإشاعة قضايا المسلمين في كل مكان، وجعلها في متناول إخوانهم في شتى أصقاع الأرض، وذلك من خلال تبادل المعلومات والمشاهدات، والتأكيد - في ثنايا ذلك - على مسألة وحدة الأمة بالأساليب المناسبة.

* شرح البرامج العملية التي تبين كيفية تحقيق هذه الوحدة في المجالات المختلفة، بدءاً بمجالات الاعتقاد والعبادة، ومروراً بالمجالات الفكرية والاقتصادية والإعلامية والسياسية، وحوها. وتدوينها، ثم طرح هذه الأفكار في الأسواق الإسلامية، وهذا يساعد في تكوين رؤية جماعية، ويهيئ المجتمعات الإسلامية لتقبل وممارسة هذه البرامج.

ثانياً: وحدة الأمة في المجالات الاقتصادية:

وذلك من خلال وسائل وقنوات كثيرة، منها:

* استثمار رؤوس الأموال الإسلامية في البلدان الإسلامية، ولذلك صور كثيرة، منها: تمويل المشروعات الإنمائية، وتشغيل الأفراد العاطلين في بلادهم، وإقامة مؤسسات تجارية وصناعية مشتركة. واستثمار الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة في البلاد الإسلامية، وتنمية الثروة الحيوانية الهائلة فيها، وتطوير التجارة البينية.

* وإغراء المهارات الإسلامية المهاجرة من أجل العودة إلى بلادها أو غيرها من البلاد الإسلامية التي يمكن أن تسمح بذلك، من أجل الإشراف على تلك المشاريع وتطويرها؛ كي تضمن جودة عالية قادرة على المنافسة، وبأسعار رخيصة.

* والعمل على تسويقها في البلدان الإسلامية بواسطة شركات توزيع متخصصة، ومن خلال جهود التجار والمستوردين الفردية.

* وهذا وذاك، يستلزمان وعياً وصدقاً في الولاء، وسعة في النظر لدى المستهلك المسلم، بحيث يكون عنده إصرار على ألا يستخدم في حاجاته واستهلاكه إلا من المنتجات الإسلامية، ما وجد إليها سبيلاً، إلا إذا كانت غير موجودة. وقد تعجب إذا علمت أن أعداءنا يسلكون هذا الأسلوب، للهدف ذاته، على حين أننا - نحن المسلمين - على الضد من ذلك في أغلب الأحيان!

يقول الأديب الأمير شكيب أرسلان: «حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنكليزياً ذا منصب في الشرق، كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنكليزي في البلدة التي هم فيها، فجاءه الخادم بمجدول حساب وفر عليه به عشرين جنيهاً في شهر. فسأله الإنكليزي: كيف أمكنك هذا التوفير؟ فقال الخادم: تركنا دكان الإنكليزي الذي كنا نشترى منه، وصرنا نشترى من دكان أحد الأهالي من العرب. فقال له الإنكليزي: ارجع إلى دكان الإنكليزي الذي كنا نشترى منه! فقال الخادم: أولو كان ذلك يستلزم إنفاق عشرين جنيهاً زيادة؟! قال الإنكليزي: ولو كان ذلك يستلزم إنفاق عشرين جنيهاً زيادة!

وسمعتُ - والكلام لشكيب أرسلان - أن كثيرين من الإنكليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم؛ حتى لا يذهب ما لهم إلى الخارج.

أفنعيس هذا بأعمال المسلمين، الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم، وعلموا أنهم يقدرون على أن يوفرُوا في السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الإفرنجي، تركوا ابن ملتهم ورجحوا الإفرنجي؟

أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه، حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود، من أجل فروق تافهة مؤقتة، ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة»^(١)!

وغير بعيد عنا مافعلته الدول الأوروبية من مساندة الدائمك في وجه مقاطعة الشعوب الإسلامية لمنتجاتها لبعض الوقت، بسبب الرسوم المسيئة لمقام صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. حيث زادت من مشترياتها منها، لتعويض ما لحقها من ضرر.

وإذا تضافرت جهود المستهلك، والمستورد، والموزع، والمنتج المصنّع، وكمل بعضها بعضاً، فسيكون لذلك أبلغ الأثر في اقتصاديات الجميع، وأهم من ذلك سيكون جسراً متيناً من جسور الوحدة الإسلامية.

ومن أسباب تحقيق الوحدة الإسلامية من الناحية الاقتصادية:

الالتزام باستقدام الأيدي العاملة المسلمة، ومقاطعة ما سواها، إلا في حال الضرورة القصوى، وهذا المسلك يخفف من خطورة تواجد الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمين، ويسهم في تخفيف معاناة ملايين الأسر المسلمة في البلاد الفقيرة.

وإذا تشابكت مصالح العالم الإسلامي الاقتصادية بهذه الصورة، فإنها تولد هموماً مشتركة، تجعل من أية قضية أو حدث في بلدٍ ما قضية تؤثر على بقية بلدان العالم الإسلامي، لتشابك المصالح.

* أي أن الأحداث تكون محل عناية الأمة كلها، نظراً لوجود مصالح مادية مشتركة بينهم، وهذا يساعد في تأليب أكبر عدد من المسلمين للدفاع عن قضاياهم.

وهذا بالضبط مافعله الأوروبيون الذين وجدوا في تشابك مصالح شعوبهم أقوى سبب لمنع تكرار ما حصل بينهم من حروب، فكان الإتحاد الأوروبي بأذره السياسية والاقتصادية والعسكرية.

* ومن عوامل توحيد الأمة الإسلامية:

تحقيق مبدأ التناصر على أوسع نطاق.

(١) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، ص ٥٢، ٥٣.

وأعني به: التناصر في الدين ، وهو النجدة والإغاثة والمواساة عند كل نازلة وفي كل ضائقة . وهو التناصر المذكور في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» . وفي رواية: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١) .
ولسلم: «للمسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»^(٢) .

* ويمكن تلخيص أهم مظاهر التناصر فيما يلي:
* التناصر بالكلمة:

والكلمة تعني فيما تعني: التحدث عن القضية الإسلامية وعدالتها، وشرح ملبساتها وأبعادها، وكشف الأصابع الخفية التي تنسج خيوط المؤامرة ضدها، وتحركها وتمدها وتباركها. كل ذلك في الخطب والمحاضرات والندوات، وفي وسائل الإعلام الممكنة من الصحف والجرائد والقنوات، وفي الكتيبات وغيرها، وتحريرك عواطف الأمة تجاهها من خلال الصور والإحصاءات، ونقل القضية من الإقليمية إلى العالمية، وبيان نوع المشاركة المطلوب الإسهام بها .

والكلمة تعني فيما تعني أيضاً: الاحتجاج، واستنكار العدوان، والتدخل، والابتزاز، أو التعذيب ومصادرة الحريات . . أو ما شابه ذلك . وإيصال صوت الأمة إلى كل العالم بوسائل النشر المختلفة . وإشعار العالم بأن شعوب الأمة الإسلامية كلها غاضبة، وأنها ستثار لما حدث، والضغط على الحكومات لتعديل مواقفها، وأن تتدخل إيجابياً لصالح هذه القضية أو لتلك .

وتعني الكلمة: مواصلة المسلمين في البلد المصاب أو المنكوب، وإشعارهم بأن شعوب العالم الإسلامي معهم، وأنهم لن يتخلوا عنهم، وتقدير الرأي والمشورة،

(١) متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير ؓ . انظر: الفتح (١٠/٤٣٨)، باب: رحمة الناس والبهائم، ح (٦٠١١) .
ومسلم في البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ح (٢٥٨٦) .
(٢) صحيح مسلم، الموضع السابق .

ومساعدتهم في كيفية اجتياز هذه المحنة والتخفيف من آثارها ، ووصيتهم بالصبر والرجوع إلى الله ، والخروج من المظالم ، وإقامة شعائر الدين ، والتعاون فيما بينهم .
والكلمة الصادقة ذات تأثير كبير ، وهي خطوة تمهّد لما بعدها من خطوات .

* ومن مظاهر التناصر: التناصر بالمواقف العملية.

والكلمة وإن كانت موقفاً عملياً في بعض الأحيان ؛ إذا كان المطلوب هو موقف بالكلمة لا أكثر ، إلا أن التناصر أبعد من ذلك ، وإذا لم تُشفع وتُتبع المناصرة الكلامية بمواقف عملية ، فإن جدواها تتضاءل ، وقد تتلاشى مع الزمن ، كما أن أعداء الأمة إذا رأوا أن التناصر بين المسلمين لا يتجاوز حدود الكلام والاستنكار ، تجرّءوا ولم يباليوا بأي تهديد بعد ذلك .

ومن هنا ، فإن التناصر بالكلمة - على أهميته - ما هو إلا مقدمة للتناصر بالمواقف العملية ، إذا تطلّب الأمر ذلك .

* والتناصر بالمواقف العملية ذو صور كثيرة ، ولعل من أبرز مظاهره:

التناصر بالمال.

وهو وسيلة من أهم وسائل التناصر في واقع الأمة الإسلامية اليوم .

وهو يعني: بذل وتوفير الأموال اللازمة لسد جوعه الجائعين ، وإيواء المشرّدين وإعمار البلاد المدمرة بسبب الحروب أو الفيضانات .

كما يعني: إعانة المجاهدين في سبيل الله ، وكفائتهم وإمدادهم بالأموال للدفاع عن أنفسهم وردع المعتدي عليهم . ودعم المؤسسات الخيرية الدعوية والتعليمية وغيرها لمواصلة جهودها في نشر الإسلام ومقاومة التنصير ، فإن خذلانها والبخل بالمال عنها ، يرجع بآثار نفسية سيئة على العاملين بها ، ويكرس هاجس القطيعة وروح التخاذل بين المسلمين .

* ومن المظاهر العملية للتناصر: التناصر ببذل الأنفس والأوقات.

وذلك بالقيام بما يلزم في أعمال الإغاثة والتعليم والدعوة إلى الله في المناطق التي تمس الحاجة فيها إلى مثل تلك الجهود ، والتضحية من أجل ذلك بالأوقات واللذات العاجلة ، وتحمل المشاق وركوب الأخطار . . . وكل ذلك من النصر في الدين .

ويصدق ذلك على من نذر نفسه لجمع التبرعات والتنقل من أجل ذلك ، وعلى من تولَّى الإشراف على طباعة الكتب ودعمها ، وعلى من شجع غيره من القادرين على أداء هذه المهمات ، ودعا إلى النفير للإسهام في تنفيذها في أماكن الحاجة إليها .

وأجلى صور التناصر في الدين ، وأعلى صور الجود: بذل المَهَج والأرواح فداءً لدين الله ودفاعاً عن أعراض المسلمين وبلادهم ، جهاداً في سبيل الله حيثما رُفِعَت راية لا إله إلا الله بحق .

ومن جاد بنفسه التي بين جنبيه ، فجوده بما دونها من مال أو ولد أهون وأهون .

يجود بالنفس إن ضنَّ البخیل بما والجود بالنفس أعلى غاية الجود

ومن التاصر: الإيواء ومشاطرة الدور والضياع والأموال إذا لزم الأمر ، واستقبال أطفال المسلمين ومشرديهم ، ومداواة جرحاهم في بلاد المسلمين ، والعناية بهم والإحسان إليهم . وقد امتدح الله الأنصار بهذه الخصال في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَوَانِ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَخَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

وشيء آخر يفترق إليه مشوار الوحدة الإسلامية ، أذكرك به - أخي المسلم - مجرد تذكيراً ، لأنه كثيراً ما ينسى أو لا يؤبه له مع أنه يسير على من يسره الله عليه . فما هو يا مُرِي؟

إنه الالتزام بالسلوك والخلق الإسلامي .

أخي المسلم: اعلم أن التزامك بالسلوك والخلق الإسلامي هو أساس الثقة ، التي هي بوابة التعاون والوحدة .

أنت مسلم ، فلتكن صادقاً أميناً وفاقاً بالعهد ، مخلصاً في عملك ، متقناً لما تكلف به ، نشيطاً متتجاً ، وكن طموحاً بعيد النظر . . . وابتعد عن الاحتيال والرشوة والسرقة والغش ، احذر الكسل وتضييع الأوقات . . . فإن كل خصلة حميدة إيجابية تتحلى بها فهي رصيد للأمة كلها ، وليست لمصلحتك وحدك ، وكل خصلة ذميمة تتصف بها فهي وصمة عار في جبين الأمة كلها ، ولست وحدك الخاسر .

والخلاصة:

إن وحدة الأمة الإسلامية تحت راية واحدة، هي راية الإسلام بمفهومه الشامل مطلب مُلِح، وواجب شرعي لا يجوز إغفاله، ولن تكون أمة الإسلام شيئاً مذكوراً ما لم تكن أمة واحدة، كما أراد لها خالقها وبارئها.. ولم تُنتقص من أطرافها وتذهب ريجها إلا حين استهانت بهذه الرابطة، ومات في حسّ أفرادها الشعور بأهميتها.

وواقعها المؤسف اليوم، مقارناً بماضيها المشرق يؤكد ما ذكرته، وينسف ما سواه من دعاوى التوحيد والوحدة والاجتماع باسم العروبة وباسم الوطن، وتحت راية القومية أو الاشتراكية... فكلها أفلست وتبين عوارها ولم تجن الأمة الإسلامية منها طيلة قرن مضى سوى مزيد من التأخر والتقهقر، والفقر والفوضى، والتشرذم والانقسام.

لقد ملّت الشعوب الإسلامية ومَجّت هذه الشعارات، ودفعت الثمن غالياً، وأدركت خطأها حين أسلمت قيادها لشردمة لا يحملون همومها، بل جعلوها - وما زالوا يجعلونها - كبش الفداء في كل مرة.

ولا أدلّ على ذلك من النتائج المذهلة في استطلاع للرأي في العالم العربي حول الوحدة التي يكون أساسها الإسلام، وأن الإسلام من أهم عوامل الوحدة.

لقد كشفت النتائج «أن تسعة أعشار المبحوثين تؤكد أهمية العامل الإسلامي في الوحدة العربية.. وكانت النتائج على خلاف ما كان يعتقد دعاة العلمانية وآخرون. وفي هذا يقول المشرف على الاستطلاع - وهو علماني على ما يبدو من كتاباته -: أما أكبر المفاجآت الميدانية، فهي التيار الصاعد للدين الإسلامي، وتكوينه للعديد من المواقف والاتجاهات نحو المسائل المتعلقة بالقومية والوحدة العربية»^(١).

فلتبدأ الشعوب الإسلامية مشوار التوحيد باسم الله، وعلى منهاج رسول الله ﷺ، وليرفع رواد الإصلاح راية الوحدة والتعاون في ظل المنهج الحق، وستكفل الجهود بالنجاح بإذن الله تعالى، وسوف تتضاءل قيمة الحدود الجغرافية، والحواجز السياسية المصطنعة. وإن غداً لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

(١) بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة، ص ١٢٢، ١٢٣ بتصرف. وقد نقل الكاتب تفاصيل الاستطلاع نقلاً عن: ندوة القومية العربية في الفكر والممارسة، ص ١٣٤، ١٤٠، وقد مضى على وقائع هذه الندوة أكثر من عشرين عاماً؛ أي أنها كانت في زمن المد القومي، وأظن أن نتائج مثل هذه الندوة لو عقدت في أيامنا هذه ستكون مفاجأة مذهلة حقاً للقوميين وأشباههم!

* وفي الختام أقول لطلائع الأمة ورواد الإصلاح فيها، مبشراً ومشجعاً:

إن الأمة الإسلامية اليوم، تختلف اختلافاً كبيراً عنها قبل قرن أو نصف قرن من الزمان، نتيجة الضربات المتوالية عليها، ونتيجة الجهود الإصلاحية الجبارة التي بُذلت لإصلاحها.

فالأمة اليوم - على مستوى الشعوب - قد خطت خطوات طيبة وإيجابية في كل ميدان.. لقد كثرت الطبقة الواعية بين صفوف أبنائها ومثقفها.

وظهرت حقيقة الغرب الصليبي وجليه أمره لدى كثيرين من أبناء الأمة وعامتها، وخصوصاً ما يتعلق بدعوى حماية حريات الشعوب، وخرافة حقوق الإنسان، وهما أخطر شعارين غررا بسواد الناس من المحرومين المظلومين، ومن المخدوعين من المسلمين.

وانهارت الشعارات المحلية المستوردة؛ كالقومية والاشتراكية والعلمانية، ولفظتها الأمة وبطل سحرها، ولم تعد تمثل سوى أفراد منبذين من الأمة^(١)، وإن كانوا يتربعون على عروش قيادتها، محتمين من شعوبهم بقوة الحديد والنار. ومساندة اليهود والنصارى الصليبيين.

وأطلت تباشير العودة إلى دين الله والالتزام بشريعته والمطالبة بتحكيمها، بعد طول سباتٍ وسُكرٍ وغفلة، وهي عودة شملت كل أرجاء العالم الإسلامي بمختلف فئاته، وكانت الانتخابات الجزائرية الأخيرة، وفوز جبهة الإنقاذ الإسلامية بأكثر من ٨٠٪ من الأصوات، أحد الأدلة على صدق تلك العودة. وكان فوز الاتجاه الإسلامي في تركيا العلمانية، وفلسطين المحتلة دليلاً آخر

إنها بحق صحوة عامة، لم تفرض على الشعوب فرضاً، وإنما اختارتها اختياراً، إنها إرادة الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) انظر: دفاع عن ثقافتنا، ص ٤٥ وما بعدها، حول اعترافات أحد أساطين العلمانية/فؤاد زكريا بفشل العلمانية، وغربة أنصارها، وأنهم لا يملكون مشروعاً حضارياً للأمة، وإنما يجمعهم شيء واحد، هو رفض المشروع الإسلامي المطروح لحل أزمة الأمة.

لقد تجاوزت هذه الصحوة فترة المخاض وولدت بالفعل، بل لقد كبر الجنين، وأفرغ الغرب وأولياءه وعبيده في الشرق، وهامهم أولاء يحاولون عبثاً قتله أو حبسه أو شل حركته.

وبدأت روح الأمة الواحدة تسري في دماء الشعوب الإسلامية بجماعة، على مستوى الكلمة، وعلى مستوى المواقف.

وما الجهاد الأفغاني، وما الأحداث الدامية في البوسنة والهرسك، وفي الصومال، والشيشان، وفي أماكن أخرى من جسم الأمة المكلم، إلا نماذج أكدت صدق هذه البداية. على ما في تلك التجارب من أخطاء وتجاوزات مقلقة، أخطرها الغلو في التفكير، والجرأة على المسلمين المخالفين في التفكير والمواقف، وتلك يجب حسمها وتداركها قبل أن تأتي على ثمرات هذا الانبعاث المبارك.

بل إن مستوى التفاعل مع أحداث الأمة، والدعم السخي لقضاياها تضاعف مرات كثيرة عن أي وقت مضى. وهو شاهد آخر على هذه الحقيقة^(١).

أقول: إن هذه البدايات المبشرة، لتعطي أملاً قوياً في مواصلة المشوار، وتستوجب منا مضاعفة الجهد ووصل اللاحق بالسابق، وتصحيح المسار ورتق الفتوق، وإتمام البناء لا هدمه.

إن الهجمة على الإسلام والمسلمين، خصوصاً الدعاة الصادقين والحركات التصحيحية المنضبطة بضوابط الشريعة شرسة مركزة، وتتعاون فيها قوى ضخمة في كل مكان، ولكن ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَلَيْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤].

﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

(١) انظر: بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، ص ١٢١ وما بعدها.

﴿وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].
والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه، وعلى من اتبعهم وسار على منهاجهم إلى يوم الدين.

خاتمة الكتاب

وفي كنفها أحط الرّحال بعد رحلة شائقة، دليلها كتاب الله، وميدانها تاريخ العالم، وهدفها التعرف على سنن الله في الأمم، والتأمل في عظيم حكمة الله وسعة علمه وباهر قدرته في إحكام نظام هذا الكون، بما فيه ومن فيه .

هنا في خاتمة هذا الكتاب ألقى عصا التسيار، لأتأمل في دفتر رحلتي، وأنثر كنانتي، لأخص لك - أخي القارئ - خلاصة ما بدا لي أنه ثمرة من ثمرات هذا الجهد المحدود، ونتيجة من نتائج السير والتأمل .

وسأحرص على أن تكون هذه الخاتمة جامعة بين خلاصة النتائج العلمية، والمقترحات العملية، كما توخيت ذلك في صلب الكتاب .

هاهي بين يديك . . خذها في النقاط التالية:

أولاً: كتاب الله تعالى مشتمل على كل أصول السنن التي تنظم حياة الأمم والجماعات، متضمن لكثير من تفصيلاتها العلمية والعملية.

ولم يكن يخطر ببالي قبل معالجة هذا الموضوع أن في القرآن الكريم كل هذا البيان والتفصيل لهذا الجانب الحيوي، ذي الأهمية البالغة في حياة الأمم .

وأقول: إن ما كنتُ أعيشه من غفلة وذهول، جعلني أنبهر حقاً عندما تكشّف لي جانب محدود من هذه الرؤية الشاملة الكاملة . وأظنّ أن حال الكثيرين من المسلمين يشبه حالي، وهذا أحد عيوبنا ولا شك، وإئنه للدليل قاطع على مبلغ هجرنا لكتاب الله، وإعراضنا عن تأمله وتدبره، وتعلّم معانيه وفقهها، والاهتداء بهديه والعمل بما فيه .

والقرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن أقبل عليه بكلية، ونظر فيه نظر الراغب في التعلم والاتباع، لا نظر المستغني عن ما فيه من هداية، ولا نظر المتحدلق المتفهيق .

إنّ «القرآن كتاب يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبيّن الحضارة . هذه قدرته . . هذه طاقته . . فأمّا أن يفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأنّ الأبصار مغلقة، فالعيب

عيب الأبصار التي أبت أن تتفتح بالنور، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿

هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن، لا تعرف عنه شيئاً.

والسبب: أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن، وفاقد الشيء لا يعطيه»^(١).

ثانياً: سنن الله في الأمم، تشبه السنن الكونية في صرامتها واطرادها، ومع ذلك فهي متميزة عن السنن التي تحكم الكون المادي تميزاً واضحاً، يوازي الفروق بين طبيعة الإنسان وطبيعة المادة. فلإنسان سنن تليق به وتناسبه، وللكون المادي سنن تخصه وتلائمه، وإن كان كل منهما غاية في الدقة والإحكام.

وقد عني القرآن ببيان السنن المتعلقة بالإنسان بصورة أكبر؛ لأن نعمة هذا الإنسان وفوزه في الدنيا والآخرة متعلق بمعرفته لهذه السنن، ومراعاتها، في حين أن غاية ما يفقده عند خفاء بعض السنن المتعلقة بالكون المادي هو أن تتخلف بعض مظاهر النعيم وأشياء الحياة التي يسير فيها أمور دنياه.

ومن الجهل والعبث أن يعامل الإنسان على أن شيء يشبه الحيوان أو الجماد، وأن يعامل بغير ما جعل الله له من سنن تنظم حياته وتصلح شئونه.

وخطيئة الجاهلية الكبرى أنها لم تفرق بين الإنسان والمادة، في أخص خصائص الإنسان؛ وهي إنسانيته وكونه عبداً لا يصلحه إلا الإقرار بالعبودية لله.

ثالثاً: وهناك فروق بين السنن التي تحكم الأفراد والسنن التي تحكم الأمم والجماعات.. فروق في كيفية عمل السنن، وفروق في كيفية الجزاء.

وهذه الفروق منسجمة تماماً مع وظائف كل منهما، وامتداده في الزمان والمكان. ويخطئ من يضع الخطط لإصلاح الأمم، ويقيس النتائج كما لو كان يتعامل مع أفراد، ينتهي كل شيء بنهايتهم.

رابعاً: للسنن الإلهية من الثبات والاطراد والعموم ما يجعل للتاريخ ولتجارب الأمم - كل الأمم - قيمة كبرى، باعتبارها تجارب بشرية خاضعة لمعايير ثابتة.

(١) كيف تتعامل مع القرآن، مذاكرة أجزاها الأستاذ/ عمر عبيد حسنة مع الشيخ محمد الغزالي، ص ٣١.

ويخطئ من يظن أن التاريخ لا يعيد نفسه بهذا الاعتبار، وأنه يمكن أن تتوقف حركته لصالح أمة أو طائفة، مغترأ بما هو فيه من إمكانات وظروف مواتية. ويخطئ هؤلاء ثانية عندما يبحثون عن حل مشكلاتنا خارج إطار السنن.

واختصاص المسلمين بنوع من السنن، واختصاص الكافرين بنوع آخر، هو محدود، وهو راجع في حقيقته إلى اختلاف أحوال الفريقين، .. وأكثر السنن هي قوانين يخضع لها الجميع .. فالاختصاص الجزئي ليس انحرافاً في قانون السنن، أو نقضاً لخصائصها.

خامساً: السنن الإلهية في حياة الأمم منظومة واحدة، يؤثر بعضها في بعض، تماماً كالإنسان نفسه، وكل قصور أو تقصير في جانب من الجوانب سوف يترك أثراً ما على الجوانب الأخرى، وإن خيل لأكثر الناس أن هذا ليس بلازم.

وهي تؤكد لنا أن عملية الإصلاح لا يمكن أن تكون ناجحة مشمرة، إلا إذا كانت شاملة متكاملة.

وإذن، فلا مكان للحلول الجزئية أو التلقيفية، وإن أغرت بنجاح عاجل؛ لأنها ستطيل من أمد المعاناة، وتضيق الجهد والوقت، دون ثمرة تكافئ ذلك.

والسبب: هو أنها تصادم طبيعة السنن وما هو من خصائصها.

الإصلاح الذي تهدي إليه السنن هو الذي تمثل في أكمل صورته على يدي النبي ﷺ وصحابته من بعده. إصلاح لشئون الناس الدينية والدنيوية، ولكل طبقاتهم من الراعي والرعية.

سادساً: ليس في حياة الأمم زاوية مظلمة مهجورة، لا تشملها السنن، وليس هناك لحظة أو ظرف يكون فيه الإنسان في حالة تمرّد على سلطاتها.

فالأمة منذ أن تتكون، فالسنن تعمل فيها. إلى أن تأتي اللحظة التي تخرج فيها الأمة من ساحة التاريخ، بالفناء والهلاك، أو التشرذم والتمزق، واستحالة الكيان الجماعي إلى أفراد ضمن تجمعات أخرى.

وما يجري للأمة من تقلب في الأحوال، ومن إقبال وإدبار؛ كالنصر والهزيمة، والتمكين والاستدلال، وأنواع الابتلاءات بالخير والشر... كل ذلك خاضع للسنن، مقدّرٌ بحكمة وعلم.

سابعاً: سنن الله في الأمم تؤكد أن تاريخ البشرية هو تاريخ المدافعة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين معسكر الإيمان ومعسكر الشيطان.

وتكشف سنن الله في هذا الباب ، عن حقائق ضخمة ، لا يمكن نقضها ولا تجاهلها .
ومن أبرزها :

* أن القيمة الكبرى في هذا الوجود ، هي قيمة الإيمان ، وأن هذا الإيمان متميز .
متميز في تحقيق الطمأنينة والسكينة في القلوب ، والقوة والثبات في الأبدان والمواقف .
متميز في إحراز النصر ، برغم قلة العدد وعدم تكافؤ العدد . متميز في أن سنن الكون
المادي تنخرق لصالح أهله . متميز في أن الدولة له في نهاية المعركة .

* وأن المدافعة لا يمكن أن تتوقف ، وأن الباطل لا يمكن أن يكف عن منازلة الحق
بكل وسيلة وفي كل ميدان .

* وأن الباطل أكثر عدداً وأتباعاً ، وأشدّ تمكناً من قوى الأرض . ومع ذلك ، فإنه
ينهزم أمام قوة الحق وجند الإيمان الصادقين .

* وأن الأمم - إلا من رحم الله منها - لا تنتفع - عادة - بالنذر والآيات ، ولا ترجع
عما هي فيه من الكفر والطغيان ، ولا تعتبر أمة بأخرى ، رغم تكرار المواقف وتشابه
الأسباب ، ولهذا تتكرر مشاهد الإهلاك والتدمير في جانب الكافرين ، ومظاهر الإنجاء
وحسن العاقبة في جانب المؤمنين .

ثامناً: أن صلاح أحوال الأمم واستقامتها مرهونٌ بتحقيق أمرين:

الأول: وجود المصلحين، وهم الأنبياء وأتباعهم على طريقتهم في كل أمة.

الثاني: استعداد الأمة للإصلاح، وذلك بانقيادها لهؤلاء الناصحين في فعل ما يأمرون به
والإنتهاء عما يهون عنه، بغض النظر عن المستفيد والمتضرر.

تاسعاً: فقه سنن الله في الأمم، وما يقتضيه ذلك الفقه من خطوات ووسائل وأسباب..

ضرورة لازمة، وخطوة أولى لكل من يروم إصلاح الأحوال.

وكل من يهون من شأن هذا الفقه ، تحت أي دعوى أو تعليل ، فخبرته في باب
الإصلاح محدودة ناقصة ، وسوف يدفع وتدفع الأمة معه الثمن غالباً .

عاشراً: إن أعظم وأنفع باب نلج منه لاستصلاح أحوال الأمم، هو نشر العلم النافع،
والتدريب على ممارسة العمل الصالح، بالمعنى الأعم للعلم النافع والعمل الصالح.

حادي عشر: المحافظة على مكاسب الأمة وضمّان استمرار عطائها، هو ثمرة الإصلاح،
وهو أمرٌ في غاية الصعوبة.

ولذلك كان سبب فشل تجارب الأمم وهلاكها ، راجعاً إلى أحد أمرين:

إمّا عدم قبول خطوات الإصلاح ابتداءً ، أو عدم حمايتها والصبر عليها استمراراً .

ثاني عشر: لا يحفظ حقوق الأمة الإسلامية ويمنعها ما تستحق من حرية وكرامة وعزة ويقي على عنصر الخير فيها شيء كالوعي بما لها وما عليها، وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، فهما قطب رحى أسباب البقاء، وعنوان عزة الأمة وكرامتها.

وعلى ضوء ما سبق ، فإنني أود طرح بعض المقترحات العملية ؛ رجاء أن تلقى - أو شيء منها - قبولاً ، فأكون شريكاً في الأجر والثواب . ومنها:

* أن ميدان الدراسات السننية ما يزال عندنا نحن المسلمين بكرةً ، وخصوصاً الدراسات المرتبطة بكتاب الله - تعالى - بصورة مباشرة .

ومن هنا ، فإنني أقترح أن تُنارَ عدد من القضايا التي تهم الأمة ويستكتب فيها القادرون من الباحثين والدارسين وغيرهم .

وتكون إثارتها عن طريق وضع تصور مبدئي لكل فكرة ، وتحديد لأهم الأهداف المتوخاة من مدارستها ، ونشر هذه التصورات في مقالات وكتيبات .

وقد حاولت في هذا الكتاب ، أن أقدم نماذج مصغرة لما أعنيه ، منها مثلاً: مبحث «التمكين والاستخلاف وعوامل البقاء» ، ومبحث «ابتلاء الأم بالسراء والضراء وموقفها من ذلك» . ومبحث «لا يستوي الخبيث والطيب» . ومبحث «الملا ظاهرة تتكرر» ، أو دراسة لأحوال القلة والكثرة .. ونحوها .

وهي - أعني القضايا - كثيرة ، ويمكن أن تعالج مختلف جوانب حياة الأمة ، من منطلق السنن والقانون الإلهي .

* وأن يكون هناك خطة متكاملة لطرح عدد من القضايا في المحاضرات العامة والدروس ، وأن يوليها العلماء وطلاب العلم عناية خاصة .

* وأن تُراجَعَ منهج التفسير في الجامعات ، لتولي الآيات المتضمنة لعرض سنن الله في الأمم مزيد عناية ، فإنَّ حال أكثر المناهج هو تكرار لآيات الأحكام ، التي يتناولها الطلاب بصورة متخصصة في مادة الفقه ، وشبه متخصصة في مادة الحديث .

* وأن يُفَسَّحَ للتفسير الموضوعي مكان مستقل في محاضرات التفسير ، بحيث يكون مادة قائمة برأسها ، وأن تكون مادته دراسة وبيان مثل هذه القضايا ، وأن توجّه عناية الدارسين فيه إلى معالجة مثل هذه الموضوعات .

* وأن تكون البحوث الفصلية في قسم القرآن وعلومه مما يُعنى بهذه الجوانب .
والعجيب أنك ترى - أحياناً - بحثاً تكاد تكون عديمة الجدوى ، يشغل بها الطلاب ،
وتستنزف أوقات الأساتذة ، وحصيلتها العلمية والتربوية محدودة جداً ، ولا شك أن هذا
من الغفلة والضمور في البحث ، وإهمال التجديد ، والتشبث بإعادة موضوعات قد
تكون بحثت مراراً .

ثالث عشر: وأخيراً أختتم هذه النقاط، بهذه الوصية والتبیه، فأقول:

إن حجر الزاوية في تحقيق ما نصبو إليه هو التعاون بين العلماء وطلاب العلم
وعموم العاملين في حقل الدعوة إلى الله ، واجتماع كلمتهم ، وانضوائهم تحت راية أهل
السنة والجماعة ، وعلى منهج خير القرون ، وأن يستشعروا الخطر المحدق بهم ، وألا
يجعلوا خصومتهم فيما بينهم ، فإن اجتماع كلمتهم مقدمة لاجتماع كلمة الأمة ، وتفرقهم
سبب لتشرذم الأمة وتناحرها فيما بينها .

وأن يدركوا جيداً أن مقولة: «إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلُ الثَّورَ الْأَبْيَضَ» لا تنفذ اليوم على
أحد كما تنفذ عليهم ، فليتقوا الله ، وليعرفوا للعلم الذي يحملون قدره ، وللدين الذي
يتكلمون باسمه حرمة ومكانته .

والحمد لله رب العالمين والعاقة للمتقين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس المراجع

(أ)

- ١- التربية في ألمانيا الغربية نزوع نحو التفوق والامتياز، تأليف: هانز ج. لينجتز وزميله، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد العليم مرسي.
- ٢- أحكام القرآن، لابن العربي، بقلم المحقق.
- ٣- إخراج الأُمَّة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها، للدكتور/ ماجد عرسان الكيلاني.
- ٤- أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر فياض العلواني، عن كتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الخلفاء»، لابن عبد البر القرطبي.
- ٥- أزمة المثقفين تجاه الإسلام، للدكتور/ محسن عبد الحميد.
- ٦- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد محمد كنعان.
- ٧- أساس البلاغة، للزخشيري.
- ٨- الإسلام اليوم للأستاذ/ أبي الأعلى المودودي.
- ٩- الإسلام والحضارة العربية، تأليف: محمد كرد علي.
- ١٠- الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، من بحث للأستاذ/ عثمان أوزمترك، بعنوان: «الصراع على تبنى الحضارة والثقافة الغربية في تركيا الإسلامية».
- ١١- أضواء البيان للشيخ/ عطية محمد سالم.
- ١٢- أقسام القرآن، لابن القيم.
- ١٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ١٤- الإنسان ذلك المجهول، للدكتور/ الكسيس كاريل. تعريب: شفيق أسعد فريد.
- ١٥- أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني.
- ١٦- آداب اللغة. انظر: تاريخ آداب اللغة.
- ١٧- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، على هامش الإصابة لابن حجر، ط. المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.
- ١٨- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري، ط. دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- ١٩- أسماء مؤلفات ابن تيمية، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، ط. دمشق، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

- ٢٠- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط. المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.
- ٢١- الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٣ - ١٣٧٨هـ / ١٩٥٤ - ١٩٥٩م.
- ٢٢- الإعلام بمناب الإسلام (مجموعة تراثنا)، لمحمد بن يوسف العامري، تحقيق الدكتور: أحمد عبد الحميد غراب، ط. القاهرة، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م.
- ٢٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
(ب)
- ٢٤- البداية والنهاية في التاريخ، لإسماعيل بن عمر بن كثير، ط. السعادة، القاهرة، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.
- ٢٥- البرهان في أصول الفقه، للجويني. تحقيق الدكتور: عبد العظيم الديب، الدوحة، قطر، ١٣٩٩هـ.
- ٢٦- بروكلمان، انظر: المراجع الأجنبية، GAL.
- ٢٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- ٢٨- بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي.
- ٢٩- بناء الأمة بين الإسلام والفكر المعاصر، للدكتور/ فاروق حمادة.
(ت)
- ٣٠- تاريخ ابن خلدون.
- ٣١- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي.
- ٣٢- تأويل مشكل القرآن.
- ٣٣- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦ - ١٣٠٧هـ.
- ٣٤- تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، ط. القاهرة، ١٢٨٢هـ.
- ٣٥- تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، القاهرة، ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م.
- ٣٦- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المعارف، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٣م.
- ٣٧- التحدي الحضاري وكيف نواجهه، بحث للدكتور/ محمود محمد سفر.

- ٣٨- التربية في اليابان المعاصرة ، تأليف: إدوارد ز بو شامب ، ترجمة وتعليق: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي .
- ٣٩- التربية وقضايا الطاقة ، تأليف: رودني ف . ألن . ترجمة: الدكتور/ محمد عبد العليم مرسي .
- ٤٠- التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب .
- ٤١- تفسير التاريخ علم إسلامي ، د . عبد الحلیم عويس .
- ٤٢- تفسير التاريخ ، لعبد الحميد صديقي ، ترجمة: د/ كاظم الجوادي .
- ٤٣- تفسير التحرير والتنوير .
- ٤٤- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا .
- ٤٥- تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ، ط . المنار ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .
- ٤٦- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر ، مراجعة: الشيخ أحمد محمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة .
- ٤٧- تفسير الطبري ، ط . بولاق ، القاهرة ، ١٣٢٣هـ .
- ٤٨- تفسير القرآن العظيم ، طبعة أخرى ، هي طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .
- ٤٩- التنبيه والإشراف ، للمسعودي .
- ٥٠- تذييب الأسماء واللغات ، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي ، ط . المنيرية ، بدون تاريخ .
- ٥١- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، ط . حيدرآباد ، ١٣٢٥-١٣٢٧هـ .
- ٥٢- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد .
- (ج)
- ٥٣- جامع الرسائل ، لابن تيمية ، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم ، ط . المدني ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- ٥٤- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، لجلال الدين السيوطي ، ط . مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .
- ٥٥- الجامع الكبير = جمع الجوامع ، لجلال الدين السيوطي ، نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٥٦- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد القرطبي = تفسير القرطبي، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

٥٧- جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، تأليف: جمال سلطان.

(ح)

٥٨- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لأدم متر، نقله إلى العربية: الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

٥٩- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.

(خ)

٦٠- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ، ط. الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ.

(د)

٦١- دراسة في البناء الحضاري، د. محمود محمد سفر (مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حسنة).

٦٢- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

٦٣- ديوان أبي تمام، تحقيق الدكتور: شاهين عطية، طبعة لبنان، طبعة أولى، ١٩٦٨م.

٦٤- ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، تحقيق الدكتور: شكري فيصل، ط. دار الفكر، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٦٥- ديوان الأعشى الكبير.

٦٦- ديوان الحماسة، لأبي تمام.

٦٧- درس النكبة الثانية، يوسف القرضاوي.

(ذ)

٦٨- ذكريات، علي الطنطاوي.

٦٩- الدليل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط. السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م.

(ر)

٧٠- رجال صحيح البخاري لأحمد بن محمد البخاري الكلاباذي، تحقيق: عبد الله الليثي (بيروت، دار المعرفة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - توزيع دار الباز مكة المكرمة).

٧١- رجال صحيح مسلم لأحمد بن علي منجوية، تحقيق: عبد الله الليثي (بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، توزيع دار الباز بمكة المكرمة).

(ز)

- ٧٢- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ: محمد حامد الفقي، ط .
السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

(س)

- ٧٣- سنن الله في المجتمع، للدكتور/ محمد الصادق عرجون .
٧٤- سنن ابن ماجه (أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني)، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد
الباقي، ط . عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .
٧٥- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: الأستاذ محمد محيي
الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٦٩- ١٣٧٠هـ /
١٩٥٠- ١٩٥١م .
٧٦- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (بشرح ابن العربي)، ط .
المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م .
٧٧- سنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، ط . دمشق،
١٣٤٩هـ .
٧٨- سنن النسائي (المجتبى)، للحافظ أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي، ومعه شرحه: زهر
الربي على المجتبى، للحافظ جلال الدين السيوطي، ط . مصطفى الحلبي، القاهرة،
١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
٧٩- سنن الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، إعداد
الطالب/ عبد السلام نصر الله الشريف .
٨٠- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية .
٨١- سير أعلام النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، يخرجه معهد المخطوطات بالجامعة
العربية، ط . المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م .
٨٢- السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق: الدكتور مصطفى عبد الواحد، ط . عيسى الحلبي،
القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
٨٣- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام، تحقيق: الأستاذ مصطفى السقا وآخرين، ط .
مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

(ش)

- ٨٤- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م .
٨٥- شرح السنة، بقلم المحقق .
٨٦- شرح المعلقات السبع، للزوزني .

٨٧- شعر الهذليين .

(ص)

- ٨٨- الصحاح، للجوهري، انظر: تاج اللغة .
- ٨٩- صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي، الجزء الأول، تحقيق: الشيخ أحمد شاکر، ط. المعارف، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .
- ٩٠- صحيح البخاري، صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني، تحقيق الشيخ ابن باز، (طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) .
- ٩١- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى الحلبي، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ٩٢- صحيح ابن خزيمة (بيروت، المكتب الإسلام، طبع ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) .
- ٩٣- صحيح سنن أبي داود للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، توزيع المكتب الإسلامي في بيروت) .
- ٩٤- صحيح مسلم بشرح النووي (بيروت، دار الفكر، طبع عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .

(ض)

٩٥- ضوابط للدراسات الفقهية، لسلمان العودة .

(ط)

- ٩٦- طبقات الحفاظ، للذهبي، ط. جوتنجن، ١٣٨٣هـ .
- ٩٧- الطبقات الكبرى، لابن سعد بن منيع البصري الزهري، ط. بيروت، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .
- ٩٨- طبقات المفسرين، للداودي .

(ع)

- ٩٩- عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر، للدكتور/ عبد الله عزام .
- ١٠٠- العلمانية، للدكتور/ سفر الحوالي .
- ١٠١- على مشارف القرن الخامس عشر - دراسة للسنن الإلهية .

(ف)

- ١٠٢- فتاوى الرياض = مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم وابنه محمد، طبعت في ٣٧ جزءاً، ط. الرياض، ١٣٨١ - ١٣٨٩هـ .
- ١٠٣- فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز، ط. المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ .

- ١٠٤- الفتح الرباني، تأليف أحمد عبدالرحمن البنا، (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى).
- ١٠٥- الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، للدكتور/ محمد البهي.
- ١٠٦- فكرة التاريخ، ر. ج. كولنجود، ترجمة: محمد بكير خليل.
- ١٠٧- الفهرست، لابن النديم، ط. التجارية، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.
- طبعة أخرى: تحقيق: جوستاف فلوجل (مصورة عن طبعة ليزنج، ألمانيا، ١٨٧١ م)، ط. بيروت، ١٩٦٤ م.

(ق)

- ١٠٨- القاموس المحيط، نجد الدين الفيروزآبادي، ط. المطبعة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٥ م.

(ك)

- ١٠٩- كتاب الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة: مساعد ومحب الدين الخطيب.
- ١١٠- كتاب سيويه، تحقيق: عبد السلام هارون.
- ١١١- الكشاف، للزمخشري (١/٤٦٥).
- ١١٢- كلمة في تعليل التاريخ، لعمر فروخ.
- ١١٣- كثر العمال، لعلاء الدين البرهان فوري.
- ١١٤- كيف نفهم التاريخ، للويس جوتشلك.

(ل)

- ١١٥- لسان العرب = اللسان للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (بيروت، دار صادر، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم).

(م)

- ١١٦- ماهية الحضارة وموقع الحضارة الإسلامية، بحث للشيخ عثمان عبد القادر صافي.
- ١١٧- مجلة (المسلم المعاصر)، عدد (٧)، لسنة (١٣٩٦ هـ).
- ١١٨- محاسن التأويل، للقاسمي.
- ١١٩- المحرر الوجيز، لابن عطية.
- ١٢٠- المدرسة القرآنية، لباقر الصدر.
- ١٢١- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، للدكتور/ محسن عبد الحميد.
- ١٢٢- المسائل التي لحصها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من فتاوى ابن تيمية.

- ١٢٣- مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، بشرح: محمود شكري الألويسي .
- ١٢٤- معجم الشعراء، للمرزباني .
- ١٢٥- المعجم، لابن الأبار .
- ١٢٦- مغني اللبيب، لابن هشام .
- ١٢٧- المفردات للراغب الأصفهاني .
- ١٢٨- ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، للمفكر: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين .
- ١٢٩- ماذا خسر العالم بالمخطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي .
- ١٣٠- مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية (نشر دار الباز، مكة، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت) .
- ١٣١- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (بيروت، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ) .
- ١٣٢- المسند، لأحمد بن حنبل، تحقيق: الأستاذ الشيخ أحمد شاکر، ط. المعارف، القاهرة، ١٣٦٥-١٣٧٤هـ / ١٩٤٦-١٩٥٥م .
- ١٣٣- الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

(ن)

- ١٣٤- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي .
- ١٣٥- نيل الأوطار، للشوكاني .

(و)

- ١٣٦- وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، للدكتور/ محمد سلام مذكور .
- ١٣٧- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - دراسة وموازنة، للدكتور/ سليمان بن صالح القرعاوي .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٥	التمهيد
١٧	المبحث الأول: التعريف بالعنوان وشرح مدلوله
٢٤	المبحث الثاني: الفرق بين سنن الله في الأمم وسننه في الكون المادي
٣٢	المبحث الثالث: الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم
٤٨	المبحث الرابع: أهمية معرفة السنن ودراستها
٦٧	الباب الأول: خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن في عرضها
٦٩	الفصل الأول: خصائص سنن الله في الأمم
٦٩	تمهيد
٧١	الخاصية الأولى والثانية: الثبات والاطراد
٨٢	الخاصية الثالثة: خاصية العموم والشمول
٩٠	الخاصية الرابعة: انطباقها على الأمم والأقوام دون الأفراد
٩٩	الخاصية الخامسة: نتائج هذه السنن تتحقق في الدنيا قبل الآخرة
١٠٤	الخاصية السادسة: أنها سنن مرتبطة بالكسب البشري
١٠٩	الخاصية السابعة: السنن منظومة واحدة
١١٧	الفصل الثاني: منهج القرآن في عرض سنن الله في الأمم
١١٩	وفيه تمهيد ومبحثان:
١٢١	المبحث الأول: في الأسلوب والصياغة
١٣٢	المبحث الثاني: في طريقة العرض
١٣٣	المطلب الأول: في ذكر المناسبات والأحداث والسياقات التي يعرض القرآن السنن من خلالها

- ١٥٧ - عرض السنن في سياق الأحكام
المطلب الثاني: في ذكر المؤثرات التي يحشدها القرآن وهو يعرض هذه
- ١٦٦ السنن
- ١٩٥ الباب الثاني: مجالات سنن الله في الأمم
- ١٩٧ تمهيد ومقدمة
- المبحث الأول: في الأسس التي لا بد منها لتكون الأمة وتأهلها لممارسة.
- ١٩٩ الحياة بوصفها أمة
- والمبحث الثاني: في الوسائل والأسباب التي أقام الله بها حجته على
هذه الأمم
- ٢٠٢
- ٢١٩ الفصل الأول: مجال الحماية والوقاية
- ٢٢٦ - سنة التدافع في الحياة والمدافعة بين الحق والباطل
- ٢٣٩ - إن الله يدافع عن الذين آمنوا
- ٢٥٥ - سنة الله في المنصر والهزيمة
- ٢٥٨ - العوامل المعنوية في النصر والهزيمة
- ٢٧٣ - الأسباب المادية للنصر
- سنة الله في التمكين والاستخلاف في الأرض وعوامل
- ٢٧٩ بقاء الأمم
- إصلاح النفوس والأوضاع البشرية بالأديان والشرائع
- ٢٨٨ الإلهية
- ٣٠٦ - المصلحون الربانيون شرط في إصلاح الأمم
- ٣١١ الفصل الثاني: مجال الابتلاء والتمحيص
- ٣١٢ - ابتلاء الأمم بالسراء والضراء وموقفهم من ذلك
- ٣٢٥ الفصل الثالث: مجال التحذير والتهديد
- ٣٣٩ الفصل الرابع: مجال الجزاء

- ٣٥٩ الفصل الخامس: مجال الكشف والإبانة
- ٣٦٠ المبحث الأول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾
- ٣٨٠ المبحث الثاني: ﴿تَشَبَّهتْ قُلُوبُهُمْ﴾
- ٣٨٥ المبحث الثالث: طبيعة الإيمان.
- ٣٩٥ المبحث الرابع: الملأ في الأمم
- ٤٢٣ الباب الثالث: آثار رعاية السنن
- ٤٢٥ تمهيد
- ٤٢٩ الفصل الأول: آثار رعاية السنن
وفيه مبحثان:
- المبحث الأول: واقع الأمة الإسلامية في الأمم الجاهلية. [الأثار
الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة
الإسلامية في القرون الأولى]
- ٤٣١ — معنى الحياة في ظل واحة الإسلام
- ٤٤١ المبحث الثاني: الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب المادية والمدنية).
[الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة]
- ٤٦٧ الفصل الثاني: عواقب الإعراض عن السنن
- ٤٨٥ تمهيد
- ٤٨٨ المبحث الأول: الأمة الإسلامية في واقعها المعاصر
- ٥٢٩ المبحث الثاني: واقع الأمم الجاهلية المعاصرة (في الجوانب الإنسانية)
- ٥٥٣ الباب الرابع: طريق الخلاص
- ٥٥٥ تمهيد (بين يدي الباب)
- ٥٦١ الفصل الأول: فقه السنن
- ٥٦٩ المبحث الأول: فقه الواقعة (أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة)
- ٥٩٣ المبحث الثاني: فقه الخروج من الأزمة (الخلاص منها)

الصفحة

الموضوع

٦١٩ الفصل الثاني: التفاعل مع السنن وتطبيقها

٦٦٧ الفصل الثالث: ضمان الاستمرار

٧١٥ خاتمة الكتاب

٧٢١ مراجع الكتاب

٧٢٩ فهارس الموضوعات
